

عن

حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تحقيق وتعليق ودراسة

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي

أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

الجزء الأول

مكتبة العبيكان

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩





ترجمة جار الله الزمخشري

توطئة:

إن مما لا شك فيه أن معرفة العلماء ـ خاصة المصنفين منهم ـ تساعد على فهم تلك العقلية التي أبدعت وأخرجت هذا النتاج التراثي؛ فقد نقل عن الخطيب البغدادي قوله: «إن مَنْ صَنَّفَ فَقَدْ عَرَضَ عَقْلَهُ عَلَىٰ طَبَقٍ».

ومعرفة المصنف تتشعب حتى تشمل مولده ونشأته، والمراحل المختلفة في جوانب حياته من طلبه العلم وسماعه ورحلته، إلى بلوغه مرتبة الشيوخ، وَصُنْعِ العلماء، إلى مرحلة تصنيفه وتخليد اسمه بتراث يعيش بقدر صلاح نيته؛ قال الشاعر: [من الرمل]

إنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ رَوَىٰ

وإن مما يساعد على فهم الشخصية المترجم لها ـ معرفة أحوال العصر الذي عاش فيه وعايشه؛ فإن الإنسان يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه؛ فالإنسان مدني بطبعه.

ولذا كان من اللازب أن أقدم بين يدي الترجمة بالحديث عن عصر الزمخشري:

إضاءة على عصر الزمخشري

عاش جار الله في الثلث الأخير من القرن الخامس والثلث الأول من القرن السادس الهجريين، وهذا يجعلنا نتحدث عن عدة نواحٍ:

أولاً: الحالة السياسية لعصر الزمخشري

كانت تلك الفترة من التاريخ فترة ضعف وفتور للخلافة العباسية، بعد رحلة طويلة من الصراعات، فلم يبق من خلافة بني العباس إلا مجرد رموز يشار بها إليها.

ومما يدل على هذا التفكك أنَّا وجدنا عدد الذين استخلفوا من العباسيين في زمن وحياة الزمخشري قد بلغ خمسةً من الخلفاء، وهم:

١ ـ المقتدي بالله: عبد بن محمد بن القائم (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ).

٢ ـ المستظهر بالله: أحمد بن المقتدى (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ).

٣ ـ المسترشد بالله: الفضل بن المستظهر (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ).

٤ ـ الراشد بالله: المنصور بن المسترشد (٥٢٩ ـ ٥٢٩هـ).

٥ ـ المقتفي بالله: محمد بن المستظهر (٥٢٩ ـ ٥٥٥هـ).

ونتيجة لهذا التفكك والانحلال ظهرت دويلات إسلامية حاولت خلع ربقة التقيد بالخلافة العباسية؛ ففي «خوارزم» مسقط رأس جار الله وجدنا دولة عرفت بـ«الخوارزمية»، حيث امتد حكمها من «خراسان» إلى ما وراء النهر. وقد عمرت تلك الدولة ما يقرب من مائة وستين عاماً، من سنة ٤٧٠ ـ إلى سنة ٦٢٨هـ[١].

وقد عاصر صاحبنا «الزمخشري» أسرة أنوشتكين التي حكمت «خوارزم»، حيث تعاقب عليها في أثناء حياة الزمخشري ثلاثة من خلفائها، وهم:

١ ـ أنوشتكين (٤٧٠ ـ ٤٩٠هـ).

٢ ـ قطب الدين محمد بن أنوشتكين (٤٩٠ ـ ٥٢١هـ).

٣ ـ أتسز بن محمد (٥٢١ ـ ٥٥١هـ).

وقد كان بين الزمخشري والأمير محمد بن أنوشتكين علاقة وثيقة، حيث مدحه الزمخشريُّ بقصيدة أولها: [من البسيط]

أيُّ المُلُوكِ تَلاقَتْ فِي مَجَالِسِهِ   غَرَائِبُ العِلْمِ وَالآدَابِ وَالحِكَمِ[٢]

وأما «بغداد» فلم تكن أحسن حالاً، فقد تزعزعت عاصمة الخلافة، حتى تعاقب على مقاليد الأمور فيها أكثر من شرذمة، فبعد آل بويه، كان السلاجقة «العظماء»!!.

ومؤسس هذه الدولة هو ركن الدين طغرل (٤٢٩ ـ ٥٢٢هـ)[٣]، وقد عاصر صاحبنا من سلاطين هذه الدولة جمعاً، كان منهم غياث الدين، أبو شجاع محمد بن أبي الفتح ملكشاه (٤٩٨ ـ ٥١١هـ) الذي اتصل به الزمخشري ومدحه.

وكان من الدويلات التي حكمت البلدان في ظل الخلافة المتدهورة:

١ ـ الدولة الفاطمية، وكانت على أرض مصر والشام (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ).

٢ ـ دولة المرابطين، وكانت على أرض المغرب والأندلس (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ).

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم، ط. أولى ـ النهضة المصرية ـ ١٩٦٧م، ٤/٩٤.

(٢) الزمخشري لغويًا ومفسراً، مرتضى آية الله زادة، القاهرة، دار الثقافة ١٩٧٧م، ص ٢٤، ٢٥.

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٥/١٧١، ورؤوس المسائل ص ١٤.

وفي ظل هذه الأحوال السياسية المتردية، قام الصليبيون بغارات شعواء على ديار الإسلام؛ محاولين النيل من أسسه وتقويض دعائمه، فكانت أولى حملاتهم على الشام سنة ٤٩١هـ، حيث سقطت مدينة «القدس» في أيديهم سنة ٤٩٢هـ.

ثانياً: الحالة الاجتماعية والاقتصادية

إن غالب المجتمعات البشرية تكون مبنية على فئات وعناصر شتى؛ فثمة الفقير، وثمة الغني، وهناك الأمير، وهناك الوزير، ويوجد الراعي وتوجد الرعية، فئات متباينة، يجمعها انتسابها إلى جنس البشر. وقد كان المجتمع في عصر الزمخشري هكذا، وكان هناك أقليات من أهل الكتاب حيث عاشت ونالت أمنها وحقوقها.

وظهرت بسبب دخول الشعوب في الإسلام عادات وتقاليد مختلفة، أغلبها من الجاهلية، كأعياد النيروز، والميلاد، وغير ذلك.

وكثرت في ذلك المجتمع الفرق والملل والأهواء والنحل، فكثرت تبعاً لذلك المسائل الكلامية والمناظرات مما أدى إلى الفتن والاضطرابات. فظهرت فرقة الباطنية، والتي كان لها دولة في مصر، وكانت لها أهداف خبيثة.

وهناك حدثت فتنة اشتعل أوارها بين الأشاعرة والحنابلة، وذلك سنة ٤٤٧هـ، حيث «وقعت بينهما فتنة عظيمة، حتى تأخر الأشاعرة عن الجمعات خوفاً من الحنابلة»[(١)].

ومع هذه الفتن، وجدنا الدعاة المصلحين يحاولون فض تلك النزاعات، والدعوة إلى التمسك بالدين وترك الأهواء، ومكافحة الشكوك والأوهام التي يثيرها سفاسطة الملل والنحل.

ولقد كانت «خوارزم» بلد الزمخشري بمنأىً عن تلك الفتن؛ يقول ياقوت الحموي: « ...وما أظن كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في... ملازمة أسباب الشرائع والدين»[(٢)].

إلا أن «خوارزم» تعرضت لهجوم بعض قبائل الترك، ولكن الله تكفل بنصرهم في عامة الأوقات، ومنحهم الغلبة في كافة الوقعات.

ولقد كانت الحالة الاقتصادية مضطربةً، فعم الجوع، وانتشر الفقر والبؤس، حتى شكا

---

(١) ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨/ ١٦٣، ١٠/ ٢٨٦.
(٢) ينظر: معجم البلدان ٢/ ٤٨٦.

صاحبنا نَفْسُه مِنْ ذلك، حتى قال جائراً بشكواه: [من الطويل]

فَيَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ مُسْتَغْنِيَاً وَلَمْ ... أَكُنْ فِي خُوَارِزْمٍ رَئِيسَ الأَفَاضِلِ
وَيَا لَيْتَنِي مُرْضٍ صَدِيقِي وَمُسْخِطٌ ... عَدُوِّي وَأَنِّي فِي فَهَاهَةِ بَاقِلِ
وَمَا حَقُّ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ مُضَيَّقَاً ... وَقَدْ عَظُمَتْ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَسَائِلِي [1]

ثالثاً: الحالة العلمية لعصر جار الله

إن حياة الترف والدعة قليلاً ما ينبغ فيها أحد، بينما حياة البؤس والفقر تشحذ العقول، وتمد الخيالات، وتدفع الهمم لارتقاء سلم المجد وعتبات الرفعة.

وهذا ما كان شائعاً في ذلك العصر؛ فمع تلك الحال العصيبة ازدهرت حال العلم، وظهر علماء أفاضل دانت الدنيا لهم، وكان خَلَفُهُم عيالاً عليهم، وانتشرت المدارس، والخانقاهات، والكتب والمكتبات، وبلغ التصنيف مبلغاً هائلاً. وقد كان أهل «خوارزم» مشهورين بولعهم بعلوم الشرع واللغة، فبلغوا فيهما شأوًا ومنزلة رفيعة.

ولقد تمخض عصر الزمخشري عن أئمة كبار، كان لهم أثر كبير في إثراء الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، فمنهم:

في التفسير:

- ابن عطية الأندلسي: عبد الحق بن غالب، ت ٥٤٢هـ.

في القراءات وعلوم القرآن:

- ابن العريف: أحمد بن محمد، ت ٥٣٦هـ.
- الخشاب: عبد الله بن أحمد، ت ٥٦٧هـ.
- الشاطبي: القاسم بن فيره، ت ٥٩٠هـ.

في الحديث:

- ابن مَنْدَه: يحيى بن عبد الوهاب، ت ٥١١هـ.
- البغوي الفراء: الحسين بن مسعود، ت ٥١٦هـ.
- السِّلفي: أحمد بن محمد، ت ٥٧٦هـ.

---

(١) ينظر: الزمخشري لغويًا ومفسراً ص ٣٧، نقلاً عن رؤوس المسائل ص ١٩.

في الملل والنحل، والفلسفة وعلم الكلام:

- الغزالي: محمد بن محمد، ت ٥٠٥هـ.
- ابن ماجه: محمد بن يحيى، ت ٥٣٣هـ.
- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم، ت ٥٤٨هـ.
- ابن الطفيل: محمد بن عبد الملك، ت ٥٨١هـ.
- ابن رشد الحفيد: محمد بن أحمد، ت ٥٩٥هـ.

في الفقه وأصوله:

ـ الحنفية:

- شمس الأئمة السرخسي: محمد بن أحمد، ت ٤٨٣هـ.
- الدامغاني: أبو عبد الله محمد بن علي، ت ٤٧٨هـ.
- البزدوي: علي بن محمد، ت ٤٨٣هـ.

السمرقندي: أبو بكر علاء الدين محمد بن أحمد، ت ٥٥٢هـ.

ـ المالكية:

- الباجي: أبو الوليد سليمان بن خلف، ت ٤٩٤هـ.
- المازري: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر، ت ٥٢٦هـ.
- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله، ت ٥٤١هـ.
- عياض: أبو الفضل عياض بن موسى، اليحصبي، ت ٥٤١هـ.

ـ الشافعية:

- ابن الصباغ: أبو نصر عبد السيد بن محمد، ت ٤٧٧هـ.
- المتولي: أبو سعيد عبد الرحمن بن مأمون، ت ٤٨٨هـ.
- إمام الحرمين: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، ت ٤٨٧هـ.
- الروياني: أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل، ت ٥٠٢هـ.

ـ الحنابلة:

- ابن البناء: الحسن بن أحمد بن عبد، البغدادي، ت ٤٧١هـ.
- الحلواني: محمد بن علي بن محمد، ت ٥٠٥هـ.
- أبو الخطاب: محفوظ بن أحمد، ت ٥١٠هـ.
- ابن عقيل: علي بن محمد، ت ٥١٣هـ.

- ابن الزاغوني: علي بن عبد الله بن نصر، ت ٥٢٧هـ.
- ابن هبيرة: يحيى بن أبي منصور، ت ٥٦٠هـ.

في علوم اللغة:

- الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن، ت ٤٧١هـ.
- التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي، ت ٥٠٢هـ.
- الراغب الأصفهاني: حسين بن محمد، ت ٥٠٢هـ.
- ابن السِّيد البطليوسي: عبد الله بن محمد، ت ٥٢١هـ.
- الجواليقي: موهوب بن أحمد، ت ٥٤٠هـ.
- ابن الشجري: هبة الله بن علي، ت ٥٤٢هـ.
- كمال الدين الأنباري: عبد الرحمن بن محمد، ت ٥٧٧هـ.

في الشعر والأدب:

- الحريري: القاسم بن علي، ت ٥١٦هـ.
- ابن خفاجة: إبراهيم بن أبي الفتح، ت ٥٣٣هـ.
- رشيد الدين الوطواط: محمد بن محمد بن عبد الجليل، ت ٥٧٣هـ.

في التاريخ والجغرافيا:

- السمعاني: عبد الكريم بن محمد، ت ٥٦٢هـ.
- ابن عساكر: علي بن الحسن، ت ٥٧١هـ.
- الشريف الإدريسي، ت ٥٤٨هـ.

وقد وجدنا في ذلك العصر من العلماء من كان موسوعيًا، كأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ.

وهكذا امتلأ عصر الزمخشري بأساطين العلم وأئمته الذين رفعوا لواء الدين عالياً خفاقاً.

ولقد كانت «خوارزم» لها نصيب وافر من أولئك الأعلام، وقد ذكر الثعالبي في يتيمته نبذاً من أدبهم وشعرهم[١].

ولقد شاعت في ذلك العصر مجالس المناظرات والجدل، ووجد لها من يساعدها

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٣٧٧هـ، ٤/ ١٩٤ ـ ٢٥٤.

ويدعو إليها، حيث كان الخلفاء ووزراؤهم من المشجعين لها، مما أدى إلى ظهور التعصب المذهبي والتحيز الطائفي، حتى صور لنا الزمخشري بعضاً مما كان يرمي به كل مذهب من غيره من المذاهب؛ يقول: [من الطويل]

إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي لَمْ أَبُحْ بِهِ ... وَأَكْتُمُهُ كِتْمَانُهُ لِيَ أَسْلَمُ
فَإِنْ حَنَفِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ الطِّلاَ وَهْوَ الشَّرَابُ الْمُحَرَّمُ
وَإِنْ مَالِكِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ لَهُمْ أَكْلَ الكِلاَبِ وَهُمْ هُمُ
وَإِنْ شَافِعِيًّا قُلْتُ: قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ نِكَاحَ البِنْتِ وَالْبِنْتُ تَحْرُمُ
وَإِنْ حَنْبَلِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... ثَقِيلٌ حُلُولِيٌّ بَغِيضٌ مُجَسِّمُ
وَإِنْ قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ وَحِزْبِهِ ... يَقُولُونَ تَيْسٌ لَيْسَ يَدْرِي وَيَفْهَمُ
تَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ... فَمَا أَحَدٌ مِنْ أَلْسُنِ النَّاسِ يَسْلَمُ
وَأَخَّرَنِي دَهْرِي وَقَدَّمَ مَعْشَراً ... عَلَى أَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَأَعْلَمُ
وَمُذْ أَفْلَحَ الْجُهَّالُ أَيْقَنْتُ أَنَّنِي ... أَنَا المِيمُ وَالأَيَّامُ أَفْلَحُ أَعْلَمُ[1]

ملحوظة:

ورد في الجزء الخامس في الصفحة ٥٤٩ من هذا الكتاب عبارة [فأدخل الملك إن شاء الله] وفي هذا انحراف لابد من الإشارة إليه؛ فقد يتبادر للقارئ أن هذه العبارة «إن شاء الله» إنما هي من قول الملك فأضافها من عنده. ويأتي من يبرر فيقول: ربما أراد كذا أو كان يقصد كذا، فهذا من التلبيس على السالكين يفضي إلى انحرافات خطيرة في الفهم والمنهج، فكلُّ ما جاء في كتاب الله تعالى، والذي نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ سواء أكان حكاية أو قصة أو حكماً أو حلالاً أو حراماً أو محكماً أو متشابهاً إنما هو من كلام الله تعالى ليس بمخلوق ولا مضاف.

---

(١) ينظر: مقدمة الكشاف للزمخشري، ومقدمة الفائق في غريب الحديث، بتحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ١/ ٩.

حياة الزَّمَخْشَرِيّ[1]

نسبه، لقبه، مولده:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، جار الله، «فخر خوارزم». ولقبه الأشهر هو «جار الله»، حيث غلب عليه؛ لمجاورته بـ«مكة» زماناً طويلاً.

ولد الزمخشري بـ«زمخشر»، إحدى قرى «خوارزم»، وذلك يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب، سنة ٤٦٧هـ.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ الزمخشري في بيت متدين يتدثر بدثار الصلاح؛ فالوالد رجل فاضل، شفوق بأبنائه، حبسه مؤيد الملك، فتوسل إليه الزمخشري أن يفك أسره، بقوله: [من الكامل]

أَكْفَى الكُفَاةِ مُؤَيِّدَ المُلْكِ الَّذِي ... خَضَعَ الزَّمَانُ لِعِزِّهِ وَجَلاَلِهِ
إِرْحَمْ أَبِي لِشَبَابِهِ وَلِفَضْلِهِ ... وَارْحَمْهُ لِلضُّعَفَاءِ مِنْ أَطْفَالِهِ
إِرْحَمْ أَسِيراً لَوْ رَآهُ مِنَ العِدَا ... أَقْسَاهُمْ قَلْباً لَرَقَّ لِحَالِهِ[2]

ويقول راثياً له بعد موته: [من البسيط]

فَقَدْتُهُ فَاضِلاً فَاضَتْ مَآثِرُهُ ... أَلْعِلْمُ وَالأَدَبُ المَأْثُورُ وَالوَرَعُ
صَامَ النَّهَارَ وَقَامَ اللَّيْلَ وَهْوَ شَجٍ ... مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ كَابِي اللَّوْنِ مُمْتَقِعُ[3]

ولقد كانَتْ أُمُّ صاحبنا عطوفة، رقيقة القلب، مجابة الدعاء، يحكي الزمخشري في ذلك فيقول: «كنت في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، فأفلت من يدي فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبته فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت والدتي، وقالت:

---

(١) ينظر ترجمته في: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/١٦١، ووفيات الأعيان ٥/١٦٨، الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٢٠٩، الأنساب ٦/٢٩٧، إنباه الرواة ٣/٢٦٥، تاج التراجم ص ٧١، بغية الوعاة ٢/٢٧٩، الأعلام ٧/١٧٨، معجم المؤلفين ١٢/١٨٦.

(٢) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن، للصاوي، ص ٢٥.

(٣) ينظر: السابق ص ٢٦، ورؤوس المسائل ص ٣١.

قطع الله رجلك كما قطعت رجله»[1]. وقطعتْ رجل الزمخشريِّ عندما سقط عن دابته.

نشأ الزمخشري في أسرة فقيرة، فوجدنا أباه يدفع به إلى خياط ليعلمه الخياطة، ولكن الزمخشري له رغبة في طلب العلم، فيستعطف أباه، قائلاً له: «احملني إلى البلد واتركني بها»[2].

ورحل صاحبنا إلى «بخارى» في طلب العلم[3]، حيث كانت «بخارى» آنذاك كعبة العلماء، فأخذ من علمائها وتلمذ لجهابذتها.

كما أن الزمخشري زار مدينة «مرو» ولقي بها الإمام السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ، وتنقل بين «خوارزم» وخراسان» محصلاً للعلم، فحصل أصول الفقه، والحديث، والتفسير، والكلام، وعلوم العربية.

دخل الزمخشري «مكة» - حرسها الله - فجاور بها، وكانت أولى رحلاته إليها سنة ٥٠٢هـ، واتصل بشريفها علي بن حمزة بن وهاس وكان أديباً، فقويت علاقتهما.

ولكن الزمخشري يخرج من مكة راحلاً إلى وطنه الأول، ولكن ما لبث أن عاودته الحنين إليها، حتى صور ذلك في قوله: [من الطويل]

بُكَاءٌ عَلَى أَيَّامِ مَكَّةَ إِنَّ بِي ... إِلَيْهَا حَنِينَ النِّيبِ فَاقِدَةَ الْبَكْرِ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا فَكَأَنَّنِي ... قَدِ اخْتَلَفَتْ زُرْقُ الأَسِنَّةِ فِي صَدْرِي[4]

وأخيراً عاد صاحبنا المعتزلي إلى «مكة» نحو عام ٥١٨هـ، وفي عودته مر بـ«الشام» ومدح صاحب «دمشق» تاج الدين ت٥٢٦هـ.

ويبدو أن جار الله كان مولعاً ببيت الله الحرام؛ فإن أشهر مصنفاته وأعظمها قد صنفها بين زمزم والمقام؛ كتفسيره «الكشاف»، وأطواق الذهب، ونوابغ الكلم، وربيع الأبرار، وأساس البلاغة، وغيرها[5].

ولكن ما لبث الزمخشري بعد هجوم الشيخوخة عليه أن فكر في الأفول إلى وطنه الأول، فعاد معرجاً في طريقه على «بغداد»، وبها زاره أبو السعادات هبة الله بن الشجري

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان ٥/١٦٩.
(٢) ينظر: مفتاح السعادة ٢/١٠٠.
(٣) ينظر: وفيات الأعيان ٥/١٧٠.
(٤) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٣٧.
(٥) ينظر: مفتاح السعادة ٢/١٠٠.

ت٥٤٢هـ، حيث هنأه بقدومه، وأثنى عليه[١].

وفي «خوارزم» استقر الزمخشري الشيخ الكهل، حيث صار «فخر خوارزم» ومرجعها الأشهر.

شيوخه:

قديماً قالوا: «مَنْ دَخَلَ فِي الْعِلْمِ وَحْدَهُ خَرَجَ وَحْدَهُ»، ويعنون بها أن من لم يكن له شَيْخٌ لا يُفْلِحُ. ولقد كان عصر الزمخشري عصر أشياخ علم وأساطين فنون، فرأيناه يتلمذ لكثير منهم، نذكر هنا أبرزهم:

- أبو مضر، محمود بن جرير الضبي، الأصفهاني ت ٥٠٧هـ، وهو مدخل مذهب الاعتزال إلى «خوارزم»، وأخذ عليه النحو والأدب، ورثاه الزمخشري قائلاً: [من الطويل]

وَقَـائِـلَـةٍ مَـا هٰـذِهِ الـدُّرَرُ الَّـتِـي … تَسَاقَطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ
فَقُلْتُ: هُوَ الدُّرُّ الَّذِي قَدْ حَشَا بِهِ … أَبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَسَاقَطُ مِنْ عَيْنِي[٢]

- أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري، الضرير.
- السديد الخياطي. وأخذ عنه الفقه.
- أبو السعد الجشمي: المحسن بن محمد بن كرامة، البيهقي، ت ٤٩٤هـ.
- ركن الدين محمد الأصولي، وأخذ عنه الأصول.
- أبو منصور نصر الحارث، أخذ عنه الحديث.
- أبو الخطاب، نصر بن أحمد بن عبد الله البَطِر، ت ٤٩٤هـ.
- أبو الحسين، أحمد بن علي الدامغاني، ت ٥٤٠هـ.
- أبو منصور الجواليقي، موهوب بن أبي طاهر، ت ٥٣٩هـ.

وغير هؤلاء كثير تخرج بهم الإمام الزمخشري.

تلاميذه:

تلمذ لجار الله الزمخشري طائفة كبيرة من طلاب العلم، حتى تخرجوا به فصاروا أئمة في اللغة وآدابها وعلوم الشرع المطهر.

وكان منهم من برز في علوم كثيرة، نذكر أشهرهم.

---

(١) ينظر: نزهة الألباء ص ٢٩٢، وبغية الوعاة ٢/ ٢٨٠.
(٢) ينظر: معجم الأدباء ١٩/ ١٢٤، ورؤوس المسائل ص ٣٨.

- علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس العلوي.

- علي بن محمد العمراني، الخوارزمي، أبو الحسن الأديب، الملقب بـ «حجة الأفاضل وفخر المشايخ» ت٥٦٠هـ.

- أبو الفضل البقالي الخوارزمي الآدمي، محمد بن أبي القاسم بايجول، الملقب بـ«زين المشايخ». وقد جلس مكان الزمخشري بعده[١].

- أبو يوسف يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر البلخي، كان أحد أئمة النحو والأدب.

وقد أجاز الزمخشري لكثير من طلبة العلم في عصره، والذين صاروا أئمة أعلام، منهم أبو طاهر الخشوعي، والأديب الوطواط.

مصنفاته:

ترك الزمخشري تراثاً هائلاً من التصانيف، في مختلف فنون العلم، نذكرها ههنا مرتبة على حروف المعجم[٢]

- أساس البلاغة (معجم يهتم بالمجاز والاستعارة).
- أطواق الذهب، أو النصائح الصغار (في الوعظ والرقائق).
- أعجب العجائب في شرح لامية العرب.
- الأمالي في كل فن.
- الأمكنة والجبال والمياه والبقاع المشهورة في أشعار العرب.
- الأنموذج (مختصر من المفصل في النحو).
- تسلية الضرير.
- تعليم المبتدي وإرشاد المهتدي (جمل في العربية وترجمتها بالفارسية للناشئين).
- جواهر اللغة.
- خصائص العشرة الكرام البررة.
- ديوان التمثيل.
- ديوان الرسائل.
- ديوان الزمخشري.

---

(١) ينظر: معجم الأدباء ١٩/٥.

(٢) ينظر: رؤوس المسائل، تحقيق عبد الله نذير أحمد، ص ٤٢ ـ ٤٦.

- رؤوس المسائل (في الخلاف الفقهي بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي).
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم).
- الرسالة الناصحة.
- سوائر الأمثال.
- شافي العي من كلام الشافعي.
- شرح أبيات كتاب سيبويه.
- شرح بعض مشكلات المفصل.
- شرح مقامات الزمخشري (النصائح الكبار).
- شقائق النعمان في حقائق النعمان (في مناقب أبي حنيفة).
- صميم العربية.
- ضالة الناشد في علم الفرائض.
- الفائق (في غريب الحديث).
- القسطاس.
- القصيدة البعوضية. (وأخرى في مسائل الغزالي).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (وهذا التفسير المشهور الذي نقوم بتحقيقه).
- الكشف في القراءات.
- متشابه أسامي الرواة.
- المحاجاة في الأحاجي والأغلوطات.
- مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.
- مسألة في حكمة الشهادة.
- المستقصى في أمثال العرب.
- معجم الحدود.
- المفرد والمركب (أو المؤلف).
- المفصل في تعليم النحو.
- مقامات الزمخشري.
- مقدمة الأدب (معجم عربي فارسي).
- المنهاج (في أصول الفقه).

- نزهة المستأنس.
- النصائح الصغار والبوالغ الكبار.
- نكت الأعراب في غريب الإعراب.
- نوابغ الكلم (حكم وأقوال).

ثناء العلماء عليه:

يقول تعالى في محكم آياته: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾؛ والمعاصي عدو خطير للعلم وأهله؛ وإن العلم لا يؤتاه عاصٍ.

ولقد حبئ الله الزمخشريَّ بصفات طيبة، أبرزها شدة تواضعه وأدبه الجم، وهذا العهد بأهل اللغة؛ يقول تلميذه رشيد الدين الوطواط عنه: «...وقد جرى بيني وبينه في حياته وأوقات راحته مما يتعلق بفنون الآداب وأقسام علوم العرب، مسائل أكثر من أن يحصى عددها، أو يستقصى أمدها، رجع فيها إلى كلامي، ونزل على قضيتي وأحكامي؛ فالسعيد من إذا سمع الحق، سكتت شقائق لجاجه، وسكنت صواعق حجاجه... وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتيان هذه الخطة، أن هذا الإمام كان صبوراً على مرارة الحق، وحرارة الصدق، مع أنه رب هذه البضائع، وصاحب هذه الوقائع، فهو مع الحق ولو على نفسه»[1].

بل كان الزمخشري كثيراً ما يصرح بما يدل على هضمه نفسه، يتضح ذلك من جوابه للحافظ السِّلَفي حينما استجازه، يقول: «...ولا يغرنكم قول فلان فيّ...؛ فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه، وجهل بالباطن المشوه، ولعل الذين غرهم مني ما رأوا من حسن النصح للمسلمين، وتبليغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبار والصنائع عليهم، وعزة النفس والربء بها عن السفاسف الدنيات، والإقبال على خويصتي، والإعراض عما يعنيني؛ فجللت في عيونهم، وغلطوا فيّ، ونسبوا إليّ ما لست منه في قبيل ولا دبير، وما أنا فيما أقول بها ضيم لنفسي...»[2].

كان الزمخشري ديِّناً ورعاً، صالحاً، متدثراً بدثار العلمِ والفضل؛ نقل القفطي عن الإمام أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي قوله: «كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم»[3].

---

(١) ينظر: رؤوس المسائل ص ٥٢.
(٢) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٧١، ومعجم الأدباء ١٩/ ١٣٢.
(٣) ينظر: إنباه الرواة ٣/ ٢٧٠.

قال القفطي: «. . .وكان ممن يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وصنف التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك، ودخل «خراسان»، وورد «العراق»، وما دخل بلداً إلا اجتمعوا عليه وتلمذوا له واستفادوا منه، وكان علامة الأدب ونسابة العرب، أقام بـ«خوارزم» تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال، وَتُحْدَىٰ باسمه مطايا الآمال»[1].

ومدحه هبة الله بن الشجري لما التقى به في «بغداد» قائلاً: [من البسيط]

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي ... عَنْ أَحْمَدَ بْنِ دُوَادٍ أَطْيَبَ الْخَبَرِ

حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلاَ وَاللَّهِ مَا سَمِعَتْ ... أُذْنِي بِأَحْسَن مِمَّا قَدْ رَأَىٰ بَصَرِي[2]

ومدحه الشريف بن وهاس، قائلاً: [من الطويل]

جَمِيعُ قُرَى الدُّنْيَا سِوَى الْقَرْيَةِ الَّتِي ... تَبَوَّأَهَا دَاراً فِدَاءُ زَمَخْشَرَا

وَأَحْرِ بِأَنْ تُزْهَىٰ زَمَخْشَرُ بِأَمْرِئٍ ... إِذَا عُدَّ فِي أُسْدِ الشَّرَىٰ زَمَخَ الشُّرَىٰ[3]

وقال السيوطيُّ: «كان واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفنناً في كل علم. . .»[4].

وبالجملة فإن الزمخشري لم يغمط عليه غير مذهبه في الاعتزال؛ قال ابن حجر عنه: «إنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال»[5].

وفاته:

عاد الزمخشري من «مكة» ـ حرسها الله ـ وكأنه أحس بدنو أجله، فأقام بـ«خوارزم» إلى أن توفاه الله تعالى، وذلك ليلة عرفة من سنة ٥٣٨هـ بـ«جرجانية».

وقيل: إن الزمخشريَّ أوصَىٰ أن يكتب على قبره هذه الأبيات: [من الكامل]

يَا مَنْ يَرَىٰ مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَلِ

وَيَرَىٰ عُرُوقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا ... وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ

إِغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ[6]

---

(١) ينظر: إنباه الرواة ٣/ ٢٦٥.
(٢) ينظر: نزهة الألباء ص ٢٩١.
(٣) ينظر: إنباه الرواة ٣/ ٢٦٨.
(٤) ينظر: بغية الوعاة ٢/ ٢٧٩.
(٥) ينظر: لسان الميزان ٦/ ٤.
(٦) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٧٣.

«الكَشَّاف» في الميزان

بداية ينبغي التأكيد على أن صاحبنا جار الله كان معتزليًا كما أشرنا من قبل، إلا أن الرجل كان رأساً، داعية إلى مذهبه، يقول صاحب وفيات الأعيان: «كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب. وأول ما صنف كتاب «الكشاف» كتب استفتاح الخطبة: الحمد لله الذي خلق القرآن. فيقال: إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه. فغيره بقوله: الحمد لله الذي جعل القرآن: و«جعل» عندهم بمعنى «خلق»، والبحث في ذلك يطول ورأيت في كثير من النسخ: الحمد لله الذي أنزل القرآن. وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف. ا.هـ كلام ابن خلكان.

السبب الباعث على تصنيف الكشاف:

ذكر الزمخشري في فاتحة كشافه ما دعاه إلى تقييده، فبين أن بعض إخوانه في الدين ـ يعني في مذهب الاعتزال ـ اجتمعوا إليه وسألوه أن يملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، واستشفعوا عليه بكل عظيم، إلى أن رحل إلى مكة، وهو مع كل هذا يستعفي، حتى قابل الأمير، الشريف أبا الحسن بن وهاس، فصادف منه رغبة كرغبة من سأله الإقدام، فلم يملك إلا الإذعان وتلبية أمر الإمام. ولقد أنهى تفسيره ـ كما يقول ـ في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة.

منهج الزمخشري في نصرة مذهبه:

لما كان الزمخشري بهذه الجرأة من إعلان مذهبه وافتخاره وزهوه به، لم يكن بِدْعاً ـ حينئذٍ ـ أن ينتصر له بكل ما استطاع من حجاج، حتى لو اضطره ذلك إلى ليِّ أعناق الآيات وتأويلها على غير لسان العرب، وإنك لتراه يدخل في تفسير الآية، وتكون بعيدة كل البعد عن معتقده، إلا أنه ـ لتمكنه من فنون القول، وبراعته في الكلام ـ يزيف ويزين التأويل حتى يدخله على قلوب كثير من الناس، مما دفع سراج الدين البلقيني ـ وقد صنف

«الكشاف على الكشاف» ـ إلى قوله: «... استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش؛ من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: أيُّ فوز أعظم من دخول الجنة؟! أشار به إلى عدم الرؤية(١).

وأيضاً قال ابن تيمية أثناء الكلام عن تفاسير المعتزلة: ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، يدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير من أهل السنة كثير من تفاسيرهم الباطلة(٢).

ولقد سلك الزمخشري في سبيل ذلك طرقاً ومسائل تنوعت إلى ما يلي:

ـ تأويله للفظ القرآني بما يتفق ومذهبه:

وذلك كأن يتعرض لتفسير آية فيكون لفظها على ظاهره لا يساعد مذهبه، فيذهب به إلى معنى آخر، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهذه آية تثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وهذا مردود عند المعتزلة، فيذهب الزمخشري إلى أن معنى «ناظرة» منتظرة؛ «فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي. تريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل: [من الكامل]

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ ... وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم ـ تقول: «عيينتي نويظرة إلى الله وإليكم»...(٣).

ـ إيغاله في التأويل بالتمثيل والتخييل:

كان الزمخشري إذا حاصره النص القرآني حاول حمله على التخييل، فنراه عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يذكر أربعة أوجه في معنى «الكرسي»، يقول في أولها: إن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد؛ كقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾

---

(١) ينظر: الإتقان ١/ ١٩٠.
(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.
(٣) ينظر: الكشاف.

[الزمر: ٦٧]، من غير تصور قبضة وطيٍّ ويمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسن؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1].

وطبيعي ألا يرتضي ابن المنير ـ كما سيأتي ـ كلام الزمخشري هذا فتعقبه قائلاً: «قوله في الوجه الأول: إن ذلك تخييل للعظمة، سوء أدب في الإطلاق، وبعد في الإصرار؛ فإن التخييل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها في الأدب الشرعي. وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب».

بل إن الزمخشري يتوسع في تخييله وتمثيله حتى ولو عضد مفهوم الآية حديث أو أثر؛ ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] يقول: «وما يروون من الحديث: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» والله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها؛ فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، واستهلاله صارخاً من مسه: تخييل (!!) وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه. ونحوه من التخييل ـ قول ابن الرومي: [من الطويل]

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه»[2].

وما كان لابن المنير أن يترك مثل هذا الكلام حتى يتعقبه، فنراه يقول راداً عليه: «أما الحديث المذكور فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذن من تعطيل كلامه عليه السلام بتحميله ما لا يحتمله؛ جنوحاً إلى اعتزال منتزع، في فلسفة منتزعة، في إلحاد، ظلمات بعضها فوق بعض... ثم تنظيره بتخييل ابن الرومي في شعره جرأة وسوء أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، أما وهو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل».

وإن الفطن اللبيب ليعلم يقيناً أن الذي جر المعتزلة ـ والزمخشري منهم ـ إلى هذا التحايل والتمثيل إنما هو تقديسهم للعقل مطلقاً، فقاسوا به الغائب على الشاهد، وجعلوه

(١) ينظر: الكشاف.
(٢) ينظر: الكشاف.

حكمهم ونبراسهم، يقول جار الله في «أطواق الذهب في المواعظ والخطب»[1] ملقباً العقل بـ«السلطان»: «امش في دينك تحت راية السلطان، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان؛ فما الأسد المحتجب في عرينه، أعز من الرجل المحتج على قرينه، وما العَنْزُ الجرباء تحت الشمأل البليل، أذل من المقلد عند صاحب الدليل».

ـ حمله للآيات المتشابهات على المحكمات إذا تصادمت مع مذهبه:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فقد حمله على قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وابن المنير يغضب على الزمخشري لصنيعه ذاك، فيقول: «هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي على وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي؛ وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى؛ بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه ـ بزعمهم ـ إلى الآية التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم».

على أن الزمخشري كان ينتصر لمعتقداته من خلال تفسيره للآيات، فهو يرى ـ كغيره من المعتزلة ـ أن صاحب الكبيرة مخلد في نار جهنم، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...﴾ الآية [النساء: ٩٣]، يقول: «فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أَبْيَنَ الدليل، وهو تناولُ قوله: «ومن يقتل» أي قاتل كان من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله»[2].

ومن ذلك انتصاره لمذهب شعيته في السحر؛ فإنهم لا يقولون به، ولا يعتقدون في السحرة، وأنت تراه في تفسير سورة الفلق التي فلقت معتقدهم في السحر، يحاول ـ كعادته ـ التملص من مفهومها، فيفسر قوله تعالى: ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، بأن المقصود النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في الخيوط، وينفثن عليها ويرقين، ثم يقول: «ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا

---

(١) ينظر: أطواق الذهب ص ٢٨.
(٢) ينظر: الكشاف.

يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به. . . قال: ويجوز أن يراد بهن النساء الكيَّادات من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتنَّ الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرن بذلك»(١).

ولقد تعرض له ابن المنير حاكماً عليه بأنه: «استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله، ويغطي بكفه وجه الغزالة».

ومن انتصاراته لمذهبه صولته وجولته في مسألة الإرادة وخلق الأفعال ـ وذلك في كثير من الآيات التي تصرح بأن للعباد مشيئة تحت مشيئة ربهم وخالقهم، فتراه يرد إرادة الله تعالى إلى معنى «اللطف» و«التوفيق»، فهو في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] تذرع بلفظ «اللطف»(٢)(!!!)، فتعقبه ابن المنير قائلاً: «المعتقد الصحيح أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداه، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه نفسه، وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما في هذه الآية فهو مأوّل على زعم الزمخشري بـ«لطف الله» الحامل للعبد على أن يخلق هواه. إن هذا إلا اختلاق. وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيء في خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسؤول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا».

ومن انتصاراته لمعتقده إقراره وحجاجه عن مبدأ الحسن والقبح العقليين، ولما كان لا يستقيم له هذا المبدأ إلا بإزاحة ما قد يعترضه من عقبات، لجأ إلى اللف والتحايل حول آيتين من كتاب الله: الأولى: قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. والثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فهو في الآية الأولى يعلم أنها تعارض مبدأه، فمن ثم سأل هذا السؤال: «كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟؟

ثم يجيب فيقول: قلت: الرسل منبهون عن الغفلة، وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة للعلة، وتتميماً لإلزام الحجة؛ لئلا يقولوا:

---

(١) ينظر: الكشاف.
(٢) ينظر: الكشاف.

لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا لما وجب الانتباه له»[١] .

ثم هو عندما يتكلم عن الآية الثانية يحس بالتساؤل نفسه، ويجيب بمثل إجابته تلك؛ يقول: «فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة؛ لئلا يقولوا: كنا غافلين، فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل».

ومن هنا نسجل كلمة شيخنا العلامة الشيخ أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات» فقال رحمه الله:

إن تفسير «الكَشَّاف» من خير كتب التفسير العلميّة وأجلها، ولولا نزعته الاعتزالية في بعض الآيات القرآنية لما تناوله المعترضون بالنقد، ولما شَنَأَهُ بعض الناس، وبحسب هذا الكتاب فضلاً ومنزلة: أن كُلَّ من جاءَ بعد الزمخشري عَالَةٌ عليه، فيما يذكره فيه من أَسرار الإِعجاز، والغوص على المعاني البلاغية الدقيقة.

ولبراعته في الكلام، وتمكنه من فنون القول، وبُعْدِ غوره: يَدُسُّ بَعْضَ آرائه في أثناءِ تفسيره، وتَرُوجُ على خَلْقٍ كثيرٍ من أَهل السنة؛ ولذا قال البلقيني: استخرجْتُ من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٢] قال: أَيُّ فوز أَعظم من دخول الجنة، أَشار به إلى عدم الرُّؤْيةِ[٣] ، وقال ابن تيمية أثناءَ الكلام عن تفاسير المعتزلة: ومن هؤلاءِ من يكون حسن العبارة، يَدُسُّ الْبِدَعَ في كلامه، وأَكثر الناس لا يعلمون؛ كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يَرُوجُ على خلق كثير من أَهل السنة، كثيرٌ مِنْ تفاسيرهم الباطلة[٤] .

وَمِنْ مُمَيِّزَاتِ هَذَا التَّفْسِيرِ

١ ـ خلوه من الحشو والتطويل.

٢ ـ سلامته من القصص الإِسرائيلي غالباً، وإذا ذكر بعضه فإنه قد يفنِّدُهُ، كما فعل في قصّة داود وسليمان، ولكن وجدت فيه بعض الموضوعات التي لا تدرك بالعقل، وإنما

---

(١) ينظر: الكشاف.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٩٠.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

يعملها أئمة الحديث ونقاده. وذلك مثل: الحديثِ الطويلِ المرويِّ في فضائل السور، سورة سورة، وكذلك ما روي: في قصَّة السيدة زينب بنت جحش، وحاول تبريره، وقد يذكر بعض الإِسرائيليات، ولا يفنِّدها، مثل ما ذكره: في قصَّة يَأجوج ومَأجوج، بل ذكر هنا حديثاً موضوعاً على النبيِّ ـ ﷺ ـ[1] وسَأَتَنَاوَلُ ذلك بالتفصيل فيما يَأتِي، إِن شاءَ الله تعالى.

٣ ـ اعتماد في بيان المعاني على لغة العرب وأَساليبهم في الْخِطَابِ.

٤ ـ عِنَايَتُهُ الفائِقَةُ بالإِبانة عن أَسرار الإِعجاز القرآنيِّ بطريقة فنيَّة قائمة على الذوق الأَدبي.

٥ ـ اتباعه طريقة السُّؤَالِ: (إِنْ قُلْتَ ـ بفتح التاء)، ويقول في الجواب: (قُلْتُ: بضم التاء) وهي طريقة مِنْ طُرُقِ التشويقَ، في التعليم وترسيخِ المعاني في النفس.

الانْتِصَافُ

وقد قَيَّضَ الله لهذا الكتاب مَنْ نَبَّهَ إِلَىٰ ما فيه من اعتزالياتٍ، وبين ما فيه من انحراف، وميل باللفظ القرآني إلى مذهب أَهل الاعتزال، وهو: الإِمام أَحمد بن محمد، المعروف بابن المنير. عالم الإِسكندرية وقاضيها، وخطيبها، فألَف كتابه: «الانتصاف»، وهو يدل على علو كعب هذا الإِمام في العلوم الشرعية، والبلاغية، وأُصول الدين، وأُصول الفقه وبهذا الكتاب النفيس، يمكن للقارىء لتفسير الكشاف أَن يقرأَه مع الأَمن عليه أَن يزيغ، أَو يضل في متاهات الاعتزال.

تَخْرِيجُ أَحَادِيثِ الكَشَّافِ

وقد تنبه إلى ما في تفسير الكشاف من الروايات الضعيفة، والموضوعة، بعض المحدثين، فقام بإِكمال هذا النقص خير قيام، وسد هذه الثغرة التي دخل منها على القراءِ ضرر كثير، فقد أَلف الإِمام الحافظ الفقيه: عبد الله بن يوسف الزيلعي المتوفى سنة ٧٧٢هـ رسالة في تخريج أَحاديث الكشاف، وما فيه من قصص وآثار، بين فيها الصحيح، من الحسن، من الضعيف، من الموضوع، وقد لخصها الإِمام الحافظ ـ الفقيه. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ، في رسالة سماها: «الكاف الشاف من

---

(١) تفسير الكشاف في سورة الكهف عند تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾.

تخريج أَحاديث الكشاف»، وقد طبعت مع الكشاف في بعض الطبعات، فجزاهما الله خير الجزاء.

حملة أهل السنة على الزمخشري:

إن دسائس الاعتزال التي حشا بها الزمخشري كشافه دفعت بعض أهل السنة إلى القيام بواجب الدفاع عن الاعتقاد الصحيح؛ وردًا للحق إلى نصابه، وتبييناً لزغل معتقد هذا الرجل.

وكان من أشد الناس ردًا على الزمخشري أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، الذي صنف كتاب «الانتصاف من الكشاف»، وقد أحنقه ما صنع الزمخشري بآيات الله من دسائس الاعتزال، انظر إليه يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وقد قال الزمخشري: «فمنكم آت بالكفر وفاعل له، ومنكم آت بالإيمان..». «لقد ركب عمياء، وخبط خبط عشواء، واقتحم وعراً: السالك فيه هالك، والغابر فيه عاثر، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك، ويحوم حول مراتع الإشراك، ويبحث: لكن عن حتفه بظِلْفه، ويتحذق، وما هو إلا بمتشدق، ويتحقق، وما هو إلا يتفسق...»[1].

وكثيراً ما نرى الألفاظ الشديدة من ابن المنير يصوبها تجاه الزمخشري، لسوء فعاله، وهضمه لجماعات أهل السنة؛ وفي موضع من التفسير يقول ابن المنير: «فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أَهَّل عبده الفقير إلى التورك عليه؛ لأنَّه آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمي أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة»[2].

حملة ابن القيِّم:

ثار ابن القيم على الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي، فنراه يذكر ما فسر به الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ثم يقول: «فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري ناف للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزليًا قدريًا»[3].

---

(١) ينظر: الكشاف.
(٢) ينظر: الكشاف.
(٣) ينظر: إعلام الموقعين ١/ ٢٠٢.

حملة ابن السبكي:

وفي مقالة يقول التاج السبكي: «واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام ـ يعني والده التقي السبكي ـ يُقْرئه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [آية: ١٩] أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها: «سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف»، وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك[١] من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى؛ سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياءً من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة»[٢].

حملة أبي حيان:

صنف أبو حيان الأندلسي تفسيره «البحر المحيط»، وقد تعقب فيه الزمخشري في كثير من آرائه النحوية مما دفعه ـ ذات مرة ـ إلى أن يقول عنه: «وهذا الرجل كثير التبجح بكتاب سيبويه، وكم من نص في كتاب سيبويه عمي بصره وبصيرته عنه، حتى إن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزوز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط فيه الزمخشري وما جهله من نصوص كتاب سيبويه»[٣].

وقال أبو حيان: «. . .وقد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به: [من الطويل]

وَلٰكِنَّهُ فِيهِ مَجَالٌ لِنَاقِدٍ ... وَزَلاَّتُ سُوءٍ قَدْ أَخَذْنَ الْمَخَانِقَا

فَيُثْبِتُ مَوْضُوعَ الأَحَادِيثِ جَاهِلاً ... وَيَعْزُو إِلَى الْمَعْصُومِ مَا لَيْسَ لائِقَا

وَيَشْتُمُ أَعْلاَمَ الأَئِمَّةِ ضَلَّةً ... وَلاَ سِيَّمَا إِنْ أَوْلَجُوهُ الْمَضَايِقَا

وَيُسْهِبُ فِي الْمَعْنَى الْوَجِيزِ دَلاَلَةً ... بِتَكْثِيرِ أَلْفَاظٍ تُسَمَّى الشَّقَاشِقَا

يَقُولُ فِيهَا اللَّهَ مَا لَيْسَ قَائِلاً ... وَكَانَ مُحِبًّا فِي الْخَطَابَةِ وَامِقَا

---

(١) وذلك كما في تفسيره قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] يقول: كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت. !!!

(٢) ينظر: معيد النعم ومبيد النقم.

(٣) ينظر: البحر المحيط ـ بتحقيقنا ـ ٨/٢٩٨.

وَيُخْطِيءُ فِي تَرْكِيبِهِ لِكَلاَمِهِ ... فَلَيْسَ لِمَا قَدْ رَكَّبُوهُ مُوَافِقَا
وَيَنْسُبُ إِبْدَاءَ الْمَعَانِي لِنَفْسِهِ ... لِيُوهِمَ أَغْمَاراً وَإِنْ كَانَ سَارِقَا
وَيُخْطِيُء فِي فَهْمِ الْقُرَانِ لأَنَّهُ ... يُجَوِّزُ إِعْرَاباً أَبَىٰ أَنْ يُطَابِقَا
وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يُؤْتَى الْبَيَانَ سَلِيقَةً ... وَآخَرَ عَانَاهُ فَمَا هُوَ لاَحِقَا
وَيَحْتَالُ لِلأَلْفَاظِ حَتَّىٰ يُدِيرَهَا ... لِمَذْهَبِ سُوءٍ فِيهِ أَصْبَحَ مَارِقَا
فَيَا خُسْرَهُ شَيْخٌ تَخَرَّقَ صِيتُهُ ... مَغَارِبَ تَخْرِيقِ الصَّبَا وَمَشَارِقَا
لَئِنْ لَمْ تَدَارَكْهُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ ... لَسَوْفَ يُرَى لِلْكَافِرِينَ مُرَافِقَا

حملة ابن خلدون:

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً في علوم القرآن من التفسير والقراءات وذكر فيه كلاماً في تفسير كتاب الله، وكان من قوله: «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه...»[1].

حملة الشيخ حيدر الهروي:

وكان للشيخ حيدر الهروي نصيب من التعليق على كشاف الزمخشري، فبين قيمة الكشاف وما له، ثم ذكر ما يعكر عليه من أنه بسبب: «إخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة، فالتزم في كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشاربه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية.

منها: أنه كلّما شَرَعَ في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعِدُ هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صَرَفَهَا عن ظاهرها بتكلُّفات باردة، وتعسُّفات جامدة، وصرف الآية ـ بلا نكتة بلاغيّة لغير ضرورة ـ عن الظاهر، وفيه تحريفٌ لكلام اللّهِ سبحانه وتعالَىٰ، وليته يكتفي بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير؛ لئلاّ يوهم بالعَجْز والتقصير، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادَرُ إلى الأفهام، والخفيّة التي لا تتسارَقُ إليها الأوهام، بل لا يهتدِي إلَىٰ حبائله إلا وُرَّادٌ بعد وُرَّادٍ من الأذكياء الحُذّاق، ولا ينتبه لمكائِدِهِ

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٨.

إلاَّ واحدٌ مِنْ فضلاء الآفاق. وهذه آفة عظيمَةٌ، ومصيبةٌ جسيمة.

ومنها: أنه يَطْعَنُ في أولياء الله المرتَضَيْنَ من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده، وَنِعْمَ ما قال الرازيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]: خاض صاحب «الكشَّاف» في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالَىٰ، وكتب فيها ما لا يليقُ بعاقلٍ أن يكتب مثله في كتب الفُحْش، فهبْ أنه اجترأ على الطَّعْنِ في أولياء الله تعالى، فكَيف اجتراؤه على كَتْبِهِ ذلك الكلام الفاحِشَ في تفسير كلامِ اللَّهِ المجيد.

ومنها: أنه أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرةً بَنَىٰ على الهَزْلِ والفُكَاهَة أساسَهَا، وأورد على المزاح البَارِدِ نِبْرَاسَهَا، وهذا أمر من الشرع والعَقْل بعيد، لا سيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة ـ وهم الفرقة الناجية ـ بعبارات فاحشة، فتارة يُعَبِّرُ عنهم بالمجبرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريضِ إلى الكُفْر والإلحاد، وهذه وظيفةُ السُّفَهَاءِ الشُّطَّار، لا طريقة العلماء الأبرار»[2].

حملة الجلال السيوطي:

ومن الكتب التي صنفها السيوطي كتاب «التحبير في علم التفسير»، ذكر فيه من يجوز لمثله أن يقحم نفسه في كتاب الله يفسره ويستخرج درره، كما ذكر من يقبل منه ومن لا، فقال: «. . . وممن لا يقبل تفسيره: المبتدع، خصوصاً الزمخشري في «كشافه»؛ فقد أكثر فيه من إخراج الآيات عن وجهها إلى معتقده الفاسد، بحيث يسرق الإنسان من حيث لا يشعر، وأساء فيه الأدب على سيد المرسلين ﷺ في مواضع عديدة فضلاً عن الصحابة وأهل السنة. وقد أحسن الذهبي إذ ذكره في «الميزان» وقال: كن حذراً من كشافه.

وألف الشيخ تقي الدين السبكي كتاباً سماه «الانكفاف عن إقراء الكشاف» ذكر فيه أنه عقد التوبة من إقرائه وتاب إلى الله، فلا يقرأه ولا ينظر فيه أبداً؛ لما حواه من الإساءة المذكورة.

قال[3]: وقد استشارني بعض أهل المدينة النبوية أن يشتري منه نسخة ويحملها إلى المدينة، فأشرت عليه بألا يفعل، حياءً من النبي ﷺ أن ينقل إلى بلد هو فيها كتاب فيه ما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) ينظر: كشف الظنون ص (١٤٨٣).
(٣) يعني تقي الدين السبكي.

يتعلق بجنابه ﷺ. على أنه آية في بيان أنواع البلاغة والإعجاز لولا ما شانه مما ذكرناه»[1].

قيمة الكشاف البلاغية:

لم يكن كشاف الزمخشري سوءاً كله، بل حوى كثيراً من اللمحات الفنية والبلاغية التي تجلي فصاحة كتاب الله وبلاغته وحسن رصفه، وجمال وصفه؛ فإن الذين نقموا على الزمخشري سوء فعاله، قدموا ذكر محاسنه، فجمع بين الخير والشر، وخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. [من الطويل]

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَىٰ سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَىٰ الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وكأن الزمخشري أحسن قيمة عمله وصنعة يده، فمن ثم رفع صوته قائلاً: [من البسيط]

إِنَّ التَّفَاسِيرَ فِي الدُّنْيَا بَلاَ عَدَدٍ ... وَلَيْسَ فِيهَا لَعَمْرِي مِثْلُ كَشَّافِي

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْهُدَىٰ فَالْزَمْ قِرَاءَتَهُ ... فَالْجَهْلُ كَالدَّاءِ وَالْكَشَّافُ كَالشَّافِي

ولعل من الإنصاف ألا نعتبر تزكية المرء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فمن ثم ننقل بعض كلمات مما قيلت في قيمة الكشاف البلاغية.

قولة أبي القاسم بن بشكوال:

نقل أبو حيان في «البحر المحيط» موازنة للحافظ ابن بشكوال، عقدها بين تفسير ابن عطية الأندلسي، وبين تفسير الزمخشري، فقال: «وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص، إلا أن الزمخشري قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبي المقادة فأعجزه اعتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتداه. وربما ناقض هذا المنزع، فثنى العنان إلى الواضح والسهل اللائح، وأجال فيه كلاماً، ورمى نحو غرضه سهاماً. هذا مع ما في كتابه من نصره مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه، ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض؛ لإصابته في أكثر بُنيانه».

والكشاف يعد أول كتاب في التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذي يفهم من التركيب اللفظي. كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع، لا يتفق لغير الزمخشري إمام اللغة وسلطان المفسرين؛ يقول

---

(١) ينظر: التحبير في علم التفسير ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

الشيخ حيدر الهروي:

(... وبعد، فإن كتاب الكشاف كتاب عليُّ القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين. اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكملة المفلقين. ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشييد معاقده. وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير. إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفي أثره، ويسأله خبره. وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار كالشمس في وسط النهار»[1].

هذا، وإن نيل الكشاف هذا الإعجاب والتقدير حتى من خصومه، لدليل واضح على قيمة هذا السفر وعلو قدره.

موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

من استقرأ صنيع الزمخشري في كشافه يجد أنه ذكر الإسرائيليات في بعض الآيات، إلا أنه كان يذكرها إما بصيغة «روي» المشعرة بالتمريض، أو بقوله: «والله علم بصحته»، أو يقول: «ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا: هذا من أباطيل اليهود».

ومن أمثلة ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، ولقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨] وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١]، في كل ذلك يروي روايات إسرائيلية، ثم يعقب عليها بما يشير إلى ضعفها أو عدم الأخذ بها فيما لا يليق بالأنبياء.

موقفه من المسائل الفقهية:

كان الزمخشري حنفي المذهب، إلا أنه معتدل لا يتعصب لمذهبه، فتارة يرجح مذهبه إن ظهر له ذلك، وتارة يرجح مذهب غيره، ومن إنصافه ما يظهر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال: والذي بيده عقدة

---

(١) ينظر: كشف الظنون (١٤٨٣).

النكاح ـ الولي، يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني، ولا خدمته، ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئاً، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي ـ وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأول ظاهر الصحة»[1].

وبعد فإن أول دليل على قيمة الكشاف أنه قد اعتنى به أناس كثيرون، فمن مختصرٍ له، ومن محشٍّ عليه، ومن منتصر له، ومن محاكم بينه وبين غيره، وقد ذكر صاحب «كشف الظنون» عدداً جمًّا منهم، أذكر هنا كلامه، يقول:

فَمِمَّنْ كتب عليه الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندريّ المالكي كتابه «الانتصاف» بيَّن فيه ما تضمنه من الاعتزال، وناقشه في أعاريب وأحسن فيها الجدال، وتوفي (سنة ٦٨٣ ثلاث وثمانين وستمائة). وتلاه: الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي في كتاب «الإنصاف» جعله حكماً بين «الكشاف» و«الانتصاف»، وتوفي (سنة ٧٠٤ أربع وسبعمائة)، ولخصهما: الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام في مختصر لطيف مع يسير زيادة، وتوفي (سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة)، قال: اختصرْتُ فيه «الانتصاف من الكشاف» وحذفت منه ما وقعت الإطالة به من نقل كلام الزمخشريّ على وجهه من غير كلام عليه؛ إعجاباً به واستحساناً له، وما قابل به الزمخشري في سَبِّهِ أهل السنة بمثلها؛ مقتصراً على العقيدة الصحيحة، وما يتعلق بالآية منها مِنْ دليلٍ، وحمل على تأويل، فلم أدع شيئاً من معاني الكتاب المذكور؛ فما وافق منه الصواب أبقيته بحاله، وما خالف ذلك بينت وجه ضعفه وإخلاله، والله الموفق، فابتدأ بـ«قال محمود» و«قال أحمد» إلخ؛ كما في «الانتصاف»، وأكثر الإمام أبو حيان في «بَحْرِهِ» من مناقشته في الإعراب، وتلاه: تلميذه الشهاب أحمد بن يوسف الحلبي المشهور بالسمين، والبُرْهَانُ إبراهيم بن محمد السفاقسيُّ في إعرابيهما، ولخص الشيخ تَاجُ الدين أحمد بن مكتوم مناقشاتِ شيخه أبي حيان في تأليفٍ مفرَدٍ، سماه: «الدر اللقيط من البحر المحيط» وتوفي (سنة ٧٤٩ تسع وأربعين وسبعمائة)، وممن كتب عليه حاشيةً: العلامة قُطْب الدين محمود بن مسعود الشيرازيُّ في مجلَّدَيْنِ لطيفَيْنِ، وتوفي (سنة ٧١٠ عشر وسبعمائة)، والعلاَّمة فخر الدين أحمد بن حسن الجار بردى المتوفَّىٰ (سنة ٧٤٦ ست وأربعين وسبعمائة)، والعَلاَّمة شرف الدين الحسن بن محمد الطِّيبيّ، وهي أجل حواشيه في ستّ مجلَّدات ضخمات، قال: «رَأَيْتُ النبيَّ ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قبيل الشروع؛ أنه ناولني قدحاً من اللبن، وأشار إلي فأصبت منه، ثم ناولته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأصاب منه، أقول: سمَّاها

---

(١) ينظر: الكشاف.

«فتوح الغيب، في الكَشْف عن قناع الريب»، وتوفي (سنة ٧٤٣ ثلاث وأربعين وسبعمائة)، والعلامة أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي، وهو شَرْحٌ بـ«قَالَ»، رأَيْتُ منه مجلداً على «الفاتحة»، وقطعة من «البقرة»، ولا أدري أكملها أم لا، أقول: وصل فيها إلى تمام الزهراوينِ، أوله: «الحَمْدُ لِلَّهِ عَلاَّمِ الغيوبِ، كَشَّاف الكروب...» إلخ، (وتوفي سنة ٧٨٦ ست وثمانين وسبعمائة)، والعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، وهي ملخَّصة من حاشية الطيبيِّ مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمَّها، أقول: وصل فيها إلى سورة «الفتح»، وفرغ منها (سنة ٧٨٩ تسع وثمانين وسبعمائة)، (وتوفي أول سنة ٧٩٢)، والعلامة قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي، (توفي سنة ٧٦٦)، وعليه اعتراضات أوردها جمال الدين محمد بن محمد الأقسرايي، وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبار، أولها: «الحمدُ للَّهِ الذي أخرج العباد من ظلمة العدم إلى نور الوجود...» إلخ؛ ذكر فيها أن شرح الكشاف للعلاَّمة قطب الدين الرازيِّ كتابٌ جليلُ الشانِ، لكن المولى جمال الدين محمد بن محمد الأقسرايي اَعْتَرَضَ عليه اَعتراضاتٍ، فكتبت الأجوبة، وسميتها بـ«المحاكمات»، وأجاب عن المحاكمات ابنُ سماونة ذكره عرب زاده في «حاشية الشقائق»، أما شرح الطيبي فلم يألُ جهداً في إيراد مباديه المنتشرة من تبيين وجوه القراءات وتصحيح الأحاديث والروايات، وتحقيق لغاته، وتدقيق نكاته، وبذل مجهوده في تقرير مسائله، ومع ذلك: ففيه شيئان؛ أحدهما: ليس من الأفعال الاختيارية، وهو أنَّ هذا الكتابَ كتابٌ متينٌ وحصنٌ حصينٌ لا يكمل علمه بمجرَّد العثور على العلوم الظاهرة، بل له شرائطُ بعضُهَا ما ذكره مؤلِّفه، حيث قال قد رَجَعَ زماناً ورُجِعَ إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، مع ذهنٍ وَقَّادٍ، وذكر أمر لا يمكن تحصيله إلا بالكدِّ والجِدِّ، وثانيهما: أنه كان مولعاً بكثرة إيراد النكات البيانية، فصار شرحه كبير الحَجْم في غير المقصود، واَختلاط الموجود بالمفقود، وأما شرح الرازيِّ: فلأنه غير تامٍّ، وبتقديره هو خلاصة الطيبيِّ لم يزدْ عليه سوى التنقيحِ في كل بابٍ، واعتراضاتٍ تنادِي بأن موردها ليس من رجال هذا الكتاب، وأما شرح الفاضل الجيلوهيِّ على أنه وافٍ بمقاصده، فإن فيه ثلاثة أشياء؛ أحدها: أنه لم يشرحه مرتباً كما يكون حال الشروح مع المتون، وثانيها: قد بذل جهده فيما يتعلق بالرواية وقوانينها؛ لكنه كثيراً ما يزلق في المضايق، ويدحض في التعقلات، ولا أدري أهو لقصور استعداده الفطريِّ أم لعدم تمرُّنه في المعقولات، وثالثها: أنه بَالَغَ في اختصار عبارته والاقتصارِ على إشارته؛ فخرج من حيز الاَنتفاع إلى حد الإِلغاز والإِخلال، فلا يحصل بمطالعته سِوَى التخيُّل الفاسد مع تَعَبِ الكلال، وأما شرح المحقِّق النحرير ـ أي: السعد ـ فما له من نظير؛ لاشتماله على التحقيق والتدقيق، ولطائف التوفيق والتلفيق، لكنه فوت الفرصة، واشتغل به في آخر عمره، فأتاه بريد الأجل، قبل الفراغ من العمل، وقد تحقَّقَتْ

منه أنَّ هذا الكتاب على تعاقب الشهور والأعوام مهرة لم تُرْكَبْ، ودرة لم تثقب. . . إلخ.
وكتب العلامة السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني حاشيةً ولا أدري إلى أين وصل، أقول: وقف في أواسط «سورة البقرة»، وتوفي (سنة ٨١٦ ست عشرة وثمانمائة)، وكتب المولى محيـي الدين محمد بن الخطيب حاشيةً على حاشية السيد، وتوفي (سنة ٩٠١ إحدى وتسعمائة)، أولها «إن أحَقَ ما يوشح به صدر الكلام. . .» إلخ، وأهداها إلى السلطان بايزيد، والمولى عبد الكريم ـ أيضاً ـ، والمولى علاء الدين علي الطوسي، المتوفى بسمرقند (سنة ٨٨٧ سبع وثمانين وثمانمائة)، وعلق المولى برهان الدين حيدر بن محمد الهروي تلميذ السعد حاشية على حاشية سعد الدين، أجاب فيها عن اعتراضات السيد، وتوفي (سنة ٨٣٠ ثلاثين وثمانمائة)، والمولى علاء الدين علي بن محمد المعروف بـ«قوشجي» علق على أوائل حاشية السعد، وتوفي (سنة ٨٧٩ تسع وسبعين وثمانمائة).
(وللمولى شيخ الإسلام بهراة يحيـى الهروي المعروف بـ«الحفيد» حاشيةٌ على حاشية جَدِّهِ سعد الدين، وأجاب ـ أيضاً ـ عن اعتراضات السيد). وعلى حاشية السيد حاشيةٌ للمولى حسن چلبي ابن محمد شاه الفناري المتوفَّىٰ (سنة ٨٨٦ ست وثمانين وثمانمائة)، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني، وهي على أسلوب غير أساليب المذكورين، وإنما ذكرمنها (من كلامهم) اليسير، أقول: وهي ثلاث مجلدات، سماها: «الكشاف على الكشاف»؛ كما سَبَقَ، وتوفي (سنة ٨٠٥ خمس وثمانمائة)، والشيخ ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن الحافظ الكبير عبد الرحيم العِرَاقِيّ في مجلَّدين، لَخَّصَ فيها كلام ابن المنير والعلم العراقي وأبي حَيَّان وأجوبة (السمين) الحلبيّ والسفاقسيّ، مع زيادة تخريج أحاديثه.
انتهى كلام السيوطيِّ مع حذف وإلحاق.

ثم أقول: وتوفي أبو زرعة (سنة ٨٢٠ عشرين وثمانمائة (٨٢٦)، وممن كتب ـ أيضاً ـ غير ما ذكره السيوطي: الإمام العلامة عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني (حاشية) في مجلَّد سماها: «الكشف»، (وتوفي سنة ٧٤٥ خمس وأربعين وسبعمائة)، أولها: «الحمد لله الذي أنار الأعيان بنورِ الوجود. . .» إلخ، ذكر فيها أنه أشار إلى تأليفها مَنْ أمرُهُ مطاعٌ، فشرع وكتب فيها ما تلقفه من الأئمة الماضين أو استنبطه بميامن أنوارهم، وهذا الأخير ميزها بـ«أَقُول»، والعلامة عماد الدين يحيـى بن قاسم العلوي المعروف بـ«الفاضل اليمني» (كتب حاشية» في مجلَّدين سماها دُرَرَ الأصداف من حواشي الكشاف [درر الأصداف في حل عقد الكشاف]، فرغ من تأليفها في صفر (سنة ٧٣٨ ثمان وثلاثين وسبعمائة) وتوفي (سنة ٧٥٠ خمسين وسبعمائة) (وله حاشية أخرى ـ اسمها تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف ـ ألفها بعد فراغه من حاشيته المسماة بدرر الأصداف في حل عقد الكشاف، أولها: «الحمد لله الذي أنزل قرآنه العظيم. . .» إلخ، ذكر فيها أنه لما وَقَفَ على

حاشية الطيبيِّ، وجد مذكوراً فيها ما ذكره صاحبُ «الانتصاف» و«الإنصاف» وغيرهما، أراد أن يجمع بين «حاشية الطيبي» و«دُرَرِ الأصداف»، وسماها «تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف». والشيخ علاء الدين علي بن محمد الشاهرودي الشهير بـ«مصنفك» فرغ منها (سنة ٨٥٦ ست وخمسين وثمانمائة)، وتوفي (سنة ٨٧١ إحدى وسبعين وثمانمائة)، وخير الدين خضر بن عمر العطوفي المتوفى (سنة ٩٤٨ ثمان وأربعين وتسعمائة)، ويوسف بن حسن التبريزي المتوفى (سنة ٨٠٤ أربع وثمانمائة)، وشرح خطبته الشيخ الإمام مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي المتوفى (سنة ٨١٧ سبع عشرة وثمانمائة)، وسماه: «نغبة الخَشَّاف، لِحَلِّ خطبة الكشاف»، ثم كتب ثانياً، وسماه «نغبة الرشاف، من خطبة الكشاف»، وذكر أن الأول أصيب بكفة الإتلاف عند مغيرة الإعجاف، وأعاد العمل (سنة ٧٦٨ ثمان وستين وسبعمائة)، وعلق على أوائله شيخ الإسلام سيف الدين أحمد بن محمد الهروي المعروف بـ«حميد التفتازاني» فبلغ إلى أواسط «سورة البقرة»، وتوفي (سنة ٩٠٦ ست وتسعمائة)، والمولى أبو السعود بن محمد العمادي على سورة الفتح، حين قرىء عليه في سفر الكفار، سماه: «مَعَاقِدَ الطراف، في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف» وتوفي (سنة ٩٨٢ اثنتين وثمانين وتسعمائة)، والمولى صنع الله بن جعفر المفتي على أوائله، وتوفي (سنة ١٠٢١ إحدى وعشرين وألف)، وممن علق على بعض مواضعه ـ أيضاً ـ المولى كمال الدين إسماعيل القرماني المعروف بـ«قرة كمال» من علماء الدولة الفاتحية. والعلامة شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بـ«ابن كمال باشا» المفتي المتوفىٰ (سنة ٩٤٠ أربعين وتسعمائة)، وهو من أحسن تأليفاته على ما ذكره عرب زاده في «حاشية الشقائق» أكثرها على السيد. والمولى مهدي الشيرازي المتوفى (سنة ٩٥٦ ست وخمسين وتسعمائة). وأما المختصرون فكثيرون منهم الشيخ محمدبن علي الأنصاريّ أزال عنه الاعتزال، وتوفي (سنة ٦٦٢ اثنتين وستين وستمائة). والعَلاَّمة قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي الفالي الشَّقَّار «لعله قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي المذكور قبل هذا» لخصَّه، وسماه تقريبَ التفسير، أتمه في التاسع من شوالٍ (سنة ٦٩٨ ثمان وتسعين وستمائه) ببلدة «شيراز» أوله: «الحمد لله الذي جعل كِتَابَهُ الكريم مفتاحاً للسرور. . .» إلخ، أزال اعتزاله وبعض إطنابه، فَهذَّب ونقح وضم إلى مواضع الانغلاق حَلاً وبياناً، وهو كتاب صغير الحجم وجيزُ النظم، مشتمل على محض الأهمِّ من «الكشاف» مع زيادات شريفة، وعليه حاشية لطيفةٌ مفيدةٌ مسمَّاة بـ«توضيح مشكلات التقريب» لعلي بن عمر الأرزنجاني، كتبها حين درسه، وبلغ إلى الثلث الثاني، أولها: «الحمد لله الذي حارت الأفكار في مبادي أنوار كتابه. . .» إلخ. والمولى عبد الأوَّل بن حسين الشهير بـ«أُمِّ ولد» المتوفىٰ (سنة ٩٥٠ خمسين وتسعمائة).

والمولى محب الدين محمد بن أحمد المدعوّ بمولانا زاده الحنفي (المتوفَّىٰ سنة ٨٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة). وسيد المختصرات منه كتاب أنوار التنزيل للقاضي العَلاَّمة ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، لخَصَّه وأجاد، وأزال عنه الاعتزال، وحَرَّر وٱستدرك وٱشْتَهَرَ ٱشتهار الشمس في وَسَط النهار، فعكف عليه العاكفون، كما سبق ذكره في الألف، وكانت وفاته (سنة ٦٩٢ اثنتين وتسعين وستمائة). وممن خرج أحاديثه الإمام المحدِّث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي المتوفى (سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة). ولخص كتابه الحافظ الكبير شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر في كتاب سَمَّاه: «الكَاف الشاف، في تحرير أحاديث الكشاف» في مجلد، واستدركَ عليه في مجلد آخر، وتوفي (سنة ٨٥٢ اثنتين وخمسين وثمانمائة)، قال ابن حجر: ٱسْتَوْعَبَ ما فيه من الأحاديث المرفوعة، فأكثر من تبيين طرقها، وتسمية مخرجيها، عَلَىٰ نمط ما في أحاديث «الهداية»؛ لكنه فاته كثير من الأحاديث المرفوعة التي يذكرها الزمخشريُّ بطريق الإِشارة، ولم يتعرض غالباً لشيء من الآثار الموقوفة. وصنَّف أبو علي عمر بن محمد بن خليل السكوني المغربي (المتوفى سنة ٧١٧ سبع عشرة وسبعمائة) كتاب «التمييز على الكشاف»، تكلم فيه في الإمام فخر الدين وغيره بما لا يعاب به عالم؛ (كما) ذكره السبكي وعلى الكشَّاف حاشية للإمام أبي العباس أحمد بن عثمان الأزدي الشهير بـ«ابن البناء»، ومن الحواشي حاشية الفاضل يوسف بن الحسين الحلواني مات (سنة ٨٥٤ أربع وخمسين وثمانمائة)، (وعلى الكشاف حاشية تامَّة في مجلَّدين للفاضل علاء الدين علي المعروف بـ«بَهْلَوَان»، ناقش فيها مع القطب الرازي). وشرح أبيات الكشاف لبعض الأفاضل مختصر، أوله: «إن أولى ما يفتتح به الكتاب...» إلخ، ذكر فيه أن بعض إخوانه أشار إليه بعد أن شرح أبيات المفصل أنْ يَشْرَحَ أبيات الكشَّاف، فأجاب، وهي زهاء ألف بيت، أكثرها منشور (منثور) المقاطع، خافية معانيها على أكثر الأدباء حتى الفحول. (وشرح شواهد الكشاف) في مجلَّدات لخضر بن محمَّد الموصلي نزيل مكة المكرَّمة، ذكره الشِّهَاب. و«مقتضب التمييز، في اعتزال الزمخشريِّ من الكتاب العزيز» للشيخ الفاضل أبي علي عمر بن محمد بن خليل السكوني صاحب «المنهج المشرق»، أوله «الحمد لله رب العالمين...» إلخ، وفي شرح خطبة الكَشَّاف مختصَرٌ لبعض الأفاضل، قال صاحب القاموس محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي (فيما كتبه على الخطبة)، قال بعض الطلبة: وأثبته بعض المعتنين بـ«الكشاف» في تعليق له عليه؛ أنه كان في الأصل (كتب) «خلق» مكان «أنزل» وبالآخرة (وأخيراً) غيره المصنِّف أو غيره؛ حذراً عن الشناعة الواضحة، فقول (هذا قولٌ) ساقطٌ جدًّا، وقد عرضته على أستاذي، فأنكر غاية الإنكار، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصَّوَاب؛ لوجهين: أحدهما: أن الزمخشري لم يكن لتفوته اللطائفُ المذكورة

في «أنزل» وفي «نزل» في مفتتح كلامه، ويقبل كلمة خالية من ذلك، والثاني: أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال، وإنما كان يفتخر بذلك، وأيضاً: أتى عقيبه بما هو صريح في المعنىٰ، ولم يبل (ولم يبال) بأنه قبيح وقد رأيتُ النسخة التي بخطِّ يده بـ«مدينة السلام» مختبئة في تربة الإمام أبي حنيفة خالية عن أثر كشط وإصلاح. انتهى. قال شمس الدين الأصبهاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره «الجامع بين التفسير الكبير والكشاف»: تتبعت الكشاف فوجدتُ أن كل ما أخذه أخذه من الزجاج.

وهكذا، كان لكتاب الزمخشري قيمة عالية بين أهل العلم، استوجب لأجلها أن يوضع في مصاف أفضل الكتب وأجود الأسفار، فإليك أيها القارىء اللبيب قبل كتاب تفسير أبي القاسم جار الله الزمخشري المسمى: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» مقدمة تتعلق بالتفسير ومدارسه.



«التفسير قبل الزمخشري»

مقدمة

التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ

التفسير: لغة:

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣] أي بياناً وتفصيلاً. وهو مأخوذ من الفسر، وهو: الإبانة والكشف.

قال الفيروزآبادي[١]:

«الفَسْرُ: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل كضرب ونصر».

وقال ابن منظور[٢]:

«الفَسْرُ: البيان، فَسَرَ الشيء يَفْسِرُه ـ بالكسر ـ ويَفْسُرُه ـ بالضم ـ فَسْراً، وفَسَّرَه: أبانه. والتفسير: مثله... والفَسْرُ: كشف المُغَطَّى. والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل».

وقال «أبو حيان»[٣]:

«... ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري».

---

(١) القاموس المحيط «فسر».

(٢) اللسان: مادة «فسر».

(٣) البحر المحيط ١/١٣.

وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين[١]:

الكشف المادي المحسوس، والكشف المعنوي المعقول.

وقيل: إن أصل الكلمة من التَّفْسِرَة، وهي الدليل من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كما يكشف المفسّر عن شأن الآية وقصتها[٢].

التفسير: اصطلاحاً:

عرفه السيوطي قائلاً[٣]:

«هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك».

وعرَّفه «أبو حيان» فقال[٤]:

هو «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك...» وفيه قصور وغموض[٥].

وتعريف «الزركشي» أوضح من التعريفين السابقين إذ يقول[٦]:

«التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ـ ﷺ ـ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ».

وهناك تعريفات أخرى ـ غير ما ذكرنا[٧] ـ وكلها تتفق «على أن علم التفسير علم

---

(١) التفسير: معالم حياته ـ منهجه اليوم ـ أمين الخولي ص ٥، والتفسير والمفسرون/ للذهبي ج ١/ ١٥.
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٩٤، وتفسير البغوي ١/ ١٨ ط المنار، واللسان: فسر.
(٣) الإتقان ٢/ ١٧٤.
(٤) البحر المحيط ١/ ١٠.
(٥) راجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير أبو شهبة ص ٤١.
(٦) البرهان ج ١/ ٣٣.
(٧) راجع مثلاً: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٠٦ط أولى، ومنهج الفرقان في علوم القرآن ج٢/ ٦، التفسير في قواعد التفسير / الكافياجي ص ٣، ١١ وغيرها.

يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد»[1] .

التأويل: لغة:

أصله: «من الأَوْلِ، وهو الرجوع».

قال الفيروزآبادي[2] :

«آل إليه أَوْلاً وَمَآلاً: رجع، وعنه ارتد... وأوّل الكلام تأويلاً، وتأوله: دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا».

وقال ابن «منظور»[3] :

«الأَوْلُ: الرجوع، آلَ الشَّيءُ يَؤولُ أَوْلاً ومَآلاً: رجع، وَأَوَّلَ الشيءَ: رَجَعَهُ، وأُلْتُ عن الشيء: ارتددت، وفي الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي لا رجع إلى خير... وأوّل الكلام وتأوَّله: دبره وقدره، وأوله وتأوله: فسره».

وعليه:

فالتأويل: إرجاع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، فكأن المؤوِّل ساس الكلام وضعه في موضعه... قال الزمخشري[4] :

«آلَ الرعيَّة يؤولها إِيَالَةً حَسَنَةً، وهو حسن الإيالة، وائتالها، وهو مُؤْتَالٌ لقومه مِقْتَالٌ عليهم، أي: سائس محتكم، قال زياد في خطبته: قد أُلنا وإيل علينا، أي: سُسْنَا وسِسْنَا...».

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ... ﴾ [آل عمران: ٧]. بمعنى التفسير والتعيين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] بمعنى العاقبة والمصير.

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٧.
(٢) القاموس المحيط ٣/ ٣٣١.
(٣) اللسان / مادة «أول» ١/ ١٧١ وما بعدها.
(٤) أساس البلاغة ص ٢٥ ط الشعب.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ. . .﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ. . .﴾ [يونس: ٣٩] بمعنى وقوع المخبر به.

ومن آيات سورة يوسف[١] أريد بها: نفس مدلول الرؤيا.

ومن آيتي سورة الكهف[٢] بمعنى بيان حقيقة الأعمال التي عملها العبد الصالح، وليس تأويل الأقوال[٣].

التأويل اصطلاحاً:

التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مترادفين، وهذا ما يعنيه «ابن جرير الطبري» في تفسيره حين يقول: «القول في تأويل قوله تعالى. . .» وكذا قوله «اختلف أهل التأويل في هذه الآية. . . فالتفسير والتأويل كلاهما بمعنى.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به.

وعليه:

فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أو مستقبلة، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر «ابن تيمية» هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني[٤].

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والكلاميين وغيرهم:

فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف[٥].

قال في جمع الجوامع[٦]:

---

(١) الآيات: ٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.
(٢) الآيتان: ٧٨، ٨٢.
(٣) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١٨، ١٩.
(٤) التفسير والمفسرون ١/ ١٩ (بتصرف وإيجاز).
(٥) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١٩.
(٦) ج ٢/ ٥٦، والتفسير والمفسرون ١/ ٢٠.

«التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل عليه دليل فصحيح، أو لما يظن دليلاً من الواقع ففاسد، أو لا لشيء فلعب لا تأويل».

«الْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ»

اختلف علماء «التفسير» في بيان الفرق بين التفسير والتأويل. ولعل منشأ هذا الخلاف «هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب»(١).

- ومن العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد... ومن هؤلاء: «أبو عبيد القاسم بن سلام» وطائفة معه(٢).

- ومنهم من فرق بينهما:

يقول الراغب الأصفهاني(٣):

«التفسير أعم من التأويل. وأكثر ما يستعمل التفسير من الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل. فالتفسير إمّا أن يستعمل في غريب الألفاظ «كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة»، أو في تبيين المراد وشرحه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عامًا، ومرة خاصًا، نحو «الكفر» المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصّة، و«الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل في الجدة والوجد والوجود».

---

(١) التفسير. معالم حياة - ص ٦.

(٢) الإتقان ٢/ ١٧٣، التفسير والمفسرون ١/ ٢١ والإسرائيليات والموضوعات ٤٣.

(٣) التفسير والمفسرون ١/ ٢١، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن / السيد خليل ص ٢٩، نقلاً عن: مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣ آخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.

وقال «أبو طالب الثعلبي»[1]:

«التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيِّب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأَوْل، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤﴾ [الفجر: ١٤] تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصدته: إذا رقبته، والمرصاد: مفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه».

وقال «البغوي»[2]:

«التأويل: هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط.

والتفسير: هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها».

وقيل: «التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية»[3]؛ يقول الكافيجي[4]:

«... إن علم التفسير علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث إنه يدل على المراد بحسب الطاقة البشرية، وينقسم إلى قسمين:

تفسير: وهو ما لا يدرك إلا بالنقل أو السماع، أو بمشاهدة النزول وأسبابه، فهو ما يتعلق بالرواية؛ ولهذا قيل: إن التفسير للصحابة.

وتأويل: وهو ما يمكن إدراكه بقواعد العربية، فهو ما يتعلق بالدراية، ولهذا قيل: إن التأويل للفقهاء، فالقول من الأوَّل بلا نقل أو سماع خطأ، وكذا القول من الثاني بمجرَّد التشهي، وأما استنباط المعاني على قانون اللغة فمما يعد فضلاً وكمالاً».

وقد رجح المرحوم الدكتور الذهبي هذا الرأي، وعلل ذلك بقوله[5]:

«وذلك لأن التفسير معناه: الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به

---

(١) الإتقان ٢/ ١٧٣.

(٢) تفسير البغوي ١/ ١٨.

(٣) الإتقان ٢/ ١٧٣.

(٤) التيسير في قواعد التفسير ص ٣، ١١.

(٥) التفسير والمفسرون ١/ ٢٣.

إلا إذا ورد عن رسول الله ـ ﷺ ـ أو عن بعض أصحابه، الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ـ ﷺ ـ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك».

وهذا هو ما نميل إليه.

«حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى التَّفْسِيرِ»

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين:

أولهما: ليكون معجزة، فلا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولا بسورة من مثله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

ثانيهما: ليكون منهج حياة، ودستوراً للمسلمين، فيه صلاحهم وفلاحهم؛ إذ تكفل بكل حاجاتهم من أمور الدين والدنيا، عقائد، وأخلاق، وعبادات، ومعاملات... إلخ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء: ٨٢]. ففي اتباعه الهداية، وفي الإعراض عنه الشقاء والضنك؛ ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦].

وبه مخرج الأمة من أزماتها، ونجاتها من الفتن؛ يقول علي ـ كرم الله وجهه ـ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَتَكُونُ فِتَنٌ، فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قَالَ ـ ﷺ ـ: «كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَىٰ الهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ أَفْلَحَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

- ولكي يكون معجزاً ويتأتى تحديه للبشر.

- ولكي يتأتى اتخاذه دستوراً ومنهج حياة.

ولكي يتدبر المؤمنون آياته[1].

ولكي يستطيع المسلمون العرب الانطلاق بالدعوة[2]؛ لكل هذا جاء القرآن عربيًا.

وكان القوم ـ «عند نزوله ـ سواء من هو حجة له: من المؤمنين الصادقين، ومن هو حجة عليه، من الكافرين الجاحدين يفهمونه ويحيطون بمعانيه إفراداً وتركيباً، فيتلقون دعوته، ويدركون مواعظه، ويعون تحديه بالإعجاز بين مذعنين، يقولون: آمنا به، ومعاندين يلحدون في آياته، ويمعنون في معارضته كيداً وَليًا بألسنتهم وطعناً في الدين.

«فما كان منهم مَنْ تَعَذَّر عليه فهمه، ولا مَنْ خَفِيَتْ عليه مقاصده ومعانيه، بل كان وضوح معانيه، ويسر فهمه، هو الأصل فيما قام حوله من صراع بين مؤمن يجد فيه شفاء نفسه، وانشراح صدره، وكافر ينقبض لقوارع آياته فلا يزال يدفعها بالإعراض والمعارضة، والدفاع والمقارعة، وكان ذلك هو الأصل أيضاً في تكون الأمة المحمدية، وتولد التاريخ الإسلامي»[3].

يقول «ابن خلدون»[4]:

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه».

وقد سبقه أبو عبيدة معمر بن المثنى حين قال[5]:

«إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين... فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه، إلى النبي ـ ﷺ ـ أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص».

إلا أن هذا الإطلاق يعارضه قول عمر بن الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ[6]:

---

(١) قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ....﴾ [ص: ٢٩].

(٢) قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ....﴾.

(٣) التفسير ورجاله / محمد الفاضل ابن عاشور ص ٧ ـ ٨.

(٤) المقدمة ص ٣٦٧ ط الأزهرية سنة ١٩٣٠.

(٥) مجاز القرآن ـ ط ثانية ـ دار الفكر.

(٦) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٢٨٤ ط الحلبي تحقيق أبو الفضل، وقال الصيرفي: ولست أعرف إسناد هذا الحديث، وإن صح فقد دل على أن النبي ﷺ قد عرف ألسنة العرب.

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَأْتِينَا بِكَلَامٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَا نَعْرِفُهُ وَلَنَحْنُ الْعَرَبُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِنَّ رَبِّي عَلَّمَنِي فَتَعَلَّمْتُ، وَأَدَّبَنِي فَتَأَدَّبْتُ».

كما يعارضه صريح القرآن؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

نعم، إن هناك ألفاظاً لم تستطع بعض القبائل العربية معرفتها، ربما لعدم استعمالهم لها، أو لاحتمال اللفظ عدة معانٍ، وكذا بعض آيات أشكل عليهم فهم معناها، وذلك كسؤالهم النبي ـ ﷺ ـ لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: وأينا لم يظلم؟ وفزعوا إلى النبي ـ ﷺ ـ فبيّن لهم أن المراد بالظلم الشرك؛ واستدلَّ عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولو صح ما ذهب إليه ابن خلدون وأبو عبيدة، لما كانت حاجة الصحابة إلى تفسير الرسول ـ ﷺ ـ لكن تفسير الرسول للقرآن قد ورد في الأحاديث الصحيحة، بياناً لمعنى لفظ، أو توضيحاً لمشكل، أو تأكيداً لحكم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تخصيصاً لعامٍّ، أو تقييداً لمطلق. . . إلخ.

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حراصاً على حفظ القرآن، وفهم معانيه، وفقه أحكامه.

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي:

حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ـ ﷺ ـ عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: «فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً».

وإذا كان العرب الخُلَّصُ الذين لم تعكر عربيتهم عجمة ـ يحتاجون إلى التفسير، فنحن أولى وأحوج، بل وأشد حاجة إلى تفسير القرآن الكريم؛ إذ صار البون بعيداً بين العرب والفصحى. . .

يقول السيوطي[1]:

«ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه

---

(١) الإتقان للسيوطي ٢/ ٣٣٠ والبرهان للزركشي ١/ ١٤.
(٢) الإتقان ٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧.

من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد احتياجاً إلى التفسير».

والحاجة إلى التفسير «إنما هي حاجة عارضة نشأت من سببين:

السبب الأول: هو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه في ظرف زمني متسع جِدًا: قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية بين تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيب يختلف عن ترتيبه التعبدي؛ لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وترتيب التلاوة أو الترتيب التعبدي، كان منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض... والترتيب الأول مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة.

أما ترتيب التلاوة التعبدي فباق؛ لأنه في ذات الكلام، يدركه كل واقف عليه وتالٍ له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيب التاريخي لا يدركه إلا شاهد العيان لتلك الملابسات من الجيل الذي كان معاصراً لنزول القرآن... وكان انقراض تلك الملابسات الوقتية محوجاً إلى معرفتها معرفة نقلية تصوُّرية؛ ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتدى بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم.

وأما السبب الثاني: فهو أن دلالات القرآن الأصلية، التي هي واضحة بوضوح ما يقتضيه من الألفاظ والتراكيب - تتبعها معانٍ تكون دلالة التراكيب عليها محل إجمال أو محل إبهام؛ إذ يكون الترتيب صالحاً على الترديد لمعان متباينة، يتصور فيها معناه الأصلي، ولا يتبين المراد منها؛ كأن يقع التعبير عن ذاتٍ بإحدى صفاتها، أو يكنى عن حقيقة بإحدى خَوَاصِّهَا، أو أحد لوازمها... فينشأ عن ذلك إجمال يتطلب بياناً، أو إبهام يتطلب تعييناً... ولما كان الذين اتصلوا أولاً بتلك المجملات أو المبهمات أو المطلقات قد رجعوا إلى المبلِّغ - ﷺ - في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها، فتلقوا عندما أفادهم، فاطلعوا بأن الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور المأثورة عن النبي - ﷺ لتتضح لهم تلك المعاني كما اتضحت لمن قبلهم...»[1].

وَبِذَا تبين أن التفسير نشأ منذ بدء الوحي؛ إذ احتاج إليه الصحابة، ثم زادت حاجة

---

(١) التفسير ورجاله من ١٠ ـ ١٣.

التابعين إلى التفسير، ولا سيما ما رآه الصحابة وسمعوه من الرسول ـ ﷺ ـ ولم يتمكنوا هم من رؤيته ولا سماعه... ثم اشتدت حاجة تابعي التابعين.

وهكذا كلما بَعُدَ الناس عن عصر نزوله، زادَتِ الحاجةُ إلى التفسير بمقدار ما زاد من غموض[1].

فَهْمُ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

نزل القرآن عربيًا على رسول عربي، وقوم عرب؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ...﴾ [الجمعة: ٢]، فكانوا أخبر بلغتهم، وفهموا القرآن حق فهمه، وقد يشكل عليهم فهم آية منه فيرجعون إلى القرآن نفسه، فقد يجدون فيه توضيحاً أو تفصيلاً؛ وإلا رجعوا إلى النبي ـ ﷺ ـ ليفسر لهم ما أشكل عليهم...

وكان الصحابة يجتهدون في فهم القرآن الكريم مستعينين على ذلك بـ[2]:

١ ـ معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

٢ ـ معرفة عادات العرب.

٣ ـ معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة وقت نزول القرآن.

٤ ـ قوة الفهم وسعة الإدراك.

وبدهي أن يتفاوت الصحابة في توافر هذه الأدوات عندهم، وبالتالي في فهم القرآن الكريم، فلم يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة، ومن هنا كان الاختلاف اليسير بينهم في تفسير القرآن الكريم.

ومن ذلك:

ـ ما روي من أن الصحابة فرحوا حين نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]؛ لظنهم أنها مجرد إخبار وبُشْرَىٰ بكمال الدين، ولكن عمر بَكَىٰ وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نَعْيَ النبي ـ ﷺ ـ وقد كان مصيباً في ذلك؛ إذ لم يعش النبي ﷺ بعدها إلا أحداً وثمانين يوماً؛ كما روي[3].

ـ وفيه ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال[4]:

---

(١) راجع التفسير والمفسرون / للذهبي ١/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) راجع التفسير والمفسرون ١/ ٥٩ وما بعدها.

(٣) الموافقات للشاطبي ج ٣/ ٣٨٤، التفسير والمفسرون ١/ ٦١، ٦٢.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/ ٥١٩،/ باب التفسير.

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟!

فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١].

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره؛ إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا، فقال: ما تقول؟

قلت: هو أَجَلُ رسولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَعْلَمَهُ اللَّهُ له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ فقال عمر: لا أعلَمُ منها إلا ما تقول».

ـ **وقال ابن عباس**[١]:

«كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]؟ حتَّىٰ أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُهَا، يقول: أنا ابتدأتها».

أَشْهَرُ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ

عد السيوطي عدداً من مفسِّري القرآن من الصحابة؟ ذَكَرَ منهم:

الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهم.

أما الخلفاء الثلاثة الأول فالرواية عنهم في التفسير قليلة جِدًّا، وذلك بسبب تقدُّم وفاتهم، ولانشغالهم بمهام الخلافة[٢].

١ ـ علي بن أبي طالب:

وأما علي ـ كرم الله وجهه ـ فهو أكثرهم تفسيراً للقرآن؛ وذلك لأنه لم يشغل بالخلافة، وإنما كان متفرغاً للعلم حتى نهاية عصر عثمان.

وكثرة مرافقته للرسول ـ ﷺ ـ وسكناه معه، وزواجه من ابنته فاطمة، إلى جانب ما

---

(١) الإتقان ٢/١١٣.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ٨٤، والتفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٦٤، ٦٥.

حباه الله من الفطرة السليمة... كل ذلك أورثه العلم الغزير، حتى قالت عائشة، رضي الله عنها[1]: «أَمَا إِنَّهُ لأَعْلَمُ النَّاسِ بِالسُّنَّةِ» في زمن كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ متوافرين.

وروى معمر، عن وهب بن عبد الله، عن أبي الطفيل، قال: «شهدت عليًّا يخطب وهو يقول: سَلُونِي، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل».

وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من عليٍّ؟

قال: لا، والله لا أعلمه.

وقال ابن مسعود: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن»[2].

نموذج من تفسير علي ـ رضي الله عنه ـ للقرآن:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]: إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً، ازداد ذلك البياض، حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق، ازداد بذلك السواد، حتى يسود القلب كله، وايم الله، لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود[3].

٢ ـ عبد الله بن مسعود:

هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح، وقيل: «شمخ»... ينتهي نسبه إلى مضر، يكنى بأبي عبد الرحمن، وأمه: أم عبد بنت عبد ود، من هذيل، وكان يقال له: ابن أم عبد.

أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب، وكان سبب إسلامه: حين مَرَّ به رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو يرعى غنماً، فسألاه لبناً فقال: إني مؤتمنٌ، قال: فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ عناقاً لم ينز عليها الفحل، فاعتقلها، ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص، فقلت: علمني من هذا الدعاء، فقال: إنك غلام معلم... الحديث[4].

---

(١) الاستيعاب ٣/ ١١٠٤، أسد الغابة ٤/ ٢٩.
(٢) راجع الإتقان ٢/ ٣١٩.
(٣) تفسير البغوي ـ ط المنار ٤/ ٢٧٣.
(٤) البداية والنهاية ٧/ ١٦٩، أسد الغابة ٣/ ٢٥٦ ـ ٢٦٠.

كان عبد الله من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأقرئهم له، وكان ـ ﷺ ـ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ يَوْماً: اقْرَأْ عَلَيَّ سُورَةَ النِّسَاءِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، يَقُولُ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: ٤١] فَاضَتْ عَيْنَاهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ[١].

وكان ـ ﷺ ـ يقول:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْباً كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[٢] وكان ابن مسعود حريصاً على فهم القرآن الكريم، يروي الطبري وغيره عن ابن مسعود أنه قال:

«كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»، وعن مسروق قال[٣]: قال عبد الله بن مسعود:

«والذي لا إلٰه غيره مَا نَزَلَتْ آيَةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل، لركبت إليه».

وطرق الرواية عن ابن مسعود متعدِّدة، وأصح هذه الطرق ما جاء من[٤]:

١ ـ طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

٢ ـ طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ ـ طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود... وهذه الطرق الثلاثة أخرج منها البخاري في «صحيحه».

وهناك طرق أخرى كـ:

ـ طريق السدي الكبير، عن مرة الهمذاني، عن ابن مسعود. أخرج منها الحاكم في «مستدركه» وابن جرير في «تفسيره» ـ كثيراً.

ـ طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود. وهي طريق غير مرضيَّة، أخرج منها ابن جرير في «تفسيره» أيضاً، وهي منقطعة؛ لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود.

وكان لابن مسعود تلاميذ كثيرون في الكوفة، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ لما ولي

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٦٩.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ٧.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الفضائل / باب مناقب عبد الله بن مسعود.
(٤) التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٨٧، ٨٨.

عَمّار بن ياسر على الكوفة، سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس الكوفيون إليه وتعلموا منه.

ويقول العلماء:

إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لطريقة الاستدلال، وقد أثرت هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فكثر التفسير بالرأي والاجتهاد[1]. وسوف يأتي ذكر تلاميذه عند حديثنا عن تفسير التابعين.

٣ ـ أبي بن كعب:

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، سيد القراء[2]. كنيته: أبو المنذر، أو أبو الطفيل.

شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله ـ ﷺ ـ.

وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة، وبإقرائه، قال فيه عمر بن الخطاب «أُبَيٌّ أَقْرَؤُنَا»[3].

وهو أحد الذين تَلْمَذَ عليهم «ابن عباس»؛ يقول ابن عباس[4]:

«ما حدثني أحد قط حديثاً فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم، فأقيل على بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يوقظ؛ لمكاني من رسول الله ـ ﷺ ـ ولكني أكره أن أمله».

كان أبي يكتب في مصحفه أشياء ليست من القرآن الكريم مما يعد شرحاً، أو تفسيراً، أو سبباً لنزول، أو مما نسخ، وكان يقول: لا أَدَعُ شيئاً سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ[5] فمن ذلك مثلاً: دعاء القنوت[6].

وكان من أعلم الصحابة بكتاب الله وذلك لعدة عوامل:

* أنه كان من كُتّاب الوحي للرسول ـ ﷺ ـ.

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٢٠.

(٢) تهذيب التهذيب ١/ ١٨٧، غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٣١. أسد الغابة ١/ ٤٩ ـ ٥١.

(٣) رواه البخاري، وانظر طبقات القراء للذهبي ٦/ ٦٢٩ وكذا شهد له النبي ﷺ.

(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٧١.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٢٨.

(٦) راجع الإتقان ١/ ٦٦.

* أنه كان حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها.

وقد تعددت طرق الرواية عنه وأشهر هذه الطرق:

١ ـ طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيّ، وهي طريق صحيحة، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الحاكم منها في «مستدركه»، والإمام أحمد في «مسنده».

٢ ـ طريق وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطُّفَيْل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في «مسنده»، وهي على شرط الحسن[١].

وتلاميذ أبيّ كثيرون منهم: أبو العالية، وزيد بن أسلم، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم. ويعد أبي بن كعب أستاذ مدرسة التفسير في المدينة.

٤ ـ عبد الله بن عباس:[٢]

هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم... يلتقي مع الرسول ـ ﷺ ـ في الجد الأول (عبد المطلب)، فهو ابن عم رسول الله.

ولد إبان المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها قريش على بني المطلب، أي: قبل الهجرة بثلاث سنوات.

لازم ابن عباس رسول الله ـ ﷺ ـ لكن الرسول توفي، ولابن عباس من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة.

وقد حظي ابن عباس بدعوة رسول الله له حين قال ـ ﷺ ـ: «اللَّهُمَّ، عَلِّمْهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»، وفي رواية: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ».

واستجيبت دعوة الرسول ـ ﷺ ـ فكان عبد الله بن عباس «ترجمان القرآن»؛ يقول ابن مسعود:

«نعم ترجمان القرآن ابن عباس»، وذلك لبراعته في التفسير؛ كما لقب بالحبر، لغزارة علمه، وبالبحر كذلك.

وإذا كان ابن عباس قد فاته طول الصحبة للرسول ـ ﷺ ـ فقد استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يسألهم، ويتعرَّف أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

---

(١) راجع التفسير والمفسرون ١/٩٢، ٩٣.

(٢) بعض الكتب التي تترجم للمفسرين من الصحابة تقدم ابن عباس على سائر الصحابة لتفوقه في هذا العلم، وبعضها ترجمه بعد الثلاثة السابقين لتقدمهم في السن عليه وحداثته بينهم.

يقول ابن عباس:[1]

«لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ـ ﷺ ـ اللتين قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾ [التحريم: ٤]، لم أزل أتلطف له حتى عرفتُ أنهما حفصة وعائشة».

ويقول:

«وجدت عامة حديث رسول الله ـ ﷺ ـ عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تَسْفِي على وجهي الريح، حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف».

لقد أخذ ابن عباس العلم عن رسول الله ـ ﷺ ـ أولاً؛ فكان الرسول يعلمه ويربيه؛ قال له يوماً:

«يا غُلَامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: ٱحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، ٱحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَٱسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا ٱسْتَعَنْتَ فَٱسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَٱعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ ٱجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وفي خلافة عمر كان لابن عباس تقدير خاصٌّ عنده، فكان يدنيه من مجلسه رغم حداثة سنة ـ كما ذكرنا.

وقد أفاد ابن عباس من هؤلاء الذين يعدون بمثابة شيوخه: عمر بن الخطاب، أبي بن كعب، علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت.

روى عبد الرزَّاق عن معمر قال[2]:

«عامة علم ابن عباس من ثلاثة: عمر، وعلي، وأبي بن كعب».

وذكر ابن الأثير الجزريُّ في ترجمة ابن عباس أنه[3] «حفظ المحكم في زمن النبيِّ ﷺ، ثم عرض القرآن على أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وقيل: إنه قرأ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ١/ ٢٢.
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٤١.
(٣) طبقات القراء ٤٢٥.

لقد أوتي ابن عباس علماً غزيراً جعله أبرز المفسرين وأتمهم اضطلاعاً بالتفسير حتى إنه «لم يبق عند منتصف القرن الأول من الهجرة من بين الصحابة وغيرهم إلا مذعن لابن عباس، مسلِّم له مقدرته الموفقة، وموهبته العجيبة، وعلمه الواسع في تفسير القرآن»[1].

لقد امتلك ابن عباس أدوات المفسِّر؛ فكان عالماً بأسرار العربية يحفظ الكثير من الشعر القديم، ويحثُّ الناس على النظر فيه قائلاً[2]:

«إذا تعاجم شيء من القرآن، فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي».

وهو القائل[3]:

«الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه».

وقد ذكر السيوطي بسنده حواراً دار بين نافع بن الأزرق وابن عباس، فقال[4]:

بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب؛ فإن الله تعالىٰ إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع:

أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج: ٣٧].

قال: العزون: حَلَق الرفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعتَ عَبيدَ بن الأبرص، وهو يقول: [من الوافر]

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال: الوسيلة: الحاجة.

---

(١) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٦.
(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٧.
(٣) الإتقان ١/١١٩، غاية النهاية في طبقات القراء ٤٢٦.
(٤) الإتقان ١/١٢٠.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عنترة وهو يقول: [من الكامل]

إِنَّ الـرِّجَـالَ لَـهُـمْ إِلَـيْـكِ وَسِـيـلَـةٌ   إِنْ يَـأْخُـذُوكِ تَـكَـحَّـلِـي وَتَـخَـضَّـبِـي

إلى آخر المسائل وأجوبتها[1].

وهي إن دلت فإنما تدل على سعة علمه بلغة العرب، وقوة ذاكرته؛ مما جعله إمام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسِّرين في الأعصر التالية لعصره، وهو إمام مدرسة التفسير في مكة، وأول من ابتدع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن.

طرق الرواية عن ابن عباس:

تعددت طرق الرواية عن ابن عباس، واختلفت تلك الطرق... وأشهر هذه الطرق وأصحُّها[2]:

١ ـ طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وتعد هذه الطريق من السلاسل الذهبية، وقد أخرج منها ابن جرير الطبري، وعبد الرزّاق في «تفسيريهما».

٢ ـ طريق سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح ـ وعن عكرمة أحياناً ـ عن ابن عباس، وقد أخرج منها عبد الرزاق في «تفسيره».

٣ ـ طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس... وقالوا:

إن هذه أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ: «إن بمصر صحيفةً في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقال الحافظ ابن حجر:

«وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في «صحيحه» فيما يعلقه عن ابن عباس».

٤ ـ طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

---

(١) راجعها في الإتقان ١/ ١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع: الإتقان ٢/ ١٨٨، التفسير والمفسرون ١/ ٧٧، ٨٨، حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٨٢.

وهناك طرق أخرى تلي هذه الطرق. . .[1].

وكان لابن عباس مدرسة في التفسير بمكة، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى.

يقول الإمام ابن تيمية:

«أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس؛ كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس؛ كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. . .»[2].

قِيمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ الصَّحَابَةِ

بعض المحدّثين يعطي التفسير المأثور عن الصحابي حكم المرفوع، ومن هؤلاء الإمام الحاكم في «مستدركه»؛ إذ يقول[3]:

«ليعلم طالب الحديث: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل ـ عند الشيخين ـ حديث مسند».

ولكن قيد «ابن الصلاح، والنووي» وغيرهما هذا الإطلاق بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه.

يقول ابن الصلاح[4]:

«ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند؛ فإنما ذلك في تفسير يتعلّق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ـ ﷺ ـ ولا مدخل للرأي فيه؛ كقول جابر ـ رضي الله عنه ـ: كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها في قبلها، جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ. . .﴾ الآية [البقرة: ٢٢٣] فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول ـ ﷺ ـ فمعدودة في الموقوفات».

وذكروا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا لم يكن للرأي فيه مجال، وأما ما يكون للرأي فيه مجال، فله حكم الموقوف.

---

(١) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ١٤٦ وما بعدها.
(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٥.
(٣) راجع: تدريب الراوي ص ٦٤، التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٩٤.
(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤.

وما حكم عليه بالوقف:

قال بعض العلماء: لا يجب الأخذ به؛ لأنه مجتهد فيه، وقد يصيب وقد يخطىء.

وقال بعضهم: يجب الأخذ به؛ لأنه: إما سمعه من الرسول، وإما فسره برأيه، وهم أدرى الناس بكتاب الله، وهم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال، ولا سيما ما ورد عن الأئمة الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم[1].

يقول الزركشي[2]:

«اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبي ﷺ، أو الصحابة، أو رُءُوس التابعين، فالأول: يبحث فيه عن صحة السند، والثاني: ينظر فيه تفسير الصحابي: فإن فسره من حيث اللغة، فهم أهل اللسان؛ فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن، فلا شك فيه...».

ويقول الحافظ ابن كثير[3]:

«... وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التامِّ والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم؛ كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمَّة المهديِّين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم».

مَدْرَسَةُ مَكَّةَ

تَلامِيذُ ابْنِ عَبَّاسٍ

١ ـ سعيد بن جبير:

هو[4]: سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني والبة، يكنى بأبي محمد[5]، أو بأبي عبد الله[6]. كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال[7].

---

(١) التفسير والمفسرون ص ٩٥ (بتصرف).

(٢) البرهان ٢/١٨٣.

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير / الجزء الأول.

(٤) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٦/٢٥٦، تقريب التهذيب ١/٢٩٢، وفيات الأعيان ١/٢٠٤، تهذيب التهذيب ٤/١١، البداية والنهاية ٩/١٠٣، الأعلام ٣/١٤٥.

(٥) (٦) طبقات ابن سعد، والبداية والنهاية وغيرهما.

(٧) التفسير والمفسرون ١/١٠٤.

هو أحد كبار التابعين، وإمام من أئمة الإسلام في التفسير، وكثرة العمل الصالح.

كان في أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً علماً[(١)].

أخذ العلم عن ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن مغفَّل المزني، وغيرهم. وتخرَّج في مدرسة ابن عباس[(٢)].

وكان ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟! يعني: سعيد بن جبير[(٣)].

وكان يحب أن يسمع منه، قال له مرة: حَدِّث، فقال: أُحَدِّثُ وأنت هنا؟! فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أصبتَ فذاك، وإن أخطأتَ علمتُكَ[(٤)].

مكانته في التفسير: كان ـ رضي الله عنه ـ من أعلم التابعين بالقراءات؛ يقول إسماعيل بن عبد الملك[(٥)]: «كان سعيد بن جبير يَؤُمُّنَا في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً».

وساعدته معرفته بالقراءات على معرفة معاني القرآن وأسراره، ومع ذلك كان يتورَّع من القول في التفسير برأيه.

يروي ابن خلكان[(٦)]: «أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن، فغضب، وقال: لأَنْ يسقط شِقِّي أحبُّ إليَّ من ذلك».

وقد شهد له التابعون بتفوُّقه في العلم، ولا سيما التفسير، قال قتادة[(٧)]: «وكان أعلم الناس أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

وقال سفيان الثوري[(٨)]: «خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جَبْر،

---

(١) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.
(٢) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.
(٣) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٥.
(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٧، ووفيات الأعيان ١/ ٢٠٤.
(٥) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤.
(٦) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٧) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.
(٨) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.

وعكرمة، والضحاك». وقال خُصَيْف[1]: «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيِّب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جَبْر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جُبَيْر».

نموذج من تفسيره: قال سعيد بن جبير: السبع المثاني هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، قال: وسميت بذلك؛ لأنها بينت فيها الفرائض والحدود[2].

قتله:

قتل ـ رضي الله عنه ـ سنة أربع وتسعين من الهجرة، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي صَبْراً، وذلك: أن سعيد بن جبير خرج على الخليفة مع ابن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث، وانهزم أصحابه من «دير الجماجم»، هرب سعيد، فلحق بمكة، وكان واليها خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، فأخذه وبعث به إلى الحَجَّاج.

فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير.

قال: بل أنت شقي بن كسير. قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت، وشقيت أمك. قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظَّىٰ. قال: لو علمت أن ذلك بيدك، لاتخذتك إلٰهاً.

قال: فما قولك في محمد؟. قال: نبي الرحمة وإمام الهدى.

قال: فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أو هو في النار؟. قال: لو دخلتها وعرفتُ مَنْ فيها عرفْتُ أهلها.

قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: وأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار؟!

قال: فما بالنا نضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعه بين يديه، فقال سعيد: إن كنتَ جمعتَ هذا لتتقي به مِنْ فَزَعِ يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٣٣، ٣٤.

أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا، ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ بالناي ـ بكى سعيد، فقال: ما يبكيك أهو اللعب؟ قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً، يوم النفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاء تبعث معها يوم القيامة.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد!! قال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أيَّ قتلة أقتلك.

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عُذْرَ.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضَحِكَ، فأخبر الحجاج بذلك فرده، وقال: ما أَضْحَكَكَ؟ قال: عجبت من جرأتك على الله، وحِلْمِ الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط، وقال: اقتلوه. فقال سعيد: وجهتُ وَجْهِيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين.

قال: وجهوا به لغير القبلة. قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، ثم دَعَا سعيد فقال: اللهم لا تسلِّطْهُ علَىٰ أحدٍ يقتله بعدي.

وكان الحجاج إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامِعِ ثوبه، ويقول: يا عَدُوَّ الله، فيم قتلتني؟!

فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير؟! ما لي ولسعيد بن جبير؟![1].

ذكر عن الإمام أحمد أنه قال[2]: قتل سعيد بن جبير، وما على وجه الأرض أَحَدٌ إلا وهو محتاج ـ أو قال: مفتقر ـ إلى علمه.

---

(١) انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٧١ ـ ٧٣، البداية والنهاية ٩/ ١٠١ ـ ١٠٣.
(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٦٦، وفيات الأعيان ١/ ٢٠٦، الأعلام ٣/ ١٤٥.

٢ ـ مجاهد بن جَبْرٍ:

هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج القرشي، المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. ولد سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣هـ[١].

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وأحد أعلام القراء، ومن خاصَّة أصحاب ابن عباس، اشتهر بقوة حافظته، حتى قال ابن عمر وهو آخذ بركابه:

«وددت أن ابني سالماً وغلامي نافعاً يحفظان حفظك»[٢].

كان مجاهد شغوفاً بالعلم وخاصَّة التفسير. روى الفضل بن ميمون عن مجاهد، قال[٣]: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

ويقول أيضاً[٤]: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟

ولا تعارض بين الروايتين، فالأولى لتمام الضبط والتجويد، والثانية للعلم والتفسير.

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم: عن ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمرو، وأبي سعيد، ورافع بن خَدِيجٍ... وروى عنه خلق من التابعين[٥].

مكانته في التفسير: كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس روايةً عنه في التفسير، وكان أوثقهم.

قال سفيان الثوري[٦]: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فَحَسْبُكَ به».

وقال ابن تيمية[٧]: «ولذا يعتمد على تفسيره الشافعيُّ والبخاريُّ وغيرهما من أهل العلم» غير أن بعض العلماء كان لا يأخذ بتفسيره؛ يقول أبو بكر بن عياش: قلت للأعمش، ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو: ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟

قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب[٨].

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٤٤٦، تهذيب التهذيب ١٠/٤٢، البداية والنهاية ٩/٢٣٢.
(٢)، (٣) ميزان الاعتدال ٣/٩.
(٤) تهذيب التهذيب ١٠/٤٢.
(٥) البداية والنهاية ٩/٢٣٢.
(٦) تفسير الطبري ١/٣٠.
(٧) مقدمة في أصول التفسير ص ٧ لابن تيمية.
(٨) طبقات ابن سعد ٥/٤٦٦، ميزان الاعتدال ٣/٣٣٩.

لكن هذا لا يقدح في صدقه وعدالته، فقد «أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به؛ وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة».

ثم إن سؤال أهل الكتاب أمر مباح ـ فيما لا يتعلق بحكم تشريعي ـ أباحه الرسول ﷺ[1].

كان مجاهد ـ رضي الله عنه ـ يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مَرَّ بنص قرآني من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحه ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مَبْدَأً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص»[2].

نموذج من تفسير مجاهد: روى ابن كثير أن مجاهداً قال في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: أما الظاهرة: فالإسلام والقرآن والرسول والرزق، وأما الباطنة: فما ستر من العيوب والذنوب[3].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى، فهو من الظالمين[4].

٣ ـ عكرمة:

هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، يكنى بأبي عبد الله، أصله من البربر بالمغرب[5].

سمع من مولاه ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم[6].

تَلْمَذَ عَلَىٰ يَدَيْ عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس لا يألو جهداً في تثقيفه وتعليمه، بل إنه كان يقسو عليه حتى يعلمه؛ روى ابن أبي شيبة عن عكرمة قال[7]: «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكَبْلَ يعلمني القرآن والسنة».

---

(١) يقول ـ ﷺ ـ: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٨.

(٣)، (٤) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٥/ ٢٨٧، وفيات الأعيان ١/ ٣١٩، البداية والنهاية ٩/ ٢٥٤، الأعلام ٥/ ٤٣.

(٦) طبقات ابن سعد ٥/ ٢٨٧.

(٧) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٥، والكَبْل: القيد.

وروى البخاري في صحيحه، عن عكرمة؛ أن ابن عباس قال له[1]: «حَدِّثِ الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تملَّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه؛ فإني عهدت رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه لا يفعلون ذلك».

لقد اهتم ابن عباس بتلميذه هذا اهتماماً كبيراً، وكأنه كان يَعُدُّهُ؛ ليكون خليفته في تفسير القرآن، وكان يكافئه إذا ما أحسن فهم آية أشكَلَتْ على ابن عباس.

روى داود بن أبي هند عن عكرمة قال:

قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نَجَوْا، فكساني حلة[2].

قال شهر بن حوشب: «عكرمة حبر هذه الأمة»[3].

وقد شهد له الأئمة الأعلام بالثقة والعدالة:

قال المروزي: قلت لأحمد: يحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم، يحتجُّ به[4].

وقال ابن معين: إذا رأيتَ إنساناً يقع في عكرمة وفي حَمَّاد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام[5].

وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتجُّ بعكرمة[6].

وقد أخرج له: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

علمه ومكانته في التفسير: كان عكرمة على درجة كبيرة من العلم، فهو من أعلم الناس بالسير والمغازي.

قال سفيان، عن عمرو، قال[7]: كنت إذا سمعت عكرمة يحدِّث عن المغازي كأنه مُشْرِفٌ عليهم ينظر كيف يصفون ويقتتلون.

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٩٣.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٢٨٨.
(٣) ميزان الاعتدال ٣/ ٩٣، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٤) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٥) معجم الأدباء ١٢/ ١٨٩.
(٦) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٧) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٥، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

وهو من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

أما التفسير: فقد شهد له الأئمة بذلك؛ يقول الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة[1].

وقال حبيب بن أبي ثابت: اجتمع عندي خمسة: طاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء؛ فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ما عندهما، جعل يقول:

أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا[2].

نموذج من تفسير عكرمة: قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] أي: بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتوبة، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: التسويف ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الموتُ، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان[3].

وتوفي عكرمة ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة سنة سبع ومائة للهجرة، وقيل: سنة أربع ومائة[4].

٤ ـ طاوس:

هو: طاوس بن كيسان الخولاني، أبو عبد الرحمن.

أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن[5].

أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، وروايته عن ابن عباس أكثر، وأخذه عنه في التفسير أكثر من غيره، ولهذا عُدّ من تلاميذ ابن عباس، وجاء ذكره في مدرسته بمكة[6].

روى عنه خلق من التابعين؛ منهم: مجاهد، وعطاء، وعمرو بن دينار، وغيرهم[7]. شهد له ابن عباس بالورع والتقوى؛ فقال: «إني لأظن طاوساً من أهل الجنة»[8]. وطاوس

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٥.
(٢) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٩.
(٤) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٣ ـ ٢٧٣، تذكرة الحفاظ ١/ ٩٠، البداية والنهاية ١/ ٢٥٣.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٤.
(٦) التفسير والمفسرون ١/ ١١٤.
(٧) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٥.
(٨) تهذيب التهذيب ٥/ ٩.

ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كان طاوس ـ رضي الله عنه ـ جريئاً في الحق، لا يخشَىٰ فيه لومة لائم، روى الزهري[1]: أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت، له جمالٌ وكمالٌ، فقال: من هذا يا زهريُّ؟

فقلت: هذا طاوس، وقد أدرك عدة من الصحابة، فأرسل إليه سليمان، فأتاه، فقال: لو ما حدثتنا؟! فقال:

حدثني أبو موسى قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إِنَّ أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً، فَلَمْ يَعْدِلْ فِيهِمْ»؛ فتغير وجه سليمان، فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه إليه، فقال: لو ما حدثتنا؟! فقال: حَدَّثني رجلٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ ـ قال ابن شهاب: ظننتُ أنه أراد عليًا ـ قال: دعاني رسول الله ـ ﷺ ـ إلَىٰ طعام في مجلسٍ من مجالسِ قُرَيْشٍ، ثم قال: «إِنَّ لَكُمْ عَلَىٰ قُرَيْشٍ حَقًّا، وَلَهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ حَقٌّ، مَا إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا ائْتُمِنُوا أَدَّوْا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً»؛ قال: فتغير وجه سليمان، وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه، وقال: لو ما حدثتنا؟! فقال: حدَّثني ابن عباس أن آخر آية نزلَتْ من كتاب الله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

علمه:

بلغ طاوس من العلم مبلغاً عظيماً، وكان واثقاً من علمه هذا.

أنكر عليه سعيد بن جبير قوله عن ابن عباس: إن الخلع طلاقٌ، فلقيه مرة فقال له: «لقد قَرَأْتُ القرآن قبل أن تُولَدَ، ولقد سمعته وأَنْتَ إذ ذاك هَمُّكَ لقم الثريد».

وقال قيس بن سعد: «كان طاوس فينا مِثْلَ ابن سيرين فيكم».

والتفسير المأثور عنه قليل جدًا، ومعظمه يرويه عن ابن عباس، ولقلة التفسير المأثور عنه، وطُولِ باعه في الفقه، قالوا عنه: إنه فقيه لا مفسِّر، وعدَّه علماء الفقه فقيهاً.

نموذج من تفسيره: قال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ . . .﴾ الآية [الروم: ٣٩] «هو الرجل يعطي العطية ويهدي الهدية ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر».

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٧.

وقد توفي طاوس ـ رضي الله عنه ـ يوم السابع من ذي الحجة سنة ١٠٦هـ، ووافته منيته وهو يحجُّ بيت الله الحرام، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وهو خليفة.

٥ ـ عطاء بن أبي رباح:

هو: عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح هو: أسلم بن صفوان، مولى آل أبي ميسرة بن أبي خُثَيْم الفهريّ[١].

سيد التابعين علماً وعملاً وإتقاناً في زمانه بمكة[٢].

قال ابن سعد[٣]: سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود، أَعْوَرَ، أَفْطَسَ، أَشَلَّ، أعرج، ثم عمي بعد ذلك.

وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.

قال أبو جعفر الباقر وغير واحد[٤]: ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حَجَّ سبعين حجة، وعُمِّر مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف، ويفدي عن إفطاره.

روى عن عدد كثير من الصحابة؛ منهم: ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وغيرهم.

وسمع من ابن عباس التفسير وغيره. وروى عنه من التابعين عدة؛ منهم: الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، والأعمش، وغيرهم[٥].

مكانته في التفسير: كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ يا أهل مكة، وعندكم عطاء؟![٦].

وقال قتادة[٧]: كان أعلمُ التابعين أربعة: «كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٧، وفيات الأعيان ١/ ٣١٨، البداية والنهاية ٩/ ٣١٧، ٣١٨.
(٢) ميزان الاعتدال ٣/ ٧٠.
(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٩٦، البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.
(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.
(٦) تذكرة الحفاظ ١/ ٩١.
(٧) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٩.

لم يكن عطاء مكثراً من رواية التفسير عن ابن عباس فضلاً عن تفسيره هو، ولعلَّ إقلاله في التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي[١].

قال عبد العزيز بن رفيع[٢]: سئل عطاء عن مسألة؟ فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تقولُ فيها برأيك؟ قال: إني أستحِيي من الله أن يدان في الأرض برأيي.

لكنه كان يدلي برأيه ـ أحياناً ـ في التفسير.

روى الطبراني ـ بسنده ـ عن يحيى بن ربيعة الصنعاني قال: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] قال: كانوا يقرضون الدراهم، قيل: كانوا يقصون منها ويقطعونها[٣].

وقيل لعطاء: إن ههنا قوماً يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فما هذا الهدى الذي زادهم؟!. قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥] فجعل ذلك دِيناً[٤].

وتوفي رضي الله عنه سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة[٥].

وبعد:

فهذه هي مدرسة التفسير بمكة، تلك التي أسسها حبر الأمة عبد الله بن عباس، وهؤلاء أشهر شيوخها الذين تخرجوا فيها على يَدَي ابن عباس، وفي نهاية مطافنا معها نرصُد ما يلي:

* كان لهذه المدرسة دور ضخم في نشر التفسير، وقد هيأ لها هذا الدور: نبوغ شيوخها، بالإضافة إلى موطن المدرسة «مكة» حيث البيتُ الحرامُ الذي يأتيه الناس من كُلِّ فَجٍّ عميق.

* لم يكتف شيوخ هذه المدرسة بنشر التفسير في مكة، وإنما كان لهم دور بالغ الأهمية خارج مكة؛ فقد كان لسعيد بن جبير رحلة إلى الري، نشر فيها الكثير من العلم[٦]، وكذلك كان لمجاهد رحلات خارج مكة، واستقر طاوس باليمن ينشر هناك علم

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.
(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.
(٣)،(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨، ٣١٩.
(٥) المصدر نفسه ٩/ ٣١٧.
(٦) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٤٥.

ابن عباس وتفسيره، وأما عكرمة فقد طاف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً؛ إذ رحل إلى خراسان، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والحرمين[1].

جزى الله هؤلاء الأعلام عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

مَدْرَسَةُ المَدِينَةِ
تَلامِيذُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ

قامت مدرسة المدينة في التفسير على الصحابي الجليل أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ فهو أستاذها وأشهر مفسريها.

وكان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها، فجلسوا إلى «أُبَيٍّ» يعلمهم كتاب الله وسنته، ومن أشهر هؤلاء:

١ ـ أبو العالية:

هو: زياد، وقيل: رُفَيْعُ بن مِهْرَان الرياحي، مولاهم[2].

مخضرم، أدرك الجاهلية وأسلَمَ بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ بسنتين.

روى عن: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم.

كان من ثقات التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة.

كان يحفظ القرآن ويتقنه، قال: «قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين».

وقال: «قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات».

وقال فيه ابن أبي داود: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية».

رويت عنه نسخة كبيرة في التفسير، رواها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيٍّ، وهو إسناد صحيح.

توفي سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال.

٢ ـ محمد بن كعب القرظي:

هو: محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، المدني، أبو حمزة، أو أبو عبد الله، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة؛ منهم: علي، وابن مسعود، وابن عباس،

---

(١) راجع: وفيات الأعيان ١/ ٣١٩، معجم الأدباء ١٢/ ١٨١، البداية والنهاية ٩/ ٢٥٤.

(٢) راجع: تهذيب التهذيب ٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ومقدمة فتح الباري ص ٤٢٢، وانظر: التفسير والمفسرون ١/ ١١٦، ١١٧.

وغيرهم. وروي عن أبي بن كعب بالواسطة[1].

قال فيه ابن سعد[2]: كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وهو من رجال الكتب الستة.

قال فيه ابن عون[3]: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي.

نموذج من تفسيره[4]: قال في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] اصبروا: على دينكم، وصابروا: لوعدكم الذي وعدتم، ورابطوا: عدوَّكُمُ الظاهر والباطن، واتقوا الله: فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون: إذا لقيتموني.

توفي سنة مائة وثمان من الهجرة[5]، وقيل بعد ذلك.

٣ ـ زيد بن أسلم:

هو[6]: زيد بن أسلم العدوي، المدني، الفقيه، المفسر. أبو أسامة أو أبو عبد الله.

كان أبوه مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان زيد من كبار التابعين الذين عرفوا القول بالتفسير.

قال فيه الإمام أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي: «ثقة». وهو عند أصحاب الكتب الستة.

عرف بغزارة العلم. كان يقرأ القرآن برأيه ولا يتحرَّج من ذلك؛ إذ يرى جواز التفسير بالرأي.

وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وتوفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة، وقيل غير ذلك.

---

(١) البداية والنهاية ٩/٢٦٨ وما بعدها.

(٢)، (٣) راجع: التفسير والمفسرون ١/١١٧، والإسرائيليات والموضوعات ٩٨.

(٤) البداية والنهاية ٩/٢٦٨.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) تهذيب التهذيب ٣/٣٩٥ ـ ٣٩٧، وراجع: التفسير والمفسرون ١/١١٨، ١١٩.

مَدْرَسَةُ الْعِرَاقِ
تَلامِيذُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وغيره، إلا أن ابن مسعود هو أشهر أساتذتها، أو هو أستاذها الأول؛ لطول باعه في هذا الميدان، بالإضافة إلى أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين ولى عَمَّار بن ياسر على الكوفة سَيَّرَ معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس إليه أهل الكوفة، وأخذوا عنه أَكْثَرَ من غيره.

ومن أهم سمات هذه المدرسة: شيوع طريقة الاستدلال فيها؛ نظراً لأن أهل العراق عرفوا بأنهم أهل الرأي، وقد وضع حجر الأساس لهذه الطريقة عبد الله بن مسعود(١).

ومن أشهر رجال هذه المدرسة:

١ ـ علقمة بن قيس:

هو: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، أبو شبل، النخعي، الكوفي.

كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم. وكان يشبه بابن مسعود، وكان أعلم أصحابه بعلم ابن مسعود(٢).

قال عثمان بن سعيد: «قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يُخَيِّر، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله».

وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه.

قال فيه الإمام أحمد: «ثقة من أهل الخير». وهو عند أصحاب الكتب الستة.

مات سنة إحدى وستين، وقيل: سنة اثنتين وستين، عن تسعين سنة(٣).

٢ ـ مسروق:

هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني، الكوفي، العابد، أبو عائشة.

سأله عمر يوماً عن اسمه؟ فقال له: اسمي مسروقُ بْنُ الأجدع، فقال عمر: الأجدَعُ

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٠ (بتصرف وإيجاز).

(٢) تهذيب التهذيب ٧/٢٧٦ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨/ ٢١٩.

(٣) راجع المصدرين السابقين.

شيطانٌ، أنت مسروق بن عبد الرحمن[1].

روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم.

وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذاً منه؛ قال علي بن المديني: ما أُقَدِّمُ على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله، يعني: ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه.

وقد وثقه علماء الجرح والتعديل؛ فقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: كان ثقة. وله أحاديث صالحة، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأَشْهَرِ[2].

٣ ـ عامر الشعبي:

هو: عامر بن شَرَاحِيلَ الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، أبو عمرو، قاضي الكوفة[3].

كان علاّمة أهل الكوفة، إماماً حافظاً، ذا فنون.

وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم؛ ومنهم: عمر، وعلي، وابن مسعود، وإن لم يسمع منهم، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم.

قال الشعبي: أدركت خمسمائة من الصحابة.

والشعبي ثقة؛ فهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال ابن حبان في «الثقات»: كان فقيهاً شاعراً.

وعن سليمان بن أبي مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيدَ بْنَ المسيِّب، ولا طاوساً، ولا عطاءً، ولا الحَسَنَ، ولا ابْنَ سيرين.

---

(١) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ ـ ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ ـ ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٥/٦٥ ـ ٦٩، البداية والنهاية ٩/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبي حَلْقَةٌ، وأصحاب رسول الله - ﷺ - يومئذٍ كثير[١].

ومع أنه قد أوتي هذا الحَظَّ الوافر من العلم، لم يَكُنْ جريئاً على كتاب الله حتَّىٰ يقول فيه برأيه؛ قال ابن عطية[٢]: كان جلة من السلف؛ كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي يعظِّمون تفسيرالقرآن، ويتوقَّفون عنه؛ تورُّعاً، واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم.

توفي سنة أربع ومائة من الهجرة[٣]، وقيل: سنة تسع ومائة.

٤ ـ الحسن البصري:

هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى الأنصار، وأمه: خَيْرَةُ مولاة أم سلمة زوج النبي - ﷺ - رُبِّيَ في حجرها، وأرضعته بلبانها، فعادت عليه بركة النبوة[٤].

ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب.

وهو أحد كبار التابعين الأجلاء علماً وعملاً وإخلاصاً، شهد له بالعلم خلق كثير.

قال أنس بن مالك: «سلوا الحسن؛ فإنه حفظ ونَسِينَا»، وقال سليمان التيمي: «الحسن شيخُ أهل البصرة»، وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال: «ما جالست فقيهاً قطُّ إلا رأيتُ فَضْلَ الحسن عليه».

وكان أبو جعفر الباقر يقولُ عنه: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»[٥].

وقد التزم الحسن البصري بمنهجه السلفي في تفسير الآيات المتعلِّقة بالله وصفاته، ولم يمنعه هذا الالتزام من حرية العقل حين تعرَّض لغيرها؛ يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له، وهذه هي عقيدة السلف التي بنوها على ما تعلق بالآية من سبب لنزولها؛ فعن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبيِّ - ﷺ - يخاصمونه في القَدَرِ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

---

(١) راجع لهذه الأقوال: تهذيب التهذيب، البداية والنهاية، والتفسير والمفسرون.
(٢) مقدمة تفسير القرطبي ١/ ٣٤.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٩.
(٤) تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣ ـ ٢٧٠، البداية والنهاية ٩/ ٢٨٠، الحسن البصري للإمام أبي الفرج بن الجوزي ـ هدية مجلة الأزهر / محرم ١٤٠٨هـ.
(٥) تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣.

﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩][1].

وكان الحسن يعمل عقله وفكره في فهم القرآن وتفسيره؛ يقول في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣﴾ [النبأ: ٢٣]:

«إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: لابثين فيها أحقاباً، فوالله، ما هو إلا أنه إذا مَضَىٰ حقب، دخل آخر، ثم آخر... إلى الأبد؛ فليس للأحقاب عدة إلا الخلود»[2].

وتوفي رحمه الله سنة عشر ومائة من الهجرة، عن ثمان وثمانين سنة.

٥ ـ قتادة:

هو: قتادة بن دعامة السدوسي، الأكمه، أبو الخطاب، عربي الأصل، كان يسكن البصرة.

أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، روى عن: أنس بن مالك، وجماعة من التابعين؛ منهم: سعيد بن المسيِّب، وأبو العالية، وزرارة بن أوفى، وعطاء، ومجاهد، وابن سيرين، ومسروق، وأبو مجلز، وغيرهم[3].

وحدَّث عنه جماعاتٌ من الكبار؛ كالأعمش، وشعبة، والأوزاعي، وغيرهم.

وكان قويَّ الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب.

كان قتادة على مبلغ عظيم من العلم؛ فضلاً عما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله تعالى؛ وقد شهد له بذلك كبار التابعين والعلماء.

قال فيه سعيد بن المسيب: «ما أتاني عراقيٌّ أحسن من قتادة».

وقد استخدم قتادة معرفته باللغة العربية في التفسير، وأعمل فكره في تفهم الآيات، بجانب روايته عن السلف.

وقد توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة، عن ست وخمسين سنة على المشهور، وقيل: سنة خمس عشرة ومائة[4].

وبعد:

فهذه هي مدارس التفسير المشهورة في عصر التابعين، الذين تَلَقَّوْا غالب أقوالهم في

---

(١) البغوي الفراء ٢٢١.

(٢) البغوي الفراء ٢٢٢.

(٣) وفيات الأعيان ٢/ ١٧٩، البداية والنهاية ٩/ ٣٢٦، تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١.

(٤) راجع: تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٦، البداية والنهاية ٩/ ٣٢٥، ٣٢٦.

التفسير عن الصحابة، وبعضهم استعان بأهل الكتاب، ثم اجتهدوا مستعينين على ذلك بما بلغوا من العلم ودقة الفهم، وقرب عهدهم من الرسول ـ ﷺ ـ والعرب الخلص، فلم تفسد سليقتهم.

وهناك مدارس أخرى غير هذه المدارس الثلاث، ولكنها لم ترق لشهرة هذه الثلاث.

ومن هذه: مدرسة مصر التي اشتهر من شيوخها: يزيد بن حبيب الأزدي، وأبو الخير مرثد بن عبد الله، وغيرهما.

ومدرسة اليمن التي أرسى دعائمها طاوس بن كيسان، وكان من أشهر شيوخها: وهب بن منبه الصنعاني.

وهكذا بذل هؤلاء التابعون جهداً ضخماً في حمل الأمانة عن الصحابة، ثم جاء تابعوا التابعين؛ ليكملوا المسيرة، وظَلَّتْ تتوارث حتى وصلَتْ إلينا، فجزى الله كُلَّ مَنْ أَسْهَمَ في هذا العلم خير الجزاء، ونفعنا الله بالقرآن وعلومه.

قِيمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ التَّابِعِينَ

تفسير التابعي: إما أن يكون مأثوراً عن النبيﷺ، أو عن صحابته، أَوْ لاَ: فإن كان مأثوراً عن النبي يأخذ حكم تفسيرهﷺ، وكذلك إن كان مأثوراً عن الصحابة.

وإن لم يكن مأثوراً عن النبي، ولا عن الصحابة، فقد اختلف العلماء في الرجوع إليه، والأخذ بأقوال التابعين فيه:

* فقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال[١]: ما جاء عن رسول الله ـ ﷺ ـ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيَّرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

* ونقلوا عن الإمام أحمد روايتين، إحداهما بالقبول، والأخرى بعدم القبول[٢].

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعين؛ لأنهم لم يسمعوا من النبي ـ ﷺ ـ بخلاف تفسير الصحابة الذين سمعوا من النبي ـ ﷺ ـ وشاهدوا القرائن والأحوال.

وأكثر المفسِّرين على الأخذ بأقوال التابعين؛ لأنهم تلقوا على أيدي الصحابة؛ كما سبق أن ذكرنا.

---

(١) راجع: التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٢٩.
(٢) المصدر نفسه.

والرأي الذي نرجِّحه ونميل إليه هو ما ذكره ابن تيمية، قال[1]:

«قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة؛ فكيف تكون حجة في التفسير؟! يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قولُ بعضهم حُجَّةً على بعض ولا عَلَىٰ مَنْ بعدهم، ويُرْجَعُ في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك».

سِمَاتُ التَّفْسِيرِ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ

اتسم التفسير في تلك المرحلة بعدة سمات؛ من أبرزها[2]:

* أنه اعتمد على التلقي والرواية، وغلب على التلقي والرواية طابع الاختصاص، فكان لكل بلد مدرسته وأستاذه، فمكة استاذها ابن عباس، والمدينة أستاذها أبي بن كعب، والعراق أستاذه ابن مسعود. . . وهكذا.

* دخول أهل الكتاب في الإسلام كان سبباً في تسلل الدخيل إلى علم التفسير، وقد تساهل التابعون في النقل عنهم ـ فيما لا يتعلق بالأحكام الشرعية ـ بدون تَحَرٍّ ونَقْدٍ، وأكثر من رُوِيَ عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب:

عبد الله بن سَلاَمٍ، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وغيرهم.

* كان بدهيًّا أن يختلف التابعون في التفسير؛ نظراً لتعدُّدهم وكثرتهم واختلاف مدارسهم التي تخرَّجوا فيها، ولكنه خلافٌ ليس بالكثير، إذا ما قيس بالعصور اللاحقة.

* كما ظهرَتْ نواة الخلاف المذهبيِّ؛ إذْ ظهرَتْ بعض التفسيرات تَحْمِلُ في طياتها بذوراً لتلك المذاهب.

التَّفْسِيرُ فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ

تبدأ هذه المرحلة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي؛ إذ انتشر التدوين بصورة واسعة، وعني العرب «بتدوين كل ما يتصل بدينهم الحنيف، فقد تأسَّسَتْ في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنِيَتْ بتفسير الذكر الحكيم، ورواية الحديث النبوي، وتلقين

---

(١) مقدمة في أصول التفسير / ابن تيمية ٢٨ ـ ٢٩، الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٢٩.
(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١٣١، ١٣٢.

الناس الفقه وشئون التشريع، وكان كثير من المتعلِّمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه...»[1].

تدوين التفسير: اُخْتُلِفَ في أول من ألَّف تفسيراً «مكتوباً»، فبعضهم يذكر أن «عبد الملك بن جُرَيْجٍ»[2] [ت ١٤٩هـ] هو أول من ألَّف تفسيراً مكتوباً.

وذكر ابن النديم: أن أبا العباس ثعلباً قال: كان السبب في إملاءِ كتاب الفَرَّاء في المعاني أن عمر بن بُكَيْرٍ كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن، فلا يحضُرُني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه، فَعَلْتَ، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن... فقال الفراء لرجل: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسِّرها، ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل وفَسَّر الفراء، قال أبو العباس: «لم يعملْ أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه».

وبذلك يكون ابن النديم قد عد «الفَرَّاء» أول من ألف تفسيراً للقرآن مدوَّناً.

ولكن ابن حجر يذكر أن التفسير المدوَّن كان قبل الفراء وقبل ابن جريج؛ إذ يقول[3]:

«وكان عبد الملك بن مروان [ت ٨٦هـ] سأل سعيد بن جبير [ت ٩٥هـ] أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير».

ويبدو أنه من الصعب تحديدُ أوَّلِ من فسر القرآن تفسيراً مدوَّناً على تتابع آياته وسوره كما في المُصْحَفِ.

أَقْسَامُ التَّفْسِيرِ

وظل الخَلَفُ يحمل رسالةَ السَّلَفِ جيلاً بعد جيل، حتى وصَلَتْ مسيرة التفسير إلى تابعي التابعين، وهنا تعدّدت اتجاهاتُ التفسير إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية، هي:

---

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ٤٥٢.

(٢) هو عبد الملك عبد العزيز بن جريج، أبو خالد، أو أبو الوليد، مولاهم، من علماء مكة ومحدثيها، ولد سنة ٨٠هـ، توفي سنة ١٤٩هـ، أول من صنف بالحجاز الكتب، نقل عنه ابن جرير في تفسيره. راجع طبقات ابن سعد.

(٣) تهذيب التهذيب ١٩٨/٧.

أولاً ـ الاتجاه الأثري (التفسير بالمأثور):

والمأثور: اسم مفعول من أَثَرْتُ الحديثَ أَثْراً: نقلته، والأَثَرُ اسمٌ منه، وحديث مأثور، أي: منقولٌ[(١)].

وعلى ذلك: فهو يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى ـ في القرآن الكريم ـ والمنقول عن النبي ﷺ، والمنقول عن الصحابة، والمنقول عن التابعين.

وجُلُّ الذين يكتبون عن تاريخ التفسير ويتحدَّثون عن الاتجاه الأثريِّ يَبْدَءُونَهُ بالطبري، فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطوُّر في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني؛ لأن تفسير ابن جرير الطبريِّ أُلِّفَ في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع. . . وبالوقوف على هذه الحلقة ـ وهي إفريقية تونسية ـ يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جُرَيْج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مَدِيناً له بذلك المنهج الأثريِّ النظري الذي دَرَجَ عليه في تفسيره العظيم.

ذلك التفسير هو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ويعد صاحبه مؤسِّس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري الذي صار بعده «ابن جرير الطبري» واشتهر بها.

ذلك هو تفسير «يحيى بن سَلاَّم» التميمي، البصري، المتوفى سنة ٢٠٠هـ، ويقع في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والاختيار، وكان يبني اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي. . . وتوجد من هذا التفسير نسخة بتونس[(٢)].

ويعد ابن جرير الطبري ربيب تلك الطريقة، طريقة يحيى بن سلام، وثمرة غرسه، وقد ذكر السيوطي عدداً من مفسري هذا الاتجاه الأثري منهم:

* يزيد بن هارون ت ١١٧ هـ.
* شعبة بن الحجاج ت ١٦٠ هـ.
* وكيع بن الجراح ت ١٩٧ هـ.
* سفيان بن عيينة ت ١٩٨ هـ، وغيرهم.

---

(١) المصباح المنير (أثر)، الإسرائيليات والموضوعات (أبو شهبة ص ٦٤).
(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ٢٧.

«ابن جرير الطبري»[1]:

لكن التفسير حين انتهَىٰ إلى الطبري في أوائل القرن الثالث الهجري «كان نهراً مزبداً، ذا ركامٍ ورواسب، قد انصب إلى بحرٍ خِضَمٍّ عُبَابٍ، فامتزج بمائه، وتشرَّب من عناصره، وصفا إليه من زبده، وتطهر لديه من ركامه ورواسبه»[2].

«وابن جرير» فقيه، عالم، تبحَّر في فنون شَتَّىٰ من العِلْمِ، فهو أحد المشاهير من رجال التاريخ، ويعد كتابه «تاريخ الأمم والملوك» فيه مرجع المراجع، وبه صار إمام المؤرِّخين غير منازع.

وقد شهد له بذلك كثير من الأعلام؛ يقول الخطيب البغدادي[3]:

«جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلِّها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المَشْهُورُ في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنِّفْ أحدٌ مثله...».

لقد امتلك الطبري أدوات التفسير، فاستخدمها بمهارة وحذق، ومن هنا عُدَّ تفسيره ذا أولية بين كتب التفسير: أولية زمنية، وأولية من ناحية الفنية والصياغة، أما أوليته الزمنية: فلأنه أقدم كتاب في التفسير وَصَلَ إلينا، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذَهَبَتْ بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شَيْءٌ منها، اللهم إلا ما وَصَلَ إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نَحْنُ بصدده[4].

وأما أوليته من ناحية الفَنِّ والصياغة: فذلك أمر يرجعُ إِلَىٰ ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلِّفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته»[5].

طريقة الطبري في التفسير:

حين يفسِّر الطبري آية يَضَعُ لها عنواناً هكذا «القول في تأويل قوله جل ثناؤه...» ثم

---

(١) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين.

(٢) التفسير ورجاله ص ٣٠.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٥٦.

(٤) هذا على اعتبار فقد تفسير «يحيى بن سلام» الذي أشرت إليه آنفاً، أما وقد ذكر الإمام الفاضل ابن عاشور أن نسخة من الكتاب موجودة في تونس، فإن تفسير الطبري لا يعد ذا أولية زمنية.

(٥) التفسير والمفسرون ١/٢٠٥.

يقول: يعني تعالى بذلك. . . ويستشهد على التفسير بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين، عارضاً المعاني الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب، مستشهداً بالشعر العربيِّ على ما يثبت استعمال اللفظ في المعنَى الذي حمله عليه.

وقد يَعْرِضُ أقوال الصحابة والتابعين، إذا تعدَّدَتْ في الآية الواحدة، ثم لا يكتفي بمجرَّد العَرْضِ، وإنما يرجح رأيا على رأي بقوله[1]:

«وأولى الأقوال عندي بالصواب. . .»، أو: «وقال أبو جعفر: والصواب من القول في هذه الآية. . .»، أو: «وأولى التأويلات بالآية. . .»، ثم يؤيد رأيه بقوله: «وبمثل الذي قلنا قال أهل التأويل. . .»، أو بعرض حجج وأدلة، قائلاً: «وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية؛ لأن. . .».

وقد عني ابن جرير بالقراءات عناية كبيرة، ولا غرو، فهو من علماء القراءات المشهورين، وله فيها مؤلَّفٌ، إلا أنه ضاع ضمن ما ضاع من التراث العربي القديم.

كما اهتم الطبري بالشعر القديم؛ ويستشهد به على الغريب، وهو في ذلك تابع لابن عباس.

كما كانت له عناية بالمذاهب النحوية البصرية والكوفية، يورد الرأي ويوجِّهه.

ويورد بعض الأحكام الفقهية في تفسيره؛ مختاراً لأحد الآراء، مؤيِّداً اختياره بالأدلَّة العلمية القيمة[2].

رحم الله الطبري وجزاه عن القرآن وتفسيره خير الجزاء.

ثانياً: الاتجاه اللغوي:

وقد بدا هذا الاتجاه واضحاً في أواخر القرن الثاني الهجريِّ، وأوائل القرن الثالث؛ إذْ نَشَأَ علم النحو، ونَضِجَتْ علوم اللغة على أيدي الرواد؛ أمثال: أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وغيرهم. .

وكان الغرض الأسمَىٰ من تأصيل هذه العلوم وتقعيدها خِدْمَةَ القرآن الكريم؛ صيانَةً له من اللحن، ولا سِيَّمَا بعد اتصال العرب بالعجم.

وقد أثرت هذه الدراساتُ في تفسير القرآن تأثيراً كبيراً؛ إذ اشتغل اللغويون أنفسهم بالقرآن ولغته، وكان من أشهر هؤلاء العلماء «أبو عُبَيْدَة مَعْمَرُ بن الْمُثَنَّى» المتوفَّىٰ سنة

---

(١) راجع: تفسير الطبري.

(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ٢٠٢ ـ ٢١٨.

٢٠٨هـ أو ٢١٥هـ، وقد ألف كتابه «مجاز القرآن» سنة ١٨٨هـ[١]، ويعد هذا الكتاب أقدم مؤلَّف في معاني القرآن وَصَلَ إلينا.

وأبو عُبَيْدَة موسوعةٌ علميةٌ له مؤلَّفات في مجالات شتَّىٰ، وقد «أوتي لساناً صارماً جَلَبَ علَىٰ نفسه عداوات كثيرة، ثم تنفَّسَ به العمر قرابة قرن كامل زَامَلَ فيه أعلاماً كباراً، وجادل خصوماً كثاراً، وشهد تلاميذه ومَنْ في طبقتهم يجادلون عنه، ويجادلون فيه، فقرب وباعد، وواصل وقاطع، ولكن مخالفيه كانوا من الكثرة بحيث أرهقوه وضايقوه، حتى جاءه الأجل فلم ينهض لتشييع جنازته أَحَدٌ، وعُلِّلَ ذلك بما ترك من حَزَازَاتٍ أدبية»[٢].

ويحكي أبو عبيدة سبب تأليفه كتاب «مجاز القرآن» فيقول:

«أرسل إليَّ الفَضْلُ بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فَقَدِمْتُ إلى بغداد واستأذنت عليه، فأَذِنَ لي، فدخلْتُ عليه وهو في مجلس له طويل عريضٍ، فيه بساطٌ واحدٌ قد ملأه، وفي صدره فُرُشٌ عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسيٍّ، وهو جالس عليها فَسَلَّمْتُ عليه بالوزارة، فَرَدَّ وضَحِكَ إلَيَّ، واستدناني حتى جلستُ إليه على فرشة، ثم سألني وألطفني وباسطني، وقال: أنشدني فأنشدته، فَطَرِبَ وضحك وزاد نشاطه، ثم دخل رجلٌ في زِيِّ الكُتَّاب له هَيْئَةٌ، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أَتَعْرِفُ هذا؟ قال: لا، قال: هذا أبو عبيدة عَلاَّمَةُ أهل البصرة، أقدمناه؛ لنستفيدَ من علمه، فدعا له الرجل وقَرَّظَهُ لفعله هذا، وقال لي: إني كنتُ إليك مشتاقاً، وقد سألتُ عن مسألة، أفتأذَنُ لي أن أُعَرِّفَكَ إياها؟ فقلت: هاتِ، قال: قال الله عز وجل: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥] وإنما يقع الوعد والإيعادُ بما عُرِفَ مثلُهُ، وهذا لم يُعْرَفْ؟! فقلت: إنما كلم الله تعالى العَرَبَ على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس: [من الطويل]

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغولَ قطُّ، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أَوْعَدُوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحْسَنَ السائل، وعزمْتُ مِنْ ذلك اليوم أن أَضَعَ كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه؛ فلما رجعت إلى البصرة، عَمِلْتُ كتابي الذي سميته «المجاز»، وسألت عن الرجل السائل، فقيل لي: هو من كُتَّاب الوزيرِ وجلسائِهِ، وهو إبراهيمُ بْنُ إسماعيلَ الكاتِبُ»[٣].

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٥٨.

(٢) خطوات التفسير البياني د. رجب البيومي ص ٣٧، ٣٨، وراجع: معجم الأدباء ١٩/ ١٦٠.

(٣) معجم الأدباء ١٩/١٥٨.

وبعض العلماء ينكر هذه القصة؛ لأن أبا عبيدة لم يُشِرْ إليها في مقدمة كتابه...[1].

ومن الذين كتبوا عن اتجاهات التفسير مَنْ يُسْلِكُ أبا عبيدة ـ من خلال كتابه هذا ـ في سلك الاتجاه البيانيّ في التفسير، وأكثرهم يعده رائداً في الاتجاه اللغوي.

على أن أبا عُبَيْدَةَ لم «يَعْنِ بالمجازِ ما هو قسيمُ الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية: مَا يُعَبَّرُ به عن الآية»[2].

فقد يستعمل أبو عبيدة لفظ المجاز قاصداً به معنى اللفظ، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩] يقول: مجازه: «شددني إليك، ومنه قولهم: وَزَعَنِي الحِلْمُ عن السفاه، أي: منعني، ومنه: الوزعة الذين يدفعون الخصوم والناس عن القضاة والأمراء، ثم يستشهد بالبيت: [من الطويل]

عَلَىٰ حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَىٰ الصِّبَا ... فَقُلْتُ: أَلَمَّا تَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ[3]

وأما أبو زكريا الفراء المتوفَّىٰ سنة ٢٠٧هـ، فكان يستعين بتفسيرات السَّلَفِ مضيفاً له ما أَدَّىٰ إليه اجتهاده اللغوي، وكذا الزَّجَّاج المتوفى سنة ٣١١هـ»[4].

لقد استلهم الفراء الحسن اللغوي محكِّماً ذوقه وعقله، كما راعى السِّيَاق العامَّ في الآية؛ ولذا نجده يفضل قراءة تُحَقِّقُ التجانس بين الكلمات المتجاورات على غيرها[5].

ثالثاً: الاتجاه البياني[6]:

وبذور هذا الاتجاه نجدها في تفسير ابن عباس المبثوث في ثنايا التفسير الأثريِّ، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦]، أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سأل الناس عن هذه الآية؟ فما وجد أحداً يشفيه، حتى

---

(١) راجع خطوات التفسير البياني ص ٤٤، ٤٥ وقد ذكر الدكتور رجب البيومي أسباباً أخرى ومبررات لرفض هذه القصة.

(٢) فتاوى ابن تيمية كتاب الإيمان ص ٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٩٢، ٩٣.

(٤) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٨.

(٥) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٩، ٢٤٠ (بتصرف وإيجاز).

(٦) بعض المؤلفين في تاريخ التفسير يضعون اتجاهاً ثالثاً بدلاً من هذا الاتجاه يطلقون عليه «الاتجاه النقدي»، وبعضهم يسلك هذا الاتجاه ضمن الاتجاه الأثري. انظر: التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٦.

قال ابن عباس، وهو خَلْفَهُ: يا أمير المؤمنين، إني أَجِدُ في نفسي منها شيئاً، فَتَلَفَّتَ إليه، فقال: تحوَّلْ ههنا، لِمَ تَحقِّرُ نفسك؟! قال: هذا مثل ضربه الله ـ عزَّ وجل ـ فقال: أيودُّ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخَيْرٍ حين فَنِيَ عمره، واقترب أجله، خَتَمَ ذلك بعمل مِنْ عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقَهُ أَحْوَجَ ما كان إليه[1].

وهو من باب الاستعارة التمثيلية، وقد ألمع إليه ابن عباس بقوله المُقَارب: هٰذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ... إلخ، وهل قال البلاغيون فيما بَعْدُ غَيْرَ ذلك؟![2].

ونهج تلاميذ ابن عباس نهجه، وكان أكثرهم نتاجاً في هذا الاتجاه «مجاهدٌ»[3].

وأما تأصيلُ هذا الاتجاه فقد كان على يد «أبي عُبَيْدَةَ» صاحب «مجاز القرآن»، ويعد صاحب الخطوة الأولَىٰ في هذا الاتجاه.

وفضلُ هذا الكتاب في الدراسات البلاغية أنه حِينَ تعرَّضَ للنصوص القرآنية، أَشَارَ إلَىٰ ما تدلُّ عليه من حقيقة أو مَثَلٍ أو تشبيهٍ أو كنايةٍ، وما يتضمَّن من ذكر أو حذف، أو تقديم أو تأخير، فوضع بذلك اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن... وإذا كان عبد القاهر أظهرَ مَنْ نَادَىٰ من البلغاء بأن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهو ما سمي بقضية «النَّظْم»، فإن بذور قضيته هذه كانت تكمن في مجاز «أبي عبيدة» حيث رأَىٰ في زمنه السابق ما رآه صاحب «الدلائل» في زمنه اللاحق، فكان بذلك الرائدَ الأوَّلَ لعلم المعاني عند من يلتمسون الجذور الضاربة في الأعماق[4].

وقد رتب «أبو عبيدة» كتابه وفق ترتيب السور القرآنية في المُصْحَفِ؛ ومِنْ هنا صار من اليسير أن يرجع الدارس إلى ما ذكر أبو عُبَيْدَةَ في توجيه الآيات الكريمة مِنْ مثل قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] حيث قال: إنها كناية وتشبيه[5].

ومن مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] حيث أتبع الآية بتحليل بياني، وعَدَّهَا من مجاز التمثيل، حين قال:

---

(١) تفسير ابن جرير ٣/٤٧.
(٢) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٢١ وفيه شواهد أخرى.
(٣) راجع الأمثلة التي ذكرها الدكتور رجب البيومي في خطوات التفسير البياني ص ٣٤ وما بعدها.
(٤) خطوات التفسير البياني ص ٤٦، ٤٧.
(٥) راجع: مجاز القرآن ١/٧٣.

«ومجاز الآية مجازُ التمثيل؛ لأن ما بَنَوْهُ على التقوى أَثْبَتُ أساساً من البناء الذي بَنَوْهُ على الكفر والنفاق، فهو على شفا جُرُفٍ، وهو ما يجرف من الأودية فلا يثبت البناء عليه»[1].

تلك هي الخطوة الأولى خطاها أبو عبيدة في التفسير البياني للقرآن الكريم، وإنْ وُجِّهَتْ إليه كثيرٌ من النقود والمطاعن من علماء كبار؛ أمثال الفراء، والأصمعي، والطبري[2].

ثم تَلَتْ هذه الخطوةَ خطواتُ الجاحظِ وابْنِ قتيبة وغيرهما.

التفسير بغير المأثور

(بالرأي)

المراد بالرأي هنا الاجتهاد، فإن كان الاجتهاد موفقاً، أي: مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ـ فالتفسير به محمود وَإلاً فمذموم، والأُمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير نقلها السيوطي في الإتقان عَن الزركشي، فقال ما ملخصه: للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربع:

الأولى: النقل عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثانية: الأخذ بقول الصحابي، فقد قيل إنه في حكم المرفوع مطلقاً، وخَصَّهُ بعضُهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلاً ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب.

الرابعة: الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع، وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ».

فَمَن فسر القرآن برأيه، أي: باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ، معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود، وَمَنْ حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها، كان تفسيره ساقطاً مرذولاً، خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٩، وانظر: خطوات التفسير البياني ص ٥١، ٥٢.

(٢) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٥٨ وما بعدها.

فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها، وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة، حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه.

أما الأُمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي فمن أهمها التهجم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، ومنها: حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة، ومنها: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، ومنها: القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل، ومنها: السير مع الهوى والاستحسان.

وبعد هذا فاعلم أن أكثر السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ قد أجازوا تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد.

مناهج المفسرين بالرأي

يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره، وأن يَتَذَرَّعَ بكل العلوم التي ذكرها الإمام الحبر البحر ذي البيان أبو حيان في مقدمة تفسيره هنا؛ ليكون قد أصاب المراد أو كاد.

أولاً: أن يطلب المعنى من القرآن، فإن لم يجده طلبه من السنة، لأنها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله، وشاهدوه حين نزل، فوق ما امتازوا به من علم وعمل «وخير ما فسرته بالوارد».

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي:

١ ـ البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق، ملاحظاً المعاني التي كانت مستعمله زمن نزول القرآن الكريم.

٢ ـ إرداف ذلك بالكلام على التركيب من جهة الإعراب والبلاغة، على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية.

٣ ـ تقديم المعنى الحقيقي على المجازي؛ بحيث لا يصار إلى المجاز إِلاّ إذا تعذرت الحقيقة.

٤ ـ ملاحظة سبب النزول، فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد؛ كما سبق في مبحث أسباب النزول.

٥ ـ مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها ببعض.

٦ ـ مراعاة المقصود من سياق الكلام.

٧ ـ مطابقة التفسير للمفسر من غير نقص ولا زيادة.

٨ ـ مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون، وسنن الاجتماع، وتاريخ البشر العام، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن.

٩ ـ مطابقة التفسير لما كان عليه النبي ﷺ في هديه وسيرته؛ لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته.

١٠ ـ ختام الأمر ببيان المعنى المراد والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية.

١١ ـ رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال وهو ما يأتي:

قال السيوطي في «الإتقان» ما نصه: «وَكُلُّ لفظ احتمل معنيين فصاعداً، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأي.

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره، وإذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما لغوية أو عرفية وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾، وإن كانت في أحدهما عرفية والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى.

وإن اتفقا في ذلك أيضاً، فإن تنافى اجتماعهما، ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كالقرء للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما؛ بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه.

وإن لم يظهر له شيء، فهل يتخير أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف؟ أقوالٌ، وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلا إِن دَلَّ دليلٌ على إرادة أحدهما أ هـ».

أَهَمُّ كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ الْجَائِزِ

نذكر منها مجرد أمثلة ومن أراد المزيد فليرجع إلى: «التفسير والمفسرون» لشيخنا الشيخ الذهبي، «ومناهل العرفان» وغيرهما.

١ ـ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ:

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي البكري، الطبرستاني، الرازي، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤هـ أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة، وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ٦٠٦هـ ست وستمائة من الهجرة بالري[١].

٢ ـ أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ، وَأَسْرَارُ التَّأْوِيلِ:

ومؤلفه هو: الشيخ الإمام، قاضي القضاة، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، البيضاوي، الشافعي[٢]، أصله مِن «شيراز»؛ في جنوب إِيران، وبها كانت نشأته العلمية الأُولى، وبها تخرج في الفقه والأُصول، والمنطق، والحكمة، والكلام والأَدب، وبرع في الأُصولين، وضم علوم العربية والأدب إلى علوم الشريعة والحكمة، وَلي قضاءَ «شيراز» مُدَّةً، وكانت وفاته بـ«تبريز» خمس وثمانين وستمائة، وقيل: سنة إِحدى وتسعين وستمائة، ومن مؤلفاته القيمة: كتاب «المنهاج» وشرحه في أُصول الفقه، وكتاب: «الطوالع» في أُصول الدين، و«أَنوار التنزيل»، و«أَسرار التأْويل»، وهو ما نحن بصدده وغيرها.

وتفسيره جامع بين التفسير والتأْويل على مقتضى القواعد اللغوية والشرعية، وهو متأَثر في طريقته في بيان الألَفاظ، والتراكيب، ونكت البلاغة ـ بتفسير الكشاف للزمخشري، ولكنه قرر فيه الأَدلة على أُصول أَهل السنة، وهو في هذا متأَثر بالإِمام فخر الدين الرازي.

٣ ـ الْجَامِعُ لأَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَالْمُبَيِّنُ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الْقُرْآنِ:

ومؤلفه هو، الإِمام: أَبو عبد الله، محمد بن أَحمد بن أبي بكر بن فرج الأَنصاري، الخزرجي الأَندلسي، القرطبي[٣]، المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماءِ العارفين

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام ٧/٢٠٣، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢/٢٣، وفيات الأعيان ٣/ ٣٨١، لسان الميزان ٤/٤٢٦، البداية والنهاية ٣/ ٥٥، طبقات الشافعية ٥/ ٣٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١٩٨، مفتاح السعادة ١/٤٤٥، مرآة الجنان ٤/ ٧، مرآة الزمان ٨/ ٣٥٣.

(٢) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (١/ ٢٤٢)، البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٩)، بغية الوعاة (٢/ ٥٠)، شذرات الذهب (٥/ ٣٩٢)، طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ١٥٧)، مرآة الجنان (٤/ ٢٢٠)، مفتاح السعادة (٢/ ١٠٣)، هدية العارفين (١/ ٤٦٢، ٤٦٣).

(٣) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (٢/ ٦٥)، الديباج المذهب (ص ٣١٧)، شذرات الذهب (٥/ ٣٣٥)، طبقات المفسرين للسيوطي (ص ٢٨)، نفح الطيب (٢/ ١١٠)، هدية العارفين (٢/ ١٢٩)، الوافي بالوفيات (٢/ ١٢٢).

الورعين، الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أُمور الآخرة، كانت أَوقاته كلها معمورة مشغولة ما بين عبادة وتأليف، وكانت وفاته سنة إِحدى وسبعين وستمائة ومن مؤلفاته كتاب: «الأَسنى في شرح أَسماءِ الله الحسنى»، وكتاب: «التذكار في أَفضل الأَذكار»، وكتاب: «شرح التقصي» وغيرها.

وتفسير القرطبي من أَجلِّ التفاسير وأَعظمها نفعاً، أَسقط منه القصص والتواريخ، وذكر عوضاً عنها أَحكام القرآن بتوسع، حتى حاف بها على التفسير، واستنباط الأَدلة وذكر القراءات والإِعراب والناسخ والمنسوخ.

٤ ـ لُبَابُ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ:

مؤلف هذا التفسير: هو علاء الدين أبو الحسن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيمي، البغدادي، الشافعي، الصوفي، المعروف بالخازن[١]، توفي سنة ٧٤١هـ (إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة.

٥ ـ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ لأَبِي حَيَّان:

ومؤلفه هو: الإِمام: أثير الدين، أَبو عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، الغرناطي، الحياني، الشهير بأَبي حيان[٢]، ولد سنة أَربع وخمسين وستمائة من الهجرة، وتوفي سنة أَربع وخمسين وسبعمائة.

كان ـ رحمه الله ـ ملمًا بالقراءات متواترها، وصحيحها، وشاذها؛ كما كان على جانب كبير من العلم باللغة وآدابها، والعلم بالنحو والصرف حتى صار إماماً فيهما، وذا رأي معتبر في مسائلهما؛ ولذلك غلب عليه في تفسيره: الإكثار من النحو، والصرف، واللغة ـ كما أسلفت.

وله مؤلفات منها: «غريب القرآن في مجلد»، و«شرح التسهيل» وهو كتاب جليل، وكتاب «البحر المحيط»؛ في التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن، وقد عكف على تأليفه لما نصب مدرساً للتفسير في قبةِ السلطان الملك المنصور، وفي دولة ولده الملك الناصر؛

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٩٧، الأعلام ٥/ ٥، معجم المطبوعات ٨٠٩.

(٢) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦)، بغية الوعاة (١/ ٢٨٠)، البدر الطالع (٢/ ٢٨٨)، حسن المحاضرة (١/ ٥٣٤)، الدرر الكامنة (٥/ ٧٠)، ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٢٣)، ذيل العبر (ص ٢٤٥)، طبقات الشافعية للسبكي (٦/ ٣١).

وكان ذلك في أَواخر سنة عشر وسبعمائة، وقد خطا سنه نحو السابعة والخمسين من عمره المبارك.

وقد اعتمد أَبو حيان في تفسيره على تفاسير مَن تقدمه: ولا سيما تفسير الإِمامين الجليلين: أَبي القاسم، محمود بن عمر الزمخشري، وأَبي محمد، عبد الحق، المعروف بابن عطية، وعلى ثقافته اللغوية والنحوية والصرفية والأَدبية، التي يظهر أثرها واضحاً في كتابه، وهو من كتب التفسير بالرأي والاجتهاد الممدوح.

وكتاب التفسير لأَبي حيان لم يخل كغيره من كتب التفسير من ذكر الروايات المأثورة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين.

٦ ـ السِّراجُ المُنِيرُ في الإعانةِ على معرفةِ بعضِ مَعَانِي كلامِ رَبِّنَا الحكيمِ الخَبِيرِ:

ومؤَلفه هو: الشيخ العلامة: شمس الدين، محمد بن أَحمد الشربيني، الشافعي الخطيب[1]، نشأ بالقاهرة، وعلى شيوخ عصره أَخذ، ولما رأَوه أَهلاً للفتوى، والتدريس، أجازوه بهما، فدرس وأَفتى، وانتفع به خلق كثير.

وقد كان ـ رحمه الله ـ على جانب من الصلاح، والورع، والزهد، وكثرة العبادة، وكان يعتكف طوال شهر رمضان من كل عام، توفي عصر يوم الخميس الثاني من شعبان سنة ٩٧٧ هـ، سبع وسبعين وتسعمائة هجرية.

ومن مؤلفاته: «شرح كتاب المنهاج»، و«شرح كتاب التنبيه»، و«السراج المنير» في التفسير.

وهو: تفسير وسط بين الإِطناب والإِيجاز، اقتصر فيه على أَصحِّ الأَقوال غالباً، ولم يذكر من الأَعاريب إِلاَّ ما كانَتِ الحاجةُ ماسَّة إليه، اعتمد فيه صاحبه على تفاسيرِ مَنْ سبقه؛ كالزمخشريِّ، والبيضاويِّ، والبغوي، والرازيِّ، وغيرهم، وقد ينقل فيه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف، كما التزم فيه: أَلاَّ يذكر من الأَحاديث إلا صحيحها، وحسنها، دون ذكر الضعيف والموضوع؛ ولذلك: يتعقب الزمخشريَّ، والبيضاوي، في ذكرهما للحديث الموضوعِ الطويلِ في فضائل السور: سورة، سورة، كما ينبه على الأَحاديث الضعيفة إِن روى شيئاً منها في تفسيره[2].

---

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام (٦/٦)، شذرات الذهب (٨/ ٣٨٤).

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٣٣٨ وما بعدها.

٧ ـ إِرشادُ العَقْلِ السَّليمِ إِلى مَزَايا القرآنِ الكَريمِ:

ومؤَلِّفُهُ هو: الإِمام، القاضي، المفتي، أَبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى[١]، ولد سنة ٨٩٣ هـ ثلاث وتسعين وثمانمائة من الهجرة، بقرية قريبة من القسطنطينية، ونشأ في بيت عرف بالعلم، والفضل، والدين، تتلمذ على والده، وغيره من العلماء. وعلَّ من معينه بعد نهل، حتى صار عَلَماً من أعلام العلم، تولَّى التدريس مدة، ثم ولي القضاءَ، وصار يتنقل فيه من بلد إِلى بلد، حتى انتهى به الأمر إِلى الإِفتاءِ، وكان أَبو السعود عالماً، أَديباً، متمكِّناً من اللغات الثلاث: العربية، والفارسية، والتركية، وقد مكنت له معرفته بهذه اللغات الاطلاع على الكثير من الكُتُب التي أُلفت بها، فاكتسب علماً غزيراً، ولم يدع له التدريس، وولاية القضاءِ، والتنقل بين البلاد ـ مجالاً للتأليف، فلم يترك لنا إِلا تفسيره هذا، وبعض حواش أُخرى، على «تفسير الكشاف»، وعلى «شرح العناية على الهداية»، وهي ناقصة، وبعد هذه الحياة العلمية الحافلة توفي بالقسطنطينية، في أَوائل جمادى الأُولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة، ودفن بجوار الصحابي الجليل: أَبي أَيوب الأَنصاري، فرضي الله عنه، وأَرضاه.

واشتغل العلاَّمة أَبو السعود في حياته بتدريس الكتابَيْن المشهورَيْن: الكَشَّاف، وتفسير البيضاوي، حتى في الأَوقات التي كان يخرج فيها مع السلطان سليمان القانوني غازياً، كان يشتغل بالتدريس لطلبته الذين كانوا لا يفارقونه، وقد كانت نفسه تَتُوقُ إِلى تفسير جامع بين تفسير الكشاف، وتفسير البيضاوي، وأَن يضيف إِليها ما اكتسبه من غيرهما من الكتب، ومن الفُهُوم التي فَتَحَ الله بها عليه في تَفسِيرِ القرآن حتى حَقَّقَ الله هذه الأُمنية في آخر حياته، فكان ثمرة ذلك هذا التفسير العظيم الذي اشتهر بشهرة صاحبه، وعكف أَهل العلم من يومها على دراسته، وسماه: «إِرشاد العقل السليم، إِلى مزايا القرآن الكريم» ولكنَّه خلَّصه من اعتزاليَّاتِ الزمخشريِّ، ونهج فيه منهج أَهل السنة.

ومن أَهم مميزات هذا التفسير: أَنه خَالٍ من الاستطرادات والتوسُّع في ذكر الأَحكام الفقهية والنحوية، ويكاد يكون خالصاً للتفسير، وقد عُنِيَ فيه عنايةً بالغةً بإِبراز وجوه البلاغة وأَسرار الإِعجاز في القرآن الكريمِ، ولا سيَّما في «باب الفصل والوصل»، و«وجوه المناسبات بين الآيات».

٨ ـ رُوحُ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَالسَّبْعِ الْمَثَانِي:

ومؤلفه هو: خاتمة المحققين، وعمدة المدققين، وإِمام المفسرين، أَبو الثناءِ: شهاب

---

(١) ينظر ترجمته في الأعلام (٧/٥٩)، شذرات الذهب (٨/٣٩٨)، الفوائد البهية ٨١.

الدين، السيد الإمام، محمود بن عبد الله الآلوسي[1] البغدادي، الحنفي، مفتي بغداد وعالمها في القرن الثالث عشر الهجري.

ولد سنة ١٢١٧ سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة، في جانب الكرخ من بغداد.

نبغ في العلوم من صغره، وأخذ عن كثير من فحول علماءِ عصره، منهم: والده، والشيخ خالد النقشبندي، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة، وقد تتلمذ عليه كثيرون، وتخرج على يديه بعض العلماءِ الفضلاءِ من بلاد مختلفة، ولما تولى الإفتاءَ شرع يدرس كل العلوم في داره؛ بجوار جامع الشيخ عبد الله العاقولي بالرصافة، وقد ساعده على ذلك: نبوغه في علوم شتى، وجمع إلى العلم النقلي والعقلي ـ الأدب وفنونه، فمن ثم عرف بجزالة التعبير، وسلالة الأسلوب، وحسن التصرف في القول، وبروحه اللطيفة الفكهة، ومن تعبيراته اللطيفة التي لا تخلو من الفكاهة: تسميته للحروف الزائدة بأَنها: «سيف خطيب»، وعن النكات البلاغية بأنها: «كالوردة، إنْ دعكتها أزلت ما فيها من رائحة وجمال».

وتفسير «روح المعاني» خير تفسير، وأَجمعه، وأَوفاه، وقد جمع فيه خلاصة كل كتب التفاسير قبله وحواشيها، ولا سيما حاشية: تفسير الكشاف، وحاشية الشهاب الخفاجي، على تفسير البيضاوي، وقد حل بعض رموزها، وعباراتها الخفية التي استعصى فهم المراد منها على العلماء، وله استدراكات قيمة، وتعقبات دقيقة لمن سبقه من العلماءِ.

وكثيراً ما يدلي برأيه بين الآراء؛ فهو ليس مجرد ناقل، بل له شخصيته العلمية البارزة، وأفكاره النيرة، وليس في تفسيره ما يؤاخذ عليه، إلا كثرة الاستطرادات، والتوسع فيما يستطرد إليه؛ حتى يكاد يغرق القارىء لكتابه في بحر هذه الاستدراكات، ولو أن أَحداً نزع ما استطرد إليه من كتابه، لجاءَت في رسائل كثيرة؛ وكذلك: ذكره للتفسير الإشاري، فليس ثمة ما يدعو إليه، ولعله فعل ذلك لنزعة تصوفية، وليجيءَ كتابه جامعاً لكل الأَلوان التفسيرية، ومرضياً لجميع الأَذواق.

---

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام (٧/ ١٧٧)، أعيان البيان ٩٩، أعلام العراق ٢١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

منهجنا في التحقيق

اتبعنا في تحقيق الكتاب ما يلي:

أولاً: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها.

ثانياً: تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب، مع وضع كتاب «الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» لابن حجر مبدوءاً بـ «قال الحافظ: ....» وكذا استعنا بتخريج الزيلعي على الكشاف.

ثالثاً: تخريج الشواهد الشعرية وتوثيقها مع وضع كتاب «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف» للشيخ محمد عليان.

رابعاً: وضع تعقبات السمين الحلبي في الدر المصون على الكشاف ودفعها.

خامساً: توثيق بعض الآثار الواردة في الكتاب.

سادساً: التعليق على بعض المسائل البلاغية في الكتاب.

سابعاً: تراجم لبعض الرواة.

ثامناً: شرح بعض الألفاظ الغريبة.

تاسعاً: وضع كتابي: «الانتصاف» للإمام أحمد بن المنير الاسكندري، وكتاب: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي.

عاشراً: وضع مقدمة للكتاب.

الحادي عشر: وضع فهارس عامة للكتاب.

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولى: وهي المحفوظة بمكتبة الأحقاف وتقع تحت رقم (٢٦٠) تفسير، في مجلدين، وعدد أوراقهما (٢١٥)ق، (٢٧٧)ق.

النسخة الثانية: وهي المحفوظة بالمكتبة الأزهرية تحت رقم (٣٤٠) تفسير، وعدد أوراقها (٢٨٣)ق.

النسخة الثالثة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩٧) تفسير طلعت في مجلدين، وعدد أوراقهما (٣٩٥)، (٤٧٧)ق.

النسخة الرابعة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٨٨) تفسير، في مجلدين، وعدد أوراقهما (٢٧٣)، (٦٠٢)ق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزّله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مُفتتحاً، وبالاستعاذة مختتماً، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً؛ وفصله سوراً وسوّره آيات، وميز بينهنّ بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدىء مبتدع، وسمات منشىء مخترع؛ فسبحان من استأثر بالأوّلية والقِدم، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم؛ أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببينات وحجج، قرآنا عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم؛ على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء؛ ولم ينبض[1] منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط في المضادّة والمضارّة، وإلقائهم الشراشر[2] على المعازة والمعارّة، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط؛ إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر؛ وقد جرّد لهم الحجة أوّلاً، والسيف آخراً، فلم يعارضوا إلا السيف وحده، على أنّ السيف القاضب مخراق لاعب إن لم تمض الحجة حدَّهُ؛ فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب[3]، وأنّ الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب.

---

(١) قوله: «ولم ينبض» أي يتحرك كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «الشراشر» في الصحاح؛ الشراشر الأثقال. الواحدة شرشرة يُقال: ألقى عليه شراشره حرصاً ومحبة. وفيه: العرارة شدة الحرب، واسمه للسودَد. (ع)

(٣) قوله «فطم على الكواكب» في الصحاح: الكوكب النجم، وكوكب الشيء معظمه، وكوكب الروضة نورها، والمعنى الأخير هو المراد هنا، والأول هو ما يأتي. (ع)

والصلاة [والسلام] على خير من أُوحيَ إليه حبيب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم؛ ذي اللواء المرفوع في بني لؤيّ، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصيّ؛ المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشادخ[1] الغرّة الواضح التحجيل، النبيّ الأميّ المكتوب في التوراة والإنجيل/؛ وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم: أنّ متن كلّ علم وعمود كل صناعة ـ طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافة قصيرة؛ وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل؛ حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عدّ ألف بواحد ـ ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمنّ عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم.

ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح[2]؛ من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها ـ علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم؛ كما ذكر الجاحظ في كتاب «نظم القرآن»، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ؛ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه ـ لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن؛ وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله؛ بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ؛ كثير المطالعات، طويل المراجعات؛ قد رجع زماناً ورجع إليه، وردّ وردّ عليه؛ فارساً في علم الإعراب، مقدّماً في حملة

---

(١) قوله: «الشادخ الغرة» في الصحاح: شدخت الغرة، إذا اتسعت. (ع)

(٢) قوله: «بما يبهر الألباب القوارح» في الصحاح: قرح الحافر، إذا انتهت أسنانه، وكل ذي حافر يقرح، وكل ذي خف يبزل. (ع)

الكتاب؛ وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها؛ يقظان النفس درّاكاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزّا جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض[1] بتلقيح بنات الفكر؛ قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه.

ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية[2] العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم/ بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب؛ واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم «الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي؛ أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة؛ لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم؛ فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيول [والأذناب]، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها ـ وقليل ما هم ـ عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حرّاصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي وحرّك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس ـ أدام الله مجده ـ وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم ـ أعطش الناس كبداً وألهبهم حشى وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدّث نفسه ـ في مدّة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادّة ـ بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض؛ فقلت: قد

---

(١) قوله: «غير ريض» في الصحاح: ناقة ريض، أول ما ريضت وهي صعبة بعد. (ع)

(٢) قوله: «مِن أفاضل الفئة الناجية» هي التي سمَّاها أهل السُّنَّة بالمعتزلة، فقوله: «إخواننا في الدين» يقتضي أنه مِن المعتزلة؛ ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول المعتزلة، فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبقاها على ظاهرها، وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم، عفى اللّه عنه. (ع)

ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السنّ، وتقعقع الشنّ، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر[1]، ووفق الله وسدّد ففرغ [منه] في مقدار مدّة خلافة أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه[2] ـ وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم؛ أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني، ونوراً [لي] على الصراط يسعى بين يدي وبيميني؛ ونعم المسئول.

---

(١) قوله: «والفحص عن السرائر» لعله «الشرائد» أو «الشدائد». (ع)

(٢) قوله: «ففرغ منه في مقدار خلافة أبي بكر الصديق ـ رضيَ اللّه عنه ـ: وكان يقدر تمامه في أكثر مِن ثلاثين سنة» كانت مدة خلافة أبي بكر ـ رضيَ اللّه عنه ـ سنتين وثلاثة أشهر على الصواب، وكأنه لمح بذكر الثلاثين إلى حديث سفينة مرفوعاً «الخلافة بعدي ثلاثون سنة» أخرجه الترمذي وغيره. فكأنه قال يقدر تمامه في مدة الخلفاء الراشدين فيسره اللّه في قدر مدة أولهم وأفضلهم. وكانت أيضاً أقصر مِن مدة الثلاثة الذين بعده؛ لأن خلافة عمر رضيَ اللّه عنه كانت عشراً وأشهراً. وعثمان رضيَ اللّه عنه اثني عشرة سنة. وعلي رضيَ اللّه عنه خمس سنين إلا أشهراً. وقُتِل علي رضيَ اللّه عنه بعد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بتسع وعشرين سنة ونصف، وأكمل النصف مدة الحسن بن علي رضيَ اللّه عنه، واللّه أعلم. أهـ مِن تخريج الأحاديث للحافظ ابن حجر.

سورة فاتحة الكتاب

مكية، وقيل: مكية ومدنية؛ لأنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة أخرى، وتسمى: أمَّ القرآن؛ لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد/ ٣أ والوعيد، وسورة الكنز والوافية لذلك، وسورة الحمد والمثاني؛ لأنها تثنى في كل ركعة، وسورة الصلاة؛ لأنها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها، وسورة الشفاء والشافية، وهي سبع آيات بالاتفاق، إلا أنّ منهم من عدّ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] دون التسمية، ومنهم من مذهبه على العكس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُرّاءُ المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور؛ وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بُدىء بذكرها في كل أمر ذي بال؛ وهو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ومن تابعه؛ ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقُرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه ـ رحمهم الله ـ ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا ﴿آمين﴾، فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس: «مَنْ تَرَكَهَا، فَقَدْ تَرَكَ مائَةً وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ آيَةً مِنْ كِتَابِ الله تَعَالَىٰ» (١).

---

١ ـ قال الزيلعي في «الإسعاف» (١/ ٢١): غريب، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٣٩) من طريق شهر بن حوشب عن ابن عباس بلفظ: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك آية من كتاب الله».

فائدة: أخرج الحافظ البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٤٠) رقم (٢٣٣٨) بسنده إلى الإمام أحمد قال: من لم يقرأ مع كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: موقوف، ليس بمعروف عنه، والذي في «الشعب» للبيهقي عنه: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك آية من كتاب الله». وتعقب ابن الحاجب ما أورده الزمخشري، بأن قال: «الصواب مائة وثلاث عشرة»، وبهذا اللفظ ذكر الشهرزوري في «المصباح».

وزاد: وإنما لم يقل: «أربع عشرة»؛ لأن «براءة» لا بسملة فيها، انتهى. روى البيهقي في «الشعب» =

فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو[1]؛ لأنّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحل وبسم الله أرتحل؛ وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله؛ بـ «بسم الله» كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له، ونظيره في حذف متعلق الجارّ قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢]، أي: اذهب في تسع آيات. وكذلك قول العرب في الدعاء للمعرس: بالرفاء والبنين. وقول الأعرابي: باليمن والبركة، بمعنى: أعرست، أو نكحت؛ ومنه قوله [من الوافر]:

= عن أحمد بن حنبل، أنه قال: «من لم يقل مع كل سورة: بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله تعالى».

قلت: وقفت على سبب الغلط في منقول الزمخشري؛ وذلك أن الحاكم روى في ترجمة عبد الله بن المبارك بسند له عن علي القاشاني قال: «رأيت عبد الله بن المبارك يرفع يديه في أول تكبيرة على الجنازة، ثم الثانية أخفض قليلاً، والصلوات مثل ذلك». قال علي: قال عبد الله: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم في فواتح السور، فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية». قال عبد الله: وأخبرنا حنظلة بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك آية من كتاب الله تعالى»، فلما لم يخص ابن عباس سورة، حمله ابن المبارك على الكل إلاّ «براءة» فكان مائة وثلاث عشرة. انتهى.

(١) قال محمود رحمه اللّه تعالى: «الباء في البسملة تتعلق بمحذوف تقديره: بسم اللّه أقرأ أو أتلو» قال أحمد: رحمه اللّه تعالى: الذي يقدره النحاة «أبتدىء» وهو المختار لوجوه: الأول: أن فعل الابتداء يصح تقديره في كل بسملة ابتدىء بها فعل ما مِن الأفعال خِلاف فعل القراءة، والعام صحة تقديره أولى أن يقدر، ألا تراهم يقدرون متعلق الجار الواقع خبراً أو صفة أو صلة أو حالاً بالكون والاستقرار حيثما وقع ويؤثرونه لعموم صحة تقديره، والثاني: أن تقدير فعل الابتداء مستقل بالغرض من البسملة إذ الغرض منها أن تقع مبدأ فتقدير فِعلِ الابتداء أوقع بالمحل، وأنت إذا قدرت «أقرأ» فإنما تعني أبتدىء القراءة والواقع في أثناء التلاوة قراءة أيضاً لكن البسملة غير مشروعة في غير الابتداء. ومنها ظهور فعلِ الابتداء في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾. وقال عليه السلام: «كل أمر خطير ذي بال لا يبدأ فيه باسم اللّه فهو أبتر». ولا يعارض هذا ما ذكره من ظهور فعلِ القراءة في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فإنَّ فعل القراءة إنما ظهر ثم لأن الأهم هو القراءة غير منظور إلى الابتداء بها. ألا ترى إلى تقدم الفعل فيها على متعلقه لأنه الأهم ولا كذلك في البسملة؛ فإن الفعل المقدر كائنا ما كان إنما يقدر بعدها، ولو قدر قبل الاسم لفات الغرض من قصد الابتداء إذاً على أنه الأهم في البسملة، فوجب تقديره، وسيأتي الكلام على هذه النكتة.

قال السمين الحلبي: وأجاب غيره بأن «باسم ربك» ليس متعلقاً بـ «اقرأ» الذي قبله بل بـ «اقرأ» الذي بعده.

وفي هذا نظر؛ لأن الظاهر على هذا القول أن يكون: ﴿اقرأ﴾ الثاني توكيداً للأول، فيكون قد فصل بمعمول المؤكد بينه وبين ما أكده مع الفصل بكلام طويل. انتهى. الدر.

فَقُلْتُ: إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ   فَرِيقٌ: نَحْسُدُ الْأَنَسَ الطَّعَامَا[1]

فإن قلت: لم قدّرت المحذوف متأخراً[2]؟ قلت: لأنّ الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات، باسم العزى،

---

(١) ونار قد حضأت لها بِلَيْلٍ   بدار ما أريد بها مقاما
سوى ترحيل راحلة وعين   أكاليها مخافة أن تناما
أتوا ناري فقلت: منون أنتم؟   فقالوا: الجن قلت: عموا ظلاما
فقلت: إلى الطعام فقال منهم   زعيم: نحسد الأنس الطعاما
لقد فضلتم في الأكل فينا   ولكن ذاك يعقبكم سقاما

لشمر بن الحارث الضبي، وقيل لتأبط شراً، وقيل لشمر الغساني، وقيل للفرزدق يصف نفسه بالجرأة واقتحام المخاوف. يقول: ورب نار قد حضأتها بالحاء المهلة: أشعلتها وسعرتها، وقيل هو خضأتها، بالمعجمة، ولا أعله وإن ذكره بعض النحاة في باب الحكاية، وبعيد: تصغير بعد، والوهن والموهن: بمعنى الفتور أو النوم أو هدوء الصوت، وقيل: نحو نصف الليل. أي أوقدتها في جوف الليل في مفازة لا أريد بها سوى تجهيز ما يلزم لراحلتي في السفر ولأجل عين أكاليها أي أساهرها أو أحافظها، فأنا أحفظها مِن النوم وهي تحفظني من العدو، والضمير في أتوا: لمبهم. ومنون استفهام، وكان حقه: مَن أنتم، لأنه لا يأتي بصورة الجمع إلا في الوقف، والأصل في نونه الأخيرة السكون للوزن، على أن إجراء الوصل مجرى الوقف كثير في النظم كما صرحوا به وجعلوا هذا منه، وكأن هناك قول مقدر مثل «جئناك» فحكى إعراب ضمير الفاعل فيه حتى يظهر استشهاد يونس به في الحكاية. فقالوا: نحن الجن. وكان الظاهر: فقلت عموا. ولكن أتى به مستأنفاً جواب سؤال مقدر تقديره: فماذا قلت لهم؟ فقال: قلت: عموا، أي تنعموا في وقت الظلام، وعطف قوله «فقلت» بالفاء دلالة على التعقيب. وأما رواية «عموا صباحاً» فمن قصيدة أخرى تعزى إلى خديج بن سنان الغساني ومنها [من الوافر]:

نزلت بشعب وادي الجن لما   رأيت الليل قد نشر الجناحا

وشبه الليل بطائر، فأثبت له ما للطائر. أو شبه الظلمة بالجناح، وقوله «إلى الطعام» أي هلموا وأقبلوا إليه. دل المقام على ذلك، فقال زعيم منهم، أي سيد وشريف: نحن نحسد الأنس في الطعام أو على الطعام، فهو نصب على نزع الخافض. ويجوز أنه بدل، ويجيء «حسد» متعدياً لاثنين، والطعاما: مفعوله الثاني. وقال الجوهري: الأنس هنا بالتحريك: لغة في الإنس، ويجوز قراءته «الإنس» على اللغة المشهورة. لقد فضلتم عنا في الأكل حال كونكم فينا أي فيما بيننا، ولكن ذاك يلحقكم سقاماً في العاقبة. وهذا كله من أكاذيب العرب.

وهو لشمر بن الحارث الضبي في لسان العرب (حسد)، وتاج العروس ٨/ ٢٥، والحيوان ٦/ ١٩٧، ولسهم بن الحارث في الحيوان ٤/ ٤٨٢، ولتأبط شرًا في ديوانه ص ٢٥٧، وبلا نسبة في لسان العرب (أنس)، وجمهرة اللغة ص ٥٠٢، وتاج العروس (أنس)، وانظر المزيد من مصادر البيت، والقول في نسبته في ديوان تأبط شرًا ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٢) قال محمود: «لم قدرت المحذوف متأخراً. . . إلخ» قال أحمد رحمه الله: لأنك لو ابتدأت بالفعل في التقدير لما كان الاسم مبتدأ به فيفوت الغرض من التبرك باسم الله تعالى أول نطقك. وأما إفادة التقديم الاختصاص ففيه نظر سيأتي إن شاء الله تعالى.

فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله ـ عزّ وجلّ ـ بالابتداء؛ وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، حيث صرح بتقديم الاسم، إرادة للاختصاص. والدليل عليه قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فإن قلت: فقد قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، فقدّم الفعل. قلت: هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أوّل سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم. فإن قلت: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة؟(١) قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتبة في قولك: كتبت بالقلم، على معنى أنّ المؤمن لما اعتقد أنّ فعله لا يجيء معتداً به في الشرع واقعاً على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله؛ لقوله عليه ـ الصلاة والسلام ـ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُبْدَأْ فِيهِ بِاسْمِ اللهِ، فَهُوَ أَبْتَرُ» (٢) إلا كان فعلا كلا فعل، جعل فعله مفعولاً باسم الله، كما

---

٢ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦١) كتاب الأدب: باب الهدى في الكلام حديث (٤٨٤٠) وابن ماجة (١/ ٦١٠) كتاب النكاح: باب خطبة النكاح حديث (١٨٩٤)، وأحمد (٢/ ٣٥٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٩٤)، والدارقطني (١/ ٢٢٩) رقم (١)، وابن حبان (٥٧٨ ـ موارد) وبرقم (١، ٢ ـ الإحسان)، والبيهقي (٣/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، كتاب الجمعة: باب ما يستدل به على وجوب التحميد في خطبة الجمعة كلهم من طريق الأوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

قال أبو داود: رواه يونس وعقيل وشعيب وسعيد ابن عبد العزيز عن الزهري عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً. ا.هـ.

وكذا قال البيهقي.

وقال الدارقطني: تفرد به قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وأرسله غيره عن الزهري عن النبي ـ ﷺ ـ وقرة ليس بقوي في الحديث، والمرسل هو الصواب.

ورجح المرسل أيضاً الدارقطني في «العلل» (٨/ ٢٩ ـ ٣٠)، فقال: يرويه الأوزاعي، واختلف عنه، فرواه عبيدالله بن موسى وابن أبي العشرين والوليد بن مسلم وابن المبارك وأبو المغيرة عن الأوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ ورواه محمد بن كثير عن الأوزاعي عن الزهري كذلك لم يذكر قرة، ورواه وكيع عن الأوزاعي عن قرة عن الزهري قال =

---

(١) قال محمود: «فإن قلت ما معنى تعلق اسم اللّه تعالى بالقراءة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: وفي قوله: «إن اسم اللّه هو الذي صير فعله معتبراً شرعاً» حيد عن الحق المعتقد لأهل السنّة في قاعدتين: إحداهما أن الإسم هو المسمى، والأخرى أن فعل العبد موجود بقدرة اللّه تعالى لا غير؛ فعلى هذا تكون الاستعانة باسم اللّه معناها اعتراف العبد في أول فعله بأنه جار على يديه، وهو محل له لا غير؛ وأما وجود الفعل فيه فباللّه تعالى أي بقدرته تسليماً للّه في أول كل فعل؛ والزمخشري رحمه اللّه لا يستطيع هذا التحقيق لاتباعه الهوى في مخالفة القاعدتين المذكورتين، فيعتقد أن اسم اللّه تعالى الذي هو التسمية معتبر في شرعية الفعل لا في وجوده؛ إذ وجوده على زعمه بقدرة العبد. فعلى ذلك بنى كلامه. أقول: دعواه أن عند أهل السنّة الاسم غير المسمى ممنوعة، وتحقيقه قد ذكر في غير هذا الكتاب.

. . . .

= رسول الله ـ ﷺ ـ مرسلاً.

ورواه محمد بن سعيد يقال له: الوصيف عن الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه، والصحيح عن الزهري المرسل. ا.هـ.

أما الحاكم ـ رحمه الله ـ فقد صحح لقرة بن عبد الرحمن على شرط مسلم حديث: «حذف السلام سنة»، ووافقه الذهبي.

قلت: وهذا من أوهامهما ـ رحمهما الله ـ فإن قرة بن عبد الرحمن لم يرو له مسلم احتجاجاً، ولكن روى له في المتابعات، فلا نستطيع مثلاً أن نصحح لقطن بن نسير أو غيره ممن روى له مسلم في المتابعات، على شرط مسلم.

والعجب من الذهبي في موافقته للحاكم أكثر، لأنه أورد قرة بن عبد الرحمن في «ميزانه» (٥/ ٤٧٠ ـ بتحقيقنا).

وقال: خرج له مسلم في الشواهد ا.هـ.

قلت: ومدار الحديث على قرة بن عبد الرحمن، فإليك أقوال الأئمة فيه.

قال أبو حاتم: ليس بقوي، وقال أبو زرعة: الأحاديث التي يرويها مناكير، وقال أحمد: منكر الحديث جداً.

وقال ابن معين: ليس بقوي الحديث.

وقال العجلي: يكتب حديثه.

وقال ابن شاهين عن يحيى: ليس به بأس عندي.

وقال الفسوي: ثقة.

وقال ابن عديّ: أرجو أنه لا بأس به.

وقد لخص الحافظ هذه الأقوال: فقال: صدوق له مناكير.

ينظر «الجرح والتعديل» (٧/ ١٣٢)، و «أحوال الرجال» (ص١٦٥)، «سؤالات ابن طهمان»؛(٦٣٩)، و«ثقات العجلي» (١٣٨٥) و«ثقات ابن شاهين» (١١٦٣)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٦٠)، و«الكامل» (٦/ ٢٠٧٧)، والتقريب (٢/ ١٢٥).

قلت: وعلى افتراض أن قرة ثقة فقد خالفه الأكثرون من أصحاب الزهري، وهم يونس وعقيل وشعيب وسعيد بن عبد العزيز، وهم بلا شك أكثر وأوثق من قرة بن عبد الرحمن.

وهذا الذي رجحه الدارقطني، وأبو داود، والبيهقي.

ثمّ إن قرة قد اضطرب في لفظ هذا الحديث، فمرة يرويه بلفظ: أبتر، ومرة بلفظ: أجذم، ومرة بلفظ: أقطع.

ومع كل ما تقدم فقد حكم النووي في «المجموع» (١/ ٧٣)، بأنه حديث حسن، وكذلك ابن الصلاح فيما نقله عنه السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٩)، وقد حكم السبكي أيضاً بصحته تبعاً لابن حبان.

ولهذا الحديث إسناد آخر أشار إليه الدارقطني في «السنن» (١/ ٢٢٩)، فقال: ورواه صدقة عن محمد بن سعيد عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن النبي ـ ﷺ ـ.

وأشار إليه أيضاً في «العلل» (٨/ ٣٠)، فقال: ورواه محمد بن سعيد يقال له: الوصيف عن الزهري عن ابن كعب ابن مالك عن أبيه.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٧٢) رقم (١٤١) من طريق صدقة بن عبد الله عن محمد بن =

يفعل الكتب بالقلم. والثاني: أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات[1] في قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: [متبرّكاً] بسم الله أقرأ، وكذلك قول الداعي للمعرس: بالرفاء والبنين، معناه: أعرست ملتبساً بالرفاء والبنين، وهذا الوجه/٣ب أعرب وأحسن؛ فإن قلت: [فكيف] قال الله ـ تبارك وتعالى ـ متبركاً باسم الله أقرأ؟ قلت: هذا مقول على ألسنة العباد، كما يقولُ الرجل الشعر على لسان غيره، وكذلك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] إلى آخره، وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمدونه ويمجدونه ويعظمونه[2]، فإن قلت: من حق

= الوليد الزبيدي عن الزهري عن عبد الله بن كعب عن أبيه عن النبي ـ ﷺ ـ به.
ومن طريقه السبكي في «طبقات الشافعية» (١/ ١٤)، وصدقة بن عبد الله ضعيف.
والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٩١).
وقال: وفيه صدقة بن عبد الله ضعفه أحمد، والبخاري ومسلم وغيرهم، ووثقه أبو حاتم ودحيم في رواية.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
لم أره هكذا. والمشهور فيه حديث أبي هريرة من رواية قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع»، أخرجه أبو عوانة في صحيحه، وأصحاب السنن، ولأحمد من هذا الوجه: «لا يفتتح بذكر الله، فهو أبتر، أو أقطع». وللخطيب في الجامع من طريق مبشر بن إسماعيل عن الزهري بلفظ: «لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع، والراوي له عن مبشر ـ مجهول». انتهى.

---

(١) قوله «تعلق الدهن بالإنبات» هذا يناسب قراءة «تنبت» من أنبت الرباعي: كما يأتي. (ع)
(٢) يقدم الزمخشري هذا المبحث بكلام قوي عند البسملة حتى يصل في ختام المبحث بقوله: «وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه: تعليم (الله) عباده كيف يتبركون باسمه وكيف يحمدونه ويمجدونه ويعظمونه».
قد بين الزمخشري من أسرار هذا الحذف ما أفاء الله به عليه، وفي تقدير هذا المحذوف فعلاً أو اسماً وكلام طويل، وخلاصة هذا كله:
١ ـ أن الحذف لا يكون إلا لسر بلاغي يستدعيه المقام، ولا يقع هذا السر موقعه في النفس إلا بهذا الحذف من بليغ الكلام كما أورد الزمخشري ـ رحمه الله ـ تعالى ـ هنا في البسملة، وقد فهم البلاغيون هذا فقالوا: إن السر هو: الإسراع إلى المقصود الأهم، وقد يضاف إلى ذلك ضيق المقام عند ذكر المسند أو غيره، وبهذا يكون المذكور هو الأهم، ولهذا قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ:
«ومتعلق الباء محذوف وهو ـ أقرأ أو أتلو ـ لأن المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم، والإشارة إلى أن البداية أهم لكون التبرّك حصل به، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ لأن ذلك المقام مقام القراءة فكان الأمر بها أهم، وأما الخلاف في كون المقدر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة». =

= أقول: وهذا الفهم الدقيق من كلام الله ـ سبحانه ـ إنما تأتي لهم من فقههم لكلام العرب، فقد سب أعرابي آخر فأعرض عنه، فقال: إياك أعنى، فرد عليه: وعنك أعرض، وبذلك قدم الأهم «ينظر البحر المحيط، هذا وقد تتناغم عدة معانٍ مقصودة عند المتكلم مع كونه لأبي حيان ١/ ٢٤، ونقله صاحب العبارة واحدة بما فيها من ذكر وحذف، فترى المرمى البلاغة القرآنية ص ٣٤٠. د. محمد محمد أبو موسى منها: أهمية المذكور دون سواه، والاختصاص، ـ نشر مكتبة وهبة والإشعار بالتعظيم كما في «بسم الله» فإنه ـ سبحانه ـ صاحب الكمالات التي تليق بذاته المقدسة، وكمالاته لا تتناهي، ولهذا لا يعتد بأمر ذي بال إلا بتصديره باسمه ـ جل جلاله ـ كما صح هذا في سنة النبي ـ ﷺ ـ وقد كتب كبار العلماء بحوثاً نفيسة متفردة في البسملة لما فيها من عجائب وأسرار وآثار ومن أرادها فليراجعها في مواطنها.

٢ ـ لا بد مع الحذف من قرينة تدل على المحذوف وإلا ما صح الحذف، فالمحذوف كأنه مذكور مع وجود ما يدل عليه، ولكنه لم يذكر في الكلام للأسرار التي كشفت عنها الغطاء فيما سبق وبعد أن فهمنا بداية معنى «أل» كما «وينظر كذلك شرح ابن عقيل بتحقيق الشيخ ـ محمد محي الدين وتنظر في كيفية تطبيق العلماء عبد الحميد ٢/ ١٩٦ ـ ط. دار إحياء التراث العربي لهذا المفهوم في النصوص البليغة، وقد جمع الباحث هذا في يعلم هذا الذي قلناه حق العام لكنه محكوم كتاب علم المعاني: دراسة وتحليل للباحث بمذهبه الاعتزالي كما أشار إلى هذا السيد د. فتحي عبد الرحمن حجازي وزملائه «ط ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.

الشريف، ولهذا ترى النسفي الذي خلص كتابه من الكشاف لكنه في عقيدته سني يرجح كون «أل» في «الحمد لله» للاستغراق، وعبارته هكذا:

«والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة، ولهذا فرق باسم الله لأنه اسم ذات فيستجمع صفات الكمال، وهو بناء على مسألة خلق الأفعال». أما العلامة أبو السعود فقد أحسن القول وأجاد، وكلامه هكذا: «وتعريفه للجنس، ومعناه الإشارة إلى الحقيقة من حيث هي حاضرة في ذهن السامع، والمراد: تخصيص حقيقة الحمد به ـ تعالى ـ المستدعي لتخصيص جميع أفرادها به ـ سبحانه ـ على الطريق البرهاني . . . وقد قيل: للاستغراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققها في ضمن جميع أفرادها حسبما يقتضيه المقام».

والناظر في كلام الإمام الرازي يرى أنه ذكر القولين: «الجنسية، والاستغراقية» ولم يرجح أحد القولين على الآخر، ولعله رآها تصلح من الطريقين، وكل منهما يؤدي إلى الآخر، وسنوضح هذا في نهاية المقام وجاء الشوكاني في خاتمة المطاف ورجح كونها للاستغراق، ورد كلام الزمخشري، فهو يقول: «وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وأنها مختصة بالرب ـ سبحانه ـ على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله ـ عز وجل ـ أو على أن حمده هو المفرد فيكون الحصر ادعائياً، ورجح صاحب الكشاف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، والصواب ما ذكرناه» ثم استدل على ترجيحه للاستغراق بما ورد في الحديث فيقول:

«وقد جاء في الحديث ـ اللهم لك الحمد كله».

وقد فهم الشوكاني الاستغراق من كلمة «كله» فإنها تفيد جميع الأفراد وقد صوب كلامه على كلام الكشاف، وبهذا يكون قول الزمخشري مردوداً عليه، وفي المسألة كلام طويل حتى قال الإمام الألوسي:

«وقد صار هذا معترك الأفهام، ومزدحم أفكار العلماء الأعلام» ويفهم من جملة أقوال العلماء =

حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون، نحو: كاف التشبيه، ولام الابتداء، وواو العطف وفائه، وغير ذلك، فما بال لام الإضافة وبائها بنيتا على الكسر؟ قلت: أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء، وأما الباء: فلكونها لازمة للحرفية والجر، والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة، لئلا يقع ابتداؤهم بالساكن إذا كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن، لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة، ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة، وإذا وقعت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء، ومنهم من لم يزدها واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سم وسم، قال [من الرجز]:

بِـاسْـمِ الَّـذِي فِـي كُـلِّ سُـورَةٍ سُـمُـهْ[1]

= الأعلام أن «أل» الداخلة على النكرة كما في «الحمد لله» تفيد الجنس والحقيقة من ذات اللفظ بلا نظر إلى الأفراد، ثم يؤخذ من هذه الإفادة والتخصيص أن جميع الأفراد مقصودون من داخل الحقيقة، لأن الحقيقة تنطبق انطباقاً شمولياً على كل ما تصدق عليه من أفراد، وبهذا يتأتى الاستغراق بمعرفة المقام، فالاستغراق قد أتى على طريق البرهان فكان أقوى في الاستدلال عليه، لأنه لو خرج فرد من أفراد الكلمة لخرجت الحقيقة، فيلزم عدم اختصاص الحقيقة بصاحبها لأن اللام في «لله» للقصر.

والخلاصة من هذه كله:

١ ـ أن العلامة الزمخشري ـ نظراً لمذهبه الاعتزالي ـ يرى أن «أل» للجنس والحقيقة كما مر.

٢ ـ وأن غيره كالشوكاني ومن قبله يقول بأنها «للاستغراق».

٣ ـ ويرى فريق ثالث أنها تصلح لكلا الأمرين: الحقيقة، والاستغراقِ على توجيهين **قلت**: وقد أعدت النظر في هذا كله ورأيت أن الخلاف شكل لا طائل تحته، والمقصود في النهاية واحد، فمن قال بأنها للجنس فإنه لا يمنع إفادتها الاستغراق بالطريق البرهاني ـ كما بينت آنفاً ـ، ومن أفاد بأنها للاستغراق فقد نظر إلى الجنسية مع الاختصاص فإنهما يفيدان الاستغراق قطعاً، لانطباق المعنى المقصود في «الحمد» على جميع أفراده بلا استثناء، فالجنسية مع القرائن تفيد الاستغراق، والاستغراق مأخوذ من معنى الجنس والاختصاص بمعرفة المقام وهكذا. . .

وإذا كانت العلاقة هكذا بين الجنس والاستغراق صح إطلاق «أل» على كل منهما لأن كلا من المعنيين يتمازج من الآخر ومعه، وبهذا ينحل الإشكال، ويتضح المقال والله ـ تعالى ـ أعلم.

«ينظر تفسير النسفي ١/٣، ٩، إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/٩، ١٣، مفاتيح الغيب للرازي ١/١٣٨، وحاشية الشهاب على البيضاوي ١/ ٣٥ وما بعدها، وروح المعاني للألوسي ١/٣٩، وما بعدها، وحاشية الخضري على شرح ابن عقيل في مقدمته ١/٣ ـ ٦، وفتح القدير ١/١٧، ١٨، ١٩.

(١) بـاسـم الـذي فـي كـل سـورة سـمـه ... قـد وردت عـلـى طـريـق تـعـلـمـه
أرسـل فـيـهـا بـازلا يـقـرمـه ... فـهـو بـهـا يـنـحـو طـريـقاً يـعـلـمـه

لرؤبة بن العجاج يصف إبلاً. ولفظ «اسم» مِن الألفاظ العشرة التي سمع بناء أوائلها على السكون كابن وامرىء، فإذا ابتدؤوا بها زادوا همزة الوصل ولا حاجة لها في الدرج، وسمع تحريك أول =

وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز: كيد ودم، وأصله: سمو، بدليل تصريفه: كأسماء، وسمي، وسميت، واشتقاقه من السمو، لأنّ التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره، ومنه قيل للقب النبز: من النبز بمعنى: النبر، وهو رفع الصوت، والنبز: قشر النخلة الأعلى. فإن قلت: فلم حذفت الألف في الخط، وأثبتت في قوله: باسم ربك؟ قلت: قد اتبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط؛ لكثرة الاستعمال، وقالوا: طُوِّلَتِ الباء تعويضاً من طرح الألف، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكاتبه: طوّل الباء، وأظهر السنات، ودوّر الميم، و: (الله) أصله الإله. قال [من الطويل]:

مَـعَـاذَ الإِلَـهِ أَنْ تَـكُـونَ كَـظَـبْـيَـةٍ[1]

....

= بعضها كما في سمه بتثليث أوله. وباسم متعلق بأرسل وباؤه للملابسة. وضمير وردت للسورة. وضمير تعلمه بالفوقية لله على طريق الالتفات إلى الخطاب، ويمكن أنه لمخاطب مبهم، وعلى روايته بالتحتية فالضمير لله فقط. ويحتمل من بعد أن ضمير وردت للإبل فكذلك تعلمه بالفوقية. وأما بالتحتية فضميره لله أو للراعي. والبازل: الذي انشق نابه من الإبل وذلك في السنة التاسعة وربما بزل في الثامنة، وقرم إلى اللحم ونحوه: اشتاق إليه. والتقريم والإقرام: التشويق إليه والجملة حال من الراعي المرسل أو صفة لبازل، وعليه فلم يبرز ضمير الفاعل لأمن اللبس. فهو أي البازل؛ وينحو: أي يقصد بها، والباء للظرفية أو للتعدية إلى المفعول به كذهبت بزيد، ويجوز أن الضمير للراعي فالباء للتعدية فقط. وروي «نزلت» بدل «وردت» وهو يؤيد جعل الضمير للسورة، وروي البيت الثاني قبل الأول. والمعنى أرسل فيها الراعي ملتبساً بذكر اسم الله بازلاً حال كونه يشوقه إليها بإعفائه من العمل وحبسه عن الإبل ثم إرساله فيها، فذلك البازل يقصد بها طريق يعرفه وهو طريق الضراب، وعلم ما لا يعقل مجاز عن اهتدائه إلى منافعه، على طريق الاستعارة التصريحية والمجاز المرسل، أو شبهه بالعاقل على طريق المكنية، فالعلم تخييل لذلك التشبيه. وكون اسمه تعالى في كل سورة ظاهر على القول بأن البسملة آية من كل سورة، وإلا ورد مثل سورة العصر. وربما يدفع إبطاء القافية باختلافها في الفاعل وفي معنى المفعول وفي الحقيقة والمجاز.

ينظر لسان العرب (سما)، وأسرار العربية ص ٨، والإنصاف ص ١٦، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/٢٥٨، وشرح شواهد الشافية ص ١٧٦، ص ١٦٦، تاج العروس (سما)، أساس البلاغة (قرم).

(١) مـعـاذ الإلـه أن تـكـون كـظـبـيـة ... ولا دمـيـة ولا عـقـيـلـة ربـرب

ولـكـنـهـا زادت عـلـى الـحـسـن كـلـه ... كـمـالا ومـن طـيـب عـلـى كـل طـيـب

للبعيث بن حريث في محبوبته أم السلسبيل، يقال: عاذ عياذاً وعياذة ومعاذاً وعوذاً، إذا التجأ إلى غيره، فالمعاذ مصدر نائب عن اللفظ بفعله، والدمية: الصنم والصورة من العاج ونحوه المنقوشة بالجواهر. وعقيلة كل شيء: أكرمه. والربرب: القطيع من بقر الوحش: شبه محبوبته بالظبية وبالدمية وبالعقيلة في نفسه، ثم وجدها أحسن منها فرجع من ذلك والتجأ إلى الله منه كأنه أثم: أو المعنى لا أشبهها بذلك وإن وقع من الشعراء. وأتى بلا المؤكدة لما قبلها من معنى النفي أي ليست كظبية ولا دمية ولا عقيلة ربرب ولكنها زادت كمالاً على الحسن المعروف كله، أو زادت على الحسن الحسّي كمالاً معنوياً، وزادت من الطيب على كل طيب.

ينظر خزانة الأدب ٢/٢٧٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٧٨، الدر ١/٥٧.

ونظيره: الناس، أصله: الأُناس. قال: [من مجزوء الكامل]

إنَّ المَنَايَا يَطَّلِعْـ نَ عَلَى الأُناسِ الآمِنِينَا[1]

فحذفت الهمزة، وعوّض منها حرف التعريف، ولذلك قيل في النداء: يا ألله بالقطع، كما يقال: يا إله، [والإله] ـ من أسماء الأجناس كالرجل والفرس ـ اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام القحط، والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه، وأما: (الله) بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره. ومن هذا الاسم اشتق: تأله، وأله، واستأله؛ كما قيل: استنوق، واستحجر، في الاشتقاق من الناقة والحجر. فإن قلت: أاسم هو أم صفة؟ قلت: بل اسم غير صفة، ألا تراك تصفه ولا تصف به؟ لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل. وتقول: إلٰه واحد صمد، كما تقول: رجل كريم خير. وأيضاً فإنّ صفاته تعالى لا بدّ لها من موصوف تجرى عليه، فلو جعلتها كلها صفات، بقيت غير جارية على اسم موصوف بها، وهذا محال. فإن قلت: هل/ ٤أ لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: أله، إذا تحير/ ، ومن أخواته: دله، وعله، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أنّ الأوهام تتحير في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفشا الباطل، وقَلَّ النظر الصحيح. فإن قلت: هل تفخم لامه؟ قلت: نعم، قد ذكر الزجّاج أنّ تفخيمها سنة، وعلى ذلك العرب كلهم، وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر.

و(الرحمٰن) فعلان من رحم، كغضبان، وسكران، من غضب، وسكر، وكذلك: (الرحيم) فعيل منه، كمريض وسقيم، من مرض وسقم، وفي: (الرحمٰن) من المبالغة ما ليس في: (الرحيم)[2]؛ ولذلك قالوا: رحمٰن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، ويقولون: إنّ

---

(١) شبه المنايا بأناس يبحثون عمن استحق الموت على طريق المكنية والاطلاع تخييل. والمعنى: أن المنايا تأتي للناس على حين غفلة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها. والأناس: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مأخوذ من الإيناس وهو الإبصار لظهورها، أو من الأنس ضد الوحشة. والآمنون: الغافلون عن مجيء المنايا، فهو مجاز مرسل.

والبيت لذي جدن الحميري ينظر خزانة الأدب ٢/ ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨، الأشباه والنظائر ١/ ٣١٢، والجنى الداني ص ٢٠٠، وجواهر الأدب ص ٣١٣، والخصائص ٣/ ١٥١، وشرح شواهد الشافية ص ٢٩٦، وشرح المفصل ٢/ ٥٢٩/ ١٢١، أمالي ابن الشجرى ١/ ١٢٤، مجالس العلماء ٨٠، الدر ١/ ٥٧.

(٢) قال محمود: «وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم... إلخ». قال أحمد رحمه الله: لا يتم الاستدلال بقصر البناء وطوله على نقصان المبالغة وتمامها. ألا ترى بعض صيغ المبالغة كفعل أحد =

الزيادة في البناء لزيادة المعنى. وقال الزّجّاج في الغضبان: هو الممتلىء غضباً. ومما طَنَّ على أُذني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مراكبهم بالشقدف؟ وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق، فقلت في طريق الطائف لرجل منهم ما اسم هذا المحمل، أردت المحمل العراقي فقال: أليس ذاك اسمه الشقدف؟ قلت: بلى، فقال: هذا اسمه الشقنداف، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى، وهو من الصفات الغالبة ـ كالدبران، والعيوق، والصعق ـ لم يستعمل في غير الله ـ عزّ وجلّ ـ، كما أنّ: (الله) من الأسماء الغالبة. وأما قول بني حنيفة في مُسَيْلِمَةَ: رَحْمَانُ اليمامة، وقولُ شاعرهم فيه: [من البسيط]

.... وأَنْتَ غَيْثُ الوَرَى لا زِلْتَ رَحْمَانَا[1]

فباب من تعنتهم في كفرهم، فإن قلت: كيف تقول: الله رحمٰن، أتصرفه أم لا[2]؟

= الأمثلة أقصر من فاعل الذي لا مبالغة فيه البتة. وأما قولهم: رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، فلا دلالة فيه أيضاً على مبالغة رحمن بالنسبة إلى رحيم فإن حاصله أن الرحمة منه بالدلالة على إتمامها؛ ألا ترى ضارباً لما كان أعم من ضراب، كان ضراب أبلغ منه لخصوصه، فلا يلزم إذاً من خصوص رحيم أن يكون أقصر من رحمن لعمومه.

(١) سموت بالمجد يابن الأكرمين أبا وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا
لرجل من بني حنيفة يمدح مسيلمة الكذاب، يقول: علوت بسبب المجد يابن الأكرمين من جهة الأب، وليس المراد خصوصه، بل مطلق الأصل، ولو كان المراد خصوصه لأشعر بالذم، وهو تمييز للأكرمين أو تمييز لـ «سموت»، وأنت كالغيث للورى في كثرة النفع، ولا زلت رحماناً: دعا بدوامه رحيماً عليهم؛ ورحمن خاص بالله فإطلاقه على غيره جهل أو عناد. وقيل: إن الخاص به المحلى بأل.
ينظر: روح المعاني ١/٥٩، الدر المصون ١/٦٢.

(٢) قال محمود رحمه الله تعالى: «فإن قلت كيف تقول الله رحمن أتصرفه أم لا... إلخ»؟ قال أحمد: ليت شعري بعد امتناع فعلانة وفعلى ما الذي عين قياسه على عطشان دون ندمان مع أن قياسه على ندمان معتضد بالأصل في الأسماء وهو الصرف؟ أقول: الذي عينه هو أن باب سكران وعطشان أكثر من باب ندمان، وإذا احتمل أن يكون من كل واحد منهما فحمله على ما هو الأكثر أولى؛ ولأن رحمن وعطشان مشتركان في عدم وجود فعلانة. بخلاف ندمان فلهذا كان حمله على عطشان أولى، ثم قال: وقد نقل غيره خلافاً في صرف رحمن مجرداً من التعريف، وبناه على تعيين العلة في منع صرف عطشان هل هي وجود فعلى فيصرف رحمن، أو امتناع فعلانة فيمتنع الصرف؟ وهو أيضاً نظر قاصر. وأتم منهما أن يقال: امتنع صرف عطشان وفاقاً وامتناع صرفه معلل بشبه زيادتيه بألفي التأنيث، والشبه دائر على وجود فعلى وامتناع فعلانة؛ فإما أن يجعل الأمران وصفي شبه بهما مجموعهما مستقل، أو كل واحد منهما مستقلاً ببيان الشبه، أو أحدهما دون الآخر على البدل؛ فهذه أربع احتمالات. فإن كان مقتضى الشبه المجموع أو وجود فعلى خاصة انصرف رحمن، وإن كان كل واحد من الأمرين مستقلاً أو الشبه بامتناع فعلانة خاصة منع رحمن من الصرف؛ فلم يبقَ إلا تعيين ما به حصل الشبه في عطشان بين زيادتيه وبين ألفي التأنيث من الاحتمالات الأربعة، وعليه ينبني الصرف وعدمه. والتحقيق أن كل واحد من الأمرين المذكورين =

قلت: أقيسه على أخواته من بابه، أعني: نحو عطشان، وغرثان، وسكران، فلا أصرفه. فإن قلت: قد شرط في امتناع صرف فعلان أن يكون فعلان فعلى، واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلان فعلى، فلم تمنعه الصرف؟ قلت: كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى، كعطشى، فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلانة كندمانة، فإذن لا عبرة بامتناع التأنيث، للاختصاص العارض، فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص، وهو القياس على نظائره. فإن قلت: ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة[1]، ومعناها: العطف والحنوّ، ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها؟ قلت: هو مجاز عن إنعامه على عباده؛ لأنّ الملك إذا عطف على رعيته، ورق لهم، أصابهم بمعروفه وإنعامه، كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة، عنف بهم، ومنعهم خيره ومعروفه. فإن قلت: فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه[2]، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى، كقولهم: فلان عالم نحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟ قلت: لما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فتناول جلائل النعم،

= مستقل باقتضاء الشبه فيمتنع صرف رحمن لوجود إحدى العلتين المتعلقتين في الشبه وهي امتناع فعلانة على هذا التقدير؛ وإنما قلنا ذلك لأن امتناع فعلانة فيه حاصله امتناع دخول تاء التأنيث على زيادتيه كامتناع دخولهما على ألفي التأنيث فحصل الشبه بهذا الوجه. ووجود فعلى يحقق أن مذكره مختص ببناء ومؤنثه مختص ببناء آخر، فيشبه أفعل وفعلى في اختصاص كل واحد منهما ببناء غير الآخر، فهذا وجه آخر من الشبه. ومن تأمل كلام سيبويه فهم منه ما قررته. فإن قيل: محصل ذلك مناسبة كل واحد من الأمرين المذكورين لاقتضاء الشبه، فما الذي دل على استقلال كل واحد منهما علة في الشبه؟ وهلا كان المجموع علة وحينئذٍ ينصرف رحمن وهو أحد الاحتمالات الأربعة المتقدمة؟ قلت: امتناع صرف عمران ألم يدل على استقلال كل واحد من الأمرين بالشبه المانع من الصرف؛ إذ عمران علماً لا فعلى له وهو غير منصرف وفاقاً. أقول: قد عثر ههنا رحمه اللّه وإن الجواد قد يعثر لأن اعتبار وجود فعلى أو انتفاء فعلانة إنما كان في الصفة، أما في الاسم فشرطه العلية لا وجود فعلى ولا انتفاء فعلانة.

(١) قال محمود رحمه اللّه: «فإن قلت: ما معنى وصف اللّه تعالى بالرحمة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: فالرحمة على هذا من صفات الأفعال ولك أن تفسرها بإرادة الخير فيرجع إلى صفات الذات وكلا الأمرين قال به الأشعرية في الرحمة وأمثالها مما لا يصح إطلاقه باعتبار حقيقته اللغوية على اللّه تعالى؛ فمنهم من صرفه إلى صفة الذات، ومنهم من صرفه إلى صفة الفعل.

(٢) قال محمود رحمه اللّه: «فإن قلت: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه... إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين؛ لأن في تقديم أعلاهما ثم الإرداف بأدناهما نوعاً من التكرار؛ إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى؛ فذكره بعده غير مفيد ولا كذلك العكس؛ فإنه ترق من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم ما يستلزمه، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالإثبات. وأما النفي فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى. تقول: ما فلان نحريراً ولا عالماً، ولو عكست لوقعت في التكرار: إذ يلزم من نفي الأدنى عنه نفي الأعلى وكل ذلك مستمدة في عموم الأدنى وخصوص الأبلغ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص.

وعظائمها، وأصولها، أردفه: (الرحيم)؛ كالتتمة والرديف؛ ليتناول ما دقّ منها ولطف.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾

الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته.

وأمّا الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح؛ قال: [من الطويل]

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً يَدِي وِلِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله/ ٤ب عليه [الصلاة و] السلام: «الحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ، مَا شَكَرَ اللهَ عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ» (٣) وإنما جعله رأس الشكر؛ لأنّ ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها، أشيع لها وأدلّ على مكانها من الاعتقاد،

---

٣ ـ أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤) رقم١٩٥٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩٦) حديث رقم (٤٣٩٥)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل الرابع والخمسين والمائة؛ كلهم من طريق قتادة عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً.
قلت: وهذا سند ضعيف لانقطاعه؛ فإن قتادة لم يدرك عبد الله بن عمرو.
والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٣ ـ ٣٤)، وعزاه إلى عبد الرزاق في المصنف، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والخطابي في الغريب، والبيهقي في الأدب، والديلمي في مسند الفردوس والثعلبي.
وأخرجه البغوي في معالم التنزيل (٣/ ١٤٣) في آخر سورة بني إسرائيل.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما به ـ مرفوعاً، وفيه انقطاع؛ وعن ابن عباس مثله.
رواه البغوي في تفسير (سبحان)، وفيه نصر بن حماد وهو ضعيف. انتهى.

---

(١) وما كان شكري وافياً بنوالكم ولكنني حاولت في الجهد مذهبا
أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا
أي لم يكن تعظيمي إياكم وافياً بحق عطائكم، ولكنني أردت من الاجتهاد في تعظيمكم مذهباً، وبينه بقوله: إن نعمتكم علي افادتكم من يدي ولساني وجناني، فهي وأعمالها لكم، قال السيد الشريف: هو استشهاد معنوي على أن الشكر يطلق على أفعال الموارد الثلاثة. وبيان أنه جعلها جزاء للنعمة، وكل ما هو جزاء للنعمة عرفاً يطلق عليه الشكر لغة، فكأنه قال: كثرت نعمتكم عندي فوجب علي استيفاء أنواع الشكر لكم، وبالغ في ذلك حتى جعل مواردها ملكاً لهم، وقيل: النعماء جمع للنعمة، لكن ظاهر عبارة اليد أنها بمعناها، ورواية البيت الأول بعد الثاني أحسن موقعاً وأظهر استشهاداً.
ينظر ابن كثير ١/ ٢٢، غرائب الفرقان ١/ ٩٢.

وآداب الجوارح؛ لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان، وهو النطق الذي يفصح عن كلّ خفي ويجلي كل مشتبه.

والحمد: نقيضه الذمّ، والشكر: نقيضه الكفران، وارتفاع الحمد بالابتداء، وخبره الظرف الذي هو «لله» وأصله النصب[1] الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً، وكفراً، وعجباً، وما أشبه ذلك، ومنها: سبحانك، ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها، ويسدّون بها مسدّها، لذلك لا يستعملونها معها، ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء؛ للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ [هود: ٦٩]، رفع السلام الثاني؛ للدلالة على أنّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ حياهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدّده وحدوثه. والمعنى: نحمد الله حمداً، ولذلك قيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ لأنه بيان لحمدهم له، كأنه قيل: كيف تحمدون؟ فقيل: إياك نعبد. فإن قلت: ما معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في أرسلها العراك[2]، وهو تعريف الجنس، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد ما هو، والعراك ما هو، من بين أجناس الأفعال، والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم[3].

---

(١) قال محمود رحمه الله: «الأصل في الحمد النصب... إلخ» قال أحمد: ولأن الرفع أثبت. اختار سيبويه في قول القائل: رأيت زيداً فإذا له علم علم الفقهاء: الرفع، وفي مثل: رأيت زيداً فإذا له صوت صوت حمار: النصب، والسر في الفرق بين الرفع والنصب أن في النصب إشعاراً بالفعل، وفي صيغة الفعل إشعار بالتجدد والطرو، ولا كذلك الرفع، فإنه إنما يستدعي اسماً: ذلك الاسم صفة ثابتة، ألا ترى أن المقدر مع النصب نحمد الله الحمد. ومع الرفع الحمد ثابت لله أو مستقر.

(٢) قال محمود رحمه الله: «وتعريف الحمد نحو التعريف في أرسلها العراك وهو تعريف الجنس ومعناه الخ» قال أحمد رحمه الله: تعريف التكرار باللام إما عهدي وإما جنسي، والعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معين من أفراد الجنس باعتبار يميزه عن غيره من الأفراد كالتعريف في نحو ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، وإما أن ينصرف العهد فيه إلى الماهية باعتبار يميزها عن غيرها من الماهيات كالتعريف في نحو «أكلت الخبز، وشربت الماء»، والجنسي هو الذي ينضم إليه شمول الآحاد، نحو: الرجل أفضل من المرأة، وكلا نوعي العهد لا يوجب استغراقها، وإنما يوجبه الجنسي خاصة: فالزمخشري جعل تعريف الحمد من النوع الثاني من نوعي العهد، وإن كان قد عبر عنه بتعريف الجنس؛ لعدم اعتنائه باصطلاح أصول الفقه. وغير الزمخشري جعله للجنس فقضى بإفادته، لاستغراق جميع أنواع الحمد وليس ببعيد.

(٣) يقول الزمخشري: في تعريف «الحمد لله»
«فإن قلت: مع معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في: أرسلها العراك وهو تعريف الجنس... والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم».
قلنا: قد عرض السيد الشريف الجرجاني هذه المسألة عرضا قوياً مستدلاً على ما يقول، وقد لخص =

وقرأ الحسن البصري: ﴿ٱلْحَمْدِ لِلَّهِ﴾ بكسر الدال؛ لإتباعها اللام، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿ٱلْحَمْدُ لُلَّهِ﴾ بضم اللام لإتباعها الدال، والذي جسرهما على ذلك ـ والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم: منحدر الجبل ومعبره ـ تنزل الكلمتين منزلة كلمة، لكثرة استعمالهما مقترنتين، وأشف القراءتين قراءة إبراهيم؛ حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى، بخلاف قراءة الحسن.

الرب: المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ

= هذا كله في نهاية مقاله حيث قال:

«والحق أن السبب في الاختيار ـ أي اختيار الجنس دون الاستغراق ـ هو أن اختصاص الجنس مستفاد من جوهر الكلام، ومستلزم لاختصاص جميع الأفراد، فلا حاجة في تأدية المقصود الذي هو ثبوت الحمد لله ـ تعالى ـ وانتفاؤه عن غيره إلى أن يلاحظ الشمول والإحاطة ويستعان فيه بأمر خارج عن اللفظ، بل نقول على ما اختاره يكون اختصاص جميع الأفراد ثابتاً بطريق برهاني أقوى من إثباته ابتداء».

ويمضي السيد الشريف في كلامه موضحاً إلى أن يقول: «ومن هنا يظهر أن الحمل على الجنس دون الاستغراق محافظة على مذهبه».

قلت: أولى بالباحث أن يفهم أولاً معنى «أل» الداخلة على النكرة عند البلاغيين فأقول:

١ ـ إن «أل» تدخل على المعرَّف بها ويراد منها «الجنس» والحقيقة بلا نظر إلى الأفراد أصلاً.

٢ ـ وقد تدخل ويراد منها «الأفراد» ولكن بلا تحديد للبعض أو بتحديد له أو يراد الكل فإذا أريد البعض مع التعيين حينئذ تسمى «لام العهد الخارجي» سواء كان:

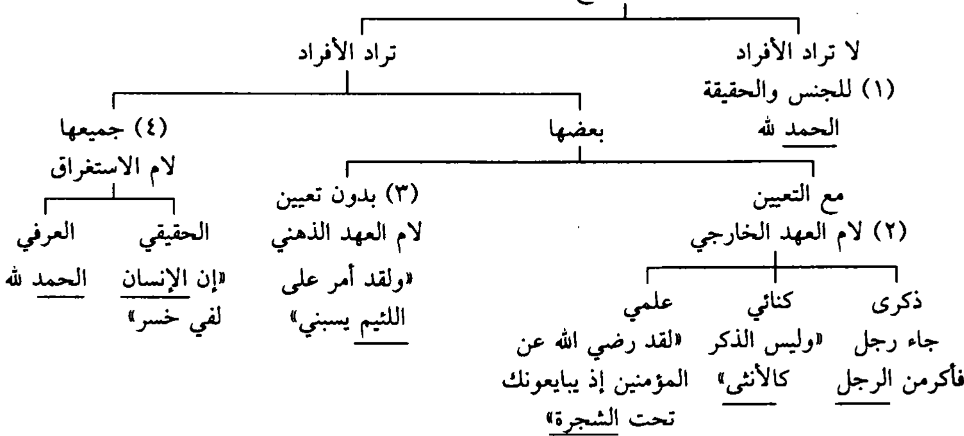
(أ) ذكريا (ب) أو كنائياً (حـ) علميا

أما إذا أريد البعض بلا تعيين فتسمى «لام العهد الذهني» وهي التي مدخولها كالنكرة في جعل الجملة التي بعدها «صفة» أو «حالاً».

أما إذا أريد جميع الأفراد فتسمى «لام الاستغراق» وتحته فرعان:

(أ) الاستغراق الحقيقي (ب) العرفي

وهذه صورة بيانية لمباحث «أل» مع أمثلتها.



«ينظر التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري ٢/ ١١١، ١١٢ ط. عيسى البابي الحلبي.

من أن يربني رجل من هوازن (٤). تقول: ربه يربه، فهو رب، كما تقول: نمّ عليه ينمّ، فهو نمّ. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في غيره على التقيد بالإضافة، كقولهم: ربّ الدار، ورب الناقة، وقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وقرأ زيد بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنصب على المدح، وقيل بما دل عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، كأنه قيل: نحمد الله رب العالمين.

العالم: اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين[١]، وقيل: كل ما علم به الخالق من

---

٤ ـ أخرجه أحمد (٣/٣٧٦)، وأبو يعلى في مسنده (٣/٣٨٨) حديث (١٨٦٣)، وابن حبان (١٧٠٤ ـ موارد) والبزار (٢/ ٣٥١) ـ كشف) رقم (١٨٣٤) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١١٩ ـ ١٢٣)؛ كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه.
وأخرجه ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٤٥).
والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٨٣).
وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، ورواه البزار باختصار، وفيه ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلىٰ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: موقوف. قال ابن إسحاق في «المغازي»: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه في قصة حنين، وفيه قول صفوان هذا؛ ومن طريقه أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الدلائل، ورواه جويرية عن مالك عن الزهري مرسلاً، وأخرجه الدارقطني في الغرائب.
(تنبيه) وقع فيه أن صفوان قال ذلك لأبي سفيان. والذي في مرسل الزهري أنه قال لابن أخيه والذي في المغازي: أنه قال لأخيه ابن أمه كلدة. وأخرجه أبو يعلىٰ من طريق ابن إسحاق. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «العالم اسم لذوي العلم من الملائكة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: تعليله الجمع بإفادة استغراقه لكل جنس تحته فيه نظر؛ فإن «عالماً» كما قرره: اسم جنس عرف باللام الجنسية، فصار العالم ـ وهو مفرد ـ أدل على الاستغراق منه جمعاً. قال إمام الحرمين رحمه الله: التمر أحرى باستغراق الجنس من التمور؛ فإن التمر يسترسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمور ترده إلى تخيل الوجدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب. انتهى كلامه. والتحقيق في هذا وفي كل ما يجمع من أسماء الأجناس ثم يعرف تعريف الجنس: أنه يفيد أمرين: أحدهما أن ذلك الجنس تحته أنواع مختلفة. والآخر أنه مستغرق لجميع ما تحته منها؛ لكن المفيد لاختلاف الأنواع الجمع، والمفيد لاستغراق جميعها التعريف؛ ألا ترى أنه إذا جمع مجرداً من التعريف دل على اختلاف الأنواع. ثم إذا عرف أفاد استغراقاً غير موقوف على الجمعية، إذ هذا حكم مفرده إذا عرف؛ فقول الزمخشري إذاً «إن فائدة جمع العالمين الاستغراق» مردود بثبوت هذه الفائدة وإن لم يجمع؛ وقول إمام الحرمين «إن الجمع يؤيد الإشعار بالاستغراق لما تتخيله من الرد إلى الوجدان» مردود بأن فائدة الجمع الإشعار باختلاف الأنواع، واختلافها لا ينافي استغراقها بصيغة المفرد المقر من تعريف الجنس، وإن أراد أن الجمع يخيل الإشارة إلى أنواع محله =

الأجسام والأعراض، فإن قلت: لم جُمع؟ قلت: ليشمل كل جنس مما سُمي به. فإن قلت: هو اسم غير صفة؛ وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام. قلت: ساغ ذلك؛ لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

قُرِىء: «ملك يوم الدين، ومالك، وملك بتخفيف اللام/ ٥أ، وقرأ أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ: مَلَكَ يومَ الدين، بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه: مالكَ بالنصب. وقرأ غيره: مَلَك، وهو نصب على المدح؛ ومنهم من قرأ: مالكٌ، بالرفع. وملك: هو الاختيار، لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: ١٦]، ولقوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢]، ولأن المُلْكَ يَعم، والمَلِك يخص، ويوم الدين: يوم الجزاء. ومنه قولهم: «كمَا تَدينُ تُدان» (٥) وبيت الحَمَاسَة: [من الهزج]

---

٥ ـ أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٧٩، من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب، عن أبي قلابة، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الذنب لا ينسى، والبرلايَبلى، والديان لا يموت، فكن كما شئت؛ فكما تدين تدان. ثم قال هذا مرسل.
وقد ورد هذا الحديث موصولاً.
أخرجه ابن عديّ في الكامل (٦/ ١٥٨)، من طريق محمد ابن عبد الملك الأنصاري عن نافع عن ابن عمر عن النبي ـ ﷺ ـ قال: الذنب لا ينسى... إلى آخر الحديث ومحمد بن عبد الملك منكر الحديث؛ كما قال البخاري.
وقال النسائي: متروك الحديث، أسند ذلك عنهما ابن عديّ في «كامله».
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
هو طرف من حديث مرفوع، أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة مرسلاً، هكذا أخرجه البيهقي في الزهد، ورواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق بسنده عن أبي قلابة عن أبي الدرداء، وهذا منقطع مع وقفه، وله شاهد موصول من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، أخرجه ابن عديّ في ترجمته محمد بن عبد الملك وضعفه.
قلت: وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن أبي أيوب الجبائري عن سعيد بن موسى عن رباح بن =

= معهودة فهذا الخيال يعينه من المفرد، فالعالم إذاً جمع ليفيد اختلاف الأنواع المندرجة تحته من الجن والإنس والملائكة، وعرف ليفيد هموم الربوبية للّه تعالى في كل أنواعه؛ وتوضيح هذا التقرير: أنا لو فرضنا جنساً ليس تحته إلا آحاد متساوية وهو الذي يسميه غير النحاة النوع الأسفل، لما جاز جمع هذا بحال، لا معرفاً ولا منكراً، وبهذه الفائدة يرد قول إمام الحرمين «إن التمور جمع من حيث اللفظ» لا معنى تحته لجمع الجمع في نحو نوق ونياق وأنيق؛ وأما تعليل الزمخشري جمعه بالواو والنون بإشعاره لصفة العلم فيلحق بصفات من يعقل، فصحيح إذا بنى الأمر على أنه لا يتناول إلا أولى العلم: وأما على القول بأنه اسم لكل موجود سوى اللّه، فيحتاج إلى مزيد نظر في تغليب العاقل في الجمع على غير العاقل.

وَلَـمْ يَـبْـقَ سِـوَى الـعُـدْوَا ... نِ دِنَّـاهُـمْ كَـمَـا دَانُـوا[1]

فإن قلت: ما هذه الإضافة؟ قلت: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتّساع، مُجرى مجرى المفعول به، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، والمعنى على الظرفية، ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين، كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقة؛ فلا تكون معطية معنى التعريف، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاَستقبال، فكان في تقدير الانفصال، كقولك: مالك الساعة، أو غداً. فأمّا إذا قصد معنى الماضي، كقولك: هو مالك عبده أمس، أو زمان مستمرّ، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية، كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ويجوز أن يكون المعنى: ملك الأمور يوم الدين، كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾

= زيد عن معمر عن الزهري عن أنس حديثاً موضوعاً، وفيه: إن الله تعالى قال: «يا موسى كما تدين تدان»، والمتهم بوضعه سعيد بن موسى انتهى.

---

(١) صـفـحـنـا عـن بـنـي ذهـل ... وقـلـنـا الـقـوم إخـوان
فـلـمـا صـرح الـشـر ... فـأمـسـى وهـو عـريـان
ولـم يـبـق سـوى الـعـدوا ... ن ـ دنـاهـم كـمـا دانـوا

لشهل بن شيبان بن ربيعة. وليس في العرب شهل بالمعجمة غيره هو وشهل بن أنمار بن أراش. يقول: صفحنا عن بني ذهل رحمة بهم لعلهم يرجعون، فلما ظهر الشر بيننا وبالغ في الظهور حتى كأنه رجل عريان عن ثيابه، فشبه الشر بإنسان على طريق المكنية وأثبت له العري تخييلاً. ويروى: وهو غرثان، أي: جائع، فهو على التشبيه أيضاً. وقيل: أراد بالشر: السيف، وعريه: تجرده عن غمده. وزيدت الواو قبل الجملة الواقعة خبر لأمسى لتأكيد الربط، تشبيهاً لها بالجملة الواقعة حالاً، ولم يبق سوى عدوان بعضنا على بعض، أو سوى عدوانهم علينا جازيناهم كما ظلمونا، وسمي الثاني ديناً مشاكلة، وهي مجاز لعلاقة المجاورة وقسم برأسه خلاف بين القوم، ومذهب الجمهور أن سوى لا تخرج عن النصب على الظرفية المكانية إلا في الضرورة كما هنا، ومذهب ابن مالك كالزجاجي أنها بمعنى غير فتصرف في الاختيار، كما في قوله صلّى اللّه عليه وسلّم: «سألت اللّه أن لا يسلط على أمتي عدواً من سوى أنفسها» وقول بعض العرب: أتاني سواك، أي: غيرك، وصرح صراحاً بالتحريك: خلص خلوصاً وظهر، وصرح تصريحاً: خلص تخليصاً وأظهر، فما هنا من الأول. ويروى بدل الشطر الثاني: بدا والشر عريان، وفيه إظهار الشر في مقام الإضمار، و «بدا» بدل من صرح، وفيه تبيين وتفسير لمعناه، وأما جواب «لما» فهو قوله: دناهم كما دانوا.

ينظر: أمالي القالي ١/ ٢٦٠، وحماسة البحتري ص ٥٦، وخزانة الأدب ٣/ ٤٣١، والدرر ٣/ ٩٢، وسمط اللآلي ص ٩٤٠، وشرح التصريح ١/ ٣٦٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٤٠، والمقاصد النحوية ٣/ ١٢٢؛ أوضح المسالك ٢/ ٢٨١، وشرح الأشموني ١/ ٢٣٦، وشرح ابن عقيل ص ٣١٦؛ وهمع الهوامع ١/ ٢٠٢، اللسان: دين، المحرر الوجيز ١/ ٧١، الدر ١/ ٧٢.

[الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨]، والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: «مَلَكَ يومَ الدين»، وهذه الأوصاف التي أجريت على الله ـ سبحانه ـ من كونه رباً مالكاً للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلائل والدقائق، ومن كونه مالكاً للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به، وأنه به حقيق في قوله: الحمد لله ـ دليل على أنّ من كانت هذه صفاته، لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾

«إيا»: ضمير منفصل للمنصوب، واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك: إياك، وإياه، وإياي، لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب، كما لا محل للكاف في أرأيتك، وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون، وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب» ـ فشيء شاذ لا يعوّل عليه، وتقديم المفعول؛ لقصد الاختصاص(١)، كقوله

---

(١) قوله «وتقديم المفعول لقصد الاختصاص».
قلنا: المفعول هو: ما يقع عليه فعل الفاعل كقوله ـ تعالى ـ ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وحق المفعول أن يكون بعد الفاعل؛ لأن ترتيب الجملة الفعلية من الآية [٣ البقرة] «فعل وفاعل ومفعول» لالتصاق الفعل بفاعله ثم بعد ذلك تأتي المفاعيل التي يقع عليها فعل الفاعل.
وبهذا يكون التقديم من هذا المقام الأصلي له لفائدة كالاختصاص والاهتمام وغير ذلك ومعنى الاختصاص: تعد شيء على شيء بطريق مخصوص كما هنا في الآية ترى تقديم ما حقه التأخير.
وللقصد تقسيمات بحسب الحقيقة والإضافة والصفة والموصوف، وينظر فيه إلى حال المخاطب به.
وهي تفريعات بلاغية تنظر في محلها من كتب البلاغة الأصيلة.
والذي نعني به هنا أن الزمخشري قال بالاختصاص في هذا التقديم، وقد نازعه فيه أبو حيان في تفسيره البحر المحيط، وذكر أن كلامه هذا زعم مردود عليه، وبين أن التقديم للاعتناء والاهتمام بالمفعول.
وقد رد كلام أبي حيان شيخنا أبو موسى في بحثه عن بلاغة القرآن في الكتاب ولا تعصب منه في هذا، بل هو فهم دقيق لكلام الزمخشري، وكلام أبي حيان معاً، ومن أراد الإفادة فعليه بمراجعة كلام الجميع والوقوف عند كلامهم، وبذلك يرى ما للزمخشري من حق فيما قال.
وقد تابعت الباحثين في الآية فرأيت ما أفادوه من الاختصاص كما قال الزمخشري وغيره ولا مانع مع الاختصاص من الاهتمام، ولذا كان العلامة الشوكاني أحكم في فهمه لهذا الموطن حيث قال «والصواب أنه لها، ولا تزاحم بين المقتضيات».
ينظر علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني ١/ ٣٦١ وما بعدها ـ د. فتحي حجازي».
كما ينظر هذا في النسفي ١/ ٥٧، وإرشاد العقل السليم لابن السعود ١/ ١٦ مفاتيح الغيب للرازي ١/ ٢٩٨، حاشية الشهاب على البيضاوي ١/ ١١٢ وروح المعاني للألوسي ١/ ٨٧، ٨٨، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ٢/ ١١٩، والإيضاح ٣/ ٤ وما بعدها، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٥٠ وما بعدها، والبحر المحيط ١/ ٩.

تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]. والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة. وقرىء: «إِيَاك» بتخفيف الياء، و«أَيَّاك» بفتح الهمزة والتشديد، و«هَيَّاك» بقلب الهمزة هاء؛ قال طُفَيْلُ الْغَنَوِيُّ: [من الطويل]

فَهَيَّاكَ والأَمْرَ الَّذِي إنْ تَرَاحَبَتْ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهْ[1]

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه: ثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة وقوّة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله ـ تعالى ـ، لأنه مولى أعظم النعم، فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع، فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى/ ٥ب الالتفات في علم البيان[2]، قد يكون [3]من الغيبة إلى الخطاب،

---

(١) لمضرس بن ربعي، وقيل لطفيل، وهياك: أصله إياك، قلبت همزته هاء، وهو في محل نصب بمحذوف وجوباً، والأمر: عطف عليه، والأصل: احذر تلاقي نفسك والأمر فحذف ما عدا ضمير الخطاب وما عطف عليه لكثرة الاستعمال. ولأن مقام التحذير يقتضي السرعة وإيجاز الكلام، وقيل أصله: باعد نفسك من الأمر وباعد الأمر من نفسك، فحذف لذلك، وشبه أسباب الدخول في الأمر بالموارد: أي مواضع الورود إلى نحو الماء، وأسباب الخروج منه بالمصادر: أي مواضع الصدور: أي الرجوع، فكل منهما استعارة تصريحية، وأما تشبيه الأمر بشيء له موارد ومصادر كالماء على طريقة المكنية، فهو خارج عن قانون البيان؛ لأن الأمر يطلق على كل شيء، فتخصيصه بغير نحو الماء ثم تشبيهه به، بالقصد لا بالوضع. ويروى هكذا:

فإياك والأمر الذي إن توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

أي فليس عذر المرء لنفسه حسناً: أي قبوله لاعتذارها بعد وقوعها في الورطة، وقوله: وليس له الخ: جملة حالية وعلى هذا فحقه حرف الراء. وهو في: شرح شواهد الشافية ص ٤٧٦، ولطفيل الغنويّ أو لمضرس في ديوان طفيل ص ١٠٢، وبلا نسبة في الإنصاف ١/ ٢١٥، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٥٥٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٥٢، وشرح شافية ابن الحاجب ٣/ ٢٢٣، وشرح المفصل ٨/ ١١٨، ١٠/ ٤٢، ولسان العرب (هيا) (أيا) والمحتسب ١/ ٤٠، والممتع في التصريف ١/ ٣٩٧، والمنصف ٢/ ١٤٥.

(٢) قوله «قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان» ١/ ٦٢ الكشاف أقول: الالتفات لغة: مصدر التفت أي صرفت وجهي إلى جهة أخرى قال من اللسان: قال أي أحد الشعراء ولم يعينه:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظني من حيث ما أتلفت

وفي الإصطلاح: (أ) عند الجمهور:
التعبير عن معنى بطريق من طرق الكلام الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة بمد التعبير عنه بطريق آخر منها.
ولا بد أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر، ويترقبه السامع (ب) عند السكاكي:
التعبير بإحدى الطرق المتقدمة عن المعنى خلافاً لما يقتضيه الظاهر ولم يشترط تقدم طريق من هذه الطرق، بل يجوز أن يكون بداية على خلاف الظاهر كما في قول امرىء القيس:
تطاول ليلكِ بالإثمد، . . . ولم يقل على الظاهر: تطاول ليلى. =

ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ [فاطر: ٩].

وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات[1]: [من المتقارب]

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأثْمَدِ ... ونَامَ الخَلِيُّ ولَم تَرْقُدِ

وبَاتَ وبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ ... كَلَيْلَةِ ذِي العَائِرِ الأرْمَدِ

وذلِكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِي ... وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أبِي الأسْوَدِ[2]

= وبهذا عرف الفارق بين قول السكاكي والجمهور، واستبان ما يميل إليه الزمخشري رحمه الله.
والكلام في الالتفات وتفريعاته ومواطنه وأسراره في مراجع البيان وأصول البلاغيين.
«ينظر الإيضاح بتحقيق خفاجي ٢/ ١١٩ وما بعدها، والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٤٤٣، والمطول ٩٥/ ٩٦، ولسان العرب (لفت).

(٣) قوله «في علم البيان» قد يكون لعله وقد، وعبارة النسفي: وهو قد يكون. (ع)

(١) قال محمود رحمه الله: «وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات... إلخ.» قال أحمد رحمه الله: يعني أنه ابتدأ بالخطاب ثم التفت إلى الغيبة، ثم إلى التكلم وعلى هذا فهما التفاتان لا غير، وإنما أراد الزمخشري والله أعلم أنه أتى بثلاثة أساليب: خطاب لحاضر، وغائب، ولنفسه، فوهم بقوله ثلاث التفاتات، أو تجعل الأخير ملتفتاً التفاتتين عن الثاني وعن الأول فيكون ثلاثاً، والأمر فيه سهل.
قال السمين الحلبي: وقد خطأ بعضهم الزمخشري في جعله هذا ثلاثة التفاتات وقال: بل هما التفاتان:
أحدهما: خروج من الخطاب المفتتح به في قوله: «لَيْلُكَ» إلى الغيبة في قوله: «وباتت له ليلة».
والثاني: الخروج من هذه الغيبة إلى التكلم في قوله: «من نبأ جاءني وخبرته».
والجواب أن قوله أولاً: «تطاول ليلك» فيه التفات؛ لأنه كان أصل الكلام أن يقول: تطاول ليلي، لأنه هو المقصود فالتفت من مقام التكلم إلى مقام الخطاب، ثم من الخطاب إلى الغيبة، ثم من الغيبة إلى التكلم الذي هو الأصل. وقرىء شاذاً: «إياك يُعْبَدُ» على بنائه للمفعول الغائب، ووجهها على إشكالها: أن فيها استعارة والتفاتاً أما الاستعارة فإنه استعير فيها ضمير النصب لضمير الرفع والأصل: أنت تعبد وهو شائع؛ كقولهم: عساك وعساه وعساني في أحد الأقوال وقول الآخر [من الرجز]:

يَابْنَ الزُّبَيْرِ طَالَمَا عَصَيْكَا ... وَطَالَمَا عَنَّيْتَنَا إلَيْكَا

فالكاف في «عَصَيْكَا» نائبة عن التاء، والأصل: عصيت. وأما الالتفات فكان من حق هذا القارىء أن يقرأ: إياك تُعْبَدُ بالخطاب، ولكنه التفت من الخطاب في «إياك» إلى الغيبة في «يُعْبَد»، إلا أن هذا التفات غريب؛ لكونه في جملة واحدة، بخلاف الالتفات المتقدم ونظير هذا الالتفات قوله [من الطويل]:

أأَنْتَ الهِلالِيُّ الَّذِي كُنْتَ مَرَّةً ... سَمِعْنَا بِهِ والأرْحَبِيُّ المُغَلَّبُ؟

فقال: «به» بعد قوله: «أنت وكنت». انتهى. الدر المصون.

(٢) لامرىء القيس بن حجر الجاهلي، وقال ابن هشام: هو غلط، وقائله امرؤ القيس بن عابس الصحابي، وقيل لعمرو بن معديكرب، والأثمد كأحمد، وقد تضم ميمه، وقد يروى بكسرها: اسم موضع، والعائر اسم جامد يطلق على قذى تدمع منه العين، وعلى الرمد، وعلى كل ما أعلّ العين، وفي الشعر ثلاث التفاتات، لكن الأول على مذهب السكاكي فقط: وهو أنه كان الظاهر التعبد =

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك، يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به، فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت: ليجمع بين ما يتقرّب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قدّمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها، فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟[1] قلت: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ [الفاتحة: ٦]؛ بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا الصراط المستقيم، وإنما كان أحسن؛ لتلاؤم الكلام، وأخذ بعضه بحجزة بعض، وقرأ ابن حبيش: «نستعين»، بكسر النون.

= بطريق التكلم فالتفت إلى الخطاب وذلك في البيت الأول. والثاني: عدوله عن الخطاب إلى الغيبة في الثاني. والثالث: التفاته عن الغيبة إلى التكلم في الثالث. والجمهور يجعلون الأول من قبيل التجريد. وأبو الأسود: كنية صاحب الشاعر الذي يرثيه، وقيل هو المخبر واسمه ظالم بن عمرو وهو عم امرىء القيس. وقيل أبي مضاف لياء المتكلم والأسود صفته، ويروى: عن بني الأسود.

ينظر: ديوانه ص ١٨٥، وتخليص الشواهد ص ٢٤٣، وشرح قطر الندى ص ١٣٦، شرح التصريح ١/ ١٩١، ولعمرو بن معديكرب في ديوانه ص ٢٠٠، ولعمرو أو لامرىء القيس في سمط اللآلي ص ٥٣١، ولامرىء القيس بن عابس في المقاصد النحوية ٢/ ٣٠، وله أو لامرىء القيس الكندي أو لعمرو بن معديكرب، في شرح شواهد المغني ٢/ ٧٣٢، وأوضح المسالك ١/ ٢٥٤، وجمهرة اللغة ص ٧٧٥، وشرح الأشموني ١/ ١١٥، والتبيان لابن محمد الطيبي ٢٨٧، والطراز لابن حمزة العلوي ٢/ ١٤٠، البحر المحيط ١/ ١٤٢، الدر ١/ ٧٥.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت لم قدمت العبادة على الاستعانة. . . إلخ». قال أحمد: معتقد أهل السنّة أن العبد لا يستوجب على ربه جزاء ـ تعالى الله عن ذلك ـ والثواب عندنا ـ من الإعانة في الدنيا على العبادة ومن صنوف النعيم في الآخرة ـ ليس بواجب على الله تعالى، بل فضل منه وإحسان. وفي الحديث «أنه عليه الصلاة والسلام قال: لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»، مضافاً إلى دليل العقل المحيل أن يجب على الله تعالى شيء، لكن قام الدليل عقلاً وشرعاً على أنه تعالى لا يجب عليه شيء، فقد قام عقلاً وشرعاً على أن خبره تعالى صدق ووعده حق، أي يجب عقلاً أن يقع، فإما أن يكون الزمخشري تسامح في إطلاق الاستيجاب وأراد وجوب صدق الخبر، وإما أن يكون أخرجه على قواعد البدعية في اعتقاد وجوب الخير على الله تعالى وإن لم يكن وعد.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾

هدى: أصله أن يتعدى باللام أو بإلى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فعومل معاملة ـ اختار ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. ومعنى طلب الهداية ـ وهم مهتدون ـ طلب زيادة الهدى بمنح الإلطاف، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وعن علي وأبيّ ـ رضي الله عنهما ـ: اهدنا: ثبتنا، وصيغة الأمر والدعاء واحدة، لأنّ كل واحد منهما طلب، وإنما يتفاوتان في الرتبة، وقرأ عبد الله: أرشدنا.

«السراط»: الجادّة، من سرط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه، كما سُمّي: لقماً؛ لأنه يلتقمهم، والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء، كقوله: «مصيطر»، في «مسيطر»، وقد تشم الصاد صوت الزاي، وقرىء بهنّ جميعاً، وفصاحهنّ إخلاص الصاد، وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام، ويجمع سرطاً، نحو: كتاب وكتب، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، والمراد طريق الحق، وهو ملة الإسلام.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: بدل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل/ ٦أ، كأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، كما قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، فإن قلت: ما فائدة البدل؟ وهلا قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده، كما تقول: هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان؛ فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم، والفضل من قولك: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل؟ لأنك ثنيت ذكره مجملاً أوّلاً، ومفصلاً ثانياً، وأوقعت فلاناً تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل، فجعلته علماً في الكرم والفضل، فكأنك قلت: من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان، فهو المشخص المعين، لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع.

والذين أنعمت عليهم: هم المؤمنون، وأُطلق الإنعام؛ ليشمل كل إنعام[1]؛ لأنّ من

---

(١) قال محمود رحمه الله: وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام. قال أحمد رحمه الله: إن إطلاق الإنعام يفيد الشمول كقوله: إن إطلاق الاستعانة يتناول كل مستعان فيه، وليس بمسلم فإن الفعل لا عموم =

أُنعِمَ عليه بنعمة الإسلام، لم تبق نعمة إلا أصابته، واشتملت عليه. وعن ابن عباس: هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا، وقيل: هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود: «صراط من أنعمت عليهم».

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى أنّ المنعم عليهم: هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال.

فإن قلت: كيف صح أن يقع: ﴿غَيْرِ﴾ صفة للمعرفة وهو لا يتعرّف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلت: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لا توقيت فيه كقوله [من الكامل]:

وَلَقَدْ أَمُرُّ على اللَّئِيمِ يَسُبُّني[1] ....

ولأنّ المغضوب عليهم والضالين خلاف المنعم عليهم، فليس في - غير - إذن الإبهام

= لمصدره، والتحقيق أن الإطلاق إنما يقتضي إبهاماً وشيوعاً. والنفس إلى المبهم أشوق منها إلى المقيد لتعلق الأمل مع الإبهام لكل نعمة تخطر بالبال.

(١) ولقد أمر على اللئيم يسبني   فمضيت ثمة قلت لا يعنيني
غضبان ممتلىء علي إهابه   إني وربك سخطه يرضيني

لرجل من بني سلول، ويسبني صفة للئيم وإن قُرن بأل، لأنه ليس المراد لئيماً بعينه بدليل مقام التمدح ف «أل» فيه للعهد الذهني لا الخارجي. ومدخولها في المعنى كالنكرة، فجاز وصفه بالجملة وإن كانت لا يوصف بها إلا النكرة، وهذا يفيد اتصافه بالسب دائماً لاحال المرور فقط وهو لمراد، وكان الظاهر أن يقول: فأمضي ثم أقول، ولكن أتى بالماضي دلالة على تحقق ذلك منه، وروي: فأعف ثم أقول: أي أكف عنه وعن مكافأته، ويحتمل أنه أراد صررت على صيغة الماضي بالمضارع لحكاية الحال، هذا والظاهر أن الجملة حالية، أي: أمر على اللئيم حال كونه يسبني وأنا أسمع فأعرض عنه وأقول إنه لا يقصدني بذلك السب الذي سمعته منه، وليس المراد وصفه بالسب الدائم، لأنه لا يظهر مع تخصيص السب بوقوعه على ضمير المار، على أنه يمكن جعل الحال لازمة فتفيد الدوام. هو غضبان ممتلىء جلده غضباً علي لكن لا أبالي بذلك، فإني وحق ربك غضبه يرضيني، فليدم عليه وليزدد منه، والإهاب: الجلد قبل دبغه بل وقبل سلخه كما هنا.

ينظر في الدرر ١/ ٧٨، وشرح التصريح ٢/ ١١، وشرح شواهد المغني ١/ ٣١٠، والكتاب ٣/ ٢٤، والمقاصد النحوية ٤/ ٥٨، ولشمر بن عمرو الحنفي في الأصمعيات ص ١٢٦، ولعميرة بن جابر الحنفي في حماسة البحتري ص ١٧١، وبلا نسبة في الأذهية ص ٢٦٣، والأشباه والنظائر ٣/ ٩٠، والأضداد ص ١٣٢، وأمالي ابن الحاجب ص ٦٣١، وأوضح المسالك ٣/ ٢٠٦، وجواهر الأدب ص ٣٠٧، وخزانة الأدب ١/ ٣٥٧، ٣٥٨، ٣/ ٢٠١، ٤/ ٢٠٧، ٢٠٨، ٥/ ٢٣، ٥٠٣، ٧/ ١٩٧، ٩/ ١١٩، ٣٨٣، والخصائص ٢/ ٣٣٨، ٣/ ٣٣٠، والدرر ٦/ ١٥٤، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٢١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٤١، وشرح ابن عقيل ص ٤٧٥، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢١٩، ولسان العرب (ثم) (منن)، ومغني اللبيب ١/ ١٠٢، ٢/ ٤٢٩، ٦٤٥، وهمع الهوامع ١/ ٢٩ ٢/ ١٤٠، والدر المصون ١/ ٣٥٤.

الذي يأبى عليه أن يتعرّف، وقرىء بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في عليهم، والعامل: أنعمت، وقيل: المغضوب عليهم: هم اليهود؛ لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. والضالون: هم النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، فإن قلت: ما معنى غضب الله؟ قلت: هو إرادة الانتقام[1] من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده، نعوذ بالله من غضبه، ونسأله رضاه ورحمته. فإن قلت: أي فرق بين ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ الأولى و ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ الثانية؟ قلت: الأولى: محلها النصب على المفعولية، والثانية: محلها الرفع على الفاعلية، فإن قلت: لم دخلت: «لا» في ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؟ قلت: لما في ـ غير ـ من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول: أنا زيداً غير ضارب، مع امتناع قولك: أنا زيداً مثل ضارب؛ لأنه بمنزلة قولك: أنا زيداً لاضارب، وعن عمر وعلي ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قرآ: وغير الضالين، وقرأ أيوب السختياني: «ولا الضألين» ـ بالهمز، كما قرأ عمرو بن عبيد: «ولا جأن»، وهذه لغة من جدّ في الهرب من التقاء الساكنين[2]. ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم: شأبة، ودأبة.

آمين: صوت سمي به الفعل الذي هو/٦ب استجب، كما أنّ: «رويد، وحيهل، وهلم»: أصوات سميت بها الأفعال التي هي «أمهل، وأسرع، وأقبل»، وعن ابن عباس ـ

---

٦ ـ أخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما في تخريج الزيلعي (١/ ٢٧) =

---

(١) قال محمود رحمه الله: «ومعنى الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام. . . إلخ» قال أحمد: أدرج في هذا ما يقتضي عنده وجوب وعيد العصاة، وليس مذهب أهل السنّة، بل الأمر عندهم في المؤمن العاصي موكول إلى المشيئة: فمنهم مَن أراد الله تعالى عقوبته والانتقام منه فيقع ذلك لا محالة، ومنهم مَن أراد العفو عنه وإثابته فضلاً منه تعالى، على أن المغضوب عليهم والضالين واقعان على الكفار، ووعيدهم واقع لا محالة ومراد، والله الموفق. أقول: قال الزمخشري رحمه الله: الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام من العصاة إلخ لا يدل على ما فسره، فإن وجوب وعيد العصاة لا يعلم منه. والغضب من الله عند أهل السنّة والمعتزلة: عبارة عما ذكره الزمخشري رحمه الله، إلا أن عند أهل السنّة أن الله تعالى إن شاء عذب صاحب الكبيرة وإن شاء غفر له، وعند المعتزلة وجوب عذابه: فعند المعتزلة ظاهر أن الغضب عبارة عن إرادة الانتقام، وعند أهل السنّة: إن غفر له فلا غضب، وإن لم يغفر له فغضبه عبارة عما ذكره.

(٢) قال السمين الحلبي: وقد فعلوا ذلك حيث لا ساكنان، قال الشاعر [من الرجز]:

فَخِنْدِفٌ هَامَةُ هٰذَا الْعَأْلَمِ.

انتهى. الدر المصنون.

رضي الله عنهما ـ: سألت رسول الله ﷺ عن معنى آمين؟ فقال: «اْفْعَلْ» (٦) وفيه لُغتان: مَدُّ أَلِفِهِ، وَقَصْرُهَا؛ قال: [من البسيط]

.... وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْداً قَالَ آمِينَا[١]

وقال: [من الطويل]

.... أَمِينَ فَزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا[٢]

وعن النبي ﷺ: «لَقَّنَني جبْرِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ آمينَ عِنْدَ فَرَاغِي مِنْ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ

= وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٤)، وجويبر في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس؛ كما في الدر المنثور (١/ ٤٤).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية أبي صالح عنه بإسناد واهٍ. انتهى.

---

(١) يا رب إنك ذو منٍّ ومغفرة ... بيت بعافية ليل المحبينا
الذاكرين الهوى من بعدما رقدوا ... الساقطين على الأيدي المكبينا
يا رب لا تسلبني حبها أبداً ... ويرحم الله عبداً قال آمينا
لقيس بن معاذ الملوح مجنون ليلى العامرية، اشتد وجده بها، فأخذه أبوه إلى الكعبة ليدعو الله عسى أن يشفيه، فأخذ بحلقة بابها وقال ذلك. والدعاء لليل المحبين مجاز عقلي، وهو في الحقيقة لهم، وبين أن رقادهم ليس على المعتاد بقوله: الساقطين على الأيدي، المكبين على الوجوه حيرة وسكرة، ثم دعا بأن يديم الله حبها، ودعا لمن يؤمن على دعائه بأن يقول: آمين، وهو اسم فعل، أي استجب يا الله هذا الدعاء، وهو بالمد، ويجوز قصره.
البيت للمجنون ينظر ديوانه ص ٢١٩، ولعمر بن أبي ربيعة ينظر لسان العرب (أمن) وليس في ديوانه، إصلاح المنطق ص ١٧٩، وإنباه الرواة ٣/ ٢٨٢، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨٥، وشرح المفصل ٤/ ٣٤، وشرح شذور الذهب ص ١٥١، أمالي ابن الشجري ١/ ٢٥٩، شذور الذهب ١٥٧، معاني الزجاج ١/ ١٧، الصحاح: (أمن)، البيان في غريب إعراب القرآن ١/ ٤٢، مقاييس اللغة ١/ ١٣٥، القرطبي ١/ ٩٠، الدر ١/ ٨٧. فتح القدير ١/ ٧٨.

(٢) تباعد عني فطحل إذ دعوته ... أمين فزاد الله ما بيننا بعدا
لجبير بن الأضبط كان قد سأل فطحلاً فأعرض عنه فدعا عليه، ويروى تباعد مني فطحل وأبى، وأمينَ: بقصر الهمزة على اللغة العربية الأصلية. وأما بالمد فقيل أعجمي؛ لأنه ليس في لغة العرب فاعيل. وقيل: أصله بالقصر فأشبعت همزته: اسم فعل بمعنى استجب، ورتبته بعدما بعده. قدمه حرصاً على طلب الإجابة ووقوع الدعاء مجاباً من أول وهلة. والفاء للسببية عما قبلها. أي: حيثما تباعد عني فزد ما بيننا بعداً يا الله، وبعداً: يجوز أن يكون تمييزاً، وأن يكون مفعولاً.
ينظر: تهذيب إصلاح المنطق ٢/ ٤٢، إصلاح المنطق ص ١٧٩، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨٥، وشرح شذور الذهب ص ١٥٢، وشرح المفصل ٤/ ٣٤، ولسان العرب (حطل)، (أمن)، ومعاني الزجاج ١/ ١٧، الصحاح ٥/ ٢٠٧، مقاييس اللغة ١/ ١٣٥، والقرطبي ١/ ٩٠، الدر ١/ ٨٧.

الكِتَابِ» وقال: «إِنَّهُ كَالْخَتْمِ عَلَى الْكِتَابِ» (٧)، وليس من القرآن؛ بدليل أنه لم يثبت في المصاحف، وعن الحسن: لا يقولها الإمام؛ لأنه الداعي، وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ مثله، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيها، وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس عن رسول الله ﷺ (٨). وعند الشافعي يجهر بها. وعن وائل بن حجر؛ أنّ النبي ﷺ «كان إذا قرأ: ولا الضَّالِّين، قَالَ: آمِينَ وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَه» (٩). وعن رسول الله ﷺ[1] أنه قال

---

٧ ـ قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ (١/ ٢٧).
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
لم أجده هكذا. وفي «الدعاء» لابن أبي شيبة من رواية أبي ميسرة أحد كبار التابعين قال: أقرأ جبريل ـ عليه السلام ـ النبي ـ ﷺ ـ فاتحة الكتاب فلما قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال له: قل: آمين. فقال: آمين، قلت: وعند أبي داود عن أبي زهير قال: آمين مثل الطابع على الصحيفة وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين»، وهو في الدعاء للطبراني. انتهى.

٨ ـ قال الزيلعي: في «تخريج الكشاف» (١/ ٢٧) غريب جدًا.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
لم أجده عن واحد منهما. انتهى.

٩ ـ أخرجه أحمد (٤/ ٣١٥)، والطيالسي (١٠٢٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٢)، وابن حبان (٥/ ١٠٩) حديث (١٨٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٥٧)، والطبراني (٢٢/ ٤٥) (١١٢) عن طريق شعبة عن سلمة بن كهيل عن حجر أبي العنبس عن علقمة بن وائل عن أبيه: وفي لفظه: وأخفى بها صوته.
وصحح هذا الطريق الحاكم وابن حبان.
قال الدارقطني في سننه (١/ ٣٣٤)؛ كذا قال شعبة: «وأخفى بها صوته» ويقال: إنه وهم فيه؛ لأن سفيان الثوري ومحمد بن سلمة بن كهيل، وغيرهما رووه عن سلمة، فقالوا: «ورفع صوته بآمين» وهو الصواب. ا.هـ.
أما طريق سفيان الذي أشار إليه الدارقطني.
أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٥)، وأحمد (٤/ ٣١٦ ـ ٣١٧) وأبو داود (١/ ٢٤٦): كتاب الصلاة: باب التأمين وراء الإمام، حديث (٩٣٢)، والترمذي: كتاب الصلاة باب ما جاء في التأمين (٢/ ٢٧) حديث برقم (٢٤٨)، والدارمي (١/ ٢٨٤): كتاب الصلاة: باب الجهر بالتأمين، والطبراني (٢٢/ ٤٤) حديث (١١١)، والدارقطني (١/ ٣٣٤): كتاب الصلاة: باب التأمين في الصلاة بعد =

---

(١) قوله: وعن رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: اعلم أن صاحب الكتاب التزم أن يذكر آخر كل سورة حديثاً لبيان فضلها، ولكن ليست كلها صحيحة فقد قال الجلال السيوطي: اعلم أن السور التي صحت الأحاديث في فضلها: الفاتحة، والزهراوان، والأنعام، والسبع الطوال مجملاً، والكهف، ويس، والدخان، والملك، والزلزلة، والنصر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتان. وما عداها لم يصح فيه شيء أهـ. والزهراوان: البقرة، وآل عمران. والسبع الطوال: من أول البقرة إلى آخر براءة ـ بعدها مع الأنفال سورة واحدة ـ قاله الأجهوري على البيقونية في مصطلح الحديث. (ع)

لأبيّ بن كعب: «أَلا أُخبِرُكَ بِسُورَةٍ لَمْ يُنَزَّلْ في التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ والقُرْآنِ مِثْلُهَا؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُول الله. قال: «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ؛ إِنَّها السَّبْعُ المَثَانِي والقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذي أُوتِيتُهُ» (١٠).

= فاتحة الكتاب والجهر بها، والبيهقي في السنن الكبرى (٢١/٥٧): كتاب الصلاة: باب جهر الإمام بالتأمين والبغوي (٢٠٨/٢) كتاب الصلاة: باب الجهر بالتأمين في صلاة الجهر، حديث (٥٨٧) من طريق سفيان عن سلمة بن كهيل به.

وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٢٥/٢) وأبو داود (٢٣٦/١): كتاب الصلاة: باب التأمين وراء الإمام، حديث (٩٣٢)، والترمذي (٢٩/٢) كتاب الصلاة: باب ما جاء في التأمين، حديث رقم (٢٤٩)، والطبراني في معجمه الكبير (٤٥/٢٢): حديث (١١٤) من طريق العلاء بن صالح عن سلمة به، وأخرجه من طريق محمد بن كهيل، عن حجر بن عنبس عن وائل؛ ولفظ رواية سفيان: «يمدّ بها صوته» وعند أبي داود والطبراني: «يرفع بها صوته»، ولفظ العلاء بن صالح: فجهر بآمين، وسلم عن يمينه وعن شماله حتى رأيت بياض خده، وقد صحح إسناده البيهقي في المعرفة، والحافظ في تلخيص الحبير (٢٣٦/١).

وقد توسع البيهقي رحمه الله في «الخلافيات» في الكلام على هذا الحديث، وترجيح رواية سفيان ومن وافقه.

وانظر تعليقنا هناك على هذا الحديث، ففيه البسط والحمد لله على التوفيق.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف».

أخرجه أبو داود من رواية حجر بن عنبسة عنه. وإسناده حسن. انتهى.

١٠ ـ أخرجه الترمذي (٢٩٧/٤): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الحجر، حديث (٣١٢٥)، والنسائي في المجتبى (١٣٩/٢) كتاب الافتتاح. باب تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، حديث (٩١٤)، وأحمد في مسنده (١١٢/٢)، والدارمي (٤٤٦/٢): كتاب فضائل القرآن: باب فضل فاتحة الكتاب، وابن خزيمة (٢٥٢/١) كتاب الصلاة: باب فضل قراءة الفاتحة، حديث (٥٠١)، وأبو يعلى الموصلي (٣٦٧/١١) حديث (٦٤٨٢). وابن حبان (٥٣/٣) كتاب الرقائق: باب قراءة القرآن حديث (٧٧٥)، والحاكم في المستدرك (٥٥٧/١) وعبد بن حميد (ص٨٦)حديث (١٦٥)، والبيهقي في الكبرى (٣٧٥/٢)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢٣/٢) باب فضل فاتحة الكتاب، حديث (٣٩٣)، والطبري في تفسيره (١٤٤/٩)، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وصححه ابن خزيمة، وابن حبان.

والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢١/١)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن مردويه، وأبي ذر الهروي في فضائل القرآن.

وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد بن المعلّى.

أخرجه البخاري (٦/٨) كتاب التفسير: باب ما جاء في فاتحة الكتاب حديث (٤٤٧٤)، (٢٣٢/٨) كتاب التفسير باب ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ حديث (٤٧٠٣)، و(٦٧١/٨) كتاب فضائل القرآن: باب فضل فاتحة الكتاب حديث (٥٠٠٦) وأبو داود (٤٦١/١) كتاب الصلاة: باب فاتحة الكتاب حديث (١٤٥٨) والنسائي (١٣٩/٢) كتاب الافتتاح: باب تأويل قول الله عز وجل: =

وعن حذيفة بن اليمان أنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْقَوْمَ لَيَبْعَثُ الله عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ حَتْماً مَقْضِياً، فَيَقْرَأُ صَبِيٌّ مِنْ صِبْيَانِهِمْ في الْكِتَابِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَيَسْمَعُهُ الله تَعَالَىٰ فَيَرْفَعُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ الْعَذَابَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» (١١).

= ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، وابن ماجة (٢/ ١٢٤٤) كتاب الأدب: باب ثواب القرآن حديث (٣٧٨٥) وأحمد (٤/ ٢١١) والدارمي (١/ ٣٥٠) كتاب الصلاة: باب أم القرآن هي السبع المثاني، (٢/ ٤٤٥) كتاب فضائل القرآن باب فضل فاتحة الكتاب، وأبو يعلى (١٢/ ٢٢٥) رقم (٦٨٣٧) والبيهقي (٢/ ٣٦٨) كتاب الصلاة، كلهم من طريق شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله - ﷺ - فلم أجبه قال: قلت له: يا رسول الله إني كنت أصلي قال: أولم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ ثم قال لي: ألا أعلمك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢١) وزاد نسبته إلى الطبري وابن حبان وابن مردويه.

قال الحافظ في تخريج الكشاف.

أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من رواية عبد الحميد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. ورواه مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن: أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبره: «أن النبي - ﷺ - نادى أبيّ بن كعب - فذكره» وهو مرسل؛ لأن أبا سعيد هذا تابعي. وهذا الحديث قد أخرجه البخاري من وجه آخر عن أبي سعيد بن المعلّى: «أن النبي - ﷺ - مر به وهو يصلي، فدعاه - فذكر الحديث، ووهم صاحب جامع الأصول، فجعلهما واحداً فأخطأ؛ لأن الأول مكي مولى تابعي. والثاني أنصاري مدني من أنفسهم. صحابي. قال البيهقي: يحتمل أن يكون ذلك صدر منه - ﷺ - لأبيّ بن كعب مرة، ولسعيد بن المعلّي مرة أخرى. انتهى.

١١ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٣٠): رواه الثعلبي في تفسيره من حديث أبي معاوية الضرير، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، عن النبي - ﷺ -... فذكره سواء.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثعلبي من رواية أبي معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربعي عنه. قلت: إلا أن دون أبي معاوية من لا يحتج به. وله شاهد في مسند الدارمي عن ثابت بن عجلان قال: «كان يقال: إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض، فإذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم» يعني بالحكمة: القرآن، وحديث أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - في فضائل القرآن سورة سورة. أخرجه الثعلبي من طرق عن أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - كلها ساقطة. وأخرجه ابن مردويه من طريقين. وأخرجه الواحدي في الوسيط. وله قصة ذكرها الخطيب ثم ابن الصلاح عمن اعترف بوضعه؛ ولهذا روى عن أبي عصمة أنه وضعه. انتهى.

سورة البقرة

مدنيّة، وهي مائتان وستّ وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ①﴾.

﴿الٓمٓ﴾: اعلم أنّ الألفاظ التي يتهجى بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فقولك: ـ ضاد ـ اسم سمي به: «ضه» من ضرب إذا تهجيته، وكذلك: «را، با»: اسمان؛ لقولك: «ره، به»؛ وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة، وهي أن المسميات لما كانت ألفاظاً كأساميها، وهي حروف وحدان والأسامى عدد حروفها مرتق إلى الثلاثة، اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا في التسمية على المسمى فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى، إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماها؛ لأنه لا يكون إلا ساكناً. ومما يضاهيها في إيداع اللفظ دلالة على المعنى: التهليل، والحوقلة، والحيعلة، والبسملة؛ وحكمها ـ ما لم تلها العوامل ـ أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفة كأسماء الأعداد، فيقال: «ألف لام ميم»، كما يقال: «واحد اثنان ثلاثة»؛ فإذا وليتها العوامل، أدركها الإعراب. تقول: هذه ألف، وكتبت ألفاً، ونظرت إلى ألف؛ وهكذا كل اسم عمدت إلى تأدية ذاته فحسب، قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شيء من تأثيراتها، فحقك أن تلفظ به موقوفاً؛ ألا ترى أنك إذا أردت أن تلقى على الحاسب أجناساً مختلفة ليرفع حسبانها، كيف تصنع، وكيف تلقيها أغفالاً من سمة الإعراب؟ فتقول: «دار، غلام، جارية، ثوب، بساط». ولو أعربت ركبت شططاً. فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالاسمية؟ وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدّمين؟ / ٧أ قلت: قد استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف، فعلمت أن قولهم خليق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في اسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف في معنى الكلمة، وذلك أن قولك: «ألف»: دلالته على أوسط حروف: «قال، وقام» دلالة «فرس» على الحيوان المخصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الدلالتين؛ ألا ترى أنّ الحرف: ما دلّ على معنى في غيره، وهذا كما ترى دال على معنى في نفسه؛ ولأنها متصرف فيها بالإمالة كقولك: «با، تا». وبالتفخيم كقولك: «يا، ها»، وبالتعريف، والتنكير، والجمع والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، وجميع ما للأسماء المتصرفة. ثم إني عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك. قال سيبويه: قال الخليل: يوماً ـ وسأل أصحابه ـ:

«كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف[1] التي في لك، والباء التي في ضرب»؟ فقيل: نقول: «باء، كاف»، فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: «كه، به». وذكر أبو علي في كتاب: «الحجة» في: (يسّ): وإمالة يا، أنهم قالوا: يا زيد، في النداء؛ فأمالوا وإن كان حرفاً، قال: فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الياء، فلأن يميلوا الاسم الذي هو «يس» أجدر؛ ألا ترى أنّ هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها؟ فإن قلت: من أي قبيل هي من الأسماء، أمعربة أم مبنية؟ قلت: بل هي أسماء معربة، وإنما سكنت سكون «زيد وعمرو وغيرهما» من الأسماء، حيث لا يمسها إعراب، لفقد مقتضيه وموجبه. والدليل على أنّ سكونها وقف وليس ببناء: أنها لو بنيت لحذى بها حذو: «كيف، وأين، وهؤلاء». ولم يقل: «صَ، قَ، نَ» مجموعاً فيها بين الساكنين. فإن قلت: فلم لفظ المتهجى بما آخره ألف منها مقصوراً، فلما أعرب مدّ فقال: هذه «باء، وياء، وهاء» وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك: «لا» مقصورة؛ فإذا جعلتها اسماً مددت، فقلت: كتبت «لاء»؟ قلت: هذا التخيل يضمحل بما لخصته من الدليل؛ والسبب في أن قصرت متهجاة، ومدّت حين مسها الإعراب: أنّ حال التهجي خليقة بالأخف الأوجز، واستعمالها فيه أكثر. فإن قلت: قد تبين أنها أسماء لحروف المعجم، وأنها من قبيل المعربة، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور؟ قلت: فيه أوجه: أحدها وعليه إطباق الأكثر: أنها أسماء السور. وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي كسره على ذكرها في حد ما لا ينصرف بـ«باب أسماء السور»، وهي في ذلك على ضربين: أحدهما ما لا يتأتى فيه إعراب، نحو: «كهيعَصَ، والَمّر»، والثاني: ما يتأتى فيه الإعراب، وهو إما أن يكون اسماً فرداً كـ «صَ، و قَ، و نَ»، أو أسماء عدّة مجموعها على زنة مفرد كـ«حمَ، وطسَ، ويسَ»؛ فإنها موازنة لـ «قابيل وهابيل»، وكذلك «طسَمَ» يتأتى فيها أن تفتح نونها، وتصير ميم مضمومة إلى «طسَ» فيجعلا اسماً واحداً؛ كدارا بحرد؛ /٧ب فالنوع الأول: محكى ليس إلاّ؛ وأما النوع الثاني: فسائغ فيه الأمران: الإعراب، والحكاية؛ قال قاتل محمد بن طلحة السجاد، وهو شُرَيْحُ بن أوفى العَبْسِيُّ[2]: [من الطويل]

---

(١) قال محمود رحمه اللّه: «وقد سأل الخليل أصحابه كيف ينطقون بالكاف... إلخ». قال أحمد رحمه اللّه: وسألهم أيضاً كيف ينطقون بالقاف من يقبل؟ فقالوا: قاف، كقولهم الأول، فأجابهم كجوابه الأول وقال: أما أنا فأقول: اقه، فألحق رضيَ اللّه عنه أولاً هاء السكت؛ لأن الحرف المنطوق به متحرك، وثانياً همزة الوصل؛ لأنه ساكن.

(٢) قوله «قال قاتل محمد بن طلحة... إلخ» هكذا نسبه البخاري لشريح في تفسير غافر. ولفظه: ويقال إن (حم) اسم. لقول شريح بن أبي أوفى، فذكره. ونسب ذلك لغير شريح، ففي الطبقات لابن سعد والمستدرك للحاكم من رواية الواقدي عن محمد بن الضحاك بن عثمان عن أبيه قال: =

يُـذَكِّـرُنِـي حَـامِـيـمَ وَالـرُّمْـحُ شَـاجِـرٌ   فَـهَـلاَّ تَـلاَ حَـامِـيـمَ قَـبْـلَ الـتَّـقَـدُّمِ[1]؟

فأعرب حاميم ومنعها الصرف، وهكذا كل ما أعرب من أخواتها؛ لاجتماع سببي منع الصرف فيها، وهما: العلمية، والتأنيث.

والحكاية: أن تجيء بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى؛ كقولك: «دعني من تمرتان»، وبدأت بالحمدُ لله، وقرأت: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] قال: [من الوافر]

وَجَـدْنـا فـي كِـتَـابِ بَـنِـي تَـمِـيـمٍ   أَحَـقُّ الْـخَـيْـلِ بِـالـرَّكْـضِ الْـمُـعَـارُ[2]

= كان محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه. فنهى علي رضيَ الله عنه عن قتله. وقال: من رأى صاحب البرنس الأسود فلا يقتله - يعنيه - فقتله رجل من بني أسد بن خزيمة يقال له: طلحة بن مدلج، وقيل: شداد بن معاوية العبسي. وقيل عصام بن مقشعر وعليه الأكثر. وهو الذي يقول في قتله. فذكره. قلت: وهو من جملة أبيات. أولها:

وأشعث قوام بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

(١) وأشعث قوام بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه   فخرّ صريعاً لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعا   عليا ومن لا يتبع الحق يظلم
يذكرني حاميم والرمح شاجر   فهلا تلا حاميم قبل التقدم

لشريح بن أوفى العبسي يوم الجمل، حين أمر أبو طلحة محمد بن طلحة أن يبرز للقتال، وكان من قرابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكان كلما حمل عليه رجل قال: نشدتك بحم لما فيها من آية ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حتى حمل عليه العبسي فقتله وأنشأ يقول: ورب أشعث من أثر العبادة كثير القيام والعمل بآيات ربه، أو القيام في الليل بتلاوتها، قليل الأذى، وروي الكرى: أي النوم، وروي القذى: وهو ما يتساقط في العين فيغمضها: كنى بقلته عن قلة النوم فيما ترى العين: أي في رأي العين. شككت: أي خرقت له بالرمح جيب: أي طرف قميصه، كناية عن طعنه به في الصدر أو من خلفه حتى نفذ من صدره، أو نظمت وربطت جيب قميصه بصدره مطروحاً على يديه ووجهه. وعبر بالفم مبالغة في التنكيل؛ ولأنه أول ما يلقى الأرض من الوجه، وذلك بلا سبب غير أنه ليس تابعاً لعلي بن أبي طالب، وهكذا حال كل من لا يتبع الحق، وهو أنه يعاقب ويهان. يذكرني حاميم، والحال أن رمحي مختلط في ثيابه وأضلاعه. وقيل المعنى: والحال أن الرماح مختلطة والحرب قائمة، وقوله فهلا، فيه نوع توبيخ: أي كان من حقه أن يذكرني بها قبل التقدم للحرب.

وهو للأشتر النخعيّ في الاشتقاق ١٤٥، ولعدي بن حاتم الطائيّ في حماسة البحتريّ ص ٣٦، ولشريح بن أوفى العبسيّ في لسان العرب (حمم)، ولعصام بن مقشعر البصريّ في معجم الشعراء ص ٢٧٠، وبلا نسبة في الخصائص ٢/ ١٨٣، ولسان العرب (ندم)، والمقتضب ١/ ٢٣٨، ٣/ ٣٥٦.

(٢) وجدنا في كتاب بني تميم   أحق الخيل بالركض المعار
يضمر بالأصائل فهو نهد   أقب مقلص فيه اقورار
كأن سراته والخيل شعث   غداة وجيفها مسد مغار =

وقال ذو الرمّة: [من الوافر]

سَمِعْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ غَيْثاً فَقُلْتُ لِصَيْدَحَ انْتَجِعي بِلاَلَا[1]

= كـأن حـفـيـف مـنـخـره إذا مـا كـتـمـن الـربـو كـيـر مـسـتـعـار

لبشر بن خازم الأسدي، وقيل للطرماح. والركض: ضرب الراكب دابته برجله، وعار الفرس: ذهب ههنا وههنا مرحاً عند انفلاته، وأعاره صاحبه فهو معار. قال أبو عبيدة: والناس يرونه أي يظنون المعار من العارية وهو خطأ. ويروى: المعار بكسر الميم. ويروى: يشمر، بدل يضمر. والأصائل جمع أصيل كالآصال وهي أواخر النهار. أي يترك بلا علف من أول النهار فيجوع حتى يكون ضامر البطن في آخره، أو يهيأ ويرسل للقتال في آخر النهار فما بال أوله. والنهد: غليظ الجنبين مرتفع الأضلاع، والأقب، رقيق الخصر، والمقلص ـ كمعظم على اسم المفعول ـ المشمر المشرف طويل القوائم، ويجوز جعله على اسم الفاعل بمعنى المتشمر المكتنز اللحم. يقال: قلصه بالتشديد شمره، فقلص هو أيضاً: أي تشمر، ويقال قلصت الناقة كذلك: إذا استمرت على السير. والاقورار: رقة الجسم ونحافته. والسراة: أعلى الظهر. والوجيف: سرعة سير الخيل. والمسد: الحبل. شبه السراة به في الامتداد والصلابة، وقوله: والخيل شعث، جملة حالية، والشعث جمع أشعث، أو شعث، وغداة: ظرف له. والحفيف: دوي الجرى والطيران. يقال: حف الفرس حفيفاً، وأحففته: إذا حملته على الحفيف، وضمير كتمن للخيل. والربو: الزيادة وما ارتفع من الأرض، والنفس العالي، وانتفاخ الفرس من عدو أو فزع. يقال منه: راب يربو، إذا أخذه الربو: أي إذا ضاقت مناخر الخيل عن إخراج النفس لعجزها، كان منخر فرسي واسعاً كالكير ـ وهو منفخة الحداد ـ لعلو نفسه وتردده. وجعله مستعاراً ليدل علي أنه تداولته الأيدي. يقول: وجدنا في كلام جدودنا هذا الكلام، فأحق مبتدأ، والمعار خبره، والجملة محكية محلها نصب بوجدنا.

وهو لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص ٧٨، وشرح اختيارات المفضّل ٣/ ١٤٣٩، وللطرماح في ملحق ديوانه ص ٥٧٣، ولسان العرب (عير)، وتاج العروس (عير)، ٢٧٤ (عور)، ٢٨٢ (غور)، ولبشر أو للطرماح في شرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٢٣، ولابن الطراوة في بغية الوعاة ٢/ ٣٤١، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٩/ ١٦٨، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٣١، والكتاب ٣/ ٣٢٧، ولسان العرب (عير)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ١٢٥، والمقتضب ٤/ ١٠، ونوادر أبي زيد ص ٣٢.

(١) لذي الرمة يمدح بلالاً أبا بريدة، وهما لقب وكنية لعامر بن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضيها، وصيدح: اسم ناقة الشاعر. والناس رفع بالابتداء: أي سمعت هذا الكلام فحكاه على ما كان عليه، ولم ينصب الناس، لأنه يقتضي أن فعل الانتجاع مما يسمع وليس كذلك، لأنه بمعنى يرتحلون طالبين غيثاً، أو بمعنى يطلبون غيثاً أي مطراً أو كلأ نابتاً منه. وروي بنصب الناس، فيكون ينتجعون غيثاً: بمعنى يتكلمون بطلبه. وروي رأيت الناس. قال ابن القطاع: ولا يصح معه الرفع، وذلك لأن الرؤية لا تقع على اللفظ، وشبه تهيئتها وإعدادها للسير إليه ليسوقها أو سوقها إليه بأمره لها بالسير إليه، وطلبه لترتب السير على كل على طريق التصريح، ويجوز أنه شبهها بالعاقل فخاطبها بذلك على سبيل المكنية: أي اطلبي بلالاً، فإنه أنفع مما يطلبه الناس، ولما سمع بلال ذلك قال: يا غلام اعلف صيدح قتا ونوى، والقت: نوع من النبات الطري.

ينظر ديوانه ص ١٥٣٥، وجمهرة اللغة ص ٥٠٣، وخزانة الأدب (٩/ ١٦٧، ١٦٨)، وسر صناعة الإعراب (١/ ٢٣٢)، وشرح التصريح (٢/ ٢٨٢)، ولسان العرب (صدح) (نجع)، المقتضب (٤/ ١٠)، ونوادر أبي زيد ص ٣٢، وبلا نسبة في أسرار العربية (ص ٣٩٠). وخزانة الأدب (٩/ ٢٦٨، =

وقال آخر: [من مجزوء الوافر]

تَنَادَوْا بالرَّحِيلِ غَداً ... وَفي تَرَحَالِهِمْ نَفْسِي[1]

وروي منصوباً ومجروراً. ويقول أهل الحجاز في استعلام من يقول: «رأيت زيداً»: «من زيداً؟» وقال سيبويه: سمعت من العرب: «لا من أين يا فتى». فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: «صَ، وقَ، ونَ» مفتوحات[2]؟ قلت: الأوجه: أن يقال: ذاك نصب وليس بفتح، وإنما لم يصحبه التنوين؛ لامتناع [الصرف] على ما ذكرت، وانتصابها بفعل مضمر؛ نحو: «اذكر»، وقد أجاز سيبويه مثل ذلك في: «حمَ، وطسَ، ويسَ» لو قرىء به. وحكى أبو سعيد السيرافي أنّ بعضهم قرأ: «يسَ». ويجوز أن يقال: حرّكت لالتقاء الساكنين، كما قرأ من قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. فإن قلت: هلا زعمت أنها مقسم بها[3]؟ وأنها نصبت

= ٣٩٣)، وشرح الأشموني (٣/ ٦٤٤).

(١) روي الرحيل بالرفع على أنه مبتدأ، وغداً ـ أي في غد ـ خبره، وبالنصب: مصدر لفعل محذوف، وذلك كله على الحكاية. وروي بالجر على الأصل، وغداً. ظرف للرحيل، وفي ترحالهم: أي مع رحيلهم نفسي ـ أي روحي ـ فكأن محبوبه أخذ روحه وغادره ميتاً لتعلق قلبه به، ويجوز أنه استعارها لمحبوبه على طريق التصريحية، لأن به حياته وسروره، فكأنه يموت بمفارقته لاغتمامه.
والبيت بلا نسبة في الأشباه والنظائر (٨/ ١٢٦)، ودرّة الغواص ص ٢٣٩ وسر صناعة الإعراب ص ٢٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٣٥، والمقرب ١/ ٢٩٣.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فما وجه من قرأ ص وق ون مفتوحات... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله تعالى: كلامه على الوجه الأول يوجب كونها معربة، وعلى الوجه الثاني يحتمل أن يكون أراد أن الفتحة ـ لالتقاء الساكنين ـ نشأت عن سكون الحكاية. فإنها إنما تحكى ساكنة مجردة من سمة الإعراب، فلا تكون الحركة إذاً إعراباً. إذ لا مقتضى له مع الحكاية، ولا بناء إذ هي معربة عنده على هذا التقدير. ويحتمل أن يكون أراد أنها مبنية فتكون الحركة مثلها في أين وكيف حركة بناء، والأول هو الظاهر من مراده إذ حتم قبل أنها معربة، على أن سيبويه نص في كتابه على ما أورده بلفظه قال: وأما (ص) فلا يحتاج إلى أن يجعل اسماً أعجمياً، لأن وزنه في كلامهم. ولكنه يجوز أن يكون اسماً للسورة فلا يصرف. ويجوز أن يكون أيضاً (يس وص) اسمين غير متمكنين فيلزمان الفتح كما ألزمت الأسماء غير المتمكنة للحركات نحو: كيف، وأين. وحيث، وأمس اهـ كلام سيبويه. وفيه رد على الزمخشري رحمه الله في حتمه أن تكون معربة وأن فتحتها نصب أو لالتقاء الساكنين العارض للحكاية على ما ظهر من مقوله آنفاً، وسيأتي له أيضاً ما يدل على أنه لا يجوز بناؤها البتة. أقول: بعد تسليم أن الأول هو الظاهر من مراده، فما ذكره ـ حكاية عن سيبويه ـ غير وارد عليه، لأنه اختار أحد الوجهين.

(٣) قال محمود رحمه الله: «هلا زعمت أنها مقسم بها... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: وله البقاء على أنها منصوبة على القسم، وجعل الواو عاطفة على مذهب الخليل وسيبويه في أمثاله، ويسلك حينئذٍ في العطف سبيل [من الطويل]:

.... ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا

فإن المقسم به وإن كان منصوباً لأنه محل يعهد وفيه الخبر، فعطف بالجر رعاية لذلك العهد، وههنا =

قولهم: «[نعم] الله لأفعلن»، و«أي الله لأفعلن»، على حذف حرف الجر، وإعمال فعل القسم[1]؟ وقال ذو الرُّمَّة: [من الطويل]

أَلاَ رُبَّ مَنْ قَلْبِي لَهُ اللَّهَ نَاصِحٌ .... [2]

وقال آخر [من الوافر]:

.... فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الثَّرِيدُ[3]

قلت: إنّ القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما، فلو زعمت ذلك، لجمعت بين قسمين على مقسم واحد، وقد استكرهوا ذلك. قال الخليل في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ١ - ٣]: الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: «مررت بزيد

= أولى بالصحة منه بيت زهير المذكور لأن انتصاب المقسم به إنما نشأ عن حذف حرف الجر الذي هو أصل في القسم، وانتصاب خبر ليس أصل في نفسه، ليس ناشئاً عن حذف. غايته أن حرف الجر قد يصحب خبرها دخيلاً، فمراعاة الأصل أجدر من مراعاة العارض، فقد تحرر في فتح ص وجهان: أحدهما أن يكون إعراباً وهو إما جري على الوجه الذي أبداه الزمخشري، أو نصب على الوجه الذي نقلته عن سيبويه، ثانيهما أنه لا إعراب ولا بناء وهو عروضه على الوقف في الحكاية.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا ضعيف؛ لأن ذلك من خصائص الجلالة المعظمة، لا يشرَكُها فيه غيرها. انتهى. الدر المصون.

(٢) ألا رب من قلبي له اللّه ناصح ... ومن قلبه لي في الظباء السوانح

لذي الرمة. و «من» نكرة موصوفة. و «قلبي» مبتدأ. «اللّه» قسم نصب على حذف الجار وإعمال فعل القسم المقدر. و «ناصح» خبر، والجملة صفة «من» و «السوانح» المسرعات جهة اليمين، كما أن «البوارح» المسرعات جهة الشمال. يقول: رب شخص قلبي له ناصح خالص واللّه. ورب شخص قلبه لي غير خالص بل نافر عني كأنه من الظباء المسرعات نفوراً. وأعاد الموصوف ـ وإن كان المقصود ذكر الصفة فقط ـ تنبيهاً على استقلال كل من الصفتين بقصد الإخبار به. هذا، ويحتمل أن المعنى: أن قلبه لي ناصح أيضاً؛ لأن بعض العرب يتيمن بالسوانح. وفيه تلويح بتشبيه محبوبته بالظبية.

ينظر ملحق ديوانه ص ١٨٦١، والكتاب ٣/٤٩٨، وبلا نسبة في شرح المفصل ٩/١٠٣.

(٣) إذا ما الخبز تأدمه بلحم ... فذاك أمانة اللّه الثريد

«ما» زائدة. وأدم يأدم كضرب يضرب، إذا وفق وأصلح، وكذلك آدم بمد الهمزة، فتأدمه: تصلحه وتهيئه للأكل، وأمانة اللّه رفع على الابتداء، والخبر محذوف، أي: قسمي: أو نصب بفعل القسم المقدر بعد حذف الجار. أي: أقسم بأمانة اللّه؛ أو جر بواو القسم مقدرة، لكن البصريون خصوا هذا بلفظ الجلالة. يقول: إذا كان الخبز مأدوماً باللحم وممزوجاً به، فذلك هو الثريد دون ما عداه وحق أمانة اللّه.

ينظر الكتاب ٣/٦١، ٤٩٨،شرح المفصل ٩/٩٢، ١٢/١٠٤٢، اللسان: آدم، المخصص ١٣/ ١١٦، الأصول لابن سراج ١/٤٣٣، شرح الجمل لابن عصفور ١/٥٣٢، الدر ١/٨٨ ولسان العرب (أدم).

وعمرو»، والأولى بمنزلة الباء والتاء، قال سيبويه: قلت للخليل: فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء، ولو كان انقضى قسمه بالأوّل على شيء لجاز أن يستعمل كلاماً آخر، فيكون كقولك: «بالله لأفعلنّ»، «بالله لأخرجنّ اليوم»، ولا يقوى أن تقول: «وحقك وحق زيد لأفعلنّ». والواو الأخيرة: واو قسم، لا يجوز إلا مستكرهاً. قال: وتقول «وحياتي ثم حياتك لأفعلنّ»؛ فثم هٰهنا بمنزلة الواو. هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن تجعل الواو للعطف؛ لمخالفة الثاني الأول في الإعراب. فإن قلت: فقدّرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها، فقد جاء عنهم: «الله لأفعلن» مجروراً، ونظيره قولهم: «لاه أبوك»؛ غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة، واجعل الواو للعطف، حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه. قلت: هذا لا يبعد عن الصواب، ويعضده ما رووا/٨أ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أقسم الله بهذه الحروف» (١٢).

فإن قلت: فما وجه قراءة بعضهم «صَ وقَ» بالكسر[(١)]؟ قلت: وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين، والذي يبسط من عذر المحرّك: أن الوقف لما استمرّ بهذه الأسامي، شاكلت لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من المبنيات، فعوملت تارة معاملة «الآن» وأخرى معاملة «هؤلاء». فإن قلت: هل تسوّغ لي في المحكية مثل ما سوّغت لي في المعربة[(٢)] من إرادة معنى القسم؟ قلت: لا عليك في ذلك، وأن تقدّر حرف القسم

---

١٢ ـ رواه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٧) رقم (٢٣٦) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
وذكره في الدر المنثور (١/ ٥٤) وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.
قال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف»: موقوف.
رواه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق معاوية بن صالح عن علي بن طلحة عنه: بلفظ «الحروف المقطعة في أوائل السور كلها أقسام أقسم الله بها»، ورواه ابن مردويه من هذا الوجه في تفسير طه. قال: «طه وأشباهها قسم أقسم الله بها». وهي من أسماء الله تعالىٰ. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه اللّه: «فإن قلت فما وجه قراءة بعضهم ص وق بالكسر... إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: وهذا تحقق لك مخالفته لما نقلته من نص سيبويه من أنها غير متمكنة، ويدلك على أن فتحتها التي قال قبل إنها لالتقاء الساكنين فتحة بناء، أنه إنما أراد السكون العارض في الحكاية لا سكون البناء وهو مخالف لنص سيبويه كما نبهت عليه أيضاً.

(٢) قال محمود رحمه اللّه: «هل تسوغ لي في المحكية إرادة القسم كما سوغت لي في المعربة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: وقد منع الزمخشري أن يكون ص منصوباً على القسم لما تقدم، وأجاز أن يكون حم في الحديث المذكور منصوبة على القسم، بخلاف حم في القرآن، فتلك يتعين أن يكون نصبها على إضمار الفعل، أو مجرورة على القسم. وأما النصب مع القسم فلا يجيزه إلا =

مضمراً في نحو قوله عز وجل: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾ [الدخان: ١، ٢]، كأنه قيل: أقسم بهذه السورة، وبالكتاب المبين: إنا جعلناه. وأما قوله ﷺ: «حَم لاَ يُنْصَرون» (١٣) فيصلح أن يقضى له بالجرّ والنصب جميعاً على حذف الجار وإضماره. فإن قلت: فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة؟ قلت: كأن المعنى في ذلك الإشعار، بأن الفرقان ليس إلا كلمًا عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ، كما قال ـ عز من قائل ـ: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[يوسف: ٢]. فإن قلت: فما بالها مكتوبة في المصحف على صور

---

١٣ ـ أخرجه الترمذي (٤/ ١٩٧): كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في الشعار، حديث (١٦٨٢)، وأبو داود (٣/ ٣٣)كتاب الجهاد: باب الرجل ينادي بالشعار، حديث (٢٥٩٧)، والحاكم في مستدركه (٢/ ١٠٧) من طريق المهلب بن أبي صفرة عمّن سمع النبي ـ ﷺ ـ.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إلاّ أن فيه إرسال، والرجل الذي لم يسمه المهلب بن أبي صفرة البراء بن عازب.

وأخرجه أحمد (٤/ ٢٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٧ ـ ١٥٨) كتاب عمل اليوم والليلة: باب كيف الشعار حديث (١٠٤٥١ ـ ١٠٤٥٢)، والحاكم في مستدركه (٢/ ١٠٧) موصولاً عن البراء.

والحديث له شواهد من حديث أنس، وشيبة بن عثمان الحجبي، وأبي دجانة الأنصاري.

● أما حديث أنس: فقد أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٤/ ٥٧٧) حديث رقم (٣٩٩٠).

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٨٦): كتاب المغازي والسير: باب غزوة حنين، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أحمد بن محمد بن القاسم وهوضعيف. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٣٦) إلى أبي نعيم في دلائل النبوة وابن مردويه في تفسيره.

● أما حديث شيبة بن عثمان الحجبي، فقد أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧/ ٣٥٨) حديث برقم (٧١٩٢).

● أما حديث أبي دجانة؛ فقد أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١١٨) جماع أبواب نزول الوحي. . . : باب ما يذكر من حرز أبي دجانة. . .

وذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨).

وقال: حديث موضوع.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أصحاب السنن الثلاثة من رواية المهلب عمن سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إن بيتكم العدو فليكن شعاركم حم لا يبصرون»، قال الحاكم: المبهم هو البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ ثم أخرجه كذلك، وهو في النسائي ـ أيضاً ـ، وفي الباب عن أنس ـ رضي الله عنه ـ في الأوسط للطبراني، وفي الدلائل لأبي نعيم عنه في غزوة حنين، وعن شيبة بن عثمان في الطبراني ـ أيضاً ـ وعن أبي دجانة الأنصاري في آخر الدلائل للبيهقي، في حديث طويل. انتهى.

= في الحديث، والفرق عنده أن المانع من إجازته في القرآن مجيء المعطوف بعده مخالفاً له في الإعراب، إذ المعطوفات كلها مجرورة، ويتعذر عنده القسم في الثواني خوفاً من جمع قسمين على مقسم واحد، ولا كذلك الحديث فإنه لم يأت بعده ما يأباه؛ فلذلك خص جواز هذا الوجه بالحديث. وأما على الوجه الذي أوضحته فيعم جواز ذلك القرآن والحديث جميعاً.

الحروف[1] أنفسها، لا على صور أساميها؟ قلت: لأنّ الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرّت العادة متى تهجيت ومتى قيل للكاتب: اكتب «كيت وكيت» أن يلفظ بالأسماء، وتقع في الكتابة الحروف أنفسها، عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح، وأيضاً فإن شهرة أمرها، وإقامة ألسن الأسود والأحمر لها، وأنّ اللافظ بها غير متهجاة لا يحلى بطائل منها[2]، وأنّ بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده، أمنت وقوع اللبس فيها[3]، وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء؛ ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان؛ لاستقامة اللفظ، وبقاء الحفظ، وكان اتّباع خط المصحف سنة لا تخالف. قال عبد الله بن درستويه في كتابه: «المترجم بكتاب الكتاب المتمم»: في الخط والهجاء خطان لا يقاسان: خط المصحف، لأنه سنة، وخط العروض؛ لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه. الوجه الثاني: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد[4]، كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدّى بالقرآن وبغرابة نظمه؛ وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد

---

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فما بالها مكتوبة في المصحف على صورة الحروف... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: على هذا المعنى من خروج خط المصحف عن قياس الخط اعتمد القاضي رضيَ الله عنه في كتاب الانتصار، في الجواب عما نقل عن عثمان رضيَ الله عنه: أن عكرمة لما عرض عليه المصحف وجد فيه حروفاً من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستقيمها بألسنتها. فلو كان الكاتب من ثقيف والمملل من هذيل لم يوجد فيه هذه الحروف، قال القاضي: وإنما قال عثمان رضيَ الله عنه ذلك؛ لأن ثقيفاً كانت أبصر بالهجاء، وهذيلاً كانت تظهر الهمزة. والهمزة إذا ظهرت في لفظ المملل كتبها الكاتب على صورتها فما أراد عثمان رضيَ الله عنه إلا أن تلك الحروف كتبت على خلاف قياس الخط، مثل كتابة: الصلوة، والزكوة. بالواو لا بالألف؛ قال القاضي: وإنما أخذ الله على الحفظة أن لا يغيروا التلاوة. أما الخط فلم يأخذ عليهم رسماً بعينه، حتى لا يسوغ الخروج من قياس رسم خاص من رسوم بالخط اهـ كلامه.

(٢) قوله «لا يحلى بطائل منها» في الصحاح: وقولهم لم يحل منه بطائل: أي لم يستفد منه كبير فائدة ولا يتكلم به إلا مع الجحد. (ع)

(٣) قوله «أمنت وقوع اللبس فيها» أي تلك الأمور الأربعة، أمنت القارىء. وقوع اللبس في الفواتح. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله: «الوجه الثاني أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد... إلخ» قال أحمد رحمه الله: إنما أردت هذا الفصل في كلام الزمخشري؛ لأنه غاية الصناعة، ونهاية البراعة، لولا الإخلال بلطيفة لو سلكها لتمت فصاحته. وهي أنه بنى أول الكلام على النفي وطول فيه، حتى انتهى إلى الإثبات، فكان أول الكلام رهيناً لآخره على الضد متى ينقضي على البعد، فهو كما انتقد على أبي الطيب قوله في الخيل [من البسيط]:

ولا ركبت بها إلا إلى ظفر ... ولا حصلت بها إلا على أمل

فإنه صدر الصدر والعجز بما صورته الدعاء على المخاطب في العرض مستدركاً بعد. وإنما يؤاخذ بهذا مثل أبي الطيب والزمخشري لأن لهما في مراتب الفصاحة علواً يفطن السامع لمثل هذا النقد.

عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم[(١)] عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام، وزعماء الحوار، وهم الحرّاص على التساجل[(٢)] في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغة[(٣)] كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى[(٤)] الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء؛ إلا/ ٨ب لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر. وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل، ولناصره على الأوّل أن يقول: إن القرآن إنما نزل بلسان العرب، مصبوباً في أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لم تتجاوز ما سموا به[(٥)] مجموع اسمين، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة، والقول بأنها أسماء السور حقيقة: يخرج إلى ما ليس في لغة العرب، ويؤدّي أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً. فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر، وأنه لا سبيل إلى ردّه، أجابك بأن له محملاً سوى ما يذهب إليه، وأنه نظير قول الناس: «فلان يروي، قفا نبك، وعفت الديار، ويقول الرجل لصاحبه: ما قرأت؟ فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ١] و﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١] و﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] و﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. وليست هذه الجمل بأسامي هذه القصائد وهذه السور والآي، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها، وتلاوة السورة أو الآية التي تلك فاتحتها. فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية، واستفيد منها ما يستفاد من التسمية، قالوا ذلك على سبيل المجاز دون الحقيقة. وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول: التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً، مستنكرة لعمري، وخروج عن كلام العرب، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة: «حضرموت»، فأما غير مركبة منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها؛ لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية، كما سموا: بـ: «تأبط شراً»، وبرق نحره، وشاب قرناها. وكما لو سمي بـ: «زيد منطلق، أو بيت شعر». وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر، وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم، دلالة

---

(١) قوله «ولم تظهر معجزتهم» لعله بفتح الميم والجيم مقابل مقدرة. (ع)

(٢) قوله «على التساجل» أي التفاخر بأن تصنع مثل صنعه في جري أو سقي، وأصله من السجل: بمعنى الدلو الذي فيه ماء. واقتضاب الخطب: ارتجالها: أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «التي بزت بلاغة» أي غلبت وسلبت. (ع)

(٤) قوله «الخارج من قوى» لعله عن. (ع)

(٥) قوله «لم تتجاوز ما سموا به» لعله: بما، أو لعله: فيما. (ع)

قاطعة على صحة ذلك. وأما تسمية السورة كلها بفاتحتها، فليست بتصيير الاسم والمسمّى واحداً، لأنها تسمية مؤلف بمفرده، والمؤلف غير المفرد. ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه، كقولهم: «صاد»، فلم يكن من جعل الاسم والمسمّى واحداً، حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمّى مفرداً. الوجه الثالث: أن ترد السور مصدّرَةً بذلك، ليكون أوّل ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز. وذلك أنّ النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف. فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ، وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فكان حكم النطق بذلك ـ مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله ـ حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن، التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة/ ٩أ نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بالرطانة من غير أن يسمعها من أحد. واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عزّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء ـ وجدتها نصف أسامي حروف المعجم[1] أربعة عشر سواء، وهي: «الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف،

---

(١) قال محمود رحمه الله: «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عزّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم... إلخ». قال أحمد: بقي عليه من الأصناف الحروف الشديدة، وقد ذكر تعالى نصفها: الهمزة المعبر عنها بالألف، والكاف، والقاف، والطاء. والمطبقة، وقد ذكر تعالى نصفها: الصاد، والطاء. والمنفتحة، وقد ذكر نصفها: الألف، والحاء، والراء، والسين، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء. وحروف الصفير لما كانت ثلاثاً: السين، والصاد، والزاي؛ لم يكن لها نصف فذكر منها اثنين: السين، والصاد. وتلك العادة المأنوسة فيما يقصد إلى تنصيفه فلا يمكن فيتم الكسر. ألا ترى طلاق العبد وعدة الأمة ونحو ذلك؟ والحروف اللينة وهي ثلاثة: الألف، والياء، والواو. وذكر منها اثنين: الألف، والياء كحروف الصفير. والمكرر وهو الراء. والهاوي وهو الألف. والمنحرف وهو اللام. وقد ذكرها. ولم يبق من أصناف الحروف خارجاً عن هذا النمط إلا ما بين الشديد والرخو، فإنه لم يقتصر منها على النصف؛ لأن ما ذكر زائداً على النصف اندرج في غيرها من الأصناف، فلم يمكن الاقتصار لها كالشديدة والرخوة فلم يكن بها عناية. وأما حروف الذلاقة والمصمتة فالصحيح ألاّ يُعَدا صنفين، ولمن عدهما صنفين متميزين خبط طويل في جهة تميزهما، حتى أبعد الزمخشري في مفصله في تميزهما فقال: حروف الذلاقة التي يعتمد الناطق فيها على ذلق اللسان ـ أي طرفه ـ وهو تمييز مردود جداً: لأن من جملتها: الميم، والباء، والفاء. ولا مدخل لطرف اللسان فيها. ثم لا يتم على هذا التمييز مطابقتها للمصمته، إذ المصمتة مفسرة عنده بأنها حروف تكون عن تركيب كلمة رباعية فما زاد منها حتى يدرج معها أحد حروف الذلاقة، فكيف المقابلة بين الخروج من طرف اللسان وبين الصمت؟ فالحق أنهما صنفان ضعيف تميزهما، فلم يعتبر جريانهما على النمط المستمر =

والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون» في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: «الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء». ومن المجهورة نصفها: «الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون». ومن الشديدة نصفها: «الألف، والكاف، والطاء، والقاف». ومن الرخوة نصفها: «اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون». ومن المطبقة نصفها: «الصاد، والطاء». ومن المنفتحة نصفها: «الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون». ومن المستعلية نصفها: «القاف، والصاد، والطاء». ومن المنخفضة نصفها: «الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون». ومن حروف القلقلة نصفها: «القاف، والطاء». ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجلّه ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم. ومما يدل على أنه تغمد[1] بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم:[2] أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه

= في غيرهما من الأصناف البين امتيازها. وعد الزمخشري في هذا النمط حروف القلقلة، وذكر أن المذكور منها النصف: القاف، والطاء؛ ووهم فإنها خمسة أحرف، لم يذكر منها في الفواتح سوى الحرفين المذكورين. وعلى الجملة فلا يقدم الناظر تخريج ما لم يجر على هذا النمط من الأصناف على وجه يمكن الاستئناس إليه.

(١) قوله «تغمد» لعله «تعمد» بالعين المهملة. (ع)

(٢) قال محمود رحمه اللّه: «ومما يدل على أنه تغمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أن الألف واللام... إلخ» قال أحمد رحمه اللّه: الألف المذكورة في الفواتح يحتمل أن يكون المراد بها الهمزة اللينة، وقد اضطرب فيها كلام الزمخشري في هذا الفصل، فعندما عد الحروف أربعة عشر حرفاً في الفواتح قال: إنها نصف حروف العربية، فهذا يدل على أن جملتها ثمانية وعشرون حرفاً، فلا بد من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد إما اللينة أو الهمزة، وإلا كانت تسعة وعشرين. والظاهر أن الساقط الهمزة وعندما قال: في تسع وعشرين على عدد الحروف اقتضى هذا دخول الألفين في العدد. والظاهر من كلامه أن الألف عنده هي اللينة، فلذلك علل تسميتها بالألف بأن النطق لما تعذر بها أولا استقرت الهمزة مكانها وفاء بمراعاة تلك اللطيفة التي قدمها من جعل مسمى الحرف أول اسمه. وأما عند النحاة فالألف المعدودة في حروف المعجم مفردة هي الهمزة؛ وأما اللينة فهي المعدودة مع اللام حيث يقولون: لام ألف، ويكتبونها على صورة «لا».

الفواتح مكرّرتين. وهي: «فواتح سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، والأعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحجر». فإن قلت: فهلا عدّدت بأجمعها في أوّل القرآن؟ وما لها جاءت مفرقة على السور؟ قلت: لأنّ إعادة التنبيه على أنّ المتحدّى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض، وأقرّ له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن، فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره، فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت «صٓ و قٓ و نٓ» على حرف، و «طه و طسٓ و يسٓ و حمٓ» على حرفين، و «الٓمٓ والٓرٓ وطسٓمٓ»، على ثلاثة أحرف، و« الٓمٓصٓ والٓمٓر»، على أربعة أحرف، و« كهيعٓصٓ، وحمٓ عٓسٓقٓ»، على خمسة أحرف؟ قلت: هذا على إعادة افتنانهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوّعة؛ وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك. فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة/ ٩ب التي اختصت بها؟ قلت: إذا كان الغرض هو التنبيه ـ والمبادىء كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة ـ كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً، كما إذا سمى الرجل بعض أولاده «زيداً»، والآخر «عمراً»، لم يقل له: لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو؟ لأنّ الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك؛ ولذلك لا يقال: لم سمي هذا الجنس بالرجل وذاك بالفرس؟ ولم قيل: للاعتماد الضرب؟ وللانتصاب القيام؟ ولنقيضه القعود؟ فإن قلت: ما بالهم عدّوا بعض هذه الفواتح آية دون بعض؟ قلت: هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور. أمّا «الٓمٓ» فآية حيث وقعت من السور المفتتحة بها؛ وهي ست. وكذلك «الٓمٓصٓ» آية، و«الٓمٓر» لم تعدّ آية، و«الٓرٓ» ليست بآية في سورها الخمس، و «طسٓمٓ» آية في سورتيها، و «طه، ويسٓ» آيتان، و «طسٓ» ليست بآية، و «حمٓ» آية في سورها كلها، و «حمٓ، عٓسٓقٓ» آيتان، و «كهيعٓصٓ» آية واحدة، و «صٓ و قٓ و نٓ» ثلاثتها لم تعدّ آية. هذا مذهب الكوفيين، ومن عداهم لم يعدّوا شيئاً منها آية. فإن قلت: فكيف عدّ ما هو في حكم كلمة واحدة آية؟ قلت: كما عدّ «الرحمٰن» وحده و «مدهامّتان» وحدها آيتين على طريق التوقيف، فإن قلت: ما حكمها في باب الوقف؟ قلت: يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده؛ وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعت بها كما ينعت بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله عزّ قائلاً: ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] أي هذه الٓمٓ ثم ابتدأ فقال: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢]. فإن قلت: هل لهذه الفواتح محل من الإعراب[1]؟ قلت: نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء

---

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: ما محل هذه الفواتح من الإعراب. . . إلخ»؟ قال أحمد رحمه =

الأعلام. فإن قلت: ما محلها؟ قلت: يحتمل الأوجه الثلاثة، أما الرفع: فعلى الابتداء، وأما النصب والجرّ، فلما مرّ من صحة القسم بها وكونها بمنزلة: الله، والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور، لم يتصوّر أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجمل المبتدأة وللمفردات المعدّدة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

فإن قلت: لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد[1]؟ قلت: وقعت الإشارة إلى «الٓمٓ» بعد ما سبق التكلم به وتقضّى، والمتقضّى في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام؛ يحدّث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ما لا شك فيه. ويحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا. وقال الله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]. وقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧]، ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه، وقع في حد البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: «احتفظ بذلك». وقيل معناه: ذلك الكتاب الذي وعدوا به. فإن قلت: لم ذكر اسم الإشارة ـ والمشار إليه مؤنث وهو السورة[2] ـ؟ قلت: لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته. فإن جعلته خبره، كان ذلك في معناه، ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير، كما أجرى عليه في التأنيث في قولهم: من كانت أمّك. وإن جعلته صفته، فإنما أشير به/ ١٠أ إلى الكتاب صريحاً؛ لأنّ اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له؛ تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا؛ وقال الذُّبيانيُّ: [من البسيط]

= الله: وإنما جاز النصب مع القسم فيما لا يعقبه معطوف مجرور. فأما ما يعقبه معطوف مجرور مثل ص وق ون فإنه لا يجيز فيه النصب مع القسم البتة، ويحمله على إضمار فعل، أو على أن الفتح في موضع الجر. وأما على وجه بدئه فيما تقدم فيجوز النصب مع القسم في جميعها فجدد به عهداً. وعلى النصب بإضمار فعل أعربها سيبويه في كتابه.

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواه كما يقطعون بثم للإشعار بتراخي المراتب. وقد يكون المعطوف سابقاً في الوجود على المعطوف عليه وسيأتي أمثاله.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم ذكر اسم الإشارة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ولو مثل ذلك بقول القائل: حصان كانت دابتك، لكان أقوم وأسلم من الفرق بما في لفظ «من» من الإبهام الصالح للذكر والمؤنث. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ فيمن وصل الكلام فجعل (هم العدو) جملة في موضع المفعول الثاني للحسبان، وعدل عن أن يقول: هي العدو، نظراً إلى المفعول الثاني الذي هو في المعنى خبر عن الصيحة، فذكر وجمع لما كان المبتدأ هو الخبر في المعنى. وقد وجه الشيخ أبو عمرو قول الزمخشري، وتسمى الجملة بالتاء والياء عقيب قوله: والكلام هو المركب من كلمتين ـ بهذا التوجيه

نُبِّئْتُ نُعْمَى على الهِجْرَانِ عَاتِبَةً سُقْيًا ورُعْيًا لِذَاكَ العَاتِبِ الزَّارِي[١]

فإن قلت: أخبرني عن تأليف ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ مع ﴿الٓمٓ﴾. قلت: إن جعلت ﴿الٓمٓ﴾ اسماً للسورة ففي التأليف وجوه: أن يكون ﴿الٓمٓ﴾ مبتدأ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ثانياً، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبره، والجملة خبر المبتدأ الأوّل. ومعناه: أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، كما تقول: هو الرجل، أي الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وكما قال: [من الطويل]

.... هُمُ الْقَوْمُ كلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ[٢]

---

(١) عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا يحيون من نؤي وأحجار؟
لقد أراني ونعمى لاهيين بها والدهر والعيش لم يهمم بإمرار
نبئت نعمي على الهجران عاتبة سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري
للنابغة الذبياني. والعوج: عطف رأس البعير بالزمام. ونعم: اسم محبوبته. والدمنة: ما تلبد من البعر والرماد والقمامة، والمراد مطلق الآثار. والنؤي: الحاجز حول الخباء لئلا يدخله الماء. والمراد بالأحجار: الأثافي التي تنصب عليها القدور، أو بقية الجدران، وهم بالشيء: أراده، وأصله الإدغام، وفكه هنا لغة، أي لم يهم كل منهما. والإمرار: صيرورة الشيء مرا، والإحلاء: صيرورته حلواً، وجعل الطعم مراً، وجعله حلواً. ويروى زارية بدل عاتبة. والزاري: العائب، يقال: زرى عليه يزري إذا عاب عليه. وقوله ماذا تحيون: استشعار للخطأ في الأمر بالتحية ورجوع عنه لأنه لا يجدي شيئاً. و «من» بيان لماذا، وفيه معنى التحقير، ونعمى: عطف على ضمير النصب، والواو للحال، أي والحال أن الدهر والعيش لم يتغير كل منهما إلى البؤس. شبههما بما تصبح منه الإرادة على طريق الكناية، فأسند لهما الهم تخييلاً، أو استعار الهم للمشارفة والقرب تصريحاً، وشبههما بالمطعوم فأثبت لهما الإمرار، أو استعاره لتكدرهما ونغصهما لجامع كراهية النفس لكل. وعلى الهجران: أي مع هجرانها، أو لأجل هجراني لها. وسقياً، ورعياً: منصوبان على المصدرية، أي سقاها الله ورعاها. وذلك إشارة إلى الإنسان أو الشخص وهي المراد، ووصفها بما للذكر تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها.
ينظر: ديوانه (٤٩)، مشاهد الإنصاف ١/ ٢٦، الدر المصون ٣/ ١٠٧.

(٢) وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
للأشهب بن رميلة. وقيل لحريث بن مخفض. والذي: أصله الذين، فخذفت النون تخفيفاً. وروي: وإن الألى، وهو بمعنى الذين، وهم المذكورون في أول الأبيات وهو: [من الطويل]
ألم تر أني بعد عمرو ومالك وعروة وابن الهول لست بخالد
وحانت: أتى حين هلاكها، وهو كناية عن الهلاك. ويقال: حان حيناً: هلك، وأحانه الله: أهلكه؛ فهو حقيقة. وفلج - بالفتح - اسم موضع بطريق البصرة. ودماؤهم: نفوسهم. وهم القوم كل القوم: أي هم المختصون بجميع صفات الرجال الحميدة دون غيرهم.
ينظر الدر المصون (١/ ٨١)، والكتاب (١/ ١٨٦ - ١٨٧)، والخزانه (٢/ ٥٠٧)، وابن الشجري (٢/ ٣٠٧)، وشواهد المغني للسيوطي (١٧٥)، وابن يعيش (٣/ ١٥٥)، ورصف المباني (٣٤١)، الهمع (١/ ٤٩)، الدرر (١/ ٢٠٤)، ولسان العرب (فلج)، والمؤتلف والمختلف ص ٣٣، المقاصد =

وأن يكون الكتاب صفة، ومعناه: هو ذلك الكتاب الموعود، وأن يكون ﴿الٓمٓ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذه «الٓمٓ»، ويكون ذلك خبراً ثانياً أو بدلاً، على أن الكتاب صفة، وأن يكون: هذه «الٓمٓ» جملة، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت «الٓمٓ» بمنزلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل[1]. أو الكتاب صفة والخبر ما بعده، أو قدّر مبتدأ محذوف، أي هو ـ يعني المؤلف من هذه الحروف ـ ذلك الكتاب. وقرأ عبد الله: «الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه». وتأليف هذا ظاهر.

والريب: مصدر رابني، إذا حصل فيك الريبة، وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه ما روى الحسن بن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ (١٤)؛ فَإِنَّ الشَّكَّ رِيبَةٌ، وَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ» أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما

---

١٤ ـ ورد عن جماعة من الصحابة؛ منهم الحسن بن علي، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر.
أما حديث الحسن:
فأخرجه النسائي (٨/٣٢٧) باب الحث على ترك الشبهات.
والترمذي (٤/٥٧٦، ٥٧٧) كتاب صفة القيامة (٢٥١٨)، وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند (١/٢٠٠).
وابن حبان في صحيحه؛ كما أورده الهيثمي في موارد الظمآن ص ١٣٧ كتاب المواقيت باب ما جاء في القنوت (٥١٢).
والحاكم في المستدرك (٢/١٣) كتاب البيوع، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ورواه أيضاً (٤/٩٩) وسكت عنه، وقال الذهبي: سنده قوي.
وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٦٤)، والبغوي في شرح السنة (٤/٢١٠) (٢٠٢٥ ـ بتحقيقنا).
وعبد الرزاق في المصنف (٣/١١٧) برقم (٤٩٨٤).
«وإسناده صحيح». =

= النحوية ١/٤٨٢، المقتضب ٤/١٤٦، والمنصف ١/٦٧، ومغني اللبيب ١/١٩٤، ٢/٥٥٢، صناعة الإعراب ٢/٥٣٧.

(١) قوله ـ أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل.
خلاصة هذا الموضع أن البلاغيين لاحظوا أن «ذلك» إشارة للبعيد بدليل لام البعد، والكتاب منا جد قريب، فلماذا أشير بالبعيد إلى القريب؟ وجوابه أن إشارة البعد تدل على بعد المنزلة، فإذا ضمت إليها دلالة أل في الكتاب صار المعنى: هذا الكتاب الرفيع القدر الكامل في كل ما حواه لا شك فيه هدى للمتقين ولعل هذا هو المراد ـ والله أعلم.
وهذا الموقع وهو ـ تعريف. المسند إليه بطريق الإشارة. له عند البلاغيين مبحث متين، وقد جمعوا له معاني كثيرة من خلال دراستهم للقرآن، وكلام خاتم المرسلين، وشعر العرب، ما جعله باباً واسعاً من أبواب البلاغة العربية ومن أراد الوقوف عليه فليراجع مصنفات البلاغيين.
ينظر: المطول ٧٧ وما بعدها والإيضاح بتحقيق خفاجي ٢/٣٢ وما بعدها، وفتح القدير ١/٣٣، وروح المعاني ١/١٠٥، علم المعاني في فتح القدير للشوكاني ١/٥٢ وما بعدها، والجمل في الفتوحات الألهية ١/١١.

تقلق له النفس ولا تستقرّ، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن، ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس، ويشخص بالقلوب من نوائبه، ومنه: أنه مر بظبي حاقف[1] فقال: «لاَ يُرِبْهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ» (١٥). فإن قلت: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق؟

= أما حديث أنس:
فأخرجه أحمد في المسند (٣/١٥٣) من طريق يحيىٰ بن إسحاق قال: أخبرني أبو عبد الله الأسدي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً؛ فإنه ليس دونها حجاب»، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».
أما حديث ابن عمر:
أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٢٢٠) و(٦/ ٣٨٦) من طريق عبد الله بن أبي رومان عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر به.
والخطيب في التاريخ (٢/٣٨٧) من رواية قتيبة بن سعيد عن مالك ثم قال:
«وهذا الحديث باطل عن قتيبة عن مالك، وإنما يحفظ عن عبد الله بن أبي رومان عن ابن وهب عن مالك. واه، تفرد واشتهر به ابن أبي رومان وكان ضعيفاً» ا.هـ.
وقال أبو نعيم في الحلية:
«غريب من حديث مالك تفرد به ابن أبي رومان عن ابن وهب»، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٦٤٥) من رواية عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي ـ ﷺ ـ ويراجع فتح الوهاب للغماري (١/ ٤٥٥) رقم (٤٠٨).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه الترمذي في آخر الطب، والحاكم في الأحكام والبيوع، والطبراني والبزار، ورواه البيهقي في الشعب بلفظ: «فإن الشر ريبة، والخير طمأنينة». انتهى.

١٥ ـ أخرجه النسائي (٥/ ١٨٣): كتاب الحج: باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد، حديث رقم (٢٨١٨) وأحمد (٣/ ٤٥٢)، ومالك في الموطأ (١/ ٣٥١) كتاب الحج: باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد حديث (٧٩)، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ١٧١) كتاب الهبات: باب ما جاء في هبة المشاع، وأيضاً في (٩/ ٣٢٢): كتاب الضحايا: باب ما جاء في حمار الوحش. . .، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٥١٣) كتاب الهبة. باب ذكر إباحة قبول المرء الهبة للشيء المشاع بينه وبين غيره، والطبراني في معجمه الكبير (٥/ ٢٥٩) حديث برقم (٥٢٨٣)، والحديث صححه ابن حبان.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه في الموطأ. والنسائي في الحج. وابن حبان من رواية عمر بن سلمة الضمري عن البهري، أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج يريد مكة وهو محرم، حتى إذا كان بالإنابة بين الرويثة والعرج، إذا ظبي حاتف في ظل وفيه سهم، فأمر رجلاً أن يقف عنده لا يُرِيبُه أحد من الناس حتى يجاوزوه. ولإسحاق في مسنده: فقال لبعض القوم: «كن حتى يمر الناس ولا يريبه أحد بشيء» ا.هـ. البهري وقع في مسند أبي يعلى أن اسمه مخول، ولفظه: نبحث حبائل لي بالأبواء فوقع فيها ظبي، فأفلت والحبل في رجله، فخرجت أقفوه فسبقني إليه رجل فاحتضنها، ثم ترافعنا إلى النبي ـ ﷺ ـ فجعله بيننا نصفين. انتهى.

---

(١) قوله «أنه مر بظبي حاقف» لعله: أنه صلّى اللّه عليه وسلّم إلخ. وفي الصحاح أنه عليه السلام مر بظبي حاقف في ظل شجرة، وهو الذي انحنى وتثنى في نومه اهـ. (ع)

وكم من مرتاب فيه؟ قلت: ما نفى أنّ أحداً لا يرتاب فيه[1] وإنما المنفى كونه متعلقاً للريب ومظنة له؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه؛ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فما أبعد وجود الريب منهم؟ وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب، وهو أن يحزروا أنفسهم ويروزوا قواهم في البلاغة، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها؟ فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة. فإن قلت: فهلا قدّم الظرف على الريب، كما قدّم على الغَوْل في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]؟ قلت: لأنّ القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان/ ١٠ب المشركون يدّعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتاباً آخر فيه الريب لا فيه؛ كما قصد في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[2] تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة، وقرأ أبو الشعثاء: ﴿لا رَيْبُ فِيهِ﴾ بالرفع، والفرق بينها وبين المشهورة، أنّ المشهورة توجب الاستغراق، وهذه تجوّزه. والوقف على ﴿فِيهِ﴾ هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على ﴿لَا رَيْبَ﴾ ولا بدّ للواقف من أن ينوي خبراً. ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز. والتقدير: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

﴿فِيهِ هُدًى﴾ الهدى مصدر على فعل، كالسرى والبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. ويقال: مهدي، في موضع المدح كـ «مهتد»؛ ولأن اهتدى مطاوع هدى ـ ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله ـ ألا ترى إلى نحو: غمه فاغتم، وكسره فانكسر، وأشباه

---

(١) قوله «أن أحداً لا يرتاب فيه» لعله أن أحداً يرتاب فيه. وقد يقال المراد ما نفى الريب على معنى أن أحداً لا يرتاب فيه. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي وكأن هذا الذي ذكره أبو القاسم الزمخشري بناءً منه على أن التقديم يفيد الاختصاص، وكأن المعنى أن خمرة الآخرة اختصت بنفي الغول عنها بخلاف غيرها، وللمنازعة فيه مجال.

وقد رام بعضهم الرد عليه بطريق آخر، وهو أن العرب قد وصفت أيضاً خمر الدنيا بأنها لا تغتال العقول؛ قال علقمة [من البسيط]:

تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلاَ يُؤْذِيكَ صَالِبُهَا ... وَلاَ يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَدْوِيمُ

وما أبعد هذا من الرد عليه، إذ لا اعتبار بوصف هذا القائل. انتهى. الدر.

ذلك، فإن قلت: فلم قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون[1]؟ قلت: هو كقولك للعزيز المكرم: «أعزك الله وأكرمك»، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته، كقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. ووجه آخر، وهو أنه سماهم عند مشارفتهم؛ لاكتساء لباس التقوى، متقين، كقول رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ» (١٦) وعن ابن

---

١٦ ـ أخرجه مالك (٢/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥) كتاب الجهاد ـ باب ما جاء في السلب في النّفل: حديث (١٨) وأحمد (٥/ ٢٩٥، ٣٠٦) والبخاري (٦/ ٢٤٧) كتاب فرض الخمس ـ باب من لم يخمس الأسلاب ـ حديث (٣١٤٢) ومسلم (٣/ ١٣٧٠): كتاب الجهاد والسير. باب استحقاق القاتل سلب القتيل حديث (٤١/ ١٧٥١) وأبو داود (٣/ ١٥٩) كتاب الجهاد ـ باب في السلب يُعطى القاتل حديث (٢٧١٧) وابن ماجة (٢/ ٩٤٦): كتاب الجهاد ـ باب المبارزة والسلب ـ حديث (٢٨٣٧) والترمذي (٤/ ١١١) كتاب السير: باب ما جاء في من قتل قتيلاً ـ حديث (١٥٦٢).

والحميدي (١/ ٢٠٤) رقم (٤٢٣) والدارمي (٢/ ٢٢٩) كتاب السير باب من قتل قتيلاً فله سلبه وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» رقم (٧٧٦) وابن الجارود(٦/ ١٠٧) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٢٢٦) والبيهقي (٩/ ٥٠) والبغوي في شرح السنةِ (٥/ ٦١٢ ـ بتحقيقنا) من طريق يحيى بن سعيد عن عمر بن كثير بن أفلح عن أبي محمد مولى أبي قتادة عنه. مطولاً ومختصراً وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (٥/ ٣٠٧) عن إسحاق بن عيسىٰ والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٢٢٧) من طريق ابن المبارك كلاهما عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن الأعرج عن أبي قتادة الأنصاري أنه قتل رجلاً من الكفار فنفله ـ النبي ـ ﷺ ـ سلبه ودرعه فباعه بخمسة أواق.

وابن المبارك من قدماء أصحاب ابن لهيعة.

وللحديث شاهد من حديث أنس بن مالك.

أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨) كتاب الجهاد: باب في السلب يعطى للقاتل حديث (٢٧١٨) والدارمي (٢/ ٢٢٩) كتاب الجهاد والسير، باب من قتل قتيلاً فله سلبه وابن حبان (١٦٧١ ـ موارد) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٢٢٧) والحاكم (٣/ ٣٥٣) وأبو داود الطيالسي (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ منحة) رقم (٢٣٧٤) والبيهقي (٦/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧) كتاب قسم الفيء: باب السلب للقاتل وأحمد (٣/ ١١٤) من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين: «من قتل قتيلاً فله سلبه»...

=

---

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فلم قيل هدىً للمتقين والمتقون مهتدون... إلخ». قال أحمد رحمه الله: الهدى يطلق في القرآن على معنيين: أحدهما الإرشاد وإيضاح سبيل الحق. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾. وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنه رشد إلى الحق، سواء حصل له الاهتداء أو لا. والآخر خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد، ومنه: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً. وأما قول الزمخشري: إن القرآن لا يكون هدى للمعلوم بقاؤهم على الضلالة، فإنما يستقيم إذا أريد بالهدى خلق الاهتداء في قلوبهم. وأما إذا أريد معناه الأول، فلا يمتنع أن الله تعالى أرشد الخلق أجمعين، وبين للناس ما نزل إليهم، فمنهم من اهتدى، ومنهم من حقت عليهم الضلالة. هذا مذهب أهل السنّة.

عباس رضي الله عنهما: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمُ الحَجَّ فَلْيَعْجَلْ؛ فإنه يَمْرَضُ المَرِيضُ، وتَضِلُّ

= قال أبو داود: هذا حديث حسن.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه أيضاً ابن حبان.
وله شاهد أيضاً من حديث سمرة بن جندب.
أخرجه أحمد (٥/ ١٢) وابن ماجة (٢/ ٩٤٧) كتاب الجهاد: باب المبارزة والسلب حديث (٢٨٣٨) والبيهقي (٦/ ٣٠٩) من طريق نعيم بن أبي هند عن ابن سمرة بن جندب عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قتل فله السلب».
قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٤١٦): هذا إسناد فيه ابن سمرة بن جندب واسمه سليمان بن سمرة بن جندب.
ذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن القطان: حاله مجهول وباقي رجال الإسناد ثقات. ا.هـ.
وفي الباب عن سلمة بن الأكوع وعوف بن مالك وابن عباس وجابر.
أما حديث سلمة بن الأكوع.
أخرجه مسلم (٣/ ١٣٧٤ - ١٣٧٥) كتاب الجهاد والسير: باب استحقاق القاتل سلب القتيل حديث (٤٥/ ١٧٥٤) من طريق إياس بن سلمة قال: حدثني أبو سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله - ﷺ - هوازن... الحديث.
أما حديث عوف بن مالك.
أخرجه مسلم (٣/ ١٣٧٣) كتاب الجهاد والسير: باب استحقاق القاتل سلب القتيل حديث (٤٣/ ١٧٥٣) عن عوف بن مالك قال خَرَجْتُ مَعَ مَنْ خَرَجَ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ. وَرَافَقَنِي مَدَدِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ. وَسَاقَ الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِنَحْوِهِ. غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: قَالَ عَوْفٌ: فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ الله - ﷺ - قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي اسْتَكْثَرْتُهُ.
أما حديث ابن عباس.
فأخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٤٥) من طريق إبراهيم بن أدهم عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس.
قال أبو نعيم: غريب من حديث إبراهيم لم نكتبه إلاَّ من هذا الوجه.
تنبيه: عزا الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/ ١٥٢) هذا الحديث لأبي نعيم في «الحلية» بلفظ: من قتل قتيلاً فله سلبه وليس كما قال فاللفظ هو كما تقدم.
حديث آخر عن ابن عباس.
أخرجه أحمد (١/ ٢٨٩) من طريق مقسم عنه أن النبي - ﷺ - مرّ على أبي قتادة وهو عند رجل قد قتله فقال: دعوه وسلبه.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٣٣ - ٣٣٤) وقال: رواه أبو يعلىٰ والطبراني في الكبير والأوسط بمعناه ورجال أحمد والكبير رجال الصحيح غير عتاب بن زياد وهو ثقة.
حديث آخر:
ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٣٤) عنه قال: انتهى عبد الله بن مسعود إلى أبي جهل يوم بدر وهو رقيد فاستل سيفه فضرب عنقه فندر رأسه ثم أخذ سلبه فأتى النبي - ﷺ - فأخبره أنه قتل أبا جهل فاستحلفه بالله ثلاث مرات، وحلف، فجعل له سلبه.
وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن أبي إسحاق أبو إسرائيل الملائي وهو ضعيف. =

الضَّالَّة، وتُكْتَفُ الحَاجَةُ» (١٧) فَسَمى المشارف للقتل والمرض والضلال: «قتيلاً ومريضاً، وضالاً»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، أي صائراً إلى الفجور والكفر. فإن قلت: فهلا قيل: هدى للضالين؟ قلت: لأن الضالين فريقان: [فريق] علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم، وفريق علم أنّ مصيرهم إلى الهدى؛ فلا يكون هدى للفريق الباقين على الضلالة، فبقى أن يكون هدى لهؤلاء، فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا، فقيل: هدى للمتقين. وأيضاً فقد جعل ذلك سلماً إلى

= - حديث جابر:
أخرجه البيهقي (٦/ ٣٠٩) من طريق أبي الوليد ثنا هشام عن شريك عن ابن عقيل عن جابر قال: بارز عقيل بن أبي طالب - رضي الله عنه - رجلاً يوم مؤته فقتله فنفله رسول الله - ﷺ - سيفه وترسه. وأخرجه البيهقي أيضاً من طريق الوليد بن صالح ثنا شريك به وأخرجه الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/ ١٥٤) من طريق سليمان بن أحمد - الطبراني - في الأوسط نا أحمد بن خليد نا إسماعيل بن عبد الله بن زرارة نا شريك عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن جابر قال: بارز عقيل بن أبي طالب يوم مؤتة رجلاً فقتله فنفله رسول الله - ﷺ - سلبه وخاتمه...
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٣٣٤) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل وهو حسن الحديث.
وفيه ضعف ا.هـ.
وقال ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/ ١٥٤): حديث حسن.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف به.
متفق عليه من حديث أبي قتادة، وفيه قصته، وغلط الطيبي فقرأه لأبي داود عن ابن عباس - رضي الله عنهما - والذي فيه أنّه قال يوم بدر:
«من قتل قتيلاً فله كذا وكذا»، لم يقل: «فله سلبه». انتهى.

١٧ - أخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٦٢) كتاب المناسك باب الخروج إلى الحج، حديث (٢٨٨٣) وأحمد في مسنده (١/ ٢١٤) وفي (١/ ٣٢٣) وفي (١/ ٣٥٥).
وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤١) وعزاه إلى إسحاق بن راهويه في مسنده:
من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أو عن الفضل بن عباس أو عن أحدهما، عن صاحبه.
وأخرجه أبو داود (٢/ ١٤١): كتاب المناسك: حديث رقم (١٧٣٢) وأحمد في مسنده (١/ ٢٢٥) وعبد بن حميد في مسنده ص (٣٧) حديث (٧٢٠) والدارمي (٢/ ٢٨): كتاب المناسك: باب من أراد الحج فليستعجل.
من طريق مهران أبي صفوان عن ابن عباس بلفظ «من أراد الحج فليتعجّل».
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: موقوف، عزاه الطيبي لأبي داود وحده مرفوعاً، وقال: ليس فيه الزيادات، يعني قوله فيه يمرض إلى آخره انتهى. والحديث بتمامه عند ابن ماجة وأحمد وإسحاق في مسنديهما مرفوعاً، وفيه أبو إسرائيل المكي، وهو صدوق سيء الحفظ. انتهى.

تصدير السورة التي هي أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثاني، بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده.

والمتقي في اللغة اسم فاعل، من قولهم: «وقاه فاتقى». والوقاية: فرط الصيانة، ومنه: فرس واق، وهذه الدابة تقي من وجاها، إذا أصابه ضلع[١] من غلظ الأرض، ورقة الحافر، فهو يقي حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه، وهو في الشريعة الذي/ ١١أ يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك، واختلف في الصغائر[٢]، وقيل: الصحيح، أنه لا يتناولها؛ لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر، وقيل: يطلق على الرجل اسم المؤمن؛ لظاهر الحال، والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة، كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر.

ومحل ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الرفع، لأنه خبر مبتدإ محذوف، أو خبر مع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لذلك، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدّم خبراً عنه، ويجوز أن ينصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف، والذي هو أرسخ عرقاً في «البلاغة» أن يضرب عن هذه المحال صفحاً، وأن يقال: إن قوله: ﴿الٓمٓ﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ جملة ثانية، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثالثة، و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة؛ بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، وشدّاً من أعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً

---

(١) قوله «من وجاها إذا أصابه ضلع» في الصحاح: الوجي: الوجع في الحافر. والضلع: الميل والاعوجاج والظلع: غمز في مشيته البعير. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «واختلف في الصغائر... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ومن تمني القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر ممحوة عنهم ما اجتنبوا الكبائر، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لمجتنب الكبائر، كما يجب عندهم أن لا يعفو عن مرتكب الكبائر، وهذا هو الخطأ الصراح، والمحادة لآيات الله البينات وسُنَن رسوله صلّى الله عليه وسلّم الصحاح. والحق أن غفران الصغائر ـ وإن اجتنبت الكبائر ـ موكول إلى المشيئة، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضاً. ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ فإنه ناطق بالمؤاخذة بالصغائر. ويتحيرون عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فإنه مصرح بمغفرة الكبائر. أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فإن التقييد بالمشيئة في هذه يقضي على الآيتين المطلقتين.

بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: في حجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرّر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السري، من نكتة ذات جزالة[1]، ففي الأولى: الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة: ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة: الحذف، ووضع المصدر الذي هو: ﴿هُدًى﴾ موضع الوصف الذي هو: «هاد» وإيراده منكراً، والإيجاز في ذكر المتقين.

زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه، وتبييناً لنكت تنزيله، وتوفيقاً للعمل بما فيه.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة، أو مدح منصوب، أو

---

(١) قوله ـ ثم لم تخل كل واحدة.. «من نكتة ذات جزالة»
قلت: في كلامه بيان قوي لكن البلاغيين نظروا في هذه الجمل فوجدوها خلت من حرف العطف، وهذا دليل على كمال الاتصال المعنوي بينها، وكما قالوا إن الفعل هو عين الوصل في الحقيقة؛ لأن المدار في المقاصد على المعاني وتواصلها، ولهذا أغنانا عن الوصل بالواو قوة الاتصال المعنوي، ولهذا سمي بكمال الاتصال، ولنستمع إلى قول القزويني في الإيضاح حيث يقول:
«فإن وزان لا ريب فيه في الآية وزان نفسه في قولك جاءني الخليفة نفسه، فإنه لما بولغ في وصف الكتاب ببلوغه الدرجة القصوى من الكمال، بجعل المبتدأ ذلك، وتعريف الخبر باللام، كان عند السامع قبل أن يتأمله مظنة أنه مما يرمى به جزافاً من غير تحقق، فأتبعه ـ لا ريب فيه ـ نفياً لذلك، إتباع الخليفة نفسه، إزالة لما عسى أن يتوهم السامع أنك في قولك جاءني الخليفة متجوز أو ساه، وكذا قوله: «كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً الثاني مقرر لما أفاده الأول....».
ثم يحدثنا عن إتباع «هدى للمتقين» لما قبلها بدون عاطف ـ أيضاً ـ فيقول:
«فإن هدى للمتقين معناه أنه في الهداية بالغ درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محققة وهذا معنى قولك ـ ذلك الكتاب ـ لأن معناه كما هو الكتاب الكامل، والمراد فيما له كماله في الهداية؛ لأن الكتب السماوية بحسبها تتفاوت في درجات الكمال».
في قول صاحب الكشاف: «وفي اسم الإشارة.... إلخ» ١/١٤١ ما يفيد أن تعريف المسند إليه باسم الإشارة لأغراض عديدة مبثوثة في النص القرآني والحديث الشريف وكلام العرب، وقد سار البلاغيون في بحثهم عن هذه الأسرار وجمعوا منها زادا طيباً في مصنفاتهم. ومن هذا الزاد ما أوردوه في هذه الآية حيث قال القزويني «أفاد اسم الإشارة زيادة الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله باستحقاق الهدى من ربهم والفلاح».
«يراجع الإيضاح ٢/٢٥ وما بعدها مع تحقيق خفاجي عليه، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري لأبي موسى ٣١٢، وعلم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني ١/٨٣ وما بعدها».

مرفوع بتقدير: أعني الذين يؤمنون، أو هم الذين يؤمنون، وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة:٥]. فإذا كان موصولاً، كان الوقف على المتقين حسناً غير تامّ، وإذا كان مقتطعاً، كان وقفاً تاماً، فإن قلت: ما هذه الصفة، أواردة بياناً وكشفاً للمتقين؟ أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها؟ أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية/ ١١ب عليه تمجيداً؟ قلت: يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف، لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات، أمّا الفعل: فقد انطوى تحت ذكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات ومنصبها، وذكر الصلاة والصدقة؛ لأنّ هاتين أُمّا العبادات البدنية والمالية، وهما العيار على غيرهما؛ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ سَمَّىٰ رَسُولُ الله ﷺ الصَّلَاةَ عِمَادَ الدِّينِ، وَجَعَلَ الفَاصِلَ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ؟. وَسَمَّى الزَّكَاةَ قَنْطَرَةَ الإِسْلَامِ؟ (١٨) وقال الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ

---

١٨ ـ أما حديث الصلاة عماد الدين:
أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩) حديث برقم (٢٨٠٧).
وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣١) حديث (١٦٢١).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٩٦).
وذكره ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٣٠٨) كتاب الصلاة باب أوقات الصلاة، تحت رقم (٢٤٣).
والحديث له شاهد من حديث علي بن أبي طالب.
وذكره الديلمي في فردوس الأخبار (٢/ ٥٦٣) حديث (١/ ٣٦١) والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٩٦).
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٢) حديث (١٩) ـ إلى أبي القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب.
وقال ابن حجر في تلخيص الحبير: قال النووي في التنقيح هو منكر باطل، قلت: وليس كذلك بل رواه أبو نعيم شيخ البخاري في كتابه الصلاة عن حبيب بن سليم، عن بلال بن يحيىٰ قال جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ وسأله؟ فقال: «الصّلاة عمود الدين»، وهو مرسل رجاله ثقات. ا.هـ.
أما حديث: بين العبد والكفر ترك الصلاة.
أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٠ و٣٨٩)، والدارمي (١/ ٢٨٠) كتاب الصلاة: باب في تارك الصلاة، ومسلم (١/ ٨٨) كتاب الإيمان: باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، الحديث (١٣٤/ ٨٢)، وأبو داود (٥/ ٨٥) كتاب السنة: باب في رد الإرجاء، الحديث (٤٦٧٨)، والترمذي (٥/ ١٣): كتاب الإيمان: باب ما جاء في ترك الصلاة، الحديث (٢٦١٨)، وابن ماجة (١/ ٣٤٢): كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، الحديث (١٠٧٨)، وأبو نعيم (٨/ ٢٥٦ ـ الحلية)، والبيهقي (٣/ ٣٦٦)، ولفظ مسلم من رواية أبي الزبير، عن جابر، سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة».
وأخرجه ابن ماجه (١٠٨٠)، من حديث أنس بن مالك بلفظ: «ليس بين العبد و[بين] الشرك إلاّ =

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧]. فلما كانتا بهذه المثابة، كان من شأنهما استجرار سائر العبادات واستتباعها، ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً، بأن استغنى عن عدّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، والذي إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترن به، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين، وأما الترك فكذلك؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؟ ويحتمل ألاّ تكون بياناً للمتقين، وتكون صفة برأسها دالة على فعل الطاعات، ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصي، ويحتمل أن تكون مدحاً للموصوفين بالتقوى، وتخصيصاً للإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر؛ إظهاراً لإنافتها على سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات.

والإيمان: إفعال من الأمن. يقال: أمنته وآمنته غيري، ثم يقال: آمنه إذا صدّقه، وحقيقته: آمنه التكذيب والمخالفة، وأمّا تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقرّ وأعترف، وأمّا ما

= ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك».

وقال البوصيري (١/ ٣٥٧): هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبان الرقاشي.

أما حديث: «الزكاة قنطرة الإسلام».

أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٤١٧) والبيهقي في الشُعَب (٣/ ١٩٥) حديث (٣٣١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٧٠)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٤٩٣) حديث برقم (٨١٤)، كلهم من طريق الضحاك بن حمزة عن أبان عن حطان بن عبدالله الرقاشي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ـ ﷺ ـ، قال يحيىٰ: الضحاك ليس بشيء: وقال النسائي: ليس بثقة.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٥) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثقون، إلاّ أن بقية مدلس وهو ثقة.

وعزاه الزيلعي إلى إسحاق بن راهويه في مسنده (تخريج الكشاف (١/ ٤٢)).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أما الحديث الأول: فأخرجه البيهقي في الشعب من طريق عكرمة عن عمر ـ رضي الله عنه ـ في حديث في آخره: «والصلاة عماد الدين» قال: وعكرمة لم يسمع من عمر. قال: وأراه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وله شاهد من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «الصلاة عماد الإسلام»، أخرجه الأصبهاني في الترغيب. وغفل ابن الصلاح في مشكل الوسيط فقال: هذا حديث غير معروف. قلت: والطيبي عزاه لتخريج الترمذي في حديث معاذ ففيه: «وعموده الصلاة» ولا يخفى بعده.

وأما الحديث الثاني: فرواه مسلم من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «بين الرجل وبين الكفر تركه الصلاة».

وأما الحديث الثالث: فرواه إسحاق في مسنده من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ به سواء. وفيه الضحاك ابن حمق. وهو ضعيف. انتهى.

حكى أبو زيد عن العرب: ما آمنت أن أجد صحابة ـ أي ما وثقت ـ فحقيقته: صرت ذا أمن به، أي ذا سكون وطمأنينة، وكلا الوجهين حسن في ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يعترفون به أو يثقون بأنه حق، ويجوز ألاّ يكون ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ صلة للإيمان، وأن يكون في موضع الحال، أي يؤمنون غائبين عن المؤمن به، وحقيقته: ملتبسين بالغيب، كقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، ويعضده ما روي: «أن أصحاب عبد الله ذكروا أصحاب رسول الله ﷺ وإيمانهم، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنّ أمر محمد كان بيّناً لمن رآه، والذي لا إله غيره، ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية (١٩)، فإن قلت: فما المراد بالغيب إن جعلته صلة؟ وإن جعلته حالاً؟ قلت: إن جعلته صلة كان بمعنى الغائب، إمّا تسمية بالمصدر من قولك: غاب الشيء غيباً، كما سمي الشاهد بالشهادة، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الزمر: ٤٦] والعرب تسمى المطمئن من الأرض غيباً، وعن النضر بن شميل: شربت الإبل حتى وارت غيوب كلاها، يريد بالغيب: الخمصة التي تكون في موضع الكلية، إذا بطنت الدابة/ ١٢أ انتفخت، وإما أن يكون فيعلا فخفف، كما قيل: قَيْل وأصله: قَيِّل، والمراد به: الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير، وإنما نعلم منه نحن ما أعلمناه، أو نصب لنا دليلاً عليه، ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال: فلان يعلم الغيب، وذلك نحو الصانع وصفاته، والنبوّات وما يتعلق بها، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد، وغير ذلك، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء، فإن قلت: ما الإيمان الصحيح[1]؟ قلت: أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه، ويصدّقه بعمله؛

---

١٩ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٠): كتاب التفسير: باب من سورة البقرة.
وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٥٤٤) حديث (١٨٠) باب تفسير سورة البقرة.
وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٤) حديث (٦٦) وذكره البغوي في تفسيره معلّقاً (١/ ٤٧).
والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦) وعزاه إلى سفيان بن عيينة وسعيد بن منصور وأحمد بن منيع في مسنده وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وابن مردويه.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن زيد: «ذكروا عند عبد الله بن مسعود. إلخ» وإسناده صحيح. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «إن قلت ما معنى الإيمان الصحيح... إلخ». قال أحمد رحمه الله: يعني بالفاسق غير مؤمن ولا كافر، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية وما أنزل الله بها من سلطان. ومعتقد أهل السنّة أن الموحد لله الذي لا خلل في عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر. وهذا =

فمن أخل بالاعتقاد ـ وإن شهد وعمل ـ فهو منافق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق.

ومعنى إقامة الصلاة: تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها، من أقام العود ـ إذا قوّمه ـ أو الدوام عليها والمحافظة عليها، كما قال عزّ وعلا: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ٢٣]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩] من قامت السوق إذا نفقت، وأقامها، قال [من المتقارب]:

أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقَ الضِّرَابِ لِأَهْلِ العِرَاقَيْنِ حَوْلاً قَمِيطَا[1]

لأنها إذا حوفظ عليها، كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت وأضيعت، كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه، أو التجلد والتشمر لأدائها، وألاّ يكون في مؤدّيها فتور عنها ولا توان، من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفي ضدّه: قعد عن الأمر، وتقاعد عنه ـ إذا تقاعس وتثبط ـ أو أداؤها، فعبر عن الأداء بالإقامة؛ لأنّ القيام بعض أركانها، كما عبر عنه بالقنوت ـ والقنوت القيام ـ وبالركوع وبالسجود، وقالوا: سبح، إذا صلى؛ لوجود التسبيح فيها؛ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣].

= هو الصحيح لغة وشرعاً. أما لغة فإن الإيمان هو التصديق وهو مصدق. وأما شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكراراً. وانظر حيلة الزمخشري على تقريب معتقده من اللغة بقوله: المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدقه بعمله فجعل التصديق من حظ العمل حتى يتم له أن من لم يعمل فقد فوت التصديق الذي هو الإيمان لغة. ولقد أوضحنا أن التصديق إنما هو بالقلب ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح؛ مما يحقق معتقد أهل السنّة أن من آمن بالله ورسوله ثم اخترم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح فهو مؤمن باتفاق وإن لم يعمل. وأصدق شاهد على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا فواق ناقة عمل بعمل أهل الجنة فكتب من أهل الجنة» وإنما مثل عليه الصلاة والسلام بفواق الناقة لأنه الغاية في القصر، ومثل هذا الزمان إنما يتصور فيه القصد الصحيح خاصة، ومع ذلك فقد عده من أهل الجنة. وإنما يدخل المؤمن الجنة باتفاق الفريقين. والأدلة على ذلك تجرد كون الشرط فيه شطراً. أقول: تفسير الفاسق بغير مؤمن ولا كافر كما هو مذهب المعتزلة غير موجه والشيء الذي هو لم يصرح به لا يجب علينا تصريحه وتعريفه: فإن عندنا «الضال» من أخل بالعمل فهو فاسق.

(١) لأيمن بن خزيم. وغزالة: امرأة شبيب الخارجي، قتله الحجاج فحاربته سنة كاملة، وسوق الضراب: مجاز عن ميدان المحاربة، أو شبه المطاعنة بالرماح والمضاربة بالسيوف بالأمتعة التي تُباع وتُشترى في السوق على سبيل المكنية والسوق تخييل. والعراقان: البصرة والكوفة. والقميط: التام نعت مؤكد، ويقال: قمط الطائر أنثاه: سفدها. والقماط: حبل تشد به الأسرى والأخصاص، فالمادة دالة على الإحاطة والضم.

والصلاة: فعلة من صلى، كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى: حرّك الصلوين؛ لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده، ونظيره: كفر اليهودي إذا طأطأ رأسه وانحنى عند تعظيم صاحبه؛ لأنه ينثني على الكاذتين[1]، وهما الكافرتان، وقيل للداعي: مصلّ؛ تشبيهاً في تخشعه بالراكع والساجد.

وإسناد الرزق إلى نفسه[2]؛ للإعلام بأنهم ينفقون الحلال[3] الطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله، ويسمى رزقاً منه، وأدخل من التبعيضية صيانة لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهى عنه، وقدّم مفعول الفعل؛ دلالة على كونه أهم، كأنه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدّق به، وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة؛ لاقترانه بأخت الزكاة وشقيقتها وهي الصلاة وأن تراد هي وغيرها من النفقات في سبُل الخير؛ لمجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق، وأنفق الشيء وأنفده أخوان، وعن يعقوب: نفق الشيء، ونفد واحد، وكل ما جاء مما/ ١٢ب فاؤه نون، وعينه فاء؛ فدالّ على معنى الخروج والذهاب ونحو ذلك إذا تأملت.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

فإن قلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ أهم غير الأوّلين أم هم الأوّلون؟ وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد؛ وفي قوله [من المتقارب]:

إِلَى المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمْ[4]

---

(١) قوله «على الكاذتين» في الصحاح: الكاذتان ما نشأ من اللحم في أعالي الفخذ اهـ. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «أضاف الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم إنما ينفقون مِن الحلال الطلق... إلخ». قال أحمد رحمه الله: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أن الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يرزقه لنفسه حتى يقسمون الأرزاق قسمين: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائه. وإذا أثبتوا خالقاً غير الله، فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره. أما أهل السنّة فلا خالق ولا رازق في عقدهم إلا الله سبحانه، تصديقاً بقوله تعالى ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أيها القدرية.

(٣) قوله «بأنهم ينفقون الحلال» مبني على أن الرزق مختص بالحلال. وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنّة: الرزق أعم. (ع)

(٤) الجار والمجرور متعلق بما قبله في الشعر. والقرم ـ بالفتح ـ في الأصل: الفحل المكرم الذي يعفى من العمل لتقديمه وتشويقه إلى ضراب الإبل. استعارة للسيد الرئيس أو للفارس المعد للمكاره. وظاهر القاموس أنه بمعنى السيد حقيقة. ووسط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت. والهمام: العظيم الهمة، النافذ العزيمة. واستعار الليث للشجاع على طريق التصريح. والكتيبة: الجيش المنضم المنتظم. والمزدحم: المعركة؛ لأنها محل الإزدحام، وأصله، مزتحم، من الافتعال قلبت تاؤه دالاً. ينظر الدر المصون ١/٩٨، الإنصاف لابن الأنباري (٢٧٦) الخزانة (١/٤٥١) =

وقوله: [من السريع]

يَـا لَـهْـفَ زَيَّـابَـةَ لِـلْـحَـارِثِ الـصَّـابِـحِ فـالـغَـانِـم فَـالآيِـبِ[1]

قلت: يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وأضرابه من الذين آمنوا، فاشتمل إيمانهم على كل وحي أُنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة؛ إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأنّ النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، واجتماعهم على الإقرار[2] بالنشأة الأخرى، وإعادة الأرواح في الأجساد، ثم افتراقهم فرقتين: منهم من قال: تجري حالهم في التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا، ودفعه آخرون فزعموا أن ذلك إنما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام ولمكان التوالد والتناسل، وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسيم والأرواح العبقة، والسماع اللذيد، والفرح، والسرور، واختلافهم في الدوام والانقطاع، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه، ويحتمل أن يراد وصف الأوّلين، ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه، فإن قلت: فإن أريد بهؤلاء غير أولئك، فهل يدخلون في جملة المتقين أم لا؟ قلت: إن عطفتهم على: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزمرتين من مؤمني أهل الكتاب

= القرطبي (١/ ٢٧٢) البحر (٥/ ٢١٣).

(١) يا لهف زيابة للحارث الصـ ـابح فالغانم فالآيب
والله لو لاقيته خالياً لآب سيفانا مَعَ الغالبِ
لابن زيابة في جواب الحارث بن هشام حين قال له:
أيا ابن زيابة إن تلقني لا تلقني في النعم العازب
وَتَلْقَنِي يشد بي أجرد مستقدم البركة كالراكب
والعازب ـ بالزاي ـ البعيد عن أهله. يعرض بابن زيابة رَاعٍ للنعم لا شجاع. والأجرد: المنجرد الشعر. والبركة في البعير والفرس: العظم الناتىء في صدرهما وعظمه ممدوح فيهما، وشبهه بالراكب في طول عنقه وامتداده ويجوز أن المعنى أن راكبه مستقدم البركة لا متخشع منكمش. يقول: يا حسرة أبي عليّ مِن أجل الحارث الذي بلغ مراده مني. وفيه ضرب مِن التهكم فإنه كان توعده ثم نكص على عقبيه. وقيل: هو على ظاهره، ثم حلف أنه لو وجده لقتله، ولكنه أبرز الكلام في صورة الإيهام للإنصاف في الكلام ورجوع السيفين مع الغالب: كناية عن قتل المغلوب واستلاب سلاحه.
البيت لامرىء القيس. ينظر: الحماسة (١/ ٩٢)، الخزانة (٢/ ٣٣١) وأمالي ابن الشجري (٢/ ٢١٠)، الهمع (٢/ ١١٩)، الدرر (٢/ ١٥٠)، المغني (١/ ١٦٣)، الخزانة (٥/ ١٠٧)، الدر (١/ ٩٩)، سمط اللآلي ٥٠٤، معجم الشعراء ٢٠٨، الجنى الداني ٦٥.

(٢) قوله «واجتماعهم على الإقرار» لعله عطف على مجرور «من» البيانية، باعتبار ما عطف عليه من افتراقهم واختلافهم الآتيين فتدبر. (ع)

وغيرهم، وإن عطفتهم على: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لم يدخلوا، وكأنه قيل: هدى للمتقين، وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك، فإن قلت: قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إن عنى به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم، فكيف قيل: أنزل بلفظ المضيّ؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومترقبه واجب، قلت: المراد المنزل كله؛ وإنما عبر عنه بلفظ المضيّ وإن كان بعضه مترقباً، تغليباً للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب، فيقال: «أنا [وأنت فعلنا]»، و«أنت وزيد تفعلان»، ولأنه إذا كان بعضه نازلاً، وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] ولم يسمعوا جميع الكتاب، ولا كان كله منزلاً، ولكن سبيله سبيل ما ذكرنا؛ ونظيره قولك: كل ما خطب به فلان فهو فصيح، وما تكلم بشيء إلا وهو نادر، ولا تريد بهذا الماضي [منه] فحسب دون الآتي، لكونه معقوداً بعضه/١٣أ ببعض، ومربوطاً آتيه بماضيه، وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ﴾ على لفظ ما سُمي فاعله، وفي تقديم: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبناء ﴿يُوقِنُونَ﴾ على: ﴿هُمْ﴾؛ تعريض بأهل الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وأنّ قولهم ليس بصادر عن إيقان، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، و: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾ تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأوّل، وهي صفة الدار؛ بدليل قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] وهي من الصفات الغالبة، وكذلك الدنيا، وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام، كقوله: ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤] وقرأ «أبو حية»[1] النميري: «يؤقنون» بالهمز، جعل الضمة في جار الواو كأنها فيه، فقلبها قلب واو «وجوه» و«وُقِّتَتْ»، ونحوه: [من الوافر]

لَحُبُّ المُؤْقِدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى ... وَجَعْدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الوَقُودُ[2]

---

(١) قوله «وقرأ أبو حية» لعله: أبو حيوة. (ع)

(٢) لجرير في مدح هشام بن عبد الملك وموسى ابنه وجعدة بنته. وقيل ابنه أيضاً وليس كذلك. واللام للقسم. وحب أصله حبب ـ كظرف ـ نقلت حركة الباء إلى الحاء ثم أدغمت في الأخرى. ومعناه: إنشاء المدح كنعم، ويفيد التعجب أيضاً كـ «ماأحبه». وقد تفتح حاؤه إذا كان فاعله ذا والمؤقدان بالهمزة فاعل. ومؤسى بالهمز أيضاً. وجعدة المخصوص بالمدح على طريقة: نعم الرجل زيد. و «حب»: محول من «حب» الثلاثي كضرب، وإن كان الكثير «أحب» الرباعي؛ لأنه لا يصاغ للمدح إلا من الثلاثي. فإن قلت: أهو محول من «حب» المسند للفاعل، أم من «حب» المبني للمجهول؟ قلت: إن كان من المسند للفاعل فالمؤقدان محبوبان، وإن كان من المسند للمفعول فالتحويل تقديري. فالظاهر أنه مصوغ من المادة من غير ملاحظة إسناد. ويجوز أن «حب» أصله «حبب» =

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾: الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محلّ لها، ونظم الكلام على الوجهين: أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب، فقد ذهبت به مذهب الاستئناف، وذلك أنه لما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ واختصّ المتقون بأنّ الكتاب لهم هدى، اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدّر، وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلطف بهم، ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أي: الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم، أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح؛ ونظيره قولك: أحبّ رسول الله ﷺ الأنصار الذين قارعوا دونه، وكشفوا الكرب عن وجهه، أولئك أهل للمحبة، وإن جعلته تابعاً للمتقين، وقع الاستئناف على أولئك؛ كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين، غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً، وبالفلاح آجلاً، واعلم أنّ هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث؛ كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، وتارة بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك [منك]؛ فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ؛ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه. فإن قلت: هل يجوز أن يجري الموصول الأوّل على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره؟ قلت: نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح، تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوّة رسول الله/ ١٣ب ﷺ، وهم ظانون أنهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، وفي اسم

= ـ كضرب مبني للمجهول ـ فالمؤقدان نائب فاعل، ومؤسى وجعدة بدل أو بيان. والمعنى على الخبر لا الإنشاء. وروي: أحب المؤقدين، بإضافة أفعل التفضيل إلى صيغة الجمع؛ فمؤسى وجعدة خبر. وسوغ قلب واو الموقدين وموسى همزة، ضم ما قبلها، فكأنها مضمومة، وهي إذا ضمت تبدل همزة. ويقال: أضاء المكان وأضاءه السراج. وما هنا مِن الثاني، فهو متعد بمعنى أنارهما الوقود بالضم: أي توقد نار القرى وتلتهبنها، وأما بالفتح فهو ما توقد به. وأصل فعول أنه مبالغة في الفاعل كضروب، وكثر بمعنى ما يفعل به الفعل كوقود وسحور، فيحتمل أنه من قبيل اسم المفعول، وأنه من قبيل اسم الآلة شذوذاً. والمعنى: ما أحبهما إلى وقت بأن أظهرتهما النار التي يوقدانها لقرى الأضياف.

ينظر الدر المصون (١/ ١٠١)، وديوانه (١١٢)، المحتسب (١/ ٤٧)، الخصائص (٢/ ١٧٥)، المغني (٢/ ٦٨٤)، الأشباه والنظائر (٢/ ١٢)، (٨/ ٧٤) وشرح شواهد الشافية ص ٤٢٩، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٦٢، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب ١/ ٧٩، ومغني اللبيب ٢/ ٦٨٤، المقرب ٢/ ١٦٣.

الإشارة الذي هو: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إيذان بأنّ ما يرد عقيبه، فالمذكورون قبله أهل؛ لاكتسابه من أجل الخصال التي عدّدت لهم؛ كما قال حاتم: [من الطويل]

وَلِلَّهِ صُعْلُوكٌ ....

ثم عدّد له خصالاً فاضلة؛ ثم عقب تعديدها بقوله: [من الطويل]

فَذَلِكَ إنْ يَهْلِكْ فَحَسْبِي ثَنَاؤُهُ وَإنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفاً مُذَمَّمَا[1]

ومعنى الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى[2]، واستقرارهم

---

(١) ويغشى إذا ما كان يوم كريهة صدور العوالي وهو مختضب دما
إذ الحرب أبدَتْ ناجذيها وشمرت وولى هدان القوم أقدم معلما
فذلك إن يهلك فحسبي ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

لحاتم الطائي، يرثي رجلاً بأنه عالي الهمة، وإذا كان يوم حرب يذهب إلى صدور الرماح وينزل فيما بينها، والحال أنه مختضب بالدم منها. وقوله «أو الحرب» عطف على قوله «كان يوم كريهة» وإسناد إبداء الناجذ والتشمير عن الساعد مثلاً إلى الحرب مجاز عقلي، لأنها سبب في أن الفرسان يفعلون ذلك. ويجوز أنه شبهها في قوتها واشتدادها بشجاع يفعل ذلك على طريق الكناية وإبداء الناجذ والتشمير تخييل. والناجذ: آخر الأضراس وهو ضرس الحلم. والهدان ـ ككتاب ـ : الأحمق الثقيل، وجمعه هدون ـ من الهدنة وهي السكون ـ . وأقدم: جواب الشرط، معلماً للناس بأنه فلان على عادة الفرسان. أو معلماً فرسه مسومها. فذلك الموصوف بتلك الصفات المختص بتلك الخِصال، هو المستحق لأن يقال فيه إن يهلك ويمُت فيكفني ثناؤه فخراً: أي ذكره بين الناس بالجميل. وقوله «إن عاش» شرط لا يقتضي الوقوع، لكن ذكره دلالة على أنه محمود الفعال على أي حال. وقوله «لم يقعد» قليل المدح في الظاهر كثيره عند أولي البصائر: أي بل يقعد على حاله المشهورة وخصاله الحميدة.
ينظر الدر المصون (١/ ١٠٢).

(٢) قوله: «ومعنى الاستعلاء في قوله ـ على هدى ـ مثل لتمكنهم من الهدى. . .» إلخ هذا المقصد هو ما عناه البلاغيون فيما بعد بالاستعارة في الحرف ـ على ـ وقد جعلوها استعارة تبعية، أي تابعة لتشبيه أو تشبيهين سابقين، ولذا قالوا في إجرائها شبهت الهداية بما يستعلى عليه، ثم حذف وأخذ منه «على» الدالة على الاستعلاء وجعل في المشبه، دليلاً على التمكن التام في الهداية والفلاح بسبب ما قدموا من سمات وصالحات.
وهذا رأي يخالف ما يفهم من كلام الكشاف الذي يرى أن الاستعارة هنا تابعة لمثلها في متعلق الحرف مع مجروره. وهذا خلاف كلام جمهور البلاغيين، ورأيهم هو المعتمد، وخلاصة أن الاستعارة في المعاني الكلية التي تتعلق بها الحروف، ففي الآية التي معنا تكون الاستعارة هكذا: شبهت الملابسة الكلية ـ المطلقة ـ بالاستعلاء الكلي ـ المطلق ـ ثم سرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، وهنا يظهر الحرف «على» في الاستعلاء الجزئي فيستعار للملابسة الجزئية في الهداية.
وبهذا تتضح الاستعارة في الحرف، وفي المقام كلام وفير لجهابذة الفضلاء من العلماء فليراجع في مصنفاتهم ـ غفر الله لنا ولهم.
ينظر تعليقات أستاذنا محمد عبد المنعم خفاجي، على الإيضاح للقزويني ٥/ ٩٢ وما بعدها، والبلاغة القرآنية ٤٩٢ وما بعدها. وغير ذلك من كتب التراث البلاغي في هذا الموضع.

عليه، وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه؛ ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل، وقد صرّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتطى الجهل[1]، واقتعد غارب الهوى.

ومعنى: ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: منحوه من عنده وأوتوه من قبله، وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير، والترقي إلى الأفضل فالأفضل، ونكر: ﴿هُدًى﴾، ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، ولا يقادر قدره؛ كأنه قيل: على أي هدى، كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً، وقال الهُذَلِيُّ: [من الطويل]

فَلاَ وَأَبِي الطَّيْرِ المُرِبَّةِ بِالضُّحَى[2] عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْتِ عَلَى لَحَمْ[3]

والنون في: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أدغمت بغنة وبغير غنة، فالكسائي، وحمزة، ويزيد، وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها، وقد أغنها الباقون إلا أبا عمرو؛ فقد روى عنه [فيها] روايتان.

وفي تكرير: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى، فهي ثابتة لهم بالفلاح؛ فجعلتْ كلّ واحدة من الأثرتين في تمييزهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها، فإن قلت: لم جاء مع العاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ

---

(١) قوله «وامتطى الجهل» أي اتخذ الجهل مطية، واتخذ الهوى قعوداً. والقعود مِن الإبل: البكر حين يركب. والغارب: ما بين السنام إلى العنق، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وأبي الطير المربة بالضحى» أي المجتمعة العاكفة. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) فلا وأبي الطير المربة بالضحى على خالد لقد وقعت على لَحَمْ
فلا وأبي لا يأكل الطير مثله عشية أمسى لا يبين من السَّلَمْ

لأبي كبير الهذلي يرثي خالد بن زهير. و«لا» زائدة قبل القسم. واستعظم الطير الواقعة عليه فأقسم بها، وكنى عنها بأبي الطير كما يكني عن العظيم بأبي فلان. وأصل أبي هنا: أبين، على صيغة جمع المذكر السالم، سقطت نونه للإضافة، ويحتمل أنه مفرد والمراد به النسر؛ لأنه يكنىٰ بأبي الطير. ويجوز أن يريد بأبي الطير خالداً لوقوعها عليه، ويجوز أن يريد به أصلها. ويروى: لعمر أبي الطير المربة غدوة... إلخ. ويروى هذا برفع الطير. ولعله على الابتداء أو الخبرية لمحذوف. أو على تقدير النداء، وإلى مضاف إلى ضمير المتكلم كالذي بعده. ويقال: أرب بالمكان وألب به. أقام فيه ولازمه، فالمربة المقيمة العاكفة وقت الضحى على خالد القتيل. والتفت إلى خطاب الطير فقال لها: لقد وقعت. ويروى علقت، على لحم ـ بالتحريك ـ على لمة وتنكيره للتعظيم: أي على لحم عظيم. وأنثها لأنها جماعة في المعنى. فإن قرىء بفتح التاء فظاهر، وخاطبه لتنزيله منزلة العاقل، ثم أقسم بأبيه أن الطير لا يأكل مثل خالد في العظم عشية أمسى لا يظهر لنا من السلم ـ وهو شجر العضاء ـ كناية عن كونه قتيلاً فيه والطير حوله على ذلك الشجر. وفي البيتين التفاتان.

ينظر خزانة الأدب (٥/ ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٨١، ١١/ ٤٧)، شرح أشعار الهذليين (٣/ ١٢٢٦)، مجالس ثعلب (ص ١٥١، ٢١٢)، ولأبي ذؤيب من خزانة الأدب (٥/ ٨٥).

﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؟ قلت: قد اختلف الخبران ههنا[١]؛ فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة، وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقرّرة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل.

و﴿هُمُ﴾ فصل: وفائدته: الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره، أو هو مبتدأ والمفلحون خبره، والجملة خبر أولئك.

ومعنى التعريف في: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو؟ فقيل: زيد التائب، أي هو الذي أخبرت بتوبته. أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين، وتحققوا ما هم، وتصوّروا بصورتهم الحقيقية، فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة، كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ إن زيداً هو هو، فانظر كيف كرّر الله عزّ وجلّ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك/ ١٤أ؛ ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدّموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، اللهمّ، زينا بلباس التقوى، واحشرنا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة، والمفلح: الفائز بالبغية كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه،

---

(١) قوله ـ «قد اختلف الخبران ههنا» ومقصوده أن العطف يقتضي التغاير بطبيعته حتى يصح الجمع به سواء كانت الواو هي العاطفة أو غيرها بحسب طبيعة الجملتين.
وكلام البلاغيين في نحو هذه الجمل قائم على أن الجملة الثانية إذا اتفقت مع الأولى التي لها محل من الإعراب كان الوصل بالواو، وهذا واضح تماماً في هاتين الجملتين:
﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ جملة خبرية لفظاً ومعنىً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ كذلك، وقد شاركت الثانية الأولى في هذا الإخبار عن «المتقين» في بداية كلامه ـ سبحانه ـ وبهذه المشاركة وجب الوصل بالواو العاطفة بخلاف «أولئك كالأنعام بل هم أضل» ومعها «أولئك هم الغافلون» فإن الثانية بمثابة التوكيد المعنوي للأولى، ولذا يقال وبينهما كمال اتصال، وبهذا وجب الفعل؛ لأنه كما سبق لا موضع للوصل هنا حيث لا تغاير.
ولشيخ البلاغيين عبد القاهر كلمة جامعة في هذا الميدان حيث يقول:
«كذلك يكون في الجمل ما تتصل به من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة مؤكدة ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها».
«دلائل الإعجاز ٢٢٧، الشيخ شاكر ـ ط. المدني»، وشروح التلخيص ٣/ ٣٠٢، وعلم المعاني في فتح القدير ٢/ ٦٦٢، المطول للسعد ص ٢٤٧.

والمفلج ـ بالجيم ـ مثله، ومنه قولهم للمطلقة: استفلحي بأمرك بالحاء والجيم، والتركيب دال على معنى الشق والفتح؛ وكذلك أخواته في الفاء والعين؛ نحو: فلق، وفلذ، وفلى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

لما قدّم ذكر أوليائه وخالصة عباده بصفاتهم التي أهلتهم لإصابة الزلفى عنده، وبين أن الكتاب هدى ولطف لهم خاصة، قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى، ولا يجدي عليهم اللطف، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه، وإنذار الرسول وسكوته، فإن قلت: لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف؛ كنحو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] وغيره من الآي الكثيرة؟ قلت: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت؛ لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب، وأنه هدى للمتقين، وسيقت الثانية؛ لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حدّ لا مجال فيه للعاطف، فإن قلت: هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جار على المتقين، فأمّا إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين، ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم، كان مثل تلك الآي المتلوّة. قلت: قد مرّ لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف، وأنه مبنيّ على تقدير سؤال، فذلك إدراج له في حكم المتقين، وتابع[(١)] له في المعنى؛ وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في الحقيقة كالجاري عليه.

والتعريف في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: يجوز أن يكون للعهد وأن يراد بهم ناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأضرابهم، وأن يكون للجنس متناولاً كلّ من صمم على كفره تصميماً لا يرعوي بعده[(٢)] وغيرهم؛ ودل على تناوله للمصرين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم، و: ﴿سَوَآءٌ﴾ اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] بمعنى مستوية وارتفاعه على أنه خبر لإنّ، و﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ في موضع المرتفع به على الفاعلية؛ كأنه قيل: إنّ الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه. كما تقول: إنّ زيداً مختصم أخوه وابن عمه، أو يكون ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ في موضع الابتداء، و﴿سَوَآءٌ﴾ خبراً مقدّماً بمعنى: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لإنّ. فإن قلت: الفعل أبداً خبر لا مخبر/ ١٤ب عنه

---

(١) قوله «وتابع له في المعنى» لعله واتباع له. (ع)

(٢) قوله «بعده وغيرهم» لعله كهؤلاء وغيرهم. (ع)

فكيف صحّ الإخبار عنه في هذا الكلام؟ قلت: هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً، من ذلك قولهم: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن»، معناه: لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل، والهمزة وأم مجرّدتان لمعنى الاستواء[(١)]، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً؛ قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهمّ اغفر لنا أيتها العصابة، يعني: أنّ هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء: استواؤهما في علم المستفهم عنهما؛ لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن، إمّا الإنذار وإمّا عدمه، ولكن لا بعينه، فكلاهما معلوم بعلم غير معين، وقرىء: «أأنذرتهم» بتحقيق الهمزتين، والتخفيف أعرب وأكثر، وبتخفيف الثانية بين بين، وبتوسيط ألف بينهما محققتين، وبتوسيطها والثانية بين بين، وبحذف حرف الاستفهام، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله، كما قرىء ﴿قد افلح﴾. فإن قلت: ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً؟ قلت: هو لاحن[(٢)] خارج عن كلام العرب خروجين: أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حدّه ـ وحدّه أن يكون الأوّل حرف لين، والثاني حرفاً مدغماً نحو قوله: الضَّالِّينَ، وخُوَيْصَّة (٢٠)؛ والثاني: إخطاء طريق

---

٢٠ ـ أخرجه مسلم في صحيحه (٩/ ٣١٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث (١٢٩).
وأخرجه أحمد (٢/ ٣٢٤).
وأخرجه الطيالسي (٢/ ٢١٥) كتاب الفتن وعلامات الساعة باب ما جاء في العلامات الكبرى للساعة حديث (٢٧٧٠).
من طريق زياد بن رباح عن أبي هريرة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
=

---

(١) قال محمود رحمه الله: «والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا النقل استعمال الحرف في أعم معناه. فالهمزة المعادلة لـ «أم» موضوعة في الأصل للاستفهام عن أحد متبادلين في عدم علم التعين فنقلت إلى مطلق المعادلة وإن لم يكن استفهاماً، واستعملت في الجزء الحقيقي. وكذلك حرف النداء موضوع في الأصل لتخصيص المنادى بالدعاء، ثم نقل إلى مطلق التخصيص ولا نداء، كما يكون المجاز بالتخصيص والقصر مثل تخصيص الدابة بذوات الأربع وإن كانت في الأصل لكل ما دب، فقد يكون بالتعميم والتعدي مثل تسمية الرجل الشجاع أسداً نقلاً لهذا الاسم من موصوف بالشجاعة مخصوص وهو الحيوان المعروف، إلى كل موصوف بتلك الصفة غير مقصورة على محلها الأصلي.

(٢) قال السمين الحلبي: وهذا منه ليس بصواب؛ لثبوت هذه القراءة تواتراً، وللقراء في نحو هذه الآية عمل كثير وتفصيل منتشر. انتهى. الدر المصون.

التخفيف؛ لأن طريق تخفيف الهمزة المتحرّكة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين؛ فأما القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس، والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي، فإن قلت: ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ قلت: إمّا أن يكون جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبراً لإنّ والجملة قبلها اعتراض.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

الختم والكتم أخوان؛ لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتماً له وتغطية لئلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه.

والغشاوة: الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه، وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة. فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية[1] ثَمّ على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز[2]، ويحتمل أن

= قوله «وخويصة» مسلم من رواية زياد بن رباح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «بادروا بالأعمال ستًّا...» فذكره وفيه: «وخويصة أحدكم» انتهى.

---

(١) قوله «لا ختم ولا تغشية» ولا تغطية.

(٢) قوله ـ سبحانه ـ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾... الآية فيها: أن ذلك من «باب المجاز».

كلام البلاغيين في هذا محدود دقيق خصوصاً لدى العلامة السكاكي، فالمجاز عندهم: إما مفرد وإما مركب فالمفرد هو: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب مع علاقة تصحح هذا الاستعمال وقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.

ثم يقسم هذا المجاز إلى:

١ ـ مرسل بعلاقة غير المشابهة، ولهذا له علاقات كثيرة بحسب الوشائج التي بين اللفظ والمعنى المستعمل فيه كالسببية والمسببية وغير ذلك.

٢ ـ استعارة بعلاقة المشابهة ولها أقسام عديدة تراجع في محلها من كتب البلاغيين.

وأما المركب فهو استعمال اللفظ المركب أي جملة من الكلام فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيهاً تمثيلياً مبالغة في التشبيه قال صاحب الإيضاح شارحا هذا التحديد:

«أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه به مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه».

وللتمثيل صور شتى ومبالغات ثرة ومنه ما كتب به الوليد بن زيد لما بويع إلى مروان بن محمد ـ وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له: «أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام».

وفي الآية «ختم الله على قلوبهم....» الآية تستطيع أن تجعل القصد إلى الاستعارة أو التمثيل كما بين المفسر ـ رحمه الله ـ تعالى ـ «تراجع الإيضاح ١٠٨/٥، ١٠٩ والمفتاح ١٦٨، ١٧٧، ١٧٨».

يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل، أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة، ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين، كأنما غطى عليها وحجبت، وحيل بينها وبين/ ١٥أ الإدراك، وأمّا التمثيل، فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية، وقد جعل بعض المازنيين الحُبْسَةَ في اللسان والعيّ خَتْماً عليه، فقال: [من الكامل]

خَتَمَ الإِلٰهُ عَلى لِسَانِ عُذَافِرِ ... خَتْماً فَلَيْسَ عَلى الكَلامِ بِقَادِرِ
وإِذَا أَرَادَ النُّطْقَ خِلْتَ لِسَانَهُ ... لَحْماً يُحَرِّكُهُ لِصَقْرٍ نَاقِرِ[(١)]

فإن قلت: فلم أسند الختم إلى الله تعالى[(٢)]، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول

---

(١) لرجل من فزارة واستعار الختم المانع من زيادة الكتاب ونقصه للمنع من الكلام. وعذافر ـ بالضم ـ اسم رجل. ويطلق على الشديد العظيم، وعلى الأسد. والبيت معناه الإخبار عن حال عذافر، وهو الظاهر من التفريع ويبعد أنه دعاء عليه. وفاعل يحرك لعذافر. شبه لسانه باللحم الذي ينقره الصقر بجامع تحرك كل بغير استقامة مع عدم التلفظ، وهذا مما يدل على أن البيت إخبار لا دعاء.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت فلم أسند الختم إلى الله تعالى. . . إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: هذا أول عشواء خبطها في مهواة من الأهواء هبطها، حيث نزل من منصة النص إلى حضيض تأويله؛ إبتغاء الفتنة استبقاء لما كتب عليه من المحنة، فانطوى كلامه هذا على ضلالات أعدها وأردها:
الأولى: مخالفة دليل العقل على وحدانية الله تعالى. ومقتضاه أنه لا حادث إلا بقدرة الله تعالى لا شريك له، والامتناع من قبول الحق من جملة الحوادث؛ فوجب انتظامه في سلك متعلقات القدرة العامة المتعلق بالكائنات والممكنات.
الثانية: مخالفة دليل النقل المضاهي لدليل العقل كأمثال قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ وهذه الآية أيضاً؛ فإن الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصاً. والزمخشري رحمه الله لا يأبى ذلك، ولكنه يدعي الالتجاء إلى تأويلها لدليل قام عنده عليه. فإذا أثبت أن الدليل العقلي على وفق ما دلت عليه، وجب عليه إبقاؤها على ظاهرها بل لو وردت على خِلاف ذلك ظاهراً، لوجب تأويلها بالدليل جمعاً بين العقل والنقل.
الثالثة: الفرار من نسبة ما اعتقده قبحاً إلى الله تعالى تنزيهاً، على زعمه أن الإشراك به في اعتقاد أن الشيطان هو الذي يخلق الختم والكافر يخلقه لنفسه بقدرته على خلاف مراد ربه. فلقد استوخم من السنّة المناهل العذاب وورد من حميم البِدعة موارد العذاب.
الرابعة: الغلط باعتقاد أن ما يقبح شاهداً يقبح غائباً، فلما كان المنع من قبول الحق قبيحاً في الشاهد وجب على زعمه أن يكون قبيحاً مِن الغائب. وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها في فنها.
الخامسة: اعتقاده أن ذلك لو فُرِض وجوده بقدرة الله تعالى لكان ظلماً، والله تعالى منزّه عن الظلم =

الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح(١) علواً كبيراً لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه؛ وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟ قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها،

= بقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ومن الظلم البين جهل حقيقة الظلم؛ فإنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه. فكيف يتصور ثبوت حقيقته للّه تعالى؟ وكل مفروض محصور بسور ملكه عزَّ وجل: المُلك للّه الواحد القهار.

السادسة: أنه فر من اعتقاد نسبة الظلم إلى اللّه تعالى فتورّط فيه إلى عنقه؛ لأنه قد جزم بأن المنع مِن قبول الحق لو كان مِن فِعل اللّه تعالى لكان ظلماً. فيقال له: وقد قام البرهان على أنه مِن فعل اللّه تعالى فيلزمك أن يكون ظلماً ـ تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ

والخيال الذي يدندن حوله هؤلاء: أن أفعال العبد لو كانت مخلوقة للّه تعالى لما نعاها على عباده ولا عاقبهم ولا قامت حجة اللّه عليهم. وهذه الشبه قد أجراها في أدراج كلامه المتقدم، فيقال لهم: لِمَ قلتم إنها لو كانت مخلوقة للّه لَما نعاها على عباده؟ فإن أسندوا هذه الملازمة ـ وكذلك يفعلون ـ إلى قاعدة التحسين والتقبيح وقالوا: معاقبة الإنسان بفعل غيره قبيحة في الشاهد لا سيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل فيلزم طرد ذلك غائباً. قيل لهم: ويقبح في الشاهد أيضاً أن يمكن الإنسان عبده من القبائح والفواحش بمرأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك من القدرة على ردعه ورده من الأول عنها. وأنتم معاشر القدرية تزعمون أن القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة للّه تعالى، على علم منه عزَّ وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك، فهو بمثابة إعطاء سيف باتر لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل ويسبي به الحريم، وذلك في الشاهد قبيح جزماً. فسيقولون: أجل إنه لقبيح في الشاهد، ولكن هناك حكمة استأثر اللّه تعالى بعلمها فرقت بين الشاهد والغائب، فحسن من الغائب تمكين عبده من الفواحش مع القدرة على أن لا يقع منه شيء، ولم يحسن ذلك في الشاهد. وفي هذا الموطن تتزلزل أقدامهم وتتنكّس أعلامهم، إذا لاحت لهم قواطع اليقين وبوارق البراهين؛ فيُقال لهم: ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة للّه تعالى ويعاقَب العبد عليها لمصلحة وحكمة استأثر اللّه بها كما فرغتم منه الآن سواء؟ فلمَ لا يسلك أحدكم الطريق الأعدل وينظر عاقبة هذا الأمر فيصير آخر أول، وليفوض من الابتداء إلى خالقه، ويتلقى حجة اللّه تعالى عليه بالقبول والتسليم، ويسلك مهتدياً بنور العقل ومقتدياً بدليل الشرع الصراط المستقيم؛ فإن نازعتْه النفس وحادثته الهواجس ورغب في مستند من حيث النظر يأنس به من مفاوز الفكر، فليخطر بباله ما ذُكر عند كل عاقل من التمييز بين الحركة الاختيارية والقسرية، فلا يجد عنده في هذه التفرقة ريباً. فإذا استشعر ذلك فلينتبه فقد لطف به إلى أن انحرف عن مضايق الجبر، فاراً أن يلوح به شيطان الضلال إلى مهامه الاعتزال، فليمسك نفسه دونها بزمام دليل الوحدانية على أن لا فاعل ولا خالق إلا اللّه تعالى، فإذا وقف لم يقف إلا وهو على الصراط المستقيم والطريقة المثلى، ماراً عليها في أسرع من البرق الخاطف والريح العاصف. فليتأمّل الناظر هذا الفصل، ويتخذه وزره في قاعدة الأفعال، يقف على الحق إن شاء اللّه تعالى.

(١) قوله «واللّه يتعالى عن فعل القبيح» هذا مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنّة فيجوز عليه تعالى خلق الشر وإرادته كالخير، وإن كان لا يأمر إلا بالخير. والختم على القلوب عندهم خلق الضلال فيها كما بين في علم التوحيد. (ع)

وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل، فلينبه على أنّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي، ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه، وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار، شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم؟ ويجوز أن تضرب الجملة كما هي، وهي ختم الله على قلوبهم مثلاً كقولهم: سال به الوادي، إذا هلك، وطارت به العنقاء، إذا أطال الغيبة، وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته؛ وإنما هو تمثيل مثلت حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء؛ فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغتام[1] التي هي في خلوّها عن الفطن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدّر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه، وليس له عزّ وجلّ فعل في تجافيها عن الحق ونبوّها عن قبوله، وهو متعال عن ذلك، ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله لله، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز، وهو لغيره حقيقة، تفسير هذا: أنّ للفعل ملابسات شتى، يلابس الفاعل والمفعول به، والمصدر، والزمان والمكان، والمسبَّب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة؛ وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جراءته فيستعار له اسمه، فيقال في المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق، وفي عكسه: سيل مُفْعَم[2]. وفي المصدر: شعر شاعر، وذيل ذائل، وفي الزمان: نهاره صائم، وليله قائم، وفي المكان: طريق سائر، ونهر جار، وأهل مكة يقولون: صلى المقام، وفي المسبَّب: بنى الأمير المدينة، وناقة ضبوث/ ١٥ب[3] وحلوب، وقال: [من الطويل]

.... إِذَا رَدَّ عَافِي الْقِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا[4]

---

(١) قوله «نحو قلوب الأغتام» الذي في الصحاح: الغتمة العجمة، والأغتم الأعجم الذي لا يفصح شيئاً، والجمع غتم. (ع)

(٢) قوله «سيل مفعم» في الصحاح: أفعمت الإناء ملأته، وفيه أيضاً: ذيل ذائل، وهو الهوان والخزي. (ع)

(٣) قوله «وناقة ضبوث» في الصحاح: ناقة ضبوث، يشك في سمنها فتضبث، أي تجس باليد. (ع)

(٤) فلا تسأليني واسألي عن خليقتي إذا رد عافي القدر من يستعيرها
فكانوا قعوداً فوقها يرقبونها وكانت فتاة الحي ممن يعيرها

لعرب بن الأحوص الباهلي. وقيل: للكميت. يقول: فلا تسأليني عن طبيعتي واسألي غيري عنها، وقت أن يمنع عافي القدر ـ أي طالب الرزق الذي فيها ـ مَن يستعيرها ليطبخ فيها. وإسناد الرد للعافي مجاز عقلي؛ لأن المانع في الحقيقة هو صاحب القدر بسبب طالب الرزق، ولم يسنده إلى نفسه تبرءاً من نسبة الرد إليها، إلا أن يراد جنس القدر لا قدره هو فقط؛ فالمعنى: إذا أجدب =

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر؛ إلا أنّ الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه، أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبِّب.

ووجه رابع: وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغنى عنهم الآيات والنذر، ولا تجدى عليهم الألطاف المحصلة ولا المقربة إن أُعْطُوهَا، لم يبق ـ بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعاً واختياراً ـ طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإلجاء، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسرهم الله ويلجئهم، ثم لم يقسرهم ولم يلجئهم؛ لئلا ينتقض الغرض في التكليف، عبر عن ترك القسر والإلجاء بالختم؛ إشعاراً بأنهم الذين ترامى أمرهم في التصميم على الكفر والإصرار عليه إلى حدّ لا يتناهون عنه إلا بالقسر والإلجاء، وهي الغاية القصوى في وصف لجاجهم في الغي واستشرائهم في الضلال والبغي.

ووجه خامس: وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه تهكماً بهم من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] ونظيره في الحكاية والتهكم قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: ١] فإن قلت: اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم وفي حكم التغشية[(١)] فعلى أيهما يعوّل؟ قلت: على دخولها في حكم الختم؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم، فإن قلت: أيّ فائدة في تكرير الجارّ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ

= الزمان على ما سيأتي. وجمع الضمير في قوله «فكانوا» لأن العافي متعدد في المعنى: أي فكأن العفاة قاعدين حولها ينتظرون نضج ما فيها. وكانت فتاة الحي ـ يعني حية ـ من جملة مَن يعير القدر. ويجوز أن ضمير «كانوا» لمَن يستعيرها. ويحتمل أن «عافي القدر» بقية ما كان فيها مِن المرق، والإسناد مجازي أيضاً على معنى أنَّ مَن يستعيرها يجدها مشغولة، وهو دليل على كثرة طبخه للضيفان. ويجوز أن المراد أن الحالة جدب حتى أن صاحب القدر يرد المستعير حرصاً على ما فيها مِن بقية المرق ولو قليلة؛ فضمير «كانوا» لمَن يستعيرها ويجوز أن عافي القدر: مفعول لم يظهر نصبه للوزن، و «مَن يستعيرها» فاعل؛ لأنه كان مِن عادة العرب في الجدب أنَّ يرد المستعير بقية مِن المرق في القدر للمعير، فهو كناية عن الجدب؛ لكن لا تتم مناسبة لِما بعده: ويجوز أن يكون المعنى إذا منع مستعير القدر عافيها أي طالب الرزق منها ولبخله وعدم نزول الضيفان عنده، لا يملك لنفسه قدراً، فإذا استعار قدراً ليطبخ فيها مرة منع طالب الرزق منها. وعلى هذا يحتمل أنه جمع حذفت نونه للإضافة فنصبه بالياء، فهذه أربعة وجوه.

ينظر ديوان (٣٧١)، والدر المصون ١/ ٤٢٤.

(١) قال محمود رحمه الله: «اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة حكم الختم، وفي حكم التغشية... إلخ»، قال أحمد رحمه الله وكان جدي رحمه الله يذكر هذا ويزيد عليه أن الأسماع والقلوب لما كانت محوية كان استعمال الختم لها أوْلى، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلّق بظاهرها كان الغشاء لها أليَق.

سَمۡعِهِۦ﴾؟ [الجاثية: ٢٣] قلت: لو لم يكرّر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة؛ وحين استجدّ للأسماع تعدية على حدة، كان أدل على شدة الختم في الموضعين، ووحد السمع كما وحد البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تعفوا، يفعلون ذلك إذا أمن اللبس، فإذا لم يؤمن؛ كقولك: فرسهم، وثوبهم، وأنت تريد الجمع رفضوه، ولك أن تقول: السمع مصدر في أصله، والمصادر لا تجمع، فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن في قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ﴾ [فصلت: ٥] وأن تقدّر مضافاً محذوفاً: أي وعلى حواس سمعهم، وقرأ ابن أبي عبلة: وعلى أسماعهم، فإن قلت: هلا منع أبا عمرو والكسائي من إمالة أبصارهم ما فيه من حرف الاستعلاء وهو الصاد؟ قلت: لأنّ الراء المكسورة تغلب المستعلية، لما فيه من التكرير كأن فيها كسرتين، وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لا يمال، والبصر نور العين، وهو ما يبصر به الرائي ويدرك المرئيات، كما أن البصيرة نور القلب، وهو ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله فيهما آلتين للإبصار والاستبصار.

وقرىء: ﴿غِشاوة﴾ بالكسر والنصب، وغُشاوةٌ: بالضم والرفع، وغَشاوةً: بالفتح والنصب، وغِشوةٌ: بالكسر والرفع، وغَشوة: بالفتح والرفع والنصب، وعشاوةٌ: بالعين غير المعجمة/ ١٦أ والرفع، من العشا.

والعذاب: مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول: أعذب عن الشيء، إذا أمسك عنه، كما تقول: نكل عنه، ومنه العذب؛ لأنه يقمع العطش ويردعه، بخلاف الملح فإنه يزيده، ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخاً؛ لأنه ينقخ العطش أي يكسره، وفراتاً؛ لأنه يرفته على القلب. ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذاباً، وإن لم يكن نكالاً ـ أي عقاباً يرتدع به الجاني عن المعاودة.

والفرق بين العظيم والكبير، أن العظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير، كما أن الحقير دون الصغير، ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً، تقول: رجل عظيم وكبير، تريد جثته أو خطره، ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

اللَّهم أجرنا من عذابك ولا تبلنا بسخطك يا واسع المغفرة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم علنهم وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وسماهم المنافقين، وكانوا أخبث الكفرة، وأبغضهم إليه، وأمقتهم عنده؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً، وبالشرك استهزاء وخداعاً؛ ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم، وفضحهم وسفههم، واستجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل بطغيانهم وعمههم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة، وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة.

وأصل (ناس): أناس، حذفت همزته تخفيفاً كما قيل: لوقة، في ألوقة[١]، وحذفها مع لام التعريف كاللازم لا يكاد يقال الأناس، ويشهد لأصله إنسان، وأناس وأناسى، وإنس، وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما سمي الجنّ لاجتنانهم، ولذلك سموا بشراً، ووزن ناس فعال؛ لأن الزنة على الأصول، ألا تراك تقول في وزن: «قه» افعل، وليس معك إلا العين وحدها؟! وهو من أسماء الجمع كرخال[٢]، وأما نويس فمن المصغر الآتي على خلاف مكبرهِ كأنيسيان ورويجل، ولام التعريف فيه للجنس، ويجوز أن تكون للعهد، والإشارة إلى الذين كفروا المارّ ذكرهم؛ كأنه قيل: ومن هؤلاء من يقول، وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه، ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق، ونظير موقعه موقع القوم في قولك: نزلت ببني فلان فلم يقروني والقوم لئام.

و«من» في: ﴿مَن يَقُولُ﴾: موصوفة، كأنه قيل: ومن الناس ناس يقولون كذا، كقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، إن جعلت اللام للجنس، وإن جعلتها للعهد فموصولة[٣]، كقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ/ ١٦ب يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التوبة: ٦١]. فإن قلت: كيف

---

(١) قوله «كما قيل لوقة في ألوِقة» اللوقة والألوِقة: الزبدة، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «من أسماء الجمع كرخال» الرخل ـ بالكسر ـ: الأنثى مِن ولد الضأن، والجمع رخال بالكسر، وبالضم كذا في الصحاح. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: وكأنه قصد مناسبة الجنس للجنس والعهد للعهد، إلا أن هذا الذي قاله غير لازم، بل يجوز أن تكون «أل» للجنس، وتكون «من» موصولة وللعهد، ومن نكرة موصوفة، وزعم الكسائي أنها لا تكون إلا في موضع تختص به النكرة؛ كقوله [من الرمل]:

رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظاً قَلْبَهُ ... قَدْ تَمَنَّى لِيَ مَوْتاً لَمْ يُطَعْ =

يجعلون بعض أولئك، والمنافقون غير المختوم على قلوبهم؟ قلت: الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً، وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا الجنس ـ مغايراً للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء ـ لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس؛ فإن الأجناس إنما تنوّعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض، وتلك المغايرات إنما تأتي بالنوعية ولا تأبى الدخول تحت الجنسية، فإن قلت: لم اختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر؟ قلت: اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم في الخبث وتماديهم في الدعارة؛ لأن القوم كانوا يهوداً، وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان؛ لقولهم: ﴿عُـزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكذلك إيمانهم باليوم الآخر؛ لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته، فكان قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨] خبثاً مضاعفاً وكفراً موجهاً، لأن قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم، فهو كفر لا إيمان، فإذا قالوه على وجه النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم، وأروهم أنهم مثلهم في الإيمان الحقيقي، كان خبثاً إلى خبث، وكفراً إلى كفر، ـ وأيضاً ـ فقد أوهموا في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان[1] من جانبيه، واكتنفوه من قطريه، وأحاطوا بأوّله وآخره، وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام، فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، والأول: في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني: في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت: القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه، فسلك في ذلك طريق أدّى إلى الغرض المطلوب، وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، هو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها، فإن قلت: فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأوّل؟ قلت: يحتمل أن يراد التقييد

= وهذا الذي قاله هو الأكثر، إلا أنها قد جاءت في موضع لا تختص به النكرة قال [من الكامل]:

فَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا ....

و«من» تكون موصولة ونكرة موصوفة كما تقدم، وشرطية واستفهامية، وهل تقع نكرة غير موصوفة أو زائدة؟ خلاف، واستدل الكسائي على زيادتها بقول عنترة [من الكامل]:

يَا شَاةُ مَنْ قَنصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ   حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

ولا دليل فيه؛ لجواز أن تكون موصوفة بـ«قنص»: إما على المبالغة أو على حذف مضاف. انتهى. الدر.

(١) قوله: «اختاروا الإيمان» لعله احتازوا ـ بالحاء المهملة والزاي ـ كما في عبارة البيضاوي. (ع)

ويترك لدلالة المذكور عليه، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر، ولا من الإيمان بغيرهما، فإن قلت: ما المراد باليوم الآخر؟ قلت: يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حدّ له وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع؛ لتأخره عن الأوقات المنقضية، وأن يراد الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار؛ لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي/ ١٧أ لا حدّ للوقت بعده.

والخدع: أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه، من قولهم: ضب خادع وخدع، إذا أمر الحارش يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر، فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح[1]؛ لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع، والمؤمنون وإن جاز أن يُخْدَعُوا

---

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: هذا الفصل مِن كلام الزمخشري جمعَ فيه الغث والسمين، ونحن ننبّه على ما فيه من الزبد، ليتم للناظر أخذ ما فيه مِن السنة، آمناً مِن التورُّط في وضر البدعة، مستعينين بالله وهو خير معين. فما خالف فيه السنة قوله: إنَّ الله تعالى عالم بذاته، يريد لا يعلم. وهذا مما وسمت به المعتزلة في المقدمة من أنهم يجحدون صفات الكمال الإلهي، يبغون بذلك زعمهم التوحيد والتنزيه. ومعتقد أهل السنة أن الله تعالى عالِم بعلم قديم أزلي، متعلّق بكل معلوم واجب أو ممكن أو مستحيل ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. وحسبك هذه الآية مصدقة لمعتقدهم في ثبوت صفة العلم له تعالى وفي عموم تعلقه بالكليات والجزئيات إلى ما وراءها من البراهين الكلامية على ذلك. ولسنا بصدد ذكرها في هذا الكتاب. ومما خالف فيه السنة: اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مخلوقاً لله تعالى؛ لأنه قبيح على زعمه كالمفهوم من الخداع في هذه الآية. وما جرّه إلى هاتين النزغتين إلا اعتقاده أنه لا يتم استحالة كونه تعالى مخدوعاً، إلا بأنه عالم بذاته حتى تعم عالميته كل كائن فلا يخدع؛ إذ نسبة الذات إلى الكائنات نسبة واحدة، ولا يتم استحالة كونه تعالى خادعاً إلا باستحالة صدور بعض الكائنات عنه لأنه قبيح على زعمهم. ولقد وقف هذا التنزيه على ما لا توقف عليه ولا شرط فيه: فنحن معاشر أهل السنّة نعتقد أن الله تعالى عالِم بعلم، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعاً؛ لأن علمه عندنا عام التعلق كما وصفنا. ونعتقد أنه لا يصدر كائن في الوجود إلا عن قدرته لا غير، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله تعالى لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز عن المكافحة وإظهار المكتوم. هذا هو الموهوم منه في الإطلاق، ولكن حيث أطلقه تعالى مقابلاً لما ذكره مِن خداع المنافقين كمقابلة المكر بمكرهم، علمنا أن المراد منه أنه فعل معهم فعلاً سمّاه خداعاً مقابلة ومشاكلة؛ وإلا فهو قادر على هتك سَتْرِهِم وإنزال العذاب بهم رأي العين فهذا مُعْتَقَد أهل السنّة في هذا الآية وأمثالها لا كالزمخشري وشيعته الذين يزعمون أنهم يوحدون فيجحدون، وينزهون فيشركون. والله الموفق للحق. وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم وأصدق شاهد في أنه مجاز نفيه بعقب إثباته في قوله ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ففي هذه التتمة نفي احتمال الحقيقة حتى تتعين جهة المجاز. ومما عدّه البيانيون من أدلة المجاز صدق نفيه فتأمّل هذا الفصل فله على سائر الفصول الفضل.

لم يجز أن يَخْدَعُوا، ألا ترى إلى قوله: [من البسيط]

وَٱسْتَمْطَرُوا مِنْ قُرَيْشٍ كُلَّ مُنْخَدِعٍ[1] ....

وقول ذي الرمّة [من البسيط]:

.... إنَّ الحَلِيمَ وذَا الإِسْلَامِ يُخْتَلَبُ[2]

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع، قلت: فيه وجوه، أحدها: أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون، صورة صنع الخادعين، وصورة صنع الله معهم ـ حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار ـ صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم، والثاني: أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه؛ لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته، ولا أن لذاته تعلقاً بكل معلوم، ولا أنه غنى عن فعل

---

(1) واستمطروا من قُرَيْش كل منخدع ... إن الكريم إذا خادعته انخدعا

كانت العرب إذا أصابها جدب فزعت إلى قُرَيْش ليستسقوا لهم، لأنهم ولاة البيت وحماة حرَمِه، كما فعل قوم عاد لما قحطوا. وكذلك استسقى عمر بالعباس عم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم. واستسقى أبو سفيان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأجابه واستسقى له مع ما كان بينهما من العداوة. يقول: طلب القوم من كل منخدع من قُرَيْش المطر: أي أن يطلب لهم المطر. وقال السيد: واستمطروا، أي استقوا وطلبوا، فأفاد أنه على صيغة الأمر. وفي الصحاح: أي سلوه أن يعطي كالمطر مثلاً، وهو يؤيِّد كلام السيد. ويجوز تشبيه كل منخدع من قُرَيْش بالسحاب على سبيل المكنية، فيطلب منه المطر. والمنخدع المغلوب لكرمه، وبينه قوله: إن الكريم. ويروى البيت هكذا

لا خير في الحب لا ترجى نوافله ... فاستمطروا من قُرَيْش كل منخدع

ويروى «من فريق» بدل «قُرَيْش». وقوله: «لا ترجى . . . إلخ» جملة حالية للحب. وفريق بعينه من الحجاز.

البيت للفرزدق، ينظر لسان العرب (مطر)، وديوان الأدب (٢/ ٤٣١)، وليس في ديوانه، ولأبي دهبل الجمحي في ديوانه ص ٥٨، وتاج العروس (مطر).

(2) تزداد للعين إبهاجاً إذا سفرت ... وتخرج العين فيها حين تنتقب

تلك الفتاة التي علقتها عرضاً ... إن الحليم وذا الإسلام يختلب

لذي الرمة في محبوبته مي. وسفرت المرأة: كشفت عن وجهها. وروي: إسفاراً، بدل إبهاجاً. والمراد أن إبهاجها بسفرها لعيني يزداد إذا كشفت عن وجهها. وخرجت العين ـ كتعبت ـ حارت. وروي «منها» بدل «فيها» أي من أجلها. وتنتقب: أي تُرسل النقاب على وجهها. وعرضاً أي مِن غير قصد ولا شعور. وخلب ـ من باب قتل ـ: خدع أي هي الشابة التي اعترضني حبها حيث لا أشعر. ثم تسلى بأن العاقل المسلم كثيراً ما ينخدع.

ينظر ديوانه ص (٦) وفيه الكريم بدل الحليم.

القبائح؛ فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله في زعمه مخدوعاً ومصاباً بالمكروه من وجه خفي، وتجويز أن يدلس على عباده ويخدعهم، والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول ﷺ؛ لأنه خليفته في أرضه، والناطق عنه بأوامره ونواهيه مع عباده، كما يقال: قال الملك كذا ورسم كذا؛ وإنما القائل والراسم وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه، مصداقه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، والرابع: أن يكون من قولهم: أعجبني زيد وكرمه، فيكون المعنى يخادعون الذين آمنوا بالله، وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص، ولما كان المؤمنون من الله بمكان، سلك بهم ذلك المسلك، ومثله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وكذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(١) [الأحزاب: ٥٧]، ونظيره في كلامهم: علمت زيداً فاضلاً، والغرض فيه ذكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه؛ لأنه كان معلوماً له قديماً؛ كأنه قيل: علمت فضل زيد؛ ولكن ذكر زيد توطئة وتمهيد لذكر فضله، فإن قلت: هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟ قلت: وجهه أن يقال: عنى به «فعلت» إلا أنه أخرج في زنة: «فاعلت»؛ لأن الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبار لزيادة قوة الداعي إليه، ويعضده قراءة من قرأ: ﴿يَخْدَعُونَ ٱللهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهو أبو حيوة، و: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: بيان ليقول، ويجوز أن يكون مستأنفاً كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين وما/ ١٧ب رفقهم في ذلك؟ فقيل: يخادعون، فإن قلت: عمّ كانوا يخادعون؟ قلت: كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإعفاؤهم عن المحاربة وعما كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار، ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغانم، ونحو ذلك من الفوائد، ومنها اطلاعهم ـ لاختلاطهم

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا منه غير مرض؛ لأنه إذا صح نسبة مخادعتهم إلى الله تعالى بالأوجه المتقدمة فلا ضرورة تدعوا إلى ادعاء زيادة اسم الله تعالى، وأما «أعجبني زيد وكرمه» فإن الإعجاب أسند إلى زيد بجملته، ثم عطف عليه بعض صفاته تمييزاً لهذه الصفة من بين سائر الصفات للشرف، فصار من حيث المعنى نظيراً لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وفَاعَلَ له معانٍ خمسةٌ: المشاركةُ المعنويةُ نحو: «ضاربَ زيدٌ عمراً» وموافقةُ المجرد نحو: «جاوَزْتُ زيداً» أي جُزْتُه، وموافقةُ أَفْعَل متعدياً نحو: «باعَدْتُ زيداً وأَبعدته»، والإغناءُ عن أَفْعَل نحو: «وارَيْتُ الشيءَ»، وعن المجردِ نحو: سافَرْت وقاسَيْت وعاقَبْت، والآيةُ فيها فاعَلَ يحتمل المعنيين الأَوَّلَيْن: أمّا المشاركةُ فالمخادعةُ منهم لله تعالى تقدَّم معناها، ومخادعةُ الله إياهم من حيث إنه أجرى عليهم أَحكامَ المسلمين في الدنيا، ومخادعةُ المؤمنين لهم كونُهم امتثلوا أمرَ الله تعالى فيهم، وأمَّا كونهُ بمعنى المجرد فيبيِّنه قراءةُ ابن مسعود وأبي حيوة: «يَخْدَعون» انتهى. الدر المصون.

بهم ـ على الأسرار التي كانوا حراصاً على إذاعتها إلى منابذيهم، فإن قلت: فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخداعهم عنها؟ قلت: لم يظهر عليهم لما أحاط به علماً من المصالح التي لو أظهر عليهم لانقلبت مفاسد واستبقاء إبليس وذرّيته ومتاركتهم، وما هم عليه من إغواء المنافقين وتلقينهم النفاق أشدّ من ذلك، ولكن السبب فيه ما علمه تعالى من المصلحة، فإن قلت: ما المراد بقوله: «وما يخادعون إلا أنفسهم»؟ قلت: يجوز أن يراد: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم؛ لأن ضررها يلحقهم، ومكرها يحيق بهم، كما تقول: فلان يضارّ فلاناً وما يضارّ إلا نفسه، أي: دائرة الضرار راجعة إليه وغير متخطية إياه، وأن يراد حقيقة المخادعة أي: وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به، وأنفسهم كذلك تمنيهم وتحدّثهم بالأماني وأن يراد: وما يخدعون، فجيء به على لفظ: «يفاعلون» للمبالغة، وقرىء: «وما يخدعون»، ويخدعون من خدع، ويخدعون ـ بفتح الياء ـ بمعنى يختدعون، ويُخدعون، ويُخادَعون على لفظ ما لم يسم فاعله، والنفس: ذات الشيء وحقيقته، يقال: عندي كذا نفساً، ثم قيل للقلب: نفس؛ لأن النفس به؛ ألا ترى إلى قولهم: المرء بأصغريه، وكذلك بمعنى الروح، وللدم نفس؛ لأن قوامها بالدم، وللماء نفس؛ لفرط حاجتها إليه، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وحقيقة نفس الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه، كقولهم: فلان يؤامر نفسيه ـ إذا تردّد في الأمر اتجه له رأيان وداعيان لا يدري على أيهما يعرج، كأنهم أرادوا داعي النفس، وهاجس النفس فسموهما: نفسين، إما لصدورهما عن النفس، وإما لأن الداعيين لما كانا كالمشيرين عليه والآمرين له، شبهوهما بذاتين فسموهما نفسين، والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم، والمعنى بمخادعتهم ذواتهم: أن الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى من سواهم، ويجوز أن يراد قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم.

والشعور علم الشيء علم حس[1] من الشعار، ومشاعر الإنسان: حواسه، والمعنى: أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حسّ له.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول: في جوفه مرض، والمجاز/١٨أ أن يستعار لبعض أعراض القلب، كسوء الاعتقاد، والغل، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى،

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «والشعور علم الشيء علم حس... إلخ». قال أحمد رحمه الله: إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور كما قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس إلخ: أنه لما كانت مفسدة النفاق عائدة على المنافق عوداً بيناً جلياً محسوساً. نعى عليهم جهلهم بالمحسوس فنفى شعورهم به ولا كذلك معرفة الحق وتميزه عن الباطل فإنه أمر عقلي نظري.

والجبن، والضعف، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك، والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر، أو من الغل والحسد والبغضاء؛ لأن صدورهم كانت تغلى على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلا وحنقاً ويبغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] ويتحرقون عليهم حسداً ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وناهيك مما كان[1] من ابن أبيّ وقول سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ: «اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله، لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصابة، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك» (٢١)، أو يراد ما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور، لأن قلوبهم كانت قوية، إما لقوة طمعهم فيما كانوا يتحدثون به: أن ريح الإسلام تهب حيناً ثم تسكن ولواءه يخفق أياماً ثم يقرّ، فضعفت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله، وإما لجراءتهم وجسارتهم في الحروب فضعفت جبناً وخوراً[2] حين قذف الله في قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة، قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» (٢٢)، ومعنى زيادة الله

---

٢١ ـ أخرجه البخاري (١٢/ ٢٣٥): كتاب الأدب: باب كنية المشرك، (٦٢٠٧)، وأخرجه أيضاً في (٥/ ١٥٣) كتاب الجهاد: باب الردف على الحمار (٢٩٨٧) مختصراً وأيضاً في (١١/ ٥٩٧) كتاب اللباس: باب الارتداف على الدابة، حديث (٥٩٦٤) مختصراً.
ومسلم (٦/ ٣٩٨) كتاب الجهاد والسير: باب في دعاء النبي ـ ﷺ ـ وصبره، حديث (١٧٩٨) والترمذي (٥/ ٦١): كتاب الاستئذان: باب ما جاء في: السلام على مجلس فيه المسلمون وغيرهم، حديث (٢٧٠٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٦): كتاب الطب: باب عيادة المريض راكباً مردفاً على الدابة، حديث (٧٥٠٢) وأحمد (٥/ ٢٠٣) وعبد الرزاق (٥/ ٤٩٠) حديث (٩٧٨٤).
كلهم من طريق، ابن شهاب الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد به.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
متفق عليه من رواية عروة عن أسامة بن زيد، أن رسول الله ـ ﷺ ـ ركب على حمار على قطيفة فركبه، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة. فذكره مطولاً. انتهى.

٢٢ ـ أخرجه البخاري (١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦) كتاب التيمم حديث (٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١) كتاب المساجد حديث (٣/ ٥٢١).
من حديث جابر وله شواهد سيأتي تخريجها في موضعها.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
متفق عليه من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

---

(١) قوله: «وناهيك مما كان» لعله: بما كان. (ع)
(٢) قوله: «جبناً وخوراً» الخور بالتحريك: الضعف كما في الصحاح. (ع)

إياهم مرضاً أنه كلما أنزل على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، فكأن الله هو الذي زادهم ما ازدادوه إسناداً للفعل إلى المسبب له، كما أسنده إلى السورة في قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لكونها سبباً، أو كلما زاد رسوله نصرة وتبسطاً في البلاد ونقصاً من أطراف الأرض ازدادوا حسداً وغلا وبغضاً، وازدادت قلوبهم ضعفاً وقلة طمع فيما عقدوا به رجاءهم وجبناً وخوراً، ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع، وقرأ أبو عمرو في رواية الأصمعي: مرْض، ومرْضاً، بسكون الراء:

يقال: أَلِمَ فهو ﴿أَلِيمٌ﴾ كَوَجِع فهو وَجِيع؛ ووصف العَذَابُ به، نَحْو قوله: [من الوافر]

.... تَـحِـيَّـةُ بَـيْـنَـهُـمْ ضَـرْبٌ وَجِـيـعُ[١]

وهذا على طريقة قولهم: جدّ جدّه، والألم في الحقيقة للمؤلم كما أنّ الجدّ للجادّ.

والمراد بكذبهم قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته، وتخييل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم، ونحوه قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح: ٢٥]، والقوم كفرة؛ وإنما خصت الخطيئات استعظاماً لها وتنفيراً عن ارتكابها، والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو قبيح كله،

---

(١) أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع
وسوق كتيبة دلفت لأخرى ... كأن زهاءها رأس صليع
وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع

لعمرو بن معد يكرب صاحب ريحانة أخت دُريد بن الصمة، التمس منه زواجها فأجابه ومطله، وقيل: ريحانة اسم موضع بعينه. والسميع: المسمع على اسم المفعول، أو المسموع. أو المسمع على اسم الفاعل، أو السامع وأصل فعيل أن يكون بمعنى فاعل كعليم. وكذا ما جاء بمعنى مفعول كجريح وقتيل. وندر من الرباعي بمعنى مفعل اسم فاعل كوجيع، وبمعنى مفعل اسم مفعول كسميع بمعنى مسمع اسم مفعول. وكثُر سماعاً بمعنى مفاعل كجليس وشريك. وسميع: مبتدأ، خبره يؤرقني أي هل داعي الشوق من ريحانة يسهرني والحال أنّ أصحابي نيام؟ والاستفهام للتعجب «وسوق كتيبة» عطف على الداعي أو على ضمير يؤرقني. والكتيبة: الجماعة المنضمة المنتظمة. ودلف دلفاً من باب تعب مشى بتؤدة. وقيل تقدم وأسرع. كأن زهاءها: أي مقدارها. والصليع: الذي لا شعر فيه، ولعله شبهها بذلك الرأس في التجرُّد والانكشاف والظهور والتمام كما يقال: جيش أقرع، وألف أقرع: أي تام مجازاً. وخيل: أي وأصحاب خيل قد تقدمت لها بمثلها. والتحية: الدعاء بالحياة، فأخبر عنها بالضرب الوجيع على سبيل التهكم. وضمير «بينهم» للخيل بمعنى الجيش. وانتقل من ذِكر ريحانة إلى ذِكْر الحرب لأنه كان أغار على دُريد في طلبها.
ينظر شواهد الكتاب ٢/ ٣٢٣، والنوادر ١٥٠، وابن يعيش ٢/ ٨٠، الخزانة ٤/ ٥٣، والدر المصون ١/ ٣٢٩، فتح القدير ١/ ٢٧٨.

وأمَّا ما يروى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: «أَنَّهُ كَذَبَ/١٨ب ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ» (٢٣)، فالمراد التعريض، ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمى به، وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وروى مرفوعاً: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمان» (٢٤) وقرىء: «يكذبون»، من كذبه

---

٢٣ ـ أخرجه البخاري (١٠/١٥٨): كتاب النكاح: باب اتخاذ السراري ومن أعتق جارية ثم تزوجها، حديث برقم (٥٠٨٤) وأيضاً في (٧/٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ وحديث (٣٣٥٧ ـ ٣٣٥٨)، ومسلم في صحيحه (٨/ ١٣٤): كتاب الفضائل: باب من فضائل إبراهيم الخليل (٢٣٧١).
وأبو داود، (٢/ ٢٦٤): كتاب الطلاق: باب في الرجل يقول لامرأته: يا أختي، حديث (٢٢١٢)، والترمذي (٥/ ٣٢١): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، حديث (٣١٦٦) والنسائي في السنن الكبرى (٥/٩٨) كتاب المناقب باب سارة ـ رضي الله عنها ـ حديث (٨٣٧٤ ـ ٨٣٧٥)، وأحمد (٢/٤٠٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (٧/٣٦٦)، كتاب «الخلع والطلاق»: باب الرجل يقول لامرأته: يا أختي يريد الأخوة في الإسلام.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف».
متفق عليه واللفظ للبخاري من رواية ابن سيرين، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ رفعه: «لم يكذب إبراهيم إلاَّ ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله عز وجل. . . ـ الحديث. وأخرجه الترمذي في تفسير الأنبياء، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عنه. انتهى.

٢٤ ـ روي هذا الحديث مرفوعاً وموقوفاً:
أما المرفوع، فقد عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/٤٦) إلى بن عديّ في الكامل.
أما الموقوف فقد أخرجه أحمد (١/٥) وأبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٥/٢٣٦) كتاب الأدب باب ما جاء في الكذب، حديث برقم (٢٥٦٠٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١٩٦) كتاب الشهادات: باب من كان منكشف كذبه مظهره لا يستتر به لا تجوز شهادته، وابن المبارك في الزهد (ص٢٥٥) باب من كذب في حديث ليضحك به القوم، حديث (٧٣٦). وقال الدارقطني في كِتابه العلل (١/ ٢٥٨) حديث (٥٠)، رواه عن قيس إسماعيلِ بن أبي خالد، وبيان بن بشر، وأبو إسحاق السبيعي، ومجالد بن سعيد، وكلهم وقفه ولم يرفعه إلاَّ إسماعيل، فإنه اختلف عنه فيه، فرفعه عنه يحيىٰ بن عبد الملك بن أبي غنية، وجعفر بن زياد الأحمر وعمرو بن ثابت بن أبي المقدام، ووقفه غيرهم عن إسماعيل، والصحيح منه قول من وقفه، وروي عن أبي أسامة، وعن يزيد بن هارون عن إسماعيل بن أبي خالد مرفوعاً. ولا يثبت رفعه عنهما.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
روي مرفوعاً وموقوفاً على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أما المرفوع: فأخرجه ابن عديّ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عنه. قال الدارقطني في العلل: رفعه يحيىٰ بن عبد الملك وجعفر الأحمر، وعمر بن ثابت عن إسماعيل. ووقفه غيرهم وهو أصح. ويروى عن أبي أسامة ويزيد بن هارون عنه أيضاً مرفوعاً. ولا يثبت عنهما ا.هـ. وأما الموقوف: فأخرجه أحمد وابن أبي شيبة في الأدب كلاهما عن وكيع عن إسماعيل وابن المبارك في الزهد عن إسماعيل كذلك. ولم يجد الطيبي المرفوع فأخرج بدله عن صفوان بن سليم. قيل: يا رسول الله: المؤمن يكون جباناً؟ قال نعم، يكون بخيلاً؟ قال: نعم. يكون كذّاباً قال: لا. أخرجه مالك وهو مرسل. انتهى.

الذي هو نقيض صدقه؛ أو من كذّب الذي هو مبالغة في كذب، كما بولغ في صدق فقيل: صدّق، ونظيرهما: بان الشيء وبيّن، وقلص الثوب وقلّص. أو بمعنى الكثرة كقولهم: موّتت البهائم، وبركت الإبل، أو من قولهم: كذب الوحشي إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه؛ لأن المنافق متوقف متردّد في أمره، ولذلك قيل له: مذبذب، وقال ـ عليه السلام ـ: «مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنَ، تَعِيرُ إِلَىٰ هَٰذِهِ مَرَّةً وإِلَىٰ هَٰذِهِ مَرَّةً» (٢٥).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

«وإذا قيل لهم» معطوف على (يكذبون)، ويجوز أن يعطف على (يقول آمنا)؛ لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحاً، والأوّل أوجه.

والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، ونقيضه؛ الصلاح، وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة، والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن، لأن في ذلك فساد ما في الأرض، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد، وكان فساد المنافقين في الأرض، أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدّي

---

٢٥ ـ أخرجه مسلم (٤/٢١٤٦) كتاب صفات المنافقين: باب (٥٠) حديث (١٧/ ٢٧٨٤)، والنسائي (٨/ ١٢٤) كتاب الإيمان: باب مثل المنافق حديث (٥٠٣٧)، وأحمد (٢/ ٣٢)، والخطيب في «تاريخه» (٢٦٨/١٤)؛ من حديث عبد الله بن عمر.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
أخرجه مسلم من رواية موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: قوله تعير بمهملة؛ أي: تتردد. انتهى.

إلى هيج الفتن بينهم، فلما كان ذلك من صنيعهم مؤدياً إلى الفساد قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾، كما تقول للرجل: لا تقتل نفسك بيدك، ولا تلق نفسك في النار، إذا أقدم على ما هذه عاقبته، و﴿إِنَّمَا﴾: لقصر الحكم على شيء، كقولك: إنما ينطق زيد، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد كاتب، ومعنى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد، و﴿أَلَآ﴾: مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي، لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً كقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]، ولكونها في هذا المنصب من التحقيق، لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدّرة بنحو ما يتلقى به القسم، وأختها التي هي «أما»: من مقدّمات اليمين وطلائعها: [من الطويل]

أَمَا والَّذِي لا يَعْلَمُ الغَيْبَ غَيْرُهُ .... (١)

[من الطويل]

أَمَا والَّذِي أَبْكَى وأَضحَكَ .... (٢)

---

(١) أما والذي لا يعلم الغيب غيره ... ويحيي العِظام البيض وهي رميم
لقد كنت أختار القرى طاوي الحشا ... محاذرة من أن يقال لئيم
وإني لأستحيي يميني وبينها ... وبين فمي داجي الظلام بهيم
لحاتم الطائي. وأصل «أما» مركبة من همزة الاستفهام وما النافية. فصارت حرفاً لاستفتاح القسم وتوكيد الكلام وأقسم بالذي يعلم الغيب والضمائر وهو الله تعالى، لأن جواب القسم من هذا القبيل. وذكر البيض دفعاً لتوهُّم أنها المكسية باللحم أو كناية عن طول مدتها عارية عنه، فيشتد بياضها لجفاف دمها وهي رميم بالية. واستواء المذكر والمؤنث في فعيل بمعنى فاعل كما هنا قليل، والكثير في الذي بمعنى مفعول. لقد كنت أختار القرى: أي جمع الضيفان وإكرامهم. ويجوز أن يروى: أجتاز القرى بالجيم والزاي وضم القاف: يصف نفسه بالعفة. ويروى: أختار الجوى بمعنى حرقة القلب من الجوع ونحوه حال كوني عفوفاً. وعلى الأولى فالمعنى: حال كوني جائعاً، فطي الحشا أي المعدة والأمعاء كناية عن ذلك، وكثُر استعمال الطي في هذا المعنى، حتى قيل منه: طوى يطوي كرضي يرضى بمعنى جاع، فهو طيان كجوعان وزنا ومعنى. محاذرة: أي حذراً من قول الناس إنه لئيم لا كريم. وكان يستحي أن يمد يده للطعام إلى فمه، مع أن الليل شديد الظلمة حائل بينهما فيمنعه أن يراها. والبهيم: الذي انبهمت فيه الأشياء لظلمته.
ينظر ديوانه ص ١٧٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٧١٥)، شرح شواهد المغني (١/ ٢٠٧)، لسان العرب (رمم)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٣٣٨، مغني اللبيب (١/ ٦٨):

(٢) أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذعر
لأبي صخر عبدالله بن سلمي الهذلي. و «أما» استفتاحية ومقدمة وطليعة لليمين. والواو بعدها للقسم، أي: وحق الذي أبكى وأضحك حقيقة، أو الذي سر وضر كناية، وهو أنسب بالمقام.

ردّ الله ما ادّعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدله على سخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف، وما في كلتا الكلمتين ألا، وإن من التأكيدين، وتعريف الخبر وتوسيط الفصل، وقوله: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] أتوهم في النصيحة من وجهين: أحدهما:

والذي أمره: أي مقدره هو المقدر النافذ، أو الذي أمره إذا أراد شيئاً الأمر: أي قوله كن. ويروى «أمر» بلا لام: أي أمر حق عظيم. لقد تركتني جواب القسم: أي صيرتني أحسد الوحش على رؤيتي متآلفين منها، أي الوحش: لأنه في معنى الجماعة. لا يروعهما أي لا يخيفهما، لأن الخوف يحل بالروع ـ بالضم ـ وهو القلب. وذُعِر ذُعراً، كتعب: خاف خوفاً. وذعرته ذعراً كضربته ضرباً أخفته. أي لا تخيفهما الإخافة. ويجوز أن يُراد بالذعر: الأمر المخيف. ويروى: لا يروعهما النفر: أي لا ينفر أحدهما من الآخر فيروعه بذلك.

ينظر الأغاني ٢٣/ ٢٨١، والدرر ٥/ ١١٨، وشرح أشعار الهذليين ص ٢/٩٥٧، وشرح شواهد المغني ١/ ٦٩، ٢١٠، والشعر والشعراء ٢/٥٦٧، ولسان العرب (رمث)، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص ١٧٠، وجواهر الأدب ص ٣٣٦، ٣٣٨، ورصف المباني ص ٩٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٧٣٠، وشرح المفصل ٨/ ١١٤، ومغني اللبيب ١/ ٥٤، وهمع الهوامع ٢/ ٧٠.

(١) في قوله ـ تعالى ـ «قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون» إذا نظرت إلى هاتين الجملتين فإنك ترى فصلاً بين جملة «إنما نحن مصلحون»، وما بعدها ذلك أن القائل مختلف، فلم تدخل الثانية في عداد الأولى، ولهذا وجب الفصل، وهذا الحكم يرد أيضاً ـ عند قوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ الله يستهزىء بهم﴾ يقول القزويني في هذا:
«فإن كان للأولى حكم ولم يقصد إعطاؤه للثانية تعين الفصل» ثم أورد الآية التي معنا معلقاً «لم يعطف ـ الله يستهزىء بهم ـ على ـ قالوا ـ لئلا يشاركه في الاختصاص بالظرف المقدم، وهو قوله ـ وإذا خلوا إلى شياطينهم ـ فإن استهزاء الله ـ تعالى ـ بهم وهو أن خذلهم فخلاهم وما سولت لهم أنفسهم مستدرجاً إياهم من حيث لا يشعرون متصل لا ينقطع بكل حال: خلوا إلى شياطينهم أم لم يخلوا إليهم، وكذلك في الآيتين الأخيرتين فإنهم مفسدون في جميع الأحيان ـ قيل لهم لا تفسدوا أولاً، وسفهاء في جميع الأوقات قيل لهم آمنوا أولاً والآيتان اللتان أراد صاحب الإيضاح ينظر الإيضاح خفاجي ٣/ ١٢، وينظر أيضاً في المطول ٢٤٨ لهما هذا الحكم هما قوله ـ تعالى ـ وما بعدها، والمفتاح ١١٩ وما بعدها».
«وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» وقوله ـ تعالى ـ:
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهاتان الآيتان في معرض الحديث عن المنافقين الوارد من أول قوله ـ تعالى ـ «ومن النّاس...».
والحديث عن الفصل بين الجمل والوصل باب واسع جعله البلاغيون باب البلاغة الذي يصل إلى ذروته كل بليغ فهم لبنات النظم أولاً حتى وصل إلى الجمل التي تنتظم المقاصد، وعندئذ يقف بين الجمل فاصلاً أو واصلاً بحسب المقاصد التي من أجلها جاء الكلام في المقام.
ولهذا قال بعضهم: «البلاغة: الفصل والوصل» ينظر الإيضاح ٣/ ١٢، والمفتاح ١١٩، والمطول ٢٤٨.

تقبيح ما كانوا عليه؛ لبعده من الصواب، وجرّه إلى الفساد والفتنة، والثاني: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام، ودخولهم في/ ١٩أ عدادهم؛ فكان من جوابهم أن سفهوهم لفرط سفههم، وجهلوهم لتمادي جهلهم، وفي ذلك تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة. فإن قلت: كيف صح أن يسند «قيل»: إلى «لا تفسدوا، وآمنوا» وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح؟ قلت: الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل، وهذا إسناد له إلى لفظه، كأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام، فهو نحو قولك: «ألف» ضرب من ثلاثة أحرف، ومنه: «زَعَمُوا مَطِيَّةُ الْكَذِبِ»(٢٦).

و«ما» في «كما»: يجوز أن تكون كافة مثلها في (ربما)، ومصدرية مثلها في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥].

واللام في «الناس» للعهد، أي كما آمن رسول الله ﷺ ومن معه. أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه؛ لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم، أو للجنس أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة، ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل.

والاستفهام في ﴿أَنُؤْمِنُ﴾: في معنى الإنكار، واللام في ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: مشار بها إلى الناس، كما تقول لصاحبك: إن زيداً قد سعى بك، فيقول: أو قد فعل السفيه، ويجوز أن تكون للجنس، وينطوي تحته الجاري ذكرهم على زعمهم واعتقادهم؛ لأنهم عندهم أعرق الناس في السفه، فإن قلت: لم سفهوهم واسترقوا عقولهم، وهم العقلاء المراجيح؟ قلت: لأنهم لجهلهم وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً؛ ولأنهم كانوا في رياسة وسطة في

---

٢٦ ـ قال الزيلعي: ذكر المصنف في التغابن، حديثاً مرفوعاً عن النبي ـ ﷺ ـ ولم أجده بهذا اللفظ، والذي وجدته: «بئس مطية الرجل» زعموا. ا.هـ. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٢٢٦)، باب ما يقول الرجل إذ ذكّي، حديث (٧٧٠) وأبو داود في سننه (٤/ ٢٩٤٠) كتاب الأدب: باب قول الرجل زعموا، حديث (٤٩٧٢)، وأخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٠١)، وابن المبارك في الزهد (ص١٢٧) حديث (٣٧٧)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٤٠٦) حديث (٣٢٨٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٣٣٤).

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه ابن سعد في الطبقات من رواية الأعمش عن شريح قال: زعموا كنية الكذب، وقد ذكره المصنف مرفوعاً في سورة التغابن، ولم أجده بهذا اللفظ. والذي في الأدب المفرد للبخاري من حديث أبي مسعود الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «بئس مطيّة الرجل زعموا»، وكذا أخرجه أحمد، وإسحاق، وأبو يعلىٰ، وهو من رواية أبي قلابة عنه، وفي رواية البخاري بين أبي قلابة وبين أبي مسعودِ: أبو المهلب. انتهى.

قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء، ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب، فدعوهم سفهاء؛ تحقيراً لشأنهم، أو أرادوا عبد الله بن سلام وأشياعه ومفارقتهم دينهم وما غاظهم من إسلامهم وفت في أعضادهم، قالوا ذلك على سبيل التجلد توقياً من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفه بمعزل، والسفه سخافة العقل وخفة الحلم، فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بـ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، والتي قبلها بـ: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحقّ وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدّي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دينويّ مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاور، والتناحر، والتحارب، والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد؛ ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له. مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أوّل قصة المنافقين فليس بتكرير؛ لأن تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين، وإيهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم/١٩ب ما في قلوبهم، وروى: «أن عبد الله بن أبيّ وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصدّيق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عديّ الفاروق القويّ في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عليّ فقال: مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً، فنزلت» (٢٧).

ويقال: لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريباً منه، وهو جاري ملاقيّ ومراوقي، وقرأ أبو حنيفة: وإذا لاقوا.

وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه، ويجوز أن يكون من «خلا» بمعنى: مضى،

---

٢٧ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٩).
وعزاه للواحدي والثعلبي، عن ابن عباس.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية السدي الصغير محمد بن مروان، عن أبي صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه؛ وذلك أنهم خرجوا ذات يوم» . . . فذكره، وفي آخره: «فرجعوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فأخبروه فنزلت»، ومحمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث، وسياقه في غاية النكارة. انتهى.

وخلاك ذمّ: أي عداك ومضى عنك، ومنه: القرون الخالية، ومن «خلوت به»: إذا سخرت منه، وهو من قولك: خلا فلان بعرض فلان يعبث به، ومعناه: وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدّثوهم بها، كما تقول: أحمد إليك فلاناً، وأذمّه إليك، وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في تمرّدهم، وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة، والدليل على أصالتها قولهم: تشيطن، واشتقاقه من «شطن» إذا بعد؛ لبعده من الصلاح والخير، ومن «شاط» إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة، ومن أسمائه الباطل. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم، فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن[1]؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما، لأنهم في ادّعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأنّ أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرّك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ﴿ربنا إننا آمنا﴾ [آل عمران: ١٦]، وأما مخاطبة إخوانهم، فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية، والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة، ووفور نشاط، وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم، فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد، فإن قلت: أنى تعلق قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؟ قلت: هو توكيد له، لأن قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾/ ٢٠أ معناه الثبات على اليهودية، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ردّ للإسلام ودفع له منهم، لأن المستهزىء بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء، تأكيد لثباته أو بدل منه؛ لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف، كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فقالوا: فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام فقالوا: إنما نحن مستهزءون، والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة ـ من الهزء وهو القتل السريع ـ وهزأ يهزأ: مات على المكان، عن بعض العرب: مشيت فلغبت فظننت لأهزأنّ

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لمَ كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: وبنى هذا التقرير على أن الجملة الاسمية أثبت من الفعلية خصوصاً مؤكدة بأن مردفة بإنما على أنه قد حكى إيمان المؤمنين المخلصين بالجملة الفعلية أيضاً في قوله ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾. وعلى الجملة فلقد أحسن الزمخشري رحمه الله في تقريره ما شاء وأجمل ما أراد.

على مكاني، وناقته تهزأ به: أي تسرع وتخف. فإن قلت: لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى، لأنه متعال عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأنّ المستهزىء غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك، وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون، ويجوز أن يراد به ما مر في: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ من أنه يجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر، وهو مبطن بادخار ما يراد بهم، وقيل: سمي جزاء الاستهزاء باسمه؛ كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فإن قلت: كيف ابتدىء قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ ولم يعطف على الكلام قبله[1]، قلت: هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه له في مقابلته، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم؛ انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله، فإن قلت: فهلا قيل الله مستهزىء بهم ليكون طبقاً لقوله: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾[2]؟ قلت: لأن: ﴿يَسۡتَهۡزِئُ﴾ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار، ونزول في شأنهم واستشعار حذر من أن ينزل فيهم: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤]. ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ من مدّ الجيش وأمده إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره، وكذلك مدّ/ ٢٠ب الداوة وأمدها: زادها ما يصلحها، ومددت السرج والأرض: إذا استصلحتهما بالزيت والسماد، ومده الشيطان

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: كيف ابتدىء قوله: الله يستهزىء بهم ولم يجعله معطوفاً... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: فإن قال قائل: أفلا يُستفاد هذا المعنى من العطف؟ قيل له: لو عطف لأشعر بأن الغرض كل الغرض اجتماع مضمون الجملتين وإعراض عن هذا المعنى الذي ينفرد به الاستئناف.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فهلا قيل الله مستهزىء بهم... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ولهذا الفرق بين الفعل والاسم ورد قوله تعالى ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ لما كان التسبيح من الطوائد متكرراً متجدداً شيئاً فشيئاً وحشر الطير معه أمر دائم، ذكر التسبيح بصيغة الفعل، والحشر بصيغة الاسم. وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد تقرير فيه.

في الغي وأمده: إذا واصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انهماكاً فيه. فإن قلت: لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال؟ قلت: كفاك دليلاً على أنه من المدد دون المد قراءة ابن كثير وابن محيصن: (ويمدّهم)، وقراءة نافع: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يُمِدُّونَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] على أن الذي بمعنى: أمهله إنما هو مدّ له مع اللام كأملى له، فإن قلت: فكيف جاز أن يوليهم الله مدداً في الطغيان وهو فعل الشياطين؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾[1]؟ [الأعراف: ٢٠٢] قلت: إما أن يحمل على أنهم لما منعهم الله ألطافه التي يمنحها المؤمنين، وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه، بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها، تزايد الانشراح والنور في قلوب المؤمنين، فسمى ذلك التزايد مدداً، وأسند إلى الله سبحانه؛ لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم، وإما على منع القسر والإلجاء، وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله؛ لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده، فإن قلت: فما حملهم على تفسير المدّ في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه؟ قلت: استجرّهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام، ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدّي سليماً من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة، فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل، ويعضد ما قلناه قول الحسن في تفسيره: في ضلالتهم يتمادون، وأن هؤلاء من أهل الطبع، والطغيان: الغلو في الكفر، ومجاوزة الحدّ في العتوّ، وقرأ زيد بن علي ـ رضي الله عنه ـ: «فِي طِغْيَانِهِمْ» بالكسر وهما لغتان، كـ «لُقْيَان، ولِقْيَان، وَغُنْيَان وَغِنْيَان». فإن قلت: أي نكتة في إضافته إليهم[2]؟ قلت: فيها أن

---

(١) قال محمود رحمه اللّه: «إن قلت: كيف جاز أن يوليهم اللّه مدداً من الطغيان. . . إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: ما يمنعه أن يقره على ظاهره ويبقيه في نصابه إلا أنه توحيد محض وحق صرف، والقدرية من التوحيد على مراحل.

(٢) قال محمود رحمه اللّه: «فإن قلت: ما النكتة في إضافة الطغيان إليهم. . . إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: كل فعل صدر من العبد اختياراً فله اعتباران: إن نظرت إلى وجوده وحدوثه وما هو عليه من وجوه التخصيص، فانسب ذلك إلى قدرة اللّه وحده وإرادته لا شريك له. وإن نظرت إلى تميزه عن القسر الضروري فأنسبه في هذه الجهة إلى العبد، وهي النسبة المعبَّر عنها شرعاً بالكسب في أمثال قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وهي المتحققة أيضاً إذا عرضت على ذهنك الحركتين الضرورية الرعشية مثلاً والاختيارية، فإنك تميز بينهما لا محالة بتلك النسبة. فإذا تقرر تعدُّد الاعتبار فمدهم في الطغيان مخلوق للّه تعالى فأضافه إليه. ومن حيث كونه واقعاً منهم على وجه الاختيار المعبَّر عنه بالكسب أضافه إليهم. ففرع على أصول السنة بحسْن ثمار فروعك في الجنة، لا كما تفرع القدرية فإنهم يخبون ولكن على أنفسهم. ألهمَنا اللّه التحقيق وأيّدَنا بالتوفيق.

الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم، وأن الله بريء منهم رداً لاعتقاد الكفرة القائلين: لو شاء الله ما أشركنا، ونفياً لوهم من عسى يتوهم[1] عند إسناد المدّ إلى ذاته لو لم يضف الطغيان إليهم؛ ليميط الشبه، ويقلعها، ويدفع في صدر من يلحد في صفاته؛ ومصداق ذلك أنه حين أسند المدّ إلى الشياطين، أطلق الغيّ ولم يقيده بالإضافة في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، والعمه: مثل العمى، إلا أن العمى عامّ في البصر/ ٢١أ والرأي، والعمه في الرأي خاصة، وهو التحير والتردّد، لا يدري أين يتوجه، ومنه قوله: بالجاهلين العمه، أي الذين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق، وسلك أرضاً عمهاء: لا منار بها[2].

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به، على سبيل الاستعارة؛ لأنّ الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر[3]؛ ومنه: [من الرجز]

أَخَذْتُ بِالجُمَّةِ رَأْساً أَزْعَرَا ... وَبِالثَّنَايَا الوَاضِحَاتِ الدُّرْدَرَا

وبِالطَّوِيلِ العُمْرِ عُمْراً حَيْدَرَا ... كَمَا اشْتَرَى المُسْلِمُ إذ تَنَصَّرَا[4]

وعن وهب: قال الله عز وجل فيما يعيب به بني إسرائيل: «تَفَقَهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ العَمَلِ، وَتَبْتَاعُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ»، فإن قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى، وما كانوا على هدى؟ قلت: جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم[5] كأنه في

---

(١) قوله: «وَنفياً لوهم من عسى... إلخ» يريد الرد على أهل السنّة القائلين: إن اللّه تعالى هو الفاعل في الحقيقة للخير والشر. وينتصر للمعتزلة القائلين بأنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده. (ع)

(٢) قوله «وسلَك أرضاً عمهاء» أي ومنه قولهم سلَك... إلخ. (ع)

(٣) قال محمود رحمه اللّه: «الشراء يستدعي بذل العوَض... إلخ». قال أحمد رحمه اللّه: ومِن هذا القبيل منع مالك رضيَ اللّه عنه أن يشتري إحدى أوزتين مذبوحتين يختارها المشتري منهما، لأنه يُعد مختاراً لكل واحدة منهما، ثم بائعاً بالأخرى فيدخله الربا، وهو الذي يعبر عنه متأخرو أصحابه بأن مَن ملك أن يملك هل يعد مالكاً أولاً؟ وربما قالوا: من خير بين شيئين عد منتقلاً على أحد القولين.

(٤) «الجمة»: كثيرة الشعر، والباء للبدل، و «زعر» كتعب فهو أزعر، أي قليل الشعر. ويقال للموضع الذي لا نبات فيه. والثنايا: مقدم الأسنان. والمراد الثغر كله. والدردر ـ بالفتح ـ مغارز الأسنان. والحيدر: القصير. واشترى: استبدل. والمراد أنه أخذ امرأة عجوزاً قبيحة بدل امرأة شابة جميلة، وروي أن جبلة بن الأيهم قدِم مكة فطاف بالكعبة، فوطىء رجل إزاره، فلطمه فشكى إلى عُمَر رضيَ اللّه عنه فحُكِم بالقصاص من جبلة، فاستمهله إلى الغد وهرب ليلاً إلى الروم، وتنصر بعد الإسلام، ثم ندم على ما فعل فضرب به المثل.
ينظر النوادر ص ١٥٢، معاني القرآن للفراء ١/ ٣٣، الطبري ١/ ٥٦٢، البحر ١/ ١٧٧، الدر المصون ١/ ٢٠٦.

(٥) قوله: «وإعراضه لهم» في الصحاح: اعترض لك الخير، إذا أمكنك. (ع)

أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة.

و«الضلالة»: الجور عن القصد وفقد الاهتداء، يقال: ضلّ منزله، وضل دريص نفقه[1]، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين. والربح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي: الشف، من قولك: أشف بعض ولده على بعض، إذا فضله، ولهذا على هذا شف، والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح، وناقة تاجرة: كأنها من حسنها وسمنها تبيع نفسها، وقرأ ابن أبي عبلة: (تجاراتهم)، فإن قلت: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلت: هو من الإسناد المجازي[2]، وهو أن يسند

---

(١) قوله «وضلّ دريص نفقه» في الصحاح: الدرص ولد الفأرة واليربوع وأشباه ذلك. وفي المثل «ضلّ دريص نفقه» أي جحره. (ع)

(٢) قوله ـ سبحانه ـ ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ هو من الإسناد المجازي وفي هذا البيان دليل على أن الإسناد في قوله ﴿رَبِحَت﴾ إلى «تجارتهم» فيه خروج على حقيقة الإسناد، والأصل: ربحوا في تجارتهم، وهذا مما يؤخذ من كلامه بدقة واتساع ولكن لماذا جعل هذا عقلياً؟

ذلك أن العقل هو الحكم في هذا الإسناد لا اللغة كما هو واضح في المجاز اللغوي، ولهذا حينما تكونت فكرته قالوا في تحديده:

«إسناد الفعل أو ما يقوم مقامه إلى غير فاعله الحقيقي لملابسة ـ علاقة ـ مع وجود قرينة صارفة ومانعة من الإسناد الحقيقي».

وقد يسمى بالمجاز الحكمي لأن العقل يحكمه، فإذا قلت «شفى الطبيب المريض» سارع العقل إلى فهم هذا الإسناد في «شفى» على المجاز لا الحقيقة، ولهذا يقال: إن الطبيب سبب في الشفاء فقط، والشافي في الحقيقة هو «الله» جل جلاله.

يقول الشيخ عبد القاهر في ذلك:

«ولا يغرنك أنك ترى الرجل يقول: أتى بي الشوق إلى لقائك وأشباه ذلك مما نجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يشكل أمرها، فليس هو كذلك أبداً، بل يرق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تصرفها، والنادرة تأنق لها».

ويحدد الشيخ عبد القاهر هذا المجاز مع أنه متقدم في زمانه على صاحب هذا التفسير فيقول:

«وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه في العقل لضرب من التأول فهي مجاز»

وبعد هذا نخرج إلى أسرار هذا النظم القرآني البديع في النقاط التالية:

١ ـ المبالغة في إثبات المعنى المقصود، والمقام في هذا المضمار في حاجة إليه بحيث لا يصلح سواه في هذا المقام كما ترى في الآية.

٢ ـ الإيجاز البليغ الذي هو سمة القرآن، وعلامة بلاغة البيان، فحينما نسمع: «ربحت تجارتهم» تنحدر إلينا المعاني في هذا الأسلوب لتعطينا صورة الخسران الكامل وتعود بهذا كله إلى صورة إيمانهم بالله ـ سبحانه ـ التي اتضحت تماماً لأولى النهي وأنهم خسروا خسراناً مبيناً وهذا ما عبرعنه المولى ـ جلت حكمته ـ بقوله ـ وما كانوا مهتدين ـ.

٣ ـ المجاز العقلي فن بليغ وجميل ينشط العقول، ويقرع القلوب، ولهذا ترى الأريب حينما يقف =

الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشترين، فإن قلت: هل يصح: ربح عبدك وخسرت جاريتك، على الإسناد المجازي؟ قلت: نعم إذا دلت الحال؛ وكذلك الشرط في صحة: رأيت أسداً، وأنت تريد المقدام، إن لم تقم حال دالة لم يصح، فإن قلت: هب أنّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثمّ مبايعة على الحقيقة[1]؟ قلت: هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً، وهو المجاز المرشح؛ وذلك نحو قول العرب في البليد: كأن أذني قلبه خطلاً، وإن جعلوه كالحمار، ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة، فادعوا لقلبه أذنين، وادعوا لهما الخطل[2]، ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة؛ ونحوه: [من الطويل]

وَلَـمَّـا رَأَيْـتُ الـنَّـسْـرَ عَـزَّ ٱبْـنَ دَأْيَـة وعَشَّشَ في وَكْرَيْهِ جَاشَ لهُ صَدْرِي[3]

لما شبه الشيب بالنسر، والشعر الفاحم بالغراب، أتبعه ذكر التعشيش والوكر/ ٢١ب، ونحوه قول بعض فُتَّاكِهِمْ في أُمِّهِ: [من الوافر]

فَـمَـا أُمُّ الـرُّدَيْـنِ وَإِنْ أَدَلَّـتْ بِـعَـالِـمَـةٍ بِـأَخْـلَاقِ الْـكِـرَامِ

= عند هذا النظم القوي المتين تنساب إليه قوى خفية فيرى نفسه ينتفض خاشعاً أمام كلام العليم الخبير، وهذا ما نجده في كلام الله ورسوله، وفي بلاغة العرب النجباء. في كل زمان ومكان.

«ينظر المطول للسعد ٥٧، والإيضاح للقزويني بتحقيقه ١/ ٧٧ ودلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر ٢٨٧، ٢٢٨ بتحقيق خفاجي وبحوث المطابقة لعلي العبدري ١٩٦، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢١٤ وما بعدها، وخصائص التراكيب لأبي موسى ـ أيضاً ـ ٦٦، علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني د. فتحي حجازي ٢/ ٤٢٤ وشرح السعد بتحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ١/ ١٠٢.

(١) قال محمود رحمه اللّه: «فإن قلت: هب أن شراء الضلالة بالهدى... إلخ». قال أحمد رحمه اللّه: وهذا النوع قريب من التتميم الذي يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء [من البسيط]:

وإنَّ صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

لما شبهته في الاهتداء به بالعلم المرتفع، أتبعت ذلك ما يناسبه ويحققه، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر باشتعال النار في رأسه.

(٢) قوله «وادعوا لهما الخطل» أي الاسترخاء. (ع)

(٣) شبه الشيب بالنسر بجامع البياض، واستعاره له تصريحاً. وشبّه الشباب بالغراب ـ وهو ابن دأية ـ بجامع السواد كذلك. وعزه يعزه عزاً، كنصره نصراً: إذا غلبه وقهره. والتعشيش في الوكرين ترشيح للاستعارتين، والمراد بهما الرأس واللحية. ويحتمل أن التركيب كله استعارة تمثيلية. يقول: لما رأيت الشيب غلب الشباب وحلَّ محله، تحرك لأجله قلبي واضطرب، فالصدر مجاز. ويروى: جاشت له نفسي.

إِذَا الشَّيْطَانُ قَصَّعَ فِي قَفَاهَا تَنَفَّقْنَاهُ بِالْحَبْلِ التُّوَامِ[1]

أي إذا دخل الشيطان في قفاها، استخرجناه من نافقائه بالحبل المثنى المحكم، يريد: إذا حردت[2] وأساءت الخلق، اجتهدنا في إزالة غضبها وإماطة ما يسوء من خلقها، استعار التقصيع أوّلاً، ثم ضم إليه التنفق، ثم الحبل التوام؛ فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه؛ تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته، فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾؟ قلت: معناه أنّ الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدى، فلم يبق لهم مع الضلالة، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة، لم يوصفوا بإصابة الربح، وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية؛ لأن الضال خاسر دامر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح، وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيهم ويخسر.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان، ولضرب

---

(١) دلّت المرأة وأدلّت: حسن تمنعها مع رضاها. ودلت وأدلت أيضاً: تغنجت وتشكلت. والاسم: الدل، والدالة، والدلال. وقيل: هو قريب من معنى الهدى. ومنه: كانوا ينظرون إلى هدى عمر ودله فيتشبهون به. ونفى علمها بأخلاق الكرام: كناية عن إساءتها الخلق. ويروى: بقائلة بأخلاق الكرام، أي بمكترثه ولا معتنية بها، أو ليست فاعلة لها والمآل واحد. وقصع اليربوع: اتخذ القاصعاء أو دخل فيها، وهي جحره الذي يدخل فيه. وتنفق: اتخذ النافقاء أو خرج منها، وهي الطرف الثاني من الجحر الذي يخرج منه، وتنفقه الصائد: استخرجه منها، فلجحره بابان إذا أتاه الصائد من الأول خرج من الثاني فاستعار التقصيع الذي هو فعل اليربوع لدخول الشيطان في قفاها، واستعار التنفق لإخراجه منه على طريق التصريحية والثانية ترشيح للأولى وبالعكس. والحبل: جمع حبال جمع حبل ككتب جمع كتاب: والتوام: الثني من الحبل، وجمعه: توائم، وتوام كغراب. أي بالحبل المثناة المفتولة، وهي على رواية الحبل بالإفراد، فيخرج على أن التوام ليس جمعاً بل اسم جمع يعامل معاملة المفرد، أي بالحبل القوي لأنه مجموع حبال مفتولة، وهذا ترشيح للتنفق وترشيح الترشيح ترشيح، فيكون ترشيحاً للتقصيع أيضاً، والحبال من ملائمات التنفق في نحو الاصطياد. ويجوز أن يشبه الشيطان باليربوع، فإذا أردنا اصطياده من جهة هرب من جهة أخرى حتى نصطاده بأقوى حيلة، فتكون مكنية والتقصيع والتنفق بالحبل تخييل. وجعل ذلك كله في قفاها لأن الحمق يُنسب إليه عادة، أو لأن الشيطان يأتيها من حيث لا تشعر، كأنه من خلفها. ثم إن هذا الكلام كناية أو تمثيل للمراد، وهو أنها إذا أساءت الخلق ترضيناها بالتحيل والترفق. ينظر الدر المصون (١/١٢٨).

(٢) قوله «يريد إذا حردت» في الصحاح: الحرد ـ بالتحريك ـ الغضب. (ع)

العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر ـ شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبيّ، ولأمر مّا أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء؛ قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣] ومن سور الإنجيل سورة الأمثال، والمَثَلُ في أصل كلامهم: بمعنى المِثْل، وهو النظير؛ يقال: مثل، ومثل، ومثيل، كشبه، وشبه، وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل، ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلا للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول، إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثمّ حوفظ عليه وحمى من التغيير، فإن قلت: ما معنى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾؟، وما مثل المنافقين ومثل الذي استوقد ناراً؛ حتى شبه أحد المثلين بصاحبه؟ قلت: قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام، للحال أو الصفة أو القصة، إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً، وكذلك قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ [محمد: ١٥]، أي وفيما قصصنا عليك من العجائب، قصة الجنة العجيبة، ثم أخذ في بيان عجائبها ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ [النحل: ٦٠] / ٢٢أ: أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة، ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي صفتهم وشأنهم المتعجب منه، ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مثلة في الخير والشر، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن، فإن قلت: كيف مثلت الجماعة بالواحد؟ قلت: وضع الذي موضع الذين؛ كقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ﴾ [التوبة: ٦٩]، والذي سوّغ وضع الذي موضع الذين، ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران: أحدهما: أنّ «الذي» لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة، وتكاثر وقوعه في كلامهم، ولكونه مستطالاً بصلته، حقيق بالتخفيف، ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرته ثم اقتصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين، والثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون، وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة، ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع، والواحد فيهن واحد[1]، أو قصد جنس المستوقدين، أو أريد

---

(١) قال السمين الحلبي: وليس لمرجِّح أن يرجِّح قولَ الزمخشري بأنهم قالوا: إنَّ الميمَ في قولهم: «مُ الله» بقية ايمُن، فإذا انتهكوا ايمن بالحذف حتى صار على حرفٍ واحد فَأَوْلى أن يقال بذلك فيما بقي على حرفين؛ لأن «أل» زائدةٌ على ماهِيَّةِ «الذي» فيكونون قد حَذَفوا جميعَ الاسم، وتركوا ذلك الزائدَ عليه بخلاف ميم «ايمُن»، وأيضاً فإنَّ القولَ بأنَّ الميمَ بقيةُ ايمُن قولٌ ضعيف مردودٌ يأباه قولُ الجمهور. انتهى. الدر المصون.

الجمع أو الفوج الذي استوقد ناراً، على أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد؛ إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد، ونحوه قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، ووقود النار: سطوعها وارتفاع لهبها، ومن أخواته: وقل في الجبل إذا صعد وعلا، والنار: جوهر لطيف مضيء حارّ محرق، والنور: ضوءها وضوء كل نير، وهو نقيض الظلمة، واشتقاقها من نار ينور إذا نفر؛ لأنّ فيها حركة واضطراباً، والنور مشتق منها، والإضاءة: فرط الإنارة، ومصداق ذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وهي في الآية متعدية، ويحتمل أن تكون غير متعدية مسندة إلى ما حوله، والتأنيث للحمل على المعنى؛ لأنّ ما حول المستوقد أماكن وأشياء، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: «ضاءت»، وفيه وجه آخر، وهو أن يستتر في الفعل ضمير النار، ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمنزلة إشراق النار نفسها، على أنّ «ما» مزيدة أو موصولة في معنى الأمكنة، و﴿حَوْلَهُۥ﴾: نصب على الظرف، وتأليفه للدوران والإطافة، وقيل للعام: حول؛ لأنه يدور، فإن قلت: أين جواب «لمَّا»؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن جوابه ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، والثاني: أنه محذوف كما حذف في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ [يوسف: ١٥]، وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدالّ عليه، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى، كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين/ ٢٢ب على فوت الضوء، خائبين بعد الكدح في إحياء النار، فإن قلت: فإذا قدّر الجواب محذوفاً فبم يتعلق: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؟ قلت: يكون كلاماً مستأنفاً؛ كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره، اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقيل له: ذهب الله بنورهم، أو يكون بدلاً من جملة التمثيل[1] على سبيل البيان، فإن قلت: قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني[2]؟ قلت: مرجعه الذي استوقد؛ لأنه في معنى الجمع، وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في ﴿حَوْلَهُۥ﴾، فللحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى، فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؟ قلت: إذا طفئت النار

---

(١) قال السمين الحلبي: وقد ردَّ عليه بعضهم هذا بوجهين: أحدهما أن هذا تقدير مع وجود ما يغني عنه، فلا حاجة إليه؛ إذ التقديرات إنما تكون عند الضرورات. والثاني: أنه لا تُبْدَلُ الجملة الفعلية من الجملة الاسمية. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «فما مرجعه في الوجه الثاني» لعله السابق. (ع)

بسبب سماوي ريح أو مطر، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد، ووجه آخر، وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله، ثم إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام، وتلك النار متقاصرة مدّة اشتعالها قليلة البقاء، ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، ويتهدوا بها في طرق العبث، فأطفأها الله وخيب أمانيهم، فإن قلت: كيف صح في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد؟ قلت: هو خارج على طريقة المجاز المرشح فأحسن تدبره، فإن قلت: هلا قيل ذهب الله بضوئهم؛ لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾؟ قلت: ذكر النور أبلغ؛ لأنّ الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً، ألا ترى كيف ذكر عقيبه: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾، والظلمة: عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها، وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾، فإن قلت: فلم وصفت بالإضاءة؟ قلت: هذا على مذهب قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل، ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح، والفرق بين أذهبه وذهب به، أن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً، ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله: أخذه ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: ١٥]، ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه: ذهب به الخيلاء، والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه، ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: ٢] فهو أبلغ من الإذهاب، وقرأ اليماني: «أذهب الله نورهم»، وترك: بمعنى طرح وخلى، إذا علق بواحد، كقولهم: تركه ترك ظبي ظله،/ ٢٣أ فإذا علق بشيئين، كان مضمناً معنى صير، فيجرى مجرى أفعال القلوب كقول عنترة: [من الكامل]

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ ....[1]

---

(١) فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه ... يقضمن حسن بنانه والمعصم

لعنترة بن شداد العبسي من معلقته. يقول: فخرقت بالرمح اليابس الصلب ثيابه، أي: قلبه وأحشاءه، فهي كناية عنها. أو شككت ثيابه بمعنى نظمتها ببدنه بإدخال الرمح فيها. ويروى: إهابه، أي جلده. وليس الكريم... إلى آخره: اعتراض دال على أن عادة الكرام أن يجودوا بكل شيء حتى بالأرواح للرماح. وفيه نوع تهكّم. فتركته: أي صيرته. جزر السباع ـ بالتحريك ـ أي نصيبها وطعمتها من اللحم. ونهشه وناشه: تناوله بفمه وكدمه. وقضمه يقضمه، من بابَيْ علم وضرب: عضّه بمقدم أسنانه. فقوله «يقضمن» بدل. وعبّر بالحسن عن الشيء الحسن مبالغة: أي يأكلن بنانه الحسن ومعصمه الحسن. ويروى بدل هذا الشطر: ما بين قلة رأسه والمعصم. وما زائدة، و «بين» ظرف للنوش. ويجوز أن «ما» موصولة بدل من ضمير المفعول. وقلة الرأس: أعلاه، كقلة الجبل وقنته. =

ومنه قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ أصله: هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين، والظلمة عدم النور، وقيل: عرض ينافي النور، واشتقاقها من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا: أي ما منعك وشغلك، لأنها تسدّ البصر وتمنع الرؤية، وقرأ الحسن: «ظُلْمَات» بسكون اللام، وقرأ اليماني: «في ظُلْمة» على التوحيد، والمفعول الساقط من ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ من قبيل المتروك المطرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدر المنوى، كأنّ الفعل غير متعدّ أصلاً، نحو: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾ [الأعراف: ١٨٦]، فإن قلت: فيم شبهت حالهم بحال المستوقد؟ قلت: في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورّطوا في حيرة، فإن قلت: وأين الإضاءة في حال المنافق؟ وهل هو أبداً إلا حائر خابط في ظلماء الكفر؟ قلت: المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد، ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم، وما افتضحوا به بين المؤمنين، واتسموا به من سمة النفاق، والأوجه أن يراد الطبع؛ لقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، وفي الآية تفسير آخر: وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات، وتنكير النار للتعظيم، كانت حواسهم سليمة، ولكن لما سدّوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا؛ كأنما أيفت مشاعرهم، وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك؛ كقوله: [من البسيط]

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا[1]

= ينظر ديوانه ص (٢١٠)، خزانة الأدب (٩/ ١٦٥، ١٦٦)، شرح شواهد المغني (١/ ٤٨٠)، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص (٤٤٥)، سر صناعة الإعراب (٢/ ٦٩٤).

(١) إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
جهلاً علي وجبناً عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

لقعنب بن أم صاحب بن ضمرة. وضمرة أبوه. وأم صاحب: كنية أمه. يقول: إن يسمعوا. وروي: يأذنوا، كيسمعوا وزناً ومعنى، من جهتي بهتان وزور أذاعوها، فكأنهم يطيرون بها بين الناس من فرحهم بما تقل عني. فالطيران استعارة مصرّحة لذلك. قال ابن مالك تبعاً للفراء: ويجوز إجابة المضارع بالماضي وإن منعه الجمهور في الاختيار. وأي شيء سمعوه من قول صالح كتموه، فالدفن استعارة تصريحية أيضاً. وهم صم: أي كالصم، فهو تشبيه بليغ واستعارة على الخلاف. وإن ذكرت عندهم بسوء أذنوا وأنصتوا. ويروى «سبة» بالضم: ما يُسب به. وقد يروى: سبأة، بتحتية ساكنة =

[ومن الرجز]

أَصَـــمُّ عَـــمَّـــا سَـــاءَهُ سَـــمِـيـــعُ

[ومن الطويل]

أَصَـمُّ عَـنِ الـشَّـيْءِ الَّـذِي لاَ أُرِيـدُهُ وَأَسْـمَـعُ خَـلْـقِ اللهِ حِـيـنَ أُرِيـدُ[(١)]

[ومن المتقارب]

فَـأَصْـمَـمْـتُ عَـمْـراً وَأَعْـمَـيْـتُـهُ عَـنِ الْـجُـودِ وَالْـفَـخْـرِ يَـوْمَ الـفَـخَـار[(٢)]

فإن قلت: كيف طريقته عند علماء البيان[(٣)]؟ قلت: طريقة قولهم: «هم ليوث»

= فهمزة. ويروى: وما يسمعوا. ويروى: صموا، على لفظ الماضي، بدل صم. ويروى بسوء كلهم أذن: أي فكلهم أذن؛ فهو على تقدير الفاء، لأنه جواب الشرط. ويحتمل أنه على التقديم والتأخير: أي كلهم أذن إن ذكرت بسوء وهو أنسب بما قبله. وجعلهم نفس الأذن مبالغة. ويجوز أن الأذن وصف يقع على الواحد والمتعدد، وذلك لجهلهم وبأسهم علي، وجُبنهم وضعفهم عن عدوهم. وقيل: هو على تقدير جمعوا جهلاً. والخلتان الخصلتان. والجبن بضمتين لغة فيه. وفيه إطناب بالتوشع، لأنه أتى بمثنًى وفسره باسمين ثانيهما معطوف على الأول وهو حسن.

ينظر لسان العرب (شور)، و(أذن)، تاج العروس (أذن).

(١) صم صمماً، كتعب تعباً. فأصم ـ بفتح الصاد ـ فعل مضارع. ولو جعلته اسماً على الخبرية لضمير محذوف لكانت مناسبة لأسمع المعطوف عليه. والمعنى أن حالي تكون كحال الأصم؛ فهو مجاز عن ذلك. وأسمع: أي أفعل بمقتضى السماع، فهو مجاز أيضاً. ويجوز أنه كناية. يقول: لا أستمع لما أكره. وأسمع كلام خلق الله حين أريده، بأن يكون محبوباً إلي، أو حين أريد السماع.

(٢) يقول: لما أظهرت مفاخري ومكارمي، أصممت عمراً: أي صيَّرته كالأصم. وأعميته: أي صيَّرته كالأعمى فالصَمَم والعمي: استعارتان مصرحتان. والمراد ألجمته وأسكته عن الكلام في الفخر والجود حين مفاخرتي إياه. وقيل أصممته وأعميته: وجدته أصم ووجدته أعمى: أي كأنه كذلك على ما مر.

ينظر لسان العرب (فخر)، ومقاييس اللغة (٤/ ١٣٤)، أساس البلاغة (عمي)، تاج العروس (فخر).

(٣) قوله ـ تعالى ـ «صم بكم عمي فهم لا يرجعون» كيف طريقته عند علماء البيان؟

درج القدماء على المزج بين التشبيه والتمثيل ومنهم صاحب الكشاف وأبو السعود، وهي مصطلحات لا تنافر بينها، والمحدثون فهموا هذا التفريع بدقة وألفوا في ذلك مصنفات خصوصاً من يجنح للمدرسة السكاكية، ولكن الذي كان يقع فيه الخلط هو الفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة، وبات الأمر واضحاً حيث عرف الفرق بين التشبيه والاستعارة أولاً، لأن الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه، وإدخال المشبه في جنس المشبه به بحيث أصبح فرداً من أفراده، وبهذا جاز إطلاقه عليه أي إطلاق المشبه به على المشبه.

يقول القزويني: «وههنا شيء لا بد من التنبيه عليه، وهو أنه إذا أجري في الكلام لفظ دلت القرينة على تشبيه شيء بمعناه فيكون ذلك على وجهين: أحدهما أن لا يكون المشبه مذكوراً ولا مقدوراً كقولك غنت لنا ظبية وأنت تريد امرأة، ولقيت أسداً وأنت تريد رجلاً شجاعاً، ولا خلاف أن هذا ليس بتشبيه وأن الاسم فيه استعارة. =

للشجعان، وبحور للأسخياء، إلا أنّ هذا في الصفات، وذاك في الأسماء، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً، تقول: رأيت ليوثاً، ولقيت صماً عن الخير، ودجا الإسلام، وأضاء الحق، فإن قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة؛ لأنّ المستعار له مذكور وهم المنافقون/ ٢٣ب، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام، كقول زهير: [من الطويل]

لَدَىٰ أَسَدٍ شَاكِي السِّلاَحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ[1]

= والثاني: أن يكون المشبه مذكوراً أو مقدراً، فاسم المشبه به إن كان خبراً أو في حكم الخبر.... فالأصح أنه يسمى تشبيهاً، وأن الاسم فيه لا يسمى استعارة».

هذا هو أظهر الفروق بين التشبيه والاستعارة. أما التشبيه البليغ فقد درج الأقدمون وكثير من المحدثين على أن المحذوف الوجه والأداة هو البليغ؛ لأن حذف الوجه يفيد التعميم والشمول فيما يؤخذ من الصفات الملائمة للمشبه فقولنا زيد أسد أبلغ من ذكر «زيد أسد في الجراءة»، وأما حذف الأداة فلإفادة الاتحاد بين الطرفين كأن زيداً صار أسداً في شجاعته لا فارق إلا صورة الجسم وكأنها لم تكن، وهذا الحكم هو الذي وقف عنده كثير من البلاغيين.

ولكن أهل الذوق البلاغي منهم نظروا في الأساليب الرفيعة خصوصاً القرآن والسنة، وكلام العرب الخلص فوجدوا أن التشبيهات القرآنية كثيراً ما وردت بالأداة، وقد لوحظ الإشارة إلى الوجه أو ذكره، وانظر قول بعضهم: «الأصدقاء كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار» فلو أننا حذفنا الأداة والوجه لكان ذلك إفساداً للمعنى المقصود، إذ المعنى على «الأصدقاء نار»، ومن أجل هذا كله قالوا: إن البلاغة في التشبيه لا تكون بالحذف أو الذكر من غير نظر إلى المقصود، فالغرض من التشبيه هو الذي يحدد ذكر الأداة أو حذفها وكذلك الوجه، فإذا كان القصد إلى معنى يتحقق بذكر الأداة فلا بد من ذكرها وهذا وارد كثيراً في القرآن والسنّة وشعر العرب، وإذا كان المعنى لا يتحقق إلا مع الحذف حذفت الأداة أو الوجه، فالحذف والذكر يدوران مع المعنى المقصود حذفاً وذكراً وكلام الله - تعالى - هو الحجة والمرجع.

«ينظر أسرار البيان د. علي حسن العماري ٨٦، ٨٧ والبلاغة القرآنية ٤٨٨ وما بعدها، الإيضاح للقزويني ٤/ ١٢٩ وما بعدها».

(١)
فشد فلم يفزع بيوتاً كثيرة ... لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم
لدى أسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلم

لزهير بن أبي سلمى من معلقته يمدح حصين بن ضمضم بأنه شد على عدوه بحسن تدبير فلم يفزع بيوتاً كثيرة. أو المعنى شد عليه وحده، فلم يفزع بيوتاً، أي أهل بيوت تساعده، و «حيث» بدل من «لدى» ويحتمل أن لدى لمكان مبهم مضاف لحيث المعنى بإضافته للجملة. وأم قشعم: اسم للمنية. شبهها بالمسافر على طريق المكنية. والرحل تخييل و «لدى» الثاني بدل من الأول. وجرّد من الممدوح لكماله في الشجاعة شخصاً آخر، فاستعار له الأسد استعارة تصريحية. وشاكي: أي تام السلاح تجريد؛ لأنه يلائم المشبه. قال الفراء: هو مقلوب شايك: أي ذي شوكة وحدة. ومقذف: أي ضخم، كأنه قذف باللحم ورمي به. له لبد: أي شعور متلبدة على منكبيه. أظفاره لم =

ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسَوْنَ التشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً، قال أبو تمام: [من المتقارب]

وَيَصْعَدُ حَتَّىٰ يَظُنَّ الجَهُولُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَاءِ[١]

وبعضهم: [من البسيط]

لا تَحْسَبُوا أَنَّ فِي سِرْبَالِهِ رَجُلاً فَفِيهِ غَيْثٌ وَلَيْثٌ مُسْبِلٌ مُشْبِلُ[٢]

وليس لقائل أن يقول: طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة؛ لأنه في حكم المنطوق به؛ نظيره قولُ من يخاطب الحَجاج: [من الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ[٣]

= تقلم: كل هذا ترشيح لأنه يلائم المشبه به. وفي قوله أظفاره لم تقلم: نوع من الإطناب يسمى الإيغال ختم به البيت للمبالغة في التشبيه، كقول الخنساء في أخيها صخر: كأنه علم في رأسه نار.

ينظر ديوانه ص ٢٤، لسان العرب (قذف)، (مكن)، تهذيب اللغة (٧٦/٩)، جمهرة اللغة (ص ٩٧٤)، تاج العروس (قذف).

(١) لأبي تمام يمدح خالد بن يزيد الشيباني ويذكر أباه. فضمير «يصعد» ليزيد. واستعار الصعود من العلو الحسي للعلو المعنوي على طريق التصريح، ثم بنى عليه ما ينبني على العلو في المكان ترشيحاً وتتميماً للمبالغة في التشبيه، لأن ذلك الظن لا ينبني إلا على رؤيته صاعداً حقيقة. والظن ـ كالعلم ـ يتعدى بنفسه تارة وبالحرف أخرى. وخصَّ الجهول ليفيد أن ذلك الظن خطأ. ويشبه أن يكون تجريداً للاستعارة، لكن أخفاه ظهور الترشيح، وأفاد السعد أن ذكر الجهول احتراس من توهم احتياج الممدوح والمقام، لدعوى أنه في غاية الكمال، واشتهرت روايته لظن بالماضي، وهو على تقدير القسم وقد: أي والله لقد ظن الجهول ذلك.

(٢) للزمخشري. شبه الممدوح بالغيث في كثرة الخير والكرم، وبالليث في كثرة الشجاعة، واستعارهما له على طريق الاستعارة التصريحية، وبنى على ذلك نهى الناس عن أن يظنوا أن في ثوبه رجلاً، للدلالة على تناسي التشبيه وادعاء الاتحاد. والمسبل: كثير الانسياب، فهو راجع للغيث. والمشبل الذي كثرت أشباله: أي أولاده من الأسود، فهو راجع لليث، ففيه لف ونشر، وفيه شبه التضاد حيث جمع بين ما يخشى وما يرجى. وفيه الجناس اللاحق بين غيث وليث، وبين مسبل ومشبل.

(٣)
أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا كررت على غزالة في الوغي بل كان قلبك في جناحي طائر

لعمران بن حطان قاتل الحجاج. روي أن شبيب الخارجي وأمه جهيزة وامرأته غزالة، كانوا في غاية الفراسة فدخلوا الكوفة في ألف وثلاثين فارساً، وفيها حينئذٍ الحجاج ومعه ثلاثون ألف مقاتل فحاربوه سنة كاملة حتى هرب منهم فعيّره عمران بذلك: أي أنت كالأسد، ولا يصح استعارة عند الجمهور لنية ذكر المشبه. وجوزها التفتازاني على أن المذكور فرد هن أفراده لا عينه. و «على» متعلق بأسد، لما فيه من معنى الشجاعة والقوة. و «في الحروب» متعلق بنعامة، لما فيه من معنى الجبن والضعف. وهذا ظاهر على مذهب العلامة، لأن الأسد مستعار لمطلق شجاع، والنعامة لمطلق جبان. وأما على مذهب الجمهور فهما جامدان لبقائهما على حقيقتهما، إلا أن يقال: لما =

ومعنى ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾: أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلاً عليهم بالطبع، أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخرون؟: وكيف يرجعون إلى حيث ابتدءوا منه؟!

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر، ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف، وإيضاحاً غب إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظانّ الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز؛ فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع؛ أنشد الجاحظ: [من الكامل]

يُوحُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وتَارَةً ... وَحْيَ الْمُلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ[1]

ومما ثنى من التمثيل في التنزيل قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢١]، وألا ترى إلى ذي الرُّمَّة كيف صنع في قصيدته؟: [من البسيط]

أَذَاكَ أَمْ نَمِشٌ بِالْوَشْيِ أَكْرُعُهُ ... .

أَذَاكَ أَمْ خَاضِبٌ بِالسِّيِّ مَرْتَعُهُ ... .[2]

= وقع في مقام التشبيه لوحظ فيهما الوصف الذي بُنيت عليه المشابهة. ويجوز تعلقهما بمعنى التشبيه، أو بمحذوف حال من المبتدأ المحذوف على رأي سيبويه. والفتخ - بالتحريك - لين وانفراج في الأصابع والأجنحة. والفتخاء: وصف منه. وتنفر: صفة نعامة، أي تفزع وتهلع خوفاً من أدنى صوت تسمعه. وصفها بغاية الضعف ليدل على أن المشبه كذلك ثم وبخه بقوله: هلا كررت على تلك المرأة في الحرب. لم تفعل ذلك بل كان قلبك يخفق ويضطرب، كأنه في جناحي طائر، وهو من التشبيه البليغ. ويروى: هلا برزت إلى غزالة.

ينظر: جمهرة اللغة ص (٩٢٣)، وعمران بن حطان في الأغاني (١٨/ ١٢٢).

(١) أنشده الجاحظ، وروي «يرمون» استعار الرمي لإخراج الكلام من الفم بكثرة على طريق التصريح. ويقال: وحى له، وإليه وحياً، وأوحى له وإليه إيحاء: إذا ألقى إليه الكلام، أو أشار له به، وألهمه إياه. فالوحي مصدر وحي أو اسم مصدر أوحى، واللحظ: الإشارة بطرف العين يُمْنَة أو يُسْرَة. واللاحظ وصف بحسب الأصل، وهو اسم لطرف العين. ولذلك جمع على لواحظ، ونسب الوحي إليها لأنها آلة. ويجوز أنه جمع لاحظة عنق للنسائي أي يتكلمون بالخُطَب الطوال تارة عند الأمن، ويوحون وحياً باللواحظ تارة أخرى، لخوفهم من الرقباء، فلكل مقام عندهم مقال.

(٢) أذاك أم نمش بالوشي أكرعه ... مسفع الخد عاد ناسط شبب =

فإن قلت: قد شبه المنافق في التمثيل الأوّل بالمستوقد ناراً، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، فما ذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق؟ قلت: لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فإن قلت: هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات؟ وهلا صرح به كما في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨]، وفي قول امرىء القيس: [من الطويل]

كأنَّ قُلوبَ الطَّيرِ رَطْباً ويَابِساً ... لَدَى/ ٢٤أ وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي [(١)]

= أذاك أم خاضب بالسي مرتعه ... أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب

لذي الرمة يصف ناقته شبهها أولاً بحمار الوحش، ثم قال: أذاك الحمار تشبهه ناقتي أم نمش. والنمش بالتحريك ـ: تفرُّق اللون. وكحذر: متفرق اللون. والوشى: لون يخالف لون بقية الشيء. والأكرع: جمع كراع وهو الساق والمسفع: الأسود ـ من السفعة ـ وهي السواد: والناشط: الخارج من أرض لأخرى. والشبب ـ كحذر أيضاً ـ المسن من بقر الوحش. ثم قال أذاك الثور يشبهها، أم خاضب؟ وهو الظليم الذي احمرّت ساقاه، أو اصفرّتا من أكل الربيع. والسي: المستوى من الأرض، واسم موضع بعينه. والمرتع: مصدر أو اسم مكان مظروف في أوسع منه. ومنقلب: راجع من المرعى إلى أفراخه الثلاثين. فيكون أسرع ما يكون، فهي كذلك سريعة السير. وأكرعه فاعل بالظرف أو فاعل نمش. ومرتعه: فاعله بالظرف، أو مبتدأ والظرف خبر له.

وهو لـ «ذي الرمّة» في ديوانه ص ٧٤، ولسان العرب (نشط)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٨٢، وكتاب العين ٦/ ٢٢٣، ٢٧١، ومقاييس اللغة ٣/ ١٧٧، ٥/ ٤٢٦، وتاج العروس (نشط)، ٢١/ ٢٠٠ (سفع)، ومجمل اللغة ٣/ ١٥٢، ٤/ ٤٠١، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٥٤، وبلا نسبة في لسان العرب (نمش)، وتاج العروس (نمش).

(١) لامرىء القيس يصف العقاب وهي تأكل صغار الطير إلا قلوبها، فلذلك كثُرت عندها، ويصف نفسه بالشجاعة، حيث وصل إلى رؤية ذلك فقال: كأن قلوب الطير حال كونها رطباً بعضها ويابساً بعضها، حال كونها عند وكر العقاب ـ أي عشها ـ: العناب، وهو ثمر أحمر رطب، فهو راجع للبعض الرطب. والحشف: الجاف الرديء من التمر البالي الهالك، فهو راجع للبعض اليابس، ففيه لف ونشر مرتب، وفيه طباق التضاد بين الرطب واليابس. ويجوز أن رطباً ويابساً نصب على البدل من قلوب الطير، أي كأن الرطب واليابس منها: العناب والحشف، وبدل البعض لا يجب فيه ضمير يرجع للمبدل منه، وإن كان الأولى ذلك.

ينظر البيت في ديوانه ص ٣٨، وشرح التصريح ١/ ٣٨٢، وشرح شواهد المغنى ١/ ٣٤٢، ٢/ ٥٩٥، ٨١٩ واللسان (أدب)، والمنصف ٢/ ١١٧، وأوضح المسالك ٢/ ٣٢٩، ومغني اللبيب ١/ ٢١٨، ٢/ ٣٩٢، ٤٣٩، ودلائل الإعجاز (٦٦)، وروح المعاني ١٣/ ٣٤، والدر المصون ٤/ ٩٠.

قلت: كما جاء ذلك صريحاً فقد جاء مطوياً ذكره على سنن الاستعارة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه: أنّ التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفرّقة، لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفحل والمذهب الجزل، بيانه: أنّ العرب تأخذ أشياء فرادى، معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامّت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً، بأخرى مثلها؛ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ...﴾ [الجمعة: ٥] الآية؛ الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار، لا يشعر من ذلك إلا بما يمرّ بدفيه من الكدّ والتعب؛ وكقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٥]، المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيئاً واحداً، فلا، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل؛ وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق، فإن قلت: الذي كنت تقدّره في المفرّق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك: «أو كمثل ذوي صيب» هل تقدّر مثله في المركب منه؟ قلت: لولا طلب الراجع في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ ما يرجع إليه لكنت مستغنياً عن تقديره؛ لأني أراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا عليّ أوَلِيَ حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٤] الآية، كيف ولي الماء الكاف، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره، ومما هو بين في هذا قول لبيد: [من الطويل]

وَمَا النَّاسُ إلاّ كَالدِّيَارِ وَأَهْلُهَا ... بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وغَدْواً بَلاَقِعُ[1]

---

(١) لم يرد تشبيه الناس بالديار ذاتها، وإنما أراد تشبيه حالهم بحال الديار مع أهلها. وقوله: «وأهلها بها» جملة حالية. و «يوم حلوها» نصب بعامل المجرور قبله المحذوف. و «غدوا بلاقع» أي وهي في غد بلاقع، جمع بلقع: أي قفر خالي، والشائع استعمال «الغد» كاليد، فظهرت واوه هنا على الأصل. وعبّر بالغد ومراده به الزمن القريب، كما يقال أفعله بكرة. والمراد بعد أيام قليلة، فالجامع سرعة الفناء والزوال بعد البهجة والنضرة. ولك جعله من تشبيه المفرد بالمفرد بجامع أن الناس =

لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم، بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها، وتركها خلاء خاوية، فإن قلت: أي التمثيلين أبلغ[1]؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدّة الأمر وفظاعته؛ ولذلك أُخر، وهم

= تكون فيها الأرواح. فهي زاهية باهية، ثم تنزع منها فتصير خالية خاوية كالدار تكون عامرة بأهلها فتصبح خراباً. وهذا على رفع أهلها. وأما على جره عطفاً على الديار فيتعين الأول، ويكون «بها» متعلق بمحذوف حال من أهلها. والباء بمعنى «في» على التقديرين.

وهو للبيد في ديوانه ص ١٦٩، وأمالي المرتضى ١/ ٤٥٣، وشرح المفصّل ٦/ ٤، والشعر والشعراء ١/ ٢٨٤، ولسان العرب (غدا)، ولذي الرمّة في ملحق ديوانه ص ١٨٨٧، وللبيد أو لذي الرمة في تاج العروس (غدا)، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٧/ ٤٧٩، والكتاب ٣/ ٣٥٨، والمنصف ١/ ٦٤، ٢/ ١٤٩.

(١) قوله ـ تعالى ـ «أو كصيب من السماء. . . .» الآية فيه تمثيلان على المفرد أو التركيب فأي التمثيلين أبلغ؟

المراد بالتمثيل في كلام فحول العلماء المتقدمين: التشبيه، وهذه قضية لها كلام سيأتي في محله، لكن القصد هنا في أن الكلام في الآية وما قبلها يحتمل تشبيه المفردات ببعضها كل فيما يقابله، ويحتمل تشبيه التركيب بحيث ينظر إلى الهيئة الحاصلة من اجتماع هذه المفردات على الصورة المقصودة التي تؤدي المعنى المراد لدى المتكلم، وخصوصاً إذا كان رب العالمين هو المتكلم فهو العليم الخبير بذات الصدور، لهذا وجب أن نفرق بين المتعدد والمركب في التشبيه، فأقول: الفرق بينهما في أمور أجملها فيما يلي:

١ ـ المتعدد له أوجه متعددة لا تتداخل، فهي مفردات متوالية، بخلاف المركب فإن وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من صورتين هما طرفا التشبيه كما بين المفسر العلامة.

٢ ـ في المتعدد يصح تفريق التشبيه، لأن كل مفرد وضع بجانب الآخر أما المركب ففيه (أ) نوع يصح فيه تفصيل الأجزاء، وتشبيه كل جزء منه بما يقابله في الطرف الآخر كما في قوله ـ تعالى ـ «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا» فلو قلت في غير القرآن: اليهود كالحمير صح التشبيه، لكن ذلك لا يقصد أبداً في الآية.

(ب) ونوع آخر إذا فرقت أعضاؤه فسد فيه تشبيه مفرده، كما في قول الشاعر [من الكامل]:

وكأن أجرام النجوم لوامعا ... درر نشرن على بساط أزرق

فهذا من التشبيه الذي يوجد فيه الحسن الملائم للمقام حينما ترى صورته كذلك فإذا فضت ترى مفردات هزيلة لا تحسن في التشبيه، إذ ما معنى تشبيه النجوم بالدرر فقط؟!!

٣ ـ في المتعدد لا ترى للترتيب مزية بخلاف المركب فإن كل جزئية فيه نراها في مكانها لا تفارقه كموضع العين والأنف والقدم فلا يصح وضع العين مكان الأنف أو القدم وهكذا في المركب، ترى لكل كلمة في مكانها وقعاً لتؤدي أداء في صورة المقصود لا يصلح في مكانها سواها من التركيب أو من غيره.

٤ ـ فائدة التشبيه المتعدد الاختصار فقط أما المركب فإن ثمرته أن الناظر فيه يكوّن صورة ينتزعها من الأجزاء متواصلة متآلفة كما ترى في الإنسان بصورته المكونة من أعضاء جسمه فإن كل عضو على حده لا مزية فيه، ولكن حسنه يتجلى إذا تواصل مع بقية أعضاء الجسم حوله ولننظر الآية السابقة «مثل الذين حملوا التوراة. . .» الآية، وانظر قول الشاعر [من الطويل]: =

يتدرجون في نحو هذا من الأهون/ ٢٤ب إلى الأغلظ، فإن قلت: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ قلت: «أو» في أصلها؛ لتساوي شيئين فصاعداً في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك؛ وذلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما سيان في استصواب أن يجالسا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أي الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما؛ فكذلك قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾: معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأن القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك. والصيب: المطر الذي يصوّب، أي ينزل ويقع، ويقال للسحاب: صيب، أيضاً؛ قال الشمّاخ: [من الطويل]

.... وأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرَّعْدِ صَيِّبِ(١)

= كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهادى كواكبه

فالمقصود بيان هيئة الحرب والضرب وما يكون فوق الرؤوس بصورة الليل الذي تتساقط فيه الكواكب، فتخيل المشبه به وإن كان خيالياً يعطينا صورة كاملة للمشبه الحقيقي لهذه الحرب الضروس.

لهذا كان الاعتبار في الآية «أو كصيب وما قبلها» لهذا التركيب لا للمتعدد لأن التركيب يدل أكثر من التعدد، وهذا ما أفاد المفسر العلامة. «ينظر البلاغة القرآنية ٤٧٥ وما بعدها تعليقات العلامة: محمد عبد المنعم خفاجي على الإيضاح للقزويني ٤/٤١، ٤٢، ٤٣، والمطول ٣٢٣ وما بعدها، أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ٢/٤١ وما بعدها».

(١) أرسماً جديداً من سعاد تجنب ... عفت روضة الأجداد منه فينقب
عفا آية نسج الجنوب مع الصبا ... وأسحم دان صادق الوعد صيب

للشماخ. وقيل للنابغة الذبياني وقيل للهيثم بن خوار. يقال: جنبه، باعده أو أصاب جانبه، وعفى المنزل: درس وهلك، وعفته الريح: أهلكته ودرسته. والجد ـ بالضم ـ البئر التي في موضع كثير الكلأ. والجدد: الأرض الصلبة، ضد الحبار، والأجداد جمع للأول أو للثاني. والجدد: الطرائق المنعطفة من الرمل. ويجوز أن الأجداد جمعه أيضاً، لكن على روايته «روضة» بالنصب والإضافة للضمير. والأجداد بالرفع. والنقب ـ كالشعب ـ: الطريق المطمئن في الجبل. ونقب المكان ينقب: صار ذا نقب. وكذلك يشعب صار ذا شعب. هذا والمتبادر أنه بالعين بدل القاف، أي يقفر، من النقبة وهي الإقفار. والآي واحدة آية، بمعنى العلامات والآثار. وشبه اختلاف الرياح على وجوه منضبطة بالنسج على طريق التصريحية. والأسحم: الأسود، وهو صفة السحاب. والداني: القريب. وروي «داج» والداجي المظلم. والصيب: كثير الأمطار. والاستفهام تعجبي: يقول: أتعجب من مباعدتنا الرسم الجديد من دار سعاد؟ أو أتعجب من مرورنا بجانب رسم سعاد الجديد الذي هلكت آثاره فصار طرقاً متسعة؟ والذي محا أثره هو اختلاف الرياح وتتابُع الأمطار. فعفا استئناف بياني. وشبّه السحاب برجل صدَق وعده على طريق المكنية. والصدق والوعد تخييل. وروي الرعد بالراء، شبّه رعده بالخبر الصادق. وصيب: فيعل من صاب يصوب، إذا نزل مائلاً إلى جهة، كسيِّد من ساد يسود.

وتنكير صيب؛ لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل، كما نكرت النار في التمثيل الأول، وقرىء: «كصائب»، والصيب أبلغ. والسماء: هذه المظلة، وعن الحسن: أنها موج مكفوف. فإن قلت: قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ما الفائدة في ذكره، والصيب لا يكون إلا من السماء؟ قلت: الفائدة فيه أنه جاء بالسماء معرفة فنفى أن يتصوّب من سماء، أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق، لأنّ كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، الدليل عليه قوله: [من الطويل]

.... ومِـنْ بُـعْـدِ أَرْضٍ بَـيْـنَـنَـا وسَـمَـاءِ(١)

والمعنى أنه غمام مطبق آخذ بآفاق السماء، كما جاء بصيب، وفيه مبالغات من جهة التركيب والبناء والتنكير، أمد ذلك بأن جعله مطبقاً، وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، فإن قلت: بم ارتفع ظلمات؟ قلت: بالظرف على الاتفاق لاعتماده على موصوف. والرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوّت عند ذلك من الارتعاد، والبرق الذي يلمع من السحاب، من برق الشيء بريقاً إذا لمع، فإن قلت: قد جعل الصيب مكاناً للظلمات فلا يخلو من أن يراد به السحاب أو المطر، فأيهما أريد فما ظلماته؟ قلت: أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقاً فظلمتا سحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل، وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر، وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة

---

(١) فـأوه لـذكـراهـا إذا مـا ذكـرتـهـا ومِـن بـعـد أرض بـيـنـنـا وسـمـاء

«أوّه» بالتشديد مع فتح الواو وكسرها مبني على السكون. وروي بضم الهمزة وسكون الواو. وفيه لغة ثالثة بإبدال الواو ألف مد مبني فيهما على الكسر: اسم فعل للتوجُّع. وما زائدة بعد إذا للدلالة على تعميم الأوقات. يقول: أتوجّع من تذكُّر المحبوبة كلما تذكرتها، ومن بعد ما بيننا من قطعة أرض وقطعة سماء تقابل تلك القطعة فأطلق الأرض والسماء على بعض كل منهما، وذكرهما لإفادة ذلك، لكن المقرر عندهم أن التنوين إنما يفيد التبعيض في الأفراد لا في الأجزاء، فلا يتم ما تقدم إلا بعد ادعاء أن السماء تطلق على بعض تلك المظلة، والأرض على بعض هذه المقلة؛ ليكون البعض فرداً من الأفراد لا جزءاً من الأجزاء. وذكر السماء دلالة على تناهي البُعد في الأرض، لأنه يظهر فيها قبل ظهوره في السماء. ويجوز أن المراد تشبيه البُعد بينهما بالبُعد بين السماء والأرض. وعليه فالتنوين للتهويل والتعظيم.

ينظر: المحتسب ١/ ٣٩، الخصائص ٢/ ٨٩، الهمع ١/ ١٦، الدرر ١/ ٣٨، معاني القرآن ٢/ ٢٣، المنصف ٣/ ١٢٦، الأصول لابن سراج ٣/ ٣٣٠، ابن يعيش ٤/ ٣٨، ارتشاف الضرب ١/ ٤٧٤، اللسان (أو)، النكت والعيون ١/ ٥٧، المحرر الوجيز ١/ ٧١، القرطبي ١٠١، الدر ١/ ٧٣.

الليل، فإن قلت: كيف يكون المطر مكاناً للبرق والرعد وإنما مكانهما السحاب؟ قلت إذا كانا في أعلاه ومصبه وملتبسين في الجملة فهما فيه، ألا تراك تقول: فلان في البلد، وما هو منه إلا في حيز يشغله/ ٢٥أ جرمه، فإن قلت: هلا جمع الرعد والبرق أخذاً بالأبلغ كقول البحتري: [من الكامل]

يَـا عَـارِضـاً مُـتَـلَـفِّـعـاً بِـبُـرودِهِ   يَـخْـتَـالُ بَـيْـنَ بُـرُوقِـهِ ورُعُـودِهِ[١]

وكما قيل: ظلمات؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد العينان، ولكنهما لما كانا مصدرين في الأصل ـ يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً ـ روعى حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع، والثاني: أن يراد الحدثان كأنه قيل: وإرعاد وإبراق؛ وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات، لأن المراد أنواع منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف، وجاز رجوع الضمير في يجعلون إلى أصحاب الصيب مع كونه محذوفاً قائماً مقامه الصيب، كما قال: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، لأن المحذوف باق معناه وإن سقط لفظه، ألا ترى إلى حسان كيف عوّل على بقاء معناه في قوله: [من الكامل]

يُسْـقَـوْنَ مِـنْ وِرْدِ الـبَـرِيـصِ عَـلَـيْـهِـمُ   بَـرَدَىٰ يُـصَـفَّـقُ بـالـرَّحِـيـقِ الـسَّـلْـسَـلِ[٢]

---

(١) يـا عـارضـاً مـتـلـفـعـاً بـبـروده   يـخـتـال بـيـن بـروقـه ورعـوده
إن شئت عدت لأرض نجد عودة   فحللت بين عقيقه وزروده
لتجود في ربع بمنعرج اللوى   قفر تبدل وحشة من غيده
للبُحتري يخاطب السحاب لأنه شبَّهه لتكاثفه وتراكمه بإنسان متلفع بثيابه. وإثبات التلفُّع بالبرود والاختيال تخييل وبنى على ذلك إثبات المشيئة له. وجمع البرق والرعد مع أنهما مصدران للدلالة على الكثرة والتعدُّد المرات. والعقيق والزرود موضعان بعينهما. والمنعرج ـ على زنة اسم المفعول ـ المكان الذي ينعطف فيه السائر يُمنة ويُسرة. واللوى الرمل الملتوي. والأغيد: الناعم الجميل، مؤنَّثه غيْداء، والغيد ـ كالبيض ـ جمعه. والجود: الأمطار.
يلتمس من السحاب المعترض في الأفق أن يمطر في ربع الأحبة بالمكان المنعطف، ثم وصف الربع بأنها قفر لا نبات فيه، وصار فيه وحشة بالوحوش بدل الأنس بالأحبة.

(٢) لله در عصابة نادمتهم   يوماً بجلق في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم   بردى يصفق بالرحيق السلسل
لحسّان بن ثابت يذكر أيام ملوك الشام الغسانيين. والعصابة: الجماعة على رأي واحد. وجلق ـ بالتشديد ـ اسم أعجمي لبلد. «وفي الزمان» متعلق بمحذوف صفة ليوم الواقع ظرفاً للمنادمة. وهي المحادثة على الشراب. والبريص اسم وادٍ. ويروى ـ بفتحتان ـ: علم لنهر بدمشق وجبل بالحجاز واسم للبحر. ويصفق: أي يمتزج. وقيل «يتصفى» ينقله من إناء إلى آخر. ولعله رواه «يصفى» من التصفية. والرحيق: الصافي. والسلسل: السهل المساغ «ومن ورد» مفعول أول، و «عليهم» قيل متعلق بمحذوف حال من الضمير المنوي في ورد. والظاهر أنه متعلق بورد أي أقبل =

حيث ذكر يصفق؛ لأن المعنى: ماء بردى، ولا محل لقوله: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ لكونه مستأنفاً؛ لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدّة والهول، فكأن قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾، ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل: يكاد البرق يخطف أبصارهم، فإن قلت: رُأَيسُ الأصبع هو الذي يجعل في الأذن[1]؛ فهلا قيل: أناملهم؟ قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها، كقوله: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ، وأيضاً ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، فإن قلت: فالأصبع التي تسدّ بها الأذن أصبع خاصة[2]، فلم ذكر الاسم العام دون الخاص؟ قلت: لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن، ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة والدّعاءة، فإن قلت: فهلا ذكر بعض هذه الكنايات؟ قلت: هي ألفاظ

= ونزل. و «بردى» مفعول ثانٍ. و «يصفق» جملة حالية. والمعنى: أن كل من ورد عليهم البريص يسقونه ماء بردى حال كونه على مامر. ويجوز أن يكون معناه تتلاطم أمواجه فالباء للملابسة. ويحتمل أن فيه قلباً. والأصل يصفق الرحيق السلسل به، ولعل ذلك كناية عن كرمهم لإكثارهم العطاء. وقيل الرحيق السلسل الخمر الصافية السهلة. والمعنى على التشبيه، أي بماء كأنه الخمر. والظاهر بقاؤه على حقيقته، ويكون ذلك قبل تحريمها وهو أوقع في مقام المدح. فإن قلت: «بردى» مؤنث، فلم قال «يصفق» بالتذكير؟ قلت: هناك مضاف مذكر حذف، فقام المضاف إليه مقامه في الإعراب والتذكير. والأصل: ماء بردى.

ينظر ديوانه ص ١٢٢، وجمهرة اللغة ص ٣١٢، وخزانة الأدب ٤/ ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ١١/ ١٨٨، والدرر ٥/ ٣٨، وشرح المفصل ٣/ ٢٥، ولسان العرب (برد)، (برص)، (صفق)، ومعجم ما استعجم ص ٢٤٠، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/ ٤٥١، وشرح الأشموني ٢/ ٣٢٤، وشرح المفصل ٦/ ١٣٣، ولسان العرب ١١/ ٣٤٥ (سلسل)، وهمع الهوامع ٢/ ٥١.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت المجعول من الأصابع في الآذان رءوسها... إلخ» قال أحمد رحمه الله: لأن فيه إشعاراً بأنهم يبالغون في إدخال أصابعهم في آذانهم فوق العادة المعتادة في ذلك فراراً من شدة الصوت.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فالأصبع التي تسد الأذن... إلخ». قال أحمد رحمه الله: لا ورود لهذين السؤالين. أما الأول فلأنه غير لازم أن يسدوا في تلك الحالة بالسبابة ولا بد فإنها حالة حيرة ودهش، فأي أصبع اتفق أن يسدوا بها غير معرجين على ترتيب معتاد في ذلك، فذكر مطلق الأصابع أدل على الدهش والحيرة. أو فلعلهم يؤثرون في هذا الحال سد آذانهم بالوسطى، لأنها أصم للأذن وأحجب للصوت فلم يلزم اقتصارهم على السبابة. وأما السؤال الثاني فمفرع على الأول، وقد ظهر بطلانه؛ وأيضاً ففيه مزيد ركاكة. إذ الغرض تشبيه حال المنافقين بحال أمثالهم من ذوي الحيرة، فكيف يليق أن يكني عن أصابعهم بالمسبحات؟ ولعل ألسنتهم ما سبَّحت الله قط. ثم إذا كان الغرض من التمثيل تصوير المعاني في الأذهان تصوير المحسوسات، فذلك خليق بذكر الصرائح واجتناب الكنايات والرموز.

مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد، وإنما أحدثوها بعد، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم، كقولك: سقاه من العيمة[1]، والصاعقة: قصفة رعد تنقض معها شقة من نار، قالوا: تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه، وهي نار لطيفة حديدة، لا تمرّ بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود، يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت، ويقال: صعقته الصاعقة إذا أهلكته، فصعق؛ أي مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقرأ الحسن: «من الصواقع»/ ٢٥ب؛ وليس بقلب للصواعق، لأنّ كلا البناءين سواء في التصرف، وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله، ألا تراك تقول: صقعه على رأسه، وصقع الديك، وخطيب مصقع: مجهر بخطبته، ونظيره: «جبذ» في: «جذب» ليس بقلبه لاستوائهما في التصرف، وبناؤها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد، أو للرعد، والتاء مبالغة كما في الراوية، أو مصدراً كالكاذبة والعافية، وقرأ ابن أبي ليلى: «حذار الموت»، وانتصب على أنه مفعول له؛ كقوله: [من الطويل]

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الكَرِيمِ ادِّخَارَهُ[2] ....

والموت: فساد بنية الحيوان، وقيل: عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة، وإحاطة الله بالكافرين مجاز، والمعنى: أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به

---

(١) قوله «سقاه من العيمة» هي شهوة اللبن، وقيل شدة شهوته. أفاده الصحاح. (ع)

(٢)
وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر ... وذي أود قومته فتقوما
وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

لحاتم الطائي. وقيل للأحنف بن قيس. يقول: ورب عوراء، أي كلمة قبيحة، قد أعرضت عن المؤاخذة بها فلم تضرني. ورب ذي أود ـ أي اعوجاج ـ كالعصي المعوجة، قومته وعدلته بالمحاربة فتقوم. وقسم الأعراض إلى قسمين: لكل منهما علة مخصوصة فقال: وأغفر عوراء الكريم، أي قبيحته، لأجل ادخاري إياه، فادخاره: مفعول له نصب بأغفر، وإن عرض بالإضافة. وأعرض عن شتمي للرجل اللئيم تكرماً مني كي لا أكون مثله. ويجوز أن المعنى: عن مؤاخذة اللئيم لشتمه لي تكرماً مني. فتكرماً: مفعول نصب بأعرض. والقول بأن تكرماً علة لأعرض وأغفر: قول مَن لم يذق طعم الكلام.

البيت لحاتم الطائي ينظر ديوانه ص ٢٢٤، وخزانة الأدب ٣/ ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٤٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٥٢، الكتاب ١/ ٣٦٨، وشرح المفصل ٢/ ٥٤، واللمع ص ١٤١، والمقاصد النحوية ٣/ ٧٥، ونوادر أبي زيد ص ١١٠، أسرار العربية ص ١٨٧، وخزانة الأدب ٣/ ١١٥، ولسان العرب (عور) (خصص)، وشرح ابن عقيل ص ٢٩٦، المقتضب ٢/ ٣٤٨، الكامل (١٦٥) والعين (٣/ ٧٥) والأشموني (٢/ ١٨٩) وروح المعاني (١/ ١٧٤) والدر المصون (١/ ١٣٨) فتح القدير ١/ ٢٣٢.

حقيقة، وهذه الجملة اعتراض لا محل لها[1]، والخطف: الأخذ بسرعة، وقرأ مجاهد «يخطف» بكسر الطاء، والفتح أفصح وأعلى، وعن ابن مسعود: «يختطف»، وعن الحسن: «يَخَطِّفُ»، بفتح الياء والخاء، وأصله: يختطف، وعنه: «يخطف»، بكسرهما على إتباع الياء الخاء، وعن زيد بن علي: «يخطف»، من خطف، وعن أبيّ: «يتخطف»، من قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق[2] فأعماهم، وأضاء: إما متعد بمعنى: كلما نوّر لهم ممشى ومسلكاً أخذوه والمفعول محذوف، وإما غير متعد بمعنى: كلما لمع لهم ﴿مَّشَوْاْ﴾ في مطرح نوره وملقى ضوئه، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: «كلما ضاء لهم»، والمشي: جنس الحركة المخصوصة، فإذا اشتد فهو سعي، فإذا ازداد فهو عدو، فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة: كلما، ومع الإظلام: إذا؟ قلت: لأنهم حراص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي وتأتيه، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحبس، وأظلم: يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر، وأن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل[3]، وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب: «أُظْلِمَ»، على ما لم يسم فاعله، وجاء في شعر حبيب بن أوس: [من الطويل]

هُمَا أَظْلَمَا حَالَيَّ ثُمَّتَ أَجْلَيَا ... ظَلامَيْهِمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ[4]

---

(١) قال السمين الحلبي: كأنه يَعْني بذلك أن جملة قوله: «يَجْعَلُون أصابعهم»، وجملة قوله: «يكاد البرق» شيء واحد؛ لأنهما من قصة واحدةٍ فوقع ما بينهما اعتراضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «أوفى ضوء البرق» لعله وفى. (ع)

(٣) قوله «منقولاً من ظلم الليل» في الصحاح «ظلم الليل بالكسر وأظلم» بمعنى، عن الفراء. (ع)

(٤)
أحاولت إرشادي فعقلي مرشدي ... أم استمت تأديبي فدهري مؤدبي
هما أظلما حالي ثمت أجليا ... ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب
شجى في حلوق الحادثات مشرق ... به عزمه في الترهات مغرب

لأبي تمام. ويقال لحبيب بن أوس. وحاول الشيء: أراده وحام حول تحصيله. واستام الشيء: قصده وتتبّع سماته وتعرفه بها. ويروى: أم اشتقت. وقوله «عن وجه أمرد أشيب» فيه تجريد، أي عن وجه رجل أمرد كناية عن حسن الخُلق. أشيب كناية عن جودة الرأي اللازمة لكمال الرجولية. والأول كناية عن المضي في طرق الهزل. والثاني كناية عن المضي في طرق الجد، فلذلك اجتمعا معاً في زمان واحد. ويُحتمل أنه شاب مع أنه أمرد من كثرة حوادث الدهر. والشجى: ما نشب في الحلق لا يصعد ولا ينزل. والمشرق المغرب: الذاهب شرقاً وغرباً. والمراد التعميم: والترهة: =

وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول/٢٦أ العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه، ومعنى ﴿قَامُواْ﴾: وقفوا وثبتوا في مكانهم، ومنه: قامت السوق، إذا ركدت، وقام الماء: جمد، ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف، لأن الجواب يدل عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها، ولقد تكاثر هذا الحذف في «شاء» و«أراد» لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنحو قوله: [من الطويل]

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ[(١)] ....

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاَتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤]، وأراد: ولو شاء الله لذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق، وقرأ ابن أبي عبلة: «لأذهب بأسماعهم»، بزيادة الباء كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والشيء: ما صح أن يعلم ويخبر عنه، قال سيبويه - في ساقة الباب المترجم بباب مجاري أواخر الكلم من العربية: وإنما يخرج التأنيث من التذكير، ألا ترى

= فارسي معرَّب بمعنى الطريق الصغيرة غير الجادة. والجمع ترهات وترارية. ثم استعير للباطل وصار اسماً له، والمعنى: إن أردت مرشدي فهو عقلي، أو مؤدبي فدهري. فالاستفهام بمعنى الشرط مجازاً، ويحتمل أنه توبيخي والفاء تعليلية لمحذوف، أي لا ينبغي إرادة إرشادي ولا تأديبي. فإن دهري وعقلي تكفَّلا بذلك. وبين ذلك بقوله «هما أظلما» واستعمال أظلم متعدياً لغة رديئة. وحالي: مفعول. والإظلام استعارة لتنغيص العيش وتكدير الخاطر. وأجليا: أزالا وكشفا ظلاميهما. والظلامان: استعارة للتكدُّر والتنغُّص. وقوله «شجى» بدل من الأمرد، أي كالشجى. وشبَّه الحوادث بحيوانات لها حلوق على طريق المكنية والحلوق تخييل لذلك. والمعنى أن الحوادث صارت لا تؤثِّر فيه ومضى به عزمه في جميع طرق الهزل كما مضى به في الجد، وبين مشرق مغرب طِباق التضاد.

ينظر ديوانه (١/١٥٧)، والدر المصون (١/١٤٢).

(١) ملكت دموع العين حين رددتها إلى ناظري والعين كالقلب تدمع
ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

لابن يعقوب إسحاق بن حسَّان الخذيمي، يرثي أبا الهيذام عامر بن عماد أمير عرب الشام، يقول: غلبت دموع عيني وقدرت عليها حين رددتها إلى مكانها. ويروى «ثم رددتها» والحال أنها تدمع دمعاً كالقلب في الحمرة والحرقة. أو تدمع على وجه التبعية للقلب. ويروى «فالعين في القلب» مبالغة في فكره وحزنه المضمر فيه. وذكر مفعول المشيئة مع أنه صار في استعمالهم نسياً منسياً لأنه شيء مستغرب فحسن ذكره. وضمن «أبكي» معنى أدمع، فعداه إلى الدم مع أنه لا يتعدى إلا إلى المبكي عليه. وشبَّه الصبر بكريم أو ببيت له ساحة على سبيل المكنية. والمراد أنه يترك الجزع ويعدل إلى الصبر فيتصف به.

ينظر الكامل (٤/٣)، الدلائل (١١٦) شرح الحماسة (٣/١٠٥٣)، الدر المصون (١/١٤٣).

أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى؟، والشيء: مذكر، وهو أعم العام، كما أن الله أخص الخاص يجري على الجسم والعرض والقديم، تقول: شيء لا كالأشياء؛ أي معلوم لا كسائر المعلومات، وعلى المعدوم والمحال فإن قلت: كيف قيل: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل[1] وفعل قادر آخر[2]؟ قلت: مشروط في حد القادر ألا يكون الفعل مستحيلاً؛ فالمستحيل مستثنى في نفسه عند ذكر القادر على الأشياء كلها، فكأنه قيل: على كل شيء مستقيم قدير، ونظيره: فلان أمير على الناس أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس، وأما الفعل بين قادرين فمختلف فيه، فإن قلت: ممّ اشتقاق القدير؟ قلت: من التقدير؛ لأنه يوقع فعله على مقدار قوّته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

لما عدّد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند

---

(١) قال محمود رحمه الله: «وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: هذا الذي أورده خطأ على الأصل والفرع. أما على الأصل، فلأن الشيء لا يتناول إلا الموجود عند أهل السنّة. وأما على الفرع، فلأنا وإن فرعنا على معتقد القدرية ـ والشيء عندهم إنما يتناول الموجود والمعدوم الذي يصح وجوده فلا يتناول المستحيل ـ إذاً على هذا التفريع ما يراده إياه نقضاً غير مستقيم على المذهبين. وأما المقدور بين قادرين، فإنها ورطة إنما يستاق إليها القدرية الذين يعتقدون أن ما تعلقت به قدرة العبد استحال أن يتعلّق به قدرة الرب، إذ قدرة العبد خالقة فيستغني الفعل بها عن قدرة خالق آخر ـ تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً ـ وأما أهل السنّة فالقادر الخالق عندهم واحد، وهو الله الواحد الأحد، فتتعلق قدرته تعالى بالفعل فيخلقه، وتتعلق به قدرة العبد تعلّق اقتران لا تأثير؛ فلذلك لم يخلق مقدور بين قادرين على هذا التفسير. وقد حشى الزمخشري في أدراج كلامه هذا سلب القدرة القديمة وجحدها، وجعل الله تعالى قادراً بالذات لا بالقدرة، دسّ ذلك تحت قوله: وفي الأشياء ما لا تعلق به لذات القادر، ولم يقل لقدرة القادر، فليتفطن لدفائنه. وكم من ضلالة استدسها في هذه المقالة والله الموفق. فإن قيل: أيها الأشعرية، إذا كان الشيء عندكم هو الموجود، فما معنى القدرة عليه بعد وجوده وبقائه، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ قلنا: القدرة تتعلق بمقدورها فتوجده فيكون حينئذٍ شيئاً؛ فلما كان مآل ما تعلقت به القدرة إلى الشيء حتماً، صح إطلاق الشيء عليه، وهو من وادي: «من قتل قتيلاً فله سلبه» وإذا سموا الشيء باسم ما يؤول إليه غالباً، فما يؤول إليه حتماً أجدر.

(٢) قوله «وفعل قادر آخر» لعله مبني على مذهب المعتزلة أن العبد هو الفاعل لأفعاله الاختيارية. ومذهب أهل السنّة أن فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى. (ع)

الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهو فنّ من الكلام جزل، فيه هزّ وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما: إنّ فلاناً من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي على جادّة السداد في مصادرك ومواردك، نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه مالاً يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة/ ٢٦ب، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف، يستفتح الآذان للاستماع، ويستهش الأنفس للقبول، وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة: أنّ كل شيء نزل فيه: (يٰأَيُّهَا النَّاسُ) فهو مكي، و(يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا) فهو مدني(٢٨)، فقوله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم): خطاب لمشركي مكة، و«يا» حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأما نداء القريب فله «أي، والهمزة»، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب، تنزيلاً له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جداً، فإن قلت: فما بال الداعي

---

٢٨ ـ هذا الحديث روي مرسلاً ومسنداً:ـ

أما المرسل: ـ فقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٤٠): كتاب فضائل القرآن: باب ما نزل من القرآن بمكة والمدينة، وأبو عبيد القاسم (٢/ ٢٠٢) باب منازل القرآن بمكة والمدينة، حديث (٨١٧).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٧٣).

وعزاه إلى ابن عبيد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن الضريس وابن المنذر وأبي الشيخ بن حيان في التفسير عن علقمة.

أما المسند: فقد أخرجه الحاكم (٣/ ١٨) كتاب الهجرة، والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٤٤) جماع أبواب نزول الوحي: باب ذكر السور التي نزلت بمكة، والتي نزلت بالمدينة.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٧٣)، وعزاه إلى البزار والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه ابن أبي شيبة قال: حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم بهذا. وأخرجه البزار من رواية الأقيس ابن الربيع عن الأعمش موصولاً بذكر عبد الله بن مسعود فيه. وقال: لا نعلم أحداً أسنده إلاّ قيس، واعترض بما رواه الحاكم والبيهقي في الدلائل عنه. وابن مردويه في تفسير الحج. كلهم من طريق وكيع أيضاً قال: حدثنا أبي عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله... (فائدة): هذا محمول على أن المراد بالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة؛ لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر فخوطبوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾. أفاده الشيخ بهاء الدين بن عقيل. انتهى.

يقول في جؤاره: يا رب[1]، ويا ألله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به وأبصر؟ قلت: هو استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظانّ الزلفى وما يقرّبه إلى رضوان الله ومنازل المقرّبين، هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله، مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله، و«أي» وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أنّ «ذو» و«الذي» وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل. وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو «أيّ» والاسم التابع له صفته، كقولك: يا زيد الظريف؛ إلا أن «أيًّا» لا يستقل بنفسه استقلال: «زيد» فلم ينفك من الصفة، وفي هذا التدرّج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أيّ من الإضافة، فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة: لأن كل ما نادى الله له عباده ـ من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه ـ أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان ـ عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ، فإن قلت: لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجهاً إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، أو إلى كفار مكة خاصة، على ما روى عن علقمة والحسن، فالمؤمنون عابدون ربهم، فكيف أمروا بما هم ملتبسون به؟ وهل هو إلا كقول القائل: [من الخفيف]

فَلَوَ انّي فَعَلْتُ كُنْتُ كَمَنْ تَسْـ ... ـأَلُهُ وَهْوَ قَائِمٌ أَنْ يَقُومَا[2]

وأما الكفار فلا يعرفون الله، ولا يقرّون/٢٧أ به فكيف يعبدونه؟ قلت: المراد بعبادة

---

(١) قوله «يقول في جؤاره: يا رب» في الصحاح: جأر الثور يجأر، أي صاح. وجأر الرجل إلى الله عز وجل: أي تضرع. (ع)

(٢)
نِعمة اللّه فيك لا تسأل اللّـ ... ـه إليها نُعمي سوى أن تدوما
فلو أني فعلت كنت كمن تسـ ... ـأله وهو قائم أن يقوما

النِّعمة بالكسر، والنُّعمي بالضم، وكذلك النَّعماء بالفتح بمعنى واحد. يقول: نِعمة اللّه علينا فيك كافية لا نطلب من اللّه نِعمة أخرى منضمة إليها، سوى أن تدوم هي أو أنت أو أنتما. فلو أني ـ بالنقل للوزن ـ فعلت، أي سألت اللّه غيرها كانت حالي مع اللّه كحالك مع من تسأله القيام وهو قائم، فهو تشبيه مركّب، وإلا فهو سائل ومن تسأله مسئول. يعني أن السؤال يكون تحصيلاً للحاصل، لأنه لا نِعمة سواها أعظم منها في ظنه. وفيه مبالغة في تعظيمها.

المؤمنين: ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها، وأما عبادة الكفار، فمشروط فيها ما لا بدَّ لها منه وهو الإقرار، كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرهما، وما لا بد للفعل منه، فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم يذكر، حيث لم ينفعل إلا به، وكان من لوازمه، على أنّ مشركي مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فإن قلت: فقد جعلت قوله: ﴿ٱعْبُدُوا﴾ متناولاً شيئين معاً: الأمر بالعبادة، والأمر بازديادها، قلت: الازدياد من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر، فإن قلت: ﴿رَبَّكُمُ﴾ ما المراد به؟ قلت: كان المشركون معتقدين ربوبيتين: ربوبية الله، وربوبية آلهتهم، فإن خصوا بالخطاب، فالمراد به اسم يشترك فيه رب السموات والأرض، والآلهة التي كانوا يسمونها أرباباً، وكان قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة، وإن كان الخطاب للفرق جميعاً، فالمراد به: «ربكم» على الحقيقة، والذي خلقكم: صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم، ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصة، إلا أن الأول أوضح وأصح، والخلق: إيجاد الشيء على تقدير واستواء، يقال: خلق النعل، إذا قدرها وسواها بالمقياس، وقرأ أبو عمرو: «خَلَقْكُم» بالإدغام، وقرأ ابن السميفع: وخلق من قبلكم، وفي قراءة زيد بن علي: ﴿والّذِينَ مَنْ قَبْلَكُمْ﴾ وهي قراءة مشكلة، ووجهها على إشكالها أن يقال: أقحم الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً؛ كما أقحم جَريرٌ في قوله: [من البسيط]

يَـا تَـيْـمَ تَـيْـمَ عَـدِيٍّ لاَ أَبَـالَـكُـمُ .... [1]

---

(١) يـا تـيـم تـيـم عـدي لا أبـالـكـم ... لا يـلـقـيـنـكـم فـي سـوءة عـمـر
تعـرضـت تـيـم لـي جـهـلاً لأهـجـوهـا ... كما تعرض الاست الخارىء الحجر

لجرير، تعرض له عمر بن لجأ، ويقال بن لجام التيمي بالهجو فخاطب قبيلته بذلك. وحذف المضاف إليه مع بقاء المضاف على حالة الإضافة مضطرد، إن اقترن بذكر مثله ليدل عليه؛ وإلا فهو سماعي. ومثل هذا التركيب يجوز فيه ضم الأول فهو مفرد والثاني مضاف لما بعده، وفتحه على أنه مضاف للمذكور، أو لمحذوف مماثل له، أو على أنهما مركبان اسماً واحداً مضافاً لما بعدهما؛ فتيم الأول هنا مضاف لعدي، والثاني مقحم بينهما مضاف لعدي محذوفاً عند سيبويه أو مضاف للمذكور، والأول مضاف لمحذوف مثل المذكور عند المبرد وتبعه ابن مالك. أو هما معاً مركبان كخمسة عشر، مضافان لعدي عند الفراء وتبعه الأعلم. ولو كان الثاني بدلاً أو بياناً أو توكيداً والأول مفردًا، لضم الأول وهم غير تيم قريش. وقولهم «لا أباله» دعاء بعدم الأب. وقيل محتمل للذم، أن لا أبًا له رشيداً، بل هو ابن زِنا. ويحتمل المدح، أي ليس محتاجاً إلى الأب بل مفاخره ذاتية، لكن ما هنا من الأول. و «لكم» خبر «لا» عند ابن الحاجب. وخبرها محذوف عند غيره ولكم متعلق بمحذوف صفة. أو اللام زائدة والضمير مضاف إليه. وأما على الأول مبني على فتح مقدر وحذف تنوينه للبناء. وعلى الثاني منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه لشبه الإضافة. وعلى الثالث منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه للإضافة. وهذا كله على لغة قصره كفتى. وأما نصبه =

تيماً الثاني بينِ الأول وما أضيف إليه، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في: لا أبالك[1]. ولعل للترجي أو الإشفاق، تقول: لعل زيداً يكرمني، ولعله يهينني، وقال الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن، ولكن لأنه إطماع من كريم رحيم، إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة، لجري إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به. قال من قال: إن «لعل»: بمعنى: «كي»، و«لعل»: لا تكون بمعنى: «كي»؟! ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك، وأيضاً فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا: عسى، ولعل، ونحوهما من الكلمات أو يخيلوا إخالة، أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة، فإذا عثر على شيء من ذلك منهم، لم يبق للطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب، فعلى مثله ورد كلام مالك/ ٢٧ب الملوك ذي العز والكبرياء، أو يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق؛ لئلا يتكل العباد؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ

= بالألف على لغة إعرابه بالحروف فلا يظهر إلا في الثالث، وفيه أن المضاف معرفة و «لا» لا تعمل إلا في النكرات، إلا أن يقال زيادة اللام صيرته في صورة النكرة فعملت فيه. و «لا يلقينكم» نهي عن الإلقاء في المكروه. وروي بالفاء بدل القاف، من ألفى إذا وجد لكن روي «لا يوقعنكم» وهو يؤيد الأول. والمراد النهي عن إقرار عمر على هجوه الموقع لهم في السوءة وهي هجو جرير لهم. واللام في لأهجوها لام العاقبة. وقد شبّه نفسه ـ بل فمه ـ باست الخارىء، أي دبره. ومهد لذلك التشبيه فيما تقدم بالتعبير بالسوءة. ولقد هجا نفسه من حيث لم يشعر. والاست: من الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون فزادوها همزة الوصل.

ينظر: ديوانه ص ٢١٢، والأزهيّة ص ٢٣٨، والأغاني ٢١/ ٣٤٩، وخزانة الأدب ٢/ ٢٩٨، ٣٠١، ٤/ ٩٩، ١٠٧، والخصائص ١/ ٣٤٥، والدرر ٦/ ٢٩، وشرح أبيات سيبويه ١/ ١٤٢، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٥٥، وشرح المفصل ٢/ ١٠، والكتاب ١/ ٥٣؛ ٢/ ٢٠٥، واللامات ص ١٠١، ولسان العرب (أبي)، والمقاصد النحوية ٤/ ٢٤٠، والمقتضب ٤/ ٢٢٩، ونوادر أبي زيد ص ١٣٩، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٤/ ٢٠٤، وأمالي ابن الحاجب ٢/ ٧٢٥، وجواهر الأدب ص ١٩٩، ٤٢١، وخزانة الأدب ٨/ ٣١٧، ١٠/ ١٩١، ورصف المباني ص ٢٤٥، وشرح الأشموني ٢/ ٤٥٤، وشرح ابن عقيل ص ٥٢٢، وشرح المفصل ٢/ ١٠٥، ٣/ ٢١، ومغني اللبيب ٢/ ٤٥٧، وهمع الهوامع ٢/ ١٢٢.

(١) قال السمين الحلبي: إلا أنَّ بعضَهم يَرُدُّ هذا القولَ ويجعلُه فاسداً؛ مَنْ جهة أنه لا يُؤكَّدُ الحرف إلا بإعادة ما اتصل به، فالموصول أولى بذلك، وخرج الآية والبيت على أن «مَنْ قبلكم» صلةُ للموصولِ الثاني، والموصولُ الثاني وصلته خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والمبتدأ وخبُره صلةُ الأول، والتقديرُ: والذينَ هُمْ مَنْ قبلكم.

﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [التحريم: ٨]، فإن قلت: فـ«لعل» التي في الآية ما معناها، وما موقعها؟ قلت: ليست مما ذكرناه في شيء، لأن قوله: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم؛ لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً، ولكن «لعل»: واقعة في الآية موقع المجاز[1] لا الحقيقة، لأن الله ـ عز وجل ـ خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى[2]، فهم في صورة المرجوّ منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم ـ وهم مختارون بين الطاعة والعصيان ـ كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وألا يفعل، ومصداقه قوله عز وجل: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]، وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب، ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار، فإن قلت: كما خلق المخاطبين لعلهم يتقون، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك، فلم قصره عليهم دون من قبلهم؟ قلت: لم يقصره عليهم، ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعاً، فإن قلت: فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا[3]؟ أو اتقوا لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم؟ قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدّي ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة، وأشدّ إلزاماً لها، وأثبت لها في النفوس، ونحوه أن تقول لعبدك: احمل خريطة الكتب، فما ملكتك يميني إلا لجرّ الأثقال، ولو قلت: لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «لعل واقعة في الآية موقع المجاز... إلخ». قال أحمد رحمه الله: كلام سديد إلا قوله: وأراد منهم التقوى والخير؛ فإنه كلام أبرزه على قاعدة القدرية. والصحيح والسنة أن الله تعالى أراد مِن كل أحد ما وقع منه من خير وغيره، ولكن طلب الخير والتقوى منهم أجمعين. والطلب والأمر عند أهل السنّة مباين للإرادة، ألهمنا الله صواب القول وسداده.

(٢) قوله «وأراد منهم الخير والتقوى» مبني على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد إلا الخير وإن وقع خلافه. ومذهب أهل السنّة أنه يريد الخير والشر، وكل ما أراده يقع، لإجماع السلف على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت فهلا قيل تعبدون... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: كلام حسن إلا قوله خلقكم للاستيلاء على أقصى غاية العبادة؛ فإنه مفرع على تلك النزعة المتقدمة آنفاً. والعبارة المحررة في ذلك على قاعدة السنّة أن يقال: اعبدوا ربكم الذي خلقكم على حالة من حقكم معها أن تستولوا على أقصى غاية العبادة وهي التقوى لما ركب فيكم من العقول، وبينه لكم من البواعث على تقواه، فكان جديراً بكم أن لا تدعوا من جهدكم في التقوى شيئاً.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قدّم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أوّلاً؛ لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما، ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرّهم الذي لا بدّ لهم منه، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار، ثم ما سوّاه عزّ وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها ـ أشباه النسل المنتج من الحيوان ـ من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم، ليكون لهم ذلك معتبراً، ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد/ ٢٨أ والاعتراف؛ ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم، وأن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها، فيتيقنوا عند ذلك أن لا بدّ لها من خالق ليس كمثلها، حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر، والموصول مع صلته إمّا أن يكون في محل النصب وصفاً كالذي خلقكم، أو على المدح والتعظيم، وإمّا أن يكون رفعاً على الابتداء وفيه ما في النصب من المدح، وقرأ يزيد الشامي: «بساطاً»، وقرأ طلحة: «مهادا»، ومعنى جعلها فراشاً وبساطاً ومهاداً للناس: أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده، فإن قلت: هل فيه دليل على أنّ الأرض مسطحة وليست بكريّة؟ قلت: ليس فيه إلا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح، أو شكل الكرة، فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع، لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها، وإذا كان متسهلاً في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض، فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل، والبناء مصدر سمي به المبنى ـ بيتاً كان أو قبة أو خباء أو طرافاً ـ وأبنية العرب: أخبيتهم، ومنه بنى على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديداً، فإن قلت: ما معنى إخراج الثمرات بالماء وإنما خرجت بقدرته ومشيئته؟ قلت: المعنى أنه جعل الماء سبباً في خروجها ومادّة لها، كماء الفحل في خلق الولد، وهو قادر على أن ينشىء الأجناس كلها بلا أسباب ولا موادّ كما أنشأ نفوس الأسباب والموادّ، ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال، وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة حكماً ودواعي يجدد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبرا وأفكاراً صالحة، وزيادة طمأنينة، وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته، ليس ذلك في إنشائها بغتة من غير تدريج وترتيب، و«من» في: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للتبعيض بشهادة قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله:

﴿فأخرجنا به ثمرات﴾ [فاطر: ٢٧]، ولأنّ المنكرين أعني: ماء، ورزقاً. يكتنفانه، وقد قصد بتنكيرهما معنى البعضية فكأنه قيل: وأنزلنا من السماء بعض الماء، فأخرجنا به بعض الثمرات، ليكون بعض رزقكم، وهذا هو المطابق لصحة المعنى، لأنه لم ينزل من السماء الماء كله، ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات، ولا جعل الرزق كله في الثمرات، ويجوز أن تكون للبيان[1]، كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً، فإن قلت: فيم انتصب/ ﴿رِزْقًا﴾؟ قلت: إن كانت «من» للتبعيض، كان انتصابه بأنه مفعول له، وإن كانت مبينة، كان مفعولاً لأخرج، فإن قلت: فالثمر المخرج بماء السماء كثير جمّ فلم قيل الثمرات دون الثمر والثمار؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك: فلان أدركت ثمرة بستانه، تريد ثماره، ونظيره قولهم: كلمة الحويدرة؛ لقصيدته، وقولهم للقرية: المدرة؛ وإنما هي مدر متلاحق، والثاني: أنّ الجموع يتعاور بعضها موقع بعض، لالتقائها في الجمعية، كقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ﴾ [الدخان: ٢٥] و﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ويعضد الوجه الأوّل قراءة محمد بن السميفع: من الثمرة، على التوحيد، و﴿لَّكُمْ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم، فإن قلت: بم تعلق: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾؟ قلت: فيه ثلاثة أوجه: أن يتعلق بالأمر، أي اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له: ﴿أَندَادًا﴾؛ لأنّ أصل العبادة وأساسها التوحيد، وألا يجعل لله ندًّا ولا شريكًا، أو بلعل، على أن ينتصب تجعلوا انتصاب، «فأطلع» في قوله عز وجل: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] في رواية حفص عن عاصم، أي خلقكم لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه، أو بالذي جعل لكم، إذا رفعته على الابتداء، أي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء، والند: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوىء، قال جرير: [من الوافر]

أَتَيْماً يَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا ... وَمَا تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدَا[2]

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ إذ لم يتقدم ما يبين هذا، وكأنه يعني أنه بيان لـ «رزقا» من حيث المعنى، و «رزقا» ظاهر أنه مفعول به، ناصبه «أَخْرَجَ». ويجوز أن يكون «من الثمرات» في موضع المفعول به، والتقدير: فأخرج ببعض الماء بعض الثمرات. انتهى. الدر المصون.

(٢) الاستفهام إنكاري. وتيم: اسم رجل واسم قبيلة، وهو مفعول مقدم. و «إلى» متعلق بتجعلون على طريق التضمين، أي تنسبونه إلى أو إلى بمعنى لي. ويجوز تعلقه بنداً وهو مفعول ثانٍ. والواو للحال أي والحال أن تيماً ليس نداً لصاحب حسب ومآثر، فكيف يكون نداً لي. ويروى: أتيم تجعلون، فهو مبتدأ والمعنى ما تقدم وقيل إلى متعلق بمحذوف حال من تيماً أو من نداً. والند: الكفء والضد.

ينظر البيت في ديوانه (١٦٤)، مجالس العلماء (١١٤)، والدر المصون (١/ ١٥٠).

ونادَدت الرجل: خالفته ونافرته، من ندّ ندوداً إذا نفر، ومعنى قولهم: ليس لله ندّ ولا ضِدّ نفى ما يسدّ مسدّه، ونفى ما ينافيه، فإن قلت: كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب، وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتناويه، قلت: لما تقرّبوا إليها وعظموها وسموها آلهة، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله، قادرة على مخالفته ومضادّته، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم، كما تهكم بهم بلفظ الندّ، شنع عليهم واستفظع شأنهم بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ندّ قط، وفي ذلك قال زيد بن عمرو بن نفيلٍ حين فارق دين قومه: [من الوافر]

أَرَبّاً وَاحِداً أَمْ أَلْفَ رَبٍّ ... أَدِينُ إذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُورُ؟[1]

وقرأ محمد بن السميفع: فلا تجعلوا لله ندا، فإن قلت: ما معنى ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قلت: معناه: وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفاسد، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال، والإصابة في التدابير، والدهاء والفطنة، بمنزل/ ٢٩أ لا تدفعون عنه، وهكذا كانت العرب، خصوصاً ساكنو الحرم من قريش وكنانة، لا يصطلى بنارهم[2] في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها، ومفعول: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة، والتوبيخ فيه آكد، أي أنتم العرّافون المميزون، ثم إنّ ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً، هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل، ويجوز أن يقدر: وأنتم تعلمون أنه لا يماثل، أو: وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو: وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله؛ كقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

---

(١) أربـاً واحـداً أم ألـف رب ... أديـن إذا تـقـسـمـت الأمـور
تـركـت الـلات والـعـزى جـمـيـعـاً ... كـذلـك يـفـعـل الـرجـل الـبـصـيـر
لعمرو بن زيد بن نفيل بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن ربيعة. والهمزة للاستفهام. وفيه ضرب من التعجُّب وإظهار الخطأ في عبادة الأرباب وتشنيع على عابدهم. «وربا» مفعول. أدين: أي أطيع. والمراد بالألف الكثرة، لا خصوص ذلك العدد. إذا تقسَّمت الأمور: أي إذا اتخذت كل طائفة ديناً من الأديان. وقوله: اللات العزى: أي وغيرهما من الأصنام؛ لأنه لا فرق بينهما. والبصير: المتبصِّر في الأمر.

(٢) قوله: «لا يصطلي بنارهم» لعله يصطلي بدون «لا» أو لعله: لا يصطلي إلا بنارهم، بزيادة «إلا» فليحرر. ويمكن أن يراد اختصاصهم بكمال المعرفة، وأن غيرهم لا يصل إلى شيء مما لديهم من ذلك. (ع)

لما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويحققها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله، وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه. عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوّة محمد ﷺ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي، أم هو من عند نفسه كما يدعون، بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته، فإن قلت: لم قيل: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ على لفظ «التنزيل» دون «الإنزال»؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم[1]، وهو من مجازه لمكان التحدي، وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة وآيات غب آيات، على حسب النوازل وكفاء الحوادث[2]، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً، وشيئاً فشيئاً حسب ما يعنّ لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزل الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة: قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفتريات، وهذه غاية التبكيت، ومنتهى إزاحة العلل، وقُرىء: «على عبادنا» يريد رسول الله ﷺ وأمته، والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وواوها إن كانت أصلاً، فإما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها؛ لأنها طائفة من القرآن محدودة محوّزة على حيالها، كالبلد المسوّر؛

---

(١) قال السمين الحلبي: قال بعضُهم: «وهذا الذي ذهَب إليه في تضعيفِ الكلمة هنا، هو الذي يُعَبَّر عنه بالتكثير، أي يَفْعَلُ ذلك مرةً بعد مرةٍ، فَيُدَلُّ على ذلك بالتضعيفِ، ويُعَبَّرُ عنه بالكثرةِ». قال: «وذَهَلَ عن قاعدةٍ؛ وهي أن التضعيفَ الدالَّ على ذلك من شرطه أن يكونَ في الأفعال المتعديةِ قبل التضعيفِ غالباً نحو: جَرَّحْتُ زيداً وفَتَّحْتُ الباب، ولا يُقال: جَلَّس زيدٌ، ونَزَّل لم يكن متعدياً قبل التضعيفِ، وإنَّما جَعَلَه متعدياً تضعيفَه. وقولُه «غالباً» لأنه قد جاء التضعيف دالاً على الكثرة في اللازم قليلاً نحو: «مَوَّت المالُ» وأيضاً فالتضعيفُ الدالُّ على الكثرةِ لاَ يَجْعَلُ القاصرَ متعدياً كما تقدَّم في مَوَّت المال، ونَزَّل كان قاصراً فصار بالتضعيفِ متعدِّياً، فدلَّ على أن تضعيفه للنقل لا للتكثير، وأيضاً كان يَحْتاج قولُه تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ إلى تأويل، وأيضاً فقد جاء التضعيفُ حيث لا يمكنُ فيه التكثيرُ نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ إلا بتأويلٍ بعيدٍ جداً، إذ ليس المعنى على أنهم اقترحوا تكرير نزول آيةٍ، ولا أنه عَلَّق تكريرَ نزولِ مَلَكٍ رسولٍ على تقديرِ كونِ ملائكةٍ في الأرض. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «وكفاء الحوادث» أي مقابلها ومساويها. أفاده الصحاح. (ع)

أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد/ ٢٩ب، كاحتواء سورة المدينة على ما فيها، وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة، قال النابغة: [من الكامل]

وَلِرَهْطِ حَرَّابٍ وَقَدٌّ سُورَةٌ ... فِي المَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهَا بِمُطَارِ[١]

لأحد معنيين؛ لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارىء، وهي ـ أيضاً ـ في أنفسها مترتبة: طوال، وأوساط، وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين، وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة؛ فلأنها قطعة وطائفة من القرآن، كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه، فإن قلت: ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟ قلت: ليست الفائدة في ذلك واحدة، ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسوّرة مترجمة السور، وبوّب المصنفون في كل فنّ كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم، ومن فوائده: أنّ الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبل وأفخم[٢] من أن يكون بياناً واحداً، ومنها أن القارىء إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر، إذا علم أنه قطع ميلاً، أو طوى فرسخاً، أو انتهى إلى رأس بريد ـ نفس ذلك منه ونشطه للسير، ومن ثم جزأ القرّاء القرآن أسباعاً، وأجزاء، وعشوراً، وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة[٣]، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة، فيعظم

---

(١) ولرهط حراب وقد سورة ... في المجد ليس غرابها بمطار
قوم إذا كثر الصياح رأيتهم ... وقرا غداة الروع والإنفار
للنابغة الذبياني. والسورة ـ بالضم ـ: الرتبة، يقول: ولقوم حراب بن زهير وقد بن مالك درجة في الشرف دائمة العز. وحراب بالراء. وروي بالزاي. وقد بالمهملة. وروي بالمعجمة. وقد وقذ: أخوان. وليس غرابها بمطار استعارة تمثيلية لدوام العز لهم؛ أو كناية عنه، لأن أصله: أنه إذا كثُر الشجر والنبات، يقيم فيه الغراب ولا يطيره شيء لحب الخصب وعدم الجدب. والأوجه أن السورة أصلها المرتبة الحسية، فاستعيرت للمعنوية، ثم جرت فيها المكنية حيث شبهت بمكان الخصب، وإثبات الغراب والإطارة تخييل لذلك التشبيه. ثم قال: هم قوم إذا كثُر الصياح في الحرب رأيتهم وقرا أي صما. فهو من الوقر أي ثقل الأذن، بمعنى أن كثرة الصياح لا تزعجهم كأنهم صم وقيل من الوقار والسكنية. وغداة الروع والإنفار: صبيحة الخوف والإفزاع. وقيل: أصله أن الغراب يقع على رأس البعير يتلقط منها الهوام، فلا يحرك رأسه لئلا ينفر الغراب فشبه مرتبتهم برأس البعير على طريق المكنية. وقيل لارتفاعها لا يصلها الغراب حتى يطار من فوقها. فالمعنى لا غراب فوقها فيطار.
ينظر ديوانه ص ٥٥، ولسان العرب (قدد)، (سور)، (طير)، وأساس البلاغة (غرب)؛ وتاج العروس (قدد)، (سور) (طير).

(٢) قوله «وأنبل وأفخم» أي أفضل وأعظم. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «إذا حذق السورة» حذق الشيء، أي مهر فيه. أفاده الصحاح. (ع)

عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغتبط به»، ومنه حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، جَدَّ فِينَا» (٢٩) ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل، ومنها أنّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع. ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ متعلق بسورة صفة لها أي بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا[1]، أو لعبدنا، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿فَأْتُوا۟﴾، والضمير للعبد، فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قلت: معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم، أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك؛ ولكنه نحو قول القبعثري للحجاج وقد قال له: لأحملنك على الأدهم: مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب، أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد، ولم يقصد أحداً يجعله مثلاً للحجاج، وردّ الضمير إلى المنزل أوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ/ ٣٠أ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١١]، ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولأن

---

٢٩ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٣٣): كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، حديث برقم (٣٦١٧)، ومسلم (٩/ ١٣٨): كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث (٢٧٨١)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٠، ١٢١ ـ ٢٤٥)، وأخرجه عبد بن حميد في مسنده (ص٤٠٠)، حديث برقم (١٣٥٤).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

هذا طرف من حديث أخرجه أحمد وابن أبي شيبة قال: حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً كان يكتب للنبي ـ ﷺ ـ، وقد قرأ البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا ـ أي: عظم... الحديث». وأخرجه ابن حبان من هذا الوجه بلفظ: «عدّ فينا ذو شأن» وقد ذكره الجوهري في الصحاح من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ بلفظ المصنف. وأصله عند البخاري من رواية عبد العزيز بن صهيب. وعند مسلم في رواية ثابت، كلاهما عن أنس دون القدر الذي اقتصر عليه المصنف. ولم يصب الطيبي في عزوه له إلى الصحيحين. وعزاه الزمخشري في تفسير الجن إلى رواية عمر ـ رضي الله عنه ـ أيضاً كما سيأتي. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «الضمير يحتمل عوده لما نزلناه... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ومعنى هذا الترجيح أن المتحدي عليهم في التفسير الأوجه جملة المخاطبين، أي أنهم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضاً، عجزة عن الإتيان بطائفة منه. وأما على التفسير المرجوح، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحداً منهم يكون معارضاً للمتحدي بأنه يأتي بمثل ما أوتي به أو ببعضه. ولا شك أن عجز الخلائق أجمعين أبهى من عجز واحد منهم. ويشهد لرجحان الأول قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب، والكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه ومربوط به، فحقه ألا يفك عنه برد الضمير إلى غيره، ألا ترى أن المعنى: وإن ارتبتم في أنّ القرآن منزل من عند الله، فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم في أنّ محمداً مُنزل عليه فهاتوا قرآناً من مثله؛ ولأنهم إذا خوطبوا جميعاً ـ وهم الجم الغفير ـ بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم، كان أبلغ في التحدّي من أن يقال لهم: ليأتي واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد، ولأنّ هذا التفسير هو الملائم لقوله: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة، ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى من مكان من الشيء، ومنه الشيء الدون، وهو الدنيّ الحقير، ودوّن الكتب، إذا جمعها، لأن جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها، يقال: هذا دون ذاك، إذا كان أحط منه قليلاً، ودونك هذا: أصله خذه من دونك، أي من أدنى مكان منك فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب، فقيل زيد دون عمرو في الشرف والعلم، ومنه قَولُ مَنْ قَالَ لِعَدُوّهِ وقد رَاءَاهُ بالثّناء عليه: أَنَا دُونَ هَذَا وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ،(٣٠) واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حدّ إلى حدّ وتخطى حكم إلى حكم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي: لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، وقال أمية: [من البسيط]

يـا نَـفْـسُ مَـالَـكِ دُونَ الـلَّـهِ مِـنْ وَاقِ ....[(١)]

---

٣٠ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف إلى البزار في مسنده (١/ ٥٢).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه البزار من رواية علي بن أبي ربيعة قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فجعل يثني عليه. وكان يبلغه عنه خلاف ذلك، فقال: أنا دون هذا الذي تقوله، ولكن فوق ما في نفسك». ا.هـ.

---

(١) يـا نـفـس مـالـك دون الـلّـه مـن واق ... ولا لـلَـسْـع بـنـات الـدهـر مـن راق
لأمية بن أبي الصلت يقول: يا نفس ليس لك حافظ دون اللّه، أي متجاوز اللّه، أو متجاوزة اللّه، فهو حال من الواقي أو من النفس. واستعار البنات للحوادث بجامع ملازمة كل لمنشئه على طريق التصريحية، ثم شبه الحوادث بالأفاعي بجامع إيذاء كل لغيره على طريق المكنية ولسعها تخييل. ويجوز أنه استعار اللسع للإصابة على طريق التصريحية. والراقي طبيب اللسع. ومن زائدة في الموضعين لتوكيد الاستغراق: أي لا حافظ لك إلا اللّه، ولا جابر لك إلا هو.

أي إذا تجاوزت وقاية الله ولم تناليها لم يقك غيره، و﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بادعوا أو بشهداءكم، فإن علقته بشهداءكم فمعناه: ادعو الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى: [من الطويل]

تُـرِيـكَ الـقَـذَى مِـنْ دُونِـهَـا وهْـيَ دُونَـهُ .... [1]

أي تريك القذى قدّامها وهي قَدّام القذى، لرقّتها وصفائها، وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته: غاية التهكم بهم، ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي من دون أوليائه ومن غير المؤمنين، ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله، وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأنّ شهداءهم وهم مدارة القوم[2]، الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المقاولة والمناقلة، تأبى عليهم الطباع وتجمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده واستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته، وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز، وإن علقته بالدعاء فمعناه: ادعوا من دون الله شهداءكم، يعني لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا: الله يشهد أنّ ما ندعيه حق، كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه وادعوا الشهداء من الناس الذين شهادتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام، وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخذالهم، وأنّ الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبثاً غير قولهم: الله يشهد أنا صادقون، وقولهم هذا:

---

(١) وساق إذا شئنا كميش بمعشر ... وصهباء زباد إذا ما ترقرق
تريك القذى من دونها وهي دونه ... إذا ذاقها من ذاقها يتمطّق

للأعشى في مدح المحلق عبد الرحيم بن خيثم بن شداد. والكميش: السريع. وماضي العزم: أي سريع في سقي الناس ولو كثروا. والزباد ـ كرمان ـ: رغوة اللبن ونحوه. والترقرق: الترشرش والانصباب. وترقرق: أصله تترقرق، فحذف منه إحدى التاءين، أي تتحرك. تريك: أي الصهباء وهي الخمر، لأن فيها لون الصهبة. والقذى ما يتساقط في الشراب والعين. دونها: أي قدمها حائلاً بينها وبينك، والحال أنها دونه أي قدمه حائلة بينه وبينك إذا ذاقها: أي الخمر، من ذاقها: من أراد ذوقها، يتمطق: أي يصوّت بفتح فمه ومص لسانه وشفتيه، أو يطبق فمه ويفتحه تلذُّذاً بها فيصوّت. وقيل إن ضمير «تريك» عائد للزجاجة يصفها بالصفاء، فلعله أطلق الصهباء عليه لتلونها بلون الخمرة. وضمير «ذاقها» عائد لها بمعنى الخمرة، فيكون في الكلام استخدام. وروي «وهي فوقه» بدل «دونه» وفيه نوع تأييد لعود الضمير على الخمرة.

ينظر ديوانه ص ٢٦٩، تهذيب اللغة (٩/ ١٦، ٤/ ١٨٠)، أساس البلاغة (مطق)، تاج العروس (مطق)، وبلا نسبة في لسان العرب (مطق)، (دون)، جمهرة اللغة ص (٩٢٤)، تاج العروس (دون).

(٢) قوله «مدارة القوم» المدارة جلد يدار ويخرز على هيئة الدلو، لكنها تكون واسعة الجوف قصيرة الجوانب لتنغمس في الماء وإن كان قليلاً فتمتلىء منه. أفاده الصحاح فهي هنا مجاز. (ع)

تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة، وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال: قرشيّ والحمد لله، فقيل له: قولك: «الحمد لله» في هذا المقام ريبة، أو ادعوا من دون الله شهداءكم: يعني أنّ الله شاهدكم، لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد، وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم، والجن والإنس شاهدوكم، فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى، لأنه القادر وحده على أن يأتي بمثله دون كل شاهد من شهدائكم؛ فهو في معنى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ . . .﴾ [الإسراء: ٨٨] الآية.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرّفون أمر النبي ﷺ وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسرّه وامتياز حقه من باطله، ـ قال لهم: فإذا لم تعارضوه، ولم يتسهل لكم ما تبغون، وبان لكم أنه معجوز عنه، فقد صرح الحق عن محضه ووجب التصديق، فآمنوا وخافوا العذاب المعدّ لمن كذب، وفيه دليلان على إثبات النبوّة: صحة كون المتحدي به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله، فإن قلت: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب، فهلا جيء بـ«إذا» الذي للوجوب دون: «إن» الذي للشك، قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمّل، كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام، والثاني: أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتك لم أبق عليك، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكماً به، فإن قلت: لم عبر عن الإتيان بالفعل، وأي فائدة في تركه إليه؟ قلت: لأنه فعل من الأفعال، تقول: أتيت فلاناً، فيقال لك: نعم ما فعلت، والفائدة فيه: أنه جار مجري الكناية التي تعطيك اختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه، ألا ترى أنّ الرجل يقول: ضربت زيداً في موضع كذا على صفة/ ٣١أ كذا، وشتمته ونكلت به، ويعد كيفيات وأفعالاً، فتقول: بئسما فعلت، ولو ذكرت ما أنبته عنه، لطال عليك؛ وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل، لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله[1]، فإن قلت: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ما محلها؟ قلت: لا محل لها؛ لأنها جملة اعتراضية، فإن قلت:

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يَلْزَمُ ما قال؛ لأنه لو قال: «فإنْ لم تأتوا ولَنْ تأتوا» كان المعنى على ما ذَكَر، ويكونُ قد حَذَفَ ذلك اختصاراً، كما حَذَف اختصاراً مفعولَ «لم تَفعلوا ولَنْ تفعلوا»، ألا ترى أنَّ التقدير: فإنْ لم تفعلوا الإتيانَ بسورةٍ من مِثله، ولن تفعلوا الإتيانَ بسورةٍ من مثله». انتهى الدر.

ما حقيقة: «لن» في باب النفي؟ قلت: «لا»، و«لن» أختان في نفي المستقبل، إلا أن في «لن» توكيداً وتشديداً، تقول لصاحبك: لا أقيم غداً، فإن أنكر عليك قلت: لن أقيم غداً؛ كما تفعل في: أنا مقيم، وإني مقيم، وهي عند الخليل في إحدى الروايتين عنه أصلها: «لا أن»، وعند الفراء: «لا»، أبدلت ألفها نوناً، وعند سيبويه وإحدى الروايتين عن الخليل: حرف مقتضب؛ لتأكيد نفي المستقبل، فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء، لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة، فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة، صح عندهم صدق رسول الله ﷺ، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا، استوجبوا العقاب بالنار؛ فقيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد؛ فوضع ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ موضعه؛ لأنّ اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد، من حيث إنه من نتائجه؛ لأنّ من اتقى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك لحشمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي، يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منابه وإبرازه في صورته؛ مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها.

والوَقود: ما ترفع به النار، وأمّا المصدر فمضموم، وقد جاء فيه الفتح، قال سيبويه: وسمعنا من العرب من يقول: وقدت النار وُقوداً عالياً، ثم قال: والوَقود أكثر، والوقود الحطب، وقرأ عيسى بن عمر الهمدانيّ ـ بالضم ـ تسمية بالمصدر، كما يقال: فلان فخر قومه وزين بلده، ويجوز أن يكون مثل قولك: حياة المصباح السليط، أي: ليست حياته إلا به/ ٣١ب؛ فكأنّ نفس السليط حياته، فإن قلت: صلة «الذي» و «التي» يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب، فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟ قلت: لا يمتنع أن يتقدّم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب، أو سمعوه من رسول الله ﷺ، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] فإن قلت: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكرة في سورة التحريم، وههنا معرّفة؟ قلت: تلك الآية نزلت بمكة، فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة، ثم نزلت هذه بالمدينة[1]؛ مشاراً بها إلى ما عرفوه أوّلاً، فإن قلت: ما معنى قوله تعالى:

---

(١) قال محمود رحمه الله: «هذه الآية نزلت بالمدينة بعد نزول آية التحريم بمكة... إلخ». قال أحمد =

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؟ قلت: معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران، بأنها لا تتقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أوّلا بوقود ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماؤه، وتلك ـ أعاذنا الله منها برحمته الواسعة ـ توقد بنفس ما يحرق ويحمي بالنار، وبأنها لإفراط حرّها وشدّة ذكائها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار، اشتعلت وارتفع لهبها، فإن قلت: أنار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة، أم هي نيران شتى منها نار بهذه الصفة؟ قلت: بل هي نيران شتى، منها نار توقد بالناس والحجارة، يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: ١٤] ولعل لكفار الجن وشياطينهم نارا وقودها الشياطين، كما أنّ لكفرة الإنس ناراً وقودها هم، جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب، فإن قلت: لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً. قلت: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً أو عبدوها من دونه: قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في معنى الناس والحجارة، و ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] في معنى وقودها، ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستدفعون المضارّ عن أنفسهم بمكانهم، جعلها الله عذابهم، فقرنهم بها محماة في نار جهنم، إبلاغاً في إيلامهم وإغراقاً في تحسيرهم[1]، ونحوهم ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدّة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق، حيث يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم، وقيل: هي حجارة الكبريت، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل ﴿أُعِدَّتْ﴾/ ٣٢أ، هيئت لهم وجعلت عدّة لعذابهم، وقرأ عبد الله: «أعتدت»، من العتاد بمعنى العدة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

من عادته ـ عز وجل ـ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة

= رحمه الله يعني بالآية قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ لكني لم أقف على خلاف بين المفسرين أن سورة التحريم مدنية وما اشتملت عليه من القصة المشهورة أصدق شاهد على ذلك. فالظاهر أن الزمخشري وهم في نقله أنها مكية.

(١) قوله «وإعراقاً في تحسيرهم» لعله: وإغراقاً، بالغين المعجمة. (ع)

بالإنذار إرادة التنشيط، لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف، فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي، وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب، فإن قلت: مَنْ المأمور بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾؟ قلت: يجوز أن يكون رسول الله ﷺ، وأن يكون كل أحد، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بَشِّرِ المَشَّائِينَ إِلَى المَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣١) لم يأمر بذلك واحداً بعينه؛ وإنما كل أحد مأمور به، وهذا

---

٣١ ـ أخرجه أبو داود (١/٢٠٩) كتاب الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم، حديث (٥٦١).
والترمذي (١/٤٣٥) كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة حديث (٢٢٣).
من حديث إسماعيل بن سليمان عن عبد الله بن أوس، عن بريدة بن الحصيب عن النبي ـ ﷺ ـ قال:
«بشر المشّائين...».
ورواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (٧٥٢، ٧٥٥)، والبغوي في شرح السنة (٢/١١٨) رقم (٤٧٤ ـ بتحقيقنا).
وله شواهد من حديث:
أنس، وسهل بن سعد، وأبي الدرداء، وابن عباس وابن عمر، وزيد بن حارثة، وأبي موسى الأشعري، وأبي أمامة، وعائشة، وأبي سعيد الخدري، وحارثة ابن وهب الخزاعي.
أما حديث أنس:
فأخرجه ابن ماجة (١/٢٥٦) كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة حديث (٧٨١).
والحاكم (١/٢١٢) من طريق ثابت البناني عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فذكره.
أما حديث سهل بن سعد:
رواه ابن ماجة (١/٢٥٦) كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة (٧٨٠) من حديث زهير بن محمد التميمي عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً.
ورواه الحاكم (١/٢١٢)، وابن خزيمة (٢/٣٧٧) رقم (١٤٩٨، ١٤٩٩).
والطبراني في الكبير (٦/١٤٧) رقم (٥٨٠٠).
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه...
ووافقه الذهبي.
وأما حديث أبي الدرداء:
فرواه ابن حبان في صحيحه، كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (١/٥٣).
وأما حديث ابن عباس:
رواه الطبراني (١٠/٣٥١) رقم (١٠٦٨٩) قال: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا العباس بن بكار العيني ثنا أبو هلال عن قتادة عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس مرفوعاً به...
قال الهيثمي في المجمع (٢/٣٣).
«وفيه العباس بن عامر الضبي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله موثقون» ا.هـ. =

الوجه أحسن وأجزل؛ لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من

= وأما حديث ابن عمر:
أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/٣٥٨) رقم (١٣٣٣٥):
قال الهيثمي في المجمع (٢/٣٣).
«فيه داود ابن الزبرقان ضعفه ابن معين وابن المديني وأبو زرعة، وقال البخاري: مقارب الحديث» ا.هـ.
وأما حديث زيد بن حارثة:
فرواه الطبراني في الكبير (٥/٨٦) رقم (٤٦٦٢) مرفوعاً بلفظ: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بنور يوم القيامة ساطع».
قال الهيثمي في المجمع (٢/٣٣):
«رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه ابن لهيعة، وهو مختلف في الاحتجاج به» ا.هـ.
وأما حديث أبي موسى الأشعري:
رواه الطبراني في الكبير والبزار (١/٢١٧) (كشف/ ٤٣٢)، قال الهيثمي (٢/ ٣٣ ـ ٣٤).
«رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه محمد بن عبد الله بن عمير بن عبيد ـ وهو منكر الحديث» ا.هـ.
وأما حديث أبي أمامة:
رواه الطبراني أيضاً مرفوعاً بلفظ: «بشر المدلجين إلى المساجد في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفزع الناس ولا يفزعون».
قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٤):
«رواه الطبراني في الكبير، وفيه سلمة العبسي عن رجل من أهل بيته، ولم أجد من ذكرهما» ا.هـ.
وأما حديث عائشة:
قال الهيثمي (٢/ ٣٣): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الحسن بن علي الشروي، قال الذهبي: لا يعرف، وفي حديثه نكرة قال الأزدي: لا يتابع عليه» ا.هـ.
وأما حديث أبي سعيد الخدري:
فرواه أبو يعلى في مسنده (٢/ ٣٦١) رقم (١١١٣) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٣):
«فيه عبد الحكم بن عبد الله وهو ضعيف» ا.هـ.
وأما حديث حارثة بن وهب الخزاعي:
فرواه ابن شاهين في كتاب الترغيب له.
كما ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٥٤)، والسيوطي في الأزهار المتناثرة (ص٣٣).
وعزاه السيوطي في الأزهار أيضاً. لأبي موسى المديني عن حطيم الحراني مرسلاً.
ولسعيد بن منصور عن عطاء بن يسار مرسلاً.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود. والترمذي والبزار. من طريق إسماعيل بن سليمان عن عبد الله بن أوس عن بريدة وقال الدارقطني: تفرد به إسماعيل. وله شاهد من رواية ثابت عن أنس وسهل بن سعد ـ رضي الله عنهما ـ أخرجه ابن ماجه والحاكم. وأخرجه ابن حبان عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ، والطبراني من رواية ابن عباس وابن عمر وزيد بن حارثة وأبي موسى وأبي أمامة ـ رضي الله عنهم ـ =

قدر على البشارة به، فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه؛ إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق، ولك أن تقول: هو معطوف على قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾[١] كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم، وفي قراءة زيد بن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: «وَبُشِّرَ» على لفظ المبنيّ للمفعول عطفاً على ﴿أُعِدَّتْ﴾[٢]، والبشارة: الإخبار مما يظهر سرور المخبر به، ومن ثم قال العلماء: إذا قال لعبيده: أيكم بشرني بقدوم فلان فهو حرّ، فبشروه فرادى، عتق أوّلهم، لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقين، ولو قال مكان «بشرني» أخبرني: عتقوا جميعاً، لأنهم جميعاً أخبروه، ومنه: البشرة لظاهر الجلد، وتباشير الصبح: ما ظهر من أوائل ضوئه، وأما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه، كما يقول الرجل لعدوّه: أبشر بقتل ذرّيتك ونهب مالك، ومنه قوله: [من الكامل]

.... فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلَمِ[٣]

= بأسانيد ضعيفة. وحديث زيد في الكامل لابن عديّ. وحديث أبي موسى عند البزار. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة في ترجمة أحمد بن محمد بن صدقة. وقال: تفرد به قتادة بن الفضل عن الحسن بن علي البيروتي، ورواه الطيالسي وأبو يعلىٰ من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف أيضاً. ورواه عمر بن شاهين في الترغيب له من حديث حارثة بن وهب الخزاعي. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا قد رَدَّهُ الشيخ بأنّ «فاتقوا» جواب الشرط، فالمعطوف يكون جواباً؛ لأن حكمَه حكمُه، ولكنه لا يصح؛ لأن تبشيره للمؤمنين لا يترتب على قوله: «فإن لم تفعلوا». انتهى. الدر المصون.

(٢) قال السمين الحلبي: وهو غلط؛ لأن المعطوف عليه من الصلة، ولا راجع على الموصول من هذه الجملة، فلا يصح أن يكون عطفاً على أعدت. انتهى. الدر المصون.

(٣) غضبت تميم أن نقتل عامراً ... يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

لبشر بن أبي حازم الأسدي. وتميم، وعامر: قبيلتان. وهل: استفهام إنكاري. أي ليس المجرب للأمور مثلهما كمن لم يجربها. ويجوز أنه أمره بالسؤال لأن الذي يسأل ويعلم ليس كمن لم يعلم. وأن نقتل: أي من أن نقتل. وروي: تقتل عامر، بالبناء للمجهول. والنسار اسم ماء لبني عامر، أي غضبت علينا تميم من قتل حلفائهم فكأنها عتبت علينا لضعفها. فأعتبناهم، أي أزلنا عتابهم =

والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم، قال الحطيئة: [من البسيط]

كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ   مِنْ آلِ لَأْمٍ بِظَهْرِ الغَيْبِ تَأْتِينِي(١)

والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة، واللام للجنس، فإن قلت: أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد، وبينها داخلة على المجموع؟ قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحاً؛ لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه، وإذا دخلت/ ٣٢ب على المجموع، صلح أن يراد به جميع الجنس، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه؛ لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية، والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه، فإن قلت: فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلت: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف.

والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه، قال زهير: [من البسيط]

.... تَسقِي جَنَّةً سُحُقَا(٢)

= بالصيلم: وهو السيف الكثير القطع، من صلمه إذا قطعه. وشبه إجابتهم بالمحاربة بالسيف بإجابة مَن يزيل العتاب على سبيل التصريحية التهكمية. لأن الأول مكروه والثاني محبوب.

ينظر ديوانه ص ٤٨٠، ولسان العرب (عتب)، (صلم)، وتهذيب اللغة: ٢/٢٧٨، ١٢/١٩٩، وتاج العروس: (عتب)، (صلم)، والعقد الفريد: ٥/٢٤٨، وسمط اللآلي ص ٥٠٣.

(١) للحطيئة واسمه جرول بن أوس بن حرمة بن مخذوم بن مالك الغطفاني، حين وفدت العرب على النعمان بن المنذر فأحضر حللاً عظيمة وقال: إني ملبسها غداً لمَن شئت، فلما كان الغد تخلف ابن سعدى خوف إلباسها غيره وهو حاضر فطلبه الملك وألبسه الحلل، فحسدته سادات العرب من قومه، وضمنوا للحطيئة مائة بعير لو هجاه، فقال: كيف الهجاء له، والحال أن لا تنفك فعلة صالحة تأتيني من آل لأم حال كوني ملتبساً بظهر الغيب، أو حال كونهم ملتبسين بظهر الغيب. وأقحم الظهر لأن الغائب كأنه وراء الظهر، أو لتقوية الغيب، لأنهم إذا أرادوا تقوية شيء أسندوا له الظهر لقوته، وكثيراً ما يجرون الصفة مجرى الاسم، إما لعدم الاحتياج إلى ذكره كما في صالحة، أو لأنها كافية في تعيين الموصوف إن احتيج إليه.

ينظر ديوانه (٨٦)، الدر المصون ١/١٥٨.

(٢) إن الخليط أجدوا البين فافترقا   وعلق القلب من أسماء ما علقا

وفارقتك برهن لا فكاك له   يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

كأن عيني في غربي مقتلة   من النواضح تسقي جنة سحقا

لزهير بن أبي سلمى. والخليط المعاشر. والبين: الانفصال والبعد، وأسماء: اسم محبوبته. وأصله من الوسامة وهي علامة الحسن. وقيل أصله جمع اسم. وعلق: مبني للمجهول. والقلب: نائب فاعل. وما علق ـ بالتخفيف ـ: مفعوله، أي ما تعلق به منها وهو الحب والتحسُّر والتحزُّن على =

أي نخلاً طوالاً، والتركيب دائر على معنى الستر، وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرّة، من مصدر جنه إذا ستره، كأنها سترة واحدة لفرط التفافها، وسميت دار الثواب: «جنة» لما فيها من الجنان، فإن قلت: الجنة مخلوقة أم لا؟ قلت: قد اختلف في ذلك، والذي يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى آدم وحواء الجنة وبمجيئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام، كالنبي والرسول والكتاب ونحوها، فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟ قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان، فإن قلت: أما يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح ألا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر؛ وألا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية؟ فهلا شرط ذلك؟ قلت: لما جعل الثواب مستحقاً بالإيمان والعمل الصالح، والبشارة مختصة بمن يتولاهما، وركز في العقول أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء، إذا لم يتعقبه بما يفسده ويذهب بحسنه، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً، وأعلم بقوله تعالى لنبيه ﷺ وهو أكرم الناس عليه وأعزهم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالداخل تحت الذكر، فإن قلت: كيف صورة جري الأنهار من تحتها؟ قلت: كما ترى الأشجار النابتة على شواطىء الأنهار الجارية، وعن مسروق: أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظللة، والأنهار في خلالها مطردة، ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإن كانت آنق شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإلا كان الأنس الأعظم فائتاً، والسرور الأوفر مفقوداً، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها، وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعاً بذكر/١٣٣أ

= سفرها. ولم يعينه دلالة على التكثير والتهويل ولما اشتغل قلبه بها. فكأنها أخذته معها؛ ولذلك ادَّعى أنها أخذته رهناً على سبيل الاستعارة المصرَّحة، ورشَّحها بقوله: لا فكاك له: وغلق الرهن ـ بالكسر ـ: إذا امتلكه الدائن ويئس صاحبه من رجوعه إليه، ثم قال: كأن عيني من شدة البكاء وكثرة الدموع عينان في دلوين عظيمتين ممتلئتين ماء، تحملهما ناقة مقتلة مذللة معتادة على العمل من الإبل النواضح التي يستقى عليها، تسقي تلك الناقة جنة «سحقاً» بضمتين: جمع سحوق، أي نخلا طوالاً جهة السماء، أو بعيدة عن محل الماء، فهي دائمة ذاهبة آيبة. ولقد خاطب نفسه أولاً كأنه يخبرها بسفر أسماء لفرط جزعه، ثم التفت كأنه يشتكي للناس في قوله: كأن عيني.

ينظر ديوانه ص ٣٧، ولسان العرب: (سحق)، (قتل)، (جنن)، ومجمل اللغة: ١/ ١٠٠، ومقاييس اللغة: ١/ ٤٢١، وتاج العروس: (سحق)، (قتل)، (جنن).

الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قرن واحد كالشيئين لا بد لأحدهما من صاحبه، ولما قدّمه على سائر نعوتها، والنهر: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، يقال لبردى: نهر دمشق، وللنيل: نهر مصر، واللغة العالية: «النهر» بفتح الهاء، ومدار التركيب على السعة، وإسناد الجري إلى الأنهار من الإسناد المجازى كقولهم: بنو فلان يطؤهم الطريق، وصيد عليه يومان، فإن قلت: لم نكرت الجنات وعرّفت الأنهار؟ قلت: أما تنكير الجنات فقد ذكر، وأما تعريف الأنهار فأن يراد الجنس، كما تقول: لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب وألوان الفواكه، تشير إلى الأجناس التي في علم المخاطب، أو يراد أنهارها، فعوّض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[1] [مريم: ٤] أو يشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ . . .﴾ [محمد: ١٥] الآية.

وقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾: لا يخلو من أن يكون صفة ثانية لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة؛ لأنه لما قيل: إن لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا، أم أجناس أخر لا تشابه هذه الأجناس؟ فقيل: إنّ ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله، فإن قلت: ما موقع: ﴿مِن ثَمَرَةٖ﴾؟ قلت: هو كقولك: كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئاً حمدتك، فموقع: ﴿مِن ثَمَرَةٖ﴾ موقع قولك من الرمان، كأنه قيل: كلما رزقوا من الجنات من أي ثمرة كانت من تفاحها أو رمّانها أو عنبها أو غير ذلك رزقاً، قالوا ذلك، فمن الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية؛ لأنّ الرزق قد ابتدىء من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدىء من ثمرة، وتنزيله تنزيل أن تقول: رزقني فلان، فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من رمّان، وتحريره أن «رزقوا»: جعل مطلقاً مبتدأ من ضمير الجنات، ثم جعل مقيداً بالابتداء من ضمير الجنات، مبتدأ من ثمرة، وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفذة على هذا التفسير؛ وإنما المراد النوع من أنواع الثمار، ووجه آخر: وهو أن يكون ﴿مِن ثَمَرَةٖ﴾: بياناً على منهاج قولك: رأيت منك أسداً، تريد أنت أسد، وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار، والجنات الواحدة، فإن قلت: كيف قيل: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾؟

---

(١) قال السمين الحلبي: بمعنى أنَّ الأصل: واشتعل رأسي، فعوّض «أل» عن ياء المتكلم، وهذا ليس مذهب البصريين، بل قال به بعض الكوفيين، وهو مردود بأنه لو كانت «أل» عوضاً من الضمير لما جُمع بينهما، وقد جُمع بينهما، قال النابغة:

ترحِيبُ قِطَابُ ٱلْجَيْبِ مِنهَا رَفِيقَةٌ ... بِجَسِّ النَّدَامَىٰ بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

فقال: الجيب منها. انتهى. الدر المصون.

وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا؟ قلت: معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل[1]، وشبهه بدليل قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ﴾؟ قلت: إلى المرزوق في الدنيا والآخرة/ ٣٣ب جميعاً؛ لأنّ قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾: انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥]، أي بجنسي الغنى والفقير؛ لدلالة قوله: غنياً أو فقيراً على الجنسين، ولو رجع الضمير إلى المتكلم به، لقيل أولى به على التوحيد، فإن قلت: لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟، وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً أخر؟ قلت: لأنّ الإنسان بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدّم معه ألف، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بينة، وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً، أفرط ابتهاجه واغتباطه، وطال استعجابه واستغرابه، وتبين كنه النعمة فيه، وتحقق مقدار الغبطة به، ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً، حسب أنّ ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين، فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأن الكبرى لا تفضل عن حدّ البطيخة الصغيرة، ثم يبصرون رمّانة الجنة تشبع السكن، والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلكة، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر، كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده، ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعه، كان ذلك أبين للفضل، وأظهر للمزية، وأجلب للسرور، وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما، وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها، دليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أنّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم، ويستدعي تبجحهم في كل أوان، عن مسروق: «نَخْلُ الجَنَّةِ نَضِيدٌ مِنْ أَصْلِهَا إِلَىٰ فَرْعِهَا، وَثَمَرُهَا أَمْثَالُ القِلَالِ، كُلَّمَا نَزَعْتَ ثَمَرَةً عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَىٰ، وَأَنْهَارُهَا تَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ، والعُنْقُودُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ ذِرَاعاً» (٣٢). ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿أتوا به﴾: إلى الرزق، كما أن هذا إشارة إليه، ويكون المعنى: أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم

---

٣٢ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٨) رقم (٣٣٩٥٩)، وهناد بن السري في الزهد (١/ ٩٠) رقم (٩٥)، ورواه في (١/ ٩٤) رقم (١٠٣، ١٠٤). ويحيىٰ بن صاعد في زوائد زهد ابن المبارك رقم (٥٤٤).

---

(١) قال محمود رحمه الله: «معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا من التشبيه بغير الأداة، وهو أبلغ مراتب التشبيه، كقولهم: أبو يوسف أبو حنيفة.

متجانساً في نفسه؛ كما يحكى عن الحسن: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل، فيقول الملك: كل، فاللون واحد، والطعم مختلف، وعنه ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيَتَنَاوَلُ الثَّمَرَةَ لِيَأْكُلَهَا فَمَا هِيَ بِوَاصِلَةٍ إِلَىٰ فِيهِ حَتَّىٰ يُبَدِّلَ الله مَكَانَهَا مِثْلَهَا» (٣٣) فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى، قالوا ذلك، والتفسير الأوّل هو هو، فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ من نظم الكلام؟ قلت: هو كقولك: فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل، ورأى من الرأي كذا وكان صواباً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير، والمراد بتطهير/ ٣٤أ الأزواج: أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهنّ من الأقذار والأدناس، ويجوز لمجيئه مطلقاً: أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا، مما يكتسبن بأنفسهنّ، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشيء المفسدة، ومن سائر عيوبهنّ ومثالبهنّ وخبثهنّ وكيدهنّ، فإن قلت: فهلاّ جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ قلت: هما لغتان فصيحتان، يقال: النساء فعلن، وهنّ فاعلات وفواعل، والنساء فعلَتْ، وهي فاعلة؛ ومنه بيت الحماسة [من الكامل]:

وَإِذَا الـعَـذَارَىٰ بِـالـدُّخَـانِ تَـقَـنَّـعَـتْ   وَٱسْتَعْجَلَتْ نَصْبَ القُدُورِ فَمَلَّتِ[1]

---

٣٣ ـ أخرجه البزار (رقم ٣٥٣٠) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٨) للطبراني، والحديث رواه الحاكم في قصة طويلة في كتاب الفتن من المستدرك (٤/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة» ا.هـ.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف».
أخرجه الطبراني والبزار والحاكم من حديث ثوبان بلفظ: ولا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلاّ أخلف الله مكانها مثلها، ولفظ البزّار: «إلاّ أعيد في مكانها مثليها، على التثنية، وسيأتي في آخر الزخرف».

---

(١) وإذا العذارى بالدخان تقنعت   واستعجلت نصب القدور فملّت
دارت بأرزاق العناة مغالق   بيدي من قمع العشار الجلة
ولقد رأبت ثأي العشيرة بينها   وكفيت جانبها اللتيا والتي
لسلمي بن ربيعة بن جفنة الضبي وشبه استتار الأبكار بالدخان أو سوادهن به باستتارهن بالقناع على طريق التصريح أو شبّه الدخان به على طريق المكنية. وملت: شوت المليل بأن تضع اللحم أو الخبز على الجمر فينضج. ويروى «درت» بدل «دارت» أي كثُر بذلها. والعفاة: طلاب الرزق. والمغالق: سهام الميسر التي تغلق الحظر وتثبته للغالب. والقمع: قطع السنام جمع قمع. والعشار: النوق التي مضى على حملها عشرة أشهر. والجلة: السمان العظيمات السنام، جمع جليل كصبية =

والمعنى وجماعة أزواج مطهرة[1]، وقرأ زيد بن علي: «مطهرات» وقرأ عبيد بن عمير: «مُطَّهَرَةٌ»، بمعنى متطهرة، وفي كلام بعض العرب: ما أحوجني إلى بيت الله، فأطهر به أطهرة، أي فأتطهر به تطهرة، فإن قلت: هَلَّا قيل طاهرة؟ قلت: في ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ فخامة لصفتهنّ ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهراً طهرهنّ، وليس ذلك إلا الله عزّ وجلّ المريد بعباده الصالحين أن يخوّلهم كلّ مزية فيما أعدّ لهم.

والخلد: الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال امرؤ القيس [من الطويل]:

ألاَ انْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي ... وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ في العُصُرِ الخَالي؟

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إلاَّ سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ ... قَلِيلُ الهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ؟[2]

= جمع صبي، أي إذا جدب الزمان، حتى أن الأبكار مع فرط حيائهن وصونهن، يقبلن على الدخان ويشتوين على الجمر، ويأكلن ولا يصبرن لنضج القدور من الجوع بذلت للناس بكثرة. ويحتمل أن مخدراته تباشر تنضيج قرى الضيفان بأنفسهن فيبذله لهم. والأول أبلغ. ورأبت: أصلحت. والثأي الفساد وكفيت من جنى منها. ويروى «جانبها» بالموحدة الداهية الصغيرة والكبيرة. واللتيا: تصغير التي كغيرها من الموصولات التي سمع تصغيرها، وزيدت الألف في آخرها عوضاً عن ضم التصغير، وهي بفتح اللام. وقال الأخفش بضمها على قياس التصغير وإن كان شاذاً في الأسماء المبنية كما هنا. واستغنت عن الصلة لنقلها بالتصغير عن معنى الموصولية وحمل عليها «التي» لأنها لما ذكرت في مقابلتها كان معناها الداهية العظيمة فلم يكن قصد إلى معنى الموصولية أيضاً. وقيل يجوز حذف الصلة بدليل. فيقدر هنا: اللتيا صغرت، والتي عظمت. ثم إن هذا من قبيل الأمثال السائرة. وأصله أن رجلاً تزوج امرأة قصيرة فقاسى منها الشدائد، ثم زوج طويلة أيضاً فقاسى ضعف ذلك، فطلقهما وقال: بعد اللتيا والتي لا أتزوج أبداً.

ينظر: خزانة الأدب ٨/ ٣٦، ٤٤، والدرر ١/ ١٨٤ وشرح ديوان الحماسة ص ٥٥، وشرح المفصل ٥/ ١٠٥، ونوادر أبي زيد، ص ١٢١، ولعلباء بن أرقم في الأصمعيات ص ١٦٢، وشرح اختيارات المفضل ص ٨١٦، وهمع الهوامع ١/ ٦٠، والدر المصون ١/ ١٦١.

(١) قوله «وجماعة أزواج مطهرة» لعل الواو مزيدة من الناسخ. أو لعل أصله ولهم فيها جماعة أزواج. (ع)

ينظر: ديوانه (٢٧)، الكتاب ٢/ ٢٢٧، المحتسب ٢/ ١٣٠، أمالي ابن الشجرى ١/ ٢٧٤، الدرر ٢/ ١٠٧، الدر المصون ١/ ١٦٢.

(٢) لامرىء القيس. وألا استفتاحية. وأنعم صباحاً: تحية الجاهلية، أي طاب عيشك. ويخفف فيقال عم، كما روي هنا. وكذلك «يعمن» روي هنا أيضاً. ونعم ينعم كضرب يضرب: ونعم ينعم كسهل يسهل. ونعم ينعم كعلم يعلم. ونعم ينعم بكسر عينهما وهو شاذ، بمعنى صار ناعماً ليناً. وخص الصباح لأنه وقت الغارات. والطلل: ما بقي من آثار الديار. والبالي: الفاني. والمراد تحية أهل الطلل ثم تذكر الخطأ في تحيتهم فقال: لا يتنعم من كان في الزمن الماضي وهو اليوم فان، فالاستفهام إنكاري: والمخلد: طويل العمر بحيث لا يفنى. والأوجال: جمع وجل وهو الخوف، =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾

سيقت هذا الآية؛ لبيان أنَّ ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد، والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقّرات من الأشياء مضروباً بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أنّ التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهّم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيمًا كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً إلاّ أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجرّه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية؛ ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج، كيف تمثل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟ ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقلّ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب وأخس قدراً، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلا لم يستنكر ولم يستبدع، ولم يقل للمتمثل: استحى من تمثيلها بالبعوضة؛ لأنه مصيب في تمثيله، محق في قوله، سائق للمثل على قضية مضربه، محتذ على مثال ما يحتكمه ويستدعيه؛ ولبيان أنّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بناظر العقل، إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل، علموا أنه الحق الذي لا تمرّ الشبهة/ ٣٤ب بساحته، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله، وأن الكفّار الذين غلبهم الجهل على عقولهم، وغصبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم، أوعرفوا أنه الحق إلا أنّ حبّ الرّياسة وهوى الإلف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا[1] وكابروا وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين في غيّهم وضلالهم، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثّلوا فيها

= والباء للملابسة. ويجوز أنها للظرفية تخييلاً.

(١) قوله «فإذا سمعوا عاندوا» لعل زيادة الفاء في خبر أن لشبه اسمها بالشرط. (ع)

بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من جرادة[1]، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض، وكلفتني مخ البعوض، ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة، كالزوان والنخالة[2] وحبة الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود، والزنابير، والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به أدنى مسكة، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمارة ولا إقناع، أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معوّلاً، وعن الحسن وقتادة: «لَمَّا ذَكَرَ الله الذُّبَابَ والعَنْكَبُوت فِي كِتَابِهِ وَضَرَبَ لِلْمُشْرِكِيْنَ بِهِ الْمَثَلَ، ضَحِكَتِ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ الله، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَة» (٣٤).

والحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم، واشتقاقه من الحياة، يقال: حيي الرجل، كما يقال: نسي وحشي وشظي الفرس إذا اعتلت هذه الأعضاء[3] جعل الحيي لما يعتريه من الانكسار والتغير، منتكس القوّة منتقص الحياة، كما قالوا: هلك فلان حياء من كذا، ومات حياء، ورأيت الهلاك في وجهه من شدّة الحياء، وذاب حياء، وجمد في مكانه خجلاً، فإن قلت: كيف جاز وصف القديم سبحانه به[4]، ولا يجوز عليه التغير والخوف والذم، وذلك في حديث سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله حَيِيٌّ كَرِيْمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ الْعَبْدُ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهِمَا خَيْراً»

---

٣٤ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٩٣) رقم (٢٧٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٨٨).

---

(١) قوله «وأصرد مِن جرادة» في الصحاح: صرد الرجل بالكسر فهو صرد ومصراد: يجد البرد سريعاً. (ع)

(٢) قوله «كالزوان والنخالة» في الصحاح: الزوان حب يخالط البر. (ع)

(٣) قوله «إذا اعتلت هذه الأعضاء» عرق النّسا والحشا والشظى. وفي الصحاح: الشظى عظم مستدق ملزق بالذراع، فإذا تحرك في موضعه قيل: قد شظي الفرس. (ع)

(٤) قال محمود رحمه اللّه: «إن قلت كيف جاز وصف اللّه تعالى بالاستحيائية. . . إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: ولقائل أن يقول: ما الذي دعاه إلى تأويل الآية مع أن الحياء الذي يخشى نسبة ظاهره إلى اللّه تعالى مسلوب في الآية كقولنا: اللّه ليس بجسم ولا بجوهر في معرض التنزيه والتقديس. وأما تأويل الحديث فمستقيم، لأن الحياء فيه ثبت للّه تعالى. وللزمخشري أن يجيب بأن السلب في مثل هذا إنما يطرأ على ما يمكن نسبته إلى المسلوب عنه. إذ مفهوم نفي الاستحياء عنه في شيء خاص، ثبوت الاستحياء في غيره، فالحاجة داعية إلى تأويله لما أفضى إليه مفهومه. وإنما يتوجه السؤال لو كان الاستحياء مسلوباً مطلقاً، كقولنا: اللّه لا يحول ولا يزول؛ فإن ذلك لا يثبت ومحال، بل يقال: هو مقدس منزه مطلقاً.

(٣٥)؟ قلت: هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخييب العبد وأنه لا يردّ يديه صفراً من عطائه، لكرمه بترك من يترك ردّ المحتاج إليه حياء منه، وكذلك معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾: أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها، ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على/ ٣٥أ السؤال،

---

٣٥ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٤٦٨) كتاب الصلاة، باب الدعاء حديث (١٤٨٨).
والترمذي (٥/ ٥٢٠) كتاب الدعوات حديث (٣٥٥٦)، وابن ماجة (٢/ ١٢٧١) كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء. حديث (٣٨٦٥)، وأحمد (٥/ ٤٣٨)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٦٠) كتاب الرقائق رقم (٨٧٦)، والحاكم (١/ ٤٩٧)، وصححه ووافقه الذهبي.
ورواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٥٩) رقم (١٣٧٩)، وله شاهد من حديث أنس، جابر.
أما حديث أنس:
أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨)، من طريق أبي عبد الله الصفار ثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، ثنا بشر بن الوليد القاضي ثنا عامر بن يساف عن حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، قال: حدثني أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن الله رحيم كريم يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه، ثم لا يضع فيهما خيراً».
وصحح إسناده وتعقبه الذهبي بأن عامر ذو مناكير، ورواه عبد الرزاق (٢/ ٢٥١) رقم (٣٢٥٠) عن معمر عن أبان عن أنس مرفوعاً.
وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣١).
والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٥٩) رقم (١٣٨٠ ـ بتحقيقنا).
وأما حديث جابر:
فرواه أبو يعلى في مسنده (٣/ ٣٩١) قال: حدثنا عبيد الله بن معاذ قال: ذكر أبي عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله تعالىٰ حيي كريم يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه؛ فيردهما صفراً ليس فيهما شيء».
قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٢):
«رواه أبو يعلىٰ والطبراني في الأوسط، وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وقد وثق على ضعفه وبقية رجالهما رجال الصحيح» ا.هـ. قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان والحاكم من حديثه بلفظ «إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً، قال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم ولم يرفعه. وفي الباب عن أنس ـ رضي الله عنه ـ. أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبان عنه. وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبان. وأخرجه الحاكم من طريق حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة قال: حدثني أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله رحيم حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع يديه، ثم لا يضع فيهما خيراً، وعن جابر أخرجه أبو يعلىٰ. وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر، وهو متروك، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخرجه الطبراني. انتهى.

وهو فنّ من كلامهم بديع، وطراز عجيب؛ منه قول أبي تمام [من الكامل]:

مَـنْ مُـبْـلِـغٌ أَفْـنَـاءَ يَـعْـرُبَ كُـلَّـهَـا أَنّـي بَـنَـيْـتُ الـجَـارَ قَـبْـلَ الـمَـنْـزِلِ؟[(١)]

وشهد رجل عند شريح، فقال: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعد عني، فقال: لله بلادك، وقبل شهادته، فالذي سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار، وسبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها، ولله درّ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها، لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسدّ مدارجه، وقد استعير الحياء فيما لا يصحّ فيه: [من الطويل]

إِذَا مَـا اسْـتَـحَـيْـنَ الـمَـاءَ يَـعْـرِضُ نَـفْـسَـهُ كَرَعْنِ بِسِبْتٍ[(٢)] فِي إِنَاءٍ مِنَ الـوَرْدِ[(٣)]

وقرأ ابن كثير في رواية شبل: «يستحي» بياء واحدة، وفيه لغتان: التعدّي بالجارّ، والتعدي بنفسه، يقولون: استحييت منه واستحييته، وهما محتملتان ههنا.

وضرب المثل: اعتماده وصنعه، من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وفي الحديث: «اَضْطَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ خَاتَماً مِنْ ذَهَبٍ» (٣٦) و ﴿مَّا﴾ هذه إبهامية[(٤)]، وهي التي إذا

---

٣٦ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف (١/ ٥٧): «غريب» ا.هـ.، وروى البخاري (١١/ ٥١١) =

---

(١) لأبي تمام. وفناء الدار: ما امتد من جوانبها، وجمعه أفنية. ويقال: هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم من أي قبيله هو، أي من أطرافهم. ويعرب: اسم قبيلة، وبناء الجار: اتخاذه، سماه بناء للمشاكلة التقديرية حيث قرنه بما يبني وهو المنزل وهو مجاز بجامع مطلق الاتخاذ أو علاقته المجاورة الذهنية أو اللفظية، وهذه العلاقة تجري في كل مشاكلة. ولم يرتضه بعضهم، واختار أنها إن لم يوجد لها علاقة فهي قسم رابع لا حقيقة ولا مجاز ولا كناية.
ينظر البيت في ديوانه ٣/ ٤٧، الدر المصون ١/ ١٦٣.

(٢) (قوله بسبت في إناء من الورد) في الصحاح: السبت بالكسر جلود البقر المدبوغة بالقرظ اهـ وهو في البيت مجاز كالإناء من الورد. (ع)

(٣)
كفانا الربيع العيس من بركاته فجاءته لم تسمع حداء سوى الرعد
إذا ما استحين الماء يعرض نفسه كرعن بسبت في إناء من الورد

للمتنبي. والعيس: الإبل. والربيع: المطر. والحداء: الغناء للإبل، والاستثناء متصل على تشبيه الرعد بالحداء، وجعله من أفراده، أي: كفانا حاجة العيس لكثرته، حتى كأنه يعرض نفسه على النوق. ويقال: استحيى واستحى كما هنا أي إذا خشين من عرض نفسه عليهن، أو امتنعن منه. وروي «استجبن» بالجيم فالموحدة، أي أطعنه في عرض نفسه عليهن. وجملة «يعرض نفسه» حالية. واستعار السبت بالكسر ـ وهو الجلد المدبوغ بالقرظ ـ لمشافر النوق على طريق التصريح. وكذلك استعار الإناء من الورد للبركة التي كثُر زهرها ونورها. وإن لم يكن ذلك الإناء موجوداً و «في» بمعنى «من». ويجوز أنه جعل الأرض ظرفاً للشرب.
ينظر البيت في الدر المصون ١/ ١٦٢.

(٤) قال محمود رحمه اللّه: «وما هذه إبهامية... إلخ». قال أحمد رحمه اللّه: وفيها وهم إمام الحرمين =

اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً؛ كقولك: أعطني كتاباً مّا، تريد أيّ كتاب كان، أو صلة للتأكيد، كالتي في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، كأنه قيل: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقاً أو البتة، هذا إذا نصبت: ﴿بَعُوضَةً﴾، فإن رفعتها فهي موصولة[1]، صلتها الجملة؛ لأن التقدير: هو بعوضة، فحذف صدر الجملة كما

= كتاب اللباس، باب الخاتم حديث (٥٨٧٤)، من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: صنع النبي ـ ﷺ ـ خاتماً قال: «إنا اتخذنا خاتماً ونقشنا فيه نقشاً؛ فلا ينقش عليه أحد»، قال: فإني لأرى بريقه في خنصره.

ورواه مسلم (٧/ ٣١٨) كتاب اللباس والزينة، باب لبس النبي ـ ﷺ ـ خاتماً من ورق حديث (٢٠٩٢)، وروى مسلم (٧/ ٣٢٠) كتاب اللباس والزينة، باب في طرح الخواتم حديث (٢٠٩٣) عن ابن شهاب، أخبره أن أنس بن مالك أخبره أنه رأى في يد رسول الله ـ ﷺ ـ خاتماً من ورق يوماً واحداً، ثم إن الناس اضطربوا الخواتم من ورق فلبسوها، فطرح النبي ـ ﷺ ـ خاتمه، فطرح الناس خواتمهم.
والحديث رواه البخاري (١١/ ٥٠٤) كتاب اللباس، باب حديث (٥٨٦٨)، وأبو داود (٢/ ٤٨٩)، كتاب الخاتم، باب في ما جاء في ترك الخاتم، حديث (٤٢٢١)، والنسائي (٨/ ١٩٥)، كتاب الزينة، باب طرح الخاتم وترك لبسه.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
أخرجه مسلم من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

= في تقرير نصوصية العموم في قوله عليه الصلاة والسلام: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها... الحديث» فإنه قرر العموم والإبهام في أي، ثم قال: فإذا انضافت إليها ما الشرطية كان ذلك أبلغ في اقتضاء العموم، فاعتقد أن المؤكدة هي الشرطية، وإنما هي حرف مزيد لهذا الغرض. وأما «ما» الشرطية فاسم كمن. والله الموفق.

(١) قال محمود: «هذا إذا نصبت بعوضة، فإن رفعتها فهي موصولة... إلى قوله: ووجه آخر جميل وهو أن تكون... إلخ». قال أحمد: حملها على الاستفهامية بالمعنى الذي قرره: فيه نظر؛ لأن قوله تعالى «فما فوقها» في الحقارة فيكون معناه: فما دونها. وإما أن يراد فما هو أكبر منها حجماً. وعلى كلا التقديرين يتقدَّر الاستفهام؛ لأنه إنما يستعمل في مثل: ما دينار وديناران، أي إذا جاد بالكثير فما القليل. وإذا ذهبت في الآية هذا المذهب لم تجد لصحته مجالاً، إذ يكون المراد: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالمحقرات، فما البعوضة وما هو أحقر منها. وقد فرضنا أنها في أحد الوجهين نهاية في المحقرات، وفي الوجه الآخر ليست نهاية، بل النهاية في قوله (فما فوقها) أي دونها. فإذا حمل ما بعد الاستفهام على النهاية في الوجهين جميعاً لم ينتظم التنبيه المذكور. بل ينعكس الغرض فيه؛ إذ المقصود في مثل قولنا: فلان لا يبالي بعطاء الألوف فما الدينار الواحد ـ التنبيه على أن إعطاء القليل منه محقق بعطائه الكثير بطريق الأولى، ولا يتحقق في الآية على هذا التقدير أنه لا يستحيي من ضرب المثل بالمحقرات التي لا تبلغ النهاية، فكيف يستحيي من ضرب المثل بما يبلغ النهاية في الحقارة كالبعوضة. هذا عكس لنظم الأولوية، ولو كانت الآية مثلاً واردة على غير هذا التكلُّم كقول القائل: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالبعوضة التي هي نهاية =

حذف في ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، ووجه آخر حسن جميل، وهو أن تكون التي فيها معنى الاستفهام لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال: إنّ الله لا يستحيي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقّرة مثلاً، بله البعوضة فما فوقها، كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران، والمعنى: إن لله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ وبما لا يدركه[1]؛ لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه، أو بالمعدوم، كما تقول العرب: فلان أقل من لا شيء في العدد، ولقد ألم به قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢]، وهذه القراءة تعزى إلى رؤبة بن العجّاج، وهو أمضغ العرب للشيح والقيصوم، والمشهود له بالفصاحة، وكانوا يشبّهون به الحسن، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه، وهو المطابق لفصاحته، وانتصب ﴿بَعُوضَةً﴾ بأنها عطف بيان لمثلا. أو مفعول ليضرب، و ﴿مَثَلًا﴾ حال عن النكرة مقدمة عليه. أو انتصبا مفعولين فجرى: (ضرب) مجرى: (جعل)، واشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبضع والعضب؛ يقال: بعضه البعوض، وأنشد: [من الوافر]

لَـنِـعْـمَ الـبَـيْـتُ بَـيْـتُ أَبِـي دِثَـارِ إِذَا مَـا خَـافَ بَـعْـضُ الـقَـوْمِ بَـعْـضَـا[2]

ومنه: بعض الشيء؛ لأنه قطعة منه، والبعوض في أصله صفة على فعول كالقطوع/ ٣٥ب

= في الحقارة، فما الأنعام التي هي أبهى من البعوضة أو أبعد منها عن الحقارة بما لا يخفى، لكان تقرير الزمخشري متوجهاً. وما أراه والله أعلم إلا واهماً في هذا الوجه. وما طولت النفس ووسعت العبارة في الاعتراض عليه، إلا أنه محل ضيق ومعنى متعاص لا يخلص إلى الفهم إلا بهذا المزيد من البسط. وناهيك بموضع العكس على فهم الزمخشري بل مع تعوُّد فهمه وإصابة نسجه. خصوصاً في تنسيق المعاني وتفصيلها والله الموفق. وما تبجحه بالعثور على الوجه الذي ظن أن رؤبة بن العجاج راعاه في قراءته، فكلام ركيك توهم أن القراءة موكولة إلى رأي القارىء وتوجيهه لها ونصرته بالعربية وفصاحته في اللغة، وليس الأمر كذلك، بل القراءة على اختلاف وجوهها وبعد حروفها: سنة تتبع، وسماع يقضي بنقله، الفصيح وغيره على حد سواء، لا حيلة للفصيح في تعسُّر شيء منه عما سمعه عليه، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي بدَّد كل فصاحة وعزل كل بلاغة. فالصحيح والمعتقد أن كل قارىء معزول إلا عما سمعه فوعاه، وتلقنه من الأفواه، فأداه إلى أن ينتهي ذلك إلى استماع من أنصح من نطق بالضاد: سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فتأمل هذا الفصل فإن فاهمه قليل.

(١) قوله «وبما لا يدركه» لعله: أو بما. (ع)

(٢) المراد بالبيت: الكله التي تمنع البعوض ليالي الصيف عمَّن فيها: وأبو دثار: اسم رجل. والدثار: ما يلبس فوق الثياب إذا خاف بعض القوم بعض البعوض، أي قطعه ولسعه. ويحتمل أن المعنى: نعم المأوى والملجأ بيت أبي دثار، أخاف بعض الناس من شر بعضهم. ففيه التورية وهي من بديع الكلام.
ينظر البيت في اللسان (بعض) الدر المصون ١/ ١٦٤.

فغلبت، وكذلك الخموش[1] ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: فيه معنيان: أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو القلّة والحقارة، نحو قولك ـ لمن يقول: فلان أسفل الناس وأنذلهم ـ هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة، والثاني: فما زاد عليها في الحجم، كأنه قصد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، لأنهما أكبر من البعوضة، كما تقول لصاحبك ـ وقد ذمّ من عرفته يشح بأدنى شيء فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين ـ: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه، تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان، كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين، ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في «صحيح مسلم» عن إبرٰهيم عن الأسود قال: دَخَلَ شَبَابٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا وَهِيَ بِمِنَىٰ وَهُمْ يَضْحَكُوْنَ، فَقَالَتْ: مَا يُضْحِكُكُمْ؟ قَالُوا: فُلاَنٌ خَرَّ عَلَىٰ طُنُبِ فُسْطَاطٍ فَكَادَتْ عُنُقُهُ أَوْ عَيْنُهُ أَنْ تَذْهَبَ، فَقَالَتْ: لاَ تَضْحَكُوا، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ بِهَا عَنْهُ خَطِيئَةٌ» (٣٧) يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة، وهي نحو نخبة النملة في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا

---

٣٧ ـ أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٩) ومسلم (٤٨ ـ ٢٥٧٢) من طريق هشام بن عروة، عن عائشة ومالك (٢/ ٩٤١) في العين، باب ما جاء في أجر المريض من طريقة مسلم (٥ ـ ٢٥٧٢) عن يزيد بن خصيفة كلاهما عن عروة به.
وأخرجه مسلم (٥١ ـ ٤٥٧٢) من طريق عمرة عن عائشة.
وأخرجه أحمد (٦/ ٣٩، ٢٦١) من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة.
وأخرجه (٦/ ٢٥٧) من طريق ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة.
وأخرجه أحمد (٦/ ٤٨، ١٨٥) من طريق عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير عن عباد بن عبد الله بن الزبير عن عائشة.
وأخرجه أحمد (٦/ ٢٤٨) من طريق حمزة بن عبد الله بن الزبير عن عائشة.
وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٧) في الطب، باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٢) في البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن (٥٢/ ٢٥٧٣)، والترمذي (٣/ ٢٩٨)، في الجنائز، باب ما جاء في ثواب المريض (٩٦٦)، وأحمد (٣/ ٤، ٢٤، ٦٣، ٨١)، وأبو يعلىٰ (١٢٣٧)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٨٢) (٤١٥) بلفظ «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلاَّ كَفَّر الله بها من خطاياه».
وعند الترمذي وأحمد عن أبي سعيد وحده دون أبي هريرة.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف».
أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة. انتهى.

---

(١) قوله «وكذلك الخموش» في الصحاح: الخموش ـ بالفتح ـ: البعوض. (ع)

أَصَابَ الْمُؤْمِنَ مِنْ مَكْروهٍ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَاهُ حَتَّىٰ نُخْبَةَ النَّمْلَةِ» (٣٨) وهي عضتها، ويحتمل ما هو أشد من الشوكة وأوجع، كالخرور على طنب الفسطاط، فإن قلت: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ قلت: ليس كذلك، فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، «وقد ضَرَبَهُ رَسُولُ الله ﷺ مَثَلاً للدُّنْيَا» (٣٩)، وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها، ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحادّ إلا تحركها، فإذا سكنت فالسكون يواريها، ثم إذا لوحتَ لها

---

٣٨ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٣٧): «قلت: غريب جدًّا».
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٣٩ ـ وذلك في حديث سهل بن سعد الذي رواه الترمذي (٤/ ٥٦٠) كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ـ عزّ وجلّ ـ حديث (٢٣٢٠)، قال: حدثنا قتيبة حدثنا عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».
ورواه ابن ماجة (٢/ ١٣٧٦) كتاب الزهد، باب مثل الدنيا حديث (٤١١٠).
ورواه الحاكم (٤/ ٣٠٦) مثل حديث ابن ماجة.
وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
وتعقبه الذهبي فقال: «زكريا بن منظور ضعفوه»، والطبراني في الكبير (٦/ ١٧٨) رقم (٥٩٢١).
وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٣)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٤٦٥)، وابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٥٦).
وللحديث شواهد من حديث أبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر.
أما حديث أبي هريرة: أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٣٢٦) رقم (١٠٤٧٠)، عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى مشركاً منها شيئاً».
والبزار في مسنده رقم (٣٦٩٣).
قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩١):
«رواه البزار وفيه صالح مولى التوأمة وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات» ا.هـ.
أما حديث ابن عباس:
أخرجه أبو نعيم (٧/ ٣٢) بلفظ المصنف، ولم يذكر الماء.
أما حديث ابن عمر:
أخرجه الخطيب في التاريخ (٤/ ٩٢) من طريق محمد بن أحمد بن عون، حدثنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن ابن عمر، أن رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».
ورواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (١٤٣٩).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» أخرجه الترمذي. انتهى.

بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة، وتفاصيل خلقتها، ويبصر بصرها، ويطلع على ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦]، وأنشدت لبعضهم: [من الكامل]

يَا مَنْ يَرَىٰ مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَهَا ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَىٰ عُرُوقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا ... والمُخَّ فِي تِلْكَ العِظَامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ[1]

﴿وَأَمَّا﴾: حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء، وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت: أمّا زيد فذاهب؛ ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدل لفائدتين/ ٣٦أ: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط، ففي إيراد الجملتين مصدّرتين به ـ وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون ـ إحماد عظيم لأمر المؤمنين، واعتداد بعلمهم أنه الحق، ونعى على الكافرين إغفالهم حظهم، وعنادهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء، و ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، يقال: حقّ الأمر، إذا ثبت ووجب، وحقّت كلمة ربك، وثوب محقق: محكم النسج، و ﴿مَاذَآ﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، فيكون كلمتين، وأن يكون «ذا» مركبة مع «ما» مجعولتين اسماً واحداً فيكون كلمة واحدة، فهو على الوجه الأوّل مرفوع المحل على الابتداء، وخبره ذا مع صلته، وعلى الثاني منصوب المحل في حكم «ما» وحده، لو قلت: ما أراد الله، والأصوب في جوابه أن يجيىء على الأوّل مرفوعاً، وعلى الثاني منصوباً، ليطابق الجواب السؤال، وقد جوّزوا عكس ذلك تقول في جواب من قال: ما رأيت؟: خير، أي المرئي خير، وفي جواب ما الذي رأيت؟: خيراً، أي رأيت خيراً، وقرىء قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، بالرفع والنصب على التقديرين، والإرادة نقيض الكراهة، وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك، وفي حدود المتكلمين: الإرادة معنى يوجب للحيّ حالاً لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه، وقد اختلفوا في إرادة الله، فبعضهم على

(١) للزمخشري، وإن كانت عادته في الكتاب ألا ينسب شعره لنفسه. يقول: يا ألله يا مبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل. والبهيم: المظلم، لانبهام الأشياء فيه. والأليل: أفعل تفضيل من الليل ـ وإن كان جامداً ـ للمبالغة في الظلمة. والنياط: عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق رقيقة. والنحر: أسفل العنق، والمخ: ما في وسط العظام. والنحل: جمع ناحل، أي دقيق. والفرطات: ذنوبه التي فرطت منه، و «ما كان» مفعول «اغفر». والزمان الأول: زمن الشباب.

أنّ للباري مثل صفة المريد منا التي هي القصد، وهو أمر زائد على كونه عالماً غير ساه، وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها وهو غير ساه ولا مكره، ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها، والضمير في ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾: للمثل، أو لأن يضرب، وفي قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ استرذال واستحقار، كما: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ الله عَنْهَا فِي عَبْد الله بنِ عَمْرو بْنِ الْعَاصِ: يَا عَجَبًا لاَبْنِ عَمْرٍو هَذَا (٤٠)!

﴿مَثَلًا﴾: نصب على التمييز؛ كقولك لمن أجاب بجواب غث: ماذا أردت بهذا جواباً، ولمن حمل سلاحاً ردياً: كيف تنتفع بهذا سلاحاً؟ أو على الحال، كقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ جارٍ مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدّرتين بأما، وأن فريق العالمين بأنه الحق وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأنّ العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم، وأنّ الجهل بحسن مورده من باب الضلالة التي زادت الجهلة خبطاً في ظلماتهم، فإن قلت: لم وصف المهديون بالكثرة، والقلة صفتهم[(١)]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص : ٢٤]، «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»، «وجدت الناس اخْبُرْ تَقْلُهْ»؟ قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم،

---

٤٠ ـ أخرجه مسلم (٢/٢٤٧ ـ نووي) كتاب الحيض، باب حكم ضفائر المغتسلة حديث (٣٣١)، وابن ماجة (١/١٩٨) كتاب الطهارة، باب ما جاء في غسل النساء من الجنابة، حديث (٦٠٤)، وأحمد في المسند (٦/٤٣)، والبيهقي في السنن (١/١٨١).
وابن أبي شيبة (١/٧٣) رقم (٧٩٣).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: هو قطعة من حديث أخرجه مسلم في كتاب الحيض من رواية عبيد بن عمير، قال: «بلغ عائشة أنّ عبد الله بن عمرو بن العاص كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهنّ... الحديث» فقالت عائشة: «يا عجباً لابن عمرو هذا، يأمر النساء...» انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: فإن قلت: «كيف وصف المهديون بالكثرة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: جوابه صحيح، وتنظيره بالبيت وهم؛ لأن الشاعر إنما ذهب إلى أن عدد الكرام وإن كان قليلاً في نفسه فالواحد منهم لعموم نفعه وانبساط كرمه يقوم مقام ألف من جنسه مثلاً. وعدد اللئام وإن كثروا فالأكثرون منهم يعدون بواحد من غيرهم، لغل أيديهم وانقباضها عن الجود، وعدم تعدي نفع منهم إلى غيرهم، كقول ابن يزيد [من الرجز]:

الناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عرا

وأما الآية فمضمونها أن عدد المهديين كثير في نفسه، ومضمون الآيات الأُخر أن عددهم قليل بالنسبة إلى كثرة عدد الضالين، فعبر عنه تارة بالكثرة نظراً إلى ذاته، وتارة بالقلة نظراً إلى غيره، فليس معنى البيت من الآية في شيء.

وحين يوصفون بالقلة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، وأيضاً، فإنّ القليل من المهديين كثير في الحقيقة، وإن قلّوا في الصورة، فسمّوا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً/ ٣٦ب [من البسيط]:

إِنَّ الكِرَامَ كَثِيرٌ فِي البِلادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا[١]

وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب[٢]؛ لأنه لما ضرب المثل، فضل به قوم واهتدى به قوم، تسبب لضلالهم وهداهم، وعن مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد، فقال: يا أبا يحيى، أما ترى ما نحن فيه من القيود؟ فرفع مالك رأسه فرأى سلّة، فقال: لمن هذه السلّة؟ فقال: لي، فأمر بها تنزل، فإذا دجاج وأخبصة، فقال مالك: هذه وضعت القيود على رجلك، وقرأ زيد بن علي: «يُضِلُّ بِهِ كثيراً» وكذلك: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، والفسق: الخروج عن القصد، قال رُؤْبَةُ [من الرجز]:

فَوَاسِقاً عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرَا[٣]

---

(١) القل ـ بالفتح ـ: القليل، وهو المراد. وبالضم: بمعنى القلة، ويستعمل بمعنى القليل أيضاً. وبالكسر: الارتعاد غضباً. يقول: إن الكرام في الدنيا كثير لكثرة خيرهم. لأن الكريم يقاوم ألف لئيم، والحال أنهم قليل في العدد كما أن غيرهم ـ يعني اللئام ـ قليل في الخير وإن كثروا في العدد. فوجه الشبه اجتماع الكثرة والقلة في كل على التوزيع.
ينظر الدر المصون: ١/ ١٦٧.

(٢) قال محمود رحمه اللّه: «ونسبة الإضلال إلى اللّه تعالى من إسناد الفعل إلى السبب... إلخ». قال أحمد رحمه اللّه: جرى على سنة السببية في اعتقاد أن الإشراك باللّه وأن الإضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عز وجل، بل من مخلوقات العبد لنفسه على زعم هذه الطائفة ـ تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ وانظر إلى ضيق الخناق، بغلبة الحكايات لإطلاقات المشايخ فرتب عليها حقائق العقائد، وهذا من ارتكاب الهوى واقتحام الهلكة. وما أشنع تصريحه بأن اللّه سبب الإضلال لا خالقه كما أن السلة سبب في وضع القيود في رجلَيْ المحبوس. وإسناد الفعل للّه عزّ وجل مجاز لا حقيقة، كما أن إسناد الفعل إلى البلد كذلك! يا له من تمثيل صار به مثلة، وتنظير صار به حائداً عن النظر الصحيح، مردود على التفصيل والجملة. نسأل اللّه تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة، وهو ولي التوفيق.

(٣) فواسقاً عن قصدها جوائرا يذهبن في نجد وغوراً غائرا
لرؤبة بن العجاج، وقيل لذي الرمة، يصف نوقاً تمشي في المفاوز، خارجات عن طريق الاستقامة، مجاوزات حده. وبيّن ذلك بقوله: يذهبن: وروي: يهوين، أي يسرعن تارة في مكان مرتفع، وتارة في غور: أي في مكان كثير الانخفاض. فغوراً: نصب على الظرفية. وغائراً: وصف مؤكّد.
ينظر ديوانه: ص ١٩٠، وأساس البلاغة (فسق)، وللعجاج في ملحق ديوانه ٢/ ٢٨٨، والكتاب: ١/ ٩٤، ولسان العرب: (فسق) وتهذيب اللغة: ٨/ ٤١٤، وتاج العروس (فسق)، وجواهر الأدب ص ٣٣، والخصائص: ٢/ ٤٣٢، وشرح التصريح: ١/ ٢٨٨، وشرح شذور الذهب ص ٤٣١، =

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين[1] أي بين منزلة المؤمن والكافر، وقالوا: إن أوّل من حدّ له هذا الحدّ أبو حذيفة واصل بن عطاء رضي الله عنه وعن أشياعه[2]، وكونه بَيْنَ بَيْن: أنّ حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ويوارث ويغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، وهو كالكافر في الذمّ واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته، وألا تقبل له شهادة، ومذهب مالك بن أنس والزيدية: أنّ الصلاة لا تجزىء خلفه، ويقال للخلفاء المردة من الكفار: الفسقة، وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله، ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]، يريد اللمز والتنابز، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

النقض: الفسخ وفك التركيب، فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين؛ ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة: يَا رَسُولَ الله، إنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ حِبَالاً وَنَحْنُ قَاطِعُوهَا، فَنَخْشَىٰ إنِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَعَزَّكَ وَأَظْهَرَكَ ـ أَنْ تَرْجِعَ إلَىٰ قَوْمِكَ» (٤١)، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبّهوا بتلك الرمزة على مكانه؛ ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوّجت امرأة فاستوثرها، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش[3].

والعهد: الموثق، وعهد إليه في كذا: إذا وصاه به ووثقه عليه، واستعهد منه: إذا اشترط عليه واستوثق منه، والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله: أحبار اليهود المتعنتون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً، فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم

---

٤١ ـ أخرجه ابن هشام في السيرة (١/٥٩) رقم (٤٥١)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٦١ ـ ٤٦٢)، والبيهقي في الدلائل (٢/٤٤٧)، والطبراني في الكبير (١٩/٨٧ ـ ٩٠) رقم (١٧٤).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه ابن إسحاق في المغازي في قصة العقبة من رواية كعب بن مالك ـ فذكر القصة، وفيها: «فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فذكره بطوله»، وأخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه. انتهى.

والمحتسب: ٢/ ٤٣، والدر المصون: ١/ ١٦٨.

(١) قوله «وهو النازل بين المنزلتين» هذا عند المعتزلة، وأما عند أهل السنّة فهو مؤمن، والفسق لا يخرجه عن الإيمان. (ع)

(٢) قوله «وعن أشياعه» هم المعتزلة. (ع)

(٣) قوله «وعلى المرأة بأنها فراش» بناء على أن الوثارة لين الفراش خاصة. (ع)

من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١١٢]، أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعِثَ إليهم رسول ـ يصدقه الله بمعجزاته ـ صدقوه واتبعوه، ولم يكتموا ذكره فيما تقدمه من الكتب/ ٣٧أ المنزلة عليهم، كقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله في الإنجيل لعيسى ـ صلوات الله عليه ـ: «سأنزل عليك كتاباً فيه نبأ بني إسرائيل، وما أريته إياهم من الآيات، وما أنعمت عليهم، وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به، وما ضيعوا من عهده إليهم»، وحسن صنعه للذين قاموا بمثياق الله تعالى وأوفوا بعهده، ونصره إياهم، وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غدروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهده، لأنّ اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد صلى الله عليه وسلم من التحريف والجحود وكفروا به كما كفروا بمحمد ﷺ، وقيل: هو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يبغي بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم، وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهد الأوّل الذي أخذه على جميع ذرية آدم، الإقرار بربوبيته[1] وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ولا يتفرّقوا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، وعهد خصّ به العلماء، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، والضمير في ميثاقه للعهد وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم، ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه، كما أنّ الميعاد والميلاد، بمعنى الوعد والولادة، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، أي من بعد توثقته عليهم، أو من بعد ما وثق به عهده من آياته وكتبه وإنذار رسله، ومعنى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل: قطعهم الأرحام وموالاة المؤمنين، وقيل: قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاتحاد والاجتماع على الحق، في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض، فإن قلت: ما الأمر؟ قلت: طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور؛ لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بآمر يأمره به، فقيل له: أمر، تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به، كما قيل له شأن، والشأن: الطلب والقصد، يقال: شأنت شأنه، أي قصدت قصده، ﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾؛ لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقابها بثوابها.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ

---

(١) قوله «الإقرار بربوبيته» لعله من الإقرار. (ع)

معنى الهمزة التي في ﴿كَيْفَ﴾: مثله في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟، وكيف تطير بغير جناح؟ فإن قلت: قولك: أتطير بغير جناح إنكار للطيران؛ لأنه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر فغير مستحيل مع ما ذكر من الإماتة والإحياء، قلت: قد أخرج في صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان، فإن قلت: فقد تبين أمر الهمزة، وأنها لإنكار الفعل والإيذان باستحالته في نفسه، أو لقوة الصارف عنه، فما تقول في: ﴿كَيْفَ﴾، حيث كان إنكاراً للحال التي يقع عليها كفرهم؟ قلت: حال الشيء تابعة لذاته، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع/ ٣٧ب ثبوت الحال؛ فكان إنكار حال الكفار لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر، وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ، وتحريره: أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها، وقد علم أنّ كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده، ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني.

والواو في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾: للحال، فإن قلت: فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماض، ولا يقال جئت وقام الأمير، ولكن وقد قام، لا أن يضمر قد؟ قلت: لم تدخل الواو على: ﴿كنتم أمواتاً﴾ وحده، ولكن على جملة قوله: ﴿كنتم أمواتاً﴾ إلى ﴿تُرْجَعُونَ﴾، كأنه قيل: كيف تكفرون بالله، وقصتكم هذه وحالكم أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم بعد الموت، ثم يحاسبكم، فإن قلت: بعض القصة ماض وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع حالاً؟ قلت: هو العلم بالقصة، كأنه قيل: كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها[1]، فإن قلت: فقد آل المعنى إلى قولك: على أي حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة فما وجه صحته؟ قلت: قد ذكرنا أنّ معنى الاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ الإنكار[2]، وأنّ إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية، فكأنه قيل: ما

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ ما معناه: هذا تَكَلُّفٌ، يعني تأويلَه هذه الجملةَ بالجملةِ الاسمية. قال: «والذي حَمَله على ذلك اعتقادُه أنَّ الجملَ مندرجَةٌ في حكم الجملةِ الأولى». قال: «ولا يتعيَّن، بل يكونُ قولُه تعالى: «ثم يُميتُكم» وما بعده جملاً متسأنفةً أَخْبَرَ بها تعالى لا داخلةً تحت الحالِ؛ ولذلك غايَرَ بينها وبين ما قبلَها من الجملِ بحرفِ العطفِ وصيغةِ الفعل السابقَيْنِ لها في قولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾. انتهى الدر.

(٢) قوله ـ سبحانه ـ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ. . . .﴾ الآية.

=

أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه! فإن قلت: إن اتصل علمهم بأنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم، فلم يتصل بالإحياء الثاني والرجوع؟ قلت: قد تمكنوا من العلم بهما بالدلائل الموصلة إليه، فكان ذلك بمنزلة حصول العلم، وكثير منهم علموا ثم عاندوا، والأموات: جمع ميت، كالأقوال في جمع قَيِّل[1]، فإن قلت: كيف قيل لهم أموات في حال كونهم جماداً، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البنى؟ قلت: بل يقال ذلك لعادم الحياة، كقوله ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان: ٤٩]، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [يس: ٣٣]، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١]، ويجوز أن يكون استعارة لاجتماعهما في أن لا روح ولا إحساس، فإن قلت: ما المراد بالإحياء الثاني؟ قلت: يجوز أن يراد به الإحياء في القبر: وبالرجوع: النشور، وأن يراد به النشور، وبالرجوع: المصير إلى الجزاء، فإن قلت: لم كان العطف الأوّل بالفاء والإعقاب بثم؟ قلت: لأنّ الإحياء الأوّل قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت ـ إن أريد به النشور ـ تراخيا ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء ـ أيضاً ـ متراخ عن النشور، فإن قلت: من أين أنكر اجتماع الكفر مع القصة التي ذكرها الله، ألأنّها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، أم على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً، لأنّ ما عدّده آيات/ ٣٨أ وهي مع كونها آيات من أعظم النعم، ﴿لَكُم﴾: لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم

= فيه «كيف» في موضع الهمزة المفيدة للإنكار والتعجب، وهذا ما أفاده المفسر العلامة وشرحه مطبقاً. . .

أقول: «كيف» اسم استفهام للسؤال عن الحال، وجوابه بيان حال المسؤول عنه، كما إذا قلت كيف محمد؟ فجوابه: صحيح أو سقيم، مشغول أو فارغ ونحو ذلك.

وهذه الأداة جعلها البلاغيون من أدوات التصور أي تصور أحد أركان الإسناد: المسند أو المسند إليه، أو العلاقة بينهما، أو أكثر من واحد منها.

وكما تفيد السؤال عن الحال تفيد معاني أخرى بقرينة الحال كما في الآية هنا فقد جاءت للتعجب مع الإنكار فهي في موضع الهمزة كما قرر المفسر العلامة.

والتعجب في اللغة يحدده صاحب اللسان بقوله «أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله» ويتضمن هذا إنكاراً، ولهذا قال صاحب اللسان ـ أيضاً ـ «العجب والعجب: إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده».

وبهذا نصل إلى أن التعجب: انفعال النفس بالشيء أو الأمر الغريب النادر لأنها لم تر مثله ويأتي بأدوات كثيرة من أدوات الاستفهام ومنها: هل، وما، وأي، وأني مع الهمزة وكيف.

ينظر اللسان (عجب) الإيضاح للقزويني ٣/ ٧٢، المطول ٢٣٥، البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨٢.

(١) قوله «كالأقوال في جمع قيل» ملك من ملوك حمير. وأصله «قيل» بالتشديد. ومن جمعه على أقيال لم يجعل أصله مشدداً. كذا في الصحاح. (ع)

ودينكم، أما الانتفاع الدنيوي فظاهر، وأمّا الانتفاع الديني فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم، وما فيه من التذكير بالآخرة وبثوابها وعقابها، لاشتماله على أسباب الأنس واللذة من فنون المطاعم والمشارب والفواكه والمناكح والمراكب والمناظر الحسنة البهية، وعلى أسباب الوحشة والمشقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغموم والمخاوف؛ وقد استدل بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾، على أنّ الأشياء التي يصح أن ينتفع بها[1] ولم تجري مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقاً لكل أحد أن يتناولها ويستنفع بها، فإن قلت: هل لقول من زعم أنّ المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة؟ قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية: جاز ذلك، فإنّ الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية، و ﴿جَمِيعًا﴾: نصب على الحال من الموصول الثاني، والاستواء: الاعتدال والاستقامة، يقال: استوى العود وغيره، إذا قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً، من غير أن يلوي على شيء، ومنه استعير قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر، والمراد بالسماء جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق، والضمير في ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: ضمير مبهم، و ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾: تفسيره؛ كقولهم: ربه رجلاً[2]، وقيل: الضمير راجع إلى السماء، والسماء في معنى الجنس، وقيل. جمع

---

(1) قال محمود رحمه الله تعالى: «وقد استدلّ بقوله (خلق لكم) على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها... إلخ». قال أحمد رحمه الله: هذا استدلال فرقة من القدرية ذهبت إلى أن حكم الله تعالى الإباحة في ذوات المنافع التي لا يدل العقل على تحريمها قبل ورود الرُسُل تلقيها من العقل وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق داعية إليها، فخلقها مع خطرها على العباد خلاف مقتضى الحكمة: فوجب عندهم بمقتضى العقل أن يعتقدوا إباحتها في حكم الله عزّ وجل، وهذا زلل ناشىء عن قاعدة التحسين والتقبيح الباطلة. وأما استدلال الزمخشري لهذه الفرقة بالآية فغير مستقيم، فإنّ دعواهم أن العقل كافٍ في إباحة هذه الأشياء. فإن دلّت الآية على الإباحة فنحن نقول بموجبها ويكون إذاً إباحة شرعية سمعية. وإن لم تدل على الإباحة لم يبقَ في الاستدلال بها مطمع.

(2) قال السمين الحلبي: وقد رُدَّ عليه هذا؛ فإنه ليس من المواضِعِ التي يُفَسَّر فيها الضميرُ بما بعدَه؛ لأنّ النحويين حَصَروا ذلك في سبعةِ مواضع: ضميرِ الشأن، والمجرور بـ «رُبَّ» والمرفوع بنعْمَ وبِئْسَ وما جرى مَجْراهما، وبأوّلِ المتنازِعَيْن، والمفسَّر بخبرِهِ، وبالمُبْدِل منه، ثم قال هذا المعترض: «إلاّ أن يُتَخَيَّلَ فيه أن يكونَ «سبع سمواتٍ» بدلاً وهو الذي يقتضيه تشبيهُه برُبَّه رجلاً، فإنه ضميرٌ مبهمٌ ليس عائداً على شيء قبلَه، لكن هذا يَضعفُ بكونِ هذا التقديرِ يَجْعَلُه. غيرَ مرتبطِ بما قبلَهُ ارتباطاً كلياً، فيكون أَخْبَرَ بإخبارينِ:
أحدُهما: أنه استوى إلى السماء.
والثاني: أنه سَوَّى سبع سموات، وظاهرُ الكلامِ أن الذي استوى إليه هو المُسَوَّى بعينه. انتهى. الدر.

سماءة، والوجه العربي هو الأوّل، ومعنى تسويتهنّ: تعديل خلقهنّ، وتقديمه، وإخلاؤه من العوج والفطور، أو إتمام خلقهنّ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فمن ثم خلقهنّ خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، فإن قلت: ما فسرت به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه (ثم) لإعطائه معنى التراخي والمهلة قلت: (ثم) ههنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السمٰوات على خلق الأرض، لا للتراخي في الوقت كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧]، على أنه لو كان لمعنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به، لأن المعنى [أنه] حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك ـ أي في تضاعيف القصد إليها ـ خلقاً آخر. فإن قلت: أما يناقض هذا قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠]؟ قلت: لا؛ لأن جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء، وأمّا دحوها فمتأخر، وعن الحسن: خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر، عليها دخان ملتزق بها، ثم أصعد الدخان وخلق منه السمٰوات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض، فذلك قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهو الالتزاق/ ٣٨ب.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَإِذْ﴾: نصب بإضمار اذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا، والملائكة: جمع ملأك على الأصل، كالشمائل في جمع شمأل، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع، و﴿جَاعِلٌ﴾ من جعل الذي له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكانا مفعوليه، ومعناه مُصَيِّرٌ في الأرض خليفة، والخليفة: من يخلف غيره، والمعنى: خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته، فإن قلت: فهلا قيل: خلائف، أو خلفاء؟ قلت: أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما يُسْتغنىٰ بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم. أو أريد من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم فوحد لذلك، وقرىء: «خليقة» بالقاف ويجوز أن يريد: خليفة مني، لأنّ آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كلّ نبيّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، فإن قلت: لأي غرض

أخبرهم بذلك؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم، وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة. ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾: تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير[1]، ولا يريد إلا الخير، فإن قلت: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلت: عرفوه بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة، وقرىء: «يسفُك»، بضم الفاء، ويُسفك، ويَسفك، من أسفك، وسفك، والواو في ﴿وَنَحْنُ﴾: للحال، كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان، والتسبيح: تبعيد الله عن السوء، وكذلك تقديسه، من سبح في الأرض والماء، وقدس في الأرض: إذا ذهب فيها وأبعد، و ﴿بِحَمْدِكَ﴾: في موضع الحال، أي نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك؛ لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك، ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم، فإن قلت: هلا بين لهم تلك المصالح؟ قلت: كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة، على أنه قد بين لهم بعض ذلك فيما أتبعه من قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، واشتقاقهم ﴿ءَادَمَ﴾ من الأدمة، ومن أديم الأرض، نحو اشتقاقهم: (يعقوب): من العقب، و (إدريس): من الدرس، و (إبليس): من الإبلاس، وما آدم إلا اسم أعجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل، كآزر، وعازر، وعابر، وشالخ، وفالغ، وأشباه ذلك: ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: أي أسماء المسميات[2]، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء، لأن الاسم

---

(١) قوله «وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير» هذا وما بعده عند المعتزلة. وأما عند أهل السنّة فهو تعالى يفعل الخير والشر ويريدهما. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «أي أسماء المسميات... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهو يفر من اعتقاد أن الإسم هو المسمى، لأن ذلك معتقَد أهل السنة، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية بقوله ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ ويتغافل عن قوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فإن الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً. ولم يجر إلا ذِكر الأسماء، فدلَّ على أنها المسميات، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم، وأن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير غرض فيه بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات وإطلاعه على حقائقها وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار وعلى تسميتها أيضاً فإن طريق التعليم يميِّز كل حقيقة باسمها فقد ثبت بهاتين النكتتين أن المراد بالأسماء المسميات. وأما استدلاله بقوله (أنبئوني بأسماء هؤلاء) فغايته إضافة الأسماء إلى الذوات، فلهم أن يقولوا لو كانت الأسماء هي الذوات =

لا بد له من مسمى، وعوض منه اللام كقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ﴾ [مريم: ٤]، فإن قلت: هلا/ ٣٩أ زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأن الأصل: وعلم آدم مسميات الأسماء؟ قلت: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات، لقوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء، وأنبئهم بهم، وجب تعليق التعليم بها، فإن قلت: فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ قلت: أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ﴾: أي عرض المسميات؛ وإنما ذكّر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم، وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يعني في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء إرادة للرد عليهم، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا، فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ استحضار لقوله لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح، وقرىء: «وعُلم آدم» على البناء للمفعول، وقرأ عبد الله: «عرضهُنّ»، وقرأ أُبيّ: «عرضها»، والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها؛ لأن العرض لا يصح في الأسماء، وقرىء: «أنبيهم»، بقلب الهمزة ياء، «وأنبهم»، بحذفها والهاء مكسورة فيهما.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾﴾

= لزمت إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا ما لا مطمع فيه فإن هذه الإضافة مثلها في قولك: نفس زيد وحقيقته، فالمراد إذاً نبئوني بحقائق هؤلاء، ولا نكير في هذه الإضافة؛ فإن الأسماء بمعنى المسميات. والحقائق أعم من هؤلاء المشار إليهم والمضاف إليهم فصحت الإضافة لما بين الأعم والأخص من التغاير، وهذا هو المصحح للإضافة في مثل نفس زيد وأشباهه. فهذه نبذة من مسألة الاسم والمسمى تختص بهذه الآية. وفيها إن شاء الله كفاية على أنها وإن عدّها المتكلمون من فن الكلام، فالغالب عليها أنها مسألة لفظية لا يرجع اختلاف الأشعرية والمعتزلة فيها إلى كثير من حيث الحقيقة.

السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف[1] وإخوته له؟ ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه، وقرأ أبو جعفر: «للملائكةُ اسجدوا» بضم التاء للإتباع، ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتباع إلا في لغة ضعيفة، كقولهم: «الحمدِ لله»[2]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾، استثناء متصل، لأنه كان جنيّاً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم، فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم، ويجوز أن يجعل منقطعاً ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع مما أمر به ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ عنه، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. من جنس كفرة الجن وشياطينهم، فلذلك أبى واستكبر؛ كقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، السكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار، و ﴿أَنتَ﴾ تأكيد للمستكن في ﴿ٱسۡكُنۡ﴾؛ ليصح العطف عليه، و﴿رَغَدًا﴾ وصف للمصدر، أي أكلا رغداً واسعاً رافهاً، و ﴿حَيۡثُ﴾: للمكان المبهم، أي: أيّ مكان من الجنة ﴿شِئۡتُمَا﴾: أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة، حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة، حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفائتة للحصر، وكانت الشجرة فيما قيل: (الحنطة)، أو (الكرمة)، أو (التينة)، وقرىء: «ولا تِقربا» بكسر التاء، و «هذي» و «الشِجرة»،/ ٣٩ب بكسر الشين، و «الشِّيرة» بكسر الشين والياء، وعن أبي عمرو أنه كرهها، وقال يقرأ بها برابرة مكة وسودانها، ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله، ﴿فَتَكُونَا﴾ جزم عطف على ﴿تَقۡرَبَا﴾، أو نصب جواب للنهي، الضمير في ﴿عَنۡهَا﴾ للشجرة، أي فحملهما الشيطان على الزلة بسببها، وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتهما عنها، و (عن): هذه، مثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، وقولِهِ: [من السريع]

---

(١) قوله «لآدم وأبو يوسف» لعله وأبوَى يوسف. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قلتُ: وهذا أكثرُ شذوذاً، وأضعفُ من ذاك مع ما في ذاك من الضعفِ المتقدِّم؛ لأنَّ هناك فاصلاً وإنْ كان ساكناً، وقال أبو البقاء: «وهي قراءةٌ ضعيفةٌ جداً، وأحسنُ ما تُحْمَلُ عليه أن يكون الراوي لم يَضْبِطْ عن القارىء، وذلك أن القارىء أشارَ إلى الضمِّ تنبيهاً على أنَّ الهمزةَ المحذوفةَ مضمومةٌ في الابتداءِ، فلم يُدْرِك الراوي هذه الإشارَةَ. وقيل: إنه نوى الوقفَ على التاءِ ساكنةً ثم حَرَّكها بالضم إتباعاً لحركةِ الجيم، وهذا من إجراءِ الوَصْلِ مُجْرى الوقفِ؛ ومثلُه: ما رُوِيَ عن امرأةٍ رأت رجلاً مع نساءٍ فقالت: «أفي سَوْءَةَ أَنْتُنَّه» نوتِ الوقف على «سَوْءَة» فسكَّنَتِ التاءَ ثم ألقَتْ عليها حركةَ همزةِ «أنتنَّ». قلت: فعلى هذا تكونُ هذه الحركةُ حركةَ التقاءِ ساكنين، وحينئذٍ يكونُ كقوله: «قالِت اخرُج» وبابه، وإنما أكثرَ الناسُ توجيهَ هذه القراءةِ لجلالةِ قارئِها أبي جعفر يزيد بن القعقاع شيخِ نافعٍ شيخِ أهلِ المدينةِ، وترجمتُهما مشهورةٌ. انتهى. الدر.

. . . . يَـنْـهَـوْنَ عَـنْ أَكْـلٍ[1] وَعَـنْ شُـرْبِ[2]

وقيل: فأزلهما عن الجنة[3] بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول: زلّ عن مرتبته، وزل عني ذاك: إذا ذهب عنك، وزل من الشهر كذا، وقرىء: «فأزالهما»، ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة. أو من الجنة إن كان الضّمير للشجرة؛ في (عنها)، وقرأ عبد الله: «فوسوس لهما الشيطان عنها»، وهذا دليل على أنّ الضّمير للشجرة، لأنّ المعنى صدرت وسوسته عنها، فإن قلت: كيف توصل إلى إزلالهما ووسوسته لهما بعدما قيل له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]. قلت: يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء، وقيل: كان يدنو من السّماء فيكلّمهما، وقيل: قام عند الباب فنادى، ورُوِيَ أنّه أراد الدخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به وهم لا يشعرون، قيل: ﴿اهْبِطُوا﴾: خطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية، والصّحيح أنّه لآدم وحوّاء والمراد هما وذريتهما؛ لأنّهما لمّا كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنّهما الإنس كلّهم، والدّليل عليه قوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣] ويدلّ على ذلك قـولـه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وما هو إلا حكم يعم الناس كلّهم، ومعنى بعضكم لبعض ﴿عَدُوٌّ﴾: ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض، والهبوط: النزول إلى الأرض، ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار: أو استقرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع بالعيش، ﴿إِلَى حِينٍ﴾: يريد إلى يوم القيامة، وقيل: إلى الموت.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

---

(١) قوله «وقوله ينهون عن أكل» في الصحاح: جزور نهية ـ على فعلية ـ: أي ضخمة سمينة.

(٢) يـمـشـون رسـمـاً فـوق قـنـتـه ... يـنـهـون عـن أكـل وعـن شـرب

يصف مضيافاً أشبع أضيافه، فهم يمشون ويرسمون رسماً فوق أعلى الجبل. وقنة الجبل وقلته: أعلاه، حال كونهم متناهين في السمن تناهياً ناشئاً عن أكل كثير وشرب كثير.

ينظر لسان العرب: (نوه)، (نهى).

(٣) قال محمود رحمه الله: «وقيل فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول زل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ويشهد له قوله تعالى ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾.

معنى تلقي الكلمات؛ استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها، وقرىء بنصب (آدم) ورفع (الكلمات)، على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به، فإن قلت: ما هنّ؟ قلت: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٣]، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: سبحانك اللّٰهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، لا إلٰه إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»،(٤٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تنفخ فيّ الروح من روحك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى. قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم»،(٤٣) واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء، لأنها كانت تبعاً له، كما طوى ذكر/ ٤٠أ النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك، وقد ذكرها في قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: فرجع عليه بالرحمة والقبول، فإن قلت: لم كرر: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾؟ قلت: للتأكيد ولما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، فإن قلت: ما جواب الشرط الأول؟ قلت: الشرط الثاني مع جوابه؛ كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك، والمعنى: فإما يأتينكم مني هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم؛ بدليل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في مقابلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ [طه: ١٢٣]، فإن قلت:

---

٤٢ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٢١٠) رقم (٢٤٠٣)، قال: حدثنا أبو بكر قال: نا ابن فضيل وأبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال ابن مسعود فذكره.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: موقوف، أخرجه ابن أبي شيبة في أوائل الصلاة من رواية إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال ابن مسعود: فذكره ولم يقل: «ما قال أبونا آدم حين اقترف الخطيئة». انتهى.

٤٣ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤٥)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي وابن جرير في التفسير (١/ ٥٤٢) رقم (٧٧٥). وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٣٥) رقم (٤١١)، وذكره السيوطي في الدر (١/ ١١٦)، وعزاه للفريابي وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن المنذر.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: موقوف، أخرجه الحاكم في ترجمة آدم، من فضائل الأنبياء، من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عنه. . . انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه اللّٰه: «فإن قلت لم جيء بكلمة الشك وإتيان الهدى كائن. . . إلخ؟». قال أحمد رحمه اللّٰه: هاتان زلّتان زلّهما فلزّهما في قرن: الأولى: إيراد السؤال بناء على أن الهدى على اللّٰه تعالى واجب. والثانية: بناء الجواب على أن الوجوب الشرعي يثبت بالعقل قبل ورود الشرع. والحق أن اللّٰه تعالى لا يجب عليه شيء ـ تعالى عن الإيجاب رب الأرباب ـ. وإنما يدخل تحت =

فلم جيء بكلمة الشك[1]، وإتيان الهدى كائن لا محالة لوجوبه؟ قلت: للإيذان بأنّ الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل، وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً، كان الإيمان به وتوحيده واجباً؛ لما ركب فيهم[2] من العقول، ونصب لهم من الأدلة ومكنهم من النظر والاستدلال، فإن قلت: الخطيئة التي أهبط بها آدم[3] إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء؟، وإن كانت صغيرة، فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء، كما فعل بإبليس ونسبته إلى الغيّ والعصيان، ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة؟ قلت: ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات، وإنما جرى عليه ما جرى، تعظيماً للخطيئة وتفظيعاً لشأنها وتهويلاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذرّيته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة، فكيف يدخلها ذو خطايا جمة، وقرىء: «فمن تبع هُدَيَّ» على لغة هذيل، «فلا خوفَ» بالفتح.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾

﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: هو يعقوب ـ عليه السلام ـ لقب له، ومعناه في لسانهم: صفوة الله،

= ربقة التكاليف المربوب لا الرب. وأما وجوب النظر في أدلة التوحيد، قائماً يثبت بالسمع لا بالعقل، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع، بل محض العقل كافٍ فيه باتفاق.

(١) قوله «واجباً لما ركب فيهم» هذا عند المعتزلة. وأما عند أهل السنّة فلا حكم قبل الشرع. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت الخطيئة التي أهبط بها آدم من الجنة. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله تعالى: مقتضاه تأويل الآي المشعر ظاهرها بوقوع الصغائر من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها. على أن تجويز الصغائر عليهم قد قال به طوائف من أهل السنّة. وفي طي وقوعها إلطاف وزيادة في الالتجاء إلى الله تعالى والتواضع له والاشفاق على الخطائين والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، كما نُقل عن داود أنه كان بعد ابتلاء الله له يدعو للخطائين كثيراً. وعلى الجملة فالقدري يجوز الصغائر على الأنبياء ويقول: إن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر في حق الناس فلا جرم التزم الزمخشري ورود السؤال؛ لأن آدم عليه السلام معصوم من الكبائر باتفاق فيلزم على قاعدة القدرية أن تكون صغيرة واجبة التكفير والمحو، غير مؤاخذ عليها ولا مستوجب بسببها عقوبة ولا شيئاً مما وقع، وهذا لا جواب للزمخشري عنه إلا الإنصاف والرجوع عن المعتقدات الباطلة والمذاهب الماحلة ولقد شنّع السؤال بقوله إن الذي جرى على آدم عليه السلام كالذي جرى على إبليس عليه اللعنة. ومعاذ الله أن يكون الحالان سواء والعاقبتان كما تعلم: أن آدم عليه السلام خالد في النعيم المقيم؛ وأن إبليس خالد في العذاب الأليم.

وقيل: عبد الله، وهو بزنة إبرٰهيم وإسمٰعيل، غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة، وقرىء «إسرائل» و «إسرائلّ»، وذِكرهم النعمة: ألا يُخِلُّوا بشكرها، ويعتدّوا بها، ويستعظموها، ويطيعوا مانحها، وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدّد عليهم: من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم، وغير ذلك، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشر به في التوراة والإنجيل، والعهد يضاف إلى المعاهِد والمعاهَد جميعاً، يقال: أوفيت بعهدي، أي بما عاهدت عليه كقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وأوفيت بعهدك: أي بما عاهدتك عليه، ومعنى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾، وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥]، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾: فلا تنقضوا عهدي، وهو من قولك: زيداً رهبته، وهو/ ٤٠ب أوكد في إفادة الاختصاص من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وقرىء: «أُوَفِّ» بالتشديد: أي أبالغ في الوفاء بعهدكم، كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ ما عاهدوا عليه ووعدوه من الإيمان بنبيّ الرحمة والكتاب المعجز، ويدل عليه قوله: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أوّل من كفر به، أو أوّل فريق أو فوج كافر به، أو: ولا يكن كل واحد منكم أوّل كافر به، كقولك: كسانا حلة، أي كل واحد منا، وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أوّل من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه والمستفتحين على الذين كفروا به، وكانوا يعدون اتباعه أول الناس كلهم، فلما بعث كان أمرهم على العكس كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة: ١ ـ ٤]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، ويجوز أن يراد: ولا تكونوا مثل أول كافر به، يعني من أشرك به من أهل مكة، أي: ولا تكونوا وأنتم تعرفونه مذكوراً في التوراة موصوفاً، مثل من لم يعرفه وهو مشرك لا كتاب له، وقيل: الضمير في «به» لما معكم؛ لأنهم إذا كفروا بما يصدّقه فقد كفروا به، والاشتراء استعارة للاستبدال؛ كقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، وقوله: [من الرجز]

كَمَا ٱشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا[1]

وقوله [من الطويل]:

---

(١) مر شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ١٦ فراجعه إن شئت. اهـ مصححة.

.... فَإِنِّي شَرَيْتُ الحِلْمَ بَعْدَكَ بِالجَهْلِ[1]

يعني: ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً وإلا فالثمن هو المشترى به، والثمن القليل الرياسة التي كانت لهم في قومهم، خافوا عليها الفوات لو أصبحوا أتباعاً لرسول الله ﷺ فاستبدلوها ـ وهي بدل قليل ومتاع يسير ـ بآيات الله وبالحق الذي كل كثير إليه قليل، وكل كبير إليه حقير، فما بال القليل الحقير، وقيل: كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا، ويرشونهم الرشا على تحريفهم الكلم، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع، وكان ملوكهم يدرّون عليهم الأموال؛ ليكتموا أو يحرّفوا.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣)﴾

الباء التي في ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء خلطته به، كأن المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم، وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه، ﴿وَتَكْتُمُوا۟﴾: جزم داخل تحت حكم النهي، بمعنى: ولا تكتموا، أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أي: ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تأكل السمك

---

(١) ألا زعمت أسماء ألأ أحبها ... فقلت: بلى لولا ينازعني شغلي
جزيتك ضعف الود لولا اشتكيته ... وما إن جزاك الضعف من أحد قبلي
فإن تزعميني كنت أجهل فيكم ... فإنى شريت الحلم بعدك بالجهل
لأبي ذؤيب الهذلي. وزعمت: أي ظنت أنه الحال والشأن لا أحبها، فقلت لها: بلى أحبك لولا ينازعني: أي لولا أن ينازعنى شغلي ويصرفني عن مودتك. أو لو لم ينازعني شغلي لوددتك: جزيتك ضعف الود: أي وددتك قدر المعتاد مرتين، أو قدر ودك مرتين. لولا اشتكيته: أي لولا أن مللته وسئمته، أو لو لم تشتكيه لضاعفته وأكثرته، فلولا هنا يحتمل أنها كلمة واحدة فيقدر بعدها «أن» المصدرية، ويحتمل أنها كلمتان بمعنى لو لم، لكنه استعمال نادر. ويجوز في «لولا» الثانية أنها حرف تحضيض وتوبيخ كهلا، يعني كان الأحق بالشكوى كثرة المودة الموجبة للتهمة، لا كثرة الهجر. و «ما» نافية، و «إن» و «من» زائدتان. وأجهل: فعل مضارع مرفوع. وقيل: أفعل تفضيل منصوب. فيكم: أي بسببكم، أو فيما بين قبيلتكم. وعبر بضمير جمع المذكر للتعظيم. فإني شريت: جواب الشرط، واشترى الشيء: أخذه بالثمن، وشراه: باعه به، فالمراد هنا: استبدلت العقل بعد فراقك بالجهل، فهو مجاز مرسل علاقته الإطلاق. والمعنى: أنه اعتذر عن عدم ودها بشغله وشكواها وعقله.
ينظر ديوانه (١/ ٣٦)، الهمع: (١/ ١٤٨)، ابن عقيل: (١/ ٤٢٣)، الدر المصون: ١/ ٢٠٧.

وتشرب اللبن، فإن قلت: لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين حتى ينهوا عن الجمع بينهما، لأنهم إذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتموا الحق[1]؟ قلت: بل هما متميزان؛ لأن لبس الحق بالباطل ما ذكرنا من كتابتهم في التوراة ما ليس/ ٤١أ منها، وكتمانهم الحق أن يقولوا: لا نجد في التّوراة صفة محمد ﷺ، أو حكم كذا، أو يمحوا ذلك، أو يكتبوه على خلاف ما هو عليه، وفي مصحف عبد الله: «وتكتمون»، بمعنى كاتمين، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: في حال علمكم أنّكم لابسون كاتمون، وهو أقبح لهم، لأنّ الجهل بالقبيح ربّما عذر راكبه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ يعني: صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ منهم؛ لأنّ اليهود لا ركوع في صلاتهم، وقيل: (الركوع): الخضوع والانقياد لما يلزمهم في دين الله، ويجوز أن يراد بالرّكوع: الصّلاة، كما يُعبَّر عنها بالسّجود، وأن يكون أمراً بأن يُصلي مع المصلّين، يعني في الجماعة، كأنّه قيل: وأقيموا الصّلاة وصلّوها مع المصلّين، لا منفردين.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ﴾: الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم[2]، والبرّ: سعة الخير والمعروف، ومنه البر لسعته، ويتناول كلّ خير، ومنه قولهم: صدقت وبررت، وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السرّ من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد ﷺ ولا يتّبعونه، وقيل: كانوا يأمرون بالصّدقة ولا يتصدّقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرّقوها خانوا فيها، وعن محمد بن واسع: بلغني أنّ ناساً من أهل الجنّة اطّلعوا على ناس من أهل النّار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنّة، قالوا: كنّا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها، ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ﴾: تبكيت مثل قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يعني تتلون التّوراة وفيها نعت محمد ﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العمل، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: توبيخ عظيم بمعنى: أفلا تفطنون، لقبح

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين... إلخ». قال أحمد رحمه الله: السؤال غير موجّه، لأنه ادّعى فيه عدم التميُّز بين الفعلين. وغاية ما قدره تلازمهما. والمتلازمان متغايران متميزان، إلا أن يعني بعدم التميُّز عدم الانفكاك، فلا نسلم له تعذُّر جمعهما في النهي إذاً بل النهي عن أحدهما على هذا التقدير مستلزم للنهي عن الآخر، وإن لم يصرِّح به.

(٢) قوله ـ تعالى ـ «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» فيه: الهمزة للتقرير والتوبيخ والتعجيب من حالهم. =

ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول، لأنّ العقول تأباه وتدفعه، ونحوه: ﴿أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ [الأنبياء: ٦٧]. ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي بالجمع بينهما، وأن تصلّوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقّها، وما يجب فيها ـ من إخلاص القلب، وحفظ النيات، ودفع الوساوس، ومراعاة الآداب، والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع، واستحضار العلم بأنّه انتصاب بين يدي جبار السمٰوات، ليسأل فكّ الرّقاب عن سخطه وعذابه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] أو: واستعينوا على البلايا والنّوائب بالصّبر عليها والالتجاء إلى الصّلاة عند وقوعها، وكان رسولُ الله ﷺ «إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصّلاة» (٤٤) وعن ابن عباس أنّه نُعي إليه أخوه «قُثَم» وهو في سفر، فاسترجع وتنحّى عن الطريق فصلّى ركعتين أَطَالَ فيهما الْجُلُوسَ، ثُمّ قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: «واستعينوا بالصبر والصّلاة»، (٤٥) وقيل:

---

٤٤ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٤٢٠) كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ـ ﷺ ـ من الليل حديث (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨).
والبغوي في شرح السنة (٢/ ٥٢٦) رقم (١٠١١)، وابن جرير في التفسير (٢/ ١٢) رقم (٨٥٠)، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٥٣) باب إرسال حذيفة بن اليمان إلى عسكر المشركين.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه الطبري في تفسيره من حديث حذيفة بهذا اللفظ، فأخرجه أبو داود وأحمد من رواية عبد العزيز أخي حذيفة عن حذيفة بلفظ: «كان إذا حزبه أمر صلّى». وأخرجه البيهقي في الدلائل في قصة الخندق مطولاً. انتهى.
٤٥ ـ أخرجه ابن جرير في التفسير (٢/ ١٤) رقم (٨٥٢)، وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٦٣٢) كتاب =

= أقول: الهمزة أوسع أدوات الاستفهام استعمالاً ولهذا جاء للتصور والتصديق بخلاف هل فإنها للتصديق فقط، وبقية أدوات الاستفهام فإنها للتصور فقط.
فالهمزة للتصديق وهو انقياد الذهن وإذعانه لوقوع النسبة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها، وهذا ما يفهم من قولك أقام زيد؟، وأزيد قام، فالمسؤول عنه نسبة القيام إليه في الواقع أحاصلة أم لم تحصل؟
وتأتي للتصور ـ أيضاً ـ وهو: إدراك غير النسبة المذكورة آنفاً كقولك: أتمر في الطبق أم عنب؟ فالمطلوب تعيين المسند إليه، وقد يطلب تعيين المسند كما في قولك:
أزيد في المنزل أم في العمل؟، وللهمزة معانٍ أخرى تدرك من خلال المقام ومن رام هذا الكلام فعليه بالمصنفات البلاغية وانتقال الأداة لهذه المعاني بطريق «ينظر الإيضاح للقزويني ٣/ ٥٨، ٥٩، والمطول ٢٣٩ التلازم بين معناها الأصلي: الاستفهام والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٢٥٩ وما بعدها، ومن البلاغة والمعنى المنقولة إليه، وذلك في جميع العربية في نور القرآن والسنة النبوية لفتحي حجازي وزميله الأدوات على غرارها. ٩٨، وعقود الجمان للسيوطي ١/ ١٧٤.

الصّبر الصّوم، لأنّه حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصّبر/ ٤١ ب
ويجوز أن يراد بالصّلاة الدّعاء، وأن يستعان على البلايا بالصّبر، والالتجاء إلى الدّعاء، والإبتهال إلى الله تعالى في دفعه. ﴿وَإِنَّهَا﴾ الضمير للصّلاة أو للإستعانة، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل، ونهوا عنها من قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ. . .﴾ [البقرة: ١٢٢] إلى ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقة ثقيلة من قولك: كبر عليّ هذا الأمر، ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ [الشورى: ١٣]. فإن قلت: ما لها لم تثقل على الخاشعين والخشوع في نفسه ممّا يثقل؟ قلت: لأنّهم يتوقّعون ما ادّخر للصّابرين على متاعبها فتهون عليهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٤٦] أي يتوقّعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده، ويطمعون فيه، وفي مصحف عبد الله: «يعلمون»، ومعناه: يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك، ولذلك فسر: (يظنون): بيتيقّنون، وأمّا من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب، كانت عليه مشقّة خالصة فثقلت عليه كالمنافقين والمرائين بأعمالهم، ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع أجرة زائدة على مقدار عمله، فتراه يزاوله برغبة ونشاط وانشراح صدر ومضاحكة لحاضريه، كأنّه يستلذّ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخّره بعض الظّلمة، ومن ثمّ قال رسول الله ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني فِي الصَّلَاةِ» (٤٦). وكان يقول: «يا بِلَال، رَوِّحْنَا» (٤٧)، والخشوع:

= التفسير، ورواه من طريقه البيهقي في الشعب (٧/ ١١٤) رقم (٩٦٨٢)، وذكره السيوطي في الدر (١/ ١٣١) وعزاه لابن المنذر.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف، أخرجه سعيد بن منصور. والطبري من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه: أن ابن عباس. . . فذكره، وأخرجه البيهقي في الشعب من هذا الوجه.

٤٦ - أخرجه النسائي (٧/ ٦١) كتاب عشرة النساء، باب حبّ النساء: من طريق ثابت عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ - «حُبّبَ إليّ من الدنيا: النساء، والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة. . .».
وأخرجه في السنن الكبرى (٥/ ٢٨٠) كتاب عشرة النساء، باب حبّ النساء رقم (٨٨٨٧)، (٨٨٨٨)، وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٦/ ١٩٩) رقم (٣٤٨٢).
وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه النسائي والحاكم وأحمد وابن أبي شيبة والبزار من حديث أنس - رضي الله عنه -: قال: قال رسول الله - ﷺ -: حُبّب إليّ من الدنيا: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة، وسيأتي في آل عمران. انتهى.

٤٧ - أخرجه أبو داود (٤/ ٢٩٦) في الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥) وأحمد (٥/ ٣٦٤)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٦) برقم (٦٢١٤)، والخطيب في التاريخ (١٠/ ٤٤٤) من طريق سعد بن كدام بن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل.
[عند أبي داود والطبراني والخطيب. رجل من خزاعة. وعن أحمد: رجل من أسلم]. =

الإخبات والتطامن، ومنه: الخشعة للرملة المتطامنة، وأما الخضوع: فاللين والانقياد، ومنه: خضعت بقولها إذا لينته.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

= قال: ليتني صليت فاسترحت. فكأنهم عابوا عليه ذلك. فقال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها».

وأخرجه الخطيب عن حفص بن غياث عن ثابت الثمامي عن سالم بن أبي الجعد عن رجل قال سمعت النبي ـ ﷺ ـ وحضرت الصلاة ـ يقول: أرحنا بها يا بلال.

وأخرجه أبو داود (٤٩٨٦)، وأحمد (٥/ ٣٧١)، والخطيب (١٠/ ٤٤٣) عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد، عن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال: انطلقت أنا وأبي إلى صهر لنا من الأنصار نعوده فحضرت الصلاة. فقال لبعض أهله: يا جارية ائتوني بوضوء لعلي أصلي فأستريح. قال: فأنكرنا ذلك عليه. فقال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: قم يا بلال فأرحنا بالصلاة.

وتابعه أبو حمزة الثمامي رواه الطبراني (٦٢١٥)، والخطيب (١٠/ ٤٤٤) عن سالم به.

ورواه الخطيب عن أبي خالد عن سفيان الثوري عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد عن ابن الحنفية عن علي مرفوعاً «يا بلال قم فأرحنا بالصلاة».

وقال: لم يرو هذا الحديث كذا عن الثوري مسنداً غير أبي خالد عبد العزيز بن أبان والمحفوظ عنه ما أخبرنا البرقاني أخبرنا علي بن عمر الحافظ أخبرنا ابن ميسر حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن عثمان عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن الحنفية عن النبي ـ ﷺ ـ «أرحنا يا بلال».

وأخرجه الخطيب عن حسين بن علوان عن أبي حمزة الثمامي عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن علي بن الحنفية عن بلال أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أرحنا بها يا بلال» يعني الصلاة.

وقال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء (١/ ١٦٥). أخرجه الدارقطني في العلل من حديث بلال. ولأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أخرجه أبو داود من رواية سالم بن أبي الجعد. قال: قال رجل من خزاعة سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: «يا بلال أقم الصلاة وأرحنا بها»، ورجاله ثقات: لكن اختلف فيه على سالم اختلافاً كثيراً. ذكره الدارقطني في العلل. ورواه أحمد من رواية سالم المذكور عن رجل من أسلم به. ورواه أحمد أيضاً وأبو داود من وجه آخر عن سالم: «أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار. فحضرت الصلاة، فذكر قصة. وفيها. أقم يا بلال. فأرحنا بالصلاة» أخرجه الدارقطني في العلل من رواية سالم، عن ابن الحنفية عن علي ـ رضي الله عنه ـ وقال: تفرد أبو خالد القري عن الثوري هكذا، ومن طريق حمزة الشمالي عن ابن الحنفية عن بلال. وأخرجه إبراهيم الحزبي من رواية سالم عن ابن الحنفية مرسلاً. وقال: معناه: نصلي ونروح إلى منازلنا. وليس من الاستراحة والأثقال وإلاً لقال: أرحنا منها. انتهى. وينكر على هذا أن في رواية أحمد: أن الأنصاري قال يا جارية. ائتني بوضوئي؛ لعلّي أصلي فأستريح. انتهى.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾: نصب عطف على ﴿نِعْمَتِيَ﴾، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: على الجمّ الغفير من النّاس، كقوله تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] يقال: رأيت عالماً من النّاس يراد الكثرة ﴿يَوْمًا﴾: يريد يوم القيامة، ﴿لَّا تَجْزِى﴾ لا تقضي عنها شيئًا من الحقوق، ومنه الحديث في جذعة ابن نيار: «تُجْزِي عَنْكَ وَلاَ تُجْزِي عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» (٤٨)، و ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي قليلاً من الجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠] ومن قرأ «لا تجزىء» من أجزأ عنه إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلاّ بمعنى شيئاً من الإجزاء، وقرأ أبو السّرار الغنوي: «لا تجزي نسمة عن نسمة شيئاً»، وهذه الجملة منصوبة المحل صفة لـ: «يوماً». فإن قلت: فأين العائد منها إلى الموصوف؟ قلت: هو محذوف تقديره: لا تجزي فيه، ونحوه ما أنشده أبو عليّ: [من الرجز]

تَــرَوَّحِــي أَجْــدَرُ أَنْ تَــقِــيــلِــي[1]

---

٤٨ ـ أخرجه البخاري (٣/ ١٢٣) كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر حديث (٩٥٥)، من طريق الشعبي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ قال: خطبنا النبي ـ ﷺ ـ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال: «من صلّى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فإنه قبل الصلاة ولا نسك له»، فقال أبو بردة بن نيار خال البراء: يا رسول الله، فإني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، وأحببت أن تكون شاتي أول شاة تذبح في بيتي، فذبحت شاتي، وتغديت قبل أن آتي الصلاة قال: «شاتك شاة لحم»، قال: يا رسول الله، فإن عندنا عناقاً لنا جذعة هي أحب إليّ من شاتين، أفتجزي عني؟، قال: نعم، ولن تجزي عن أحد بعدك».
ورواه مسلم (٧/ ١٢٤ ـ نووي) كتاب الأضاحي، باب وقتها، حديث (١٩٦١).
وأبو داود (٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦) كتاب الضحايا، باب ما يجوز في الضحايا من السنن حديث (٢٨٠٠، ٢٨٠١)، والدارمي (٢/ ٨٠) كتاب الأضاحي، باب في الذبح قبل الإمام، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٢٣١) رقم (٥٩١٠، ٥٩١١)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤، ٣١١)، ورواه في (٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
متفق عليه من حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: «ضحى خال لي يقال له أبو بردة بن نيار» ـ فذكر الحديث. انتهى.

---

(١) تــروحــي يــا خــيــرة الــغــســيــل تــروحــي أجــدر أن تــقــيــلــي
غــداً بــجــنــبــي بــارد ظــلــيــل
لأبي علي أحيحة بن الجلاح. يقول لناقته: بكري بالرواح: أو جدي السير فيه. والغسيل: صنوان النخل. شبّه ناقته بالمختار منه لعراقتها في الكرم وارتفاعها. وكرر الأمر للتوكيد. هذا ويقال: تروح النبت إذا طال. فتروحي: أي امتدّي وارتفعي. والخطاب لعنعار النخل لا للناقة قاله العيني مخالفاً جميع الشراح لهذا الرجز. وقد يؤكده أنه روى بدل «تروحي» الأول «تأبري» والتأبير: وضع طلع =

أي: ماء أجدر بأن تقيلي فيه، ومنهم من ينزل فيقول: اتّسع فيه، فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار ثم حذف الضّمير كما حذف من قوله: أم مال أصابوا، ومعنى التنكير: أنّ نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقناط الكلّي القطاع للمطامع، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، أي: فدية لأنّها معادلة للمفدّى، ومنه الحديث: «لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ»/ ٤٢أ (٤٩)، أي: توبة ولا

---

٤٩ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٤١٠) كتاب الجزية والموادعة، باب ذمة المسلمين وجوارهم حديث (٣١٧٢)، من طريق إبراهيم التيمي عن أبيه قال: «خطبنا علي فقال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلاّ كتاب الله، وما في هذه الصحيفة...».
والمدينة حرم الله ما بين عير إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى فيها محدثاً ـ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، ومن تولى غير مواليه فعليه مثل ذلك، وذمّةُ المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه مثل ذلك...».
وأطرافه في البخاري رقم (١١١، ١٨٧٠، ٣٠٤٧، ٣١٧٩، ٦٧٥٥، ٦٩٠٣، ٧٣٠٠)، ورواه مسلم (٥/١٤٨ ـ نووي) كتاب الحج، باب فضل المدينة حديث (١٣٧٠)، وأبو داود (١/ ٦٢٠ ـ ٦٢١) كتاب المناسك، باب في تحريم المدينة حديث (٢٠٣٤)، والترمذي (٤/٤٣٨) كتاب الولاء والهبة، باب ما جاء فيمن تولى غير مواليه، أو ادعى إلى غير أبيه حديث (٢١٢٧)، وابن حبان في صحيحه (٩/ ٣٠) رقم (٣٧١٦)، وأحمد في المسند (١/ ٨١، ١٢٦)، وأبو يعلىٰ في مسنده (١/ =

= الذكور من النخل في الإناث لتنمو ثمرتها ويمكن أن يقال: إنه ترشيح للتشبيه. والظاهر أنه انتقل من رجز إلى آخر لأحيحة، فقد روي عنه:

تأبري يا خيرة الغسيل تأبري من حنذ فشولي
إذ ضن أهل النخل بالفحول

هذا هو خطاب الغسيل. وحنذ ـ بالتحريك ـ موضع قريب من المدينة. وقيل اسم قرية. وقيل اسم ماء. والمعنى: أن ريح الصبا تهب من جهته فتحمل طلع الذكور منه إلى الإناث فيغنيها عن التأبير الصناعي. وشولي أي ارتفعي وامتدي، أي تأبري بنفسك، حيث بخل أهل النخل بطلع الذكور التي تلقح الإناث. وأجدر: نصب بمحذوف، أي وأتى مكاناً أجدر وأحق بأن تقيلي فيه وتستريحي من السير. ويجوز نصبه بتروحي، بتضمينه معنى اطلبي. فحذف باء الجر ولفظ فيه لعلمها. وغدا نصب بتقيلي، بجنبي: أي في جنبي، فهو بدل من فيه المحذوفة، أي: في حافتي ماء بارد ظليل، أي مظلل بالأشجار، أو في جانبي مكان ذي ظل لا حر فيه. وحينئذٍ فالمعنى أجدر أن تقيلي بجانبيه، فأظهر في محل الإضمار لإظهار صفة المكان. وأفعل التفضيل المجرد إن لم تتصل به «من» لفظاً فهي متصلة به تقديراً، على أن محل ذلك إذا أريد به التفضيل على معين. والظاهر أن أجدر هنا ليس كذلك، فلا حاجة لتقديرها. ويجوز أن يكون أجدر فعلاً ماضياً أي دخل في الجدارة والحقية «أن تقيلي» أي حقت ووجبت قيلولتك، فلا حذف أصلاً. وقال العيني: يجوز أن يكون بارد ظليل على حذف حرف العطف للضرورة، أي بجنب بارد وجنب ظليل.
ينظر التصريح: ٢/١٠٣، والمقاصد النحوية: ٤/٣٦، وأوضح المسالك ٣/٢٩١، ٣٩٠، وخزانة الأدب، ٥/٥٧، وشرح الأشموني: ٢/ ٣٨٥.

فدية، وقرأ قتادة: «ولا يَقْبَلُ منها شفاعةً»، على بناء الفعل للفاعل وهو الله عز وجل، ونصب الشفاعة، وقيل: كانت اليهود تزعم أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا، فإن قلت: هل فيه دليل على أنّ الشفاعة لا تُقبل للعصاة[1]؟ قلت: نعم، لأنّه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنّها لا تُقبل للعصاة، فإن قلت: الضّمير في ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ إلى أي النّفسين يرجع؟ قلت: إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها، وهي التي لا يؤخذ منها عدل، ومعنى لا يقبل منها شفاعة: إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النّفس الأولى، على أنّها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها، كما لا تجزىء عنها شيئاً، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: يعني ما دلّت عليه النّفس المنكرة من النّفوس الكثيرة والتذكير بمعنى: العباد والأناسي، كما تقول: ثلاثة أنفس[2].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

= ٢٢٨) رقم (٢٦٣)، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ رفعه: «المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا، فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل ـ الحديث»، ورواه عبد الرزاق وقال في آخره: والصرف والعدل: التطوع والفريضة. واتفقا عليه من حديث أنس نحوه. ولمسلم من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رفعه: «المدينة حرم. فمن أحدث ـ فذكره»، وغفل الطيبي فعزاه لأبي داود من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «من تعلم صرف الكلام لِيَسْبِيَ به قلوب الناس ـ لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً». انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه اللّه: «هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه اللّه: أما من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها. وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة، فأولئك يرجون رحمة اللّه. ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين، وإنما ادُّخرت لهم. وليس في الآية دليل لمنكريها، لأن قوله يوماً أخرجه منكراً، ولا شك أن في القيامة مواطن، ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. قد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدُّد أيامها واختلاف أوقاتها. منها قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ مع قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين، متغايرين: أحدهما محل للتساؤل: والآخر ليس محلاً له، وكذلك الشفاعة، وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة، رزقنا اللّه الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة.

(٢) قال السمين الحلبي: النحاةَ نَصُّوا على أنه ضرورةٌ، فالأولى أن يعودَ على الكفار الذين اقتضتهم الآيةُ كما قال ـ ابن عطية. انتهى. الدر المصون.

أصل ﴿ءَالِ﴾: أهل، ولذلك يصغر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً، وخُصَّ استعماله بأولى الخطر والشّأن كالملوك وأشباههم، فلا يقال آل الإسكاف والحجّام، و﴿فِرْعَوْنَ﴾: علم لمن ملك العمالقة، كقيصر: لملك الروم، وكسرى: لملك الفرس، ولعتوّ الفراعنة اشتقوا: تَفَرْعَنَ فُلاَنٌ، إذا عتا وتجبّر، وفي مُلَحِ بعضهم: [من الكامل]

قَدْ جَاءَهُ الْمُوسَى الْكَلُومُ فَزَادَ فِي أَقْصَى تَفَرْعُنِهِ وَفَرْطِ عُرَامِهِ[1]

وقرىء: «أنجيناكم»، ونجيتكم. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، قال عمرو بن كلثوم: [من الوافر]

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً أَبَيْنَا أَنْ يَقِرَّ الْخَسْفُ فِينَا[2]

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبغونكم، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: ويريدونكم عليه، والسُّوء: مصدر السيّىء: يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل، يراد قبحهما، ومعنى ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ والعذاب كلُّه سيّىء: أشدّه وأفظعه، كأنّه قبحه بالإضافة إلى سائره، و﴿يُذَبِّحُونَ﴾: بيان لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى: ﴿يضاهئون قول الذين كفروا﴾ [التوبة: ٣٠]، وقرأ الزهري: «يذبحون» بالتخفيف كقولك: قطعت الثياب وقطعتها، وقرأ عبد الله: «يقتلون»، وإنّما فعلوا بهم ذلك لأنّ الكهنة أنذروا فرعون بأنّه يولد مولود يكون على يده هلاكه، كما أنذر نمروذ، فلم يغن عنهما اجتهادهما في التحفّظ، وكان ما شاء الله، والبلاء المحنة إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون، والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) الضمير للصبي. وقيل لذكره. والموسى: آلة الحلق والختان، من أوسى رأسه حلقه. وقال الفراء وغيره هي فعلى ويؤنث. يقال. رجل ماس مثل مال، أي خفيف طياش. وقيل: هو مفعل. وذلك كناية عن ختانه به، لأنه يورث النمو والفتوة. وقيل: عن حلق العانة، لأنه زمن بلوغ الأشد. واختار السعد الأول لأنه أنسب بالمقام. والكلوم: كثير الكلم ـ أي الجرح ـ والتفرعن: العتو والتجبُّر، مأخوذ من فرعون لشهرته بالطغيان والظلم والتكبُّر. والعرام كغراب: الشدة والحدة والخبث. ويمكن أنه من الفرع، لارتفاعه وعلوه على غيره.
ينظر الدر المصون: (١/ ٢١٨).

(٢) لعمرو بن كلثوم من معلقته. «وما» زائدة. «والملك» بالسكون: لغة فيه. ويقال: سامه ذلاً، إذا أولاه إياه وألحقه به. وقيل: إذا كلفه ما فيه ذل وأكرهه عليه. والخسف ـ بفتح الخاء وضمها ـ: الذل. يقول إذا ألحق بالناس الذل منعناه إقرار الذل فينا، ولم ننقد له كسائر الناس، لشجاعتنا على جميع من سوانا.
البيت من معلقته المشهورة ينظر شرح المعلقات التبريزي (٣٩٥)، والشنقيطي (١٠٨)، والدر المصون ١/ ٢١٨، القرطبي ١/ ٢٦١.

﴿فَرَقْنَا﴾: فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم، وقرىء: فرّقنا، بمعنى: فصلنا، يقال: فرق بين الشيئين، وفرّق بين الأشياء؛ لأنّ المسالك كانت اثنى عشر على عدد الأسباط، فإن قلت: ما معنى ﴿بِكُمُ﴾؟ قلت: فيه أوجه: أن يراد أنّهم كانوا يسلكونه[1]، ويتفرّق الماء عند سلوكهم، فكأنّما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما، وأن يراد/ ٤٢ب فرقناه بسببكم[2]، وبسبب إنجائكم، وأن يكون في موضع الحال[3] بمعنى فرقناه ملتبساً بكم؛ كقوله: [من الوافر]

.... تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبَا[4]

أي تدوسها ونحن راكبوها، ورُوِيَ أنّ بني إسرائيل قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنّهم على طريق مثل طريقكم، قالوا: لا نرضى حتى نراهم، فقال: اللّهمّ أعنّي على أخلاقهم السّيّئة، فأوحى إليه: أن قل بعصاك هكذا، فقال بها على الحيطان، فصارت فيها كوى، فتراموا وتسامعوا كلامهم: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه لا تشكّون فيه.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) قال محمود رحمه الله: «يحتمل أنهم كانوا يسلكون... إلخ». قال أحمد رحمه الله: فتكون الباء على هذا الوجه استعانة مثلها في كتبت بالقلم.

(٢) قال محمود رحمه الله: «ويحتمل أن يكون المراد فرقناه بسببكم». قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه سببية، كما تقول: أكرمتك بإحسانك إلي.

(٣) قال محمود رحمه الله: «ويحتمل أن يكون في موضع الحال... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه للمصاحبة مثلها في: أسندت ظهري بالحائط، والوجه الأول ضعيف من حيث أن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببني إسرائيل. والمنقول بل المنصوص عليه في الكتاب العزيز: أن البحر إنما انفرق بعصا موسى، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فآلة التفريق العصا، لا بنو إسرائيل.

(٤) كأن خيولنا كانت قديماً ... تسقي في قحوفهم الحليبا
فمرت غير نافرة عليهم ... تدوس بنا الجماجم والتريبا

لأبي الطيب المتنبي. وتسقي: بالتضعيف. والقحوف: جمع قحف بالكسر، وقيل بالضم: وهو العظم الذي فوق الدماغ وإناء صغير من خشب. والحليب: اللبن المحلوب، أي كأنها كانت معتادة بهم فمرت عليهم مطمئنة. تدوس جماجمهم: أي رءوسهم ونحن على ظهورها. والتريب: لغة في التراب.

ينظر ديوانه ١/ ٢٥٦، البحر المحيط ١/ ٣٥٥، حاشية القطب على الكشاف ٢/ ١٠٧١، والدر المصون ١/ ٢٢١.

لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله موسى أن ينزل عليه التّوراة، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وقيل: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، لأنّ الشُّهور غررها بالليالي، وقرىء ﴿وَعَدْنَا﴾، لأنّ الله تعالى وعده الوحي ووعد المجيء للميقات إلى الطور: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعد مضيه إلى الطور، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: بإشراككم ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾: حين تبتم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتّخاذكم العجل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: إرادة أن تشكروا[1] النّعمة في العفو عنكم.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾: يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً، وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل: يعني التّوراة، كقولك: رأيت الغيث والليث، تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾ [الأنبياء: ٤٨]، يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياء وذكراً: أو التوراة، والبرهان: الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام، وقيل الفرقان: انفراق البحر، وقيل: النّصر الذي فرّق بينه وبين عدوّه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يريد به يوم بدر، حمل قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: على الظاهر وهو البخع[2]، وقيل: معناه قتل بعضهم بعضاً، وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، ورُوي: أنّ الرجل كان يبصر ولده، ووالده وجاره وقريبه، فلم يمكنهم المضي لأمر الله، فأرسل اللّه ضَبَابَةً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم، وقيل لهم: اصبروا، فلعن الله من

(١) قال محمود: «ومعناه إرادة أن تشكروا». قال أحمد رحمه اللّه: أخطأ في تفسير «لعل»؛ بالإرادة؛ لأن مراد اللّه تعالى كائن لا محالة. فلو أراد منهم الشكر لشكروا ولا بد. وإنما أجراه الزمخشري على قاعدته الفاسدة في اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد، منه ما يقع ومنه ما يتعذَّر ـ تعالى اللّه عن ذلك ـ، ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن. والتفسير الصحيح في «لعل» هو الذي حرره سيبويه رحمه اللّه في قوله: (لعله يتذكر أو يخشى) قال سيبويه: الرجاء منصرف إلى المخاطب كأنه قال: كونا على رجائكما في تذكرته وخشيته وكذلك هذه الآية معناها لتكونوا على رجاء الشكر للّه عزَّ وجل ونعمه. فينصرف الرجاء إليهم وينزه اللّه تعالى.

(٢) قوله: «وهو البخع» في الصحاح: بخع نفسه بخعاً، أي: قتلها غماً. (ع)

مدّ طرفه أو حلّ حبوته أو اتقى بيد أو رجل، فيقولون: آمين، فقتلوهم إلى المساء حتى دعا موسى وهارون وقالا: يا ربّ، هلكت بنو إسرائيل، البقية البقية، فكشفت السّحابة ونزلت التوبة، فسقطت الشفار من أيديهم، وكانت القتلى سبعين ألفاً، فإن قلت: ما الفرق بين الفاآت؟ قلت: الأولى للتسبيب لا غير، لأنّ الظُّلم سبب التوبة، والثانية: للتعقيب لأنّ المعنى فاعزموا على التّوبة فاقتلوا أنفسكم، من قِبَلِ أنّ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم، ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم، فيكون المعنى: فتوبوا،/ ٤٣أ فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم، والثالثة متعلّقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم، فتتعلّق بشرط محذوف، كأنّه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وإمّا أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الإلتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارؤكم، فإن قلت: من أين اختصّ هذا الموضع بذكر البارىء؟ قلت: البارىء هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ومتميّزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة، ـ في أمثال العرب: أبلد من ثور ـ حتّى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفكّ ما ركّبه من خلقهم، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النّعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قيل: القائلون السبعون الذين صعقوا، وقيل: قاله عشرة آلاف منهم، ﴿جَهْرَةً﴾: عياناً، وهي مصدر من قولك: جهر بالقراءة وبالدعاء، كأنّ الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها على المصدر، لأنّها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال بمعنى ذوي جهرة، وقرىء «جهرة»: بفتح الهاء، وهي إمّا مصدر كالغلبة، وإما جمع جاهر، وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رادّهم القول وعرّفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة محال[1]، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة

(١) قوله «أن يكون في جهة محال» هذا مذهب المعتزلة. ومن استجاز عليه الرؤية هم أهل السنة، =

الأجسام[1] أو الأعراض، فرادّوه بعد بيان الحجّة ووضوح البرهان، ولجوا فكانوا في الكفر كعبدة العجل، فسلّط الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكفرين، ودلالة على عظمهما بعظم المحنة، و﴿ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾: ما صعقهم، أي: أماتهم، قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتهم، وقيل: صيحة جاءت من السماء، وقيل: أرسل الله جنوداً سمعوا بحسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة، وموسى ـ عليه السلام ـ، لم تكن صعقته موتاً ولكن غشية، بدليل قوله: فلما أفاق، والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، وقرأ عليّ رضي الله عنه «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعْقَة»، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت، ﴿وَظَلَّلْنَا﴾: وجعلنا الغمام يظلّكم؛ وذلك في التيه، سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس؛ وينزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى، وينزل عليهم ﴿ٱلْمَنَّ﴾: وهو الترنجبين مثل الثلج، من طلوع/٤٣ب الفجر إلى طلوع الشمس، لكل إنسان صاع، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم، ﴿السلوى﴾ وهي السّماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه، ﴿كُلُوا۟﴾ على إرادة القول، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ عليه.

= والجهة ليست شرطاً للرؤية عندهم، فلا يلزم كونه من جملة الأجسام أو الأعراض كما بين في علم التوحيد. (ع)

(١) قال محمود رحمه الله: «فيه دليل على أن موسى عليه السلام رادهم القول، وعرفهم أن رؤية من لا يجوز عليه. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: لقد انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها، فبنى الأمر على أن العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على اللّه تعالى من الرؤية على ظنه، وأنى له ذلك وثم سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادعاه هو كل السبب. وذلك أن موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها في آية الأعراف في دار الدنيا، فأخبره اللّه تعالى أنه لا يراه في الدنيا، وصار ذلك عنده وعند بني إسرائيل أصلاً مقرراً، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة أن اللّه تعالى لا يُرى في دار الدنيا، لأنه أخبر أنه لا يرى والخبر واجب الصدق وكما أخبر أنه لا يرى في دار الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة وتخصيص ذلك بالمؤمنين، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤية في الدنيا تعنتاً أو شكاً في الخبر، فأنزل اللّه تعالى بهم تلك العقوبة. وكيف تخيل الزمخشري وشيعته أن موسى عليه السلام طلب من اللّه ما لا يجوز عليه. وهل هو لو كان الأمر على ما تخيل إلا كبني إسرائيل. ومعاذ اللّه، لقد برأه من ذلك وكان عند اللّه وجيهاً. وأما الأدلة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلاً والسمعية على وقوعها في الدار الآخرة، فأكثر من أن تحصى وهي مستقصاة في فن الكلام، وإنما غرضنا في هذا الباب مباحثة الزمخشري والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه وأخذه قوماً منه. واللّه الموفق.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾

﴿الْقَرْيَةَ﴾: بيت المقدس، وقيل: أريحاء من قرى الشام، أمروا بدخولها بعد التيه، ﴿الْبَابَ﴾: باب القرية، وقيل: هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله وتواضعاً، وقيل: «السجود»: أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين، ليكون دخولهم بخشوع وإخبات، وقيل: طوطىء لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فلم يخفضوها، ودخلوا متزحفين على أوراكهم ﴿حِطَّةٌ﴾: فعلة من الحط كالجلسة والركبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي مسألتنا حطة، أو أمرك حطة، والأصل: النصب بمعنى: حطّ عنا ذنوبنا حطّة، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات؛ كقوله: [من الرجز]

.... صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلَانَا مُبْتَلَى[1]

والأصل: صبراً، على: اصبر صبراً، وقرأ ابن أبي عبلة بالنّصب على الأصل، وقيل معناه: أمرنا حطة، أي أن نحط في هذه القرية ونستقرّ فيها، فإن قلت: هل يجوز أن تنصب حطة في قراءة من نصبها بـ «قولوا»، على معنى: قولوا هذه الكلمة؟ قلت: لا يبعد، والأجود أن تنصب بإضمار فعلها، وينتصب محل ذلك المضمر بـ «قولوا»، وقرىء «يغفر لكم»: على البناء للمفعول بالياء والتاء، ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي من كان محسناً منكم، كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[2]: أي وضعوا مكان حطة، ﴿قَوْلًا﴾: غيرها، يعني: أنهم أمروا

---

(١) شكى إلي جملي طول السرى صبراً جميلاً فكلانا مبتلى
يقول: اشتكى بعيري إلي تعبه من طول سير الليل. وصبراً: مصدر قام مقام فعله. أي اصبر يا بعير صبراً جميلاً ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب. أو التقدير: فقلت له اصبر صبراً، فكل منا مصاب بالبلاء. أو مختبر وممتحن هل يصبر على مشاق السفر أم لا. ويروى: صبر جميل، أي أحق بنا على حذف الخبر. أو أمرنا صبر، فيكون من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لنيابة الخبر عن الفعل. والصبر الجميل: هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق.
البيت من شواهد الكتاب ١/ ٣٢١، أمالي المرتضى ١/ ٧٢، المشكل (١٠٧)، مجاز القرآن ١/ ٣٠٣، التهذيب (شكا)، الفخر ٣/ ٨٩، الدر المصون ١/ ٢٣٢.

(٢) قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾ .... الآية.
في هذه الآية تشابه مع آية في سورة الأعراف وهي: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾ [الآية ١٦٢].

بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاؤا بلفظ آخر، لأنهم لو جاؤا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به، لم يؤاخذوا به، كما لو قالوا مكان حطة: نستغفرك ونتوب إليك، أو اللّهم اعف عنا، وما أشبه ذلك، وقيل: قالوا مكان حطة: حنطة، وقيل: قالوا بالنبطية: «حطا سمقاثا»، أي: حنطة حمراء، استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أغراض الدنيا، وفي تكرير: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: زيادة في تقبيح أمرهم[1]، وإيذان بأنّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم، وقد

فبين الآيتين مع التشابه مفارقات، وخلاصة ذلك على الترتيب الآتي:
١ ـ زيادة لفظ «منهم» في آية الآعراف وذلك لأن مبني القصة في الأعراف على التمييز بلفظة «من» دائماً «ومن قوم موسى.....».
أما في سورة البقرة فإن بناء القصة على التقريع والتخويف، ولهذا جاء التعبير للجميع لأن الكل يتحمل تبعة البعض.
٢ ـ عبر عن العذاب في آية البقرة بقوله «فأنزلنا» وفي الأعراف «فأرسلنا» وذلك أن الآية في البقرة جاءت صادرة من المولى ـ سبحانه ـ مباشرة، والصادر من جهة الله يكون إنزالاً «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية...» لهذا قال «فأنزلنا» أما في سورة الأعراف فإن الكلام يبدو صدوره من رسولهم بدليل قوله ـ تعالى ـ «وإذ قيل لهم...» ولهذا ناسب المقام لفظ «فأرسلنا».
٣ ـ في آية الأعراف جاء الكلام على الإضمار بعد الإظهار، وهذه طبيعة الأسلوب فقال: «فأرسلنا عليهم» أما في البقرة فقال «فأنزلنا على الذين ظلموا» فأظهر في موضع الإضمار، وذلك لنكتة بلاغية تلوح من السياق ويقتضيها المقام، وذلك لتعظيم الأمر وبيان سبب نزول العذاب، وفيه توبيخ لهم وتقريع.
ويرى بعض الباحثين أن الظلم الثاني غير الأول، فالأول: ظلمهم لأنفسهم والثاني: ظلمهم في علاقتهم بربهم، وهذا أشد من الأول لأنه خسر عبادة ربه بخلاف الأول فقد خسر نفسه.
هذا في آية البقرة أما في آية الأعراف فإن الظلم الأول هو الثاني ولهذا أضمر في الثاني.
٤ ـ ختمت آية البقرة بقوله ﴿يَفْسُقُونَ﴾ وآية الآعراف بقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وذلك لتحقيق التعادل بين الآيتين، ففي آية البقرة جاء «الظلم» مرتين، وفي آية الأعراف جاء الظلم في البداية، ثم أضمر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فجاء الختام ببيان ظلمهم ليكون الظلم في الآيتين متعادلاً، وبذلك يتسق النمط القرآني في القصة الواحدة.
فانظر هداك الله إلى دقة الأداء القرآني، وأن كل آية نظمت على مقامها فجاءت كلماتها في مواقعها تماماً، ولكل كلمة دورها في الأداء للغاية المقصودة، ولو أبدلت كلمة بأخرى لاختل ميزان المعاني، ولكن الله ـ سبحانه ـ يعلمنا كيف نضع الألفاظ بإزاء المعاني المرادة بحيث تكشف عنها كشف دقيقاً معجزاً، وهذا من الإعجاز البياني في كلام رب العالمين.
«ينظر تفسير الرازي ١٢٨/٢ وما بعدها ط. دار الغد العربي ـ الأولى ١٩٩١ م، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي ٣/ ٧١، ومن تشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية د. إبراهيم الجعلي ٥ وما بعدها ـ ط. الأولى. الحسين الإسلامية ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م.

(١) قال محمود رحمه اللّه: «وفي تكرير (الذين ظلموا) زيادة في تقبيح... إلخ». قال أحمد رحمه =

جاء في سورة الأعراف: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ﴾ [الأعراف: ١٣٣] على الإضمار، والرجز: العذاب، وقرىء ـ بضم الراء ـ وروى: أنه مات منهم في ساعة بالطّاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾

عطشوا في التيه، فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾، واللام إمّا للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روي أنه حجر طوري حمله معه، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، وقيل: أهبطه آدم/ ٤٤أ من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب، فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة، ففرّ به، فقال له جبريل: يقول لك الله تعالى: ارفع هذا الحجر، فإنّ لي فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته، وإمّا للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة، وروى أنّهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة، فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه، وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فييبس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحى إليه: لا تقرع الحجارة، وكلمها تطعك، لعلهم يعتبرون، وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من آسّي الجنة[1]، طوله عشرة أذرع على طول موسى، وله شعبتان تتقدان في الظلمة، وكان يحمل على حمار، ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾: الفاء متعلقة بمحذوف، أي فضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت، كما ذكرنا في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ، وقرىء: «عشرة»: بكسر الشين، وبفتحها وهما لغتان، ﴿كُلُّ أُنَاسٖ﴾:

= الله: وفيه تهويل لظلمهم من حيث وضع الظاهر موضع المضمر، وهو مفيد لذلك. إذ هو من قبيل الإشهار لهذا المعين مع إمكان الاختصار بالإضمار.

(١) قوله: «من آس الجنة»: ضبط في بعض النسخ بالضم والتشديد وكتب على هامشه: «كذا بخط جار الله ومعناه الأساس، والصواب ضبطه بالفتح والمد والتخفيف أي شجر الآس لأنه صفة العصا سها فيها المصنف كذا بهامشه، اهـ عليان. والظاهر أن ضبطه بالضم والتشديد بمعنى الأساس أليَق لأن الكلام في وصف الحجر لا العصا. اهـ مصححة.

كل سبط، ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: عينهم التي يشربون منها، ﴿كُلُوا﴾: على إرادة القول، ﴿مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾: مما رزقكم من الطعام وهو المنّ والسلوى ومن ماء العيون، وقيل: الماء ينبت منه الزروع والثمار، فهو رزق يؤكل منه ويشرب، والعثيّ: أشدّ الفساد، فقيل لهم: لا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾

كانوا فلاحة فنزعوا إلى عَكَرِهم فأَجَموا ما كانوا فيه[١]، من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء، ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾: أرادوا ما رزقوا في التيه من المنّ والسلوى، فإن قلت: هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد؟ قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدّل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، قيل: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً، يراد بالوحدة نفي التبدّل والاختلاف، ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والترف، ونحن قوم فِلاّحَةٍ أهل زراعات، فما نريد إلا ما ألفناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك، ومعنى: ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾: يظهر لنا ويوجد، والبقل، ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع، والكرفس، والكراث، وأشباهها، وقرىء: «وقُثائها»: بالضم، والفوم: الحنطة، ومنه فوّموا لنا، أي: اخبزوا، وقيل: الثوم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وثومها، وهو للعدس والبصل أوفق، ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾: الذي هو أقرب منزلة وأدون مقداراً، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلّة المقدار فيقال: هو داني المحل وقريب المنزلة، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك، فيقال: هو بعيد المحل وبعيد الهمة يريدون الرفعة/ ٤٤ب والعلو، وقرأ زهير الفرقبي: «أدنأ» بالهمزة من الدناءة، ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ وقرىء «اهبُطوا»، بالضم: أي انحدروا إليه من التيه، يقال: هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه، إذا خرج، وبلاد التيه: ما بين بيت المقدس إلى قنسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ، ويحتمل أن يريد العلم، وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه،

---

(١) قوله: «فأجموا ما كانوا فيه» أي: كرهوا. أفاده الصحاح. (ع)

وهما التعريف والتأنيث، لسكون وسطه كقوله: ﴿وَنُوحًا﴾ و﴿لُوطًا﴾، وفيهما العجمة والتعريف، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد، وأن يريد مصراً من الأمصار، وفي مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش: «اهبطوا مصرَ» ـ بغير تنوين ـ كقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾، وقيل هو: «مصرائيم» فعرّب[1] ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه، أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة[2]، إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم، خيفة أن تضاعف عليهم الجزية، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، لمساواته له ومكافأته، أي صاروا أحقاء بغضبه، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدّم من ضرب الذلة والمسكنة والخلاقة بالغضب، أي ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وقد قتلت اليهود ـ لعنوا ـ شعيا وزكريا ويحيى وغيرهم، فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلت: معناه: أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم؛ لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا؛ وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم، وقرأ عليّ رضي الله عنه «ويقتّلون» بالتشديد، ﴿ذَٰلِكَ﴾: تكرار للإشارة، ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾: بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء، مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، وقيل: هو اعتداؤهم في السبت، ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إن الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة القلوب وهم المنافقون، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: والذين تهوّدوا، يقال: هاد يهود، وتهوّد إذا دخل في اليهودية، وهو هائد، والجمع هود، ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾: وهو جمع نصران، يقال: رجل نصران، وامرأة نصرانة، قال: نصرانة لم

---

(١) قال السمين الحلبي: وعلى هذا إذا قيل بأنه عَلَمٌ لمكانٍ بعينه، فلا ينبغي أن يُصْرف البتةَ لانضمام العُجْمةِ إليه، فهو نظير «فاه وجَوْر وحِمْص» ولذلك أجمعَ الجمهورُ على منعِه في قوله «ادخلوا مِصْر». والمِصْرُ في أصل اللغة: «الحدُّ الفاصِل بين الشيئين» وحُكِي عن أهل هَجَرَ أنهم إذا كتبوا بَيْعَ دارٍ قالوا: اشترى فلانٌ الدار بمُصُورِها «أي»: حدودها. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «أهل مسكنة ومدقعة» أي: متربة. أفاده الصحاح. (ع)

تحنف، والياء في نصرانيّ: للمبالغة كالتي في أحمريّ، سموا لأنهم نصروا المسيح، ﴿وَالصَّٰبِـِٔينَ﴾: وهو من صبأ إذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة، ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾: من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في ملة/ ٤٥أ الإسلام دخولاً أصيلاً، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم، فإن قلت: ما محل من آمن؟ قلت: الرفع إن جعلته مبتدأ خبره، «فلهم أجرهم»: والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إنّ المعطوف عليه، فخبر إنّ في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم أجرهم، والفاء لتضمن، ﴿مَنْ﴾: معنى الشرط.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾: بالعمل على ما في التوراة، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق، وذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفعه وظلله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقي عليكم، حتى قبلوا، ﴿خُذُوا۟﴾: على إرادة القول، ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾: من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجدّ وعزيمة، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾: واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا: خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾: ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بتوفيقكم للتوبة لخسرتم، وقرىء: خذوا ما آتيتكم، وتذكروا، واذّكروا[1] و﴿ٱلسَّبْتِ﴾: مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت[2]، وإن ناساً منهم اعتدوا فيه، أي: جاوزوا ما حدّ لهم فيه من التجرّد للعبادة وتعظيمه

---

(١) قوله «وتذكروا واذكروا» أي بتشديد الذال والكاف، وأصله: وتذكروا. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: وفيه نظرٌ؛ فإنّ هذا اللفظ موجودٌ واشتقاقُه مذكورٌ في لسان العرب قبل فِعْل اليهودِ ذلك، اللهم إلا أنْ يريدَ هذا السبتَ الخاصَّ المذكورَ في هذه الآية. والأصلُ فيه المصدرُ كما ذكرتُ، ثم سُمّي به هذا اليومُ من الأسبوع لاتفاقِ وقوعِه فيه، كما تقدّم أنَّ خَلْقَ الأشياء تَمّ وقُطِعَ، وقد يقال يومُ السبتِ فيكونُ مصدراً، وإذا ذُكِر معه اليومُ أو مع ما أشبهه من أسماءِ الأزمنة مِمّا يتضمَّن عَمَلاً وحَدَثاً، جاز نصبُ اليوم ورفعُه نحو: اليوم الجمعةُ، اليوم العيدُ، كما يقال: اليوم الاجتماعُ والعَودُ، فإنْ ذُكِرَ مع «الأحد» وأخواتِه وَجَب الرفعُ على المشهورِ، وتحقيقُها مذكورٌ في كتبِ النحو. انتهى. الدر.

واشتغلوا بالصيد، وذلك أن الله ابتلاهم، فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرّقت، كما قال: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ [الأعراف: ١٦٣] فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم، ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: خبران، أي كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرد، ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: يعني المسخة: ﴿نَكَالًا﴾: عبرة تنكل من اعتبر بها أي تمنعه، ومنه النكل: القيد، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: لما قبلها، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: وما بعدها من الأمم والقرون[1] لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين، أو أريد بما بين يديها: ما بحضرتها من القرى والأمم، وقيل: نكالاً: عقوبة منكلة لما بين يديها؛ لأجل ما تقدّمها من ذنوبهم وما تأخر منها، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم، أو لكلّ متّقٍ سمعها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

كان في بني إسرائيل شيخ موسر، فقتله ابنه بنو أخيه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بديته، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله، ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: أتجعلنا مكان هزو، أو أهل هزو، أو مهزواً بنا، أو الهزو/ ٤٥ب نفسه؛ لفرط الاستهزاء، ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه، وقرئ: «هزؤاً» بضمتين، و «هزءاً»: بسكون الزاي، نحو كفؤا وكفؤاً، وقرأ حفص: «هزواً»: بالضمتين والواو، وكذلك «كفواً»، والعياذ واللياذ من واد واحد.

---

(١) قوله: «وما بعدها من الأمم والقرون» لعله: والقرى، نظير قوله الآتي: من القرى والأمم. (ع)

في قراءة عبد الله: «سل لنا ربك ما هي»؟ سؤال عن حالها وصفتها، وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر، والفارض: المُسنَّة، وقد فرضت فروضاً فهي فارض؛ قال خِفَافُ بْنُ نُدْبَةَ [من الطويل]:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيْتُ ضَيْفَكَ فَارِضاً تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَىٰ رِجْلِ[1]

وكأنها سميت فارضاً؛ لأنّها فرضت سنها أي قطعتها وبلغت آخرها، والبكر: الفتية، والعوان النّصف؛ قال [من الوافر]:

.... نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعُونِ[2]

وقد عوّنت[3]، فإن قلت: ﴿بَيْنَ﴾: يقتضي شيئين فصاعداً[4]، فمن أين جاز دخوله على ﴿ذَٰلِكَ﴾، قلت: لأنه في معنى شيئين؛ حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر، فإن قلت: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين؛ وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ قلت: جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدّم، للاختصار في الكلام، كما جعلوا، (فعل):

---

(١) لخفاف بن ندبة يهجو العباس بن مرداس بالبخل. والفارض: الناقة المسنة تساق إليه، أي لا تركب، بل تحتاج إلى من يضربها ويسوقها من خلفها. لا تقوم على رجل: أي: لا رجل لها قوية تعتمد عليها في قيامها.
ينظر: الأضداد (٣٧٦)، اللسان «فرض»، القرطبي (١/ ٣٠٤)، مجمع البيان (١/ ٢٩٣)، البحر (١/ ٢٤٨)، الدر المصون (١/ ٢٥٥).

(٢) ظعائن كنت أعهدهن قدماً وهن لدى الإقامة غير جون
حصان مواضع النقب الأعالي نواعم بين أبكار وعون
للطرماح. والظعائن النساء في الهوادج. والضعائن ـ بالضاد ـ: المطايا. والضغائن ـ بالغين ـ: جمع ضغينة، وهي الحقد والميل والاعوجاج. وضغنته: إذا أخذته في حضنك. وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري. وناقة ذات ضغن: أي حنين إلى وطنها. وامرأة ذات ضغن تحب غير زوجها. والجون ـ بالضم ـ: جمع جوناء أي سوداء. والحصان ـ بالفتح ـ: المحصنة. والنقب: جمع نقاب، ككتب وكتاب. والعون أصله بضم الواو جمع عوان، وهي النصف ـ بفتحتين ـ أي الوسط من النساء والبهائم، فسكن تخفيفاً. يقول: تلك النساء ظعائن؛ أي مسافرات غيّر لونهن السفر، وكنت أعهدهن في قديم الزمان حين الإقامة غير سود وهن محصّنات الوجوه، وإذا حفظت حفظْن كلهن عادة. والأعالي: صفة للنقب أو المواضع، وهذا لا يكون إلا في النساء كما ترى. وروى بعضهم «ضغائن» بدل «ظعائن» ولعله تحريف. وهن ناعمات، دائرات بين أبكار صغيرات وعون أواسط.
ينظر: المنصف (٣/٥٨)، اللسان (عون) الدر ١/ ٢٥٥.

(٣) قوله: «وقد عونت» في الصحاح: وتقول منه: عونت المرأة تعويناً، وعانت تعون عوناً. (ع)

(٤) قال محمود رحمه اللّه: «فإن قلت بين يقتضي شيئين... إلخ» قال أحمد رحمه اللّه: وقد مر نظير هذا عند قوله (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) فجدد به عهداً.

نائباً عن أفعال جمّة تذكر قبله، تقول للرّجل: نعم ما فعلت، وقد ذكر لك أفعالاً كثيرة وقصة طويلة، كما تقول له: ما أحسن ذلك، وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا، قال أبو عبيدة: قلتُ: لِرُؤْبَةَ في قوله [من الرجز]:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ ـ وَبَلَقْ   كَأَنَّهُ فِي الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ[1]

إن أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنّهما، فقال: أردت كأن ذاك، ويلك! والذي حسن منه: أنّ أسماء الإشارة تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة، وكذلك الموصولات؛ ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع، ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾: أي ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قوله أمرتك الخير أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول به بالمصدر، كضرب الأمير.

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك وحانك، وأبيض يقق ولهق، وأحمر قاني وذريحي، وأخضر ناضر ومدهامّ، وأورق خطبانيّ وأرمك ردانيّ، فإن قلت: «فاقع» ههنا واقع خبراً عن اللون، فلم يقع توكيداً لصفراء، قلت: لم يقع خبراً عن اللون؛ إنما وقع توكيداً لصفراء، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون من سببها وملتبس بها، فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها، فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة؟ وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصّفرة، فكأنّه قيل: شديدة الصُّفرة صفرتها، فهو من/٤٦أ قولك: جدّ جدّه، وجنونك مجنون، وعن وهب: إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، والسرور لذّة في القلب عند حصول نفع أو توقعه، وعن عليّ رضيَ الله عنه: (من لبس نعلاً صفراء قلّ همّه (٥٠) لقوله تعالى:

---

٥٠ ـ قال الزيعلي (١/ ٦٥): «غريب عن علي، ولم أجده إلاّ عن ابن عباس» ا.هـ.

---

(١) لرؤية بن العجاج يصف بقرة وحشية، وقيل فرساً، وقيل خيلاً فيها لون السواد ولون البلق ـ أي البياض ـ ويروى: من بياض وبلق؛ فلعل البياض بياض يرهقه قترة، كأنه: أي ذلك المذكور أو المجتمع منهما، توليع البهق في الجلد. أو كأنه حال كونه في الجلد توليع البهق، أي تخطيطه من البياض المشوب بكدرة الناشىء من البهق، وهو داء يتغير منه لون الجلد. روي أن أبا عبيدة قال له: إن أردت الخطوط فقل: كأنها. وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما. فقال أردت كأن ذاك، فقد أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في صحة الإشارة بالمفرد منه إلى المتعدد بتأويله بالمذكور ونحوه.

ينظر: ديوانه (١٠٤)، مجالس العلماء (٢٧٧)، المحتسب ٢/ ١٥٤، المغني (٢/ ٦٧٨)، اللسان (بهق)، مجاز القرآن (١/ ٤٣)، مجالس ثعلب (٢/ ٣٧٥)، حاشية الكشاف للتفتازاني (١/ ٢٢، ٥٣٠) الدر المصون (١/ ٢٥٦).

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، وعن الحسن البصري: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: سوداء شديدة السّواد، (٥١) ولعلّه مستعار من صفة الإبل؛ لأن سوادها تعلوه صفرة، وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿جمالات صفر﴾، [المرسلات: ٣٣]. قال الأعشى [من الخفيف]:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي ... هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ[1]

﴿مَا هِيَ﴾: مرّة ثانية، تكرير للسّؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها، وعن النبي ﷺ: «لَوِ اعْتَرَضُوا أَدْنَى بَقَرَة فَذَبَحُوهَا لَكَفَتْهُم، وَلَكِنْ شدّدوا فَشَدَّدَ الله عَلَيْهِمْ» (٥٢) والاستقصاء شؤم، وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى

وقال الحافظ في «تخريج الكشاف»: موقوف لم أجده.

وحديث ابن عباس:

أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٩) رقم (٧١٠)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٢٠) رقم (١٠٦١٢)، والخطيب في الجامع (١/ ٣٩٢) رقم (٩١٥)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٦) رقم (١٤٩٦) في ترجمة الفضل بن الربيع، وعزاه السيوطي في الدر (١/ ١٥١) للديلمي أيضاً، وذكره ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٣١٩)، وقال: «قال أبي: هذا حديث كذب موضوع» ا.هـ.

وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٤٢):

«رواه الطبراني، وفيه ابن العذراء غير مسمى ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» ا.هـ.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: موقوف، لم أجده: لكن أخرجه العقيلي والطبراني والخطيب من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: من لبس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه: فقال: كذب. موضوع. انتهى.

٥١ ـ أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٠) رقم (٧١٤)، (١/ ٢٢١) رقم (٧٢٠)، وابن جرير (٢/ ١٩٩) رقم (١٢١٨)، وسعيد بن منصور (٢/ ٥٦٤) رقم (١٩٢)، وذكره السيوطي (١/ ١٥١) وعزاه لعبد بن حميد أيضاً.

٥٢ ـ أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٢٠٦) رقم (١٢٤٥)، عن ابن عباس موقوفاً بلفظ: «لو اعترضوا =

---

(١) إن قيساقيس الفعال أبا الأشـ ... ـعث أمست أصداؤه لشعوب
كل عام يمدني بجموم ... عند وضع للضأن أو بنجيب
تلك خيلي منه وتلك ركابي ... هن صفر أولادها كالزبيب

للأعشى في أبي الأشعث بن قيس. والفعال ـ بالفتح: فعل الخير، والأصداء: جمع صدى، وهو ذكر البوم. كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة وتصيح: أدركوني. حتى يؤخذ بثأره. وشعوب: اسم للمنية، ويمكن أنه جمع شعب بمعنى طريق، أي أمست متفرقة في الطرق. وذلك كناية عن قتله. والجمع للتعظيم، أو اعتباري. والجموم: جمع جم بتثليث أوله بمعنى الكثير. والنجيب: الكريم من الخيل والإبل. والركاب: المطايا. هن أي الركاب، صفر: جمع أصفر أو صفراء، أولادها يغلب عليها السواد كالزبيب. والمراد بالصفرة سواد ترهقه صفرة، لأن هذا أعز ألوان الإبل عندهم.

ينظر: ديوانه (٣٣٥)، الأضداد (١٣٨)، اللسان (خشب)، الدر المصون ١/ ٢٥٧.

قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم، فكتب إليه: بأيّهما أبدأ؟ فقال: إن قلت لك بقطع الشجر سألتني: بأيّ نوع منها أبدأ؟ وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاة سألتني: أضائن أم ماعز؟ فإن بيّنت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني، وفي الحديث: «أَعْظَمُ النَّاسِ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ لأَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» (٥٣). ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾: أي إنّ البقر الموصوف بالتعوين والصّفرة كثير فاشتبه علينا أيّها نذبح، وقرىء: تشّابه، بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشّين، وتشابهت ومتشابهة ومتشابه، وقرأ محمد ذو الشامة: إن الباقر يشّابه، بالياء والتّشديد، جاء في الحديث: «لَوْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأَبَدِ» (٥٤) أي: لو لم يقولوا: إن شاء الله، والمعنى: إنا لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل، ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾: صفة لبقرة، بمعنى بقرة غير ذلول، يعني لم

= بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى فشدد الله عليهم»، ولم يذكر فيه: «والاستقصاء شؤم»، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم (١/ ٢١٥) رقم (٦٩٨)، وذكر السيوطي في الدر (١/ ١٥٠) أن ابن أبي حاتم وابن مردويه أخرجا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لولا أن بني إسرائيل قالوا: «وإنا إن شاء الله لمهتدون» ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها ـ لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم».

وهو عند ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٣) رقم (٧٢٧) دون قوله: «ولو أنهم اعترضوا... إلخ.».
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
ابن مردويه والبزار وابن أبي حاتم؛ كلهم من طريق الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي سنده عباد بن منصور، وفيه ضعف، والطبري من كلام ابن عباس موقوفاً، ومن كلام أبي العالية دون قوله: «والاستقصاء شؤم»، فليس هو في المرفوع ولا الموقوف قلت: قوله: «والاستقصاء شؤم»، من كلام الزمخشري. انتهى.

٥٣ ـ أخرجه البخاري (١٣/ ٢٧٨) كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال حديث (٧٢٨٩)، ومسلم (٤/ ١٨٣١) كتاب الفضائل، باب توقيره ـ ﷺ ـ حديث (٢٣٥٨).
وأبو داود (٢/ ٦١٢) كتاب السنة، باب لزوم السنة حديث (٤٦١٠)، وأحمد (١/ ١٧٦، ١٧٩)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٣١٤) رقم (١١٠)، والحميدي (١/ ٣٧) رقم (٦٧)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٤٣) رقم (١٤٤).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

٥٤ ـ أخرجه ابن جرير (٢/ ٢٠٥) رقم (١٢٤٢) عن ابن جريج مرسلاً.
ورواه أيضاً ابن جرير (٢/ ٢٠٦) رقم (١٢٤٤) عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «إنما أمر القوم بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد عليهم، والذي نفس محمد بيده لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد».
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعاً. وهو معضل. انتهى.

تذلّل للكراب[1] وإثارة الأرض، ولا هي من النّواضح التي يسنى عليها لسقي الحروث، و(لا) الأولى: للنفي، والثانية: مزيدة، لتوكيد الأولى، لأنّ المعنى: لا ذلول تثير وتسقي، على أنّ الفعلين صفتان لذلول، كأنّه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي: «لا ذلول» بمعنى لا ذلول هناك، أي: حيث هي، وهو نفي لذلها؛ ولأن توصف به فيقال: هي ذلول، ونحوه قولك: مررت بقوم لا بخيل ولا جبان، أي فيهم، أو حيث هم، وقرئ: «تُسقي» بضم التاء من أسقى، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: سلمها الله من العيوب، أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه كقوله [من البسيط]:

أَوْ مَعْبَرِ الظَّهْرِ يُنْبِي عَنْ وَلِيَّتِهِ   مَا حَجَّ رَبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَلاَ اعْتَمَرَا[2]

أو مخلصة اللون، من سلم له كذا إذا خلص له، لم يشب صفرتها شيء من الألوان ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾: لا لمعة في نقبتها[3]، من لون آخر سوى الصّفرة، فهي صفراء كلّها حتى/٤٦ب قرنها وظلفها، وهي في الأصل مصدر وشاه وشياً وشية، إذا خلط بلونه لوناً آخر، ومنه: ثور موشى القوائم، ﴿جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾: أي بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: أي فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلّها فذبحوها، وقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾: استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وأنّهم لتطويلهم المفرط

---

(١) قوله «لم تذلل للكراب» في الصحاح: كربت الأرض إذا قلبتها للحرث. وفي المثل: الكراب على البقر، ويقال: الكلاب على البقر. (ع)

(٢) أنشده سيبويه. ويقال: أعبرت الشاة فهي معبرة، إذا كثُر صوفها لتركها سنة من غير جز، فالظهر المعبر: المتروك من الجز فيكثُر وبره، أو لأنه لا وبر عليه فيحز. ولعل المراد هنا المتروك من الحمل عليه. وقيل: المنجرد الشعر. ونبا عنه ينبو: انحرف. وأنبيته: حرفته وأبعدته، فما هنا معناه يمنع غيره عن ركوب وليته. وظاهر كلام بعضهم أنه يقال: نبى ينبي، كرمى يرمي، إذا انحرف. وأن ما هنا منه، أي ينفر عن وليته: أي برذعته، لأنها تلي الجلد. وربه باختلاس الحركة للوزن، بمعنى صاحبه. والمعنى: أنه بعير متروك من العمل فهو مصعب ينفر من الراكب، لأنه لم يسافر أصلاً حتى أن صاحبه لا حج ولا اعتمر، وظاهر كلام بعضهم أن «ربه» هي رب التي هي حرف جر، فتكون جارة للضمير بلا تمييز لتقدم مرجعه، ودالة على تحقيق النفي مجازاً عن معنى التكثير وهي اعتراض بين المتعاطفين، وإسناد الفعلين لضمير البعير مجاز عقلي، لأنه من آلات الحج والاعتمار. وقائل ذلك فسره بأنه منجرد الظهر ينفر من برذعته لدبره من كثرة الأسفار. ما سافر لحج ولا اعتمار، وإنما يسافر إلى الأعداء. ولو جعل معناه كما تقدم لجاز. فالمعنى أنه مصعب لم يركب ولم يسافر أصلاً، حتى أنه لم يسافر لحج ولا عمرة وهو ظاهر.
والبيت لرجل من باهلة: ينظر شرح أبيات سيبويه ١/ ٤٢٢، الكتاب ١/ ٣٠، الإنصاف ٢/ ٥١٦، خزانة الأدب ٥/ ٢٦٩ لسان العرب (عبر) والمقتضب ١/ ٣٨، المقرب ٢/ ٢٠٤، الدر المصون ١/ ١٩٦.

(٣) قوله: «لا لمعة في نقبتها» في الصحاح: النقبة اللون والوجه. (ع)

وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمّقهم، وقيل: وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل: لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، ورُوِيَ: أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عِجلة فأتى بها الغيضة[1] وقال: اللّهم إني أستودعكها لابني حتى يكبر، وكان براً بوالديه، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم وأمّه حتى اشتروها بملء مَسْكِها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة (٥٥). فإن قلت: كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرة من شق البقر غير مخصوصة، ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات، فذبحوا المخصوصة، فما فعل الأمر الأوّل؟ قلت: رجع منسوخاً؛ لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة، والنّسخ قبل الفعل جائز، على أنّ الخطاب كان لإبهامه متناولاً لهذه البقرة الموصوفة كما تناول غيرها، ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التّخصيص لكان امتثالاً له؛ فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾: خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم، ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾: فاختلفتم واختصمتم في شأنها؛ لأنّ المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً، أي يدفعه ويزحمه، أو تدافعتم، بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض، فدفع المطروح عليه الطّارح، أو لأنّ الطّرح في نفسه دفع، أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً، فإن قلت: كيف أعمل «مخرج» وهو في معنى المضيّ؟ قلت: وقد حكى ما كان[2] مستقبلاً في وقت التدارؤ، كما حكى الحاضر في قوله: ﴿باسط ذراعيه﴾ [الكهف: ١٨] وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما: (ادّارأتم)، و (فقلنا)، والضّمير في ﴿اضْرِبُوهُ﴾: إمّا أن يرجع إلى النّفس والتذكير على تأويل الشخص والإنسان، وإمّا إلى القتيل لما دلّ عليه من قوله: (ما كنتم تكتمون)، ﴿بِبَعْضِهَا﴾: ببعض البقرة، واختلف في البعض الذي ضرب به، فقيل: لسانها، وقيل: فخذها اليمنى، وقيل: عَجْبها، وقيل: العظم الذي يلي الغضروف وهوأصل الأذن، وقيل: الأذن، وقيل: البضعة بين الكتفين، والمعنى: فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ

---

٥٥ - قصة فتى بني إسرائيل رواها أبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٦٥) رقم (١٢٦٤) مختصراً.
وذكرها السيوطي في الدر (١/ ١٥٤)، وعزاها لعبد بن حميد، وأبي الشيخ في العظمة في قصة طويلة.

---

(١) قوله «فأتى بها الغيضة» في الصحاح: الغيضة الأجمة، وهي مغيض ماء يجتمع فيه فينبت فيه الشجر. (ع)

(٢) قوله «قلت وقد حكى ما كان» لعله «قد» بدون واو. (ع)

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وروي: أنهم لمّا ضربوه، قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني فلان وفلان لابني عمه، ثم سقط ميتاً، فأخذا وقتلا ولم يورّث قاتل بعد ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: إما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتيل بمعنى وقلنا لهم؛ كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة، ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ودلائله على أنّه قادر على كلّ شيء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تعملون على قضية عقولكم، وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلّها لعدم الاختصاص، حتّى لا تنكروا البعث، وإمّا أن يكون خطاباً للمنكرين/١٤٧أ في زمن رسول الله ﷺ. فإن قلت: هلا أحياه ابتداء؟ ولم شرط في إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها؟ قلت: في الأسباب والشروط حكم وفوائد؛ وإنّما شرط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرّب وأداء التكاليف، واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القربة على الطّلب، وما في التّشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم، ولآخرين في ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى وارتسامها على الفور، من غير تفتيش وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والدلالة على بركة البرّ بالوالدين، والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهازىء بما لا يعلم كنهه، ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء، وبيان أنّ من حق المتقرّب إلى ربه أن يتنوّق[1] في اختيار ما يتقرّب به، وأن يختاره فتيّ السنّ غير قحم ولا ضرع، حسن اللون برياً من العيوب يونق من ينظر إليه، وأن يغالى بثمنه، كما يروى عن عمر رضي الله عنه: أَنَّهُ ضَحَّى بِنَجِيبَةٍ بِثَلَاثمائَةِ دِينَارٍ (٥٦)، وأنّ الزيادة في الخطاب نسخ له، وأن النّسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه؛ لأدائه إلى البداء، وليعلم بما أمر من مسّ الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب؛ لأنّ الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة، فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقّها أن يقدّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾

---

٥٦ ـ أخرجه أبو داود (٥٤٦/١) كتاب المناسك، باب تبديل الهدى حديث (١٧٥٦)، وعزاه في الكنز (٢٣٣/٥) رقم (١٢٧٢٢) إلى أبي داود.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه أبو داود من رواية الجهم بن الجارود عن سالم عن أبيه. قال: «أهدى عمر ـ رضي الله عنه ـ نجيبه فأعطى بها ثلاثمائة دينار. فقال: يا رسول الله، أفأبيعها واشتري بثمنها بدناً؟ قال: لا انحرها إياها. انتهى.

---

(١) قوله «أن يتنوق» في الصحاح: تنوق في الأمر، أي تأنق فيه. ويفيد أيضاً أن «القحم» المسن الفاني، و «الضرع» بالتحريك الضعيف النحيف. و «الأنق» الفرح والسرور. (ع)

فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قصّ من قصص بني إسرائيل إنما قصّ تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولمّا جدّد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصّتان كلّ واحدة منهما مستقلّة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنّما قدّمت قصّة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنّه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى؛ دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيتهِ بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضّمير الراجع إلى البقرة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

معنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾: استبعاد القسوة من بعد ما ذكر ممّا يوجب لين القلوب ورقّتها ونحوه: ﴿ثم أنتم تمترون﴾، وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوّها عن الاعتبار، وأنّ المواعظ لا تؤثّر فيها، و﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى إحياء القتيل، أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة، ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾: فهي في قسوتها مثل الحجارة، ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾: منها، و «أشد» معطوف على الكاف، إما على معنى أو مثل/٤٧ب أشد قسوة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وتعضّده قراءة الأعمش بنصب الدّال عطفاً على الحجارة، وإمّا على: أو هي في أنفسها أشد قسوة والمعنىٰ: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً، أو من عرفها شبّهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة، فإن قلت: لم قيل: أشدّ قسوة، وفعل القسوة ممّا يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب[1]؟ قلت: لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة، كأنّه قيل: اشتدّت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة، وقرىء: قساوة، وترك ضمير المفضّل عليه لعدم

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم قيل: أشد قسوة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ولأن سياق هذه الأقاصيص قصد فيه الإسهاب لزيادة التقريع، حتى جعلت القصة الواحدة قصتين كما مر الآن. ولا شك أن قوله (أو أشد قسوة) أدخل في الإسهاب من قول القائل: أو أقسى.

الإلباس؛ كقولك: زيد كريم، وعمرو أكرم، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾: بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدّة القسوة، وتقرير لقوله: (أو أشدّ قسوة)؛ وقرىء «وإنْ» بالتخفيف، وهي (إن): المخفّفة من الثّقيلة التي تلزمها اللام الفارقة، ومنها قوله تعالى: ﴿وإن كل لما جميع﴾ [يس:٣٢]. والتفجر: التفتُّح بالسّعة والكثرة، وقرأ مالك بن دينار: «ينفجر» بالنون، ﴿يَشَّقَّقُ﴾: يتشقق، وبه قرأ الأعمش، والمعنى إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً ﴿يَهْبِطُ﴾: يتردّى من أعلى الجبل، وقرىء بضم الباء، والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به، وقرىء «يعملون» بالياء والتاء، وهو وعيد.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾: أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم، كقوله ﴿فآمن له لوط﴾ [العنكبوت: ٢٦] يعني اليهود، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾: طائفة فيمن سلف منهم، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: وهو ما يتلونه من التوراة، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: كما حرّفوا صفة رسول الله ﷺ؛ وآية الرّجم، وقيل: كان قوم من السّبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلّم موسى بالطّور وما أمر به ونهى، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس، وقرىء كِلمَ الله. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة في صحته، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أنهم كاذبون مفترون، والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرّفوا فلهم سابقة في ذلك، ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾: يعني اليهود، ﴿قَالُوٓا﴾: قال منافقوهم[1]، ﴿ءَامَنَّا﴾: بأنّكم على الحقّ، وأنّ محمداً هو الرسول المبشر به، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾: الذين لم ينافقوا، ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: الذين نافقوا، ﴿قَالُوٓا﴾: عاتبين عليهم:

---

(١) قال محمود رحمه الله: «قال منافقوهم... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وصح عود الضمير في اللفظ إلى جهة واحدة مع اختلاف المرجوع إليه، لأنهما صنفان مندرجان في الأول. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فالضمير الأول للأزواج، والثاني للأولياء وهو راجع إلى جهة واحدة وهي جهة المخاطبين لاشتمالهم على الصنفين جميعاً، والله أعلم.

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما بين لكم في التّوراة من صفة محمد، أو قال المنافقون لأعقابهم يرونهم التصلّب في دينهم: أتحدّثونهم، إنكاراً عليهم أن يفتحوا عليهم شيئاً في كتابهم فينافقون المؤمنين وينافقون اليهود، ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾: ليحتجّوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم به، وقولهم هو في كتابكم/٤٨أ هكذا محاجة عند الله، ألا تراك تقول: هو في كتاب الله هكذا، وهو عند الله هكذا، بمعنى واحد، ﴿يَعۡلَمُ﴾: جميع، ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾: ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان.

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ﴾: لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها، ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: التوراة ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾: إلا ما هم عليه من أمانيهم، وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وما تمنّيهم أحبارهم من أنّ النّار لا تمسّهم إلاّ أياماً معدودة، وقيل: إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبّلوها على التّقليد، قال أعرابي لابن دأب في شيء حدّث به: أهذا شيء رويته، أم تمنيته، أم اختلقته[1]، وقيل: إلا ما يقرءون من قوله [من الطويل]:

تَـمَـنَّـى كِـتَـابَ الـلَّـهِ أَوَّلَ لَـيْـلَـةٍ ....[2]

والاشتقاق من منى إذا قدّر؛ لأنّ المتمنّي يقدّر في نفسه ويحزر ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارىء يقدّر أنّ كلمة كذا بعد كذا، وإلاّ أمانيّ: من الاستثناء المنقطع، وقرىء: أماني، بالتخفيف، ذكر العلماء الذين عاندوا بالتّحريف مع العلم والاستيقان، ثم العوامّ الذين قلّدوهم، ونبّه على أنهم في الضلال سواء؛ لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه،

---

(١) قوله «أم تمنيته أم اختلقته» لعله أي أم الخ. (ع)

(٢) تـمـنـى كـتـاب الـلّـه أول لـيـلـة ... تـمـنـي داود الـزبـور عـلـى رسـل
لحسّان بن ثابت في مرثية عثمان بن عفان رضيَ اللّه عنهما. يقول: تمنى كتاب اللّه، أي تلاه وتابع في تلاوته كتمنى داود عليه السلام الزبور: أي كتلاوته الزبور على رسل بالكسر: أي تؤدة وسكينة. وروي بدل الشطر الثاني

.... وآخـرهـا لاقـى حـمـام الـمـقـادر

والحمام: الموت، لأنه مقدّر، من حم اللّه الشيء: قدره.
ينظر: القرطبي (٢/٦)، المحرر الوجيز (١/ ٣٣٠)، مجمع البيان (١/ ٣٢٢)، اللسان (منى)، والدر ١/ ٢٦٩.

وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظنّ وهو متمكن من العلم، ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾: المحرّف، ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾[1]: تأكيد، وهو من محاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا، كتبته بيمينك هذه، ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾: من الرشا.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾

﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾: أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل، وعن مجاهد: كانوا يقولون: مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً، ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ﴾: متعلق بمحذوف تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، و ﴿أَمْ﴾: إمّا أن تكون معادلة بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة، ﴿بَلَى﴾: إثبات لما بعد حرف النفي، وهو قوله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾: أي بلى تمسّكم أبداً، بدليل قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: من السّيئات، يعني كبيرة من الكبائر[2]، ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: تلك واستولت عليه، كما يحيط العدوّ ولم يتفص عنها[3] بالتوبة، وقرىء: خطاياه و خطيئاته، وقيل: في الإحاطة: كان ذنبه أغلب من طاعته، وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان الله، ألا أراك ذا لحية وما تدري ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهى فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا

---

(١) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة قوله بأيديهم... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: وربما قال الزمخشري في مثل هذا: إن فائدته تصوير الحالة في النفس كما وقعت، حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة.

(٢) قوله: «يعني كبيرة من الكبائر» فسّرها بذلك لتنطبق الآية على مذهب المعتزلة. وهو أن فاعل الكبيرة مخلّد في النار، ومذهب أهل السنّة أنه لا يخلد فيها إلا الكافر. وفسروا الخطيئة بالشرك. وفي الخازن قال ابن عباس: هي الشرك يموت عليه صاحبه اهـ وهو الذي يحيط بفاعله ويسد أبواب النجاة أمامه في كل جهة. (ع)

(٣) قوله: «ولم يتفص عنها» أي يتخلص. (ع)

﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾: إخبار في معنى النهي[1]، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الإمتثال والإنتهاء، فهو يخبر عنه وتنصره قراءة عبد الله وأبيّ «لا تعبدوا»: ولا بدّ من إرادة/ ٤٨ب القول، ويدلّ عليه أيضاً قوله ﴿وَقُولُواْ﴾، وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، إمّا أن يقدّر: وتحسنون بالوالدين إحساناً، أو وأحسنوا، وقيل: هو جواب قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2]: إجراء له مجرى القسم، كأنّه قيل: وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون، وقيل: معناه: ألاّ تعبدوا، فلما حذفت (أن): رفع، كقوله [من الطويل]:

ألاَ أَيُّهَذَا الزّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغَىٰ ....[3]

ويدل عليه قراءة عبد الله: «ألاّ تعبدوا»، ويحتمل «أن لا تعبدوا»، أن تكون (أن) فيه مفسرة، وأن تكون أن مع الفعل بدلاً عن الميثاق، كأنه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم وقرىء بالتاء حكاية لما خوطبوا به، وبالياء لأنهم غيب، ﴿حُسْنًا﴾: قولا هو حسن في نفسه[4]، لإفراط حسنه، وقرىء «حسناً»، و «حسنى» على المصدر ـ كبشرى،

---

(١) قال محمود رحمه اللّه تعالى: «لا تعبدون إخبار في معنى النهى... إلخ» قال أحمد رحمه اللّه: وجه الدليل منه أنّ الأول لو لم يكن في معنى النهي لما حسن عطف الأمر عليه، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر، ولا كذلك الأمر والنهي لالتقائهما في معنى الطلب.

(٢) قال محمود رحمه اللّه: «وقيل هو جواب قوله (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل)... إلخ». قال أحمد رحمه اللّه: لو قدر القسم مضافاً إلى المذكورين لكان أوجه، فيقول (وإذ أقسمتم لا تعبدون إلا اللّه... إلخ).

(٣) ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟

لطرفة بن العبد من معلقته. وألا أداة استفتاح. وحرف النداء محذوف. وأي منادى. واسم الإشارة نعت له. والزاجر نعت لاسم الإشارة مضاف لياء المتكلم إضافة الوصف لمفعوله. وروي بدله «اللائمي»: وروي «أحضر» منصوباً بإضمار أن، ومرفوعاً على إهمالها وحسن حذفها ذكرها فيما بعد. يقول: يا أيها الزاجر لي عن حضور الحرب وشهود لذَّات النصر والظفر والغنيمة. أو شهود لذّات الشراب ومغازلة النساء المستدعين لإتلاف المال، لست مخلّداً لي لو طاوعتك. فالاستفهام إنكاري.

ينظر ديوانه ص ٣٢، والإنصاف ٢/ ٥٦٠، وخزانة الأدب ١/ ١١٩، ٨/ ٥٧٩، والدرر ١/ ٧٤، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٨٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٠٠، والكتاب ٣/ ٩٩، ١٠٠، ولسان العرب (أنن)، (دنا)، والمقاصد النحويّة ٤/ ٤٠٢، والمقتضب ٢/ ٨٥، وبلا نسبة في خزانة الأدب ١/ ٤٦٣، ٨/ ٥٠٧، ٥٨٠، ٥٨٥، والدرر ٣/ ٣٣، ٩/ ٩٤، ورصف المباني ص ١١٣، وشرح شذور الذهب ص ١٩٨، وشرح ابن عقيل ص ٥٩٧، وشرح المفصل ٢/ ٧، ٤/ ٢٨، ٧/ ٥٢، ومجالس ثعلب ص ٣٨٣، ومغني اللبيب ٢/ ٣٨٣، ٦٤١، وهمع الهوامع ٢/ ١٧.

(٤) قال محمود: «أي قولاً هو حسن في نفسه... إلخ». قال أحمد: وفيه من التأكيد والتخصيص على =

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾: على طريقه الإلتفات[1] أي توليتم عن الميثاق ورفضتموه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم، ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾: وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق، والتولية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾: لا يفعل ذلك بعضكم ببعض، جعل غير الرجل نفسه، إذا اتصل به أصلاً أو ديناً، وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه، لأنه يقتص منه. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: عليها، كقولك: فلان مقرّ على نفسه بكذا شاهد عليها، وقيل: وأنتم تشهدون اليوم، يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم[2] من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم، والمعنى ثم أنتم بعد

= إحسان مناولة الناس، أنه وضع الصدر فيه موضع الاسم. وهذا إنما يستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف، كرجل عدل، وصوم وفطر، وقرىء حسناً فهو على هذا من الصفات المشبَّهة.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي قاله إنما يَجيءُ على قراءةِ: «لا يَعْبدون» بالغيبة، وأمّا على قراءةِ الخطابِ فلا التفات ألبتةَ، ويجوزُ أن يكونَ أرادَ بالالتفاتِ الخروجَ مِنْ خطابِ بني إسرائيلِ القدماءِ إلى خطابِ الحاضرين في زمن النبيِّ ﷺ وقد قيل بذلك، ويؤيِّده قولُه تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ قيل: يعني بهم الذين أَسْلموا في زمانِه عليه السلام كعبدِ الله بن سَلام وأضرابه، فيكونُ التفاتاً على القراءتين. والمشهورُ نَصْبُ «قليلاً» على الاستثناء لأنه مِنْ موجب. ورُوي عن أبي عمرو وغيره: «إلا قليلٌ» بالرفع. وفيه ستةُ أقوال، أصحُها: أنَّ رفعه على الصفة بتأويل «إلا» وما بعدها بمعنى غَيْر. وقد عَقَد سيبويه ـ رحمه الله ـ في ذلك باباً في كتابه فقال: «هذا بابُ ما يكونُ فيه «إلاّ» وما بعدها وصفاً بمنزلة غير ومثل»، وذكر من أمثلة هذا الباب: «لو كان معنا إلا رجلٌ إلا زيدٌ لغُلِبْنا» و «لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللّهُ لَفسَدَتا». انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود رحمه اللّه: أدخل ثم استبعاداً. . . إلخ؟ قال أحمد رحمه اللّه: وهذا نظير ما تقدم آنفاً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ الآية.

ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني أنكم قوم آخرون[1] غير أولئك المقرّين تنزيلاً، لتغير الصفة منزلة وتغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به، وقوله: ﴿تَقۡتُلُونَ﴾: بيان لقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وقيل: «هؤلاء» موصول بمعنى الذي[2]، وقرىء: «تظّاهرون»: بحذف التاء وإدغامها، وتتظاهرون بإثباتها، وتظهرون بمعنى تتظهرون: أي تتعاونون عليهم، وقرىء: «تفدوهم»، «وتفادوهم»، «وأسرى»، «وأسارى» ﴿وَهُوَ﴾: ضمير الشأن، ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره، ﴿إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي بالفداء، ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾: أي بالقتال والإجلاء، وذلك أنّ قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير كانوا حلفاء الخزرج، فكان كلّ فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه، فعيرتهم العرب وقالت: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم، فيقولون: أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم، ولكنا نستحي أن نذل حلفاءنا، والخزي: قتل بني قريظة وأسرهم وإجلاء بني النضير، وقيل: الجزية، وإنما ردّ من فعل منهم ذلك إلى أشدّ العذاب، لأن عصيانه أشدّ، وقرىء: «يردّون»، «ويعملون». بالياء /٤٩أ والتاء. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ﴾: عذاب الدنيا بنقصان الجزية، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم، وكذلك عذاب الآخرة.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: التوراة، آتاه إياها جملة واحدة، ويقال: قفاه إذا أتبعه من القفا، نحو ذنبه، من الذنب، وقفاه به: أتبعه إياه، يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل، كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ [المؤمنون: ٤٤] وهم: يوشع، وأشمويل، وشمعون، وداود، وشعيباً، وسليمان، وشعيا، وأرميا، وعزير، وحزقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم، وقيل: ﴿عِيسَى﴾: بالسريانية أيشوع، و﴿مَرۡيَمَ﴾ بمعنى الخادم،

---

(١) قال محمود رحمه الله: «والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء الشاهدون، يعني أنكم قوم آخرون غير أولئك... إلخ». قال أحمد رحمه الله: هو بيان لتغيُّر الصفة الموجب لتنزيلهم منزلة المغايرين لهم بالذات.

(٢) قوله: «موصول بمعنى الذي» لعله الذين. (ع)

وقيل: المريم بالعربية من النساء، كالزير من الرجال[1]، وبه فسر قول رؤبة [من الرجز]:

قُـلْـتُ لِـزِيـرٍ لَـمْ تَـصِـلْـهُ مَـرْيَـمُـهْ[2]

ووزن «مريم» عند النحويين «مفعل»، لأن فعيلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب[3]، ﴿ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾: المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص والإخبار بالمغيبات، وقرىء: «وآيدناه»، ومنه: آجده، بالجيم[4] إذا قوّاه، يقال: الحمد الله الذي آجدني بعد ضعف، وأوجدني بعد فقر، ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق، ووصفها بالقدس، كما قال: ﴿وروح منه﴾: [النساء: ١٧١] فوصفه بالإختصاص والتقريب للكرامة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب، ولا أرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحاً من أمرنا﴾، [الشورى: ٥٢] وقيل: باسم الله الأعظم، الذي كان يحيي الموتى بذكره، والمعنى: ولقد آتينا يابني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾: منهم بالحق، ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: عن الإيمان به، فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ، والتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يريد: ولقد آتيناهم ما آتيناهم ففعلتم ما فعلتم، ثم وبخهم على ذلك، ودخول الفاء، لعطفه على المقدّر، فإن قلت: هلا قيل وفريقاً

---

(١) قوله «كالزير من الرجال» في الصحاح: هو الذي يحب محادثة النساء ومجالستهن. (ع)

(٢) قـلـت لـزيـر لـم تـصـلـه مـريـمـه ... ضـلـيـل أهـواء الـصـبـا تـنـدمـه

لرؤبة بن العجاج يعاتب أبا جعفر الدوانيقي على البطالة ومغازلة النساء. سُمّيَ بذلك لأنه زاد في الخراج دوانق أيام خلافته، كذا في الكشف. والزير من يُكثِر مودة النساء وزيارتهن. والمريم: من تكثر مودة الرجال وزيارتهم. قال أبو عمرو: من رام يريم، ومعناه بقي أو ذهب. وريمت السحابة تريماً: دامت. لدوامها على المودة، أو لخروجها من بيتها. والضليل كثير الضلال. والصبا: الميل إلى الجهل والفتوة. وتندمه: بمعنى ندمه، فهو مصدر مرفوع فاعل ضليل. ولعل معناه أن ندمه ضال ضائع في أهواء الصبا. ويروى «مندمه» بصيغة اسم الفاعل. وضليل: مرفوع على الابتداء، ومندمه خبره. ولعل معناه أن الرجل كثير الضلال يعني نفسه هو الذي يندمه ويجعله نادماً، أي يأمره بالندم. وقال عبد الحكيم علي البيضاوي نقلاً عن الكشف: أي قلت له من كثر ضلاله يكون مندم نفسه وموقعها في الندامة. واللام في قوله لزير للتعليل؛ أي قلت ذلك القول لأجله، هذا توجيه ما قيل فيه. ولو جعلت ضليل صفة زير كالوجه الأول، وتندمه فعل أمر مقول القول، حرك بالضم لالتقائه ساكناً مع هاء السكت ولمناسبة القافية لجاز: أي قلت له تندم وتب، لكن فيه تكلف شاذ.

ينظر ديوانه ص ١٤٩، وتهذيب اللغة: ١٣/ ٢٤٤، وتاج العروس: (زور)، (ضلل)، ولسان العرب: (زور) وكتاب العين: ٧/ ٩.

(٣) قوله «عثير وعليب» العثير: الغبار. وعليب: اسم واد. (ع)

(٤) قوله «ومنه آجده بالجيم» وأصله ما يقال: ناقة أجد، أي قوية موثقة الخلق أفاده الصحاح. (ع)

قتلتم[1]؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية[2]، لأنّ الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد، لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة، وقال - ﷺ - عند موته:

«ما زالت أكلةُ خيبر تعادّني، فهذا أوان قطعت أبهري» (٥٧) ﴿غُلْفٌ﴾: جمع أغلف، أي: هي خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد - ﷺ - ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن، كقولهم: (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه)، [فصلت:

----

٥٧ - أخرجه البخاري (٧/ ٧٣٧) كتاب المغازي/باب مرض النبي - ﷺ - ووفاته (٤٤٢٨) معلقاً قال:
وقال يونس عن الزهري قال عروة قالت عائشة - رضي الله عنها - «كان النبي - ﷺ - يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».
وعزاه في الكنز (٣٢١٨٩) لابن السني في «اليوم والليلة» وأبي نعيم في «الطب» من حديث أبي هريرة.
وله شاهد من حديث ابن عباس؛ أن رسول الله - ﷺ - مات من اللحم الذي كانت اليهودية سمته فانقطع أبهره من السم على أس السنة كان يقول: ما زلت أجد منه حساً».
قال الهيثمي (٩/ ٣٨).
«رواه الطبراني وإسناده حسن».
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه البزار وأبو نعيم في الطب وابن عديّ في الكامل. من طريق سعيد بن محمد الوراق عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه -. وسعيد ضعيف، لكن رواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن عمر بسنده: «أن امرأة يهودية أتت النبي - ﷺ - بشاة مصلية - فذكر القصة - وفيها: أن هذه الشاة مسمومة، وأن بشر بن البراء مات منها. فقتلها رسول الله - ﷺ -». وأخرج هذا القدر أبو داود من رواية خالد الطحان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة مرسلاً. ورواه الطبري من حديث بريدة قال: «خرجنا إلى خيبر - فذكر القصة. قال: فلما اطمأن رسول الله - ﷺ - يعني بخيبر - أهدت زينب بنت الحارث إليه شاة - فذكر القصة فيه، =

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: هلا قيل: وفريقاً قتلتم. . . إلخ» قال أحمد رحمه الله: والتعبير بالمضارع يفيد ذلك دون الماضي، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فعبَّر بالماضي ثم قال: فتصبح الأرض مخضرّة، فعدل عنه إلى المضارع إرادة لتصوير اخضرارها في النفس. وعليه قول ابن معديكرب يصوِّر شجاعته وجرأته [من الوافر]:

فإني قد لقيت القرن أسعى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فآخذه فأضربه فيهوي ... صريعاً لليدين وللجران

(٢) قوله: «أن تراد الحال الماضية» لعله: أن تراد حكاية الحال. (ع)

٥]، ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة[1]، كذلك لأنها خلقت على الفطرة، والتمكن من

= وقال: يا أم بشر، ما زالت أكلة خيبر التي أكلت مع إبنك تعادني. فهذا أوان قطعت أبهري» قلت: من قوله: «فلما اطمأن إلخ» ليس هو في حديث بريدة، وإنما هو من كلام الطبري. وهو في مغازي ابن إسحاق بهذا اللفظ الأول. وفيه قال ابن إسحاق: فحدثني مروان بن عثمان عن أبي سعيد بن المعلّى: «أن النبي - ﷺ - قال لأم بشر - وقد دخلت عليه: يا أم بشر، إن هذا لأوان وجدت انقطاع أبهري - الحديث»، وكذا أخرجه الطبراني، وأبو نعيم في الدلائل من رواية أبي الأسود عن عروة مختصراً. وذكره الواقدي في المغازي مطولاً بغير سند. وذكره ابن سعد في الطبقات عنه بأسانيد وفيه: ورفعها إلى ولاة بشر بن البراء فقتلوها. وروى أبو عبيدة والحربي في غريبهما من حديث أبي جعفر الباقر نحو الأول مرسلاً. قال الأصمعي: تعادني من العداد. وهو الشيء الذي يأتي لوقت دون وقت، وذكره البخاري تعليقاً من رواية عيينة عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - ووصله البزار والحاكم من هذا الوجه، واتفق الشيخان على حديث أنس - رضي الله عنه -: «أن امرأة يهودية أتت النبي - ﷺ - بشاة مسمومة»، فأكل منها الحديث، وفيه: فقال: ما زلت أعرفها في لهوات النبي - ﷺ -»، وروى أحمد والحاكم من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن أم بشر قالت: «دخلت على رسول الله - ﷺ - في وجعه الذي قبض فيه، فقلت: ما يتهم نفسك، فإني لا أتهم بابني إلاّ الطعام الذي أكله معك بخيبر. قال: وأنا لا أتهم غيرها. فهذا أوان انقطع أبهري».

وأخرج البيهقي في الدلائل هذه القصة عن الزهري، وفيها: قال الزهري: قال جابر: «واحتجم يومئذ على الكاهل، وبقي ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي فيه. قال: ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عداداً حتى كان هذا أوان انقطاع الأبهر مني»، وأخرج أبو داود من رواية الزهري عن جابر كذلك. وروى الطبراني والدارقطني من رواية يحيىٰ بن عبد الرحمن بن لبيبة عن أبيه عن جده لبيبة الأنصاري - رضي الله عنه - قال: «أهدت يهودية إلى النبي - ﷺ - شاة مصلية مسمومة. فأكل منها هو وبشر ابن البراء بن مصرور. فمرضا مرضاً شديداً - فذكر القصة. وفيها: ثم أمر بها فصلبت»، وروى معمر عن الزهري أنه قال: أسلمت. فتركها رسول الله - ﷺ -. قال معمر: هكذا قال. والناس يقولون: إنها لم تسلم وإنها قتلت. قال البيهقي: ثم السهيلي: يجمع بينهما بأنه صفح عنها فلم يقتلها، لأنه كان لا ينتقم لنفسه. فلما مات بشر من تلك الأكلة قتلها به قصاصاً. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه اللّه: «ثم رد اللّه أن تكون قلوبهم مخلوقة... إلخ». قال أحمد رحمه اللّه: وهذا من نوائب الزمخشري على تنزيل الآيات على عقائدهم الباطلة، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ألا تراه كيف أخذ من رد اللّه على هذه الطائفة أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر، أن الكفر والامتناع من قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم، تمهيداً لقاعدته الفاسدة في خلق الأعمال. وسبيل الرد عليه أن اللّه تعالى إنما كذبهم ورد عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للإيمان وسلب التمكُّن وعللوا ذلك بأن قلوبهم غلف وصدق اللّه ورسوله في أنه إنما خلقهم على الفطرة والتمكُّن من الإيمان والتأتي والتيسُّر له. وإنما هم اختاروا الكفر على الإيمان فوقع اختيارهم الكفر مقارناً لخلق اللّه تعالى إياه في قلوبهم بعدما أنشأهم على الفطرة، فقيام حجة اللّه تعالى عليهم: بأنه خلقهم متمكنين من الإيمان غير مقسورين على الكفر، =

قبول الحق، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألطاف التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين، ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾: فإيماناً قليلاً يؤمنون /٤٩ب وما مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، ويجوز أن تكون القلّة بمعنى العدم[١]، وقيل: «غلف»: تخفيف «غلف» جمع «غلاف»، أي: قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وروى عن أبي عمرو: قلوبنا غلف، بضمتين: ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، هو القرآن، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾: من كتابهم لا يخالفه، وقرىء: «مصدقاً»، على الحال، فإن قلت: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلت: إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه، وقد وصف: «كتاب» بقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وجواب لما محذوف وهو نحو: كذبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أشبه ذلك، ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: يستنصرون على المشركين، إذا قاتلوهم، قالوا: اللَّهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبيّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وقيل معنى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يفتحون عليهم، ويعرفونهم أن نبيّاً يبعث منهم قد قرب أوانه، والسين للمبالغة، أي يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في استعجب واستسخر، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾: من الحق، ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾: بغياً، وحسداً، وحرصاً على الرياسة، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي عليهم وضعاً للظاهر موضع المضمر، للدّلالة على أنّ اللعنة لحقتهم لكفرهم، واللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس ويدخلوا فيه دخولاً أوّلياً.

= وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة في اعتقادهم أن اللَّه تعالى خالق ذلك في قلوبهم على وفق اختيارهم. هذا هو الحق الأبلج والصراط الأبهج والله الموفق. وقول الزمخشري: إن كفرهم إنما خلقوه لأنفسهم بسبب منع ألطاف الله تعالى التي تسبب المؤمنون في حصولها لهم وكانت سبباً في خلقهم الإيمان في قلوبهم: كل هذا تستر من الإشراك واعتقاد آلهة غير الله تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وما ذهبَ إليه من أنَّ «قليلاً» يُراد به النفيُ، فصحيحٌ، لكنْ في غيرِ هذا التركيبِ»، أعني قوله تعالى: «فقليلاً ما يؤمنون» لأنَّ «قليلاً» انتصَبَ بالفعلِ المثبت فصار نظيرَ «قُمْتُ قليلاً» أي: قمتُ قياماً قليلاً، ولا يَذْهَبُ ذاهبٌ إلى أنَّك إذا أَتَيْتَ بفعلٍ مُثْبَتٍ وجَعَلْتَ «قليلاً» منصوباً نعتاً لمصدرِ ذلك الفعلِ يكونُ المعنى في المُثْبَتِ الواقع على صفةٍ أو هيئةٍ انتفاءَ ذلك المُثْبَتِ رأساً وعدَمَ وقوعِه بالكليّة، وإنما الذي نَقَل النحويون: أنَّه قدْ يُراد بالقلة النفيُ المَحْضُ في قولهم: «أَقَلُّ رجلٍ يقول ذلك، وقَلَّما يقوم زيد»، وإذا تقرّر هذا فَحَمْلُ القلةِ على النفي المَحْض هنا ليس بصحيحٍ» انتهى. قلت: ما قاله أبو القاسم الزمخشري ـ رحمه الله ـ من أنَّ معنى التقليلِ هنا النفيُ قد قالَ به الواحديُّ قبلَه، فإنه قال: «أيْ: لا قليلاً ولا كثيراً، كما تقول: قَلَّما يفعلُ كذا، أي: ما يفعله أصلاً». انتهى. الدر المصون.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

«ما»: نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس شيئاً، ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾: والمخصوص بالذم، ﴿أَن يَكْفُرُوا۟﴾: واشتروا بمعنى باعوا، ﴿بَغْيًا﴾: حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة اشتروا، ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾: لأن ينزل أو على أن ينزل، أي حسدوه على أن ينزّل الله، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: الذي هو الوحي، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: وتقتضي حكمته وإرساله، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: فصاروا أحقاء بغضب مترادف، لأنهم كفروا بنبيّ الحق وبغوا عليه، وقيل: كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل: بعد قولهم: عزيرُ ابن الله، وقولهم: «يد الله مغلولة»، وغير ذلك من أنواع كفرهم، ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: مطلق فيما أنزل الله من كلّ كتاب، ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: مقيد بالتوراة، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: قالوا: ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾: منها غير مخالف له، وفيه ردّ لمقالتهم، لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها[(١)]، ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادّعائهم الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوّغ قتل الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: يجوز أن يكون حالاً، أي عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها، وأن يكون اعتراضاً بمعنى: وأنتم قوم عادتكم الظلم، وكرّر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما أمرتم به في التوراة ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾: قولك، ﴿وَعَصَيْنَا﴾/ ٥٠أ أمرك، فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟

---

(١) قال محمود رحمه الله: «أنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذه النكتة بعينها هي الموجب لكفر القدرية على أحد قولي مالك والشافعي والقاضي رضيَ الله عنهم، فإن العقائد الصحيحة السنية متلازمة متوافقة يصدق بعضها بعضاً. فجحد أحدها كفر به ثم كفر بالجميع، نسأل الله تعالى العصمة.

قلت: طابقه من حيث أنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾، ولكن لا سماع طاعة، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾: أي تداخلهم حبه، والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصِّبغ، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾: بيان لمكان الإشراب، كقوله: ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾: [النساء: ١٠]. ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: بسبب كفرهم، ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾: بالتوراة، لأنه ليس في التوراة عبادة العجاجيل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم، كما قال قوم شعيب: ﴿أصلاتك تأمرك﴾ [هود: ٨٧] وكذلك إضافة الإيمان إليهم، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿خَالِصَةً﴾: نصب على الحال من الدار الآخرة، والمراد الجنة، أي سالمة لكم، خاصة بكم، ليس لأحد سواكم فيها حق، يعني: إن صحّ قولكم، لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، و ﴿النَّاسِ﴾: للجنس وقيل: للعهد، وهم المسلمون، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾؛ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب، كما روى عن المبشرين بالجنة ما روى، كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفين في غلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزيّ المحاربين، فقال: يا بنيّ، لا يبالي أبوك على الموت سقط، أم عليه سقط الموت، وعن حذيفة رضي الله عنه أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. (٥٨) يعني: على التمني، وقال عمار بصفين: «الآن ألاقي الأحبة محمداً وحزبه»، (٥٩) وكان كل واحد من

---

٥٨ ـ أخرجه الحاكم (٤/٥٠٢).
وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
قال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه الحاكم من طريق زيد بن سلام عن أبيه عن جده: «أن حذيفة لما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة». انتهى.

٥٩ ـ أخرجه البزار رقم (١٢٦٩٠ ـ كشف).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: =

العشرة يحب الموت ويحنّ إليه، وعن النبي ﷺ ـ: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي» (٦٠) ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد: ﷺ وبما جاء به، وتحريف كتاب الله، وسائر أنواع الكفر والعصيان، وقوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾: من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة ٢٤] فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا، لنقل ذلك[٢] كما نقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ، وليس أحد منهم نقل ذلك. فإن قلت: التمني من أعمال القلوب، وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت: أنهم لم يتمنوا؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه: ليت لي كذا، فإذا قاله قالوا: تمنى، وليت: كلمة التمني، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب، ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا، لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك، فإن قلت: لم يقولوه، لأنهم علموا أنهم لا يصدّقون، قلت: كم حكى

= أخرجه الطبراني، والبزار من رواية ربيعة بن ناجد قال: قال لي عمار يوم صفين: «اليوم ألاقي الأحبة: محمداً وحزبه»، ورواه أبو نعيم في الحلية. من رواية أبي سنان قال: «رأيت عمار بن ياسر يوم صفين دعا بشراب، فأتى بقدح من لبن فشرب منه، ثم قال: صدق الله ورسوله: اليوم أُلاَقِي الأحبة: محمداً وحزبه». انتهى.

٦٠ ـ قال الزيلعي (١/ ٧٥) رقم (٥٤): «غريب بهذا اللفظ».
وأخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٣) رقم (١٥٦٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٨٤) رقم (٩٤١) عن ابن عباس موقوفاً بلفظ: «لو تمنوا الموت أشرق أحدهم بريقه» ا.هـ.
وأخرجه البخاري (٨/ ٥٩٥) كتاب التفسير، باب ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ حديث (٤٩٥٨).
قال الحافظ في الفتح: وقد أخرج ابن مردويه بإسناد ضعيف عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن العباس مثله ا.هـ.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
لم يخرجه. وقد أخرجه الطبري من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ موقوفاً. وأخرج البيهقي في الدلائل من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أن النبي ـ ﷺ ـ قال لليهود: «إن كنتم صادقين في مقالتكم فقولوا: اللهم أمتنا. فوالذي نفسي بيده، لا يقولها رجل منكم إلاّ غص بريقه ومات مكانه. قالوا: فأنزل الله ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وفي البخاري من رواية عبد الكريم الجزري عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال أبو جهل: «إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لو فعل لأخذته الملائكة ـ زاد الإسماعيلي ـ: عياناً. قال ابن عباس: ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ـ ﷺ ـ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً»، وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه مثله. وزاد بعد قوله: «لماتوا»، «ورأوا مقاعدهم من النار». انتهى.

عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الإفتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين / ٥٠ب فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت ولم يبالوا، فكيف يمتنعون من أن يقولوا إنّ التمني من أفعال القلوب وقد فعلناه، مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدّق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خافٍ لا سبيل إلى الإطلاع عليه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تهديد لهم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾: هو من وجد بمعنى علم المتعدي إلى مفعولين في قولهم: وجدت زيداً ذا الحفاظ[1]، ومفعولاه: «هم أحرص»، فإن قلت: لم قال: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ بالتنكير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبيّ «على الحياة، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ﴾: محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس: أحرص من الناس، فإن قلت: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلت: بلى، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد، ويجوز أن يراد: وأحرص من الذين أشركوا، فحذف: لدلالة أحرص الناس عليه، وفيه توبيخ عظيم، لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلاّ الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا ـ لعلمهم بحالهم ـ أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك، وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس، لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز وألف مهرجان، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هو قول الأعاجم: زي هزار سال[2]، وقيل: «ومن الذين أشركوا» كلام مبتدأ، أي ومنهم ناس، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾: على حذف الموصوف، كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾ [الصافات: ١٦٤] والذين أشركوا ـ على هذا ـ مشارٌ به إلى اليهود، لأنهم قالوا: عزير ابن الله، والضمير في: ﴿وَمَا هُوَ﴾: لأحدهم، و ﴿أَن يُعَمَّرَۗ﴾: فاعل «بمزحزحه»، أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره، وقيل: الضمير لما دلّ عليه «يعمر» من مصدره، وأن «يعمر» بدل منه، ويجوز أن يكون «هو»: مبهماً، وأن «يعمر» موضّحه، والزحزحة: التبعيد والإنحاء، فإن قلت: «يودّ أحدهم» ما موقعه؟ قلت: هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الإستئناف. فإن قلت: كيف اتصل لو يعمر بيودّ أحدهم؟ قلت: هو حكاية لودادتهم، و «لو»: في معنى التمني، وكان القياس: لو أعمر، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ كقولك: حلف بالله ليفعلنّ.

---

(١) قوله: «وجدت زيداً ذا الحفاظ» في الصحاح: يقال إنه لذو الحفاظ، وذو محافظة، إذا كانت له أنفة. (ع)

(٢) قوله: «زي هزار سال» زي بالفارسية بمعنى: عِش. وهزار بمعنى: ألف. وسال بمعنى: عام. (ع)

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

روي: أن عبد الله بن صوريا من أحبار «فدك» حاجّ رسول الله ﷺ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي، فقال: جبريل، فقال: ذاك عدوّنا، ولو كان غيره لآمنا بك، وقد عادانا مراراً، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيخربه بختنصّر، فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكيناً، فدفع عنه جبريل وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى /٥١أ أي حق تقتلونه، (٦١) وقيل: أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا. وروي: أنه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وكان ممرّه على مدارس اليهود، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم، فقالوا: يا عمر، قد أحببناك، وإنا لنطمع فيك فقال: والله ما أجيئكم لحبكم، ولا أسألكم لأني شاك في ديني، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم، ثم سألهم عن جبريل؟ فقالوا: ذاك عدوّنا يطلع محمداً على أسرارنا، وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإنّ ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم: وما منزلتهما من الله تعالى قالوا: أقرب منزلة، جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وميكائيل عدوّ لجبريل. فقال عمر: لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوّين، ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر، ومن كان عدواً لهما كان عدّواً لله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فقال النبي ﷺ: لقد وافقك ربك يا عمر. فقال عمر: لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر»، (٦٢) وقرىء: «جبرئيل»، بوزن قفشليل[1]

---

٦١ - قال الحافظ: لم أقف له على سند، وقال الزيلعي (١/ ٧٦) رقم (٥٥): «حديث غريب» ا.هـ.
وذكره الواحدي (١/ ١٧٩ - ١٨٠)، والبغوي (١/ ٩٦).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
هكذا ذكره الثعلبي، والواحدي، والبغوي، فقالوا: روى ابن عباس: «أن حبراً من أحبار اليهود من فدك يقال له عبد الله بن صوريا فذكره»، ولم أقف له على سند. ولعله من تفسير الكلبي عن أبي صالح عنه. انتهى.

٦٢ - أخرجه ابن جرير في التفسير (٢/ ٣٨٤) رقم (٦١٣)، وذكره البغوي (١/ ٩٦) عن قتادة وعكرمة والسدي، وذكره السيوطي في الدر (١/ ١٧٥) مع اختلاف يسير في اللفظ مختصراً.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
=

---

(١) قوله «بوزن قفشليل» في الصحاح: القفشليل المغرفة، فارسي معرب. (ع)

و«جبرئل» بحذف الياء، و«جبريل» بحذف الهمزة، و«جبريل» بوزن قنديل، وجبرالّ بلام شديدة، و«جبرائيل» بوزن جبراعيل، و«جبرائل» بوزن جبراعل، ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة، وقيل معناه: عبد الله، الضمير في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾: للقرآن، ونحو هذا الإضمار ـ أعني إضمار ما لم يسبق ذكره ـ فيه فخامة لشأن صاحبه، حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: أي حفظه إياك وفهمكه، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بتيسيره وتسهيله: فإن قلت: كان حقّ الكلام أن يقال: على قلبي[1]، قلت: جاءت على حكاية كلام الله تعالى كما تكلم به، كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي: من كان عدوّاً لجبريل، فإنه نزله على قلبك، فإن قلت: كيف استقام قوله، «فإنه نزله»: جزاء للشرط[2]؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصدّقاً للكتب بين يديه، فلوا أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم، والثاني: إن عاداه أحد، فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدّقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن

= أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية داود بن أبي هند عن الشعبي، قال: «كان لعمر، فذكره سواه»، وأخرجه الطبري من طريق أسباط عن السدّي. قال في قوله: ﴿**قل من كان عدواً لجبريل...**﴾ الآية قال: «كان لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أرض بأعلى المدينة ـ إلى آخره ـ إلاّ أنه قال فقال عمر: والذي بعثك بالحق لقد جئتك وما أريد إلاّ أن أخبرك». انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: كان حق الكلام أن يقال على قلبي... إلخ». قال أحمد رحمه الله: الحكاية مرة تكون مع التزام اللفظ، ومرة تكون بالمعنى غير متّبعة للفظ، فلعل الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام أن يحكي معنى قول الله تعالى له: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بلفظ المتكلّم ونظير هذا قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم مما يفهم أنه قول الله عزّ وجل لا على سبيل الحكاية عنهم، إذ هم لا يقولون: فأنشرنا، وإنما يقولون: فأنشر، على لفظ الغيبة ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى، لأن معنى قولهم: فأنشر الله، هو معنى قول الله عن ذاته: فأنشرنا، ولا يستتب لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة إلى التكلُّم الذي يسمى التفاتاً، فإن في هذا مزيداً. ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ فأول الكلام يفهم قول موسى وآخره يفهم قول الله تعالى. والطريق الجامع في ذلك ما قررته والله أعلم.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت كيف استقام قوله فإنه نزله جزاء للشرط... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ويكون دخول الفاء في الجزاء على هذا الوجه مستحقاً لسببين: أحدهما أنه جملة اسمية، والآخر أنه ماضٍ صحيح.

ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له، كقولك: إن عاداك فلان فقد آذيته وأسأت إليه، أُفرد الملكان بالذكر[1] لفضلهما كأنهما من جنس آخر، وهو مما ذكر أنّ التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات، وقرىء: ميكال، بوزن قنطار، وميكائيل كميكاعيل، وميكائل كميكاعل، وميكئل كميكعل، وميكئيل كميكعيل. قال ابن جنى: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه/ ٥١ب ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: أراد عدوّ لهم فجاء بالظاهر، ليدل على أنّ الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشدّ العقاب.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟

---

(١) في قوله ـ تعالى ـ: «من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال. . .» الآية. فيه إفراد الملكية بالذكر، وهذا إشارة إلى فن جليل من فنون القول البليغ وهو ذكر الخاص بعد العام، وهو نوع من أنواع الإطناب البلاغي لنكتة يريدها، المتكلم، والباحث في مسارات هذا اللون في كلام الله ورسوله يلحظ أن هذا اللون يفيد: ١ ـ التوكيد ٢ ـ التشريف ٣ ـ الإعظام ٤ ـ التنبيه على خصوصية فن الخاص ٥ ـ التهويل والتفظيع وغير ذلك من المعاني التي يدركها أهل الفروق البلاغي في مقامات هذا الأسلوب.

في الآية التي معنا: تنبيه على خصوصية في «جبريل وميكال» كما شرح ذلك المفسر العلامة. وهذا ما سنراه في قوله ـ تعالى ـ أيضاً ـ

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [من الآية ١٩٧ البقرة] ففيه تخصيص لأولى الألباب بالخطاب لأنهم القابلون لأوامر الله الناهضون بها.

ونرى التهويل والإعظام في هذا اللون عند قوله ـ تعالى ـ.

«كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين».

فذكر «وأغرقنا آل فرعون» مع دخوله في عمومية ما قبله دليل على معنى يقصده الله ـ سبحانه ـ وراء هذا التخصيص، وقد فهم العلماء أن ذلك ما يفيد «التهويل والتفظيع وإعظام الفرق والعذاب الذي نزل بهم».

وفي هذا تخويف لكفار ـ مكة الذين يسيرون على هذا الدرب مع الظالمين ـ.

ومن أراد استيفاء هذا اللون الجميل فليراجع مصنفات البلاغيين.

«ينظر الإيضاح ٣/ ٢٢٤، وما بعدها، المطول للسعد ٢٩٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٣/ ١٩١، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٢/ ٢٩٠، ٤/ ٢٥٢، وروح المعاني للألوسي ٢/ ٨٦، ١٠/ ١٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٩٤، ٤/٥٠٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٨٩٤، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٦١، ٤/ ٤٠، ٢/ ٣١٨، كما ينظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٤/ ٢٩، والنسفي ٢/ ١٠٨، علم المعاني في فتح القدير للشوكاني ـ د. فتحي حجازي ٢/ ٧٠٧ وما بعدها.

(٢) قوله «فما بال الملائكة وهم أشرف» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فالأنبياء أشرف. (ع)

﴿عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: إلا المتمرّدون من الكفرة، وعن الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره، وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها (٦٣) فنزلت، واللام في ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: للجنس، والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب، ﴿أَوَكُلَّمَا﴾: الواو: للعطف على محذوف معناه: أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا: وقرأ أبو السَّمَّال بسكون الواو على أنّ الفاسقون بمعنى الذين فسقوا، فكأنه قيل: وما يكفر بها إلا الذين فسقوا، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة، وقرىء «عوهدوا وعهدوا» واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا، ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ [الأنفال: ٥٦]، والنبذ الرمي بالذمام[1] ورفضه، وقرأ عبد الله «نَقَضَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ»: وقال فريق منهم، لأنّ منهم من لم ينقض، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بالتوراة وليسوا من الدين في شيء، فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به، ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: يعني التوراة، لأنهم بكفرهم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها، وقيل: كتاب الله القرآن، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك[2]، يعني أن علمهم بذلك رصين، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم، مثل لتركهم وإعراضهم عنه، مثل بما يرمى بها وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه، وعن الشعبي: هو بين أيديهم يقرؤنه، ولكنهم نبذوا العمل به، وعن سفيان: أدرجوه في الديباج والحرير وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حلاله ولم يحرّموا حرامه.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟

---

٦٣ - أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٩٨) رقم (١٦٣٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٩٤) رقم (٩٧٦)، وذكره السيوطي في الدر (١/ ١٨١)، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق، حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير عنه بهذا انتهى.

---

(١) قوله «بالذمام» في الصحاح: الذمام الحرمة. (ع)
(٢) قوله «لا يدخلهم فيه شك» لعله علماً لا يدخلهم فيه شك. (ع)

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾

﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾: أي نبذوا كتاب الله واتّبعوا، ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، يعني: واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: على عهد ملكه وفي زمانه، وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دوّنوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان ـ عليه السلام ـ حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه تسخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾: تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به[(١)] سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وسماه كفراً، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾: هم الذين ﴿كَفَرُوا۟﴾، باستعمال / ٥٢أ السحر وتدوينه، ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾: يقصدون به إغواءهم وإضلالهم، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾: عطف على السحر، أي ويعلمونهم ما أنزل على الملكين، وقيل: هو عطف على ما تتلو، أي واتبعوا ما أنزل، ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾: عطف بيان للملكين علمان لهما، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به؛ ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً [من الهزج]:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لاَ لِلشَّرْ ... رِ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ[(٢)]

كما ابتلى قوم طالوت بالنهر، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾

---

(١) قوله «لما بهتت به» أي قالت عليه ما لم يفعله. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) عرفت الشر لا للشر ... ر لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر ... من الناس يقع فيه

لأبي نواس. ومعنى «لكن» هنا. للإضراب الانتقالي. ويمكن أن يتوهّم من قوله «لا للشر» أنه لم يعرف الشر لأجل شيء من متعلقاته رأساً فدفع هذا التوهُّم بقوله: لكن عرفته لتوقيه، فهي للاستدراك. أي عرفته لأجل التحفُّظ منه. و «من الناس» بيان لمن مؤكد للعموم، ويقع جزم في جواب الشرط، أي من جهل الشر وقع فيه، كالمار إذا جهل البئر المغطاة في طريقه. واستروحوا بذلك لجواز تعلُّم نحو السحر للتمكن من تجنبه. ويجوز أن «من الناس» صفة للشر، و «من» بيانية أو ابتدائية. ويروى «من الخير» أي من لم يميز الشر من الخير يقع في الشر.

[البقرة: ٢٤٩]، وقرأ الحسن: «على الملكين»: بكسر اللام، على أنّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببابل: وما يعلم الملكان أحداً حتى ينبّهاه وينصحاه ويقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾: أي ابتلاء واختبار من الله، ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾: فلا تتعلم معتقداً أنّه حق فتكفر، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾: الضمير لما دلّ عليه من أحد، أي فيتعلم الناس من الملكين، ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالنفث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز والخلاف[١] ابتلاء منه، لا أنّ السحر له في نفسه بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله وربما لم يحدث ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ لأنهم يقصدون به الشر، وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية، ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أي استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله، ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾: من نصيب، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾: أي باعوها، وقرأ الحسن: الشياطون، وعن بعض العرب: بستان فلان حوله بساتون، وقد ذكر وجهه فيما بعد، وقرأ الزهري: «هاروتُ وماروتُ»: بالرفع على: هما هاروت وماروت، وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت ـ وهو الكسر كما زعم بعضهم ـ لانصرفا، وقرأ طلحة «وما يعلمان» من أعلم، وقرىء: «بين المرء»: بضم الميم وكسرها مع الهمز، والمرّ، بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف[٢]، كقولهم: فرج، وإجراء الوصل مجرى الوقف، وقرأ الأعمش: وَمَا هُمْ بضاريّ، بطرح النون والإضافة إلى أحد والفصل بينهما بالظرف، فإن قلت: كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن؟ قلت: جعل الجار جزءاً[٣] من المجرور[٤]، فإن قلت:

---

(١) قوله «الفرك والنشوز» في الصحاح الفرك بالكسر البغض ولا يستعمل إلا بين الزوجين وقوله لا أن السحر . . . إلخ: مبني على مذهب المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له ولا تأثير له. وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره وإن كان تأثير كل شيء في غيره لا يكون إلا بإذنه تعالى وهذا هو ظاهر الكتاب وظاهر السنة. (ع)

(٢) قوله «على تقدير التخفيف والوقف» أي في لغة من وقف بالتضعيف. (ع)

(٣) قوله «قلت جعل الجار جزءاً» ونظيره لا أبالك. (ع)

(٤) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا التخريج ليس بجيد؛ لأن الفصل بين المتضايفين بالظرف والمجرور من ضرائر الشعر، وأقبح من ذلك ألا يكون ثم مضاف إليه؛ لأنه مشغول بعامل جر فهو المؤثر فيه لا ـ الإضافة، وأما جعله حرف الجر جزءاً من المجرور فليس بشيء؛ لأن هذا مؤثر فيه وجزء الشيء لا يؤثر فيه. وفي قول الشيخ نظر؛ أما كون الفصل من ضرائر الشعر فليس كما قال؛ لأنه قد فصل بالمفعول به في قراءة ابن عامر فبالظرف وشبهه أولى، وأما قوله: «لأن جزء الشيء لا يؤثر فيه» فإنما ذلك في الجزء الحقيقي وهذا إنما قال: ننزله منزلة الجزء ويدل على ذلك قول النحويين: الفعل كالجزء من الفاعل، ولذلك أنث لتأنيثه، ومع ذلك فهو مؤثر فيه. انتهى. الدر المصون.

كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾: على سبيل التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾: برسول الله والقرآن، ﴿وَاتَّقَوْا﴾: الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب /٥٢ب الشياطين، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، وقرىء: «لَمَثْوَبَةٌ»، كمشورة ومشورة، ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: أنّ ثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم، فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الإسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلت: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم[1] لذلك، فإن قلت: فهلا قيل لمثوبة الله خير؟ قلت: لأن المعنى: لشيء من الثواب خير لهم، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾: تمنياً[2]، لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل: وليتهم آمنوا، ثم ابتدىء لمثوبة من عند الله خير، كان المسلمون يقولون لرسول الله ـ ﷺ ـ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله، أي راقبنا وانتظرنا، وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية، وهي «راعينا» فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا، افترصوه وخاطبوا به الرسول ـ ﷺ ـ وهم يعنون به تلك المسبة، فنهي المؤمنون عنها وأُمروا بما هو في معناها، وهو: ﴿انظُرْنَا﴾ من نظره إذا انتظره، وقرأ أُبيّ: «انظرنا» من النظرة، أي أمهلنا حتى نحفظ وقرأ عبد الله بن مسعود: «راعونا»، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير: وقرأ الحسن: «راعناً»، بالتنوين من الرعن وهو الهوج، أي: لا تقولوا قولاً راعنا منسوباً إلى الرعن رعيناً، كدارع ولابن،

---

(١) قال السمين الحلبي: أي: ليتهم آمنوا على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له؛ فعلى هذا لا يلزمُ أن يكون لها جواب؛ لأنها قد تجاب بالفاء حينئذٍ، وفي كلامه اعتزال. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود رحمه الله: «ويجوز أن يكون قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ تمنياً. . . إلخ» قال أحمد رحمه الله: التمني مجاز عن إرادة الله تعالى لإيمانهم وتقواهم من طراز تفسيره للعل بالإرادة والرد عليه على سبيل ثم. قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «لم يعهد في كلام العرب وقوع الجملة الابتدائية جوابًا لـ «لو» إنما جاء هذا المختلف في تخريجه، ولا تثبت القواعد الكلية بالمحتمل. انتهى. الدر المصون.

لأنه لما أشبه قولهم: راعينا، وكان سبباً في السب اتصف بالرعن ﴿وَاسْمَعُواْ﴾: وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ـ ﷺ ـ ويلقي عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الإستعانة وطلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا، أو واسمعوا ما أمرتم به بجدّ حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه، تأكيداً عليهم ترك تلك الكلمة، وروي: أن سعد بن معاذ سمعها منهم، فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ـ ﷺ ـ لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها فنزلت. (٦٤) ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾: ولليهود الذين تهاونوا برسول الله ـ ﷺ ـ وسبوه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: من الأولى للبيان، لأنّ الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب، والمشركون؛ كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، والثانية: مزيدة لاستغراق الخير، والثالثة لابتداء الغاية، والخير الوحي، وكذلك الرحمة كقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، والمعنى: أنّهم يرون أنفسهم أحقّ بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبّون أن ينزّل عليكم شيء من الوحي، ﴿وَاللَّهُ﴾ يختصّ بالنبوة، ﴿مَن يَشَاءُ﴾: ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: إشعار بأنّ إيتاء النبوّة من الفضل العظيم؛ كقوله/٥٣أ تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٧].

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

رُوي أنهم طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم

---

٦٤ ـ أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة؛ كما ذكره السيوطي في الدر (١/ ١٩٥)، وهو من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
وقال الحافظ: والسدي هذا الصغير متروك وكذا شيخه. انتهى.

عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً؟ فنزلت، وقرىء: «ما ننسخ من آية»: وما «نُنسخ» بضم النون، ومن أنسخ، أو ننسأها، وقرىء: «ننسها» و«ننسها» بالتشديد، و«تنسها»، و«تنسها»، على خطاب رسول الله ـ ﷺ ـ، وقرأ عبد الله: «ما ننسك من آية أو ننسخها» وقرأ حذيفة: «ما ننسخ من آية أو ننسكها»، ونسخ الآية: إزالتها بإبدال أخرى مكانها وإنساخها، الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل ـ عليه السلام ـ بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها، ونسؤها، تأخيرها وإذهابها، لا إلى بدل، وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب، والمعنى أنّ كلّ آية يذهب بها على ما توجبه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل، ﴿نَأْتِ﴾: بآية خير منها للعباد، أي بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير، ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب ما يصلحكم، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ، لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومدبرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقررهم على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم به وينزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى ـ عليه السلام ـ من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالاً عليهم كقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾، [الأعراف: ١٣٨]، ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، [النساء: ١٥٣]، وغير ذلك، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة، وشك فيها، واقترح غيرها، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: روي: أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم يروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً. ثم أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ وأخبراه فقال: «أصبتما خيراً وأفلحتما، (٦٥) فنزلت». فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[1]؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بـ «وَدَّ»، على

---

٦٥ ـ قال الحافظ «لم أجده مسنداً وهو في تفسير الثعلبي بلا سند ولا راو» ا.هـ.
وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٧٩): «غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند ولا راوٍ».

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: بم تعلق قوله من عند أنفسهم... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: =

معنى أنهم تمنوا أن ترتدوا عن دينكم وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم، لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودّوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق، فكيف يكون تمنيهم من قبل الحق؟ وإما أن يتعلق/ ٥٣ب بحسدا، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل أنفسهم، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾: فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذي هو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو يقدر على الانتقام منهم، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما، ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: تجدوا ثوابه عند الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: عالم لا يضيع عنده عمل عامل.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾

الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾: لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأنّ السامع يردّ إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ونحوه: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]، والهود: جمع هائد، كعائذ وعُوذ، وبازل وبُزل، فإن قلت: كيف قيل كان هوداً على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ قلت: حمل الاسم على لفظ «من» والخبر على معناه، كقراءة الحسن إلا من هو صالو الجحيم، وقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الجن: ٢٣]، وقرأ أبيّ بن كعب: «إلا من كان يهودياً أو نصرانياً». فإن قلت: لم قيل: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [الجن ٢٣] وقولهم: «لن يدخل الجنة» أمنية واحدة[1]؟ قلت: أشير بها إلى الأماني المذكورة وهو أمنيتهم[2] أن لا ينزل على المؤمنين

= يبعد الوجه الثاني دخول عند. ويقرب الأول قوله تعالى ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم قيل تلك أمانيهم وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإن البرهان المطلوب منهم ههنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم. ويحقق هذا قوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فإنما يعني الجنة ونعيمها، رداً عليهم في نفي غيرهم عن دخولها ففي هذا دليل بين على أن الأماني المشار إليها ليس إلا ما طولبوا بإقامة البرهان على صحته وهو أمنية واحدة والله أعلم. والجواب القريب: أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها في نفوسهم جمعت، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم، بالغة =

خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردّوهم كفاراً، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم: أي تلك الأماني الباطلة أمانيهم، وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: متصل بقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، و ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾: اعتراض، أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، يريد أن أمانيهم جميعاً في البطلان مثل أمنيتهم هذه، والأمنية أفعولة من التمني، مثل الأضحوكة والأعجوبة، ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وأن كل قول لا دليل عليه، فهو باطل غير ثابت، و «هات»: صوت بمنزلة هاء، بمعنى أحضر، ﴿بَلَىٰ﴾: إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: في عمله[1] ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾: الذي يستوجبه. فإن قلت: «من أسلم وجهه» كيف موقعه؟ قلت: يجوز أن يكون ﴿بَلَىٰ﴾ رداً لقولهم، ثم يقع، «من أسلم»: كلاماً مبتدأ، ويكون «من»: متضمناً لمعنى الشرط، وجوابه: «فله أجره»، وأن يكون «من أسلم»: فاعلاً لفعل محذوف، أي بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله «فله أجره»: كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾

﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: أي على شيء يصح ويعتدّ به، وهذه مبالغة عظيمة، لأن المحال

= منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحداً. ونظيره قولهم: معاً جياع، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد، لأن موصوفها واحد تأكيداً لثبوتها وتمكنها. وهذا المعنى أحد ما روي في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)﴾ فإنه جمع قليلاً وقد كان الأصل إفراده، فيقال لشرذمة قليلة كقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها. ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه نقلاً مجازياً بديعاً، فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله الموفق.

(٢) قوله «وهو أمنيتهم» لعله: وهي. (ع)

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا منه جنوح إلى الاعتزال» انتهى. الدر المصون.

والمعدوم/ ٥٤أ يقع عليهما اسم الشيء[(١)] ، فإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه، فقد بولغ في ترك الإعتداد به إلى ما ليس بعده[(٢)] ، وهذا كقولهم: أقل من لا شيء، ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: الواو للحال، والكتاب للجنس، أي قالوا ذلك، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدّق للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً: ﴿كَذَلِكَ﴾: أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج، ﴿قَالَ﴾: الجهلة، ﴿الَّذِينَ﴾: لا علم عندهم، ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم، قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم، وروي: أن وفد نجران لمّا قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود، فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه، وكفروا بموسى والتوراة، (٦٦) ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾: بين اليهود والنصارى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه، وعن الحسن: حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار ﴿أَن يُذْكَرَ﴾: ثاني مفعولي منع، لأنك تقول: منعته كذا، ومثله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ﴾، [الاسراء: ٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا﴾ [الكهف: ٥٥] ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن، ولك أن تنصبه مفعولاً له بمعنى كراهة أن يذكر، وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأن مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا، وقيل: أراد به منع المشركين رسول الله ـ ﷺ ـ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية. فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع

---

٦٦ ـ أخرجه ابن جرير (٢/ ٥١٣) رقم (١٨١١)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) رقم (١١١٠)، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٠) رقم (٦٢٥)، وذكره السيوطي في الدر (١/ ٢٠٣).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
أخرجه الطبري من رواية ابن إسحاق، حدثني محمد بن أبي محمد، حدثني سعيد أو عكرمة عن ابن عباس به، وفيه: «أن قائل اليهود اسمه رافع بن حريملة». انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «هذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وتفسيره الشيء مخالف لفريقي أهل السنة والبدعة، فإنه عند أهل السنة قاصر على الموجود وعند المعتزلة يطلق على الموجود وعلى المعدوم الذي يصح وجوده، فليس متناولاً للحال بحال عندهما، وقد تقدم له مثله.

(٢) قوله «إلى ما ليس بعده» لعل المعنى: إلى حد ليس بعده حد. (ع)

المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، وكما قال الله عز وجل: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ [الهمزة: ١] والمنزول فيه الأخنس بن شريق، ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾: بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان، وينبغي أن يراد بـ «من»: منع العموم كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المانعون، ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾: أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله، ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾: على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوّهم، وقيل: ما كان لهم في حكم الله، يعني: أن الله/ ٥٤ب قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقوّيهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. روى: أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً / مسارقة، وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا أنهك ضرباً وأبلغ إليه في العقوبة، وقيل: نادى رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا لا يحجنّ بعد هذاالعام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عُريان» (٦٧) وقرأ أبو عبد الله: «إلا خيفاً»، وهو مثل صيم[(١)]، وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد: فجوّزه أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ، ولم يجوزه مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره، وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿خِزْيٌ﴾: قتلٌ وسبيٌ، أو ذلة بضرب الجزية، وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية وورومية وعمورية.

---

٦٧ ـ أخرجه البخاري (٤/ ٢٨٧) كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك، حديث (١٦٢٢).

ومسلم (٥/ ١٢٦) كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان حديث (١٣٤٧).

وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٢١٠) تفسير سورة مريم: وعزاه أيضاً لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

---

(١) قوله «وهو مثل صيم» في الصحاح: قوم صوم وصيم. (ع)

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾: أي بلاد المشرق والمغرب، والأرض كلها لله هو مالكها ومتوليها، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾: ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني تولية وجوهكم شطر القبلة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة ١٥٠]، ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: أي جهته التي أمر بها ورضيها؛ والمعنى: أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص [إسكانها] في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾: الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم، ﴿عَلِيمٌ﴾: بمصالحهم، وعن ابن عمر نزلت في صلاة المسافر على الراحلة: أينما توجهت، وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا، وقيل: معناه: فأينما تولوا للدعاء والذكر ولم يرد الصلاة، وقرأ الحسن: «فأينما تُولوا»، بفتح التاء من التولي يريد: فأينما توجهوا القبلة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾: وقرىء بغير واو، يريد الذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيه له عن ذلك وتبعيد، ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: هوْ خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: منقادون، لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، والتنوين في ﴿كُلٌّ﴾: عوض من المضاف إليه، أي كل ما في السمٰوات والأرض، ويجوز أن يراد كلّ من جعلوه لله ولداً له قانتون، مطيعون، عابدون، مقرون بالربوبية، منكرون لما أضافوا إليهم، فإن قلت: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله قانتون[1]؟ قلت: هو كقوله: سبحان ما سخركنّ لنا، وكأنه جاء بـ (ما) دون (من)، تحقيراً لهم، وتصغيراً لشأنهم، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾ [الصافات: ١٥٨].

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا بعيد جداً؛ لأن المجعول ولداً لم يجر له ذكر، ولأن الخبر يشترك فيه المجعول «ولداً» وغيره. قوله: «لم يجر له ذكر» بل قد جرى ذكره فلا بعد فيه. انتهى. الدر المصون.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

/ ٥٥أ يقال: بدع الشيء فهو بديع؛ كقولك: بزع الرجل[١] فهو: بزيع، و﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أي: بديع سمٰواته وأرضه، وقيل: البديع بمعنى المبدع، كما أنّ السميع في قول عمرو: [الوافر]

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ .... [٢]

بمعنى المسمع، وفيه نظر، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: من كان التامّة، أي احدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام، وتمثيل، ولا قول ثم، كما لا قول في قوله [من الرجز]:

إذْ قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ: الْحَقِي[٣]

وإنما المعنى: أنّ ما قضاه من الأمور، وأراد كونه؛ فأنما يتكوّن، ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أنّ المأمور المطيع الذي يؤمر، فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، أكد بهذا استبعاد الولادة، لأنّ من كان بهذه الصفة من القدرة، كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها، وقرىء: «بديعِ السمٰوات» مجروراً على أنه بدل من الضمير في له، وقرأ المنصور بالنصب على المدح.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وقال الجهلة من المشركين، وقيل من أهل الكتاب، ونفى

---

(١) قوله «بزع الرجل» بزع بالزاي كظرف وزناً ومعنى. أفاده الصحاح وصرح كقولك بأنه لا يوصف به الأحداث. (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ١٠ فراجعه إن شئت اهـ.

(٣) إذْ قالت الأنساع للبطن: الْحَقي   قدماً فآضت كالفنيق المحنق

لأبي النجم العجلي. والنسع ـ بالكسر ـ: حزام عريض يشد به وسط الدابة وستر الهودج. والحق: فعل أمر، أي التصق يا بطن بالظهر وانضمر. وقدوماً: نصب على المصدر بمحذوف أو بما قبله على أنه مفعول له. وآض يئيض أيضاً: إذا صار يصير، أو رجع يرجع، أي صارت الناقة كالفنيق. ويروى: فأحنت، أي حقدت واغتاظت الناقة، وأصله بكسر الحاء فسكن تخفيفاً كما تقدم في ضجر ودبر. والفنيق: الفحل المنعم المكرم. يقال: أفنقه، إذا نعمه. وجارية فنقة: ناعمة. والمحنق: المغيظ، من الحنق وهو الحقد والغيظ. ويروى «إذ قالت» بدل «إذا قالت». والحق: بوصل الهمزة وقطعها. والمحنق بسكون الحاء، فيكون من الرجز، لا من الطويل. وقدم قدماً، كنصر نصراً، إذا تقدم. والظاهر أن هذه الرواية هي الصواب لكثرة رجز أبي النجم. وإثبات القول للأنساع ومخاطبتها البطن من باب التمثيل. والمعنى أنه شد عليها أدوات السفر فاغتاظت غيظاً شديداً، كالفحل المكرم الذي غاظه غيره.

عنهم العلم؛ لأنهم لم يعملوا به، ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلّم موسى؟ استكباراً منهم وعتوّاً، ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾: جحوداً، لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى؛ كقوله: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٣]، ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ﴾، ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها، والإذعان لها، والإكتفاء بها عن غيرها.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾: لأن تبشر وتنذر لا لتجبر على الإيمان، وهذه تسلية لرسول الله - ﷺ - وتسرية عنه، لأنه كان يغتم ويضيق صدره؛ لإصرارهم وتصميمهم على الكفر، ولا نسألك: ﴿عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك في دعوتهم، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقرىء: «ولا تَسْأَلْ» على النهي. روي أنه قال: «ليت شعري ما فعل أبواي»، فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والإهتمام بأعداء الله، وقيل: معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بلية، فيقال لك: لا تسأل عنه، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره، فلا تسأل، وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد الله: «ولن تسأل»، وقراءة أبيّ: «وما تسأل».

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

كأنهم قالوا: لن نرضى عنك، وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا؛ إقناطاً منهم لرسول الله - ﷺ - عن دخولهم في الإسلام، فحكى الله عزّ وجلّ كلامهم، ولذلك قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾: على طريقة إجابتهم عن قولهم، يعني أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق، والذي يصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون/ ٥٥ب إلى اتباعه ما هو بهدى؛ إنما هو هوى، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع، ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: هم مؤمنو أهل الكتاب، ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: لا يحرّفونه، ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ﴾: بكتابهم دون المحرفين، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾: من المحرفين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾: اختبره بأوامر ونواه، واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار[1] أحد الأمرين: ما يريد الله، وما يشتهيه العبد، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك، وقرأ أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ وهي قراءة ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «إبراهيمُ ربَّه»: رفع إبراهيم ونصب ربه، والمعنى: أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهنّ أم لا؟ فإن قلت: الفاعل في القراءة المشهورة يلي الفعل في التقدير، فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر، قلت: الإضمار قبل الذكر أن يقال: ابتلى ربه إبراهيم، فأما ابتلى إبراهيم ربه، أو ابتلى ربه إبراهيم، فليس واحداً منهما بإضمار قبل الذكر، أما الأوّل: فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكراً ظاهراً، وأما الثاني: فإبراهيم فيه مقدّم في المعنى، وليس كذلك: ابتلى ربه إبراهيم، فإن الضمير فيه قد تقدم لفظاً ومعنى فلا سبيل إلى صحته، والمستكن في ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى: فقام بهنّ حق القيام وأداهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوان، ونحوه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم ٣٧] وفي الأخرى لله تعالى بمعنى: فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً، ويعضده ما روي عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة ١٢٨]، ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة ١٢٩]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة ١٢٧]، فإن قلت: ما العامل في إذ؟ قلت: إما مضمر نحو: واذكر إذ ابتلى أو إذ ابتلاه كان كيت وكيت، وإما: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ﴾، فإن قلت: فما موقع قال؟ قلت: هو على الأوّل استئناف، كأنه قيل: فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات؟ فقيل: قال: إني جاعلك للناس إماماً، وعلى الثاني

---

(١) قوله «تمكينه عن اختيار» لعله من.

جملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون بياناً لقوله: (ابتلى)، وتفسيراً له، فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام قبل ذلك في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ [البقرة ١٣١]، وقيل في الكلمات: هنّ خمس في الرأس: الفرق، وقص الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق، وخمس في البدن: الختان، والإستحداد، والإستنجاء، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وقيل: ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً: عشر في براءة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وعشر في المؤمنون: و﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾/ ٥٦أ [المعارج: ٣٤]، وقيل: هي مناسك الحج، كالطواف، والسعي، والرمي، والإحرام، والتعريف، وغيرهنّ، وقيل: ابتلاه بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان، وذبح ابنه، والنار، والهجرة، والإمام: اسم من يؤتم به على زنة الآله، كالإزار لما يؤتزر به، أي يأتمون بك في دينهم، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾: عطف على الكاف، كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي، كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: وقرىء: «الظالمون»، أي من كان ظالماً من ذرّيتك. لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم، وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته؛ ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة، وكان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن عليّ ـ رضوان الله عليهما ـ، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمي بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه، وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل، فقال: ليتني مكان ابنك، وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ آجره لما فعلت، وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم: و﴿ٱلْبَيْتَ﴾: اسم غالب للكعبة، كالنجم للثريا، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾: مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه أي يثوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم، ﴿وَأَمْنًا﴾: موضع أمن، كقوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ولأن الجاني يأوي إليه فلا يتعرض له حتى يخرج، وقرىء: «مثابات»، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج ٢٥]، ﴿وَٱتَّخِذُوا۟﴾: على إرادة القول، أي: وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه، وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى ـ يريد

أفلا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركاً به وتيمناً بموطىء قدم إبراهيم ـ فقال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت»، (٦٨) وعن جابر بن عبد الله: «أنّ رسول الله ﷺ استلم الحجر ورمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة، حتى إذا فرغ، عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين، وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (٦٩) وقيل: مصلّى مدعى، ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه أثر قدميه، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وهو الموضع الذي يسمّى مقام إبراهيم، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل المطلب بن أبي وداعة/٥٦ب: هل تدري أين كان موضعه الأوّل؟ قال: نعم، فأراه موضعه اليوم، وعن عطاء ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: عرفة والمزدلفة والجمار، لأنه قام في هذه المواضع ودعا فيها، وعن النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقرىء: «واتخذوا»: بلفظ الماضي عطفا على «جعلنا»: أي واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به

---

٦٨ ـ قال الزيلعي (١/ ٨٠):
«غريب بهذا اللفظ» ا.هـ.
وعزاه الحافظ في «تخريج الكشاف» إلى أبي نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر: «أن النبي ـ ﷺ ـ أخذ بيد عمر ـ رضي الله عنه ـ فمر على المقام فقال له: يا نبي الله، هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم، قال: ألا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ـ الآية.
وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ «وافقني ربي في ثلاث قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾... إلخ.
أخرجه البخاري (٩/ ٢٠) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ حديث (٤٤٨٣)، وأطرافه في البخاري (٤٠٢، ٤٧٩٠، ٤٩١٦)، ورواه الترمذي (٥/ ٢٠٦) كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٥٩، ٢٩٦٠).
وابن ماجه (١/ ٣٢٢) كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة حديث (١٠٠٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢٤، ٣٦ ـ ٣٧)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٣١٩) رقم (٦٨٩٦)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٨٩) رقم (٣٧٨٠).
٦٩ ـ أخرجه مسلم (٢/ ٩٢١) كتاب الحج: باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة حديث (٢٣٦/ ١٢٦٣)، (٢/ ٨٨٦ ـ ٨٩٢) كتاب الحج: باب حجة النبي ـ ﷺ ـ حديث (١٤٧/ ١٢١٨)، وأبو داود (٢/ ٤٥٥ ـ ٤٦٤) كتاب المناسك باب صفة حجة النبي ـ ﷺ ـ حديث (١٩٠٥)، والترمذي (٣/ ٢١٢) كتاب الحج: باب ما جاء من الحجر إلى الحجر حديث (٨٥٧)، والنسائي (٥/ ٢٣٠) كتاب الحج: باب الرمل من الحجر إلى الحجر، وابن ماجة (٢/ ١٠٢٢) كتاب المناسك: باب حجة رسول الله ـ ﷺ ـ حديث (٣٠٧٤).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:
هكذا ذكره والذي في صحيح مسلم في الحديث الطويل في صفة الحج، «أنه قرأ الآية لما فرغ من الطواف ثم صلى». انتهى.

وإسكان ذرّيته عنده قبلةً يصلّون إليها، ﴿عَهِدْنَآ﴾: أمرناهما، ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾: بأن طهرا، أو أي طهرا، والمعنى طهراه من الأوثان، والأنجاس، وطواف الجنب، والحائض، والخبائث كلها، أو أخلصاه لهؤلاء لا يغشه غيرهم، ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾: المجاورين، الذين عكفوا عنده، أي أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين، ويجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين يعني القائمين في الصلاة، كما قال: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، والمعنى: للطائفين والمصلين، لأن القيام والركوع والسجود هيآت المصلي.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

أي: اجعل هذا البلد أو هذا المكان، ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾: ذا أمن، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. أو آمنا من فيه، كقوله: ليل نائم، و﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾: بدل من أهله، يعني وارزق المؤمنين من أهله خاصة، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾: عطف على من آمن كما عطف، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾: على الكاف في جاعلك[1] فإن قلت: لم خصّ إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ المؤمنين حتى ردّ عليه؟ قلت: قاس الرزق على الإمامة فعرّف الفرق بينهما؛ لأن الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق وإلزاماً للحجة له، والمعنى: وأرزق من كفر فأمتعه، ويجوز أن يكون ﴿وَمَن كَفَرَ﴾: مبتدأ متضمناً معنى الشرط، وقوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾: جواباً للشرط، أي ومن كفر فأنا أمتعه، وقرىء: فأمتعه فأضطره[2] فألزه إلى عذاب النار، لزّ المضطر الذي لا يملك الامتناع مما اضطر إليه، وقرأ أبيّ: فنمتعه قليلاً ثم نضطره، وقرأ يحيى بن وثاب: فإضطره، بكسر الهمزة، وقرأ ابن عباس: فأَمْتِعْهُ قليلاً ثم اضطرَّه، على لفظ الأمر، والمراد: الدعاء من إبراهيم دعا ربّه بذلك، فإن قلت: فكيف تقدير الكلام على هذه القراءة؟ قلت: في (قال): ضمير إبراهيم، أي قال إبراهيم بعد مسألته

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ فإن هذه الحروف قد أدغمت في غيرها، أدغم أبو عمرو الداني اللام في: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ والضاد في الشين: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ والشين في السين: ﴿ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ وأدغم الكسائي الفاء في الباء: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ وحكى سيبويه أن: «مضجعاً» أكثر فدل على أن: «مطجعاً كثيراً».
وقرأ يزيد بن أبي حبيب: «أضطره» بضم الطاء كأنه للإتباع. وقرأ أبي: «فنمتعه ثم نضطره» بالنون. واضطر افتعل من الضرّ وأصله: اضترر فأبدلت التاء طاء؛ لأن تاء الافتعال تبدل طاء بعد حروف الإطباق، وهو معتد وعليه جاء التنزيل. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «فأضطره» التلاوة: ثم أضطره. (ع)

اختصاص المؤمنين بالرزق: ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أَضطره، وقرأ ابن محيصن: فأطره، بإدغام الضاد في الطاء كما قالوا: اطجع، وهي لغة مرذولة؛ لأنّ الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها، ولا تضغم هي فيما يجاورها وهي حروف «ضم شفر».

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿يَرْفَعُ﴾: حكاية حال ماضية، و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة، وهي الأساس، والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبة، ومعناها الثابتة، ومنه قعّدك الله، أي: أسأل الله أن يقعدك أي يثبتك، ورفع الأساس: البناء[1] عليها، لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر، ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء[2]، لأنّ كل ساف/٥٧أ قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد: رفعها بالبناء، لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السّافات، ويجوز أن يكون المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت ـ أي استوطأ ـ يعني جعل هيئته القاعدة المستوطئة مرتفعة عالية بالبناء، وروي: أنه كان مؤسساً قبل إبراهيم فبنى على الأساس، وروي: أن الله تعالى أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد: شرقي وغربي، وقال لآدم ـ عليه السلام ـ: أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي، فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشياً، وتلقته الملائكة فقالوا: بَرَّ حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام (٧٠)

---

٧٠ ـ قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:
«أخرجه الفاكهي في كتاب مكة من رواية الضحاك هو ابن مزاحم. قال: قال حذيفة: وسلمان الفارسي: «سمعنا رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: إن الله أنزل البيت من ياقوتة حمراء نزلت به الملائكة مع آدم، فنزلت به في الحرم، وترك آدم في الهند في جبل يقال له: وأشب بأرض الهند، وترك إبليس بالحرم، فحوّل الله إبليس إلى أرض الهند، وحوّل آدم إلى الحرم. . . الحديث، وفي إسناده ضعف. وانقطاع ورواه أيضاً من طريق ابن إدريس عن أبيه عن عطاء أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سأل كعباً قال: أخبرني عن بناء هذا البيت ما كان أمره؟ فقال: إن هذا البيت أنزله الله من السماء ياقوتة حمراء مجوفة مع آدم. وفي رواية النهاس بن قهم: سمعت عطاء يقول: قال آدم: يا =

---

(١) قوله «ورفع الأساس البناء» لعله الأسس ـ بضمتين. (ع)

(٢) قوله «المراد بها سافات البناء» قوله «سافات» عبارة أبي السعود. والفخر «ساقات» بالقاف بدل الفاء. والصواب أنه بالفاء كما في الصحاح في باب الفاء: الساف: كل عرق من الحائط. (ع)

وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة، فهو البيت المعمور، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببنائه وعرّفه جبريل مكانه، وقيل: بعث الله سحابةً أظلته، ونودي: أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص، وقيل: بناه من خمسة أجبل طورسينا، وطورزيتا، ولبنان، والجودي، وأسسه من حراء، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء، وقيل: تمخض أبو قبيس فانشق عنه، وقد خبىء فيه في أيام الطوفان، وكان ياقوتة بيضاء من الجنة، فلما لمسته الحيض في الجاهلية اسودّ، وقيل: كان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، ﴿رَبَّنَا﴾: أي يقولان ربنا، وهذا الفعل في محل النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا، ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾: لدعائنا، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بضمائرنا ونياتنا، فإن قلت: هلا قيل: قواعد البيت، وأي فرق بين العبارتين؟ قلت: في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين، ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: مخلصين لك أوجهنا، من قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] أو مستسلمين، يقال: أسلم له، وسلم، واستسلم، إذا خضع وأذعن، والمعنى: زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك، وقرىء: «مسلمين» على الجمع، كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنها منه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾: واجعل من ذرّيتنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، و﴿مِنَ﴾: للتبعيض أو للتبيين، كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ [النور: ٥٥]. فإن قلت: لم خصّا ذرّيتهما بالدعاء؟ قلت: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة، ﴿قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، ولأنّ أولاد الأنبياء إذا صلحوا، صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير؛ ألا ترى أن المقدّمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد، كيف يتسببون لسداد من وراءهم؟ وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ ﴿وَأَرِنَا﴾: منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين، أي وبصرنا متعبداتنا في الحج، أو وعرفناها، وقيل: مذابحنا، وقرىء: وأرْنا/ ٥٧ب بسكون الراء قياساً على فخذ في فخذ، وقد استرذلت؛ لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها، فإسقاطها

= رب أين توجهني؟ قال: تبني لي بتهامة بيتاً مما يلي البحر يطاف حوله، كما تطوف الملائكة حول عرشي. ويصلى عنده كما تُصلي الملائكة عند عرشي. فأقبل نحو البيت. مما يلي الصفا. فطاف بالبيت وصلّى عنده. قال النهاس: وحدّثني عقيل على بن سفيان. حدثنا عطاء عن عبد الله بن عمرو بمثله وقال الفاكهي في كتاب مكة أيضاً: حدثنا ابن عمرو، حدثنا سفيان عن ابن أبي لبيد قال «حج آدم فتلقته الملائكة فقالوا: أبر نسكك. فقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام» وهكذا هو في جامع سفيان بن عيينة. انتهى.

إجحاف، وقرأ أبو عمرو بإشمام الكسرة، وقرأ عبد الله: وأرهم مناسكهم، ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾: ما فرط منا[1] من الصغائر أو استتاباً لذريتهما، ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾: في الأمة المسلمة، ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: من أنفسهم، ورُوِيَ أنه قيل له: قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ وَهُوَ فِي آخِرِ الزَّمانِ، فَبَعَثَ الله فِيهِمْ مُحَمّداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى أَخي عِيسَى وَرُؤْيَا أُمّي» (٧١). ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾: يقرأ عليهم، ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل

----

٧١ ـ رُوي من حديث العرباض بن سارية وأبي أمامة.
أما حديث العرباض بن سارية:
قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين، وإنَّ آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، أنه خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام.
أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣١٣) رقم (٦٤٠٤) واللفظ له.
ورواه أحمد (٤/ ١٢٧، ١٢٨).
والحاكم (٢/ ٦٠٠).
والطبراني في معجمه (١٨/ ٢٥٢) رقم (٦٢٩).
والبزار (٣/ ١١٣) رقم (٢٣٦٥ ـ كشف).
وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٨٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٣٠)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٠) رقم (٣٥٢٠ ـ بتحقيقنا).
أما حديث أبي أمامة:
فأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٢)، من طريق أبي النضر ثنا الفرج بن فضالة ثنا لقمان بن عامر قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا نبي الله، ما كان أول بدء أمرك، قال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٨٣) للطيالسي، والبيهقي في الشعب.
وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٥):
«رواه أحمد وإسناده حسن، وله شواهد تقويه، ورواه الطبراني» ا.هـ.
قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:
أخرجه أحمد والبزار وابن حبان. والطبراني والحاكم من حديث العرباض بن سارية: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول «إني عبد الله وخاتم النبيين، وأبي آدم منجدل في طينته وأخبركم عن ذلك. دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت ـ الحديث» ولأحمد من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ «قلت: يا رسول الله. ما كان بدؤ أمرك قال: دعوة أبي إبراهيم؛ وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام»، ورواه البيهقي في الشعب. ثم قال: «أما دعوة إبراهيم فهي قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وأما بشارة عيسى فهي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، قال: وأما رؤيا أمه فذكر ابن إسحاق في السيرة قال: «كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله =

(١) قوله «وتب علينا ما فرط منا» لعله على تضمين تب معنى اغفر. (ع)

وحدانيتك وصدق أنبيائك، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الشريعة، وبيان الأحكام، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، كقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾: إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم، و ﴿مَن سَفِهَ﴾: في محل الرفع على البدل من الضمير في يرغب، وصحّ البدل، لأنّ من يرغب غير موجب، كقولك: هل جَاءَكَ أَحَدٌ إلاّ زَيْدٌ ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾: امتهنها واستخف بها، وأصل السفه: الخفة، ومنه زمام سفيه، وقيل: انتصاب النفس على التمييز، نحو: غُبِنَ رَأْيُهُ وَأَلَّمَ رَأْسُهُ، ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف المميز نحو قوله [من الوافر]:

.... وَلاَ بِفَزَارَةَ الشُّعْرِ الرِّقَابَا[1]

= ﷺ - تحدث أنها أتيت»، ولأبي يعلىٰ عن شدّاد بن أوس رفعه: «أما دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى بن مريم، وأن أمي رأت في المنام نوراً قالت: فجعلت أتبع بصري النور، فجعل النور يسبق بصري حتى أضاء لي مشارق الأرض ومغاربها»، وللحاكم في المستدرك من طريق ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله - ﷺ - قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك قال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»... انتهى.

---

(١) فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعر الرقابا
وقومي - إن سألت - بنو لؤي ... بمكة علموا مضر الصوابا
لحارث بن ظالم المري، يدعي أنه من قريش، وأن أمه خرجت به إلى مرة وهو صغير، فنسب إليهم. وثعلبة وفزارة ومضر: أسماء قبائل، ووصف ثعلبة بابن لها للأصل فإنه اسم أبي القبيلة. والشعر: جمع أشعر كحمر وأحمر. والرقاب: تمييز معرفة على رأي الكوفيين. وأشعر الرقبة يطلق على الأسد، وعلى أغم القفا - وهو المراد. يقول: ليس قومي هؤلاء الأخسة، وإنما أنا من بني لؤي. وإن سألت: اعتراض بين المبتدأ وخبره. ومضر والصواب: مفعولان لعلموا.
ينظر الأغاني ١١/١١٩، الإنصاف ص ١٣٣، شرح أبيات سيبويه ١/٢٥٨، شرح اختيارات المفضل ٣/١٣٣٥، الكتاب ١/٢٠١، المقاصد النحوية ٣/٦٠٩، المقتضب ٤/١٦١، خزانة الأدب ٧/٤٩٢، شرح المفصل ٦/٨٩، الحماسة الشجرية ١/٢٤٧، البحر ١/٥٦٥، الدر المصون ١/٣٧٤.

[ومن الوافر]:

. . . . أَجَبُّ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ[1]

وقيل معناه: سفه في نفسه، فحذف الجار، كقولهم: زيد ظني مقيم، أي في ظني، والوجه هو الأوّل، وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث: «الْكِبْرُ أَنْ تَسَفَهَ الْحَقَّ وَتَغْمِصَ النَّاسَ[2]»، (٧٢) وذلك أنه إذا رغب عمَّا لا يرغب عنه عاقل قط، فقد بالغ في إذالة

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

٧٢ ـ رُوي من حديث أبي هريرة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وأبي ريحانة، وثابت بن قيس بن شماس، وسواد بن عمرو الأنصاري، وابن عباس، وابن عمر، وجابر، وعقبة بن عامر، والحسين بن علي.

ـ أما حديث أبي هريرة:

=

---

(١) فإن يهلك أبو قابوس يهلك ... ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ بعده بذناب عيش ... أجب الظهر ليس له سنام

للنابغة الذبياني يرثي النعمان المعافى بن الحارث الأصغر ملك العرب. وقيل لجرير، وليس بذاك. يقول: فإن يتبين هلاك النعمان يتبين هلاك ربيع الناس. شبهه بالربيع وهو المطر، أو النهر، أو فصل الربيع. أو الخصب، في أن كلا يعم خيره الناس. وشبهه بالشهر الحرام في أن كلا أمان للناس من الحروب والمخاوف. وروي: والبلد الحرام. أي مكة. شبهه بها في الأمان أيضاً. ويجوز أن المعنى إن يهلك هو يهلك تبعاً له عطاؤه وجاهه الشبيهان بالربيع وبالشهر الحرام في النفع والأمان، وكل ذلك على سبيل الاستعارة التصريحية. ويجوز أنه كان يحفظ لهم ربيعهم عن رعي غيرهم وحرمة شهرهم عن هتكها، بأن يغار عليهم فيه، فلا استعارة إلا في هلاك الشهر. وروي نأخذ: بالحركات الثلاث، وكذلك كل مضارع معطوف على جواب الشرط، فالجزم على العطف، والرفع على الاستئناف. والنصب بإضمار إن لشبه الشرط بالنفي. لكنه قليل. والذناب ـ بالكسر ـ: ذنب البعير والفرس، وعقب كل شيء. وشبه العيش الضنك الضيق الناقص ببعير مهزول على طريق المكنية. والذناب، والظهر، والسنام ـ بالفتح ـ تخييل. وأجب الظهر: منقطعه، أي ونتمسك بعده بطرف عيش وبقية منه ضيقة قليلة، كالبعير المقطوع الظهر. ويبين ذلك بقوله: ليس له سنام. وأجب: صفة مشبَّهة ممنوع من الصرف، فيجر بالفتحة على الصفة لعيش. وقيل نصب على الحال. وروي بالرفع على الخبرية لمحذوف. ويروى الظهر بالرفع، فاعلاً للصفة، أو بدلاً من الضمير فيها وفتحه النحاة، وبالنصب تشبيهاً بالمفعول أو تمييزاً على مذهب من ميز بالمعرفة وضعفوه وبالجر بإضافة أجب إليه فيجر أجب بالكسرة، وحسنوا هذا.

ينظر ديوانه ص ١٠٦، والكتاب ١/ ١٩٦، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٢٨، وشرح المفصل ٦/ ٨٣، ٨٥، والمقاصد النحوية ٣/ ٥٧٩، ٤/ ٤٣٤، والأغاني ١١/ ٢٦، وخزانة الأدب ٧/ ٥١١، ٩/ ٣٦٣، وأسرار العربية ص ٢٠٠، لسان العرب، (حبب)، ١/ ٨ (ذنب)؛ والمقتضب ٢/ ١٧٩، والإنصاف ١/ ١٣٤، والاستقامة ص ١٠٥، والأشباه والنظائر ٦/ ١١، وأمالي ابن الحاجب ١/ ٤٥٨، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٥٨، وشرح ابن عقيل ص ٥٨٩، وشرح الأشموني ٣/ ٥٩١.

(٢) قوله «وتغمص الناس» أي تستصغرهم وتعيبهم. أفاده الصحاح. (ع)

ينظر: المحتسب ١/ ١٠٩، الخصائص ٢/ ٣٣٨، البحر المحيط ١/ ٥٧١، الدر المصون ١/ ٣٧٦.

= فأخرجه أبو داود (٢/٤٥٧) كتاب اللباس، باب ما جاء في الْكِبْر حديث (٤٠٩٢)، من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة؛ أن رجلاً أتى النبي ـ ﷺ ـ وكان رجلاً جميلاً، فقال: يا رسول الله، إني رجل حُبِّب إلى الجمال، وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد، إما قال بشراك نعلي، وإما قال: بشسع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس».
وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٨١) رقم (٥٤٦٧)، بلفظ: «إنما الكبر من سفه الحق وغمص الناس»، والحاكم (٤/ ١٨١ ـ ١٨٢).
ـ **وأما حديث ابن مسعود:**
فأخرجه الترمذي (٤/ ٣٦١) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر حديث (١٩٩٩)، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٨٠) رقم (٥٤٦٦)،من طريق علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال الرجل: يا رسول الله، إن الرجل ليحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر من بطر الحق وغمص الناس».
ورواه الحاكم (١/ ٢٦) قريباً من ذلك، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتجا جميعاً برواته» ا. هـ.
وأصل الحديث رواه مسلم (١/ ٣٦٦ ـ نووي) كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه حديث (٩١).
وأبو داود (٢/٤٥٧) كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر حديث (٤٠٩١).
والترمذي (٤/ ٣٦٠) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر حديث (١٩٩٨).
وابن ماجة (٢/١٣٩٧) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع حديث (٤١٧٣).
ـ **وأما حديث عبد الله بن عمرو:**
قلت: يا رسول الله، أمن الكبر أن أصنع طعاماً فأدعو أصحابي، قال: لا الكبر أن تسفه الحق وتغمص النّاس».
قال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٣٦):
(رواه البزار وأحمد في حديث طويل. . . ورجال أحمد ثقات» ا. هـ.
ـ **وأما حديث أبي ريحانة:**
أخرجه أحمد (٤/ ١٣٣) ثنا أبو المقبرة قال ثنا جرير قال: سمعت كريب بن أبرهة وهو جالس مع عبد الملك بدير المرات، وذكروا الكبر فقال كريب: سمعت أبا ريحانة يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: إنه لا يدخل شيء من الكبر الجنة، قال: فقال قائل: يا رسول الله، إني أحب أن أتجمل بسبق سوطي وشسع نعلي، فقال النبي ـ ﷺ ـ: إن ذلك ليس بالكبر، إن الله عزّ وجلّ جميل يحب الجمال، إنما الكبر من سفه الحق وغمض النّاس بعينيه» ا. هـ.
قال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٣٦):
«رواه أحمد ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط»، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٧٩) رقم (٨١٥٣).
ـ **وأما حديث ثابت بن قيس:**
أخرجه الطبراني (٢/ ٦٩) رقم (١٣١٨) حدثنا علي بن سعيد الرازي ثنا محمد بن مسلم بن وارة ثنا محمد بن سعيد بن سابق ثنا عمرو بن أبي قيس عن ابن أبي ليلى عن أخيه عيسى عن عبد =

= الرحمن بن أبي ليلى عن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري به، ورواه البزار كما في كشف الإسناد (٣٥٧٨).
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٧):
«رواه الطبراني، وفيه محمد بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ، وجده عبد الرحمن لم يدرك ثابت بن قيس» ا.هـ.
- **وأما حديث سواد بن عمرو الأنصاري:**
أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧/ ١١٢ - ١١٣) أرقام (٦٤٧٧، ٦٤٧٨، ٦٤٧٩)، من طرق عن محمد بن سيرين عن سواد بن عمرو الأنصاري.
قال في المجمع (٥/ ١٣٧):
«رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح» ا.هـ.
- **وأما حديث ابن عمر:**
أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٣٩) رقم (٤٦٦٥)، حدثنا أبو زرعة قال: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن قال: حدثنا عيسى بن موسى الدمشقي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله - ﷺ- يقول: «من سحب ثيابه لم ينظر الله إليه، فقال أبو ريحانة: والله لقد أمرضني ما حدثتنا به، فوالله إني لأحب الجمال حتى إنه لأجعله في شراك نعلي وعلاق سوطي، أفمن الكبر ذلك؟ فقال رسول الله - ﷺ-: إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس».
قال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٣٦):
«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه موسى بن عيسى الدمشقي قال الذهبي: مجهول، وبقية رجاله رجال الصحيح» ا.هـ.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٨٦) للبزار، والطبراني في مسند الشاميين.
- **وأما حديث ابن عباس:**
أخرجه عبد بن حميد رقم (٦٧٣ - منتخب) ثنا يزيد بن هارون أنا سالم بن عبيد عن أبي عبد الله عن عبد الرحمن بن أبي ليلى سمع ابن عباس يقول: فذكر حديثاً طويلاً.
- **وأما حديث جابر:**
فأخرجه عبد بن حميد في مسنده، كما في المنتخب رقم (١١٥١).
أنا عبيد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله فذكر حديثاً طويلاً.
- **وأما حديث عطية بن عامر:**
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٨٧) لأبي القاسم الأصفهاني في كتاب الترغيب والترهيب له.
- **وأما حديث الحسين بن علي:**
أن عبد الله بن عمرو قال:
«يا رسول الله، أَمِنَ الكبر أن يكون لأحدنا النجيبة الفارهة؟ قال: لا، قال: فمن الكبر أن يكون لأحدنا الحلّتان الحسنتان؟ قال: لا. قال: فمن الكبر أن أتخذ طعاماً فأدعو قومي، فيمشون خلفي، ويأكلون عندي؟ قال: لا، قال: فما الكبر يا رسول الله؟ قال: أن تسفه الحق وتغمص الناس». =

نفسه[1]، وتعجيزها، حيث خالف بها كل نفس عاقّة، ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾، بيان لخطأِ رأي من رغب عن ملته، لأنّ من جمع الكرامة عند الله في الدارين، بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه ﴿إِذۡ قَالَ﴾: ظرف لاصطفيناه، أي: اخترناه في ذلك الوقت. أو انتصب بإضمار (اذكر): استشهاداً على ما ذكر من حاله، كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله، ومعنى قال له: أسلم، أخطر بباله النظر في الدلائل المؤدية إلى المعرفة والإسلام، و﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ﴾: أي فنظر وعرف، وقيل: أسلمْ: أي

= قال في المجمع (٥/ ١٣٦):
«رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه عبد الحميد بن سليمان وهو ضعيف». ا.هـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه البزار من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عمر: «قيل: يا رسول الله، أمن الكبر أن يتخذ الرجل الطعام، فيكون عليه الجماعة، ويلبس القميص النظيف» قال: ليس ذلك بالكبر. وإنما الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس، وذكر فيه قصة. وقال: لا نعلم رواه عن عمرو عن ابن عمر إلاّ ابن إسحاق ا.هـ. وأخرجه الطبراني من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «قلت: يا رسول الله، أمن الكبر أن ألبس الثوب الحسن؟ قال: لا. قلت: فما الكبر؟ فذكره»، ورواه البخاري في الأدب المفرد من طريق الصعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال: لا نعلمه إلاّ عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال: «جاء رجل فقال: يا رسول الله: الكبر أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: لا... الحديث»، وأخرجه أيضاً من رواية عبد العزيز بن محمد. وأخرجه البزار، من رواية أبي بكر بن أبي سبرة.
وأخرجه أحمد في الزهد من رواية هشام بن سعد كلهم عن زيد به. وقال عبد بن حميد في مسنده: أخبرنا عبد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر فذكر حديثاً، وفيه: فقال معاذ: «يا رسول الله، أمن الكبر أن يكون لأحدنا الدابة فيركبها، أو النعلان، أو الثياب يلبسها، أو الطعام يجمع عليه أصحابه؟ قال: لا. ولكن الكبر أن يسفه الحق ويغمص المؤمنين»، وموسى ضعيف. وفي الطبراني من رواية عبد الحميد بن سليمان. عن عمارة بن غزية عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها: أن عبد الله ابن عمرو قال: «يا رسول الله، أمن الكبر أن ألبس الحلة الحسنة؟ الحديث»، وأخرجه الطبراني في الأوسط. ومسند الشاميين عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر نحوه. وفي الباب عن أبي هريرة: أخرجه ابن حبان والحاكم من طريق ابن سيرين عنه، وعن ابن مسعود. أخرجه إسحاق وأبو يعلىٰ والحاكم: أن مالك بن مرارة الرهاوي. قال «يا رسول الله، إن لي من الجمال ما ترى، وإني لا أحب أحداً أن يفضلني بشركين فما فوقهما. أفهذا من البغي؟، قال: لا. الحديث»، وعن أبي ريحانة. أخرجه أحمد والطبراني. وعن ثابت بن قيس. أخرجه الدارمي والطبراني. وعن سوداء بن عمرو والحسين بن علي أخرجهما الطبراني. وعن ابن عباس. أخرجه عبد بن حميد وعن عقبة بن عامر أخرجه أبو مسلم في الجامع من السنن له. انتهى.

---

(١) قوله «في إذالة نفسه» أي إهانتها. أفاده الصحاح. (ع)

أذعنْ وأَطعْ، ورُوِيَ: أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: قد علمنا أنّ الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يُسلم، فنزلت.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

وقرىء: وأوصى، وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام، والضّمير في ﴿بِهَآ﴾: لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، على تأويل الكلمة والجملة، ونحوه رجوع الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ [الزخرف: ٢٨] إلى قوله ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقوله: كلمة باقية. دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة، ﴿وَيَعْقُوبُ﴾: عطف على إبراهيم، داخل في حكمه، والمعنى: ووصّى بها يعقوب بنيه، أيضاً، وقرىء: ويعقوب، بالنصب عطفاً على بنيه، ومعناه ووصى بها إبراهيم بنيه ونافلته يعقوب، ﴿يَٰبَنِىَّ﴾: على إضمار القول عند البصريين، وعند الكوفيين يتعلق بوصى، لأنه في معنى القول، ونحوه قول القائل: [الرجز]

رَجُـلاَنِ مِـنْ ضَـبَّـةَ أَخْـبَـرَانَـا: إِنَّـا رَأَيْـنَـا رَجُـلاً عُـرْيَـانَـا[1]

بكسر الهمزة: فهو بتقدير القول عندنا، وعندهم يتعلق بفعل الإخبار، وفي قراءة أبيّ وابن مسعود: أن يا بنيَّ ﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام، ووفقكم للأخذ به، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصلّ إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته، فإن قلت: فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة وليس بمنهى عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، فكأنه قال: أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة، ألا ترى إلى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لاَ صَلاَةَ لِجَارِ

---

(١) رجلان بالسكون للتخفيف والوزن؛ كما يسكن عضد. وضبة: اسم قبيلة. وروي بدله «من مكة» والإخبار فيه معنى القول، فلذلك كسرت بعده «إن» على الحكاية، أي قالا لنا ذلك القول؛ وهو: أنا رأينا. ومذهب الكوفيين أن الجملة المحكية في محل نصب بالفعل المذكور. ومذهب البصريين بقول مقدّر. وقال بعضهم: الظاهر أنها مفسرة فلا محل لها. وروي بالفتح على حذف الجار، أي بأنا رأينا.

الْمَسْجِدِ إِلاّ فِي الْمَسْجِدِ» (٧٣) فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد: لا تصلِّ إلا في المسجد؛ وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم، وتقول في الأمر ـ أيضاً ـ: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات؛ وإنّما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته، وإظهاراً لفضلها على غيرها، وأنها حقيقة بأن يحث عليها.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾: هي أم المنقطعة[1]، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والشهداء جمع شهيد، بمعنى الحاضر: أي ما كنتم حاضرين يعقوب ـ عليه السلام ـ إذ حضره الموت، أي حين احتضر، والخطاب للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك[2] وإنما حصل لكم العلم

---

٧٣ ـ أخرجه الدارقطني (١/ ٤٢٠) والحاكم (١/ ٢٤٦) والبيهقي (٣/ ٥٧) من طريق سليمان بن داود اليمامي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.
وسكت عنه الحاكم وقال البيهقي: وهو ضعيف.
والحديث ذكره الحافظ في «التلخيص» (٢/ ٦٦) وقال: فائدة حديث: «لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد» مشهور بين الناس وهو ضعيف ليس له إسناد ثابت وأخرجه الدارقطني عن جابر وأبي هريرة وفي الباب، عن علي وهو ضعيف أيضاً.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الدارقطني والحاكم من رواية أبي سلمة عن أبي هريرة، وفيه سليمان بن داود اليماني وهو ضعيف، والدارقطني وابن عديّ، والعقيلي من حديث جابر، وفيه محمد بن مسكين وهو ضعيف، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة عمر بن راشد عن أبي ذئب عن الزهري عن عروة عن عائشة، وقال كان عمر بن راشد يضع الحديث وقد صحّ موقوفاً عن علي ـ رضي الله عنه ـ أخرجه ابن أبي شيبة. انتهى.

---

(١) قوله «هي أم المنقطعة» هي تفسر ببل والهمزة. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «الخطاب فيه للمؤمنين بمعنى ما شاهدتم... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول؛ لكان مضمون الكلام نفيَ شهود المخاطبين وهم اليهود على هذا التفسير الثاني، لوفاة يعقوب والوصية بالإسلام، وحينئذٍ يكون ذلك كإقامة حجتهم على جحد الإسلام وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين والغرض ضد ذلك. وإنما كان الكلام يقتضي النفي حينئذٍ، لأن الاستفهام من الله تعالى لا يحمل على ظاهره، فتعين صرفه إلى الإنكار، لأن السياق يقتضيه. ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين وفاة يعقوب ووصيته على التفسير الأول، لا سيما والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أوائلهم، تنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، =

به من طريق الوحي، وقيل: الخطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبيّ، إلا على اليهودية، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية، فالآية منافية لقولهم، فكيف يقال لهم: «أم كنتم شهداء»؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف، كأنّه قيل: أتدّعون على الأنبياء اليهودية؟ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذْ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام، وقد علمتم/٥٨ب ذلك، فما لكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه برآء؟ وقرىء «حَضِرَ» بكسر الضاد، وهي لغة، ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾: أي شيء تعبدون؟ و ﴿مَا﴾: عامٌّ في كل شيء فإذا علم فرق بما ومن؛ وكفاك دليلاً قول العلماء (من) لما يعقل، ولو قيل: من تعبدون، لم يعم إلا أولي العلم وحدهم، ويجوز أن يقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفقيه، أم طبيب، أم غير ذلك من الصفات؟ و ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾: عطف بيان لآبائك، وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه، لأنّ العمّ أب والخالة أمّ، لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ» (٧٤) أي: لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي

---

٧٤ ـ أخرجه مسلم (٤/ ٦٣ ـ نووي) كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها حديث (٩٨٣).
وأبو داود (١/ ٥١٠) كتاب الزكاة، باب في تعجيل الزكاة، حديث (١٦٢٣).
وأحمد (٢/ ٣٢٢).
والدارقطني (٢/ ١٢٣) باب تعجيل الصدقة قبل الحول.
والبيهقي (٤/ ١١١) كتاب الزكاة، باب تعجيل الصدقة.
كلهم من طريق الأعرج عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عمر على الصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عمّ رسول الله ـ ﷺ ـ. فقال، رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما ينقم ابن جميل، إلاّ أنه كان فقيراً فأغناه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً. قد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليّ ومثلها معها»، ثم قال: «يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه».
وله شاهد من حديث علي مرفوعاً بلفظ:
«أما علمت أن عمّ الرجل صنو أبيه».
أخرجه أحمد في المسند (١/ ٩٤).
وله شاهد آخر من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ عم الرجل صنو أبيه».
أخرجه الطبراني (١٠/ ٨٧) رقم (٩٩٨٥).
قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٨٢): =

= ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر.

النخلة، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في العباس: «هَذَا بَقِيَّةُ آبَائِي» (٧٥)، وقال: «رُدُّوا عَلَيَّ أَبِي، فَإِنِّي أَخْشَى أَن تَفْعَلَ بِهِ قُرَيْشُ مَا فَعَلَتْ ثَقِيفٌ بِعُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودَ» (٧٦) وقرأ

= «رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وزاد: أن: عم الرجل صنو أبيه، وفيه محمد ابن ذكوان وفيه كلام وقد وثق» ا.هـ.

وأيضاً ما رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي رافع قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عمر بن الخطاب ساعياً على الصدقة، فأتى العباس بن عبد المطلب فأغلظ له العباس فأتى عمر النبي ـ ﷺ ـ فذكر له ذلك فقال له ـ ﷺ ـ يا عمر: أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه، إن العباس كان أسلفنا صدقة العام عام أول».

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٨٢):

«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إسماعيل المكي وفيه كلام كثير وقد وثق». ا.هـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث أبي هريرة. في قصة العباس وخالد بن الوليد وابن جميل لما امتنعوا من إعطاء الصدقة. انتهى.

٧٥ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٢) رقم (٣٢٢١٢) من طريق ابن عيينة عن داود بن شابور عن مجاهد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: احفظوني في العباس، فإنه بقية آبائي وإن عم الرجل صنو أبيه».

ورواه الطبراني في الكبير (١١/ ٨٠) رقم (٧ ـ ١١١) من طريق مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «استوصوا بعمي العباس خيراً، فإنه بقية آبائي، وإنما عم الرجل صنو أبيه».

قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٧٢):

«رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن خراش وهو ضعيف ووثقه ابن حبان، وقال: ربما أخطأ وبقية رجاله وثقوا» ا.هـ.

ورُوي عن الحسن بن علي نحو حديث ابن عباس.

قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٧٢):

«رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم» ا.هـ.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة. حدثنا ابن عيينة عن داود بن شابور عن مجاهد. قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «احفظوني في العباس، فإنه بقية آبائي. وإن عم الرجل صنو أبيه»، ورواه الطبراني في الأوسط من رواية موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عن أبيه عن جده عن الحسن عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «احفظوني ـ فذكر مثله» ورواه في الكبير من حديث ابن عباس من وجهين. انتهى.

٧٦ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٨٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٣١٥)، وابن عساكر (٧/ ٢٣٦ ـ تهذيب).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

قال ابن أبي شيبة في المغازي في مصنفه: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب. عن عكرمة. قال: «لما وادع رسول الله ـ ﷺ ـ أهل مكة الحديث» إلى أن قال: «فانطلق العباس فركب بغلة النبي ـ ﷺ ـ الشهباء، وانطلق إلى قريش، ليدعوهم إلى الله فأبطأ عليه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ردوا عليَّ أبي، فإن عم الرجل صنو أبيه. إني أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود: دعاهم إلى الله فقتلوه. أما والله لئن ركبوها منه لأضرِمَنَّهَا عليهم ناراً. انتهى.

أبيّ: وإله إبراهيم، بطرح آبائك، وقرىء: أبيك، وفيه وجهان: أن يكون واحداً وإبراهيم وحده عطف بيان له، وأن يكون جمعاً بالواو والنون، قال [من المتقارب]:

.... وَفَدَّيْنَنا بالأَبِينا[1]

﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ بدل من إله آبائك؛ كقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العلق: ١٥ ـ ١٦] أو على الاختصاص، أي نريد بإله آبائك إلٰهاً واحداً، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله، لرجوع الهاء إليه في له، ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة، أي ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون، والمعنى: أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم، وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «يَا بَنِي هَاشِم، لاَ يَأْتِيَنِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ» (٧٧)، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ولا تؤاخذون بسيئاتكم كما لا تنفعكم حسناتهم.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: بل تكون ملة إبراهيم، أي أهل ملته كقول عدّي بن حاتم: «إنِّي مِنْ دِينٍ» (٧٨) يريد من أهل دين، وقيل: بل نتبع ملة إبراهيم، وقرىء: «مِلَّةُ إبراهيم»:

---

٧٧ ـ قال الحافظ: لم أجده.
وقال الزيلعي (١/ ١٩٤) في تخريج أحاديث الكشاف:
«غريب جدًّا». انتهى.

٧٨ ـ أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٨)، وابن حبان (٢٢٨٠ ـ موارد)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٤٢)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» رقم (٤٧٠)، من طريق محمد بن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة عن الشعبي عن عدي بن حاتم به.

---

(١) فلما تبين أصواتنا ... بكين وفدّيننا بالأبينا
يقول: لما تبين النساء أصواتنا في الحرب وعرفنها، بكين شفقة ورحمة لنا، وفدّيننا: أي كل واحدة تقول: فداكم أبي، أو تقول لصاحبتها: فداك أبي. والأبينا: جمع أب معرب إعراب جمع التصحيح.

بالرفع، أي ملته ملتنا، أو أمرنا ملته، أو نحن ملته بمعنى أهل ملته، و ﴿حَنِيفًا﴾: حال من المضاف إليه؛ كقولك: رأيت وجه هند قائمة، والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق، والحنف: الميل في القدمين، وتحنف إذا مال، وأنشد [من الوافر]:

وَلَـكِـنَّـا خُـلِـقْـنَـا إِذْ خُـلِـقْـنَـا ... حَـنِـيـفـاً دِيـنُـنَـا عَـنْ كُـلِّ دِيـنِ[1]

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلا منهم يدّعي اتباع إبراهيم وهو على الشرك. ﴿قُولُوا﴾ خطاب للمؤمنين، ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين، أي قولوا: لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل، وكذلك قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ يجوز أن يكون على: بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم، أو كونوا أهل ملته.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

والسبط: الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله - ﷺ - ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: حفدة يعقوب ذراريّ أبنائه الاثني عشر، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: لا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، و ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة[2]، ولذلك صحّ دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه، ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: من باب التبكيت؛ لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فلا يوجد إذاً

= وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن سعد من رواية ابن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة. قال: إني من دين. قال: أنا أعلم بدينك منك». انتهى.

---

(١) الحنف والتحنف: الميل. والحنيف: المائل عن الباطل إلى الحق. يقول: خلقنا حال كوننا مائلاً ديننا عن الأديان الباطلة كلها إلى دين أبينا إبراهيم، لأن العرب اتفقت على أنه حق، وذلك من وقت ابتداء خلقنا، فإذا: ظرف للخلق الأول بعد تقييده بالحال بعده.
ينظر: الدر المصون (١/ ٣٨٤).

(٢) قال محمود رحمه الله: «وأحد في معنى الجماعة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وفيه دليل على أن النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً حتى يتنزل المفرد فيها منزلة الجمع في تناوله الآحاد مطابقة، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن مدلولها بطريق المطابقة في النفي كمدلولها في الإثبات. وذلك الدلالة على الماهية. وإنما لزم فيها العموم من حيث أن سلب الماهية يستوجب سلب الأفراد لما بين الأعم والأخص من التلازم في جانب النفي. إذ سلب الأعم أخص من سلب الأخص فيستلزمه، فلو كان لفظاً ما لا إشعار له بالتعدد والعموم وضعاً لما جاز دخول بين عليها.

دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين، فقيل: فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير، أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد فقد اهتدوا، وفيه أنّ دينهم الذي هم عليه: وكل دين سواه مغاير له غير مماثل، لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال. ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه: هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك، ولكنك تريد تبكيت صاحبك، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه، ويجوز أن لا تكون الباء صلة وتكون باء الاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم، وعملت بالقدوم أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها، وقرأ ابن عباس وابن مسعود: «بما آمنتم به» وقرأ أبيّ: «بالذي آمنتم به» ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: عما تقولون لهم ولم ينصفوا فما هم إلا ﴿فِي شِقَاقٍ﴾: أي في مناوأة ومعاندة[1] لا غير، وليسوا من طلب الحق في شيء. أو: وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ضمان من الله، لإظهار رسول الله ـ ﷺ ـ عليهم، وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير، ومعنى السين أنّ ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: وعيد لهم، أي يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه، أو وعد لرسول الله ـ ﷺ ـ بمعنى: يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: مصدر مؤكد منتصب على قوله، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ كما انتصب، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: عما تقدمه، وهي (فعلة) من صبغ، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ والمعنى: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون، صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم؛ وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة، كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس

---

(١) قوله: «في مناوأة ومعاندة» في الصحاح: ناوأت الرجل مناوأة ونواء، عاديته. وربما لم يهمز. وأصله الهمز. (ع)

فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: يعني أنه يصبغ عباده بالإيمان، ويطهرهم به من أوضار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾: عطف على آمنا بالله، وهذا العطف يردّ قول من زعم أن ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: بدل من: ملة إبراهيم أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التئامه واتساقه[1]، وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾

قرأ زيد بن ثابت «أتحاجُونّا»: بإدغام النون، والمعنى: أتجادلوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا، وترونكم أحق بالنبوة منا، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: نشترك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي دون عربي إذا كان أهلاً للكرامة، ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾: يعني أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالاً يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك، ثم قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾، فجاء بما هو سبب الكرامة، أي ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان. فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه، لكرامته بالنبوّة، وكانوا يقولون: نحن أحقّ بأن تكون النبوّة فينا، لأنا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان، ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾: يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلة للهمزة في ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾: بمعنى أيّ الأمرين تأتون: ألمحاجّة في حكمة الله أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً، وأن تكون منقطعة بمعنى: بل أتقولون، والهمزة للإنكار ـ أيضاً ـ وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾: يعني أن الله شهد لهم بملّة الإسلام في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾: أي كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية، ويحتمل معنيين: أحدهما أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم، لأنهم كتموا هذه

---

(١) قوله «واتساقه» في الصحاح: الاتساق الانتظام. وفيه أيضاً: التنسيق التنظيم. (ع)

الشهادة وهم عالمون بها، والثاني: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته، (ومن) في قوله: ﴿شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان إذا شهدت له، ومثله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ [التوبة: ١].

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (١٤٣)﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: الخفاف الأحلام، وهم اليهود، لكراهتهم التوجه إلى الكعبة/ ٦٠أ، وأنهم لا يرون النسخ، وقيل: المنافقون؛ لحرصهم على الطعن والاستهزاء، وقيل: المشركون، قالوا: رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم، فإن قلت: أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه[1]؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشدّ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدّمه من توطين النفس، وأنّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم، ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾: ما صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾: وهي بيت المقدس، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾: أي بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها، ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾: من أهلها، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾: وهو ما توجبه الحكمة والمصلحة، من توجيههم تارة إلى بيت المقدس، وأخرى إلى الكعبة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾: ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم: ﴿أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ خياراً، وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ونحوه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وَأَنطُوا[2] الثَّبَجَةَ» (٧٩) يريد الوسيطة بين السمينة

---

٧٩ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٩١): =

---

(١) قال محمود رحمه الله: «أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله تعالى: ولهذه السكتة أجرى من حذو النظار في إدراج مناظرتهم العمل بمقتضى الذي هو كذا، السالم عن معارضة كذا، فسيقول: درء للمعارض قبل ذكر الخصم له، وهي نكتة بديعة أحسن ما يستدل على صحتها بهذه الآية. فتفطن لها. فإنها من الملح.

(٢) قوله «وأنطوا الثبجة» لغة في أعطوا. (ع)

والعجفاء وصفاً بالثَّبج وهو: وسط الظهر، إلا أنه ألحق تاء التأنيث مراعاة لحق الوصف، وقيل: للخيار: وسط[1] لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأعوار والأوساط محمية محوّطة، ومنه قول الطائي [من البسيط]:

كَانَتْ هِيَ الْوَسَطَ الْمَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفَا[2]

وقد اكتريت بمكة جمل أعرابي للحج فقال: أعطني من سطاتهنه، أراد من خيار الدنانير، أو عدولاً، لأنّ الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾، رُوِيَ: «أنّ الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمّة محمد ـ ﷺ ـ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ـ ﷺ ـ فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم» (٨٠)

= ذكره القاضي عياض في الشفاء في الفصل الأول في فصل: فصاحته ـ عليه السلام ـ. . .
قلت (أي الزيلعي): غريب أيضاً، وأعاده في سورة الكوثر» ا.هـ.
قال الحافظ: يأتي في سورة الكوثر.

٨٠ ـ أخرجه ابن جرير (٣/ ١٥١) رقم (٢١٩٢) عن زيد بن أسلم، أن قوم نوح يقولون يوم القيامة: لم يبلّغنا نوح، فيدعى نوح ـ عليه السلام ـ فيسأل: هل بلغتهم؟ فيقول: نعم. فيقال: من شهودك؟ فيقول: أحمد ـ ﷺ ـ وأمته، فتدعون فتسألون فتقولون: نعم قد بلّغهم، فتقول قوم نوح ـ عليه السلام ـ: كيف تشهدون علينا ولم تدركونا؟ قالوا: قد جاء نبي الله ـ ﷺ ـ فأخبرنا أنه قد بلغكم، وأنزل عليه أنه قد بلّغكم فصدّقناه، قال: فيصدق نوح ـ عليه السلام ـ ويكذبونهم قال: لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً. ورواه ابن جرير (٨/ ٣٦٩) رقم (٩٥١٥)، عن السدي نحوه في تفسير سورة النساء الآية ٤١.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف، أخرجه الطبري عن زيد بن أسلم موقوفاً. وأخرجه في =

---

(١) قال محمود رحمه الله: «وقيل للخيار وسط. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا مما اقتضى المجاز فيه التعميم.

(٢)
وغيضة الموت أعني البذ قدت لها عرمرمًا لخروق الأرض معتسفا
كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

لأبي تمام يخاطب المعتصم. والغيضة: مغيض الماء، يجتمع فيه ثم يغيض ويذهب فينبت فيه الشجر والنبات. والمراد هنا: موضع العسكر. والبذ: اسم قلعة لبابك الخرمي. والعرمرم: الجيش الكثير. وخروق الأرض: طرائفها. والمعتسف: الحائد عن الطريق لكثرته. شبّه ذلك الموضع بالغيضة على سبيل التهكم بأصحابه، لأنها تُضاف للماء، فأضافها للموت. وشبّه الجيش في الانقياد بالإبل على طريق المكنية وقودهم تخييل، وكنّى بالوسط عن التي لا يصل إليها الخلل لأنها محمية بالأطراف فاكتنفت وأحاطت بها الحوادث، يعني جيوش المعتصم، حتى أصبحت تلك الغيضة طرفاً فلحقها الخلل ومكاره الجيش.
ينظر: ديوانه (١٩٢)، الدر المصون (١/ ٣٩٢).

وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. فإن قلت: فهلا قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم[1] قلت: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له، جيء بكلمة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يزكيكم ويعلم بعدالتكم، فإن قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدّمت آخراً[2] قلت: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم، ﴿الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾: ليست بصفة للقبلة إنما هي ثاني مفعولي جعل، يريد: وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها

= تفسير النسائي من قول السدي أيضاً. وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري. قال: يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمداً وأمته. فيشهدون أنه بلّغ ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا... الآية﴾، ورواه البيهقي في البعث والنشور من رواية أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يجيء النبيّ يوم القيامة، ومعه الثلاثة والأربعة والرجلان، حتى يجيء النبي وليس معه أحد، فتدعى أمة محمد؛ فيشهدون أنهم بلّغوا. فيقال لهم: وما علمكم أنهم بلّغوا فيقولون: جاءنا رسولنا بكتاب أخبرنا فيه أنهم قد بلّغوا فصدّقنا، قال: فيقال: صدقتم. وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فهلا قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: وجه الاستدلال بالآية أنه وصف الله تعالى في أولها بالرقيب وفي آخرها بالشهيد على وجه التخصيص أولاً ثم التعميم ثانياً: وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدى الرقيب والشهيد، إذ الآية في مثل قول القائل لمن شكره: كنت محسناً إلي وأنت لكل أحد محسن. وكأنه لما قال ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وكان ذلك مخصصاً لرقيبيته تعالى على بني إسرائيل. أراد أن يصفه بما هو أهله حتى ينفي وهم الخصوصية فقال في التقدير: وأنت على كل شيء كذلك، فوضع «شهيداً» موضع «كذلك» المشار به إلى رقيبيته، فلا يتم الاستدلال بها إلا على هذا الوجه. وفيه غموض على كثير من الأفهام والله الموفق.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: لأن المنة عليهم في الطرفين، ففي الأول بثبوت كونهم شهداء وفي الثاني بثبوت كونهم مشهوداً لهم بالتزكية خصوصاً من هذا الرسول المعظّم ولو قدم شهيداً لانتقل الغرض إلى الامتنان على النبي عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد. وسياق الخطاب لهم والامتنان عليهم يأباه. وإنما أخذ الزمخشري الاختصاص من التقديم لأن فيه إشعار بالأهمية والعناية، وكثيراً ما يجري أي ذلك في أثناء كلامه، وفيه نظر.

وهي الكعبة، لأنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يصلّي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس/ ٦٠ب بعد الهجرة تألفاً لليهود، ثم حوّل إلى الكعبة فيقول: وما جعلنا القبلة التي تجب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أوّلاً بمكة، يعني: وما رددناك إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاء ﴿لِنَعْلَمَ﴾: الثابت على الإسلام الصادق فيه، ممن هو على حرف ينكُص، ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ لقلقه فيرتدّ؛ كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١]، ويجوز أن يكون بياناً للحكمة في جعل بيت المقدس قبلته، يعني أنّ أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وأن استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضاً لغرض؛ وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا ـ وهي بيت المقدس، لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول منهم ومن لا يتبعه وينفر عنه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: (كَانَتْ قِبْلَتُهُ بِمَكَّةَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يَجْعَلُ الْكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ) (٨١) فإن قلت: كيف قال: ﴿لِنَعْلَمَ﴾: ولم يزل عالماً بذلك؟ قلت: معناه: لنعلمه علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً ونحوه: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقيل: ليعلم رسول الله والمؤمنون؛ وإنَما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل: معناه لنميز التابع من الناكص، كما قال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] فوضع العلم موضع التمييز، لأنّ العلم به يقع التمييز به، ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾: هي إن المخففة التي تلزمها اللام الفارقة، والضمير في: ﴿كَانَتْ﴾: لما دلّ عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ من الردّة، أو التحويلة، أو الجعلة، ويجوز أن يكون للقبلة، ﴿لَكَبِيرَةً﴾: لثقيلة شاقة، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول الذين لطف الله بهم وكانوا أهلاً للطفه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾: أي ثباتكم على الإيمان، وأنكم لم تزلّوا ولم ترتابوا، بل شكر صنيعكم وأعدّ لكم الثواب العظيم، ويجوز أن يراد: وما كان الله ليترك تحويلكم لعلمه أن تركه مفسدة

---

٨١ ـ أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٢٥)، والبزار في المسند (١/ ٢١٠ ـ ٢١١) رقم (٤١٨ ـ كشف)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٦٧) رقم (٦٦ ـ ١١)، من حديث مجاهد عن ابن عباس قال: كان النبي ـ ﷺ ـ يصلّي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعدما هاجر ستة عشر شهراً، ثم انصرف إلى الكعبة».
واللفظ للطبراني في الكبير.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٩٢) لابن راهويه في مسنده، وابن سعد في الطبقات.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه إسحاق وابن سعد والبزار. والطبراني من رواية مجاهد عن ابن عباس: قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلّي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً»، قال البزار: لا يعلم رواه عنه إلاّ الأعمش ولا عنه إلاّ أبو عوانة. انتهى.

وإضاعة لإيمانكم، وقيل: من كان صلى إلى بيت المقدس قبل التحويل فصلاته غير ضائعة. عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: لَمّا وَجَّه رَسُولُ الله إِلَى الْكَعْبَة[1] قَالُوا: كَيْفَ بِمَنْ مَاتَ قَبْلَ التَّحْوِيلِ مِنْ إِخْوَانِنَا فَنَزَلَتْ: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: «لاَ يُضِيعُ أُجُورَهُم وَلاَ يَتْرُكُ مَا يُصْلِحُهُمْ» (٨٢). ويحكى عن الحجاج أنه قال للحسن: ما رأيك في أبي تراب، فقرأ قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ ثم قال: وعليٌّ منهم، وهو ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ وختنه على ابنته، وأقرب الناس إليه، وأحبهم، وقرىء: «إلا لِيُعْلَمَ» على البناء للمفعول، ومعنى العلم: المعرفة، ويجوز أن تكون (من) متضمنة لمعنى الاستفهام معلقاً عنها العلم، كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو، وقرأ ابن أبي إسحاق «على عقبيه» بسكون القاف، وقرأ اليزيدي «لكبيرةٌ» بالرفع/ ٦١أ، ووجهها أن تكون (كان) مزيدة، كما في قوله [من الوافر]:

.... وَجِيـرَانٍ لَـنَـا ـ كَـانُـوا ـ كِـرَامِ[2]؟

والأصل: وإن هي لكبيرة، كقولك: إن زيد لمنطلق ثم وإن كانت لكبيرة وقرىء: «ليضيّع» بالتشديد.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن

---

٨٢ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٦٣١) كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٦٨٠)، والترمذي (٥/ ٢٠٨) كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٦٤)، وابن حبان (٤/ ٦٢١) رقم (١٧١٧)، والحاكم (٢/ ٢٦٩).
والدارمي (١/ ٢٨١) كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٤٧).
وقال الحاكم:
«هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الحاكم من رواية سماك عن عكرمة عنه. انتهى.

---

(١) هو في الذي بعده.
(٢) فـكـيـف إذا مـررت بـدار قـوم وجـيـران لـنـا ـ كـانـوا ـ كـرام؟
للفرزدق. يقول: فكيف يكون الحال إذا مررت بدار قوم وجيران لنا كرام، فكانوا: زائدة للدلالة على المضي، وأن الجيران كانوا ثم انقرضوا. وكرام ـ بالجر ـ: صفة جيران.

بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

﴿قَدۡ نَرَىٰ﴾: ربما نرى، ومعناه: كثرة الرؤية[1] كقوله [من البسيط]:

قَـدْ أَتْـرُكُ الـقِـرْنَ مُـصْـفَـرًّا أَنَـامِـلُـهُ[2] ....

﴿تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾: تردّد وجهك وتصرّف نظرك في جهة السماء، وكان رسول الله ﷺ يتوقع من ربه أن يحوّله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم، ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل ـ عليه السلام ـ والوحي بالتحويل، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: فلنعطينّك ولنمكننك من استقبالها، من قولك: وليته كذا. إذا جعلته والياً له، أو فلنجعلنك تلي سَمْتها دون سمت بيت المقدس، ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾: تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله

---

(١) قال محمود رحمه الله: «معناه كثرة الرؤية... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا من المواضع التي تبالغ العرب فيها بالتعبير عن المعنى بضد عبارته. ومنه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والمراد كثرة مودتهم للإسلام في القيامة وعند معاينة جزائه وثوابه، وكذلك: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته يقيني مؤكد، ومع ذلك يكفرون به.

(٢) قـد أتـرك الـقـرن مـصـفـراً أنـامـلـه ... كـأن أثـوابـه مـجـت بـفـرصـاد
أوجرته ونـواصي الـخـيـل مـعـلـمـة ... سـمـر أعـامـلـهـا مـن خـلـفـهـا نـادي

للهذلي. وقيل: لعبيد بن الأبرص. وقد للتكثير والترك بمعنى التصيير. واصفرار الأنامل: كناية عن الموت. والفرصاد: ماء التوت، وهو أحمر. والإيجار: السقي كرهاً. ونواصي الخيل: شعور رءوسها. والمعلمة: المشهورة بعلامات. والسمراء: القناة. وعاملها في الأصل: هو ما يلي السنان منها، فاستعاره لما يأتي مبالغة. ويقال: نأدته الداهية نأداً، إذا فدحته وبلغت منه، وخفف الناد هنا بإبدال الهمزة ألفاً، أي كثيراً ما أترك قريني في الشجاعة قتيلاً ملطخة أثوابه بدمه أسقيته رمحاً عاملها من خلفها شدة ضربي. ويروى: ثادي، بالمثلثة. والثأد ـ بالهمز وقد يخفف ـ: الندى والمطر. وأما الثادي ـ اسم فاعل ـ فهو السحاب الكثير المطر، أي سقيته، والحال أن نواصي الخيل مسومة رمحاً عاملها من خلفها شدة ضربي الشبيهة بالندى أو بالسحاب، وذلك مناسب للإيجار. ويروي: سمر، كحمر، فهو خبر ثانٍ. وأعاملها: مضارع. وناد: مفعول أوجرته وفيه نوع التهكم. وروي لزهير تكميل البيت الأول بقوله:

.... يميد في الرمح ميد المائح الأسن

أي المنتن. يقال: أسن الماء فهو آسن، بالمد وتركه، إذا أنتن.

والبيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه ص ٦٤، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٠، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٦٨، ولعبيد بن الأبرص أو للهذلي في الدرر ٥/ ١٢٨، وشرح شواهد المغني ص ٤٩٤، وللهذلي بدون تحديد في الأزهية ص ٢١٢، والجنى الداني ص ٢٥٩، وشرح المفصل ٨/ ١٤٧، والكتاب ٤/ ٢٢٤، ولسان العرب (قدد)، ومغني اللبيب ص ١٧٤، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٧٦، ورصف المباني ص ٣٩٣، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٢٠، ولسان العرب (أسن)، والمقتضب ١/ ٤٣، وهمع الهوامع ٢/ ٧٣.

وحكمته ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ نحوه، قال [من المتقارب]:

وَأَظْعَنُ بِالْقَوْمِ شَطْرَ الْمُلُو   كِ ....[1]

وقرأ أبيّ: تلقاء المسجد الحرام، وعن البراء بن عازب: قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم وجه إلى الكعبة[2] (٨٣)، وقيل: كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين، ورسول الله ـ ﷺ ـ في مسجد بني سلمة وقد صلّى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحوّل في الصلاة واستقبل الميزاب، وحوّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فسمى المسجد مسجد القبلتين(٨٤)، و﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾: نصب على الظرف، أي اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد أي في جهته وسَمْته[3]؛ لأن استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد، وذكر

---

٨٣ ـ أخرجه البخاري (٢/ ٦٠) كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان حديث (٣٩٩)، وأطرافه في (٤٠، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢ ـ ١٣ ـ نووي) كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة حديث (٥٢٥)، والترمذي (٢/ ١٦٩) كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في ابتداء القبلة حديث (٣٤٠)، (٥/ ١٩١)، كتاب التفسير حديث (٢٩٦٢)، وابن ماجة (١/ ٣٢٢) كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة حديث (٢٩٦٢)، وابن ماجة (١/ ٣٢٢) كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة حديث (١٠١٠)، وابن حبان في صحيحه (٤/ ٦١٧ ـ ٦١٨) رقم (١٧١٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٣، ٢٨٨ـ ٢٨٩، ٣٠٤)، والبيهقي في السنن (٢/ ٢) كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

وابن خزيمة في صحيحه مختصراً (١/ ٢٢٢) رقم (٤٢٨)، والدارقطني (١/ ٢٧٣)، وابن الجارود في المنتقى رقم (١٦٥)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ٩٥) رقم (٤٤٥).

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

متفق عليه من طريق أبي إسحاق عنه، وفيه: «وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ـ الحديث»، وفي رواية لابن حبان: «وكا يحب أن يحوّل نحو البيت». انتهى.

٨٤ ـ قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

«أخرجه الواقدي في المغازي، ونقله عن ابن سعد ثم أبي الفتح اليعمري» ا.هـ.

---

(١) ويروى هذا البيت هكذا:

وأطعن بالرمح شطر الملو   ك حتى إذا خفق المجدح

ينظر اللسان (جدح)، والدر المصون ١/ ٣٩٩.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وشرحه هذا على التحقيق متضادٌ؛ لأنه شرح «قد نرى» بـ ربما نرى، ورب على مذهب المحققين إنما تكون لتقليل الشيء في نفسه، أو لتقليل نظيره، ثم قال: ومعناه كثرة الرؤية، فهو مضاد لمدلول رب على مذهب الجمهور، ثم هذا الذي ادعاه من كثرة الرؤية لا يدل عليه اللفظ؛ لأنه لم توضع للكثرة «قد» مع المضارع سواء أريد به المضي أم لا، وإنما فهمت الكثرة من متعلق الرؤية، وهو التقلب. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود رحمه الله: «الشطر النحو والسمت... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وقد نقل أصحابنا =

المسجد الحرام دون الكعبة؛ دليل في أنّ الواجب، مراعاة الجهة دون العين، ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: أن التحويل إلى الكعبة هو الحق؛ لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلّي إلى القبلتين، ﴿يَعْمَلُونَ﴾ قرىء بالياء والتاء؛ ﴿مَّا تَبِعُوا﴾: جواب القسم المحذوف سدّ مسدّ جواب الشرط، ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: بكل برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق، ما تبعوا ﴿قِبْلَتَكَ﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة؛ إنما هو عن مكابرة، وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾: حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا، لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم، وقرىء: «بتابع قبلتهم»: على الإضافة، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: يعني أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم، كما لا ترجى موافقتهم لك، وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس، أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه، وثباته عليه، فالمحق منهم لا يزل عن / ٦١ب مذهبه لتمسكه بالبرهان، والمبطل لا يقلع عن باطله؛ لشدة شكيمته في عناده، وقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾: كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتبعتهم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر، ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: المرتكبين الظلم الفاحش، وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير، واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق، فإن قلت: كيف قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، ولهم قبلتان[1] لليهود قبلة

= المالكية خلافاً عن المذهب في الواجب فقيل: الجهة. وقيل: العين، هذا مع البعد. وأما حيث تشاهد الكعبة في المسجد الحرام فمن خرج عن السمت ثم لم تصح صلاته قولاً واحداً، ثم لهم على كل واحد من القولين إشكال. أما على قول العين فيلزم أن لا تصح صلاة الصف المستقيم المستطيل زيادة على مسامتة الكعبة شرفها الله تعالى، لأنا نعلم بالضرورة ـ وإن لم نشاهد ـ أن بعضهم يصلّي إلى غير عينها. إذ لا يفي سمتها بذلك على هذا التقدير. لكن الجواز في مثل هذا مع البعد متفق عليه. وأما على قول الجهة فيلزم تجويز صلاة الكائن في الشمال مثلاً إلى الجهات الثلاث، لأنها كلها جهات الكعبة، والسمت غير مراعى على هذا المذهب، وإنما جاء هذا الخبط من عدم التمييز بين مراعاة الجهة والسمت. ولقد ميزهما أبو حامد بمثال هندسي في كتاب الإحياء فلا نطول بذكره. والتحقيق عند الفتوى: أن المعتبر مع البعد الجهة لا السمت.

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لم جاء على التوحيد وهما قبلتان... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا ما أجيب به عن قوله تعالى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ مع أنه متعدد وهو المن والسلوى، فقيل إنهم أرادوا أنهما من طعام الترفه، وآثروا طعام الفلاحة والأجلاف، فلما اتحد الطعامان المذكوران في الرفاهية جعلوهما طعاماً واحداً. وهذا المعنى في إنكار الطعام أبلغ، لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ حتى أكدوه بقولهم ﴿وَاحِدٍ﴾ وللزمخشري عنه جواب آخر سلف بمكانه.

وللنصارى قبلة؟ قلت: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جلية يميّزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾: لا يشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أنا أعلم به مني بابني، قال: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي، فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه، وجاز الإضمار، وإن لم يسبق له ذكر؛ لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام، وقيل: الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة، وقوله: (كما يعرفون أبناءهم): يشهد للأول وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام. فإن قلت: لم اختص الأبناء[1]؟ قلت: لأنّ الذكور أشهر وأعرف، وهم لصحبة الآباء ألزم، وبقلوبهم ألصق، وقال: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: استثناء لمن آمن منهم، أو لجهالهم الذين قال الله تعالىٰ فيهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٧٨]. ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف، أي هو الحق، أو مبتدأ خبره: (من ربك)، وفيه وجهان: أن تكون اللام للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ـ ﷺ ـ، أو إلى الحق الذي في قوله ليكتمون الحق، أي: هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره، يعني أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل، فإن قلت: إذا جعلت الحق خبر مبتدأ فما محل من ربك؟ قلت: يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون حالاً، وقرأ عليّ ـ رضي الله عنه ـ: الحق من ربك، على الإبدال من الأوّل، أي يكتمون الحق، الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم، أوفي أنه من ربك، ﴿وَلِكُلٍّ﴾: من أهل الأديان المختلفة، ﴿وِجْهَةٌ﴾: قبلة، وفي قراءة أبيّ: ولكل

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت لم خصّ الأبناء ولم يقل أولادهم. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: بنى كلامه هذا على أن الإناث لا يدخلن في لفظ الأبناء كما يدخلن في لفظ الأولاد، وليس الأمر كذلك، بل اللفظان سواء في شمول الإناث، ولذلك يدخلن في لفظ الواقف إذا وقف على بنيه وبني بنيه، كما يدخلن في لفظ الأولاد. هذا مذهب الإمام مالك رضيَ الله عنه.

قبلة، ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ وجهه، فحذف أحد المفعولين، وقيل هو لله تعالى، أي الله موليها إياه، وقرىء: «ولكل وجهة» على الإضافة، والمعنى / ٦٢أ وكل وجهةٍ اللَّهُ موليها، فزيدت اللام؛ لتقدم المفعول كقولك: لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه، وقرأ ابن عامر: هو مولاها أي هو مولى تلك الجهة وقد وليها، والمعنى: لكل أمّة قبلة تتوجه إليها، منكم ومن غيركم، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾: أنتم، ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾: واستبقوا إليها[1] غيركم من أمر القبلة وغيره، ومعنى آخر: وهو أن يراد: ولكل منكم يا أمة محمد، وجهة، أي: جهة يصلّى إليها جنوبية، أو شمالية، أو شرقية، أو غربية، فاستبقوا الخيرات، ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾: للجزاء من موافق ومخالف لا تعجزونه، ويجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي الجهات المسامتة للكعبة، وإن اختلفت، أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعاً يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ﴾: أي: ومن أي بلد خرجت للسفر، ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾: إذا صليت، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإن هذا المأمور به، وقرىء: «تعملون» بالتاء والياء، وهذا التكرير، لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأنّ النسخ من مظانّ الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدّوا، ولأنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلفت فوائدها، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: استثناء من الناس، ومعناه: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء.

---

(١) قوله «واستبقوا إليها» لعله واسبقوا. (ع)

فإن قلت: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحوّل حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين؟ قلت: كانوا يقولون ما له لا يحوّل إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون: بداله فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم، وقرأ زيد بن علي ـ رضي الله عنهما ـ «ألا الذين ظلموا منهم»، على أنّ ألا للتنبيه ووقف على حجة، ثم استأنف منبها، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم، فإنهم لا يضرونكم، ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾: فلا تخالفوا أمري وما رأيته مصلحة لكم، ومتعلق اللام محذوف، معناه: ولإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك؛ أو يعطف على علة مقدّرة، كأنه قيل: واخشوني لأوفقكم ولأتمّ نعمتي عليكم، وقيل: هو معطوف على: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾، وفي الحديث: «تَمَامُ النِّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ» (٨٥) وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: «تَمَامُ النِّعْمَةِ الْمَوْتُ عَلَى الْإِسْلَامِ»/ ٦٢ب ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾: إمّا أن يتعلق بما قبله، أي: ولأتمّ نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده، أي: كما ذكرتكم بإرسال الرسول، ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بالطاعة، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾: بالثواب، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾: ما أنعمت به عليكم، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: ولا تجحدوا نعمائي، ﴿أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾: هم أموات بل هم أحياء، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾: كيف حالهم في حياتهم، وعن الحسن: أنّ الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشيا، فيصل إليهم الوجع، وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها، وقالوا: يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملة فيحييها ويوصل إليها النعيم وإن كانت في حجم الذّرة، وقيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر،

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ

---

٨٥ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٥٤١) كتاب الدعوات، حديث (٣٥٢٧).
وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١) عن معاذ بن جبل.
وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٦٥).
وعزاه «لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، والطبراني، والبيهقي في الأسماء والصفات، والخطيب عن معاذ بن جبل» ا.هـ.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أحمد، والترمذي، والبزار من حديث معاذ، وسيأتي في سورة الرحمن. انتهى.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾: ولنصيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ ﴿بِشَيۡءٖ﴾: بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: المسترجعين عند البلاء؛ لأنّ الاسترجاع: تسليم وإذعان، وعن النبي ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»، (٨٦) وروي: أنه طفيء سراج رسول الله ﷺ: فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فقيل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم، كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»، (٨٧) وإنما قلل في قوله: (بشيء): ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه، وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزايلهم؛ وإنما وعدهم ذلك قبل كونه؛ ليوطنوا عليه نفوسهم، (ونقص): عطف على (شيء)، أو على الخوف، بمعنى: وشيء من نقص الأموال، والخطاب في: (بشّر): لرسول الله ﷺ، أو لكل من يتأتى منه البشارة، وعن الشافعي ـ رحمه الله ـ في الخوف: خوف الله، والجوع: صيام شهر رمضان؛ والنقص من الأموال: الزكوات والصدقات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات؛ موت الأولاد[1]، وعن النبي ﷺ:

---

٨٦ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٥٥) رقم (١٣٠٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١١٦) رقم (٩٦٨٩)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به مرفوعاً.

وعلي عن ابن عباس منقطع، وقد تقدم الكلام على هذا.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبري، والطبراني، والبيهقي في الشعب من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ الآية: إن المؤمن إذا أسلم لأمر الله، واسترجع عند المصيبة أحرز ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة. وتحقيق سبيل الهدى، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: من استرجع... فذكره. انتهى.

٨٧ ـ أخرجه أبو داود في المراسيل رقم (٤١٢)، حدثنا قتيبة حدثنا يحيىٰ ـ يعني ابن سليم ـ عن عمران القصير قال:

طفيء مصباح النبي ـ ﷺ ـ فاسترجع قالت عائشة: إن هذا مصباح: قال: «كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة»، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عمران القصير، قال: طفيء مصباح النبي ﷺ فاسترجع، فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إنما هذا مصباح. فقال: كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «وعن الشافعي رضيَ الله عنه: الخوف خوف الله.. والجوع: صيام شهر =

«إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى للملائكة: أقبضّتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد»، (٨٨) والصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة، وجمع بينها وبين الرحمة، كقوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة أيّ رحمة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: لطريق الصواب، حيث استرجعوا وسلموا لأمر الله.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

والصفا والمروة: علمان للجبلين، كالصمان والمقطم/٦٣أ والشعائر: جمع شعيرة، وهي العلامة، أي: من أعلام مناسكه ومتعبداته، والحج: القصد، والإعتمار: الزيارة، فغلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين، وهما في المعاني كالنجم والبيت في الأعيان، وأصل ﴿يَطَّوَّفَ﴾: يتطوّف، فأدغم، وقرىء: «أن يطوف»: من طاف، فإن قلت: كيف قيل: إنهما من شعائر الله، ثم قيل: لا جناح عليه أن يطوف بهما؟ قلت: كان على الصفا أساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان، يروى: أنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا

---

٨٨ ـ أخرجه الترمذي (٣/ ٣٣٢) كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب حديث (١٠٢١)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢١٠) رقم (٢٩٤٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤١٥)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١١٨ ـ ١١٩) رقم (٩٦٩٩، ٩٧٠٠).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب، وأخرجه أحمد وغيره وصححه ابن حبان، ورواه البيهقي في الشعب مرفوعاً وموقوفاً، انتهى.

= رمضان، والنقص من الأموال: الزكوات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات: موت الأولاد» قال أحمد: وفي تفسيره هذا نظر، لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل، مذكور قبل وقوعه توطناً عليه عند الوقوع، ولعله ما من بلية ذكرها إلا وقد تقدمت لهم قبل نزول الآية، إذ الخوف من الله تعالى لم يزل مشحوناً في قلوب المؤمنين، ويبعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص وقد عبر عنها الشرع بالزكاة التي هي النمو ضد النقص وورد «ما نقص مال من صدقة» ويمكن أن يقال هي نقص حساً؛ وإنما سميت زكاة باعتبار ما يؤول إليه حال القيام بها من النمو فالعوض المرجو من كرم الله خلف فلما ذكرها الله تعالى في سياق الابتلاء الموعود بها عبّر عنها بالزكاة تسهيلاً لإخراجها على المكلف لأنه إذا استشعر العوض من الله تعالى ونمو ماله بذلك، هان عليه بذلها وسمحت نفسه لذلك.

في الكعبة، فمسخا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدّة عُبدا من دون الله، فكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان، كره المسلمون الطواف بينهما، لأجل فعل الجاهلية، وأن لا يكونْ عليهم جناح في ذلك، فرفع عنهم الجناح، واختلف في السعي، فمن قائل: هو تطوّع بدليل رفع الجناح وما فيه من التخيير بين الفعل والترك، كقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وغير ذلك، ولقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، كقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ويُروى ذلك عن أنس، وابن عباس، وابن الزبير، وتنصره قراءة ابن مسعود: فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما، وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أنه واجب وليس بركن، وعلى تاركه دم، وعند الأوّلين لا شيء عليه، وعند مالك والشافعي: هو ركن، لقوله ـ عليه السلام ـ: «اِسْعَوْا فَإِن الله كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ» (٨٩) وقرىء: ومن يطوّع بمعنى: ومن يتطوع،

---

٨٩ ـ رُوي هذا من حديث ابن عباس، وصفية بنت شيبة، وحبيبة بنت أبي تجرأة، وتملك العبدرية.

ـ أما حديث ابن عباس:

فرواه الطبراني (١١/ ١٨٤) رقم (١١٤٣٧) قال: حدثنا محمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن المفضل بن صدقة عن ابن جريج، وإسماعيل بن مسلم عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عام حج عن الرمل، فقال: «إنَّ الله كتب عليكم السعي فاسعوا».

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٤٢):

«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه المفضل بن صدقة، وهو ضعيف» ا.هـ.

وقال في المجمع أيضاً (٣/ ٢٥١):

«رواه الطبراني في الكبير، وفيه المفضل بن صدقة وهو متروك» ا.هـ.

وأمّا حديث صفية بنت شيبة: قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: اسعوا؛ فإن الله كتب عليكم السعي» ا.هـ.

عزاه الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٥١) للطبراني في الكبير، وقال: «فيه المثنى بن الصباح، وثقه ابن معين في رواية، وضعفه جماعة» ا.هـ.

وأمّا حديث حبيبة بنت أبي تجرأة: أنها قالت: «رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى إني لأرى ركبتيه من شدة السعي، وهو يقول: اسعوا؛ فإن الله كتب عليكم السعي».

أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٢١، ٤٢١ ـ ٤٢٢)، والشافعي في المسند (١/ ٣٥١) رقم (٩٠٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٧٠)، والدارقطني (٢/ ٢٥٦)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٨٤) رقم (١٩١٤ ـ بتحقيقنا).

وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٥٠):

«رواه أحمد والطبراني في الكبير. . . وفيه عبد الله بن المؤمل، وثقه ابن حبان، وقال: يخطىء، وضعفه غيره» ا.هـ.

ـ وأما حديث تملك العبدرية:

قالت: نظرت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا في غرفة لي بين الصفا والمروة، وهو يقول: «أيها =

فأدغم، وفي قراءة عبد الله: ومن يتطوع بخير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾: من أحبار اليهود، ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: من الآيات الشاهدة على أمر محمد - ﷺ - ﴿والهدىٰ﴾: والهداية بوصفه إلى أتباعه والإيمان به، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾: ولخصناه، ﴿لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: في التوراة، لم ندع فيه موضع إشكال، ولا اشتباه على أحد منهم، فعمدوا إلى ذلك المبين الملخص فكتموه ولَبَّسوا على الناس، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾: الذين يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: ما أفسدوا من أحوالهم، وتداركوا ما فرط منهم، ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾: ما بينه الله

= الناس، إنه كتب عليكم السعي فاسعوا»، رواه البيهقي (٥/٩٨) كتاب الحج، باب وجوب الطواف بين الصفا والمروة، وأن غيره لا يجزي عنه.

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٥١):

«رواه الطبراني في الكبير، وفيه المثنى بن الصباح، وقد وثقه ابن معين في رواية، وضعفه جماعة» ا.هـ.

وقال الزيلعي في نصب الراية (٣/٥٧):

«تفرد به مهران بن أبي عمر قال البخاري: في حديثه اضطراب».

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: سئل رسول الله - ﷺ - عام حج عن الرمل فذكره. رواه الشافعي، وأحمد، وإسحاق، والطبراني، والدارقطني، والحاكم من رواية عبد الله بن المؤمل عن عمر بن عبد الرحمن بن نحيس عن عطاء بن أبي رباح عن حبيبة بنت أبي تجرأة، قالت: رأيت رسول الله - ﷺ - يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه، وهو وراءهم يسعى حتى إني لأرى ركبتيه من شدة السعي، وهو يقول: «اسعوا؛ فإن الله كتب عليكم السعي»، وعبيد الله ضعيف. وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن عبد الله بن شيبة عن جدته صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجرأة. قالت: اطلعت بكرة بين الصفا والمروة فأشرفت على رسول الله - ﷺ - وإذا هو يسعى، ويقول لأصحابه: «اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعي»، وأخرجه الطبراني والبيهقي من رواية ابن عيينة عن المثنى بن الصباح عن المغيرة بن حكيم، عن صفية عن تملك العبدرية قالت: نظرت إلى رسول الله - ﷺ - وأنا في غرفة لي بين الصفا والمروة، وهو يقول: «أيها الناس، إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا». والمثنى ضعيف، وأخرجه الطبراني من رواية حميد بن عبد الرحمن عن المثنى بن الصباح فلم يذكر تملك. انتهى.

في كتابهم فكتموه، أو بينوا للناس ما أحدثوه من توبتهم، ليمحوا سمة الكفر عنهم، ويعرفوا بضدّ ما كانوا يعرفون به، ويقتدي بهم غيرهم من المفسدين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: يعني الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين ولم يتوبوا، ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً، وقرأ الحسن: «والملائكةُ والناسُ أجمعون» والملائكة والناس أجمعون، بالرفع عطفاً على محل اسم الله، لأنه فاعل في التقدير، كقولك: عجبت من ضرب زيد وعمرو، تريد من أن ضرب زيد وعمرو، كأنه قيل: أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾، وفي الناس المسلم والكافر، قلت: أراد بالناس من يعتدّ بلعنه/ ٦٣ب وهم المؤمنون، وقيل: يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ ﴾: في اللعنة، وقيل: في النار إلا أنها أضمرت تفخيماً؛ لشأنها وتهويلاً، ﴿ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾: من الإنظار أي لا يمهلون ولا يؤجلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

﴿ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾: فرد في الإلٰهية لا شريك له فيها ولا يصحّ أن يسمى غيره إلٰهاً، و﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾: المولى لجميع النعم أصولها وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة، فإن كلّ ما سواه إمّا نعمة وإما منعم عليه، وقيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت[1].

---

(١) قوله ـ سبحانه ـ ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ إلى نهاية الآية التي بعدها هذا الخطاب للمشركين، ومقامهم الإنكار، ولهذا عجبوا حينما نزلت هذه الآية ـ كما بين ذلك العلامة المفسر، ولكن المتكلم هو الله العليم بذات الصدور، ولهذا أراد أن ينزلهم منزلة غير المنكرين، فجاء خطابهم بدون توكيد.
والبلاغيون في هذا المجال يقولون: إنه خطاب خالي الذهن يكون بلا توكيد، والمتردد بتوكيد واحد، والمنكر بتوكيدات تدفع الإنكار، وتدع ما في نفسه من أدواء، ولكن إذا كان المخاطب لديه من الدلائل التي لو تأملها لاقتنع بالقضية من عند نفسه، هنا ينزل المنكر منزلة خالي الذهن بهذا الاختيار الجديد، ويسمى هذا التنزيل: خطاب على غير ظاهر الحال، وهذا المقام له تفريعات عديدة، ومقامات فريدة، ومن أجل ذلك ترى المفسر العلامة يورد أنهم تعجبوا فأخبرهم المولى ـ سبحانه ـ في الآية التي بعدها بما يجب عليهم أن يفعلوه، وهو تدبر آيات الله في المسوات والأرض والليل والنهار والبحر والأرض فهم إن فعلوا ذلك علموا عن يقين أن الإله واحد، وهو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: واعتقابهما؛ لأنّ كلّ واحد منهما يعقب الآخر، كقوله: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ **[الفرقان: ٦٢]** ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾: بالذي ينفعهم مما يحمل فيها أو ينفع الناس، فإن قلت: قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾: عطف على أنزل أم أحيا؟ قلت: الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة؛ لأنّ قوله: **(فأحيا به الأرض)**: عطف على أنزل، فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبثّ فيها من كل دابة؛ ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الأرض وبثّ فيها من كل دابة؛ لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا[(١)]. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: في مهابها: قبولاً، ودبوراً، وجنوباً، وشمالاً، وفي أحوالها: حارّة، وباردة، وعاصفة، ولينة، وعقماً، ولواقح، وقيل: تارة بالرحمة، وتارة: بالعذاب، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾: سخر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يمطر حيث شاء، ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة، وعن النبيّ ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فَمَجَّ بِهَا» (٩٠) أي: لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها، وقرىء: الفُلُك بضمتين، وتصريف

---

٩٠ ـ ذكره الثعلبي في التفسير.
وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٩٩): «غريب جدًا» ا.هـ.

= يقول سعد الدين التفتازاني:
«ويجعل المنكر كغير المنكر إذا كان معه أي مع المنكر ما إن تأمله أي شيء من الدلائل والشواهد إن تأمل المنكر ذلك الشيء ارتدع عن إنكاره، ومعنى كونه مع المنكر أن يكون معلوماً له أو محسوساً عنده، كما تقول لمنكر الإسلام ـ الإسلام حق ـ من غير تأكيد لما معه من الدلائل الدالة على نبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكنه لا يتأملها ليرتدع عن الإنكار».
وقد فهم المفسرون هذا المنحى البلاغي في الأساليب الخبرية والإنشائية وركزوا هممهم في التطبيقات الفائقة في آيات الكتاب العزيز، ناظرين إلى مقامات الآيات التي وردت مع التوكيد أو بدونه سواء كان هذا على ظاهر الحال أو خلاف ظاهر الحال. ومن أراد الوقوف على نحو هذه الأسرار، واستجلاء هذه الآثار فعليه بمطالعة كتب المفسرين، ينظر روح المعاني للألوسي ٢٣/ ٤١، المطول ص ٥٠، والإيضاح ١/ ٩٨، وخصائص التراكيب لأبي موسى ٤٨ وما بعدها، وبحوث المطابقة لعلي البدري ١٦٨ وما بعدها؛ ودلائل الإعجاز بتعليق وشرح خفاجي ٣١١، وعلم المعاني ٥٤.

(١) قوله «ويعيشون بالحيا» في الصحاح: الحيا ـ مقصور ـ: المطر والخصب. (ع)

الريح، على الإفراد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿أَندَادًا﴾: أمثالاً من الأصنام، وقيل: من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم؛ واستدلّ بقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة ١٦٦]، ومعنى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب، ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: كتعظيم الله[1]، والخضوع له، أي: كما يحب الله تعالى، على أنه مصدر من المبني للمفعول؛ وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس، وقيل: كحبهم الله، أي: يسوُّون بينه وبينهم في محبتهم؛ لأنهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره؛ بخلاف المشركين فإنهم يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويعبدون الصنم/ ٦٤أ زماناً ثم يرفضونه إلى غيره، أو يأكلونه كما أكلت باهلة إلٰهها من حيس عام المجاعة، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾: إشارة إلى متخذي الأنداد، أي: لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أنّ القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم، ويعلمون شدّة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه، وقرىء: ولو ترى، بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب، أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً، وقرىء: إذ يرون، على البناء للمفعول، وإذ في المستقبل كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾: بدل من ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: تبرأ المتبوعون وهم الرؤساء من الأتباع، وقرأ مجاهد، الأوّل: على البناء للفاعل، والثاني: على البناء

---

(١) قال محمود رحمه الله: «يحبونهم كحب الله: يعظّمونهم كما يعظّم الله. . . إلخ». قال أحمد: فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول كالأول، ولكن هذا الفاعل مسمى وفعله مبني للفاعل عند فكه من السبك.

للمفعول، أي تبرأ الأتباع من الرؤوساء، ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: والواو للحال، أي: تبرؤا في حال رؤيتهم العذاب، ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾: عطف على تبرأ، و﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾: الوصل التي كانت بينهم، من الإتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب، والأتباع، والاستتباع؛ كقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿لَوْ﴾: في معنى التمني، ولذلك أجيب بالفاء الذي يجاب به التمني، كأنه قيل: ليت لنا كرّة فنتبرأ منهم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل ذلك الإراء الفظيع، ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ﴾، أي ندامات وحسرات، ثالث مفاعيل أرى: ومعناه أنّ أعمالهم تنقلب حسرات عليهم، فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم، ﴿وما هم بخارجين﴾: هم بمنزلته في قوله [من الكامل]:

هُـمْ يَـفْـرِشُـونَ الـلِّـبْـدَ كُـلَّ طِـمِـرَّةٍ ....[1]

في دلالته على قوّة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿حَلَٰلًا﴾: مفعول كلوا، أو حال مما في الأرض، ﴿طَيِّبًا﴾: طاهراً من كل شبهة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: فتدخلوا في حرام، أو شبهة، أو تحريم حلال، أو تحليل حرام، و (من): للتبعيض؛ لأن كل ما في الأرض ليس بمأكول، وقرىء: خطوات بضمتين، وخطوات بضمة وسكون، وخطؤات بضمتين وهمزة، جعلت الضمة على الطاء

---

(١) قال محمود رحمه الله: «هم ههنا بمنزلته في قوله هم يفرشون... إلخ» قال أحمد رحمه الله: أشد ما أخفى في هذه الكلمات معتقداً ورب صدره كلمات فهو ينفس عن نفسه خلق الكتمان بما ينفثه منه في بعض الأحيان، وكشف ذلك أن يقال: لما استشعر دلالة الآية لأهل السنة على أنه لا يخلد في النار إلا الكافر. وأما العاصي ـ وإن أصر على الكبائر ـ فتوحيده يخرجه منها ولا بد وفاء بالوعد. ووجه الدلالة منها على ذلك أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ، ومثل هذا النظم يقتضي الاختصاص والحصر لغة. وستمر للزمخشري مواضع يستدل فيها على الحصر بذلك، فقد قال في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أن معناه لا ينشر إلا هم، وأن المنكر عليهم ما يلزمهم من حصر الألوهية فيهم. وكذلك يقول في أمثال قولهم ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أن معناه الحصر أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم، فإذا ابتنى الأمر على ذلك لزم حصر نفي الخروج من النار في هؤلاء الكفّار دون غيرهم من الموحدين. لكن الزمخشري يأبى ذلك، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة بفائدة تتم له على القاعدة، فيجعل الضمير المذكور يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم لاختصاصه بهم، وهم عنده بهذه المثابة، لأن العصاة وإن خلدوا على زعمه إلا أن الكفّار أحق بالخلود وأدخل في استحقاقه منهم. فسبحان من امتحنه بهذه المحنة على حذقه وفطنته. والله ولي التوفيق.

كأنها على الواو، وخطوات بفتحتين وخطوات بفتحة وسكون، والخطوة: المرة من الخطو، والخطوة: ما بين قدمي الخاطي، وهما كالغرفة والغرفة، والقبضة والقبضة، يقال: اتبع خطواته، ووطىء على عقبه، إذا اقتدى به واستن بسنته، ﴿مُّبِينٌ﴾: ظاهر العداوة لا خفاء به، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾: بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته، أي: لا يأمركم بخير قط إنما يأمركم، ﴿بِالسُّوٓءِ﴾: بالقبيح ﴿وَالْفَحْشَآءِ﴾: وما يتجاوز الحدّ في القبح من العظائم، وقيل: السوء ما لا حدّ فيه، والفحشاء: ما يجب الحدّ فيه، ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: وهو قولكم: هذا حلال وهذا حرام، بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه، فإن قلت: كيف كان/ ٦٤ب الشيطان آمراً مع قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؟ [الحجر: ٤٢] قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر، كما تقول: أمرتني نفسي بكذا، وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين؛ لطاعتكم له وقبولكم وساوسه؛ ولذلك قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] لما كان الإنسان يطيعها فيعطيها ما اشتهت.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿لَهُمُ﴾: الضمير للناس، وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم، لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون، قيل: هم المشركون، وقيل: هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الإسلام فقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]؛ فإنهم كانوا خيراً منا وأعلم، وألفينا: بمعنى وجدنا، بدليل قوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: الواو للحال، والهمزة: بمعنى الردّ والتعجيب، معناه: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

لا بدّ من مضاف محذوف تقديره، ومثل داعي الذين كفروا، ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾: أو: ومثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق، والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان ـ في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار ـ كمثل الناعق بالبهائم، التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر

لها، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي، كما يفهم العقلاء ويعون، ويجوز أن يراد بما لا يسمع: الأصم الأصلخ، الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير، من غير فهم للحروف، وقيل معناه: ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته؛ فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل؟ وقيل معناه: ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع، إلا أنّ قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾: لا يساعد عليه، لأنّ الأصنام لا تسمع شيئاً[1]، والنعيق: التصويت، يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضأن، قال الأخطل [من الكامل]:

فَانْعَقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا ... مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الخَلَاءِ ضَلَالا[2]

وأما (نفق الغراب) فبالغين المعجمة ﴿صُمٌّ﴾ هم صم، وهو رفع على الذمّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾: من مستلذاته، لأنّ كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالًا[3] ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾: الذي رزقكموها، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: إن صحّ أنكم تخصونه بالعبادة، وتقرّون أنه مولى النعم، وعن النبي ﷺ: «يَقُولُ الله تَعَالَى: إِنّي وَالْجِنُّ والإِنْسَ

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولَحَظَ الزمخشري في هذا القولِ تمامَ التشبيهِ من كلِّ جهةٍ، فكما أن المنعوقَ به لا يسمع إلا دعاءً ونداءً فكذلك مدعوُّ الكافرِ من الصنم، والصنمُ لا يسمع، فَضَعُفَ عنده هذا القولُ» قال: «ونحن نقول: التشبيهُ وَقَعَ في مُطْلَقِ الدعاءِ لا في خصوصياتِ المدعوِّ، فتشبيه الكافرِ في دعائه الصنمَ بالناعِقِ بالبهيمةِ لا في خصوصياتِ المنعوقِ به». انتهى. الدر المصون.

(٢) للأخطل ونعق ينعق نعيقاً ـ بالعين المهملة ـ إذا صوت بغنمه. ونغق الغراب نغاقاً ـ بالمعجمة ـ إذا صاح أي: صوت لغنمك يا جرير، واكتفِ بذلك عن المفاخر فلست من أهلها، إنما أنت راعي غنم. منتك: حدثتك نفسك ووعدتك وسوّلت لك في الفضاء الخالي عن الناس ضلالاً وكذباً. لا هدى وصدقاً كما تزعم، وذمه جرير بقوله:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى ... حك استه وتمثل الأمثالا

ورد عليه الأخطل بقوله [من البسيط]:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ... قالوا لأمهم: بولي على النار

ينظر: ديوانه (٢٥٠)، البحر المحيط (١/ ٦٥١) والدر المصون ١/ ٤٣٩.

(٣) قوله «كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالاً» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فقد يكون حراماً، كما بين في موضعه. (ع)

فِي نَبَإٍ عَظِيمٍ، أَخْلُقُ، ويُعْبَدُ غَيْرِي وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ غَيْرِي» (٩١).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

قرىء: «حَرّم» على البناء للفاعل، و«حُرِّم» على البناء للمفعول، و«حَرُم» بوزن كرم، ﴿أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزى، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: على مضطرّ آخر بالاستيثار عليه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾: سَدّ الجوعة/٦٥أ فإن قلت: في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد، قال رسول الله ﷺ: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ» (٩٢). قلت: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة، ألا ترى أنّ

---

٩١ ـ أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٤) رقم (٤٥٦٣)، من طريق بقية حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير ابن نفير وشريح بن عبيد الحَضْرَمِيانِ عن أبي الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ قال: قال الله عز وجل. . . فذكره.
وعزاه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف للطبراني في مسند الشاميين.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف للترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل التاسع والثمانين بعد المائة، ولم أجده فيه من نسختي من النوادر؛ فلينظر.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من رواية بقية، حدثنا صفوان بن عمير، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير. وشريح بن عبيد عن أبي الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ قال: قال الله عز وجل: «إني والجن والإنس. . .» فذكره سواء. انتهى.

٩٢ ـ أخرجه الشافعي في مسنده (٢/ ١٧٣): كتاب الصيد، والذبائح، الحديث (٦٠٧)، وأحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجة (٢/ ١١٠٢). كتاب الأطعمة: باب الكبد والطحال، الحديث (٣٣١٤)، والدراقطني (٤/ ٢٧٢): باب الصيد والذبائح والأطعمة. الحديث (٢٥) والبيهقي (١/ ٢٥٤): كتاب الطهارة: باب الحوت يموت في الماء والجراد، وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص ـ ٢٦٠) رقم (٨٢٠) والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٣٩ ـ بتحقيقنا)، كلهم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال».
قال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ا.هـ.
وأخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٥٨) وأعلّه بعبد الرحمن، وقال كان ممّن يقلّب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك.
وقال: حدثنا أحمد بن المثنى ـ أبو يعلى ـ قال سمعت يحيى بن معين يقول عبد الرحمن، وأسامة. وعبد الله، بنو زيد بن أسلم ليسوا بشيء.
وهذا فيه نظر فإن عبد الله وثقه أحمد بن حنبل.
وقد أسند ابن حبان في المجروحين (٢/ ٥٨)، عن أحمد بن حنبل قال: عبد الله لا بأس به.
وأسند ابن عديّ في «الكامل» (٤/ ١٨٥) عن أحمد أنه قال: ثقة وقد أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٧٢) من طريق مطرّف عن عبد الله بن زيد به، وأخرجه البيهقي (١/ ٢٥٤) من طريق ابن أبي أويس قال: =

القائل إذا قال: أكل فلان ميتة، لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد، كما لو قال: أكل دماً، لم يسبق إلى الكبد والطحال، ولاعتبار العادة والتعارف، قالوا: من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث ـ وإن أكل لحماً في الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤] وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث ـ وإن

= ثنا عبد الرحمن، وأسامة، وعبد الله، بنو زيد ابن أسلم، عن أبيهم به.

وقال: أولاد زيد بن أسلم كلهم ضعفاء جرحهم يحيى بن معين وكان أحمد بن حنبل وعلي بن المديني يوثقان عبد الله بن زيد إلاً أن الصحيح من هذا الحديث الأول ـ يعني الموقوف ـ الذي أخرجه من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن ابن عمر موقوفاً. وقال هو في معنى المسند.

قال ابن التركماني في «الجوهر النقي» (١/ ٢٥٤): بل رواه يحيى بن حسان عن سليمان بن بلال مرفوعاً كذا قال ابن عديّ في الكامل ا.هـ. قلت. وهو ثقة.

وثّقه أحمد، والنسائي، والعجلي، وابن حبان، والبزار، وابن يونس. وقال أبو حاتم: صالح الحديث ينظر التهذيب (١١/ ١٩٧).

إلاً أن أبا زرعة رجح الموقوف فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٧) رقم (١٥٢٤): سئل أبو زرعة عن حديث رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أحلت لنا ميتتان ودمان». ورواه عبد الله بن نافع، عن أسامة بن زيد عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ـ ﷺ ـ ورواه القعنبي، عن أسامة وعبد الله بن زيد، عن أبيهما، عن ابن عمر موقوف. قال أبو زرعة الموقوف أصح.

وكذا صحح الموقوف أبو حاتم كما في «تلخيص الحبير» (١/ ٢٦) وقد توبع بنو زيد بن أسلم على رفغ الحديث.

تابعهم أبو هشام الأيلي عند ابن مردويه في «تفسيره» كما في «نصب الراية» (٤/ ٢٠٢) فقال: وله طريق آخر قال ابن مردويه في «تفسيره»، ثنا عبد الباقي بن قانع، ثنا محمد بن بشر بن مطر، ثنا داود بن راشد، ثنا سويد بن عبد العزيز، ثنا أبو هشام الأيلي، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر قال قال: قال رسول الله: «يحلّ من الميتة اثنان، ومن الدم اثنان: فأما الميتة فالسمك والجراد، وأما الدم فالكبد والطحال».

وسكت عنه الزيلعي فلم يبين علّته.

قال الحافظ في «التلخيص» (١/ ٢٦): تابعهم شخص أضعف منهم، وهو أبو هشام كثير بن عبد الله الأيلي. أخرجه بن مردويه في تفسيره. ـ وكثير قال البخاري ومسلم: منكر الحديث وقال النسائي والدارقطني: متروك.

ينظر التاريخ الكبير (٧/ ٩٥٠) والضعفاء الصغير (٣٠٦) للبخاري والكنى للإمام مسلم (٢/ ٨٧٥). والضعفاء والمتروكين للنسائي (٥٣١) والدارقطني (٤٤٥).

وقال الحافظ: الرواية الموقوفة التي صححها أبو حاتم، وغيره، هي في حكم المرفوع لأن قول الصحابي أحلّ لنا وحرّم علينا كذا مثل قوله «أمرنا بكذا ونهينا عن كذا فيحصل الاستدلال بهذه الرواية لأنها في معنى المرفوع».

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

أخرجه أحمد، والشافعي، وابن ماجة، والدارقطني من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

سماه الله تعالى دابة في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٥٥]. فإن قلت: فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه؟ قلت: لأنّ الشحم داخل في ذكر اللحم؛ لكونه تابعاً له وصفة فيه، بدليل قولهم: لحم سمين، يريدون أنه شحيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾: ملء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه، ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾: لأنه إذا أكل ما يتلبّس بالنار لكونها عقوبة عليه، فكأنه أكل النار، ومنه قولهم: أكل فلان الدم، إذا أكل الدية التي هي بدل منه؛ قال [من الطويل]:

أَكَلْتُ دَماً إنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضَرَّةٍ ....[1]

---

(١) دمشق خذيها واسلمي أن ليلة ... تمر بعودي نعشها ليلة القدر
أكلت دماً إن لم أرعك بضرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

لأعرابي تزوج امرأة فلم توافقه، فقيل له: إن حمى دمشق سريعة في موت النساء. فحملها إليها وقال لها ذلك، ونزل دمشق ـ وهي مدينة بالشام ـ منزلة العاقل فناداها. والظاهر أن هذا التنزيل من باب الاستعارة المكنية والنداء تخييل، وكذلك الأمر بالعلم، والمرور: المشي، فإسناده لليلة مجاز عقلي من الإسناد للزمان، وهو في الحقيقة لحملة النعش، أو بمعنى المضي فهو حقيقة والباء للملابسة، وهو كناية عن موتها. والعودان: طرفا النعش. وجعل تلك الليلة كليلة القدر عنده لشدة ترقبها وتمنيها والتشوّق إليها، ثم التفت إلى خطابها ودعا على نفسه بقوله: أكلت دماً، أي دية، لأنها بدل الدم وأخذها عار عند العرب، لدلالتها على الجبن وحب المال دون الثأر. وإن لم أرعك: من راعه يروعه إذا أخافه. والمراد أنه يغيظها بتزوج ضرة عليها جميلة طويلة العنق. فبعد مهوى القرط: كناية عن ذلك. والقرط: حلي الأذن. ومهواه: مسقطه من المنكب. والنشر: الرائحة الطيبة. ويحتمل أنه دعا على نفسه بالجدب حتى يحتاج لفصد النوق وأكل دمها، وكذلك كانت تفعل الجاهلية في الجدب. ويحتمل أن المراد: شربت دماً، فهو تعليق على الممتنع عنده دلالة على تحقيق التزوج، لأنه يرجع إلى أن عدم التزوج ممتنع كما أن شرب الدم ممتنع. ونظيره ما أنشده أبو إياس [من الطويل]:

أمالك عمر إنما أنت حية ... إذا هي لم تقتل تعش آخر العمر
ثلاثين حولاً لا أرى منك راحة ... لهنك في الدنيا لباقية العمر
دمشق خذيها لا تفتك قليلة ... تمر بعودي نعشها ليلة القدر
فإن أنفلت من عمر صعبة سالماً ... تكن من نساء الناس لي بيضة العقر

ولعل «العمر» في القافية الأولى بمعنى الدهر. ولهنك هاؤه بدل من همزة إن عند البصريين، وعند =

وقال[1] [من الرجز]:

يَــأْكُــلْــنَ كُــلَّ لَــيْــلَــةٍ إِكَــافَــا[2]

أراد ثمن الإكاف، فسماه إكافاً لتلبسه بكونه ثمناً له، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة في تكرمة الله إياهم بكلامه وتزكيتهم بالثناء عليهم، وقيل: نفي الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصرمه وقطع كلامه، وقيل: لا يكلمهم بما يحبون، ولكن بنحو قوله: ﴿اخسؤا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، كما تقول لمن يتعرّض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن؟! تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب، وقيل: فما أصبرهم، فأي شيء صبرهم، يقال: أصبره على كذا وصبره بمعنى، وهذا أصل معنى فعل التعجب، والذي روي عن الكسائي أنه قال: قال لي قاضي اليمن بمكة، اختصم إليّ رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له: ما أصبرك على الله، فمعناه: ما أصبرك على عذاب الله، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ﴾: أي ذلك العذاب بسبب أنّ الله نزل ما نزل من الكتب بالحقّ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾: في كتب الله، فقالوا في بعضها: حق وفي بعضها: باطل، وهم أهل الكتاب، ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾: لفي خلاف، ﴿بَعِيدٍ﴾: عن الحق، والكتاب للجنس، أو كفرهم ذلك؛ بسبب أنّ الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه من المشركين ـ فقال بعضهم: سحر، وبعضهم: شعر، وبعضهم: أساطير ـ لفي شقاق بعيد، يعني: أنّ أولئك لو لم يختلفوا ولم يشاقوا لما جسر هؤلاء أن يكفروا.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ

= غيرهم أصله: لله إنك. وبيضة العقر: زعموا أنها بيضة الديك لا يبيض في عمره غيرها. وقيل: هي مثل لما لا وجود له أصلاً. فالمعنى: أنه يتزوج جميلة لا يتزوج غيرها، أو أنه لا يتزوج أصلاً. وصعبة هي امرأته.

(١) البيت لعروة الرحال. ينظر: الحماسة ٢/ ٤٦٣ والدر المصون ١/ ٤٤٤.

إن لــنــا أحــمــرة عــجــافــا ... يــأكــلــن كــل لــيــلــة إكــافــا

الأحمرة: الحمير. والعجاف: المهازيل. والأكاف: البرذعة، فالمراد: يأكلن كل ليلة علفاً مُشترى بثمن إكاف، بأن يباع الإكاف ثم يشترى بثمنها علفاً لها، فأوقع الأكل على الإكاف بواسطتين، ولعل بيع براذعها لضعفها عن العمل. ويمكن أنه مجرد تقديم، وإنما خصّ الإكاف لاختصاصه بالحمير.

(٢) قوله «كل ليلة إكافاً» هو ما يوضع على ظهر الحمار عند ركوبه أو تحميله، أفاده الصحاح. (ع) ينظر: البحر المحيط ١/ ٦٦٧ والدر المصون ١/ ٤٤٤.

ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

﴿ٱلْبِرَّ﴾: اسم للخير ولكل فعل مرضيّ، ﴿أَن تُوَلُّوا۟ / ٦٥ب وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: الخطاب لأهل الكتاب[١]، لأن اليهود تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قِبل المشرق، وذلك أنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الكعبة، وزعم كل واحد من الفريقين أنّ البرّ التوجه إلى قبلته، فردّ عليهم، وقيل: ليس البرّ فيما أنتم عليه، فإنه منسوخ خارج من البرّ؛ ولكن البرّ ما نبينه، وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البرّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ أمر القبلة، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة برّ من آمن وقام بهذه الأعمال، وقرىء: «وليس البرّ» ـ بالنصب على أنه خبر مقدم ـ وقرأ عبد الله: بأن تولوا، على إدخال الباء على الخبر للتأكيد كقولك: ليس المنطلق بزيد، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: على تأويل حذف المضاف، أي برّ من آمن، أو يتأول البرّ، بمعنى ذي البرّ، أو كما قالت [من البسيط]:

.... فَــإِنَّــمَــا هِــيَ إِقْــبَــالٌ وإِدْبَــارُ[٢]

---

(١) قال محمود رحمه الله: «الخطاب فيه لليهود والنصارى... إلخ». قال أحمد رحمه الله: هذا منقول عن المبرد، مصمى بسهام الرد، فإن فيه إبهاماً بأن اختلاف وجوه القراءة موكول إلى الاجتهاد، وأنه مهما اقتضاه قياس اللغة جازت القراءة به لمن يعد أهلاً للاجتهاد في العربية واللغة. وهذا خطأ محض، فالقراءات سنة متبعة لا مجال فيها للدراية. على أن ما قاله وقدر أنه الأوجه ليس ببالغ ذروة فصاحة الآية إلا على القراءات المستفيضة، لأن الكلام مصدر بذكر البر الذي هو المصدر قولاً واحداً، فلو عدل إلى ذكر البر الذي هو الوصف لا يفك المطابقة ومعنى النظام. ولذلك كان تأويل الآية بحذف المضاف من الثاني على تأويل: بر من آمن، أوجه وأحسن وأبقى على السياق. ومن ظنّ أنه يشق غباراً أو يتعلق بأذيال فصاحة المعجز للفصحاء، فقد سوّلت له نفسه محالاً ومنته ضلالاً.

(٢)
فما عجول على بو تطيف به ... لها حنينان: إصغار وإكبار
لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار
يوماً بأوجد مني حين فارقني ... صخر وللدهر إحلاء وإمرار

للخنساء ترثي أخاها صخراً. والعجول: الناقة التي أسقطت حملها قبل تمام شهرين، والتي فقدت ولدها بنحر أو موت والبو: جلد محشو تدر الناقة لأجله. وقيل: ولد الناقة. وطاف به يطوف طوفاً وطوافاً وطوفاناً، إذا دار حوله وطاف عليه يطيف طيفاً، إذا أقبل عليه. وقد يستعمل كل موضع الآخر، أي تحوم حوله. ويروى: تحن له. وإصغار وإكبار: بدل من حنينان. ويروى: إعلان وإسرار. والمعنى واحد، غير أن فيه تقديماً وتأخيراً. أو الإصغار الحنين على الولد الصغير، والإكبار على الكبير. كذا قيل، لكن خير ما فسرته بالوارد. والدهر: نصب بتسأم أي: لا تمل طول =

وعن المبرّد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: «ولكنّ البَرّ»، بفتح الباء، وقرىء: «ولكن البارّ»، وقرأ ابن عامر ونافع: «ولكن البر» بالتخفيف، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: جنس كتب الله، أو القرآن، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: مع حب المال والشح به، كما قال ابن مسعود: «أَنْ تُؤْتِيَهَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمَلُ الْعَيْشَ وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلاَ تُمْهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ: قُلْتَ: لفلان: كذا ولفلان كذا (٩٣)، وقيل: على حب الله، وقيل: على حب الإيتاء،

٩٣ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩/ ٥٥) رقم (١٦٣٢٤) ومن طريقه أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٩٣) رقم (٨٥٠٣)، وعزاه الزيلعي (١/ ١٠٠ - ١٠١) في تخريج أحاديث الكشاف للحاكم، وأبي نعيم، والبيهقي في الشعب.
كلهم رووه موقوفاً، دون قوله: ولا تمهل حتى... إلخ.
وهي في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رجل للنبي - ﷺ -: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح حريص تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان».
أخرجه البخاري (٦/ ٢٥) كتاب الوصايا، باب الصدقة عند الموت حديث (٢٧٤٨)، ورواه في كتاب الزكاة (٤/ ٣٣)، باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح حديث (١٤١٩).
ومسلم (٤/ ١٣٣ - نووي) كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح حديث (١٠٣٢).
وأبو داود (٢/ ١٢٦) كتاب الوصايا، باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية حديث (٢٨٦٥).
والنسائي (٥/ ٦٨ - ٦٩) كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل، و(٦/ ٢٣٧). كتاب الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية، وابن ماجة (٢/ ٩٠٣) كتاب الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت حديث (٢٧٠٦) مطولاً، وأحمد (٢/ ٢٥، ٢٣١، ٤١٥، ٤٤٧)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٠٥) رقم (٣٣١٢)، وابن خزيمة (٤/ ١٠٣) رقم (٢٤٥٤)، والبيهقي (٤/ ١٨٩ - =

= الدهر مما ذكر من الحنين ورجوعه للبو، تأباه جزالة المعنى. ويمكن عوده على الطيف المعلوم من تطيف. ويروي بدل هذا الشطر • ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت • وأصله إذ تكرت أي تذكرت. ويروى • ترتع ما غفلت حتى إذا ذكرت • أي ترعى مدة غفلتها عنه، فإذا تذكرته فإنما هي ذات إقبال وذات إدبار، أو مقبلة ومدبرة، أو هي نفس الإقبال والإدبار مبالغة. أي تلتفت تارة أمامها وتارة خلفها وتتلهى عن الرعي. وقيل المراد إقبال النهار وإدبار الليل وعكسه. ويمكن أن وجهه استقلال المدة، أي فإنما مدة الدهر إقبال وإدبار دائرين بين الليل والنهار، فالضمير عائد على معلوم من السياق، لكن لا يظهر على الرواية الثانية. ويوما: نصب بأوجد وجاز تقدمه على أفعل التفضيل، لأنه ظرف، وكذلك تنبيهاً على أن المراد باليوم مطلق الزمن غالباً. وبأوجد: خبر عجول. ويروى «بأوجع» أي ليست أشد حزناً مني حين فارقني أخي، وحين نصب بأوجد أيضاً. ووجهه أنه في معنى عاملين، أي ليس وجدها يوماً أشد من وجدي حين الفراق، فالأول للأول، والثاني للثاني، ثم تسلت بقولها: وللدهر إحلاء وإمرار. ويقال: أحلى الشيء وأمر، صار حلواً وصار مراً. ويجوز أنهما متعديان. والمراد: أن الدهر ينعم العيش تارة ويبئسه أخرى. فالإحلاء والإمرار استعارتان لذلك.

يريد أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه، وقدم ذوي القربى، لأنهم أحق، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذي رحمك اثنتان لأنها صدقة وصلة» (٩٤) وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[1]،

= ١٩٠) كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الصحيح الشحيح.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف:

أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن زبيد عن مرة عنه. قال في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، قال: «أن يؤتيه» فذكره... إلى قوله: «ويخشى الفقر» ولم يذكر ما بعده، ومن طريقه أخرجه الطبراني والحاكم، وذكره أبو نعيم في الحلية في ترجمة مسعر، فأخرجه من طريقه عن زبيد به، وهكذا رواه مسعر والناس عن زبيد موقوفاً رواه مخلد بن يزيد عن الثوري مرفوعاً، وتفرد برفعه ثم ساقه، وأخرجه البيهقي من رواية شعبة عن زبيد موقوفاً، ومن طريق سلام بن سليم المداني عن محمد بن طلحة عن زبيد مرفوعاً: وسلام ضعيف رواه الطبري من ثلاثة طرق عن زيد موقوفاً. ولم يذكر أحد منهم ولا تمهل، وإنما هو في حديث أبي هريرة. اتفق الشيخان عليه بلفظ: «قال رجل للنبي ـ ﷺ ـ: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان، كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان». انتهى.

٩٤ ـ أخرجه الترمذي (٣/ ٣٨) كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة حديث (٦٥٨)، والنسائي (٥/ ٩٢) كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، وابن ماجة (١/ ٥٩١)، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة حديث (١٨٤٤)، وأحمد في المسند (٤/ ١٧، ١٨، ٢١٤)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٣٣) رقم (٣٣٤٤)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٧٧) رقم (٢٣٨٥)، والدارمي (١/ ٣٩٧) كتاب الزكاة، باب الصدقة على القرابة، والحميدي (٢/ ٣٦٣) رقم (٨٢٣)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٥) أرقام (٦٢٠٤ ـ ٦٢١٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

وللطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٤) رقم (٧٨٣٤) عن أبي أمامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الصدقة على ذي قرابة يضعف أجرها مرتين».

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢٠):

«رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبد الله بن زحر وهو ضعيف» ا.هـ.

وله أيضاً في الكبير (٥/ ١٠١) رقم (٤٧٢٣)، من حديث أبي طلحة، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة».

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٩):

«رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه من لم أعرفه» ا.هـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه النسائي، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وابن أبي شيبة، والدارمي، كلهم من حديث سلمان بن عامر بلفظ: «الصدقة على المسكين حسنة» الترمذي. وفي الباب عن ابن طلحة، وأبي أمامة. أخرجها الطبراني. انتهى.

---

(١) قوله «ذي الرحم الكاشح» في الصحاح: تقول طوى فلان عن كشحه، إذا قطعك. والكاشح الذي يضمر لك العداوة. (ع)

(٩٥) وأطلق، ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ والمراد: الفقراء منهم لعدم الإلباس، والمسكين:

---

٩٥ ـ ورد ذلك من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأبي أيوب، وحكيم بن حزام وأبي هريرة.
فأما حديث أم كلثوم: فرواه الحميدي (١/ ١٥٧) (٣٢٨)، وابن خزيمة (٢٣٨٦)، والحاكم (١/ ٤٠٦)، والبيهقي (٧/ ٧٠)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (ص٤٨) من طريق الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عنها مرفوعاً أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وكذا رواه الطبراني في الكبير (٢٥/ ٨٠) (٢٠٤).
وقال ابن طاهر كما في نصب الراية (٤/ ٤٠٦) سنده صحيح.
وقال المنذري في الترغيب (١/ ٦٨٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١١٩): رجاله رجال الصحيح.
وأما حديث أبي أيوب: فرواه أحمد (٥/ ٤١٦)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٣٨، ١٣٩)، (٣٩٢٣)، وابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه، وأبو يعلى الموصلي في «مسانيدهم» عن أبي معاوية، ثنا الحجاج عن الزهري عن حكيم بن بشير عنه مرفوعاً: «إن أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح».
وقال الدارقطني في العلل، كما في نصب الراية (٤/ ٤٦). لم يروه عن الزهري غير الحجاج بن أرطأة، ولا يثبت.
وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٩): فيه الحجاج بن أرطأة، وفيه كلام.
وأما حديث حكيم بن حزام: فرواه أحمد (٣/ ٤٠٢) عن سعيد بن سليمان ثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الزهري عن أيوب بن بشير عنه أن رجلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ: أي الصدقة أفضل قال: على ذي الرحم الكاشح.
وأخرجه أحمد (٥/ ٤١٦)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٢٦) (٣١٢٦) عن حجاج بن أرطأة عن الزهري به.
وقال المنذري (١/ ٦٨٢): رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن؛ وكذا قال الهيثمي.
وأما حديث أبي هريرة: فرواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» (٩١٤) عن إبراهيم بن يزيد المكي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عنه عن النبي ـ ﷺ ـ، أنه سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: «الصدقة على ذي الرحم الكاشح».
وقال أبو عبيد: وحدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب عن النبي ـ ﷺ ـ مثل ذلك، ولم يسنده عقيل. ا.هـ.
وطرق الحديث معلولة إلاَّ طريق أم كلثوم فهي صحيحة؛ وعلى ذلك فالحديث صحيح.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق، والحاكم، والبيهقي، والطبراني، من رواية ابن عيينة عن الزهري. عن حميد بن عبد الرحمن عن أمه أم كلثوم بنت عقبة. ورواه أبو عبيد في كتاب الأموال من رواية إبراهيم بن يزيد المكي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. وأخرجه من طريق عقيل عن الزهري مرسلاً. لم يذكر أبا هريرة، ورواه أحمد من رواية سفيان بن حسين عن الزهري عن أيوب بن بشير عن حكيم بن حزام، ورواه أيضاً هو وإسحاق والطبراني من طريق الحجاج بن أرطأة عنه عن حكيم بن بشير عن أبي أيوب. فهذه الطرق كلها تدور على «الزهري» مع اختلاف عليه، وأحفظهم سفيان بن عنبسة، وعقيل أحفظ منه. وروايته أشبه بالصواب. انتهى.

الدائم السكون إلى الناس، لأنه لا شيء له، كالمسكير: للدائم السكر، ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر المنقطع، وجُعل ابناً للسبيل لملازمته له، كما يقال للص القاطع: ابن الطريق، وقيل: هو الضيف، لأنّ السبيل يرعف به[1] ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: المستطعمين، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه». (٩٦) ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم، وقيل: في ابتياع الرقاب وإعتاقها، وقيل في فك الأسارى.

---

٩٦ ـ روى من حديث علي بن أبي طالب، الحسين ابن علي، أبي هريرة، وفاطمة الزهراء، والهرماس ابن زياد.

ـ أما حديث علي:

فأخرجه أبو داود (١/ ٥٢٣) كتاب الزكاة، باب حق السائل حديث (١٦٦٦)، من طريق فاطمة بنت حسين عن أبيها عن علي عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

ـ وأما حديث الحسين:

فرواه أبو داود (١/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣) كتاب الزكاة، باب حق السائل حديث (١٦٦٥)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠١)، وأبو يعلى (١٢/ ١٥٤) رقم (٦٧٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٤١) رقم (٢٨٩٣)، والقضاعي في مسند الشهاب رقم (٢٨٥).

ـ وأما حديث فاطمة الزهراء:

عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ١٠٥) لابن راهويه في مسنده مرفوعاً بلفظ: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرس» ا.هـ.

ـ أما حديث أبي هريرة:

فرواه ابن عديّ في الكامل (٤/ ١٥٠٣ ـ ١٥٠٤)، من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

ورواه في (٥/ ١٦٨٧) من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن أبي هريرة مرفوعاً.

ـ أما حديث الهرماس بن زياد:

فرواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤) رقم (٥٣٥)، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٠٤): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف» ا.هـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود من رواية فاطمة بنت الحسين بن علي عن أبيها عن علي ـ رضوان الله عليه ـ. ومن رواية الحسين بن علي، من غير ذكر أبيه. في إسنادهما يحيى بن أبي يعلى، وقيل: يعلى بن أبي يحيى: وهو مجهول. وقد رواه إسحاق بن راهويه من طريقه، فجعله من رواية فاطمة بنت الحسين عن فاطمة، ورواه الطبراني من حديث الهرماس بن زياد. وفيه عثمان بن فايد. وهو ضعيف: وقال مالك في الموطأ: أخبرنا زيد بن أسلم، أكان رسول الله ـ ﷺ ـ فذكره ووصله ابن عديّ من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة. وعبد الله ضعيف. ورواه أيضاً من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن أبي هريرة. وعمر ضعيف. انتهى.

---

(١) قوله «لأن السبيل يرعف به» أي يتقدّم به ويبرزه للمقيمين، كما يرعف الأنف بدم الرعاف. أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت: قد ذكر إيتاء المال في هذه الوجوه ثم قفاه بإيتاء الزكاة، فهل دلّ ذلك على أنّ في المال حقاً سوى الزكاة؟ قلت: يحتمل ذلك، وعن الشعبي: أنّ في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية، ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة، أو يكون حثاً على نوافل الصدقات والمبارّ، وفي الحديث: «نسخت الزكاة كلَّ صدقة» (٩٧) يعني: وجوبها، وروي: «ليس في المال حق سوى الزكاة» (٩٨) ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾: عطف على من آمن، وأخرج، ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: منصوباً على الاختصاص والمدح؛ وإظهاراً لفضل الصبر/٦٦أ في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال، وقرىء: والصابرون، وقرىء: والموفين، والصابرين، و﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: الفقر والشدة، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرض والزمانة، ﴿صَدَقُوا۟ۖ﴾: كانوا صادقين جادّين في الدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ

---

٩٧ ـ أخرجه البيهقي (٩/ ٢٦٢) كتاب الضحايا، والدارقطني (٤/ ٢٨١)، من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن، ونسخ غسل الجنابة كل غسل، ونسخ صوم رمضان كل صوم، ونسخ الأضحى كل ذبح.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الدارقطني، والبيهقي من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ وإسناده ضعيف. وأخرجه عبد الرزاق من قول علي موقوفاً. انتهى.

٩٨ ـ قال النووي في «المجموع» (٥/ ٣٠٤): وأما حديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة» فضعيف جداً لا يعرف.
قال البيهقي في السنن الكبيرة: والذي يرويه أصحابنا في التعليق «ليس في المال حق سوى الزكاة» لا أحفظ فيه إسناداً. ا.هـ.
لكن ورد هذا الحديث بغير هذا اللفظ وهو: «إن في المال حقاً سوى الزكاة».
أخرجه الترمذي (٣/ ٤٨) كتاب الزكاة: باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة حديث (٦٥٩) وابن ماجة (١/ ٥٧٠) كتاب الزكاة: باب ما أدى زكاته ليس بكنز حديث (١٧٨٩) من طريق أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس به.
وقال الترمذي: هذا حديث إسناده ليس بالقوي وأبو حمزة ميمون الأعور ضعيف وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث قوله «إن في هذا المال حقاً سوى الزكاة» وهذا أصح.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن ماجة من رواية أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس بهذا وترجم عليه ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز ـ وقال البيهقي: والذي يرويه أصحابنا في التعاليق: «ليس في المال حق سوى الزكاة»، لا أحفظ له إسناداً، وقد رواه الترمذي وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه بلفظ: «إن في المال حقاً سوى الزكاة» قال الترمذي: ليس إسناده بذاك. وقد رواه بيان، وإسماعيل عن الشعبي قال. وهو أصح. انتهى.

﴿اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

عن عمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وعطاء، وعكرمة، وهو مذهب مالك والشافعي[1] رحمة الله عليهم ـ: أنّ الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى أخذاً بهذه الآية ويقولون: هي مفسرة لما أبهم في قوله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولأنّ تلك واردة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، وهذه خوطب بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها، وعن سعيد بن المسيب، والشعبي، والنخعي، وقتادة، والثوري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه: أنها منسوخة بقوله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] والقصاص ثابت بين العبد والحرّ، والذّكر والأنثى، ويستدلون بقوله ـ ﷺ ـ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»(٩٩) وبأنّ التفاضل غير معتبر في الأنفس، بدليل أنّ جماعة لو قتلوا واحداً

---

٩٩ ـ أخرجه الطيالسي (٢/ ٣٧ ـ منحة) وأحمد (٢/ ٢١١) وأبو داود (٣/ ١٨٣) كتاب الجهاد: باب في السرية ترد على أهل العسكر حديث (٢٧٥١) وابن ماجة (٢/ ٨٩٥) كتاب الديات: باب المسلمون تتكافأ دماؤهم حديث (٢٦٨٥) وابن الجارود في المنتقى (٧٧١) والبيهقي (٨/ ٢٩) كتاب الجنايات: باب فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين وابن أبي شيبة (٩/ ٤٣٢) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٨٨ ـ بتحقيقنا) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٠) من طرق عن عمرو بن شعيب عن أبي عن جده قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وللحديث شاهد من حديث علي.

أخرجه أحمد (١/ ١٢٢) وأبو داود (٤/ ٦٦٧) كتاب الديات باب أيُقاد المسلم بالكافر حديث (٤٥٣٠) والنسائي (٨/ ١٩) كتاب القسامة: باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» (ص ـ ١٧٩) رقم (٤٩٥) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٩٢) وفي «مشكل الآثار» (٢/ ٩٠) والدارقطني (٣/ ٩٨) كتاب الحدود والديات (٦١) والحاكم (٢/ ١٤١) والبيهقي (٨/ ٢٩) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٨٨ ـ بتحقيقنا) من طريق الحسن عن قيس بن عباد قال: انطلقت أنا والأشتر إلى علي فقلنا: هل عهد إليك رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً لم يعهده للناس عامة قال: لا إلاّ ما كان في كتابي هذا فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده ومن أحدث حدثاً فعلى نفسه ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. =

---

(١) قال محمود رحمه الله: «مذهب مالك والشافعي رضيَ الله عنهما أن الحر لا يقتل بالعبد والذكر لا يقتل بالأنثى. . . إلخ» قال أحمد رحمه الله: وهذا من الزمخشري وهم على الإمامين، فإنهما يقتصان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنهما. وأما الحر والعبد عندهما فهو الذي وهم الزمخشري عنهما.

قتلوا به، وروي: «أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما

= وفي الباب عن ابن عباس ومعقل بن يسار وعائشة وعطاء بن أبي رباح مرسلاً.

ـ **حديث ابن عباس:**

أخرجه ابن ماجة (٢/ ٨٩٥) كتاب الديات: باب المسلمون تتكافأ دماؤهم حديث (٢٦٨٣) من طريق حنش عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ـ ﷺ ـ قال: المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم ويُرَد على أقصاهم.

وذكره الحافظ البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٥٣) وقال: هذا إسناد ضعيف لضعف حنش واسمه حسين بن قيس.

ـ **حديث معقل بن يسار:**

أخرجه ابن ماجة (٢/ ٨٩٥) كتاب الديات: باب المسلمون تتكافأ دماؤهم حديث (٢٦٨٤) وابن عديّ في «الكامل» (٥/ ٣٣٢) من طريق عبد السلام بن أبي الجنوب عن الحسن عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المسلمون يد على من سواهم وتتكافأ دماؤهم».

واللفظ لابن ماجة.

أما لفظ ابن عديّ: لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده والمسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم.

وقال ابن عديّ: وعبد السلام بن أبي الجنوب بعض ما يرويه لا يتابع عليه منكر.

وذكره الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤) وقال هذا إسناد ضعيف عبد السلام ضعفه ابن المديني وأبو حاتم وأبو زرعة والبزار وابن حبان.

ـ **حديث عائشة:**

أخرجه الدارقنطي (٣/ ١٣١) كتاب الحدود والديات حديث (١٥٥) من طريق مالك بن محمد بن عبد الرحمن عن عمرة عن عائشة قالت: وجد في قائم سيف رسول الله ـ ﷺ ـ كتابان: إن أشد الناس عتواً في الأرض رجل ضرب غير ضاربه أو رجل قتل غير قاتله ورجل تولى غير أهل نعمته فمن فعل ذلك فقد كفر بالله وبرسله ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً وفي الآخر: المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين.

وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٣٩٥) ومالك هذا هو ابن أبي الرجال أخو حارثة ومحمد قال أبو حاتم: هو أحسن حالاً من أخويه ا. هـ.

ـ **مرسل عطاء:**

أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص ـ ٢٩٠) رقم (٨٠٣) ثنا ابن أبي زائدة عن معقل بن عبد الله الجزري عن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم ومشدهم على مضعفهم ومتسريهم على قاعدهم.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود، والنسائي، والحاكم من طريق قيس بن عبادة عن علي في قصة. ورواه ابن داود وابن ماجة من رواية عمرو بن شعيب عن»أبيه عن جده. وزاد: «ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»، وفي الباب عن عائشة: رواه البخاري في تاريخه، والدارقطني، وعن ابن عباس، ومعقل بن يسار في ابن ماجة، وعن جابر في المعجم الأوسط للطبراني. انتهى.

طَوْلٌ على الآخر، فأقسموا لنقتلنّ الحرّ منكم بالعبد منا، والذكر بالأنثى، والاثنين بالواحد، فتحاكموا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حين جاء الله بالإسلام، فنزلت، وأمرهم أن يتباوؤا» (١٠٠) ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: معناه: فمن عفى له من جهة أخيه[1]، شيء من العفو، على أنه كقولك: سير بزيد بعض السير، وطائفة من السير، ولا يصحّ أن يكون شيء في معنى المفعول به، لأنّ (عفا): لا يتعدى إلى مفعول به إلا بواسطة، وأخوه: هو وليّ المقتول، وقيل له أخوه، لأنه لابسه، من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به، كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا، لمن بينه وبينه أدنى ملابسة أو ذكره بلفظ الأخوة، ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام، فإن قلت: إن عفى يتعدّى بعن لا باللام، فما وجه قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ﴾؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجاني وإلى الذنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة: ١٠١] فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً، قيل: عفوت لفلان عما جنى، كما تقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه، وعلى هذا ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفى له عند جنايته، فاستغنى عن ذكر الجناية، فإن قلت: هلا فسرت عفى

---

١٠٠ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» غريب جدًا وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «معنى الآية: فمن عفى له من جهة أخيه... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ويقوي هذا التأويل القول بأن موجب العمد أحد الأمرين من القصاص أو الدية. والخيار إلى الولي. وهو أحد القولين في مذهب مالك رضيَ الله عنه ومشهورهما. إذ لو جعلنا موجب العمد القود على القول الآخر، لكان في ذلك تضييق على الولي. والآية مشعرة بالتخفيف والسعة وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو عود الضميرين جميعاً إلى الولي، وقالوا على هذا الوجه يكون العفو إعطاء البدل، كأنه قال: فمن أعطي شيئاً من أخيه أي بدلاً من أخيه. ويكون «من» مثلها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾. ونظيره في استعمال العفو في العطاء عندي قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ إذا حمل الذي بيده العقدة على الزوج. وهو مذهب الشافعي رضيَ الله عنه. ويقول أصحابه: عفوه على أحد وجهين: إما من استرجاع النصف الواجب إن كان قد سلم جميع المهر، وإما على دفع النصف الآخر الذي سقط عنه إن كان لم يسلمه، فيكون العفو على هذا مستعملاً في الإعطاء. ويقوي هذا الوجه في أنه لا قصاص قوله ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ لأن المخاطب بالاتباع بالمعروف إنما هو الولي، فإذا جعلنا الضميرين له انساق الكلام سياقة واحدة إلى جهة واحدة، وصار المعنى: فمن أعطى من الأولياء بدلاً من أخيه، فليتبع بالمعروف في طلب ما أعطى. ولما خالفه الولي عن التقاضي خاطب القاتل بحسن الأداء، فلينتظم الكلام موجهاً إلى وجهة واحدة. وأما على الوجه الذي قرره الزمخشري، فالضميران جميعاً راجعان إلى القاتل وتقدير الكلام: فمن عفى له من القاتلين عن جنايته شيء من العفو فليتبع الولي هذا القاتل المعفو عنه بالمعروف، فيكون المخاطب أول الآية القاتل، وآخرها الولي، بخلاف الوجه الذي قررته والله أعلم. وكلا الوجهين حسن جيد.

بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت: لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس بثبت، ولكن أعفاه، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وَأَعْفُوا اللِّحَىٰ» (١٠١) فإن قلت، فقد ثبت قولهم: عفا أثره إذا محاه وأزاله، فهلا جعلت معناه: فمن محي له من أخيه شيء؟ قلت: عبارة قلقة في مكانها، والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس، فلا يعدل عنها/٦٦ب إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترىء ـ إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله ـ على اختراع لغة وادعاء على العرب ما لا تعرفه، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها[1]. فإن قلت؟: لم قيل: شيء من العفو؟ قلت: للإشعار بأنه إذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تمَّ العفو وسقط القصاص ولم تجب إلا الدية، ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾: فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع؛ وهذه توصية للمعفو عنه والعافي جميعاً، يعني: فليتبع الولي القاتل بالمعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة، وليؤدّ إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان، بأن لا يمطله ولا

---

١٠١ ـ أخرجه مالك (٢/٩٤٧) كتاب الشعر: باب السنة في الشعر حديث (١) والبخاري (١٠/ ٣٥١) كتاب اللباس باب إعفاء اللحى حديث (٥٨٩٣) ومسلم (١/ ٢٢٢) كتاب الطهارة: باب خصال الفطرة حديث (٥٢، ٥٣/ ٢٥٩) وأبو داود (٢/ ٤٨٣) كتاب الترجل: باب في أخذ الشارب حديث (٤١٩٨) والترمذي (٥/ ٩٥) كتاب الأدب: باب ما جاء في إعفاء اللحية حديث (٢٧٦٣، ٢٧٦٤) والنسائي (١/ ١٦) كتاب الطهارة باب إحفاء الشارب وإعفاء اللحى حديث (١٥) وفي (٨/ ١٨١ ـ ١٨٢) كتاب الزينة: باب إحفاء الشوارب وإعفاء اللحية حديث (٥٢٢٦) وأبو عوانة (١/ ١٨٩) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٧٦) وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ٢٣٩) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٣٠) والبيهقي (١/ ١٥١) كتاب الطهارة، وفي «الآداب» رقم (٨٣٠) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٤٧) وفي «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٣٧٥) رقم (٨٦٣) والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٢١٩ ـ بتحقيقنا) من طرق عن نافع عن ابن عمر به.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
متفق عليه من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «إذا ثَبَتَ أنَّ «عَفَا» بمعنى مَحافَلاَ يَبْعُدُ حَمْلُ الآية عليه، ويكونُ إسنادُ «عَفَا» لمرفوعِهِ إسناداً حقيقياً؛ لأنه إذ ذاك مفعولٌ به صريحٌ، وإذا كان لا يتعدَّى كان إسنادُهُ لمرفوعِهِ مجازاً؛ لأنَّه مصدرٌ مشبَّهٌ بالمفعولِ به، فقد يتعادَلُ الوجهان: أعني كونَ عفا اللازم لشهرتِهِ في الجناياتِ و «عفا» المتعدِّي بمعنى «مَحَا» لتعلقِهِ بمرفوعِهِ تعلقاً حقيقياً» فإن قيل: تُضَمَّنُ «عَفَا» معنى «تَرك» فالجوابُ أنَّ التضمينَ لا يَنْقاس، وقد أجاز ابنُ عطية أَنْ يكونَ عَفَا بمعنى تَرَكَ. وقيل إن «عُفِيَ» بمعنى فُضِلَ، والمعنى: فَمَنْ فُضِلَ له من الطائفتين على الأخرى شيءٌ من تلك الدِّيات، مِنْ قَولِهِم: عَفَا الشيءُ إذا كَثُرَ. انتهى. الدر المصون.

يبخسه، ﴿ذَٰلِكَ﴾: الحكم المذكور من العفو والدية، ﴿تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾؛ لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرّم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الإنجيل العفو وحرّم القصاص والدية، وخيرت هذه الأمّة بين الثلاث: القصاص، والدية، والعفو، توسعة عليهم وتيسيراً، ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾: التخفيف، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل[1]، أو القتل بعد أخذ الدية، فقد كان الولي في الجاهلية يؤمن القاتل بقبوله الدية، ثمّ يظفر به فيقتله، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة، وعن قتادة: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لاَ أُعَافِي أَحداً قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِهِ الدِّيَةَ» (١٠٢) ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾: كلام فصيح[2] لما

----

١٠٢ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ١٧٣) كتاب الديات، باب من قتل بعد أخذ الدية حديث (٤٥٠٧) من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا أعفى من قتل بعد أخذه الدية».
وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ١٥) رقم (١٨٢٠٠)، وابن جرير في تفسيره (٣/ ٣٧٦) رقم (٢٦٠٣) عن قتادة مرسلاً قال: وذكر لنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذه الدية.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٧٣)، وعزاه لابن المنذر أيضاً.
ونسبه السيوطي في الدر (١/ ١٧٣) لسمويه في فوائده من حديث سمرة.

---

(١) قوله «من قتل غير القاتل» بيان للتجاوز والاعتداء. (ع)
(٢) في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ إعجاز أسلوبي فيه منتهى البلاغة، وكلام المفسر العلامة فيه طيب دقيق وقد شاع بين البلاغيين موازنة بين قول العرب: «القتل أنفى للقتل» وهذه الآية وفي القول الكريم إعجاز، وفي كلام العرب ما يدل على ضعف الإنسان، وقد بين أهل البلاغة الفروق بين العبارتين، وإن كان كلام الله في السماء وكلام البشر في الثرى وخلاصة ما بينه أهل البيان في النقاط التالية:
١ ـ تقديم الجار والمجرور «لكم» فيه خطاب للإنسان في إنسانيته العالية، ولهذا كان التقديم مفيداً للاختصاص وهذا مما يطابق قوله في الختام «يا أولى الألباب»، وبهذا تدرك حقيقة من حقائق الحياة، وهن أن هذا التشريع الإلهي العالي للإنسانية وحدها، وهذا بخلاف ما قيل «القتل أنفى للقتل» فإنه بدأ بما يثير في النفس الهمجية والوحشية التي لا تتفق مع الإنسان في حقيقته.
٢ ـ قال «في القصاص» ليدل على أنه جزاء فعل لا بداية عدوان، وفيه أنه على قدر الاعتداء قلة وكثرة، وهذا المعنى لا يوجد في القول العربي.
٣ ـ «القصاص» بهذه الصيغة فيه دلالة على أن الذي يؤخذ منه من حقه الدفاع والمنازعة حتى يستقر الحكم ويستبين، ولهذا اختارها المولى على «الاختصاص» إذ هذا شريعة الفرد والقصاص شريعة المجتمع.
٤ ـ أن لفظة «قصاص» تفضل كلمة «قتل» من جهة أنه لا شبهة تحوم حولها فأما «القتل» فإنه إما جريمة واعتداء وإما جزاء، أما كلمة «القصاص» فإنها جزاء فقط، ولهذا كان اصطفاء كلمة «قصاص» منزهة عن العيب والشبهات، وهذا أدب أسلوبي إلهي. =

فيه من الغرابة[1]، وهو أنّ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل، وكان يُقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أيّ حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل؛ لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل؛ لأنّه إذا همّ بالقتل فعلم أنه يقتصّ منه فارتدع منه سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين، وقرأ أبو الجوزاء: ولكم في القصص حياة أي فيما قص عليكم من حكم القتل، القصاص، وقيل القصص: القرآن، أي: «ولكم في القرآن حياة للقلوب»، كقوله تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة.

= ٥ ـ «القصاص» فيه شمول للقتل فما دونه بخلاف القتل فإنه يخص هذه الغريزة البشرية بأقبح معانيها، ولهذا كان تكرارها في المثل بمثابة العيب المكرر، وهذا ما لا تراه في «القصاص».

٦ ـ التعبير «بالقصاص» يجعل الإنسان أمام سمة طيبة لو التزم بها لكان مطيعاً لربه بخلاف «القتل» فإن صورة عدوانية بكل ما تحمله هذه الكلمة.

٧ ـ «القصاص» فيه شمول لأخذ الدية والعفو وغير ذلك من الأحكام بخلاف القتل فإنه لا شيء فيه سوى وحشية الدماء.

٨ ـ تعريف «القصاص» بالألف واللام دليل على أنه مقيد بقيود شرعية لتكريم الإنسانية.

٩ ـ تنكير كلمة «حياة» لتفيد أنها حياة صالحة شاملة لكل ألوان الحياة، وبهذا تكون حياة عظيمة لأنها في ظل تشريع العظيم الذي يدير للإنسان ما يصلحه في كل زمان ومكان.

١٠ ـ نداء الإنسان بقوله «يا أولى الألباب» يفيد أن القرآن لا ينادي جميع البشر بما هم عليه من غفلات بل إنه ينادي عليهم من باب العقل، ولهذا ختم بقوله «لعلكم تتقون» ليفيد أن استعمال اللب في الحياة من وراء شرع الله له جزاء المتقين في الأولى والآخرة. هذه بعض سمات الأسلوب الإلهي، ومن أمعن النظر وأدرك بالبصيرة يجد أسراراً وختماً عجيباً في أساليب القرآن العظيم.

«ينظر وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي ٣/٤٠٣ وما بعدها. ط. دار المعارف بمصر، الإيضاح للقزويني ٣/٢٠١ وما بعدها، والمطول للسعد ٢٨٧.

(١) قال محمود رحمه الله: «كلام فصيح لما فيه من الغرابة. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: قوله جعل أحد الضدين محلاً للآخر: كلام إما وهم فيه أو تسامح، لأن شرط تضاد الحياة والموت اجتماعهما في محل واحد تقديراً، ولا تضاد بين حياة غير المقتص منه وموت المقتص، والبلاغة التي أوضحها في الآية بينة بدون هذا الإطلاق.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: إذا دنا منه وظهرت أماراته، ﴿خَيْرًا﴾ مالاً كثيراً، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنّ رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمائة/ ٦٧أ دينار، فقالت: ما أرى فيه فضلاً، (١٠٣) وأراد آخر أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وإنّ هذا الشيء يسير فاتركه لعيالك، (١٠٤) وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أنّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة فمنعه»، وقال: قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: والخير هو المال، وليس لك (١٠٥)

---

١٠٣ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩/ ٦٣) رقم (١٦٣٥٤)، قال: أخبرنا الثوري عن منصور بن صفية قال: حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير، أن عائشة سئلت عن رجل مات وله أربعمائة دينار، وله عدة من الولد فقالت عائشة: ما في هذا فضل عن ولده. ا.هـ.
وروى رقم (١٦٣٥٥) عن ابن جريج قال: أخبرني منصور بن عبد الرحمن عن أمه عن عائشة مثل حديث الثوري، إلاّ أنه قال: فلامته عائشة وقالت: إن ذلك لقليل أو نحو ذلك.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن منصور بن صفية حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير: «أن عائشة سئلت عن رجل مات وله أربعمائة دينار وله عدة من الولد، فقالت عائشة: ما في هذا فضل عن ولده»، وعن ابن جريج عن منصور بن عبد الرحمن عن أمه عن عائشة مثله. وزاد: «فلامته عائشة وقالت: إن ذلك لقليل. قلت: منصور بن عبد الرحمن هو ابن صفية، فكأنه سمعه من أمه، ومن عبد الله كلاهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. انتهى.
١٠٤ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢٢٩) رقم (٣٠٩٤٦)، حدثنا معاوية عن محمد بن شريك عن ابن أبي مليكة عن عائشة قال: قال لها رجل: إني أريد أن أوصى، قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف قالت: فكم عيالك؟ قال: أربعة قالت: فإن الله يقول: «إن ترك خيراً» وإنه شيء يسير؛ «فدعه لعيالك فإنه أفضل».
وأخرجه البيهقي في الكبرى أيضاً (٦/ ٢٧٠) كتاب الوصايا، باب: من استحب ترك الوصية إذا لم يترك شيئاً كثيراً.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن محمد بن شريك عن ابن أبي مليكة عن عائشة: «أن رجلاً قال لها: إني أريد أن أوصي ـ فذكره». انتهى.
١٠٥ ـ أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩/ ٦٢) رقم (١٦٣٥١) عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه قال: دخل عليٌّ على مولى لهم في الموت، فقال: يا عليُّ، ألا أوصي؟ فقال علي: لا إنما قال الله تبارك وتعالى: «إن ترك خيراً»، وليس لك كثير مال. قال: وكان له سبعمائة درهم، ورواه ابن =

مال، والوصية فاعل كتب، وذكر فعلها للفاصل، ولأنها بمعنى أن يوصى، ولذلك ذكر الراجع في قوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فنسخت بآية المواريث، وبقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِنَّ الله أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ أَلاَ لاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» (١٠٦) وبتلقي الأمّة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر، وإن كان من الآحاد،

= أبي شيبة (٦/ ٢٢٩) رقم (٣٠٩٤٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٧٠) كتاب الوصايا، باب: من استحب ترك الوصية إذا لم يترك شيئاً كثيراً.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن هشام عن أبيه قال: «دخل علي ـ رضي الله عنه ـ على مولى له في الموت، فقال: ألا أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وليس لك كثير مال. قال: وكان له سبعمائة درهم»، ورواه ابن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر عن هشام به. انتهى.

١٠٦ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٢٩٠) كتاب الوصايا: باب الوصية للوارث حديث (٢٨٧٠) والترمذي (٤/ ٤٣٣) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢١٢٠) وابن ماجة (٢/ ٩٠٥) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢٧١٣) وأحمد (٥/ ٢٦٧) والطيالسي (٢/ ١١٧ ـ منحة) رقم (٢٤٠٧) وسعيد بن منصور (٤٢٧) والدولابي في «الكنى» (١/ ٦٤) وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٢٢٧) والبيهقي (٦/ ٢٤٦) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين، كلهم من إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول في خطبته عام حجة الوداع: إن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وأخرجه ابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٤٩) من طريق الوليد بن مسلم قال: ثنا ابن جابر ثنا سليم بن عامر سمعت أبا أمامة فذكر الحديث.
وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم عمرو بن خارجة وأنس بن مالك وابن عباس وجابر وعلي وعبد الله بن عمرو ومعقل بن يسار وزيد بن أرقم والبراء ومجاهد مرسلاً.
ـ حديث خارجة:
أخرجه الترمذي (٤/ ٤٣٤) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢١٢١) والنسائي (٦/ ٢٤٧) كتاب الوصايا: باب إبطال الوصية للوارث وابن ماجة (٢/ ٩٠٥) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث وأحمد (٤/ ١٨٦، ١٨٧) والدارمي (٢/ ٤١٩) كتاب الوصايا: باب الوصية للوارث والطيالسي (١٣١٧) وأبو يعلى (٣/ ٧٨) رقم (١٥٠٨) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو بن خارجة أن النبي ـ ﷺ ـ خطب على ناقته وأنا تحت جرانها إن لعابها ليسيل بين كتفي فسمعته يقول: إن الله عز وجل أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وللحديث طريق آخر.
أخرجه الدارقطني (٤/ ١٥٢) كتاب الوصايا حديث (١٠) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق زياد بن عبد الله عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن عمرو بن خارجة مرفوعاً بلفظ: لا وصية لوارث إلاّ أن يجيز الورثة. =

= وضعف البيهقي سنده.
وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٠٢) رقم (٤١٤٠) من طريق عبد الملك بن قدامة الجمحي عن أبيه عن خارجة بن عمرو أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوم الفتح وأنا عند ناقته: ليس لوارث وصية قد أعطى الله عز وجل: كل ذي حق حقه وللعاهر الحجر.
وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحي وثقه ابن معين وضعفه الناس. ا.هـ.
قلت ووثقه أيضاً يعقوب بن سفيان فقال في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٣٥): مديني ثقة.
لكن عبد الملك هذا ضعفه الجمهور.
قال البخاري في «الضعفاء» (٢٢٠): يعرف وينكر.
وقال أبو زرعة الرازي: منكر الحديث. سؤالات البرذعي (ص ٣٥٦).
وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث. علل الحديث (٢٤٣٥).
وقال النسائي: مدني ليس بالقوي. الضعفاء والمتروكين (٤٠٣).
وقال الدارقطني: مدني يترك. سؤالات البرقاني (٣٠١).
ـ حديث أنس:
أخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٠٦) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢٧١٤) والدارقطني (٤/ ٧٠) كتاب الفرائض حديث (٨) والبيهقي (٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد عن أنس به.
قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٦٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.
ـ حديث ابن عباس:
أخرجه الدارقطني (٤/ ٩٧) كتاب الفرائض: حديث (٨٩) والبيهقي (٦/ ٢٦٣) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال البيهقي: (عطاء هو الخراساني لم يدرك ابن عباس ولم يره قاله أبو داود وغيره).
وأخرجه البيهقي (٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) من طريق يونس بن راشد عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس.
قال الحافظ في «التلخيص» (٣/ ٩٢): حديث حسن.
ـ حديث جابر:
أخرجه الدارقطني (٤/ ٩٧) كتاب الفرائض: حديث (٩٠) من طريق فضل بن سهل ثنى إسحاق بن إبراهيم الهروي ثنا سفيان عن عمر عن جابر به.
قال الدارقطني: الصواب مرسل.
قال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٤/ ٩٧): إسحاق بن إبراهيم الهروي ثم البغدادي أبو موسى وثقه ابن معين وغيره وقال عبد الله بن علي بن المديني: سمعت أبي يقول: أبو موسى الهروي روى عن سفيان عن عمرو عن جابر: لا وصية ـ الحديث كأنه سفيان عن عمرو مرسلاً كذا في الميزان. ا.هـ.
وللحديث طريق آخر.
أخرجه الدارقطني (٤/ ١٥٢) كتاب الوصايا حديث (١٢) من طريق نوح بن دراج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا وصية لوارث ولا إقرار بدين. =

لأنهم لا يتلقون بالقبول إلا الثبت الذي صحت روايته، وقيل: لم تنسخ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين، وقيل: ما هي بمخالفة لآية المواريث، ومعناها:

= ـ حديث علي:
أخرجه الدارقطني (٤/٩٧) كتاب الفرائض حديث (٩١) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق الهمداني عن عاصم بن ضمرة عن علي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: الدين قبل الوصية ولا وصية لوارث.
ومن طريق يحيى أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٧/ ١٩٠).
ويحيى بن أبي أنيسة:
قال أحمد: متروك الحديث.
وقال ابن المديني: لا يكتب حديثه.
وقال ابن معين: ليس بشيء.
وقال البخاري: لا يتابع في حديثه وليس بذاك.
وقال النسائي: متروك الحديث.
أسند ذلك ابن عديّ في «الكامل» عنهم.
ـ حديث عبد الله بن عمرو:
أخرجه الدارقطني (٤/٩٨) كتاب الفرائض حديث (٩٣) وابن عديّ في «الكامل» (٢/٨١٧) من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ـ ﷺ ـ قال في خطبته يوم النحر: لا وصية لوارث إلاّ أن يجيز الورثة.
ـ حديث معقل بن يسار:
أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٥/ ٢١١) من طريق علي بن الحسن بن يعمر ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال معقل بن يسار: كنا بمنى وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب ولعاب ناقته بين كتفي ففهمت من كلامه. قال: لا وصية لوارث.
قال ابن عديّ: هذا الحديث باطل بهذا الإسناد.
ـ حديث زيد بن أرقم والبراء:
أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٦/ ٣٥٠) من طريق موسى بن عثمان الحضرمي عن أبي إسحاق عن البراء وزيد بن أرقم قالا: كنا مع النبي ـ ﷺ ـ يوم غدير خم ونحن نرفع غصن الشجرة عن رأسه فقال: إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهلي لعن الله من ادعى إلى غير أبيه ولعن الله من تولى غير مواليه الولد للفراش وللعاهر الحجر ليس لوارث وصية.
قال ابن عديّ: موسى بن عثمان: حديثه ليس بمحفوظ.
وقال أبو حاتم: متروك ينظر اللسان (٦/ ١٢٥) والميزان (٤/ ٢١٤).
ـ مرسل مجاهد:
أخرجه البيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق الشافعي عن ابن عيينة عن سليمان الأحول عن مجاهد به.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود، والترمذي: وحسنه وابن ماجة. من حديث أبي أمامة والترمذي أيضاً وصححه، والنسائي وابن ماجة من حديث عمرو بن خارجة، وابن ماجة من رواية عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد، أنه حدثه عن أنس بن مالك به. انتهى.

كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين[1] من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] أو كتب على المحتضر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم، وأن لا ينقص من أنصبائهم، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالعدل، وهو أن لا يوصي للغني ويدع الفقير ولا يتجاوز الثلث، ﴿حَقًّا﴾: مصدر مؤكد، أي حق ذلك حقاً، ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾: فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود، ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾: وتحققه، ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾: فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدّليه دون غيرهم من الموصي والموصى له؛ لأنهما بريان من الحيف، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: وعيد للمبدّل، ﴿فَمَنْ خَافَ﴾: فمن توقع وعلم، وهذا في كلامهم شائع يقولون: أخاف أن ترسل السماء، يريدون التوقع والظنّ الغالب الجاري مجرى العلم، ﴿جَنَفًا﴾: ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: أو تعمداً للحيف، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾: بين الموصى لهم، وهم الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: حينئذ، لأنّ تبديله تبديل باطل إلى حق، ذكر من يبدّل بالباطل ثم من يبدّل بالحق ليعلم أنّ كل تبديل لا يؤثم[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم. قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أوّلهم آدم، يعني: أنّ الصوم عبادة قديمة أصلية، ما أخلى الله أمّة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحدكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: بالمحافظة عليها، وتعظيمها، لأصالتها وقدمها، أو لعلكم تتقون المعاصي؛ لأنّ الصائم أظلف لنفسه[3] وأردع لها من مواقعة السوء، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ» (١٠٧) أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين، لأنّ الصوم شعارهم، وقيل معناه: أنه

---

١٠٧ ـ أخرجه البخاري (٤/١٤٢) كتاب الصوم: باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة حديث =

---

(١) قوله «من توريث الوالدين والأقربين من» لعله في. (ع)

(٢) قوله «أن كل تبديل لا يؤثم» لعل المعنى أن ليس كل تبديل يؤثم. (ع)

(٣) قوله «لأن الصائم أظلف لنفسه» في الصحاح: ظلف نفسه عن الشيء منعه عنه. وظلفت نفسي عن كذا ـ بالكسر ـ: كلست. (ع)

كصومهم في عدد الأيام وهو شهر رمضان، كتب على أهل الإنجيل فأصابهم موَتان، فزادوا عشراً قبله وعشراً بعده، فجعلوه خمسين/٦٧ب يوماً، وقيل: كان وقوعه في البرد الشديد والحرّ الشديد، فشقّ عليهم في أسفارهم ومعايشهم فجعلوه بين الشتاء والربيع، وزادوا عشرين يوماً كفارة لتحويله عن وقته، وقيل: الأيام المعدودات: عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، كتب على رسول الله ـ ﷺ ـ صيامها حين هاجر، ثم نسخت بشهر رمضان، وقيل: كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء وبعد أن يناموا، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٨٧]، ومعنى ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ موقتات بعدد معلوم، أو قلائل، كقوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] وأصله أنّ المال القليل يقدّر بالعدد ويتحكر فيه، والكثير يهال هيلاً ويحثى حثياً، وانتصاب «أياماً» بالصيام، كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: أو راكب سفر، ﴿فَعِدَّةٌ﴾: فعليه عدّة، وقرىء بالنصب بمعنى: فليصم عدّة، وهذا على سبيل الرخصة، وقيل: مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدّة، ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: واختلف في المرض

= (١٩٠٥)، (٨/٩) كتاب النكاح: باب قول النبي ـ ﷺ ـ «من استطاع منكم الباءة فليتزوج» حديث (٥٠٦٥) ومسلم (١٠١٨/٢) كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... حديث (١/ ١٤٠٠) وأبو داود (١/ ٦٢٤) كتاب النكاح: باب التحريض على النكاح حديث (٢٠٤٦) والنسائي (٤/ ١٧١) كتاب الصوم: باب فضل الصيام، (٥٦/٦) كتاب النكاح: باب الحث على النكاح وابن ماجة (١/ ٥٩٢) كتاب النكاح: باب ما جاء في فضل النكاح حديث (١٨٤٥) والدارمي (١٣٢/٢) كتاب النكاح: باب الحثّ على التزويج، وأحمد (١/ ٣٧٨، ٤٤٧) والطيالسي (١/ ٣٠٣ ـ منحة) رقم (١٥٤٥) وأبو يعلى (٤٦/٩ ـ ٤٧) رقم (٥١١٠) والبيهقي (٧٧/٧) كتاب النكاح: باب الرغبة في النكاح، وفي «شعب الإيمان» (٤/ ٣٨٠) رقم (٥٤٧٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٥٦/٣) كلهم من طريق إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعاً.

وأخرجه البخاري (١٢/٩) كتاب النكاح: باب من لم يستطع الباءة فليصم حديث (٥٠٦٦) ومسلم (١٠١٩/٢) كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه حديث (٣، ٤/ ١٤٠٠) والترمذي (٣/ ٣٩٢) كتاب النكاح: باب ما جاء في فضل التزويج والحث عليه حديث (١٠٨١) والنسائي (١٦٩/٤ ـ ١٧٠) كتاب الصيام: باب فضل الصيام، (٥٧/٦ ـ ٥٨) كتاب النكاح: باب الحث على النكاح، والدارمي (٢/ ١٣٢) كتاب النكاح: باب الحث على التزويج، وأحمد (١/ ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٢) وعبد الرزاق (٦/ ١٦٩) رقم (١٠٣٨٠) والحميدي (٦٣/١) رقم (١١٥) وابن حبان (٤٠٣٤) والبيهقي (٧٧/٧) كتاب النكاح: باب الرغبة في النكاح والبغوي في «شرح السنة» (٣/٥ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

قوله «قال ـ عليه السلام ـ: فعليه بالصوم» صدره: يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم إلخ. متفق عليه من حديث ابن مسعود. انتهى.

المبيح للإفطار، فمن قائل: كل مرض، لأنّ الله تعالى لم يخص مرضاً دون مرض كما لم يخص سفراً دون سفر، فكما أنّ لكل مسافر أن يفطر؛ فكذلك كل مريض، وعن ابن سيرين أنه دخل عليه في رمضان وهو يأكل فاعتلّ بوجع أصبعه، وسئل مالك عن الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه، فقال: إنه في سعة من الإفطار، وقائل: هو المرض الذي يعسر معه الصوم ويزيد فيه، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وعن الشافعي: لا يفطر حتى يجهده الجهد غير المحتمل، واختلف ـ أيضاً ـ في القضاء، فعامّة العلماء على التخيير، وعن أبي عبيدة بن الجرّاح ـ رضي الله عنه ـ: «إنّ الله لَمْ يُرَخِّصْ لَكُمْ فِي فِطْرِهِ، وهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَلَيْكُمْ فِي قَضَائِهِ، إنْ شِئْتَ فَوَاتِرْ، وَإنْ شِئْتَ فَفَرِّقْ» (١٠٨) وعن عليّ، وابن عمر، والشعبي، وغيرهم، أنّه يَقْضِي كَمَا فَاتَ مُتَتَابِعاً (١٠٩)، وفي قراءة أبيّ: «فعدّة من أيام أخر متتابعات» فإن قلت: فكيف قيل: ﴿فَعِدَّةٌ﴾: على التنكير، ولم يقل: فعدّتها، أي فعدّة، الأيام المعدودات؟ قلت: لما قيل: فعدّة والعدّة بمعنى المعدود فأمر بأن يصوم أياماً معدودة مكانها، علم أنه لا يؤثر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾: وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفطروا، ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: نصف صاع من برّ أو صاع من غيره عند أهل العراق، وعند أهل الحجاز مدّ، وكان ذلك في بدء الإسلام: فرض عليهم الصوم ولم يتعوّدوه فاشتدّ عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، وقرأ ابن عباس: «يطوّقونه»، تفعيل من الطوق إما بمعنى الطاقة أو القلادة، أي يكلفونه أو يقلدونه ويقال لهم صوموا، وعنه «يتطوّقونه» بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه، «ويطوقونه» بإدغام التاء في الطاء، «ويطيقونه» «ويطيقونه» بمعنى/ ٦٨أ يتطوقونه، وأصلهما: يطيوقونه ويتطيوقونه، على أنهما من فيعل وتفعيل من الطوق، فأدغمت الياء في

---

١٠٨ ـ رواه الدارقطني (٢/ ١٩٢)، وقال الحافظ في تخريج الكشاف: الدارقطني من روايته. انتهى.

١٠٩ ـ أما أثر علي: فرواه عبد الرزاق في المصنف (٤/ ٢٤٢) رقم (٧٦٦٠) عن الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي قال: تباعاً والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٥٩) كتاب الصيام، باب قضاء شهر رمضان.

ـ وأما أثر ابن عمر: فأخرجه عبد الرزاق (٤/ ٢٤٢) رقم (٧٦٥٨)، والبيهقي (٤/ ٢٥٩) كتاب الصيام، باب قضاء شهر رمضان.

ـ وأما أثر الشعبي: فروا، عبد الرزاق (٤/ ٢٤٢) رقم (٧٦٥٩) عن الثوري عن منصور عن إبراهيم وعن داود عن الشعبي.

قالا: تباعاً.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق عنهما.

قال: يقضيه تباعاً. انتهى.

الواو بعد قلبها ياء كقولهم: تدير المكان وما بها ديّار، وفيه وجهان: أحدهما: نحو معنى يطيقونه، والثاني: يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز، وحكم هؤلاء الإفطار والفدية، وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ، ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه، أي: يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: فزاد على مقدار الفدية، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾: فالتطوع أخير له أو الخير، وقرىء «فمن يطوّع»، بمعنى يتطوّع، ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾: أيها المطيقون أو المطوقون، وحملتم على أنفسكم وجهدتم طاقتكم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: من الفدية وتطوع الخير، ويجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر ـ أيضاً ـ، وفي قراءة أبيّ: والصيام خير لكم.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

الرمضان: مصدر رمض إذا احترق ـ من الرمضاء ـ فأضيف إليه الشهر وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل: «ابن داية» للغراب بإضافة الابن إلى داية البعير؛ لكثرة وقوعه عليها إذا دبرت، فإن قلت: لم سمي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾؟ قلت: الصوم فيه عبادة قديمة، فكأنهم سموه بذلك لارتماضهم فيه من حرّ الجوع ومقاساة شدّته، كما سموه: ناتقاً؛ لأنه كان ينتقهم، أي: يزعجهم إضجاراً بشدته عليهم، وقيل: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحرّ، فإن قلت: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً واحْتِسَاباً» (١١٠). «مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ» (١١١). قلت: هو من باب الحذف،

---

١١٠ ـ أخرجه البخاري (٤/ ٢٥٠): كتاب صلاة التراويح: باب فضل من قام رمضان، الحديث (٢٠٠٩)، ومسلم (١/ ٥٢٣): كتاب المسافرين: باب الترغيب في قيام رمضان، الحديث (١٧٣/ ٧٥٩).
ومالك (١/ ١١٣) كتاب الصلاة في رمضان: باب الترغيب في الصلاة في رمضان (٢).
وأبو داود (١/ ٤٣٦) كتاب الصلاة: باب في قيام شهر رمضان (١٣٧١) والنسائي (٣/ ٢٢) كتاب قيام الليل: باب ثواب من قام رمضان إيماناً واحتساباً (١٦٠٣).
والترمذي (٣/ ١٧١ ـ ١٧٢) كتاب الصوم: باب الترغيب في قيام رمضان وما فيه من الفضل (٨٠٨).
وابن ماجه (١/ ٤٢٠) كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في قيام شهر رمضان (١٣٢٦). =

لأمن الإلباس؛ كما قال [من الطويل]:

.... بِمَا أَعْيَا النِّطَاسِيَّ حِذْيَمَا[1]؟

= وأحمد (١/ ٢٨١، ٢٨٩، ٤٠٨، ٤٢٣) والدارمي (٢/ ٢٦) كتاب الصوم: باب في فضل قيام شهر رمضان.

والبيهقي (٢/ ٤٩٢) وابن خزيمة (٣/ ٣٣٦) رقم (٢٢٠٢) من طرق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - انتهى.

١١١ - جزء من حديث رواه الترمذي (٥/ ٥٥٠) كتاب الدعوات باب قول رسول الله - ﷺ -: «رغم أنف رجل».

حديث (٣٥٤٥) من حديث سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله - ﷺ -: رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة».

وأحمد (٢/ ٢٥٤).

وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٨٩) رقم (١٩٠٨)، والحاكم (١/ ٥٤٩) مختصراً، وسكت عنه، وكذا الذهبي، وروى مسلم (٨/ ٣٤٩ - نووي) كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك والديه حديث (٢٥٥١) من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف» قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة».

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

أخرجه الترمذي من رواية عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رفعه: «رغم أنف رجل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له - الحديث» قلت: هذا ليس موافقاً للفظ المصنف، والموافق له ما أخرجه ابن حبان. انتهى.

---

(١) فهل لكم فيما إلي فإنني بصير بما أَعْيَا النطاسي حذيما؟

يقول: فهل لكم رغبة فيما ينسب إلي من إصابة الرأي، فإنني بصير بحل الأمور المعضلة. وكنّى عن ذلك بقوله: بما أعْيَا حذيما النطاسيّ، وهو طبيب ماهر حاذق. وحذيم - بكسر فسكون - أراد به ابن حذيم، لأنه كنيته، فحذف جزء الاسم لأمن اللبس. والنطاسي نسبة للنطاس وزان القرطاس، وهو في لغة الروم بمعنى الحاذق الماهر في الطب. وتخفيفه هنا إما من تصرف العرب، وإما لأجل الوزن. وقيل معناه: فهل لكم رأي وتبصُّر فيما يرجع نفعه إلي، ثم أعرض عن مشاورتهم بقوله: فإني أعلم وأعرف منكم بما أعيى النطاسي، ولا يخفى أنه لا موقع للفاء حينئذٍ، إلا أن يكون المعنى بأنه يطلب منهم الرشوة.

والبيت لأوس بن حجر، ينظر ديوانه ص ١١١، وخزانة الأدب: ٤/ ٣٧٠، ٣٧٣، ٣٧٦، وشرح شواهد الشافية ص ١١٦، ١١٧، ولسان العرب: (نطس)، (حذم)، (إلى)، وجمهرة اللغة ص ٨٣٨، ١٣٢٧، والخصائص: ٢/ ٤٥٣، وشرح المفصل: ٣/ ٢٥.

أراد ابن حذيم، وارتفاعه على أنه مبتدأ خبره، ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾: أو على أنه بدل من الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقرىء بالنصب على: صوموا شهر رمضان، أو على الإبدال من: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾، أو على أنه مفعول، ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ [البقرة: ١٨٤]. ومعنى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾: ابتدىء فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر، وقيل: أنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوما، وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ كما تقول: أنزل في عمر كذا، وفي عليّ كذا، وعن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَالْقُرْآنُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مَضَيْنَ» (١١٢) ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ﴾: نصب على الحال، أي أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات، مكشوفات مما يهدي إلى الحق ويفرق/٦٨ب بين الحقّ والباطل، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، بعد قوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾؟ قلت: ذكر أوّلاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق به بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾: فمن كان شاهداً، أي حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر، فليصم فيه ولا يفطر، والشهر: منصوب على الظرف وكذلك الهاء في: ﴿فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾، ولا يكون مفعولاً به كقولك: شهدت الجمعة؛ لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: أن ييسر عليكم ولا يعسر، وقد نَفَى عنكم الحرج في الدِّين، وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها، وجملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر في السفر والمرض، ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر، حتى زعم أنّ من صام منهما فعليه الإعادة، وقرىء:

---

١١٢ ـ أخرجه أحمد (٤/١٠٧) من حديث أبي سعيد مولى بني هاشم ثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً، وابن جرير في التفسير (٣/٤٤٦) رقم (٢٨١٤)، حدثنا أحمد بن منصور قال حدثنا عبد الله بن رجاء قال حدثنا عمران به والطبراني في الكبير (٢٢/٧٥) رقم (١٨٥)، وذكره السيوطي في الدر (١/١٨٩)، وعزاه لمحمد بن نصر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب.

وروى أبو يعلى في مسنده (٤/١٣٥) رقم (٢١٩٠)، من حديث أبي المليح عن جابر بن عبد الله موقوفاً.

قال الهيثمي في المجمع (١/٢٠٢):

«رواه أبو يعلى، وفيه سفيان بن وكيع وهو ضعيف» ا.هـ.

أخرجه أحمد والطبراني من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً به وفي الباب عند أبي داود، وأخرجه الثعلبي في تفسيره وعن جابر أخرجه أبو يعلى. انتهى.

اليسر، والعسر ـ بضمتين، الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره[1]، ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: شرع ذلك، يعني: جملة ما ذكر من أمر الشّاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدّة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان، وإنما عدّى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمَّناً معنى الحمد، كأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم[2]، ومعنى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وإرادة أن تشكروا، وقرىء: «ولتكملوا» بالتشديد. فإن قلت: هل يصحّ أن يكون (ولتكملوا) معطوفاً على علة مقدرة، كأنه قيل لتعملوا ما تعلمون، ولتكملوا العدّة، أو على اليسر، كأنه قيل: يريد الله بكم اليسر، ويريد بكم لتكملوا، كقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾؟ [الصف: ٨] قلت: لا يبعد ذلك والأوّل أوجه. فإن قلت: ما المراد بالتكبير؟ قلت: تعظيم الله والثناء عليه، وقيل: هو تكبير يوم الفطر، وقيل: هو التكبير عند الإهلال[3].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بحال من قرب مكانه، فإذا دعى أسرعت تلبيته، ونحوه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «هُوَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْنَاقِ رَوَاحِلِكُمْ» (١١٣) وروي: أَنَّ أَعْرَابِيّاً قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ (١١٤) فَنَزَلَتْ:

---

١١٣ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٥٣٧) كتاب المغازي: باب غزوة خيبر حديث (٤٢٠٥)، (١١/ ٢١٧) كتاب =

---

(١) قال محمود رحمه الله: «الفعل المعلل محذوف تقديره شرع ذلك... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ولقبه الخاص به في صناعة البديع: رد أعجاز الكلام إلى صدوره. ولقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه فهو منظوم في سلك حسناته.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا منه تفسيرُ معنى لا إعراب؛ إذ لو كان كذلك لكانَ تعلُّقُ «على» بـ «حامدين» التي قَدَّرها لا بـ «تُكَبِّروا»، وتقديرُ الإعراب في هذا هو: ولِتَحْمَدُوا الله بالتكبيرِ على ما هداكم، كما قدَّره الناسُ في قوله:

قَـدْ قَـتَـلَ الـلّـهُ زِيَـاداً عَـنِّـي

أي: صَرَفَه بالقتلِ عني، انتهى. الدر المصون.

(٣) قوله «عند الإهلال» أي الإحرام بالنسك. أفاده الصحاح. (ع)

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾: إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أنّي أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم، وقرىء «يرشَدون ويرشِدون»، بفتح الشين، وكسرها.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾

كان الرجل إذا أمسى حلّ له الأكل والشرب[١] والجماع إلى أن يصلّي العشاء الآخرة أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة، ثم إنّ عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة وأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنت جديراً بذلك يا عمر[٢]»

= الدعوات باب قول لا حول ولا قوة إلاّ بالله حديث (٦٤٠٩)، وباب الدعاء إذا علا عقبه حديث (٦٣٨٤) وفي (١٣/ ٣٨٤) كتاب التوحيد: باب وكان الله سميعاً بصيراً حديث (٧٣٨٦) ومسلم (٤/ ٢٠٧٦) كتاب الذكر والدعاء: باب استحباب خفض الصوت بالذكر حديث (٤٤/ ٢٧٠٤).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، قال: «كنا مع رسول الله - ﷺ - في غزوة، فلما قفلنا أشرفنا على المدينة، فكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي - ﷺ -: «إن ربكم ليس بأصم ولا غائب، هو بينكم وبين رءوس رواحلكم». ورواه الترمذي. انتهى.

١١٤ - أخرجه ابن جرير (٣/ ٤٨٠) رقم (٢٩٠٤)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ١١٤) للدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف في ترجمة الصلت بن حكيم.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والدارقطني في المؤتلف من رواية الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده: «أن أعرابياً - فذكره - وزاد» بعد قوله: «فتناديه». «فسكت عنه». انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ويشهد لصحة هذا الجواب أنه لما استقرت الإباحة فيه قال ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ فكنّى عنه الكناية المألوفة في الكتاب العزيز. ويشكل بقوله ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فإن هذه العبارة استعملت ولم ينقل في الحج ما نقل في الصوم من سبب نزول الآية وهو مواقعة المكروه. ويمكن أن يجاب عنه لما وقع في آية الحج منهياً عنه أريد للشعبة عندهم كيلا يقعوا فيه، فعبَّر عنه بما هجنه لكون ذلك منفراً لهم عن التورُّط.

فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء، فنزلت، (١١٥) وقرىء: أَحَلَّ لكم ليلة الصيام الرفث، أي أحلّ الله، وقرأ عبد الله: الرفوث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، كلفظ النيك، وقد أرفث الرجل، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه أنشد وهو مُحْرِمٌ [من الرجز]:

وهُــنَّ يَــمْــشِــيــنَ بِــنَــا هَــمِــيــسَــا   إِنْ تَــصْــدُقِ الــطَّــيْــرُ نَــنِــكْ لَــمِــيــسَــا[1]

فَقِيلَ لَهُ: أَرَفَثْتَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا الرَّفَثُ مَا كَانَ عِنْدَ النِّساءِ (١١٦)، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا

---

١١٥ ـ رواه ابن جرير (٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨) رقم (٢٩٤٣) حدثني محمد بن سعد قال: «حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم» إلى «وعفا عنكم» كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم... في قصة طويلة، فنزلت الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ... الآية﴾، ورواه في قصة طويلة أيضاً عن السدي (٣/ ٥٠١) رقم (٢٩٤٩).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

رواه الطبري من طريق عطية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الآية، قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صاموا يطعمون من الطعام فيما بين المساء والعتمة. فإذا صلوا العتمة حرم عليهم الطعام حتى يمسوا من الليلة القابلة، وإن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بينما هو نائم إذ سولت له نفسه فأتى أهله فذكره. ليس فيه: «فقام رجال فاعترفوا»، وروى الطبري من طريق السدي قال: «كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقع على جارية له في ناس من المسلمين لم يملكوا أنفسهم، فأتى النبي ـ ﷺ ـ. انتهى.

١١٦ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٢٧٦) من طريق أبي العالية عن ابن عباس.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ووافقه الذهبي.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق زياد بن الحسين عن أبي العالية: «أترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما روجع به النساء». =

---

(١) أنشده ابن عباس في الحج. فقال له أبو العالية: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء. وقال بعضهم: قال حصين بن قيس: أخذ ابن عباس بذنب بعيره يلويه وهو يحدو ويقول: وهن... البيت. فقلت له: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء. وهن، أي النوق «يمشين بنا» أي معنا. والهميس: نوع من السير لا صوت له، نصب بيمشين. وإن تصدق الطير، أي التي تفاءلنا بها حيث طارت جهة اليمين، وشبّه الطير بمخبر على طريق المكنية والصدق تخييل. وروي: إن يصدق الظن، والفعل بعده جواب الشرط ولفظ «النيك» هو الحقيقة في إدخال الذكر في الفرج، وما عداه ـ كالوطء والجماع والملامسة ـ مجاز في الأصل أو كناية، ولذلك قبح النطق بها دون غيرها. ولميس: اسم امرأة، ولعل ابن عباس ضربه مثلاً للظفر بما كان يقصده.
ينظر: اللسان م «رفث»، والدرر ١/ ١٩٩، والدر المصون ١/ ٤٧٤.

رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فكنى به عن الجماع[1]، لأنه لا يكاد يخلو من شيء من

= وأخرجه ابن أبي شيبة والطبري من هذا الوجه، والهميس بفتح الهاء وآخره مهملة: ضرب من السير، لا يسمع له وقع. ذكره ثابت السرقسطي. انتهى.

---

(١) قوله ـ تعالى ـ «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» فيه: الرفث كناية عن الجماع موضوع الكناية عند المفسر العلامة تطبيقي على آيات الكتاب العزيز «الكشاف ١/٣٣٨» والذي نقف عنده هنا هو صورة الكناية عند أهل البلاغة.

وخلاصتها في النقاط الآتية:

١ ـ عرفت لغة بمعنى «الستر» قال صاحب اللسان: «والكناية أن تتكلم بالشيء وتريد غيره وكنى عن الأمر بغيره يكني كناية: يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه نحو: الرفث والغائط وغيره».

وقال ـ أيضاً ـ «قال أبو عبيد: كنيت الرجل وكنوته لغتان»، والمصدر كناية أما «كناوه» فإن الواو قلبت عن الياء سماعاً ـ هذا في دائرة اللغة.

واصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، وبهذا فارقت المجاز العام السابق في كلام البلاغيين على الكناية، فإن القرينة في المجاز مانعة وهنا قرينة إلا أنها ليست مانعة.

والكناية عند صاحب الكشاف تسير مع هذا التحديد، بل هو أول من بين أن المعنى الأصلي قد يراد مع الكنائي، ولا مانع منه أبداً، وجعل أقسامها كما عرف عنها في بحوث البلاغيين من بعد، وفرق بينها وبين التعريض.

٢ ـ أقسام الكناية المعروفة عند البلاغيين ثلاثة:

(أ) عن موصوف كقوله ـ تعالى ـ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [الآية ١٣ القمر].

(ب) عن صفة كقوله ـ تعالى ـ ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الآية ٦ المائدة].

(جـ) عن نسبة كقولك: هذا بيت علم، وقول زياد الأعجم من هذا الباب، وقصته أنه نزل على ابن الحشرج فأكرمه فقال زياد هذا [من الكامل]:

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

ولطائف الكناية أكثر من أن تحصى ومنها:

(أ) التوكيد، لأنه إثبات المعنى المقصود بدليله، فإذا كان البيت قد نسب إليه العلم فهذا دليل على أن أهل البيت قد ملأهم العلم وفاض عنهم حتى صاحب البيت.

(ب) التعبير عن المعنى الخسيس باللفظ الرفيع الدال عليه، وهذا من أدب اللغة الإسلامية التي تعلم البشرية كيف يتحدثون، كما في الآية التي معنا.

(جـ) رفع المعنويات إلى صورة المحسوسات، والمحسوس أقوى تأثيراً لأنه أقرب إلى النفس.

(د) الإشارة إلى المعنى بلطف وبراعة، وذلك في مجالس الناس قائم وملموس ولهذه المعاني طرائق من الكناية القرآنية، ولطائفها كثيرة، والمفسر الأريب ترى له فيها ملحوظات ولمسات، وسترى هذا في كثير من الآيات.

«ينظر لسان العرب مادة: كنى، الإيضاح ١٥٨/٥، ومفتاح العلوم للسكاكي ١٨٩ والمطول للسعد ٤٠٧، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٣/١٤١، دروس تطبيقية د. فتحي مزيد ١٥٣ وما بعدها، ودراسات من علم البيان د. محمود عبد العظيم ٢٩٧ وما بعدها والبلاغة القرآنية د. أبو موسى ٥٤٥ وما بعدها.

ذلك، فإن قلت: لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾، ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؟ قلت: استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم، فإن قلت: لم عدى الرفث بإلى؟ قلت: لتضمينه معنى الإفضاء، لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه، شبه باللباس المشتمل عليه، قال الجعديُّ [من المتقارب]:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا ... تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا[1]

فإن قلت: ما موقع قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾؟ قلت: هو استئناف كالبيان، لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهنّ، وصعب عليكم اجتنابهنّ، فلذلك رخص لكم في مباشرتهنّ، ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: تظلمونها، وتنقصونها حظها من الخير، والاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدّة، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور، ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: واطلبوا ما قسم الله لكم وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة، أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها، ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل، وقيل: هو نهيٌ عن العزل، لأنّه في الحرائر، وقيل: وابتغوا المحل الذي كتبه الله لكم وحلّله دون ما لم يكتب لكم من المحلّ المحرّم، وعن قتادة: وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الحظر، وقرأ ابن عباس: «واتبعوا»، وقرأ الأعمش: «وأتوا»، وقيل: معناه: واطلبوا ليلة القدر، وما كتب الله لكم من الثواب إن أصبتموها وقمتموها، وهو قريب من بدع التفاسير، ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾: هو أوّل من يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود، و ﴿ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾: ما يمتدّ معه من غبش الليل، شبهاً بخيطين أبيض وأسود، قال أبو داود[2] / [من المتقارب]:

---

(١) للنابغة الجعدي. و «ما» زائدة. والضجيع: المضاجع. والعطف ـ بالكسر ـ: الجانب. تثنت: بالغت في مطلوبه من التعانق فكانت مشتملة عليه كاللباس، فهو تشبيه بليغ. ويروى: ثنى جيدها، أي عنقها.
ينظر ديوانه ص ٨١، وجمهرة اللغة ص ٥٣٦، لسان العرب (نحس)، (سلط)، وتاج العروس: (نحس) (سلط)، والكامل ص ٤٧٧، والشعر والشعراء ص ٣٠٢، كتاب العين: ٣/ ١٤٤، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٢٠، الدر المصون ١/ ٤٧٤.

(٢) قوله «قال أبو داود» لعله: دؤاد. (ع). هذا، ولعله اعتمد على نسخة فيها ما أشار إليه.

فَلَمَّا أَضَاءَتْ لَنَا سَدْفَةٌ   وَلاحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا[(1)]

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾: بيان للخيط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأنّ بيان أحدهما بيان للثاني، ويجوز أن تكون (من) للتبعيض؛ لأنه بعض الفجر وأوّله، فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة، أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾: أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجازاً، فإذا زدت: (من فلان): رجع تشبيهاً. فإن قلت: فلم زيد: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، حتّى كان تشبيهاً؟ وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأنّ من شرط المستعار، أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾: لم يعلم أن الخيطين مستعاران، فزيد ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾: فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة، فإن قلت: فكيف التبس على عديّ بن حاتم مع هذا البيان حتى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي، فكنت أقوم من الليل، فأنظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود، فلمّا أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فضحك وقال: «إِنْ كَانَ وِسَادَكَ لَعَرِيضاً» (١١٧) وَرُوِيَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا (١١٨)، إنّما ذاك بياض النّهار وسواد

---

١١٧ ـ أخرجه البخاري (٣٨/٩) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ...﴾ حديث (٤٥٠٩)، ورواه في (٦٢٩/٤) كتاب الصوم، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا... الآية﴾ حديث (١٩١٦).

ومسلم (٢١٤/٤ ـ نووي) كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر حديث (١٠٩٠).

وأبو داود (٧١٧/٢) كتاب الصيام، باب وقت السحور حديث (٢٣٤٩).

والترمذي (٢١١/٥) كتاب التفسير، حديث (٢٩٧١)، وابن حبان (٢٤٢/٨) رقم (٣٤٦٢).

والبيهقي في الكبرى (٢١٥/٤) كتاب الصيام، باب الوقت الذي يحرم فيه الطعام على الصائم.

والطحاوي (٥٣/٢).

والدارمي (٢/ ٥ ـ ٦) كتاب الصوم، باب متى يمسك المتسحر عن الطعام والشراب.

والطبراني في المعجم الكبير (٧٨/١٧، ٧٩) رقم (١٧٢ ـ ١٧٩)، والطبري في تفسيره (٣/ ٥١٢ ـ ٥١٣) رقم (٢٩٨٧، ٢٩٨٨).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث الشعبي عن عديّ بن حاتم. انتهى.

١١٨ ـ هي رواية عند البخاري (٣٨/٩) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا... الآية﴾ حديث =

---

(١) لأبي داود. وأضاء وأنار، يجيئان لازمان كما هنا ومتعديين. والسدفة: بياض الفجر يشوبه قليل ظلام. وفي لغة نجد: الظلمة. وأسدفت المرأة القناع: أرسلته. وأسدف الليل: أظلم. وعند غيرهم هي الإضاءة والصبح. وأسدف الصبح: أضاء. وأسدف الباب فتحه. وشبّه بياض بعض الصبح بالخيط في امتداده. ويجوز أن «من» بيانية. وجملة أنار صفة خيط، وجواب الشرط فيما بعده.
ينظر ديوانه ص ٣٥٢، ولسان العرب: (خيط)، وتهذيب اللغة: ٤٠٣/٧، وتاج العروس: (خيط).

الليل»؟ قلت: غفل عن البيان؛ ولذلك عرّض رسول الله ﷺ قفاه، لأنه مما يستدل به على بلاهة الرَّجُلِ، وقِلّة فطنته، وأنشدتني بعض البدويات لِبَدَوِيٍّ [من الطويل]:

عَرِيضُ القَفَا مِيزَانُهُ فِي شِمَالِهِ ... قَدِ انْحَصَّ مِنْ حَسْبِ القَرَارِيطِ شَارِبُهُ[1]

فإن قلت: فما تقول فيما رُوِيَ عن سهل بن سعد السّاعدي: أنها نزلت ولم ينزل ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبينا له، فنزل بعد ذلك ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه إنما يعني بذلك الليل والنهار؟ (١١٩) وكيف جاز تأخير البيان، وهو يشبه العبث، حيث لا يفهم منه المراد، إذ ليس باستعارة لفقد الدلالة، ولا بتشبيه قبل ذكر الفجر، فلا يفهم منه إذن إلاّ الحقيقة وهي غير مرادة؟ قلت: أما من لم يجوّز تأخير البيان ـ وهم أكثر الفقهاء والمتكلمين، وهو مذهب أبي عليّ وأبي هاشم ـ فلم يصحّ عندهم هذا الحديث، وأما من يجوّزه فيقول: ليس بعبث، لأنّ المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب، ويعزم على فعله إذا استوضح المراد منه، ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾: قالوا: فيه دليل على جواز النية بالنهار[2] في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي صوم

= (٤٥١٠) من طريق الشعبي عن عديّ بن حاتم أيضاً.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

هذه الرواية في البخاري أيضاً من طريق الشعبي عن عديّ بن حاتم أيضاً. انتهى.

١١٩ ـ أخرجه البخاري (٤/ ٦٣٠) كتاب الصوم، باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟... الآية﴾ حديث (١٩١٧)، وفي (٩/٣٨) كتاب التفسير حديث (٤٥١١)، ومسلم (٤/ ٢١٤ ـ نووي) كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر حديث (١٠٩١).

من رواية أبي حازم عن سهل به.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من رواية أبي حازم عنه. انتهى.

---

(١) يصف رجلاً بالغباوة على طريق الكناية. فعرض القفا: كناية عن الحمق. وكون ميزانه في شماله: كناية عن البله. أي انحسر شاربه، لكثرة ما يعض على شفته عند الحسب، كناية عن البلادة.

(٢) قال محمود رحمه الله: «قالوا فيه دليل على جواز النية بالنهار... إلخ». قال أحمد: وجه استدلالهم من الآية على الحكم الأول متعذّر، لأن إقران النية بأول الصوم وجوداً غير معتبر باتفاق، وتقديمها من الليل وتستصحب معتبر باتفاق، فإذاً لا تنافي بين الأكل والشرب إلى الفجر وبين نية الصوم المستقبل من الليل. ووجودها من الليل متقدمة على الصوم مستفاد من دليل دل عليه، وإنما لم يتم لهم الاستدلال بالآية على اعتبار النية في النهار ـ لو كان الأكل والشرب ليلاً إلى الفجر ـ ينافي صحة استصحاب النية، وكان اقتضاء الآية لجواز الأكل والشرب إلى الفجر يمنع من اعتبار النية من الليل إلى الفجر لوجود المنافي لها ولا بد منها، فيتعين أن يوقع بعد الفجر على هذا التقدير. وذلك التقدير كما =

الوصال، ﴿عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: معتكفون فيها، والاعتكاف: أن يحبس نفسه في المسجد يتعبد فيه، والمراد: بالمباشرة الجماع لما تقدم من قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾، ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾: وقيل معناه: ولا تلامسوهنّ بشهوة، والجماع يفسد الاعتكاف/ ٧٠أ وكذلك إذا لمس أو قبّل فأنزل، وعن قتادة: كان الرجل إذا اعتكف، خرج فباشر امرأته ثم رجع إلى المسجد، فنهاهم الله عن ذلك، وقالوا: فيه دليل على أنّ الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد، وأنه لا يختصّ به مسجد دون مسجد، وقيل: لا يجوز إلا في مسجد نبيّ وهو أحد المساجد الثلاثة، وقيل: في مسجد جامع، والعامة على أنه في مسجد جماعة، وقرأ مجاهد: في المسجد، ﴿تِلْكَ﴾: الأحكام التي ذكرت، ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾: فلا تغشوها، فإن قلت: كيف قيل[1]: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ مع قوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؟ قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه، فهو متصرف في حيّز الحقّ، فنهى أن يتعداه؛ لأن من تعداه وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحدّ الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الواسطة متباعداً عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً، وَحِمَى الله مَحَارِمُهُ فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ» (١٢٠) فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد، ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه،

---

١٢٠ ـ أخرجه البخاري (١/ ١٥٣) كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ورواه في البيوع/ باب الحلال بيّن والحرام بيّن (٢٠٥١).
ومسلم (٣/ ١٢١٩) كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩)، وأبو داود (٢/ ٢٦٣)، كتاب البيوع/ باب في اجتناب الشبهات (٣٣٢٩، ٣٣٣٠)، والترمذي (٣/ ٥٠٢) كتاب البيوع/ باب ما جاء في ترك الشبهات (١٢٠٥)، وابن ماجة (٢/ ١٣١٨، ١٣١٩) كتاب الفتن/ باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤)، والنسائي (٧/ ٢٤١) كتاب البيوع/ باب اجتناب الشبهات، (٨/ ٣٢٧) كتاب الأشربة/ باب الحثّ على ترك الشبهات، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١)، والدارمي (٢/ ٢٤٥)، والبيهقي في السنن (٥/ ٦٤، ٢٦٤)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٢٠٧، ٢٠٨) (٢٠٢٤ ـ بتحقيقنا)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٩٧) (٧٢١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٠، ٣٣٦).
=

= علمت متفق على بطلانه. وأما الاستدلال بها على الحكمين الآخرين فصحيح مستند والله أعلم. ولتفطن الزمخشري لبطلان الاستدلال بالآية على الحكم المذكور سلك سبيل النقل عنهم فقال: قالوا. لا يقولها إلا في مثل هذا المعنى، ولم يسعه التنبيه على بطلان الاستدلال لأنه على وفق مذهبه.

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «إن قلت كيف قال فلا تقربوها... إلخ» قال أحمد رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية دليل بيّن لمذهب مالك رضيَ الله تعالى عنه في سد الذرائع والاحتياط للمحرمات لا يدافع عنه.

ومناهيه خصوصاً، لقوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾، وهي حدود لا تقرب.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

ولا يأكل بعضكم مال بعض، ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: بالوجه الذي لم يبحه الله ولم يشرعه، «و» لا ﴿تدلوا بها﴾: ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام، ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾: بالتحاكم، ﴿فَرِيقًا﴾: طائفة، ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾: بشهادة الزور، أو باليمين الكاذبة، أو بالصلح، مع العلم بأن المقضي له ظالم، وعن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال للخصمين: «إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذنّ منه شيئاً، فإنما أقضي[(١)] له قطعة من نار» فبكيا وقال كل واحد منهما: حقي لصاحبي. فقال: «اذهبافتوخيا، ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» (١٢١) وقيل: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ﴾: وتلقوا بعضها إلى

= ـ وفي الباب من حديث عمار بن ياسر: رواه أبو يعلى (٣/ ٢١٣) (١٦٥٣).
وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٧٦):
«رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه موسى بن عبيدة الربذي. وهو ضعيف» ا.هـ.
وفي الباب عن جابر أيضاً عن الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٧٠).
قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه. وله ألفاظ. انتهى.

١٢١ ـ أخرجه مالك (٢/ ٧١٩) كتاب الأقضية: باب الترغيب في القضاء حديث (١) والبخاري (١٢/ ٣٣٩) كتاب الحيل: باب (١٠) حديث (٦٩٦٧) ومسلم (٣/ ١٣٣٧) كتاب الأقضية: باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة حديث (٤/ ١٧١٣) وأبو داود (٤/ ١٢) كتاب الأقضية: باب في قضاء القاضي إذا أخطأ حديث (٣٥٨٣) والترمذي (٣/ ٦٢٤) كتاب الأحكام: باب التشديد على من يقضي له بشيء حديث (١٣٣٩) والنسائي (٨/ ٢٣٣) كتاب آداب القاضي: باب الحكم بالظاهر وابن ماجه (٢/ ٧٧٧) كتاب الأحكام: باب أقضية الحاكم لا تحل حراماً حديث (٢٣١٧).
والشافعي (٢/ ١٧٨) كتاب الأحكام في الأقضية حديث (٦٢٦) والحميدي (١/ ١٤٢) رقم (٢٩٦) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٩٩) وأبو يعلى (١٢/ ٣٠٥) رقم (٦٨٨٠) وابن حبان (٥٠٤٧، ٥٠٤٩ ـ الإحسان) والدارقطني (٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) كتاب الأقضية والأحكام حديث (١٢٧) والبيهقي (١٠/ ١٤٣) كتاب آداب القاضي: باب من قال: ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٤) باب الحاكم يحكم بالشيء فيكون في الحقيقة بخلافه في الظاهر، الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٤٣) رقم (٧٩٨) والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٤٧) ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض =

---

(١) قوله «فإن ما أقضي» لعله: فإنما. (ع)

حكام السوء على وجه الرشوة، وتدلوا: مجزوم داخل في حكم النهي، أو منصوب بإضمار أن، كقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنكم على الباطل، وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح، وصاحبه أحق بالتوبيخ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾

وروي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري، قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة؟» فنزلت، (١٢٢) ﴿مَوَاقِيتُ﴾: معالم يوقت بها الناس

= فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من النار».
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه البخاري (٥/ ١٠٧) كتاب المظالم: باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه حديث (٢٤٥٨) ومسلم (٣/ ١٣٣٨) كتاب الأقضية. باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة حديث (٤/ ١٧١٣) وأحمد (٦/ ٣٠٨) والدارقطني (٤/ ٢٣٩) كتاب الأقضية والأحكام حديث (١٢٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٤) والبيهقي (١٠/ ١٤٣) كتاب آداب القاضي: باب من قال: ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، كلهم من طريق الزهري عن عروة عن زينب عن أم سلمة به.
وللحديث طريق آخر عن أم سلمة.
أخرجه أبو داود (٤/ ١٢) كتاب الأقضية: باب في قضاء القاضي إذا أخطأ حديث (٣٥٨٤، ٣٥٨٥) وأحمد (٦/ ٣٢٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) رقم (٣٠١٦) وابن الجارود رقم (١٠٠٠) وأبو يعلى (١٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) رقم (٦٨٩٧) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥) وفي «المشكل» (١/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).
والدارقطني (٤/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩) كتاب الأقضية والأحكام والحاكم (٤/ ٩٥) والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٢٩٨) رقم (٦٦٣) والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٣٤٩ ـ بتحقيقنا: كلهم من طريق أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة به.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود والدارقطني، والحاكم وأحمد وإسحاق، وابن أبي شيبة وأبو يعلى كلهم من رواية أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة وأصله في الصحيحين بدون الزيادة.
١٢٢ ـ قال الحافظ:
«عزاه الواحدي في الأسباب إلى ابن الكلبي مختصراً وذكره الثعلبي كما ذكره المصنف».
وقال الزيلعي (١/ ١١٨):
«غريب ونقله الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي أنه قال: نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ في =

مزارعهم، ومتاجرهم ومحال ديونهم، وصومهم، وفطرهم، وعدد نسائهم، وأيام حيضهنّ، ومدد حملهنّ، وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته، كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً، ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل المدر/ ٧٠ب نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد فيه؛ وإن كان من أهل الوبر، خرج من خلف الخباء، فقيل لهم: ﴿وليس البرّ﴾: بتحرّجكم من دخول الباب، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾: برّ، ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: ما حرّم الله، فإن قلت: ما وجه اتصاله بما قبله[(١)]؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نقصانها ـ وتمامها معلوم ـ: أنّ كل ما يفعله الله عزّ وجلّ لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البرّ في شيء وأنتم تحسبونها برّاً، ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد[(٢)] لما ذكر أنها مواقيت للحج؛ لأنه كان

= معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا. . . فذكره.

وهو عند الثعلبي؛ كما ذكره المصنف. . . ا.هـ.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف.

عزاه الواحدي في الأسباب إلى ابن الكلبي مختصراً وذكره الشعبي؛ كما ذكره المصنف. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت ما وجه إيصال هذا الكلام. . . إلخ» قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا من الاستطراد في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾. . . إلى آخر الآية فإنه تعالى بين عدم الاستواء بينهما إلى قوله (أجاج) وبذلك تم القصد في تمثيل عدم استواء الكافر والمسلم، ثم قوله ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ لا يتقرر به عدم الاستواء، بل المفاد به استواؤهما فيما ذكر، فهو من إجراء الله الكلام بطريق الاستطراد المذكور. وإنما مثلت هذا النوع الذي نبه عليه الزمخشري لأنه مفرد عن الاستطراد الذي بوب عليه أهل صناعة البديع والمطابق لما بوبوا عليه سواء قوله تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾. فإنه ذم اليهود واستطرد بذلك ذم المشركين المنكرين للبعث على نوع من التشبيه لطيف المنزع وفي البديع التمثيل بقوله [من الطويل]:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم

وسيأتي فيه مزيد تقرير إن شاء الله.

(٢) في قوله ـ تعالى ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ. . .﴾ الآية.

كان السؤال عن الأهلة تبدو صغيرة ثم تكبر وجاء الجواب لغير هذا السؤال على طريق الاستطراد وهذا ما أشار إليه المفسر العلامة.

والاستطراد لوجه من البديع البليغ، وقد حدده أهل البلاغة بأنه: «الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به، لم يقصد بذكر الأول التوسل إلى ذكر الثاني» ثم أشار صاحب الإيضاح الذي حدده بهذا التحديد إلى مثال من الشعر وهو قول الحماسي [من الطويل]:

وإنا لقوم لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

وذكر أيضاً من هذا الباب قوله ـ تعالى ـ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ =

من أفعالهم في الحج، ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ، برّ من اتقى ذلك وتجنبه، ولم يجسر على مثله، ثم قال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: أي: وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، والمراد: وجوب توطين النفوس، وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شكٍّ في ذلك حتى لا يسأل عنه؛ لما في السؤال من الإتهام بمقارفة الشك، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

المقاتلة في سبيل الله: هو الجهاد، لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الدين، ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وعن الربيع بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يقاتل من قاتل ويكف عمن كف، أو الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة من

= ﴿التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ....﴾ الآية فقد أورد الزمخشري هنا أنها على سبيل الاستطراد في قوله «ولباس التقوى»... وهذا هو أصل الاستطراد.

وقد يكون الثاني مقصوداً ويجعل الأول توصلاً إليه، وذلك كقول أبي إسحاق الصابي مادحاً سيف الدولة [من الكامل]:

إن كنت خنتك في المودة ساعة   فَذَمَمْتُ سيف الدولة المحمودا
وزعمت أن له شريكاً في العلى   ومجدته في فضله التوحيدا

ويقصد «بالتوحيد» عدم النظير له في الفضل، والغموس: أشد الأيمان والشاهد في الأبيات: ذكره حديث الخيانة ليتوصل به إلى مدح سيف الدولة وهذا النوع «الاستطراد» يسميه بعض علماء البديع حسن الخروج، ولا مشاحة في الأسماء.
«الإيضاح مع تحقيق خفاجي ٦/٣٠ وما بعدها، البلاغة القرآنية لأبي موسى ٥٨٢ وما بعدها، والصناعتين لأبي هلال العسكري ٤٤٨ وما بعدها تحقيق د. مفيد قميحة ط. دار الكتب العلمية.

الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلّهم؛ لأنهم جميعاً مضادّون للمسلمين قاصدون لمقاتلتهم، فهم في حكم المقاتلة، قاتلوا أو لم يقاتلوا، وقيل: لما صدّ المشركون رسول الله ـ ﷺ ـ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء، خاف المسلمون أن لايفي لهم قريش ويصدّوهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام، وكرهوا ذلك، نزلت وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم في الحرم والشهر الحرام، ورفع عنهم الجناح في ذلك، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾: بابتداء القتال، أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء، والشيوخ والصبيان، والذين[1] بينكم وبينهم عهد، أو بالمثلة أو بالمفاجأة من غير دعوة، ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم، والثقف: وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه: رجل ثقف، سريع الأخذ لأقرانه، قال [من الوافر]:

فَـإِمَّـا تَـثْـقَـفُـونِـي فَـاقْـتُـلُـونِـي ... فَـمَـنْ أَثْـقَـفْ فَـلَـيْـسَ إِلَـى خُـلُـودِ[2]

﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾/ ٧١أ. أي: من مكة وقد فعل رسول الله ـ ﷺ ـ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به، أشدّ عليه من القتل، وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت، ومنه قول القائل [من الطويل]:

لَـقَـتْـلٌ بِـحَـدِّ الـسَّـيْـفِ أَهْـوَنُ مَـوْقِـعـاً ... عَـلَـى الـنَّـفْـسِ مِـنْ قَـتْـلٍ بِـحَـدِّ فِـرَاقِ[3]

وقيل: ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: عذاب الآخرة، ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات:١٣] وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقيل: والشرك الذي هم عليه أشدّ وأعظم مما يستعظمونه، ويجوز أن يراد: وفتنتهم إياكم بصدّكم عن المسجد الحرام أشدّ من قتلكم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم، وقرىء: «ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم»: جعل وقوع القتل

---

(١) قوله «والذين» لعله أو الذين. (ع)

(٢) «إما» هي «أن» الشرطية أدغمت نونها في «ما» الزائدة للتنصيص على التعميم. والثقف: القبض والضبط. ومنه «الثقاف» وهو الآلة التي تعض الرماح وتقبضها لتقويمها. يقول: إن تدركوني في أي وقت وتغلبوني فاقتلوني، فإن من أدركني منكم ليس مجاباً أو منتهياً إلى خلود، بل لا بد من قتله. وهذا من الإشاحة والجد في القتال، وقطع أطماع الصلح من البال.
ينظر: الدر المصون ١/ ٤٨٠.

(٣) يقول: تالله إن القتل بالسيف أهون على النفس وقوعاً من القتل بالفراق. وشبّهه بالسيف على طريق المكنية. وإضافة الحد إليه تخييل، وحسن الاستعارة مشاكلته لما قبله.

في بعضهم كوقوعه فيهم، يقال: قتلتنا بنو فلان. وقال: فإن تقتلونا نقتلكم، ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾: عن الشرك والقتال، كقوله: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾: خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب، ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾: عن الشرك، ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: فلا تعدوا على المنتهين، لأنّ مقاتلة المنتهين عدوان وظلم، فوضع قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ موضع على المنتهين. أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين، سُمّي جزاء الظالمين ظلماً، للمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ أو أريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتهم القتال وذلك في ذي القعدة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾، أي: هذا الشهر بذلك الشهر وهتكه بهتكه، يعني: تهتكون حرمته عليهم، كما هتكوا حرمته عليكم، ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص من هتك حرمة أيّ حرمة كانت، اقتص منه بأن تهتك له حرمة، فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحلّ لكم.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

الباء في: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾: مزيدة مثلها في أعطى بيده للمنقاد، والمعنى: ولا تقبضوا التهلكة بأيديكم، أي: لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالكة لكم، وقيل: (بأيديكم)، بأنفسكم، وقيل تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها، والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك / أو عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله، أو عن الاستقتال والإخطار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدوّ وروي أن رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدوّ فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما أنزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ فنصرناه، وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه على أهالينا وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها، رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها. فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، (١٢٣) وحكى أبو علي في «الحلبيات» عن أبي عبيدة، التهلكة والهلاك والهلك:

واحد، قال: فدلّ هذا من قول أبي عبيدة على أن التهلكة مصدر، ومثله: ما حكاه سيبويه من قولهم التضرة والتسرة ونحوها في الأعيان: التنضبة والتنفلة، ويجوز أن يقال: أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة ونحوهما، على أنها مصدر من هلك فأبدلت من الكسرة ضمة، كما جاء الجوار في الجوار[1].

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾

---

١٢٣ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ١٦) كتاب الجهاد، باب في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ حديث (٢٥١٢)، والترمذي (٥/ ٢١٢) كتاب تفسير القرآن حديث (٢٩٧٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٨٤، ٢٧٥).

والنسائي في التفسير (١/ ٢٣٦) رقم (٤٨)، والطيالسي رقم (٥٩٩)، والطبري في التفسير رقم (٣١٧٩ ـ ٣١٨٠:)، والبيهقي في سننه (٩/ ٤٥) كتاب السير، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . الآية﴾، والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٦) رقم (٤٠٦٠).

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٠٧)، وزاد نسبته لسعيد بن حميد وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي أخبرنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم بن عمران ـ فذكره سواء. وأصله عند أبي داود والنسائي والترمذي من رواية أسلم المذكور. قال: «خرجنا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم وصففنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم. فصاح الناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يأيها الناس والحديث ـ وفي رواية الترمذي: «وعلى الناس فضالة بن عبيد»، وفي رواية النسائي: «وعلى أهل مصر عقبة بن خالد»، «وعلى أهل الشام فضالة»، وكذا أخرجه أحمد وإسحاق، وأبو يعلى، والطبري، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وغيرهم. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: ورَدَّ عليه الشيخ بأنَّ فيه حَمْلاً على شاذ ودَعْوى إبدالٍ لا دليل عليها؛ وذلك أنه جعله تَفْعِلة بالكسر مصدرَ فَعَّل بالتشديد، ومصدرُه إذا كان صحيحاً غيرَ مهموزٍ على تَفْعيل، وتَفْعِلة فيه شاذٌ. وأمَّا تنظيرُه له بالجِوار والجُوار فليس بشيء؛ لأن الضمّ فيه شاذٌ، فالأولى أن يقال: إنَّ الضمّ أصل غيرُ مُبْدَلٍ من كسر. وقد حكى سيبويه مِمَّا جاء من المصادر على ذلك التَّضُرَّة والتَّسُرَّة. قال ابن عطية: «وقرأ الخليل «التَّهْلِكة» بكسر اللام وهي تَفْعِلة من هَلَّك بتشديد اللام» وهذا يُقَوِّي قولَ الزمخشري. انتهى. الدر المصون.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: ائتوا بهما تامّين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توان ولا نقصان يقع منكم فيهما، قال [من الوافر]:

تَــمَــامُ الْــحَــجِّ أَنْ تَــقِــفَ الْــمَــطَــايَــا عَــلَــى خَــرْقَــاءَ وَاضِــعَــةِ الــلِّــثَــامِ[1]

جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يتم إلاّ به، وقيل: إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك، روي ذلك عن عليّ وابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ، وقيل: أن تفرد لكل واحد منهما سفراً كما قال محمد: حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل، وقيل: أن تكون النفقة حلالاً، وقيل: أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية، فإن قلت: هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ قلت: ما هو إلا أمر بإتمامهما، ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين أو تطوّعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً، إلاّ أن تقول: الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما، بدليل قراءة من قرأ «وأقيموا الحج والعمرة»، والأمر للوجوب في أصله، إلا أن يدلّ دليل على خلاف الوجوب، كما دلّ في قوله: ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢] ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: ٥٣] ونحو ذلك، فيقال لك: فقد دلّ الدليل على نفي الوجوب، وهو ما روي أنه قيل: يا رسول الله: العمرة واجبة مثل الحج؟ قال: «لا، ولكن أن تعتمر خير لك» (١٢٤) وعنه: «الحج جهاد، والعمرة تطوّع». (١٢٥) فإن قلت: فقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه

----

١٢٤ ـ أخرجه الترمذي (٣/ ٢٦١) كتاب الحج، باب ما جاء في العمرة أواجبة هي أم لا؟ حديث (٩٣١)، حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني حدثنا عمرو بن علي عن الحجاج، عن محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي ـ ﷺ ـ سئل عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا وأن تعتمروا هو أفضل».
والدارقطني (٢/ ٢٨٥) كتاب الحج، باب المواقيت مرفوعاً وموقوفاً.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي من رواية حجاج بن أرطأة عن ابن المنكدر: «أن النبي ـ ﷺ ـ سئل عن العمرة: أواجبة هي؟ قال: لا. وأن تعتمر هو أفضل»، ورواه الطبراني من رواية عبيد الله بن المغيرة عن أبي الزبير عن جابر، بلفظ: «وأن تعتمر خير لك»، ورواه الدارقطني من الوجهين. وضعفه.

١٢٥ ـ روى من حديث طلحة بن عبيد الله ومن حديث ابن عباس ومن حديث ميمونة. =

---

(١) لذي الرمة. وخرقاء: اسم محبوبة له من بني عامر؛ لأنه لما شغف بها خرق أدواته وقال: إن تمام حجنا أن نزور خرقاء فتقف مطايا رجل مسافر، فأصلحي لي أدواتي. والله لا أحسن العمل وإني لخرقاء أي حمقاء، حولها حال كونها واضعة اللثام عن وجهها حتى أراه. وإضافة الوصف إلى مفعوله لفظية لا تفيده التعريف فصح حالاً. وحكي أن بعض السلف الصالح قال لصاحبه: هل نتم حجنا كما قال ذو الرمة، وأنشد البيت. قيل وحقيقة مراده أنه ينبغي كما قطعنا البراري ووصلنا إلى حرمه، أن نقطع أهواء النفس حتى نشاهد آثار كرمه، فيكون استعماله البيت من باب التمثيل.

قال: «إن العمرة لقرينة الحج، (١٢٦) وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال له: إني

= ـ أما حديث طلحة:
أخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٩٥) كتاب المناسك، باب العمرة، حديث (٢٩٨٩) حدثنا هشام ابن عمار ثنا الحسن بن يحيى الخشني ثنا عمر بن قيس. أخبرني طلحة بن يحيى عن عمه إسحاق بن طلحة عن طلحة بن عبيد الله، أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «الحج جهاد والعمرة تطوع».
قال البوصيري في الزوائد (٣/ ٢٤) رقم (١٠٤٧):
«هذا إسناد ضعيف عمر بن قيس المعروف بسندل ضعفه أحمد وابن معين والفلاس وأبو زرعة وأبو حاتم والبخاري وأبو داود وغيرهم، والحسن الراوي عنه ضعيف» ا.هـ.
ـ أما حديث ابن عباس:
فرواه الطبراني (١١/ ٤٤٢) رقم (١٢٢٥٢) قال: حدثنا أحمد بن الجعد ثنا محمد بن بكار ثنا محمد بن الفضل عن عطية عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الحج جهاد والعمرة تطوع».
قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٠٨):
«رواه الطبراني في الكبير وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو كذاب» ا.هـ.
ـ وأما حديث ميمونة:
فرواه ابن أبي داود في المصاحف (ص١١٤) حدثنا يعقوب بن عبد الله بن أبي مخلد حدثنا أبو منصور حدثنا عمر بن قيس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عمه عن ميمونة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الحج جهاد والعمرة تطوع».
قال الزيلعي في نصب الراية (٣/ ١٥٠):
«حديث آخر: قال الشيخ في الإمام: روى عبد الباقي بن قانع حدثنا بشر بن موسى ثنا جرير وأبو الأحوص عن معاوية بن إسحاق عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الحج جهاد والعمرة تطوع». انتهى قال الشيخ: قال ابن حزم هذا كذب من بلايا عبد الباقي بن قانع التي تفرد بها» انتهى من نصب الراية.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن ماجة من رواية إسحاق بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه بهذا. ورواه الطبراني من حديث ابن عباس بنحوه، وفيه محمد بن الفضل بن عطية. وهو ضعيف. ورواه ابن أبي داود في المصاحف من رواية عمر بن قيس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عمه عن مسعود. قال الدارقطني في العلل: هذا خطأ. ولعله أراد إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عمه عبس بن طلحة، وإنما يعرف هذا الحديث من رواية معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عمته عائشة بنت طلحة عن عائشة. ورواه الحفاظ من أصحاب شعبة عن معاوية بن إسحاق عن أبي صالح عن ماهان مرسلاً. وكذلك رواه ابن أبي شيبة عن جرير عن معاوية بن إسحاق. وقال البيهقي: روى عن شعبة هذا الإسناد موصولاً. لكن الطريق فيه إلى شعبة ضعيف. انتهى.

١٢٦ ـ أخرجه البيهقي في المعرفة (٣/ ٥٠٣) كتاب المناسك، باب العمرة هل تجب وجوب الحج حديث (٢٧٠٨)، والشافعي في الأم (٢/ ١٣٢).
وذكره البخاري تعليقاً في صحيحه (٤/ ٤٣١) كتاب العمرة، باب العمرة وجوب العمرة وفضلها.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه البخاري تعليقاً. والشافعي موصولاً. من رواية عمرو بن دينار عن طاوس عنه. انتهى.

وجدت الحجّ والعمرة مكتوبين عليّ، أهللت بهما جميعاً فقال: «هُديت لسنة نبيك»، (١٢٧) وقد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام فكانت واجبة مثل الحج؟ قلت: كونها قرينة للحج أنّ القارن/ ٧٢أ يقرن بينهما، وأنهما يقترنان في الذكر فيقال: حجّ فلان واعتمر والحجاج والعمار، ولأنها الحجّ الأصغر، ولا دليل في ذلك، على كونها قرينة له في الوجوب، وأمّا حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ فقد فسر الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله: أهللت بهما، وإذا أهلّ بالعمرة وجبت عليه كما إذا كبر بالتطوّع من الصلاة، والدليل الذي ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقي الحجّ وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان وستة من شوال، في أنك تأمره بفرض وتطوّع، وقرأ عليّ وابن مسعود والشعبي ـ رضي الله عنهم ـ «والعمرة لله»: بالرفع، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحجّ وهو الوجوب، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾: يقال: أُحصر فلان، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال ابن ميادة [من الطويل]:

وَمَا هَجْرُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ تَبَاعَدَتْ عَلَيْكَ وَلاَ أَنْ أَحْصَرَتْكَ شُغُولُ[1]

وحُصر: إذا حبسه عدوّ عن المضي، أو سجن، ومنه قيل للمحبس: الحصير، وللملك، الحصير، لأنه محجوب، هذا هو الأكثر في كلامهم، وهما بمعنى المنع في كل شيء، مثل صدّه وأصدّه، وكذلك قال الفرّاء وأبو عمرو الشيباني، وعليه قول أبي حنيفة ـ رحمهم الله تعالى ـ كل منع عنده من عدوّ كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم

---

١٢٧ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٥٥٩) كتاب المناسك، باب في الإقران حديث (١٧٩٨).
والنسائي (٥/ ١٤٦ ـ ١٤٧) كتاب المناسك، باب القران، وابن ماجه (٢/ ٩٨٩) كتاب المناسك، باب من قرن الحج والعمرة حديث (٢٩٧٠)، وأحمد (١/ ١٤، ٢٤، ٣٧، ٥٣).
وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢١٩) رقم (٣٩١٠، ٣٩١١)، وابن خزيمة (٤/ ٣٥٢) رقم (٣٠٦٩)، والبيهقي (٤/ ٣٥٧) كتاب الحج، باب جواز القرآن.
وفي (٤/ ٣٥٤) كتاب الحج، باب القارن يهريق دماً.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان من رواية أبي وائل عن الضبي بن معبد به. انتهى.

---

(١) لتوبة بن حمير، يقول لنفسه: ليس هجر ليلى الأخيلية محبوبتك لتباعدها عنك ولا لأشغال منعتك عنها، بل لخوف الرقباء والوشاة هجرتها ويجوز أن المعنى: ليس هجرها لك بسبب، وإنما هو لإيذائك واحتراق قلبك.
ينظر اللسان: (حصر)، الدر المصون (١/ ٤٨٤)، فتح القدير (١/ ٤١٦).

الإحصار، وعند مالك والشافعي منع العدوّ وحده، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل»، (١٢٨) ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾: فما تيسر منه، يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدي جمع هدية، كما يقال في جدية السرج[1] جدي، وقرىء: «من الهديّ»: بالتشديد جمع هدية كمطية ومطيّ، يعني: فإن منعتم من المضي إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدي من بعير أو بقرة أو شاة، فإن قلت: أين ومتى ينحر هدي المحصر؟ قلت: إن كان حاجاً فبالحرم متى شاء عند أبي حنيفة يبعث به، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار[2] وعندهما في أيام النحر وإن كان معتمراً فبالحرم في كل وقت عندهم جميعاً، و (ما استيسر): رفع بالابتداء، أي فعليه ما استيسر، أو نصب على: فاهدوا ما استيسر ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ﴾: الخطاب للمحصرين، أي لا تحلوا حتى تعلموا أنّ الهدي الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ، ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: أي مكانه الذي يجب نحره فيه، ومحل الدين وقت وجوب قضائه، وهو ظاهر على مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. فإن قلت: إنّ النبي ـ ﷺ ـ نحر هديه حيث أحصر؟ (١٢٩) قلت: كان محصره طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة وهو

---

١٢٨ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٤٣٣): كتاب المناسك (الحج). باب الإحصار. ، حديث (١٨٦٢)، والترمذي (٣/ ٢٧٧): كتاب الحج. باب ما جاء في الذي يهل بالحج فيكسر أو يعرج، حديث (٩٤٠)، والنسائي (٢/ ١٩٨)، كتاب الحج، باب فيمن أحصر بعدو، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٨): كتاب المناسك: باب المحصر، حديث (٣٠٧٧)، والحاكم (١/ ٤٧٠)، كتاب المناسك، والبيهقي (٥/ ٢٢٠). كتاب الحج: باب من رأى الإحلال بالإحصار بالمرض.

وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨) وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٣٨) والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٥٣) والدارقطني (٢/ ٢٧٨) كتاب الحج: باب المواقيت من طريق عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ من كسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى».

قال عكرمة فذكرت ذلك لأبي هريرة وابن عباس فقالا: صدق.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أصحاب السنن، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، والطبراني من حديث عكرمة عن ابن عمرو بن غزية الأنصاري. انتهى.

١٢٩ ـ أخرجه البخاري (٤/ ٧) كتاب المحصر باب إذا أحصر المعتمر حديث (١٨٠٩) من حديث ابن =

---

(١) قوله «في جدية السرج» في الصحاح «الجدية» بتسكين الدال: شيء محشو يجعل تحت دفتي السرج والرحل. ثم قال: وكذلك الجدية على فعيلة. (ع)

(٢) قوله «على يده يوم أمار» عبارة البيضاوي: يوم أمارة، فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل. وفي الصحاح: قال الأصمعي: الأمار والأمارة. الوقت والعلامة. (ع)

من الحرم، وعن الزهري: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ نحر هديه في الحرم، (١٣٠) وقال الواقدي: الحديبية هي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾: فمن كان به مرض يحوجه/ ٧٢ب إلى الحلق، ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾: وهو القمل أو الجراحة، فعليه إذا احتلق فدية، ﴿مِّن صِيَامٍ﴾: ثلاثة أيام، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾: على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من برّ، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾: وهو شاة، وعن كعب بن عجرة أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال له: «لعلك أذاك هوامّك»؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «احلق رأسك وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك شاة» (١٣١) وكان كعب يقول: فيّ

= عباس، وأخرجه (٤/ ١١) كتاب المحصر: باب الإحصار في الحج حديث (١٨١٠) من حديث ابن عمر.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أما نحر الهدى حين أحصر ففي البخاري من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ «أنه ـ ﷺ ـ خرج معتمراً فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه، وحلق رأسه بالحديبية» وأما كونه أسفل مكة فرواه.
وأما حديث الزهري فلم أجده، لكن روى الطبري من حديث ناجية بن جندب الأسلمي قال أتيت النبي ـ ﷺ ـ حين صد عن البيت فقلت: يا رسول الله، ابعث معي بالهدى فينحر بالحرم قال: كيف تصنع به؟ قال أنحدر به في أودية فلا يقدرون عليه، فانطلقت به حتى نحرته في الحرم. انتهى.

١٣٠ ـ قال الزيلعي (١/ ١٢٤):
«لم أجده، لكن روى الطبري في تفسيره: حدثني الفضل بن سهل ثنا مخول بن إبراهيم ثنا إسرائيل عن مجزاة بن زاهر الأسلمي عن أبيه عن ناجية بن جندب الأسلمي قال: أتيت النبي ـ ﷺ ـ حين صد عن الهدى، فقلت: يا رسول الله، ابعث معي بالهدى فلننحره بالحرم. قال: «كيف تصنع به؟» قال: آخذ به أودية. فلا يقدرون عليه، فانطلقت به حتى نحرته بالحرم».

١٣١ ـ أخرجه البخاري (٤/ ١٦): كتاب المحصر: باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾، حديث (١٨١٥)، ومسلم (٢/ ٨٦١، ٨٦٢): كتاب الحج: باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، وجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، حديث (٨٥/ ١٢٠١)، وأبو داود (٢/ ٤٣٠): كتاب المناسك (الحج): باب في الفدية، حديث (١٨٥٦)، والترمذي (٣/ ٢٨٨): كتاب الحج: باب ما جاء في المحرم يحلق رأسه في إحرامه ما عليه، حديث (٩٥٣)، والنسائي (٥/ ١٩٥): كتاب الحج: باب في المحرم يؤذيه القمل في رأسه، وابن ماجة (٢/ ١٠٢٨، ١٠٢٩): كتاب المناسك: باب فدية المحصر، حديث (٣٠٧٩) والبيهقي (٥/ ٥٥): كتاب الحج: باب من احتاج إلى حلق رأسه للأذى حلقه وافتدى، ومالك (١/ ٤١٧): كتاب الحج: باب فدية من حلق قبل أن ينحر، حديث (٢٣٧)، والطيالسي (١/ ٢١٣): كتاب الحج والعمرة: باب جواز الحجامة للمحرم، وما يفعل من اشتكى عينه أو تأذى بكثرة القمل في رأسه، حديث (١٠٢٦)، وأحمد (٤/ ٢٤١)، من حديث كعب بن عجرة، قال: «كان بي أذى من رأسي فحملت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ منك ما أرى، أتجد شاة؟ قلت: لا، فنزلت الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، قال: هو صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين نصف صاع طعاماً لكل =

نزلت هذه الآية، وروي: أنه مرّ به وقد قَرَحَ رَأْسُهُ[1] فقال: «كفى بهذا أذى» (١٣١م) وأمره أن يحلق ويطعم، أو يصوم، والنسك: مصدر، وقيل: جمع نسيكة، وقرأ الحسن: أو «نسك»، بالتخفيف، ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾: الإحصار، يعني: فإذا لم تحصروا وكنتم في أمن وسعة، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾: أي استمتع، ﴿بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾: واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج: انتفاعه بالتقرّب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقرّبه بالحج، وقيل: إذا حلّ من عمرته، انتفع باستباحة ما كان محرّماً عليه إلى أن يحرم بالحج، ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾: هو، هدي المتعة، وهو نسك عند أبي حنيفة ويأكل منه، وعند الشافعي: يجري مجرى الجنايات ولا يأكل منه، ويذبحه يوم النحر عندنا، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾: الهدي، ﴿فَ﴾: عليه، ﴿صيام ثلاثة أيام في الحج﴾: أي في وقته وهو أشهرهُ ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج، وهو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوماً قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم، وعند الشافعي: لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج تمسكاً بظاهر قوله: ﴿فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: هو الرجوع إلى

= مسكين».

وفي لفظ لمسلم (٢/ ٨٦١): كتاب الحج: باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، حديث (٨٤/ ١٢٠١)، وأبو داود (٢/ ٤٣١): كتاب المناسك (الحج): باب في الفدية، حديث (١٨٥٧)، وأحمد (٤/ ٢٤٢)، عنه قال: «أتى علي رسول الله ـ ﷺ ـ زمن الحديبية فقال: «كأن هوام رأسك تؤذيك»؟، فقلت: أجل. قال: «فاحلقه واذبح شاة أو صم ثلاثة أيام أو تصدق بثلاثة أصع من تمر بين ستة مساكين»، وزاد أبو داود في رواية أخرى: فحلقت رأسي ثم نسكت».

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٨٥) وعزاه إلى وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبي داود وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف.

متفق عليه. وله طريق وألفاظ في الكتب الستة وغيرها، والأقرب للفظ المنصف ما رواه مالك. انتهى.

١٣١م ـ أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٠٦)، والعقيلي (٣/ ٣٨٧).

وقال الحافظ أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني والدارقطني من رواية الزبير بن عديّ عن أبي وائل عن كعب بن عجرة قال لقيني رسول الله ـ ﷺ ـ، فمسح رأسي فتناثر القمل. فقال: كفى بهذا أذى، انطلق فاحلق وتصدق على ستة مساكين، وفي رواية إسحاق، قال: «إن هذا لأذى» وأمره أن يحلق وأن ينسك أو يصوم أويطعم». انتهى.

---

(١) قوله «وقد قرح رأسه» في الصحاح: قرح جلده ـ بالكسر ـ خرجت به القروح. (ع)

أهاليهم، وقرأ ابن أبي عبلة: «وسبعةً»: بالنصب، عطفاً على محل ثلاثة أيام، وكأنه قيل: فصيام ثلاثة أيام؛ كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤، ١٥] فإن قلت: فما فائدة الفذلكة؟ قلت: الواو قد تجيء للإباحة في نحو قولك: جالس الحسن وابن سيرين، ألا ترى أنه لو جالسهما جميعاً أو واحداً منهما، كان ممتثلاً ففذلكت نفياً لتوهم الإباحة[1]، وأيضاً ففائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً ليحاط به، من جهتين، فيتأكد العلم، وفي أمثال العرب: علمان خير من علم، وكذلك: ﴿كَامِلَةٌ﴾: تأكيد آخر، وفيه زيادة توصية بصيامها وأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها، كما تقول للرجل إذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمنزل: الله الله لا تقصر، وقيل: كاملة في وقوعها بدلاً من الهدي، وفي قراءة أبيّ: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة/ ٧٣أ إلى التمتع، عند أبي حنيفة وأصحابه، لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم، ومن تمتع منهم أو قرن، كان عليه دم، وهو دم جناية لا يأكل منه؛ وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق، فدمهما دم نسك يأكلان منه، وعند الشافعي: إشارة إلى الحكم الذي هو وجوب الهدي أو الصيام ولم يوجب عليهم شيئاً[2]، وحاضرو المسجد الحرام: أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: أهل الحرم، ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: في المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: لمن خالف؛ ليكون علمكم بشدة عقابه لطفاً لكم في التقوى.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

أي وقت الحج ﴿أَشْهُرٌ﴾: كقولك: البرد شهران، والأشهر المعلومات: شوال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة[3]، عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: تسع ذي الحجة، وليلة يوم

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وفيه نظرٌ؛ لأنه لا تُتَوَهَّمُ الإباحة؛ فإنَّ السياق سياقُ إيجاب، فهو ينافي الإباحة، ولا ينافي التخييرَ، فإن التخييرَ يكون في الواجبات، وقد ذكر النحويون الفرقَ بين التخيير والإباحةِ». انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «ولم يوجب عليهم شيئاً» أي على حاضري المسجد الحرام. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «هي شوال وذو القعدة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: الذي نقله عن مالك أحد قوليه وليس بالمشهور عنه. وأما استدلاله لهذا القول بكراهية عمر الاعتمار إلى أن يهل المحرم فلا ينهض دليلاً لمالك، لأنه يقول: لا تنعقد العمرة في أيام منى خاصة لمن حج، ما لم =

النحر، وعند مالك: ذي الحجة كله، فإن قلت: ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر؟ قلت: فائدته أن شيئاً من أفعال الحجّ لا يصحّ إلا فيها، والإحرام بالحج لا ينعقد ـ أيضاً ـ عند الشافعي في غيرها، وعند أبي حنيفة ينعقد إلا أنه مكروه، فإن قلت: فكيف كان الشهران وبعض الثالث أشهر؟ قلت: اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] فلا سؤال فيه إذن؛ وإنما كان يكون موضعاً للسؤال لو قيل: ثلاثة أشهر معلومات، وقيل: نُزِّل بعض الشهر منزلة كله، كما يقال: رأيتك سنة كذا، أو على عهد فلان، ولعل العهد عشرون سنة أو أكثر، وإنما رآه في ساعة منها، فإن قلت: ما وجه مذهب مالك وهو مرويّ عن عروة بن الزبير؟ قلت: قالوا إنّ العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر؛ فكأنها مخلصة للحج لا مجال فيها للعمرة، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه كان يخفق الناس بالدّرة وينهاهم عن الاعتمار فيهنّ، وعن عمر[1] ـ رضي الله عنه ـ: قال لرجل: إن أطعتني انتظرت حتى إذا أهللت المحرّم[2] خرجت إلى ذات عرق فأهللت منها بعمرة، وقالوا: لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر، ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾: معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم، وفيه أن الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه؛ وإنما جاء مقرّراً له، ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾: فمن ألزمه نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه عند أبي حنيفة وعند الشافعي بالنية ﴿فَلَا رَفَثَ﴾: فلا جماع؛ لأنه يفسده، أو فلا فحش من الكلام، ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾: ولا خروج عن حدود الشريعة وقيل: هو السّباب والتنابز بالألقاب، ﴿وَلَا جِدَالَ﴾: ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكارين[3]؛ وإنما أمر باجتناب ذلك، وهو واجب/ ٧٣ب الاجتناب في

= يتم الرمي ويحل بالإفاضة فتنعقد. وجميع السنة ما عدا ما ذكر ميقات للعمرة، ولا تظهر فائدة هذا القول عند مالك إلا في إسقاط الدم عن مؤخر طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة لا غير، وهي الفائدة التي نقلها الزمخشري عن عروة، ولعمري إن هذا القول حسن دليلاً، فلا يحتاج إلى مزيد. ولكن ظاهر الآية ومقتضاها: أن جملة الأشهر هي زمان الحج. ألا ترى أن من قال: وعشر من ذي الحجة يحتاج في تنزيل الآية على مذهبه إلى تقرير أن بعض الشهر يتنزل منزلة جميعه، ويستشهد على ذلك بقوله: ● ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال ● وإنما أحوجه إلى الاستشهاد، خروج مقالته عن ظاهر الآية؛ فالمتمسك بها على ظاهرها في كمال الأشهر الثلاثة واقف مع اقتضائها غير مضطر إلى مزيد عليه.

(١) قوله «وعن عمر» لعله ابن عمر. (ع)

(٢) قوله «حتى إذا أهللت المحرم» في الصحاح: أهل الهلال واستهل. على ما لم يسم فاعله. (ع)

(٣) قوله «والمكارين» في الصحاح: الكراء ممدود، لأنه مصدر كاريت. والدليل على ذلك أنك تقول: رجل مكار. ومفاعل: إنما هو من فاعلت اهـ فالمكارين في عبارة المفسر. جمع للمكاري، على زنة المفاعلين جمعاً للمفاعل. (ع)

كل حال[1]، لأنه مع الحج أسمج كلبس الحرير في الصلاة؛ والتطريب في قراءة القرآن، والمراد بالنفي وجوب انتفائها، وأنها حقيقة بأن لا تكون، وقرىء المنفيات الثلاث بالنصب وبالرفع، وقرأ أبو عمرو وابن كثير الأوّلين بالرفع؛ والآخر بالنصب: لأنهما حملا الأوّلين على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكونن رفث ولا فسوق، والثالث: على معنى الإخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج، وذلك أنّ قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام، وسائر العرب يقفون بعرفة؛ وكانوا يقدّمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسيء، فردَّ إلى وقت واحد وردّ الوقوف إلى عرفة، فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحج؛ واستدلّ على أن المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله ـ ﷺ ـ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، خرج كهيئة يوم[2] ولدته أمه» (١٣٢) وأنه لم يذكر الجدال[3] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، حث على الخير عقيب

---

١٣٢ ـ أخرجه البخاري (٣/ ٣٨٢) كتاب الحج: باب فضل الحج المبرور حديث (١٥٢١)، (٤/ ٢٥) كتاب المحصر: باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ حديث (١٨١٩)، وباب قول الله عز وجل: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ حديث (١٨٢٠)، ومسلم (٢/ ٩٨٣) كتاب الحج: باب في فضل الحج والعمرة حديث (٤٣٨/ ١٣٥٠) والنسائي (٥/ ١١٤) كتاب الحج: باب فضل الحج والترمذي (٣/ ١٧٦) كتاب الحج: باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة حديث (٨١١) وابن ماجة (٢/ ٩٦٤ ـ ٩٦٥) كتاب المناسك: باب فضل الحج والعمرة حديث (٢٨٨٩) وأحمد (٢/ ٢٤٨، ٤١٠، ٤٨٤) والطيالسي (١/ ٢٠٢ ـ منحة) رقم (٩٧٥) والدارمي (٢/ ٣١) كتاب المناسك: باب في فضل الحج والعمرة، وأبو يعلى (١١/ ٦١) رقم (٦١٩٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٦) وابن خزيمة (٤/ ١٣١) رقم (٢٥١٤) وابن حبان رقم (٣٧٠٢ ـ الإحسان) والبيهقي (٥/ ٦٧) كتاب الحج: باب لا =

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إنما أمر باجتناب ذلك في الحج واجتنابه واجب. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: وفيه نكتة تتعلق بعلم البيان. وهي أن تخصيص الحج بالنهي عن الرفث فيه والفسوق والجدال يشعر بأنها في غير الحج وإن كانت منهياً عنها وقبيحة، إلا أن ذلك القبح الثابت لها في غير الحج كلا قبح بالنسبة إلى وقوعها في الحج فاشتمل هذا التخصيص على هذا النوع من المبالغة البليغة والله أعلم. على أن الرفث إن كان التحدُّث في أمر الجماع خاصة، فالنهي عنه خاص بالحج وهو جائز في غيره على الوجه الشرعي. وقد نبه مالك رضيَ الله عنه على أنه لا بأس للحاج بالسعي في أمور النساء. إلا أن ذلك قد يوقع في الوهم على أنه يؤدي إلى ترك المحظور. وهذا يدل على تشديد مالك في حظر الرفث للحاج وما يتعلق به والله أعلم. وسمعت الشافعية يلهجون بالاعتراض على إسحاق في قوله من التنبيه: وتحريم الغيبة على الصائم. فيقولون: وعلى المفطر. فلا فائدة في تخصيص الصائم. ويعدون ذلك وهما منه وهم بمعزل عن هذه الآية وأمثالها، فقد أوسعته عذراً في عبارته تلك؛ إذ الكتاب العزيز به تمتحن الفصاحة وصحة العبارات.

(٢) قوله «خرج كهيئة يوم» لعله «كهيئة» بدون «يوم». (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: وهذ الذي ذكره الزمخشري سبقه إليه صاحبُ هذه القراءة، إلاَّ أنه أفصحَ عن =

النهي عن الشر؛ وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البرّ والتقوى؛ ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة، أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم، حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه، وينصره قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾، أي: اجعلوا زادكم إلى الآخرة؛ اتقاء القبائح، فإن خير الزاد اتقاؤها، وقيل: كان أهل اليمن لا يتزوّدون ويقولون: نحن متوكلون، ونحن نحج بيت الله أفلا يُطعمنا فيكونون كلاً على الناس، فنزلت فيهم، ومعناه: وتزوّدوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس[1]، والتثقيل عليهم، فإن خير الزاد التقوى، ﴿وَاتَّقُونِ﴾: وخافوا عقابي، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يعني أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

= رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٢٢) والحميدي (٢/ ٤٤٠) رقم (١٠٠٤) والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٤ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق أبي حازم عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث أبي هريرة. انتهى.

= مرادِه، قال أبو عمرو بن العلاء ـ أحد قارئيها ـ: الرفعُ بمعنى فلا يكونُ رفثٌ ولا فسوقٌ؛ أيْ شيءٌ يَخرُج من الحَجِّ، ثم ابتدأ النفيّ فقال: «ولاجدالَ»، فأبو عمرو لم يجعل النفيَيْن الأوَّلَيْن نهياً، بل تركهما على النفي الحقيقي؛ فمِنْ ثَمَّ كان في قوله هذا نظرٌ؛ فإنَّ جملة النفي بلا التبرئةِ قد يرادُ بها النهيُ أيضاً، وقيل ذلك في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. والذي يظهر في الجوابِ عن ذلك ما نقله أبو عبد الله الفاسي عن بعضهم فقال: «وقيل: الحُجَّةُ لمَنْ رفعهما أنَّ النفي فيهما ليس بعامٍّ، إذ قد يقع الرفثُ والفسوق في الحج من بعضِ الناسِ بخلاف نفي الجدال في أمر الحج فإنه عامٌّ. . .» وهذا يتمشّى على عُرْف النحويين فإنهم يقولون: لا العاملةُ عملَ «ليس» لنفي الوَحْدة، والعاملةُ عملَ «إنَّ» لنفي الجنس، قالوا: ولذلك يُقال: لا رجلٌ فيها بل رجلان أو رجال إذا رفعت، ولا يَحْسُن ذلك إذا بَنَيْتَ اسمَها أو نَصَبْتَ بها. وتوسَّط بعضُهم فقال: التي للتبرئة نصٌّ في العمومِ، وتلك ليست نصًّا، والظاهرُ أنَّ النكرةَ في سياق النفي مطلقاً للعموم. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله «وإبرام الناس» في الصحاح: أبرمه، أي أمله وأضجره. (ع)

خَلَقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: عطاء منه وتفضلاً، وهو النفع والربح بالتجارة، وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، ويسمون من يخرج بالتجارة: الداجّ[1]، ويقولون: هؤلاء الداج وليسوا بالحاج، وقيل: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم، وكانت معايشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا، فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً قال له: إنا قوم نكري في هذا الوجه وإن قوماً يزعمون أن لا حج لنا، فقال: سأل رجل رسول الله ـ ﷺ ـ عما سألت فلم يردّ عليه، حتى نزل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، فدعا به فقال: «أنتم حجاج»، (١٣٣) وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قيل له: «هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت/ ٧٤أ معايشنا إلا من التجارة في الحج»، (١٣٤) وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «فضلاً من ربكم في مواسم الحج»، «أَنْ تبتغوا» في أن تبتغوا[2] ﴿أَفَضْتُم﴾ دفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة، وأصله أفضتم

---

١٣٣ ـ أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٤١) كتاب المناسك، باب الكرى حديث (١٧٣٣)، وأحمد في المسند (٢/ ١٥٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٤٩)، والدارقطني في السنن (٢/ ٢٩٢) كتاب الحج، باب المواقيت، والطيالسي في مسنده رقم (١٩٠٩)، وابن جرير (٤/ ١٦٤) رقم (٣٧٦٥)، وسعيد بن منصور (٣/ ٨٢٠) رقم (٣٥٢).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود، وأحمد، وابن أبي شيبة، والحاكم من طريق العلاء بن المسيب: حدثنا أبو أمامة التيمي قال: «كنت أكري في هذا الوجه وكان قوم يقولون: إنه ليس لك حج فلقيت ابن عمر فقال: ألست بمحرم ولكن ـ الحديث). انتهى.

١٣٤ ـ أخرجه ابن جرير (٤/ ١٦٨ ـ ١٦٩) رقم (٣٧٨٨) حدثنا أحمد بن إسحاق قال: حدثنا أبو أحمد قال: حدثنا مندل عن عبد الرحمن بن المهاجر عن أبي صالح مولى عمر قال: قلت لعمر: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؛ قال: وهل كانت معايشهم إلاَّ في الحج. ا.هـ.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن مهاجر عن أبي صالح مولى عمر قال: قلت يا أمير المؤمنين، ـ فذكره وفي إسناده مندل بن علي وهو ضعيف. انتهى.

---

(١) قوله «الداج» الدجيج: الدبيب في السير وقالوا: الحاج والداج، فالداج: الأعوان والمكارون كذا في الصحاح. والمكارون: جمع المكاري، كالمغازين جمع المغازي. (ع)

(٢) قوله «أن تبتغوا» كان الأوجه تقديم هذا على تفسير قوله تعالى ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾. (ع)

أنفسكم، فترك ذكر المفعول كما ترك في دفعوا من موضع كذا وصبوا، وفي حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «صب في دقران، وهو يخرش[1] بعيره بمحجنه» ويقال: أفاضوا في الحديث وهضبوا فيه[2]، (١٣٥)و ﴿عَرَفَـٰتٍ﴾: علم للموقف سمى بجمع كأذرعات، فإن قلت: هلا مُنعت الصرف وفيها السببان: التعريف والتأنيث[3]؟ قلت: لا يخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بتاء مقدرة كما في سعاد؛ فالتي في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث ولا يصح تقدير التاء فيها، لأنّ هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت، لأن التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها، وقالوا: سميت بذلك؛ لأنها وصفت لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما أبصرها عرفها، وقيل: إن جبريل حين كان يدور به في المشاعر أراه إياها فقال: قد عرفت، وقيل: التقى فيها آدم وحوّاء فتعارفا، وقيل: لأنّ الناس يتعارفون فيها والله أعلم بحقيقة ذلك، وهي من الأسماء المرتجلة؛ لأنّ العرفة لا تعرف في أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف، وقيل: فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة، لأنّ الإفاضة لا تكون إلا بعده، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج» (١٣٦) ﴿فَٱذۡكُرُواْ

---

١٣٥ ـ قال الزيلعي (١/ ١٢٧): «لم أجده بهذا اللفظ».
وقال الحافظ: لم أجده. والذي في الغرائب لأبي عبيد الجرمي. وفي مسند الشافعي وطبقات ابن سعد كلهم من حديث عيينة عن ابن المنكدر، وعن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن جبير بن الحويرث قال «رأيت أبا بكر على قزع. وهو يخرش بعيره بمحجنه»: زاد الجرمي عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن عيينة «كأني أنظر إلى فخذه وقد انكشفت». انتهى.

١٣٦ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٥٩٩) كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة حديث (١٩٤٩)، والترمذي =

---

(١) قوله «دقران» في بعض النسخ: ذفران، بالذال المعجمة والفاء. ولعل الأول بالدال المهملة والفاء، من الدفر بمعنى النتن خاصة. والذفر ـ بالمعجمة والفاء محركة ـ ذكاء الرائحة طيبة أو خبيثة، كما في الصحاح. أما الدقر بالمهلة والقاف فبمعنى الشدة والكذب والفحش والنميمة. أفاده الصحاح. وفيه. الخرش مثل الخدش. (ع)

(٢) قوله «وهضبوا فيه» في الصحاح: الهضبة المطرة. وهضب القوم في الحديث واهتضبوا أي أفاضوا فيه. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت هلا منعت عرفات الصرف. . . إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: يلزمه إذا سمى امرأة بمسلمات أن لا يصرفه فيقول: هذا مسلمات بغير تنوين. وهو قول رديء بل الأفصح الصحيح في مسلمات إذا سمى به أن ينون. وإنما بنى الزمخشري كلامه على أن تنوين عرفات للتمكين لا للمقابلة. ولذلك أسقط تنوين المقابلة من أنواع التنوين التي عدها في مفصله، على أنه راجع إلى تنوين التمكين.

﴿ٱللَّهَ﴾: بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات، وقيل: بصلاة المغرب والعشاء، و ﴿ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾: قزح، وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام وعليه الميقدة، وقيل: المشعر الحرام: ما بين جبل المزدلفة من مأزمي عرفة[1] إلى وادي محسر، وليس المأزمان، ولا وادي محسر من المشعر الحرام، والصحيح: أنه الجبل، لما روى جابر ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ لما صلّى الفجر يعني بالمزدلفة بغلس، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر»، (١٣٧) وقوله تعالى: ﴿عند المشعر الحرام﴾: معناه مما يلي المشعر الحرام قريباً منه، وذلك للفضل، كالقرب من جبل الرحمة، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر، أو جعلت أعقاب المزدلفة؛ لكونها في حكم المشعر ومتصلة به عند المشعر، والمشعر: المعلم، لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرم لحرمته، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه نظر إلى الناس ليلة جمع فقال: لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون، وقيل: سميت المزدلفة جمعاً؛ لأنّ آدم ـ صلوات الله عليه ـ اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي دنا منها، وعن قتادة: لأنه يجمع فيها/ ٧٤ب بين الصلاتين، ويجوز أن يقال: وصفت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون إلى الله أي يتقرّبون بالوقوف فيها، ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾: ما مصدرية أو كافة، والمعنى: واذكروهُ ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، لا تعدلوا عنه، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾: من قبل الهدى، ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: الجاهلين، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه، وإن هي مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة، ﴿ثُمَّ

= (٣٣٨/٣)، كتاب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج حديث (٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) كتاب المناسك، باب في من لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣) كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع حديث (٣٠١٥)، وأحمد (٤/ ٣٣٥) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢٠٣) (٣٨٩٢)، والدارمي (٢/ ٥٩) كتاب المناسك باب بما يتم الحج، وابن الجارود في المنتقى حديث (٤٦٨)، والدارقطني (٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، كتاب الحج باب المواقيت، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٦٤)، والبيهقي (٥/ ١١٦) كتاب الحج، باب وقت الوقوف.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: رواه أصحاب السنن، والحاكم، واللفظ للنسائي وزاد قبل: «أن يطلع الفجر» كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

١٣٧ ـ تقدم تخريج حديث جابر في صفة حج النبي ـ ﷺ ـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه مسلم في صفة الحج في الحديث الطويل. انتهى.

---

(١) قوله «من مأزمي عرفة» في الصحاح: المأزم المضيق، وموضع الحرب أيضاً. (ع)

﴿أَفِيضُواْ﴾: ثم لتكن إفاضتكم: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، ولا تكن من المزدلفة، وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع[1] على الناس والتعالي عليهم وتعظمهم عن أن يساووهم في الموقف، وقولهم: نحن أهل الله وقطان حرمه فلا تخرج منه، فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات؟ فإن قلت: فكيف موقع ثم؟ قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره وبُعد ما بينهما؛ فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات، قال: ثم أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضتين، وأن إحداهما صواب والثانية خطأ، وقيل: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس وهم الحمس، أي: من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات، وقرىء: «من حيث أفاض الناسِ» ـ بكسر السين ـ أي النّاسي وهو آدم، من قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾ [طه: ١١٥] يعني أن الإفاضة من عرفات شرع قديم فلا تخالفوا عنه، ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾: من مخالفتكم في الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾، أي: فإذا فرغتم من عباداتكم الحجية ونفرتم، ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾: فأكثروا ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون في ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم، وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل، فيعدّدون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم، ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾: في موضع جرّ عطف على ما أضيف إليه الذكر[2] في قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ كما تقول كذكر قريش آباءهم، أو

---

(١) قال محمود رحمه الله: «وذلك لما كان عليه الحمس من الترفُّع على الناس. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: وقد اشتملت الآية على نكتتين:
إحداهما: عطف الإفاضتين إحداهما على الأخرى ومرجعهما واحد وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهَّم متوهِّم أنه من باب عطف الشيء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهما من التغاير ما بين العام والخاص. والمخبر عنه أولاً الإفاضة من حيث هي غير مقيدة. والمأمور به ثانياً الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس.
والثانية: بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهملة وذلك يستدعي التراخي مضافاً إلى التغاير، وليس بين الإضافة المطلقة والمقيدة تراخ. فالجواب على ذلك: أن التراخي كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة وبعدها في العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذي أجاب به بعد مزيد نشيط وإيضاح.

(٢) قال محمود رحمه الله: «أشد معطوف على ما أضيف إليه الذكر. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: فعلى الأول يكون (أشد) واقعاً على المذكور المفعول. ومثله على الأول: أن يضرب اثنان زيداً مثلاً، فيقول أيهما أشد ضرباً لزيد؟ فيوقعه على الضارب. ومثال الثاني أن يضرب زيد اثنين مثلاً فتقول: أيهما أشد ضرباً؟ فتوقعه على المضروب. وعلى الوجه الأول يكون التفضيل على الفاعل وهو القياس. وعلى الثاني يكون التفضيل على المفعول وهو خلاف القياس. وقد ذكر الزمخشري في مفصله أنه شاذ بقولهم: أتسبل مرآة التحسين وأنا أسر منك، هذا في أمثلة عددها، فليت شعري =

قوم أشدّ منهم ذكراً، أو في موضع نصب عطف على آباءكم، بمعنى: أو أشدّ ذكراً[1] من آبائكم، على أن ذكراً من فعل المذكور ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ معناه أكثروا ذكر الله ودعاءه فإنّ الناس من بين مقلّ لا يطلب بذكر الله إلاّ أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين، ﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا أي إعطاءنا في الدنيا خاصة، ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: من طلب خلاقي وهو النّصيب، أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب، لأنّ همه مقصور على الدنيا.

والحسنتان ما هو طلبةُ الصّالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير، وطلبتهم في الآخرة من الثواب، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: الحسنة في الدنيا/ ١٧٥أ المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار: امرأة السوء، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الداعون بالحسنتين: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾: أي نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة، أو من أجل ما كسبوا، كقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح: ٢٥]، أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم [منه] ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة، وسمّى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال،

= كيف حمل الآية عليه وقد وجد غير ذلك سبيلاً. وفي الوجهين جميعاً يفر من عطف أشد على الذكر الأول، لئلا يكون واقعاً على الذكر وقد انتصب الذكر تمييزاً عنه، فيكون الذكر ذاكراً وهو محال، لكن أبا الفتح صحح هذا الوجه وألحقه بباب قولهم: شعر شاعر، وجن جنونه، ونحوه مما بالغت العرب فيه حتى جعلت للصفة صفة مثلها تمكيناً لثبوتها. ووضح ذلك أن انتصاب الذكر تمييزاً يوجب أن لا يقع أشد عليه، ويعين خروجه منه إما بأن يقع على الجثة الذاكرة بتأويل جعله ذاكراً، على ما صار إليه أبو الفتح أنك لو قلت: زيد أكرم أبا، لكان زيد من الأبناء: ولو قلت: زيد أكرم أب، لكان من الآباء. ويحتمل عطفه على الذكر أعني وجهاً آخر سوى ما ذهب إليه أبو الفتح، وهو أن يكون من باب ما ذكره سيبويه قال: ويقولون هو أشح الناس رجلاً، وهما خير الناس رجلاً، وهما خير الناس اثنين، فالمجرور هنا بمنزلة التنوين، وانتصب الرجل والاثنين، كما انتصب الوجه في قولك: هو أحسن منه وجهاً، ولا يكون إلا نكرة، كما لا تكون الحال إلا نكرة، والرجل هو الاسم المبتدأ؛ فإنما أراد بذلك أن هذا ليس بمثابة: هو أشجع الناس غلاماً، فإن هذا يجوز أن يكون غلاماً هو الاسم المبتدأ كما في المثال الأول، ويجوز أن يكون غيره؛ فالآية على هذا الوجه الذي أوضحته منزلة على المثال الأول، فيكون ذكر المنصوب واقعاً على أشد كما كان الرجل المنصوب واقعاً على أشح؛ فكأنه قال: أو أشد الأذكار ذكراً، فهذه وجوه أربعة كلها مطروقة، إلا هذا الوجه الذي زدته، فإن خاطري أبو عذرته (كخشية الله أو أشد خشية) ولم أقف على كلام الزمخشري فيها بعد.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي قاله الزمخشري معنى حسن، ليس فيه تجوُّز بأن يُجْعَل للذكر ذكر؛ لأنه جعل «أشد» من صفات الذاكرين، إلا أن فيه العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار وهو ممنوع عند البصريين ومَحَلُّ ضرورة. انتهى. الدر المصون.

والأعمال موصوفة بالكسب: بما كسبت أيديكم، ويجوز أن يكون: (أولئك) للفريقين جميعاً، وأنّ لكلّ فريق نصيباً من جنس ما كسبوا، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد، فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه، رُوِي: أنه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة، وَرُوِيَ في مقدار فواق ناقة، ورُوِيَ في مقدار لمحة.

﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

الأيام المعدودات: أيام التشريق، وذكر الله فيها: التكبير في أدبار الصلوات وعند الجمار، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنّه كان يكبر في فسطاطه بمنى فيكبر من حوله، حتى يكبر الناس في الطريق وفي الطواف، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾: فمن عجّل في النفر أو استعجل النفر، وتعجل، واستعجل: يجيئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل: ومتعديين، يقال: تعجّل الذهاب واستعجله، والمطاوعة أوفق لقوله: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾؛ كما هي كذلك في قوله [من البسيط]:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ[1]

---

(١) والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل
قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل
وربما فات قوم جل أمرهم ... من التأني وكان الرأي لو عجلوا

للقطامي وقيل للأعشى. والناس مبتدأ. ومن يلق ـ يصب ـ خيراً، شرط حذف صدر جوابه، أي فهم قائلون له، والجملة خبر المبتدأ. ما يشتهي، أي الذي من الدعاء بخير أو من المدح. وروي: ما تشتهي، فلعل معناه يقولن له: ما تشتهيه أنت يا مخاطب. ويجوز أن «ما» استفهامية، أي ما الذي تريده يا من لقيت الخير، لكن تبعده المقابلة. وهبلت المرأة هبلاً، كتعبت تعباً: ثكلت ولدها وفقدته فحزنت عليه. أي ويقال لأم المخطىء الثكلى، فهو دعاء عليها بموت ولدها. ثم قال:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وعجلته فتعجل واستعجل، ويتعديان أيضاً فيقال: تعجل الأمر واستعجله. ثم قال: وقد يفوت قوماً معظم قصدهم بسبب التأني وكان الرأي الصواب عجلتهم، فلو مصدرية. والمعنى أن بعض الحاجات يناسبها التمهُّل، وبعضها التعجُّل. ويجوز أن «لو عجلوا» هو اسم كان والرأي بالنصب خبرها. وروي بدله الحزم، والمعنى متقارب. وفي الكلام نوع بديعي يسمى العكس والتبديل، وهو الإتيان بنقيض المعنى المشهور كما هنا، فإن مدح التأني هو المشهور، ومدح العجلة يناقضه. أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان.

البيت للقطامي ينظر في ديوانه ص ٢٥، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٨٠٥، وديوان المعاني ١/ ١٢٤، =

لأجل المتأني: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ بعد يوم النّحر يوم القرّ[1]؟ وهو اليوم الذي يسمّيه أهل مكة يوم الرؤوس، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم، وهو مذهب الشافعي ويُروى عن قتادة، وعند أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾: حتى رمى في اليوم الثالث، والرّمْيُ في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزّوال عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: لايجوز، فإن قلت: كيف قال: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، عند التعجّل والتأخّر جميعاً؟ قلت: دلالة على أنّ التعجل والتأخر مخير فيهما، كأنه قيل: فتعجلوا أو تأخروا، فإن قلت: أليس التأخر بأفضل؟ قلت: بلى، ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل كما خُيّر المسافر بين الصوم والإفطار وإن كان الصوم أفضل[2]، وقيل: إنّ أهل الجاهلية كانوا فريقين: منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما جميعاً، ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾: أي ذلك التخيير، ونفي الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي؛ لئلا يتخالج في قلبه شيء منهما، فيحسب أنّ أحدهما يرهق صاحبه آثام في الإقدام عليه، لأنّ ذا التقوى حذّر متحرّز من كل ما يريبه؛ ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند/ ٧٥ب الله، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ليعبأ بكم، ويجوز أن يراد ذلك الذي مرّ ذكره من أحكام الحج وغيره لمن اتقى؛ لأنه هو المنتفع به دون من سواه، كقوله: ﴿ذلك خير للذين يريدون وجهَ الله﴾[الروم: ٣٨].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا

= وللأعشى في تخليص الشواهد ص ١٠٢، وخزانة الأدب ٥/ ٢٧٧، ولسان العرب (بعض)، ومجالس ثعلب ص ٤٣٧، والدر المصون ١/ ٥٠٢.

(١) قوله «يوم النحر يوم القر» في الصحاح: لأن الناس يقرون في منازلهم. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «إنما نفى الإثم في الطرفين جميعًا ليدل على التخيير بين الأمرين الفاضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والفطر وإن كان الصوم أفضل». قال أحمد رحمه الله: قوله ـ إن التخيير يقع بين الفاضل والأفضل ـ غير مستقيم، فإن التخيير يوجب التساوي في غرض المخير، وينافي طلب أحد الطرفين والأمر به. وكيف يستقيم اجتماع ما يوجب الطلب والترجيح وما يوجب التساوي والتخيير. وقد وقع لإمام الحرمين قريب من هذا، فإنه ميز الوجوب من الندب بأن الندب يشتمل على اقتران الأمر بخيرة الترك ولا كذلك الوجوب، ولم يرضه محققو الفن وإنما أخل الزمخشري في تفسيره الآية فلزمه ذلك السؤال الوارد عليه. وبيان عدم التطابق بين تفسيره والآية، أي مضمونها نفي الإثم عن الطرفين جميعاً، وهذا القدر مشترك بين الندب والكراهة والإباحة، لكن يتميز الندب بترجيح الفعل على الترك، وتتميز الكراهة والإباحة بالتخيير بينهما؛ فلا تنافي إذاً بين الندب إلى التأخير وأنه أفضل، وبين نفي الإثم عن تاركه إلى التخييل. وحينئذٍ لا يرد السؤال الذي لزمه فأجاب عنه.

﴿يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾

﴿مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾، أي: يروقك ويعظم في قلبك، ومنه: الشيء العجيب الذي يعظم في النفس، وهو الأخنس بن شريق كان رجلاً حلو المنطق، إذا لقي رسول الله ـ ﷺ ـ ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أني صادق، وقيل: هو عامّ في المنافقين، كانت تحلولى ألسنتهم، وقلوبهم أمرّ من الصَّبِر، فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؟ قلت: بالقول، أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأن ادّعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة، كما تراد بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول؛ فكلامه إذاً في الدنيا لا في الآخرة، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿يعجبك﴾، أي قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام[1] فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أي يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام، وقرىء: «ويشهدُ اللهُ»، وفي مصحف أبيّ: «ويستشهد الله»: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ وهو شديد الجدال والعداوة للمسلمين، وقيل: كان بينه وبين ثقيف[2] خصومة فبيتهم ليلاً وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم، والخصام: المخاصمة، وإضافة الألدّ بمعنى في، كقولهم: ثبت الغدر. أو جعل الخصام ألدّ على المبالغة، وقيل الخصام: جمع خصم، كصعب وصعاب، بمعنى وهو أشدّ الخصوم خصومة ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عنك وذهب بعد إلانة القول وإحلاء المنطق ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ كما فعل بثقيف، وقيل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ وإذا كان والياً فعل ما يفعل ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل، وقرىء: (ويهلكُ الحرث والنسلُ)، على أن الفعل للحرث والنسل، والرفع للعطف على سعى، وقرأ الحسن بفتح اللام، وهي لغة. نحو: أبى يأبى، وروى عنه: «ويهلك»، على البناء للمفعول ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ من قولك: أخذته بكذا، إذا حملته عليه وألزمته إياه، أي حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه،

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: والذي يظهر أنه متعلق بيعجبك لا على المعنى الذي قاله الزمخشري، بل على معنى أنك تستحسن مقالته دائماً في مدة حياته؛ إذ لا يصدر منه من القول إلا ما هو معجب رائق لطيف، فمقالته في الظاهر معجبة دائماً، لا تراه يعدل عن تلك المقالة الحسنة الرائعة إلى مقالةٍ خشنةٍ منافية. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «وقيل كان بينه وبين ثقيف» الضمير للأخنس بن شريق. (ع)

وألزمته ارتكابه، وأن لا يخلي عنه ضراراً ولجاجاً. أو على ردّ قول الواعظ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعها أي يبذلها في الجهاد، وقيل: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل، وقيل: نزلت في صهيب بن سنان أراده المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفراً كانوا معه، فقال لهم: أنا شيخ كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضرّكم، فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي. فقبلوا منه ماله وأتى المدينة. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ حيث كلفهم الجهاد فعرضهم لثواب الشهداء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

﴿ٱلسِّلْمِ﴾ بكسر السين وفتحها، وقرأ الأعمش بفتح السين واللام، وهو: الاستسلام والطاعة، أي استسلموا لله وأطيعوه، ﴿كَآفَّةً﴾: لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته، وقيل: هو الإسلام، والخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم، ويجوز أن يكون كافة حالا من السلم؛ لأنها تؤنث كما تؤنث الحرب، قال [من البسيط]:

أَلسِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ ... وَالحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ[1]

---

(١) أبا خراشة أما أنت ذا نفر ... فإن قومي لم تأكلهم الضبع
إن تك جلمود بصر لا أؤبسه ... أوقد عليه فأحميه فينصدع
السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

للعباس بن مرداس يخاطب خفاف بن ندبة. وأما أنت: أصله لأن كنت، فحذفت لام التعليل وكان الناقصة، فانفصل ضميرها ونابت عنها ما، وأدغمت فيها أن المصدرية. وقال الكوفيون تأتي «أن» بالفتح شرطية كأن بالكسر، وعلى هذا فلا حاجة لتقدير لام التعليل، والمعنى على الشرط والجواب. والضبع: السنة المجدبة، أو الحيوان المعروف. والبصر: حجارة تضرب إلى بياض، واحده بصرة. وقيل هي بمعناه، وأبسه تأبيساً: ذلله وكسره. يقول يا أبا خراشة، لأن كنت صاحب جيش افتخرت علي، لا تفعل ذلك فإن قومي موجودون كثيرون. وكنّى عن ذلك بعدم أكل الضبع إياهم. ويحتمل أن فيه تعريضاً أيضاً، ثم قال: إن تكن كصخر من الحجارة لا أقدر على تأبيسه وتكسيره لصلابته، أوقد عليه نار الحرب بمعاونة الفرسان لي فأحرقه فينشق وينكسر؛ فالإيقاد استعارة مصرحة، والإحماء ترشيح. أو إن لم أغلبك على العادة تحيلت حتى أغلبك، كما يتحيل بكسر الحجر بالنار. وأتى بضمير الغيبة نظراً للخبر، ورفع أحميه وينصدع بعد الشرط المضارع قليل ضعيف، سيما مع عطفهما على المجزوم، ولعله توهم جزمه. والسلم بالفتح وبالكسر: الصلح =

على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها، وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة. أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها، وأن لا يُخلوا بشيء منها، وعن عبد الله بن سلام: أنه استأذن رسول الله ﷺ أن يقيم على السبت (١٣٨) وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل[١] و﴿كافة﴾ من الكف، كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم، ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾، عن الدخول في السلم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، أي: الحجج والشواهد على أنّ ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالب لا يعجزه الانتقام منكم، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا ينتقم إلا بحق، وروي أنّ قارئًا قرأ غفور رحيم، فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم،

---

١٣٨ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٥٥) بلفظ نزلت في ثعلبة وعبد الله ابن سلام وابن يامين وأسد وأُسيد ابني كعب، وسعيه بن عمرو، وقيس بن زيد ـ كلهم من يهود ـ قالوا يا رسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسبت فيه وإن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها بالليل فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ . . .﴾.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٣٣) وعزاه للطبرى.

قال الحافظ ابن حجر: رواه عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال «نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه. وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي ـ ﷺ ـ آمنوا بشريعته وشريعة موسى، فعظموا السبت وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعدما أسلموا. فأنكر ذلك عليهم المسلمون: فقالوا: إنّا نقوى على هذا وهذا وقالوا للنبي ـ ﷺ ـ في التوراة كتاب الله تعالى: وفي هذا فلنعمل بهما. فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ وهي نسخة موضوعة. وقد أخرجه الطبري من رواية حجاج بن محمد عن ابن جريج عن عكرمة. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً. . . الآية﴾ قال: نزلت في أناس من اليهود أسلموا كعبد الله بن سلام، وثعلبة، وابن يامين وأسد بن كعب. وطائفة من يهود، استأذنوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلاً. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والرغبة عما عداها. قال فذكر الآية. فهذا أولى. وابن جريج لم يسمع من عكرمة. انتهى.

= تأخذ منها ما يكفيك من طول المدة، أو تأخذ منا بسببها. وأما الحرب فيكفيك منها القليل، فتنكير جرع للتقليل. وشبّه الحرب بنار منحبسة في ظرف ذي منافذ تخرج منها أنفاس، وشبّه الأنفاس بماء على طريق المكنية والأنفاس تخييل للأولى والجرع تخييل للثانية، وفيها نوع تهكُّم حيث شبّه الحار بالبارد، كأنه يسقيه من أنفاسها. ويروى «في السلم تأخذ منا ما رضيت به» أي تأخذ منا شيئاً كثيراً في زمن الصلح، ولا تطيق من حربنا إلا قليلاً؛ لكن هذه الرواية إنما تدل على تأنيث السلم، بطريق المقابلة للحرب.

ينظر: ديوانه ص (٨٦) وخزانة الأدب ٢/ ٨٢، وإصلاح المنطق ص ٣٠، لسان العرب (أبس)، وأساس البلاغة (جرع)، تاج العروس (أبس) وفي المخصص (١٥/ ٧٤)، الدر المصون (١/ ٥١٠)، والبحر المحيط ٢/ ١٣٠.

(١) قوله «في صلاته من الليل» لعل بعده سقطاً تقديره: فنزلت. (ع)

لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه، وقرأ أبو السّمال: «زللتم» بكسر اللام وهما لغتان، نحو: ظللت وظللت.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

إتيان الله إتيان أمره وبأسه كقوله: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ [النحل: ٣٣]، ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ [الأنعام: ٤٣]، ويجوز أن يكون المأتي به محذوفاً، بمعنى: أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة وهي ما أظلك، وقرىء: «ظلال» وهي جمع ظلة، كقلة وقلال أو جمع ظل، وقرىء (والملائكة) بالرفع كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام، فإن قلت: لِمَ يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت: لأنّ الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرّ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؛ ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع؛ لمجيئها من حيث يتوقع الغيث، ومن ثمة اشتد على المتفكرين في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: وأتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه، وقرأ معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: «وقضاء الأمر»: على المصدر المرفوع عطفاً على الملائكة، وقرىء: «ترجِع»، «وترجَع»، على البناء للفاعل/ ٧٦ب والمفعول بالتأنيث والتذكير فيهما.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

﴿سَلْ﴾: أمر للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو لكل أحد، وهذا السؤال سؤال تقريع كما تسأل الكفرة يوم القيامة، ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾: على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم، أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام، و﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: آياته، وهي أجل نعمة من الله، لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة، وتبديلهم إياها: أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم، فجعلوها أسباب ضلالتهم؛ كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، أو حرفوا آيات الكتب[1] الدالة على دين محمد ـ ﷺ ـ. فإن

---

(١) قوله «أو حرفوا آيات الكتب» لعله عطف على المعنى، أي أنهم جعلوا المعجزات أسباب ضلالهم، وقد جعلها الله أسباب هداهم. أو حرفوا آيات الكتب. . . إلخ». (ع)

قلت: كم استفهامية أم خبرية؟ قلت: تحتمل الأمرين، ومعنى الاستفهام فيها للتقرير، فإن قلت: ما معنى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾، قلت: معناه من بعد ما تمكن من معرفتها أو عرفها؛ كقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥] لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها، أو لم يعرفها، فكأنها غائبة عنه: وقرىء ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ﴾ بالتخفيف.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾

المزين هو الشيطان[١]، زين لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها إليهم فلا يريدون غيرها، ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسنوها وأحبوها، أو جعل إمهال المزين له تزيينا، ويدل عليه قراءة من قرأ: «زَيَّنَ للَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةَ الدُّنيَا»: على البناء للفاعل، ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لاحظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم، أي: لا يريدون غيرها، وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها، أو ممن يطلب غيرها، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ لأنهم في عليين من السماء، وهم في سجين من الأرض[٢]، أو حالهم عالية لحالهم؛ لأنهم في كرامة وهم في هوان. أو هم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم

---

(١) قال محمود رحمه الله: «المزين هو الشيطان... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز وهذه الآية تحتمل الوجهين، لكن الإضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة، والإضافة إلى غيره مجاز. على قواعد السنَّة. والزمخشري يعمل على عكس هذا، فإن أضاف لله فعلاً من أفعاله إلى قدرته جعله مجازاً وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته جعله حقيقة. وسبب هذا هو التعكيس باتباع الهوى في القواعد الفاسدة.

(٢) قال محمود رحمه الله: «لأنهم في عليين من السماء، وهم في سجين... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا من وضع الظاهر موضع المضمر بصفة أخرى ومثله في كتاب الله كثير، قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ وكان الأصل: ألا إنهم... الآية، فوضع الظاهر موضع المضمر بصفة أخرى، وضمنه ذكر صفة الظلم بتلو صفة الخسران. وفي كلام الزمخشري طماح إلى قاعدته في وجوب وعيد العصاة. ألا تراه يقول: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي، إشارة إلى أن غير المتقي وهو المصر على الكبائر شقي حتماً كهؤلاء الذين يسخرون من الذين آمنوا، ومنهم من يتمحل فيقول: لأنه جعل المؤمن عين المتقي ومقتضى قاعدته الفاسدة: أن الإيمان يستلزم التقوى حتى لا يفرض مؤمن إلا متقياً. إذ الإيمان فيما فسره هو في تفسيره هذا وفيما فسره أهل بدعته في كتبهم هو تصديق الاعتقاد الصحيح والنطق به بالعمل الصالح، والمخل عندهم بالعمل إما بالإصرار على كبيرة أو بترك مهم من الواجبات فاسق ليس بمؤمن ولا كافر. فمقتضى هذا التقرير على ما ترى أن كل مؤمن متق، وقد علمت من كلامه على هذه الآية ما يأبى ذلك وينقضه.

كما يتطاول هؤلاء عليهم في الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم، ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين: ٣٤]، ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: بغير تقدير، يعني: أنه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه، كما وسع على قارون وغيره، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة وهي استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان أولياؤه المؤمنون أحق بها منكم، فإن قلت: لم قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾؟ قلت: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي؛ وليكون بعثا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: متفقين على دين الإسلام، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: يريد: فاختلفوا فبعث الله؛ وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾: عليه، وفي قراءة عبد الله: «كان الناس أمّة واحدة فاختلفوا فبعث الله»؛ والدليل عليه قوله عز وعلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ [يونس: ١٩]، وقيل: كان/ ٧٧أ الناس أمة واحدة كفارًا، فبعث الله النبيين، فاختلفوا عليهم، والأوّل الوجه. فإن قلت: متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق فاختلفوا، وقيل: هم نوح ومن كان معه في السفينة ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: يريد الجنس، أو مع كل واحد منهم كتابه، ﴿لِيَحْكُمَ﴾: الله، أو الكتاب، أو النبيّ المنزل عليه، ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾: في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتّفاق، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾: في الحق، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾: إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف، أي ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب، وجعلوا نزول الكتاب سبباً في شدّة الاختلاف واستحكامه، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: حسدًا بينهم وظلمًا؛ لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم، و﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: بيان لما اختلفوا فيه؛ أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

﴿أَمْ﴾: منقطعة، ومعنى الهمزة[1] فيها: للتقرير، وإنكار الحسبان واستبعاده، ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات ـ تشجيعاً لرسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته وعداوتهم له ـ قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، ﴿وَلَمَّا﴾: فيها معنى التوقع، وهي في النفي نظيرة «قد» في الإثبات، والمعنى: أن إتيان ذلك متوقع منتظر ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة، و﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: بيان للمثل وهو استئناف، كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: مستهم البأساء، ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾: وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾: إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها، ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك، ومعناه طلب الصبر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة، وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة، وتماديه في العظم؛ لأنّ الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ على إرادة القول، يعني فقيل لهم ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر، وقرىء: ﴿حتى يَقُولَ﴾ بالنصب على إضمار أن، ومعنى الاستقبال؛ لأنّ: «أن» علم له، وبالرفع على أنه في معنى الحال؛ كقولك: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجرُّ بطنه؛ إلا أنها حال ماضية محكية.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

فإن قلت: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم﴾/ ٧٧ب وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف؟ قلت: قد تضمن قوله ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف؛ لأنّ النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها، قال الشاعر [من الكامل]:

إنَّ الصَّنِيعَةَ لاَ تَكُونُ صَنِيعَةً ... حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ[2]

---

(١) قوله «أم منقطعة ومعنى الهمزة» تفسر بمعنى بل والهمزة. (ع)

(٢) إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا صنعت صنيعة فاعمد بها ... لله أو لذوي القرابة أو دع
يقول: إن العطية لا تكون عطية حقيقة حتى تكون في موضعها، فكنّى بإصابة الطريق عن إيصالها إلى المقصد، وهو من يستحقها. وقوله «فاعمد بها» أي اقصد بها. وضمنه معنى اذهب بها، فعداه =

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه جاء عمرو بن الجموح، وهو شيخ هِمّ[1] وله مال عظيم فقال: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فنزلت (١٣٩)، وعن السدي: هي منسوخة بفرض الزكاة، وعن الحسن: هي في التطوّع.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾: من الكراهة، بدليل قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ ثم إما أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغة؛ كقولها [من البسيط]:

.... فَـإِنَّـمَـا هِـيَ إِقْـبَـالٌ وَإِدْبَـارُ[2]

كأنه في نفسه لفرط كراهتهم له، وإما أن يكون فعلاً بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز، أي وهو مكروه لكم، وقرأ السلمي ـ بالفتح ـ على أن يكون بمعنى المضموم، كالضَّعف والضُّعف، ويجوز أن يكون بمعنى الإكراه على طريق المجاز، كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[3] [الأحقاف: ١٥]، **وعلى قوله تعالى**: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ جميع ما كلفوه، فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه وتحب خلافه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾: ما يصلحكم وما هو خير لكم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ

---

١٣٩ ـ ذكره السيوطي في الدر (١/٤٣٧) وعزاه لابن المنذر عن ابن حبان قال: إن عمرو بن الجموح سأل النبي ـ ﷺ ـ: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت.

= بالّلام. ويروى: لذوي القرائب فلعل معناه لأصحاب القرابات القرائب. وقوله «أودع» أي اترك، لأنه ليس بعد هذين إلا الفخر.
البيت لابن منظور: ينظر اللسان (صنع) الدر المصون (١/٥٢٥).

(١) قوله «وهو شيخ هم وله مال» في الصحاح الهم ـ بالكسر ـ: الشيخ الفاني. (ع)
(٢) مر شرح هذا الشاهد بهذا الجزء عند تفسير آية ١٧٧ فراجعه إن شئت اهـ مصححة.
(٣) قوله «ووضعته كرهاً وعلى قوله تعالى» أي جميع ما كلفوه جار على قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟﴾... إلخ فإن النفوس تكرهه وهو خير لهم، وتحب خلافه وهو شر لهم. (ع)

كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢١٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾

بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين؛ ليترصد عيرًا لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهرًا يأمن فيه الخائف ويبذعرّ[1] فيه الناس إلى معايشهم فوقف رسول الله ـ ﷺ ـ العير، وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، وردّ رسول الله ـ ﷺ ـ العير والأسارى (١٤٠)، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: لما نزلت أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ الغنيمة (١٤١)، والمعنى: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام، و﴿قِتَالٍ فِيهِۖ﴾: بدل الاشتمال من الشهر، وفي قراءة عبد الله: «عن قتال فيه»، على تكرير العامل؛ كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ **[الأعراف: ٧٥]**، وقرأ عكرمة: «قتل فيه قل قتل فيه كبير»، أي: إثم كبير، وعن عطاء: أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام؟ فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت (١٤٢)، وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ **[التوبة: ٥]**، ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وأكبر خبره، يعني: وكبائر قريش من

---

١٤٠ ـ أخرجه ابن إسحاق (٧٠٥ ـ سيرة بن هشام).
والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٨).
وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٣٠) وعزاه للثعلبي. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٤٤).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن إسحاق في المغازي قال: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير بطوله ومن طريقه رواه البيهقي في الدلائل وكذا ذكره ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة ومن طريقه الواحدي وأخرجه الطبراني من حديث جندب بن عبد الله البجلي موصولاً. انتهى.

١٤١ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٤٩) وعزاه لابن منده وابن عساكر بلفظ: فغنموا وفيهم نزلت «الآية».

١٤٢ ـ ذكره السيوطي في الدر (١/ ٤٥١) عن عطاء وعزاه لأبي داود بلفظ عطاء قال: أجل القتال في الشهر الحرام في براءة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً...﴾.

---

(١) قوله «ويبذعر فيه الناس» أي يتفرقون فيه. أفاده الصحاح. (ع)

صدّهم عن سبيل/٧٨أ الله وعن المسجد الحرام، وكفرهم بالله وإخراج أهل المسجد الحرام وهم رسول الله والمؤمنون، ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾: مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ والبناء على الظن، ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾: الإخراج أو الشرك، والمسجد الحرام: عطف على سبيل الله، ولا يجوز أن يعطف على الهاء في ﴿بِهِۦ﴾. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾: إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردّوهم عن دينهم؛ وحتى معناها التعليل كقولك: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي يقاتلونكم كي يردّوكم، و﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾: استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوّه: إن ظفرت بي فلا تبق عليّ، وهو واثق بأنه لا يظفر به، ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ﴾: ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطاوعهم على ردّه إليه، ﴿فَيَمُتۡ﴾: على الردّة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾: لما يفوتهم بإحداث الردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وباستدامتها والموت عليها من ثواب الآخرة، وبها احتج الشافعي على أن الردّة لا تحبط الأعمال حتى يموت عليها، وعند أبي حنيفة أنها تحبطها وإن رجع مسلمًا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: رُوي أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي، ظنّ قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾، وعن قتادة: هؤلاء خيار هذه الأمّة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وإنه من رجا طلب، ومن خاف هرب (١٤٣).

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

نزلت في الخمر أربع آيات نزلت بمكة(١): ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ

---

١٤٣ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٥١) وعزاه لابن حميد. وزاد في الكشاف وإن من رجا طلب ومن خاف هرب.

---

(١) قال محمود رحمه الله: نزلت في الخمر أربع آيات نزلت بمكة... إلخ». قال أحمد: ويظهر لي سر واقع بما ذكره في هذا الغرض، وذلك أن السؤال الأول من الأسئلة المقرونة بالواو عين السؤال الأول من الأسئلة المجردة عن الواو. ولكن وقع جوابه أولاً بالمصرف لأنه الأهم وإن كان المسؤول عنه إنما هو المنفق لا وجه مصرفه، ثم لما لم يكن في الجواب الأول تصريح بالمسؤول =

سَكَرًا ﴾ [النحل: ٦٧] فكان المسلمون يشربونها، وهي لهم حلال، ثم إن عمر ومعاذًا ونفرًا من الصحابة قالوا: يا رسول الله، أفتنا في الخمر؛ فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال، فنزلت: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمٰن بن عوف ناسًا منهم، فشربوا وسكروا فأمّ بعضهم فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] فقل من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا، افتخروا وتناشدوا، حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بعير، فشجه موضحة، فشكا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: اللهم، بين لنا في الخمر بيانا شافياً، فنزلت: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: انتهينا يا رب (١٤٤)، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لو وقعت قطرة في بئر،

---

١٤٤ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٣٢): غريب بهذا اللفظ وذكره وعزاه للثعلبي من غير سند. =

= عنه أعيد السؤال ليجابوا عن المسؤول عنه صريحاً، فقيل العفو أي الفاضل من النفقة الواجبة على العيال، أو نحو ذلك حيثما ورد في تفسيره، فتعين إذاً اقتران هذا السؤال بالواو ليرتبط بالأول. ويحتمل أنهم لما أجيبوا أولاً ببيان جهة المصرف ولم يصرح لهم بالجواب على عين المنفق ما هو، أعاد السؤال لكي يتلقوا جوابه صريحاً، فتعين دخول الواو. وأما السؤال الثاني من الأسئلة المقرونة بالواو، فقد وقع عن أحوالهم مع اليتامى وهل يجوز لهم مخالطتهم في النفقة والكسوة والسكنى وقد كانوا يتحرجون من ذلك في الجاهلية؟ فلما كان مناسباً للسؤال عن الإنفاق باعتبار المنفق وباعتبار جهة المصرف، عطف عليه ليكمل لهم بيان المشروعية في النفقة وآدابها الدينية بياناً شافياً، لأنه قد اجتمع في علمهم ما ينفقون، وفيم ينفقون، وعلى أي حالة ينفقون من مخالطة اليتيم والانفراد عنه. وأما السؤال الثالث منها وهو الواقع عن النساء الحيض، فقد ورد أنهم في الجاهلية كانوا يعتزلون الحيض في المؤاكلة والمساكنة يقتدون في ذلك باليهود، فسألوا السؤال المذكور، كما كانوا يعتزلون اليتامى في المساكنة والمؤاكلة تحرجاً جاهلياً، وكان بين هذين السؤالين تناسب كما ترى، فحسن أن يعطف الآخر على ما قبله تنبيهاً على ما بينهما من المشاكلة والله أعلم. وإذا اعتبرت الأسئلة المجردة عن الواو لم تجد بينها مداناة ولا مناسبة البتة، إذ الأول منها عن النفقة، والثاني عن القتال في الشهر الحرام، والثالث عن الخمر والميسر. فبين هذه الأسئلة من التباين والتقاطع ما لا يخفى، فذكرت كذلك مرسلة متعاطفة غير مربوطة بعضها ببعض، فتنبه لهذا السر فإنه بديع لا تجده يراعى إلا في الكتاب العزيز، لاستيلائه على أسرار البلاغة ونكت الفصاحة، ولا يستفاد منه إلا بالتنقيب في صناعة البيان وعلم اللسان. وقد اشتمل جواب الزمخشري ليقدم على وهم أنبه عليه، وذلك أنه قال: الأسئلةَ الثلاثة الأخيرة وقعت في وقت واحد وكانت في حكم السؤال الواحد، فربط بعضها ببعض بالواو، وهذا يقتضي كما ترى أن يقترن السؤال الثاني والثالث بالواو خاصة دون الأول، إذ الواو إنما يربط ما بعدها بما قبلها، فاقترانها بالأول لا يربطه بالثاني وإنما يربطه بما قبله، وعلى هذا تكون الأسئلة التي وقعت في وقت واحد أربعة أسئلة لا ثلاثة خاصة، وقد قال: إن الأسئلة المرتبطة الواقعة في وقت واحد هي الثلاثة الأخيرة، فهو واهم بلا شك وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم.

فبنيت مكانها منارة، لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر، ثم جف، ونبت فيه الكلأ، لم أرعه» (١٤٥)، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «لو أدخلت أصبعي فيه، لم تتبعني» (١٤٦)، وهذا هو الإيمان حقاً، وهم الذين اتقوا الله حق تقاته، والخمر: ما غلا واشتدّ/ ٧٨ب وقذف بالزبد من عصير العنب، وهو حرام، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه، ثم غلا واشتدّ، ذهب خبثه ونصيب الشيطان، وحلّ شربه ما دون السكر، إذا لم يقصد بشربه اللهو والطرب عند أبي حنيفة، وعن بعض أصحابه: لأن أقول مرارًا هو: «حلال»، أحبّ إليّ من أن أقول مرة هو «حرام»، ولأن أخر من السماء فأتقطع قطعاً أحبّ إليّ من أن أتناول منه قطرة»، وعند أكثر الفقهاء: هو حرام كالخمر، وكذلك كل ما أسكر من كل شراب، وسميت «خمرًا» لتغطيتها العقل، والتمييز، كما سميت سكرًا، لأنها تسكرهما، أي: تحجزهما، وكأنها سميت بالمصدر من «خمره خمراً»، إذا ستره للمبالغة، والميسر: القمار، مصدر من يسر، كالموعد والمرجع من فعلهما، يقال: يسرته، إذا قمرته، واشتقاقه من اليسر؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كدّ ولا تعب، أو من اليسار؛ لأنه سلب يساره، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله قال [من الطويل]:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي (١٤٧) .... [(١)]

= وأخرجه أبو داود (٣/ ٣٢٥): كتاب الأشربة: باب تحريم الخمر، حديث (٣٦٧٠)، والترمذي (٥/ ٢٥٣): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة المائدة، حديث (٣٠٤٩)، والنسائي (٨/ ٢٨٩)، كتاب الأشربة: باب تحريم الخمر، حديث (٥٥٤٠) وأحمد (١/ ٥٣).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٥٢) وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي والضياء المقدسي في المختارة عن عمر أنه قال...

قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي في تفسيره بغير إسناد وسيأتي في تفسير سورة النساء من حديث أبي هريرة معناه. انتهى.

١٤٥ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٣٢) وجعله مرفوعاً عن النبي ـ ﷺ ـ وبيّض له وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف: لم أجده عنه. انتهى.

١٤٦ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٩٧)، حديث (٢٤٠٦٥).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن المبارك عن الأوزاعي عن سليمان بن حبيب أن ابن عمر قال «لو أدخلت أصبعي في خمر ما أحببت أن ترجع إلى...». انتهى.

١٤٧ ـ أخرجه الطبري (٤/ ٣٢٤)، حديث (٤١٢١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٥٢) وزاد نسبته إلى ابن المنذر والنحاس من ناسخه.

---

(١) أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني: ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم؟ =

أي: يفعلون بي ما يفعل الياسرون بالميسور، فإن قلت: كيف صفة الميسر؟ قلت: كانت لهم عشرة أقداح، وهي: الأزلام، والأقلام، والفذ، والتوأم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل، والمعلى، والمنيح، والسفيح، والوغد، لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤنها عشرة أجزاء، وقيل: ثمانية وعشرين إلا لثلاثة، وهي: المنيح، والسفيح، والوغد، ولبعضهم [من مجزوء الرمل]:

لِيَ فِي الدُّنْيَا سِهَامٌ ... لَيْسَ فِيهِنَّ رَبِيحُ
وَأَسَامِيهِنَّ: وَغْدٌ ... وَسَفِيحٌ وَمَنِيحُ[1]

للفذ سهم، وللتوءم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة، يجعلونها في الربابة وهي خريطة، ويضعونها على يدي عدل، ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا منها، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء، أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه، ويسمونه البرم، وفي حكم الميسر: أنواع القمار، من النرد والشطرنج وغيرهما، وعن النبي - ﷺ -: «إياكم وهاتين اللعبتين المشئومتين فإنهما من ميسر العجم» (١٤٨) وعن عليّ - رضي الله عنه -: أنّ النرد

---

١٤٨ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص (٣٦٨)، حديث (١٢٧٥)، وأحمد (١/ ٤٤٦) بلفظ الكعبتان، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١٥) كتاب الشهادات باب كراهية اللعب بالنرد...، وابن عديّ (١/ ٢١٦). =

= لسحيم بن وثيل الرياحي. والشعب: اسم مكان. ويقال: يسره، إذا غلبه في لعب الميسر وهو القمار. واليأس هنا بمعنى العلم. وزهدم في الأصل فرخ البازي يسمى به الفرس لسرعته. أي أقول في هذا الموقع وقت أن غلبوني في الميسر وضربوني بسهامه: ألم تعلموا أني ابن الرجل الشجاع فارس تلك الفرس. والاستفهام للتقرير والتقريع. وروي: إذ يأسرونني، أي يأخذونني أسيراً عندهم. ويجوز أن المعنى: ألم تيأسوا وتقطعوا أطماعكم عما تريدون بي لأني ابن ذلك الفارس المشهور، فالاستفهام للتوبيخ والحث على اليأس من ذلك.

ينظر المحتسب (١/ ٣٥٧)، مجاز القرآن (١/ ٣٣٢)، تأويل المشكل (١٩٢، الطبري (١٦/ ٤٥٠)، القرطبي (٩/ ٣٢٠)، البحر المحيط ٥/ ٣٨٢، التهذيب ١٣/ ٦٠، ١٤٢، الصحاح ٣/ ٩٩٣، الدر المصون ٤/ ٢٤٣.

(١) الأسماء الثلاثة لأقلام الميسر التي لا نصيب لها من الجزور كل اسم لعلم، والوغد في الأصل: الخادم، والدنيء، وثمر الباذنجان: بخلاف السبعة الباقية فلها أنصباء. والكلام من باب التمثيل، شبّه حاله في الدنيا بحال من خرجت له تلك السهام في الميسر لعدم الظفر بالمرام. ويعد كونه كناية عن الكرم، حيث يعطي ولا يأخذ. ويروى بدل «وأساميهن» «إنما سهمي» بدليل: سهام قبله.

والشطرنج من الميسر (١٤٩)، وعن ابن سيرين: كل شيء فيه خطر، فهو من الميسر (١٥٠)، والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾: وعقاب الإثم في تعاطيهما. ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾: وهو الالتذاذ بشرب الخمر والقمار، والطرب فيهما، والتوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشرتهم، والنيل من مطاعمهم ومشاربهم وأعطياتهم، وسلب الأموال بالقمار، والافتخار على الأبرام[1]، وقرىء: «إثم كثير» ـ بالثاء ـ وفي قراءة أبيّ: «وإثمهما أقرب»، ومعنى الكثرة: أن أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة، ﴿ٱلْعَفْوَ﴾: نقيض الجهد؛ وهو أن ينفق مالاً يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع؛ قال [من الطويل]:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي[2] ....

= وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١١٦) وعزاه لأحمد والطبراني وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف أخرجه ابن مردويه من حديث سمرة بن جندب ومن حديث أبي موسى الأشعري نحوه ورواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من وجهين عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود بلفظ «اتقوا هاتين اللعبتين المشؤومتين اللتين يزجران زجراً فإنهما من ميسر العجم». انتهى.

١٤٩ ـ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١٢): كتاب الشهادات باب الاختلاف في اللعب بالشطرنج أن علياً قال الشطرنج ميسر.
وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٧)، حديث (٢٦١٥٠) وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٣٣)، حديث (١٣٠) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم في تفسيره، والثعلبي في تفسيره.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٤) وزاد نسبته لابن المنذر.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي والثعلبي من طريق حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه «أن علياً قال في النرد والشطرنج: هما من الميسر وهو منقطع». انتهى.

١٥٠ ـ ذكره السيوطي في الدر (٢/ ٥٦٥) وعزاه لابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن سيرين بلفظ أما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صياح أو شر فهو من الميسر.

---

(١) قوله «والافتخار على الأبرام» جمع للبرم بالتحريك، وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. كذا في الصحاح. (ع)

(٢) خذي العفو منى تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
فإني رأيت الحب في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب
ولا تضربيني مرة بعد مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيب
لأسماء بن خارجة النزاري أحد حكماء العرب يخاطب زوجته حين بنى عليها. والعفو: السهل =

ويقال للأرض السهلة: العفو، وقرىء بالرفع والنصب، وعن النبي - ﷺ -.

أنّ رجلاً أتاه ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عنه رسول الله - ﷺ -؛ فأتاه من الجانب الأيمن، فقال مثله فأعرض عنه، ثم أتاه من الجانب الأيسر فأعرض عنه، فقال: «هاتها» مغضباً، فأخذها فخذفه بها خذفاً لو أصابه لشجه أو عقره، ثم قال: «يجيء أحدكم بماله كله يتصدّق به ويجلس يتكفف الناس! إنما الصدقة عن ظهر غنىً» (١٥١). ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: إمّا أن يتعلق بـ ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾، فيكون المعنى: لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين؛ فتأخذون بما هو أصلح لكم، كما بينت لكم أنّ العفو أصلح من الجهد في النفقة، أو تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع، ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، لتتفكروا[1] في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا، حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم، وإمّا أن يتعلق بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾ على معنى: يبين لكم الآيات في أمر الدارين، وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون، لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] اعتزلوا اليتامى، وتحاموهم، وتركوا مخالطتهم، والقيام بأموالهم، والاهتمام بمصالحهم، فشق ذلك عليهم، وكاد يوقعهم في الحرج، فقيل: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، أي: مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم، ﴿وَإِن

---

١٥١ - أخرجه الدارمي (١/ ٣٩١) كتاب الزكاة - باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل. وأبو داود (٢/ ٣١٠) كتاب الزكاة - باب الرجل يخرج من ماله حديث (١٦٧٣) والحاكم (١/ ٤١٣) كتاب الزكاة - باب خير الصدقة ما كان عن ظهر غني، والبيهقي (٤/ ١٥٤) وابن خزيمة (٤/ ٩٨) رقم (٢٤٤١) من طرق عن محمد ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن جابر به وقال الحاكم - صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وصححه ابن حبان (٨/ ١٦٦) رقم (٣٣٧٢) وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٤/ ٦٦)، حديث (٢٠٨٤)، وعبد بن حميد في مسنده ص (٣٣٧)، حديث (١١٢١).
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه أبو داود وابن حبان والبزار والدارمي وأبو يعلى، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وإسحاق في مسانيدهم: كلهم من رواية محمود بن لبيد عن جابر ورواه ابن سعد في ترجمة أبي حصين السلمي من رواية عمر بن الحكم بن ثوبان عن جابر قال «قدم أبو حصين السلمي بذهب أصابه من معدنهم فقضى منه ديناً كان عليه» فذكر الحديث مثل سياق أبي داود. وفي إسناده الواقدي. انتهى.

= اليسير. والسورة: شدة الغضب. واجتمعا: شارفا الاجتماع. ويذهب: استئناف وقع جواب سؤال مقدر، والضرب مجاز عن الإيذاء، والمغيب عاقبة الأمر، أي خذي السهل من أخلاقي لئلا يذهب حبي إياك ويذهب فيه رائحة الإضراب، أي بل يذهب.
ينظر: لسان العرب (عفا)، تاج العروس (عفا).

(١) قوله «أكبر من نفعهما لتتفكروا» لعله فيكون المعنى: لتتفكروا. (ع)

﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾: وتعاشروهم ولم تجانبوهم، ﴿فـ﴾ هم ﴿إخوانكم﴾: في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه، وقد حملت المخالطة على المصاهرة، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾، أي: لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه ولا تتحروا غير الإصلاح، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾: لحملكم على العنت، وهو المشقة، وأحرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم، وقرأ طاوس: «قل إصلح لهم»، ومعناه إيصال الصلاح، وقرىء: «لعنتكم»، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على اللام؛ وكذلك: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالب، يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم، ولكنه: ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلف إلا ما تتسع فيه طاقتهم.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾: وقرىء بضم التاء، أي: لا تتزوّجوهنّ أو لا تزوّجوهن، و﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: الحربيات، والآية ثابتة، وقيل: المشركات الحربيات والكتابيات جميعاً، لأن أهل الكتاب من أهل الشرك، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله/ ٧٩ب تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]، وهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء قط؛ وهو قول ابن عباس والأوزاعي وروي أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق، فأتته وقالت: ألا نخلو؟ فقال: ويحك! إن الإسلام قد حال بيننا، فقالت: فهل لك أن تتزوّج بي؟ قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأستأمره، فاستأمره، فنزلت: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ﴾ ولامرأة مؤمنة حرّة كانت أو مملوكة، وكذلك: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ (١٥٢)؛ لأنّ الناس كلهم عبيد الله

---

١٥٢ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٢٢٠): كتاب النكاح: باب في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، حديث (٢٠٥١)، والترمذي (٥/ ٣٢٨): كتاب تفسير القرآن: باب «ومن سورة النور»، حديث (٣١٧٧) والنسائي (٦/ ٦٦): كتاب النكاح باب تزويج الزانية، حديث (٣٢٢٨)، وأحمد (٢/ ١٥٨)، (٢/ ٢٢٥)، وعبد الله بن أحمد في الزوائد (٢/ ٢٢٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٣، =

---

(١) قوله «وكذلك فلا إثم عليه» لعله: كذلك في طرح الهمزة، لا في نقل الحركة، وتطرح ألف المد لالتقاء الساكنين. فليحرر. (ع)

وإماؤه، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: ولو كان الحال أنّ المشركة تعجبكم وتحبونها، فإنّ المؤمنة خير منها مع ذلك، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى المشركات والمشركين، أي: يدعون إلى الكفر فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾: يعني وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة، ﴿وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾: وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم، وأن يؤثروا على غيرهم، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بتيسير الله وتوفيقه للعمل الذي تستحق به الجنة والمغفرة، وقرأ الحسن: «والمغفرةُ بإذنه» ـ بالرفع ـ أي: والمغفرة حاصلة بتيسيره.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿ٱلْمَحِيضِ﴾: مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً، وبات مبيتاً، ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾: أي الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه نفرة منه وكراهة له، ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾: فاجتنبوهنّ؛ يعني: فاجتنبوا مجامعتهنّ، رُوي: أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة، لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجالسوها على فرش، ولم يساكنوها في بيت، كفعل اليهود والمجوس، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهنّ فأخرجوهنّ من بيوتهم، فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة، فإن آثرناهن بالثياب، هلك سائر أهل البيت؛ وإن استأثرنا بها، هلكت الحِيَّضُ، فقال ـ عليه الصلاة

= ١٩٤) والبيهقي في سننه الكبرى (١٥٣/٧): كتاب النكاح: باب نكاح المحدثين وما جاء في قول الله عز وجل: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ . . .﴾.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٩/٥، ٤٠) وعزاه لعبد بن حميد وأبو داود والترمذي والنسائي، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به.

قال الحافظ: أورده الواحدي من تفسير الكلبي عن ابن عباس «أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث رجلاً يقال له: مرثد بن أبي مرثد فذكره» ونزولها في هذه القصة ليس بصحيح فقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال «كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد الغنوي. وكان رجلاً شديداً يحمل الأساري من مكة حتى يأتي بهم المدينة ـ الحديث بطوله. وفيه حتى نزلت ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال فدعاني رسول الله ـ ﷺ ـ، فقرأها عليّ. وقال لا تنكحها وكذا أخرجه أحمد وإسحاق والبزار. وقال لا نعلم أسند مرثد بن أبي مرثد إلاّ هذا الحديث. انتهى.

والسلام ـ: «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهنّ إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهنّ من البيوت كفعل الأعاجم» (١٥٣)، وقيل: إنّ النصارى كانوا يجامعونهنّ، ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهنّ في كل شيء، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين، وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فأبو حنيفة وأبو يوسف: يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وروى محمد حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنّ عبد الله بن عمر سألها: هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت: تشدّ إزارها على سفلتها، ثم ليباشرها إن شاء (١٥٤)، وما روى زيد بن أسلم: أنّ رجلاً سأل النبيّ ـ ﷺ ـ: ما يحلّ لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لتشدّ عليها إزارها/ ٨٠أ ثم شأنك بأعلاها» (١٥٥)، ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة ـ

---

١٥٣ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٣٧)، حديث (١٣٣) وقال الحافظ: لم أجده. انتهى.

١٥٤ ـ أخرجه مالك (١/ ٥٨): كتاب الطهارة: باب ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض، حديث (٩٥)، والدارمي (١/ ٢٤٢): باب مباشرة الحائض، وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٣٢٣)، حديث (١٢٤١) من طريق نافع عن بن عمر عن عائشة.

قال الحافظ:

وفي الموطأ من رواية محمد بن الحسن: عن مالك عن نافع «أن عبد الله بن عمر أرسل إلى عائشة يسألها ـ فذكره» وكذا أخرجه رواة الموطأ عن مالك والشافعي وغيره. وأخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن سلمان ابن موسى عن نافع نحوه. انتهى.

١٥٥ ـ أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٥٧): كتاب الطهارة: باب ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض، حديث (٩٣) والدارمي (١/ ٢٤١): كتاب. . . باب مباشرة الحائض، من طريق زيد بن أسلم أن رجلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ. . . فذكره.

وأخرجه أبو داود (١/ ٥٥): كتاب الطهارة: باب في المذي، حديث (٢١٢، ٢١٣) عن عبد الله بن سعد، والثاني عن معاذ بن جبل وللحديث شواهد موصولة عن عائشة وميمونة.

ـ أما حديث عائشة:

فأخرجه البخاري (١/ ٤٠٣) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض حديث (٣٠٢) ومسلم (١/ ٢٤٢) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض فوق الإزار حديث (١/ ٢٩٣) وأبو داود (١/ ١٨٤) كتاب الطهارة: باب في الرجل يصيب من الحائض ما دون الجماع حديث (٢٦٨) والترمذي (١/ ٢٣٩) كتاب الطهارة: باب ما جاء في مباشرة الحائض حديث (٦٣٥) وابن ماجة (١/ ٢٠٨) كتاب الطهارة: باب ما للرجل من امرأته حديث (٦٣٥) والدارمي (١/ ٢٤٢) كتاب الطهارة: باب مباشرة الحائض وأحمد (٦/ ٧٤) من طريق الأسود عن عائشة قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يباشرها أمرها أن تتزر في فور حيضتها ثم يباشرها. . .

ـ حديث ميمونة:

أخرجه البخاري (١/ ٤٠٥) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض حديث (٣٠٣) ومسلم (١/ ٢٤٣) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض فوق الإزار حديث (٣/ ٢٩٤) وأبو داود (١/ ١٨٣ ـ ١٨٤) كتاب الطهارة: باب في الرجل يصيب منها ما دون الجماع حديث (٢٦٧) عن ميمونة نحو حديث عائشة. =

رضي الله عنها ـ أنها قالت: يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك (١٥٦) وقرىء «يطهرن»: بالتشديد، أي: يتطهرن، بدليل قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، وقرأ عبد الله: «حتى يتطهرن»، و«يطهرن» بالتخفيف، والتطهر: الاغتسال، والطهر: انقطاع دم الحيض، وكلتا القراءتين مما يجب العمل به، فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت صلاة، وذهب الشافعي إلى أنه لا يقربها حتى تطهر وتُطَهَّر، فتجمع بين الأمرين؛ وهو قول واضح، ويعضده قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: من المأتي الذي أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾: مما عسى يندر منهم من ارتكاب مانهوا عنه من ذلك، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: المتنزهين عن الفواحش، أو إنّ الله يحبّ التوّابين الذين يطهرون أنفسهم بطهرة التوبة من كل ذنب، ويحب المتطهرين من جميع الأقذار: كمجامعة الحائض والطاهر قبل الغسل، وإتيان ما ليس بمباح، وغير ذلك، ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾: مواضع الحرث لكم، وهذا مجاز، شُبِّهْنَ بالمحارث تشبيها لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: تمثيل، أي فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة، والمعنى: جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتي واحداً وهو موضع الحرث، وقوله: ﴿هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدّبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم، وروي: أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته وهي مجبية من دبرها في قبلها، كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ: فقال كذبت اليهود ونزلت (١٥٧): ﴿وَقَدِّمُوا

= قال الحافظ رواه مالك في الموطأ عنه بهذا مرسلاً. ووصله الطبراني من رواية الدراوردي عن زيد بن أسلم وصفوان بن مسلم عن عطاء بن يسار مرسلاً. وفي الباب عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد «أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: لك ما فوق الإزار» أخرجه أبو داود. وعن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ بنحوه ـ والتعفف عن ذلك أفضل وإسناده ضعيف. انتهى.

١٥٦ ـ أخرجه الدارمي (١/٢٤٣) كتاب الطهارة باب مباشرة الحائض من طريق خالد بن أيوب عن رجل عن عائشة أنها قالت لإنسان...
قال الحافظ أخرجه الدارمي من رواية أيوب عن رجل عن عائشة أنها قالت لإنسان «اجتنب شعار الدم ولك ما سواه» انتهى.

١٥٧ ـ أخرجه البخاري (٨/٣٧): كتاب التفسير: باب نساؤكم حرث لكم...، حديث (٤٥٢٨)، ومسلم (٢/١٠٥٨): كتاب النكاح: باب جواز جماعه...، حديث (١١٧/١٤٣٥)، وأبو داود (٢/ =

﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾: ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة، وما هو خلاف ما نهيتكم عنه، وقيل: هو طلب الولد، وقيل: التسمية على الوطء، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فلا تجترئوا على المناهي، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾: فتزوّدوا ما لا تفتضحون به، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات، فإن قلت: ما موقع قوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مما قبله؟ قلت: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، يعني: أنّ المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث، ترجمة له وتفسيراً، أو إزالة للشبهة، ودلالة على أنّ الغرض الأصيل في الإتيان / هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهنّ إلا من المأتي الذي يتعلق به هذا الغرض، فإن قلت: ما بال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾: جاء بغير واو ثلاث مرات، ثم مع الواو ثلاثاً؟ قلت: كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأول وقع في أحوال متفرّقة، فلم يؤت بحرف العطف؛ لأنّ كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع لذلك، كأنه قيل: يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن الإنفاق، والسؤال عن كذا وكذا.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾

= ٢٤٩): كتاب النكاح باب من جامع النكاح، حديث (٢١٦٣) والترمذي (٥/ ٢١٥): كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة، حديث (٢٩٧٨)، والنسائي (٦/ ٣٠٢) كبرى، كتاب عشرة النساء: باب نساؤكم حرث. . .، حديث (١١٠٣٨)، وابن ماجه (١/ ٦٢٠) كتاب النكاح: باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، حديث (١٩٢٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٩٤): كتاب النكاح: باب إتيان النساء في أدبارهن والطحاوي (٣/ ٤٠): كتاب النكاح: باب وطء النساء في أدبارهن.

والدارمي (٢/ ١٤٥): كتاب النكاح: باب النهي عن إتيان النساء في أعجازهن. وابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٧٤)، حديث (٤١٦٦)، والطبري في تفسيره (٤/ ٤٠٩)، حديث (٤٣٣٩)، وابن أبي شيبة (٣/ ٥١٧)، حديث (١٦٦٦٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٦٧، ٤٦٨)، وعزاه للستة، ووكيع، وابن شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في سننه.
قال الحافظ متفق عليه من طرق عن ابن المنكدر عن جابر: والتقييد لمسلم فقط. ولمسلم من رواية الزهري «إن شاء مجبية وإن شاء غير مجبية. غير أن ذلك في صمام واحد» وهو من قول الزهري. وأخرجه أصحاب السنن والبزار وابن حبان. وليس عند أحد منهم قول «فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ» وأخرجه البزار من طريق خصيف عن ابن المنكدر. وزاد فيه «وإنما الحرث من حيث يخرج الولد» تفرد به خصيف. وهو ضعيف. انتهى.

العرضة: فعلة بمعنى مفعول، كالقبضة والغرفة، وهي اسم ما تعرضه دون الشيء من عرض العود على الإناء فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه، تقول: فلان عرضة دون الخير، والعرضة أيضاً: المعرض للأمر؛ قال [من الطويل]:

.... وَلاَ تَجْعَلُونِي عُرْضَةً لِلَّوَائِمِ (١)

ومعنى الآية على الأولى: أنّ الرجل كان يحلف على بعض الخيرات، من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني، فيترك البرّ إرادة البرّ في يمينه، فقيل لهم: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾: أي حاجزاً لما حلفتم عليه، وسمي المحلوف عليه يميناً، لتلبسه باليمين، كما قال النبي - ﷺ - لعبد الرحمٰن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك» (١٥٨) أي: على شيء مما يحلف عليه، وقوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ﴾: عطف بيان لأيمانكم، أي: للأمور المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن قلت: بم تعلقت اللام في: لأيمانكم؟ قلت: بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجازاً، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿عُرْضَةً﴾: لما فيها من معنى الاعتراض، بمعنى: لا تجعلوه شيئاً يعترض البر، من اعترضني كذا، ويجوز أن يكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة، أي ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تبروا (٢)، ومعناها على الأخرى: ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم

---

١٥٨ ـ أخرجه البخاري (١٣/ ١٣٢): كتاب الأحكام: باب من سأل الإمارة وكل إليها، حديث (٧١٤٧)، ومسلم (٣/ ١٢٧٣، ١٢٧٤): كتاب الأيمان: باب ندب من حلف يميناً...، حديث (١٩/ ١٦٥٢)، وأبو داود (٣/ ١٣٠): كتاب الخراج والإمارة باب ما جاء في طلب الإمارة، حديث (٢٩٢٩) والترمذي (٤/ ١٠٦): كتاب النذور والأيمان: باب ما جاء فيمن حلف...، حديث (١٥٢٩)، والنسائي (٧/ ١٠): كتاب الأيمان والنذور: باب النهي عن مسألة الإمارة، حديث (٣٧٨٢) وأحمد (٥/ ٦١)، والدارمي (٢/ ١٨٦): كتاب النذور والأيمان: باب من حلف على يمين فرأى غيرها خير منها، وابن الجارود (٣/ ٢٥٤) حديث (٩٩٨) والبيهقي في سننه (١٠/ ٥٣) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٨٩)، حديث (٤٣٤٨) عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة... به.
قال الحافظ أخرجه الأئمة الخمسة من رواية الحسن البصري عن عبد الرحمن بن سمرة. انتهى.

---

(١) دعوني أنح وجداً كنوح الحمائم ... ولا تجعلوني عرضة للوائم
قيل هو لأبي تمام. يقول: اتركوني أنح لما بي من الوجد وحرقة العشق مثل نوح الحمائم. ويروى: لنوح الحمائم، فهو علة للمعلل مع علته. والعرضة: المعرض للأمر، أي: ولا تجعلوني معرضاً للوم اللوائم. أو المراد باللوائم: أنواع اللوم مبالغة، على حد: جد جده، لأن اللائم حقيقة فاعل اللوم.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا التقديرُ لا يصحُّ للفصلِ بين العاملِ ومعمولهِ بأجنبي، وذلك =

فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم من أنزل فيه: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ [القلم: ١٠] بأشنع المذامّ وجعل الحلاف مقدّمتها، وأن تبروا علة للنهي، أي: إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا، لأن الحلاف مجترىء على الله، غير معظم له، فلا يكون براً متقياً، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم، اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره، ولذلك قيل لما لا يُعتدُّ به في الدية من أولاد الإبل، «لغو»: واللغو من اليمين: الساقط الذي لا يُعتدّ به في الأيمان، وهو الذي لا عقد معه، والدليل عليه: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإَيمان﴾ [المائدة: ٨٩]، ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، واختلف الفقهاء فيه، فعند أبي حنيفة وأصحابه/٨١أ هو أن يحلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه، وعند الشافعي: هو قول العرب: لا والله، وبلى والله، بما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف، ولو قيل لواحد منهم: سمعتك اليوم تحلف في المسجد الحرام لأنكر ذلك، ولعله قال: لا والله ألف مرة، وفيه معنيان: أحدهما: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾: أي لا يعاقبكم بلغوة اليمين الذي يحلفه أحدكم بالظن، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم، أي: اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمن، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهي اليمين الغموس، والثاني: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾: أي لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم، أي: بما نوت قلوبكم وقصدت من الأيمان، ولم يكن كسب اللسان وحده ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

قرأ عبد الله: «آلوا من نسائهم»، وقرأ ابن عباس: «يقسمون من نسائهم»، فإن قلت: كيف عدي بمن، وهو معدى بعلى؟ قلت: قد ضمن في هذا القسم المخصوص معنى البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين أو مقسمين، ويجوز أن يراد لهم: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، كقوله: لي منك كذا، والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة

= أنَّ «لأيمانكم» عنده متعلقٌ بـ «تجعلوا»، فوقع فاصلاً بين «عُرْضَة» التي هي العاملُ وبين «أَنْ تَبَرُّوا» الذي هو في أن تبروا، وهو أجنبيٌّ منهما. ونظيرُ ما أجازه أن تقولَ: «امرُرْ واضربْ بزيدٍ هنداً»، وهو غيرُ جائزٍ، ونَصُّوا على أنه لا يجوزُ: «جاءني رجلٌ ذو فرسٍ راكبَ أَبْلَقَ» أي رجلٌ ذو فرسٍ أبلقَ راكبٌ، لِما فيه من الفصلِ بالأجنبي. انتهى. الدر المصون.

أشهر فصاعداً على التقييد بالأشهر، أو لا أقربك على الإطلاق، ولا يكون في ما دون أربعة أشهر، إلا ما يحكى عن إبراهيم النخعي، وحكم ذلك: أنه إذا فاء إليها في المدة[1] بالوطء إن أمكنه أو بالقول إن عجز: صح الفيء، وحنث القادر، ولزمته كفارة اليمين، ولا كفارة على العاجز، وإن مضت الأربعة بانت بتطليقة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: لا يصح الإيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ثم يوقف المولي، فإما أن يفيء وإما أن يطلق، وإن أبى، طلق عليه الحاكم، ومعنى قوله: ﴿فَإِن فَآءُو﴾: فإن فاؤا في الأشهر، بدليل قراءة عبد الله: «فإن فاؤا فيهن»، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يغفر للمولين ما عسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء وهو الغالب، وإن كان يجوز أن يكون على رضا منهن إشفاقاً منهن على الولد من الغيل[2]، أو لبعض الأسباب لأجل الفيئة التي هي مثل التوبة ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾: فتربصوا إلى مُضيِّ المدة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: وعيد على إصرارهم وتركهم الفيئة، وعلى قول الشافعي ـ رحمه الله ـ معناه ﴿فَإِن فَآءُو﴾، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟﴾[3] بعد مضي المدة، فإن قلت: كيف موقع الفاء إذا كانت الفيئة قبل انتهاء مدّة التربص؟[4] قلت: موقع صحيح، لأن قوله: ﴿فَإِن فَآءُو﴾، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟﴾: تفصيل لقوله ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: أنا نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمت عندكم

---

(١) قال محمود رحمه الله: «وحكم ذلك أنه إذا فاء إليها في المدة. . . إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا التفسير منزل على مذهب أبي حنيفة لأنه لا يرى الفيئة بعد انقضاء الأربعة الأشهر مفيدة إذا وقع الطلاق بنفس مضيها فلا تكون الفيئة معتبرة عنده إلا في أربعة الأشهر خاصة.

(٢) قوله «على الولد من الغيل» في الصحاح: اخترت الغيلة ـ بالكسر ـ بولد فلان، إذا أتيت أمه وهي ترضعه، أو حملت وهي ترضعه. والغيل ـ بالفتح ـ اسم ذلك الابن. (ع)

(٣) قوله «فإن فاؤوا وإن عزموا» يعنى أن كلاً من الشرطين عند الشافعي بعد مضي المدة. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت كيف موقع الفاء إذا كانت الفيئة قبل انقضاء مدة التربص إلخ» قال أحمد رحمه الله: هذا جواب عن سؤال موجّه على أبي حنيفة رضيَ الله عنه لأنه إذا رأى الفيئة في الأشهر الأربعة خاصة لا فيما بعدها والله تعالى عطف الفيئة على تربُّص أربعة أشهر بالفاء ومقتضاها كما علمت وقوع ما عطفه بعدما عطفه عليه فيلزم وقوع الفيئة المعتبرة بعد انقضاء الأشهر الأربعة، وأبو حنيفة يأباه فلذلك أجاب عنه الزمخشري بجوابه المتقدم والسؤال عندي يندفع بطريق آخر وهو أن المعطوف عليه التربُّص وهو حاصل من أول المدة لوقوع الفيئة في المدة بعد التبرُّص فلا يحتاج إلى الجواب بالمثال المذكور وإنما أوقع الزمخشري في التزام السؤال تسليمه لتقدم الفيئة في الأربعة الأشهر على تربُّصها بناء منه على أنه لا يصدق قول القائل قد تربصت بفلان أربعة أشهر إلا إذا انقضت المدة وليس الأمر كذلك فإنه يصدق من الحاكم أن يقول عند ضرب أجل المولى قد تربصت لك أربعة أشهر كما قال الله تعالى لينظر أيفيء أم لا، ويصدق رب الدين في أن يقول لمديانه حالة القرض قد أجلك بهذا الدين سنة وإن كان المقتضى منها حينئذٍ دقيقة واحدة فلذلك التربُّص المعطوف عليه في الآية واقع عند ضرب الأجل المذكور فالفيئة الواقعة في الأجل إنما يقع بعده، فالفاء على بابها المعروف.

إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحوّل[1]. فإن قلت: ما تقول في قوله/ ٨١ب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2] وعزمهم الطلاق بما يعلم ولا يسمع؟ قلت: الغالب أن العازم للطلاق وترك الفيئة والضرار، لا يخلو من مقاولة ودمدمة[3]، ولا بد له من أن يحدّث نفسه ويناجيها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله كما يسمع وسوسة الشيطان، ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾: أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء، فإن قلت: كيف جازت إرادتهن خاصة، واللفظ يقتضي

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليس بصحيح؛ لأنَّ ما مثَّله ليس بنظيرِ الآيةِ، ألا ترى أنَّ المثالَ فيه إخبارٌ عن المُفَصَّل حالُه، وهو قولُه: «أنا نُزيلكم هذا الشهر»، وما بعد الشرطينِ مُصَرَّحٌ فيه بالجوابِ الدالِّ على اختلافِ متعلَّقِ فعلِ الجزاء، والآيةُ ليسَتْ كذلك؛ لأنَّ الذين يُؤْلُون ليس مُخْبَراً عنهم ولا مُسْنَداً إليهم حكمٌ، وإنما المحكومُ عليه تربُّصُهم، والمعنى: تربُّص المُؤْلِين أربعةُ أشهر مشروعٌ لهم بعد إيلائِهم، ثم قال: «فإنْ فاؤوا وإنْ عَزَموا» فالظاهرُ أنَّهُ يَعْقُبُ تربُّصَ المدةِ المشروعةِ بأسْرِها، لأنَّ الفيئةَ تكونُ فيها، والعَزْمَ على الطلاقِ بعدَها، لأنَّ التقييدَ المغايرَ لا يَدُلُّ عليه اللفظُ، وإنما يُطابقُ الآيةَ أنْ تقولَ: «للضيفِ إكرامُ ثلاثةِ أيام، فإنْ أقامَ فنحنُ كرماءُ مُؤْثِرونَ وإنْ عَزَم على الرحيلِ فله أنْ يَرْحَلَ» فالمتبادَرُ إلى الذِّهْنِ أنَّ الشرطينِ مُقَدَّران بعدَ إكرامِهِ». انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: ما القول في قوله فإن الله سميع عليم... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: في هذا الجواب إسلاف جواب عن سؤال آخر يتوجه على أبي حنيفة رضيَ الله عنه فيقال له: إذا كان مضى الأربعة الأشهر يوجب عندك وقوع الطلاق بنفسه غير موقوف على إيقاع من أحد، فما الذي يسمع إذاً؟ وهو أمكن من السؤال الذي قدره الزمخشري، فإن لقائل أن يقول: عبر بالعزم عن الإيقاع لأنه يستلزمه غالباً، وفي أثناء كلامه نكتة تحتاج إلى التنبيه عند قوله: والعزم بما يعلم ولا يسمع، والذي ننبه عليه أن قاعدة أهل السنة أن كل موجود يجوز أن يسمع، حتى الجواهر والألوان والمعاني بجملتها. وكذلك يعتقد أن موسى عليه السلام سمع الكلام القديم وليس بحرف ولا صوت. فلا يتوقف السمع عندهم على أن يكون المسموع صوتاً ولا نطقاً، غير أن المعتاد انقسام الموجودات إلى مسموع ومرئي وملموس ومشموم ومذوق وهو المعلوم بالحس، وإلى معلوم بغير ذلك. وعلى هذا المعتاد جرت عادة خطاب الله تعالى لعبده، وإن كان الزمخشري ثابتاً فيما قاله على الأمر العرفي معتقداً ما ذكرناه من حيث المعروف ـ وما أراه كذلك ـ فالأمر سهل. وإن كان أخرج كلامه المذكور على قاعدة الاعتزال ـ وهو الظاهر من حاله في اعتقاد أن ما عدا الأصوات لا يجوز أن يسمع عقلاً ـ فالحذر الحذر من هذه القاعدة الفاسدة والله المستعان. ثم لا بد لنا في مسألة الإيلاء من البصر لما يعتقده من مذهب مالك رضيَ الله عنه، ومذهب مالك رضيَ الله عنه هو الذي اقتفاه الشافعي رضيَ الله عنه في المسألة فنقول: مضى الأربعة الأشهر بمجرده لا يوجب وقوع الطلاق على الزوج، لأن الأصل بقاء العصمة، وقد جعل الله له الفيئة بعد تربُّص الأجل المذكور، ونحن وإن بينا أولاً أن الآية لا تأبى وقوع الفيئة في الأجل وهي أيضاً تأبى وقوعها بعد الأجل، فينتظم من أصليه، أعني بقاء العصمة. والسلامة من معارضة الآية، وقوع الفيئة المعتبرة بعد الأجل، وبقاء العصمة بعد الأجل، استصحاباً للأصل غير معارض بالآية، وهو المطلوب.

(٣) قوله «لا يخلو من مقاولة ودمدمة» في الصحاح: دمدمت الشيء إذا ألزقته بالأرض، لكنه غير مناسب هنا، فلعله زمزمة بالزاي. وفي الصحاح: الزمزمة صوت الرعد. والزمزمة: كلام المجوس عند أكلهم. أو رمرمة بالراء، وفي الصحاح: ترمرم، إذا حرك فاه للكلام اهـ. وهذا أنسب. (ع)

العموم؟ قلت: بل اللفظ مطلق في تناول الجنس صالح لكله وبعضه، فجاء في أحد ما يصلح له كالاسم المشترك، فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر، تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً، ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد، ولو قيل: ويتربص المطلقات، لم يكن بتلك الوكادة، فإن قلت: هلا قيل: يتربصن ثلاثة قروء، كما قيل: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ وما معنى ذكر الأنفس؟ قلت: في ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث، لأن فيه ما يُستنكف منه فيحملهن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص، والقروء: جمع قرء أو قرء، وهو الحيض، بدليل قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «دعي الصلاة أيام أقرائك» (١٥٩) وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان» (١٦٠) ولم يقل طهران، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ

-----

١٥٩ ـ أخرجه الدارقطني في سننه (١/ ٢١٧): كتاب الحيض حديث (٥٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٠٠، ١٠١).

قال الحافظ: أخرجه الطحاوي والدارقطني من حديث فاطمة بنت أبي حبيش «أنها قالت: يا رسول الله إني امرأة أستحاض فلا أطهر قال: دعى الصلاة أيام أقرائك ثم اغتسلي وصلي». انتهى.

١٦٠ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٦٦٥) في الطلاق، باب في سنة طلاق العبد (٢١٨٩)، والترمذي (٣/ ٤٨٨) في الطلاق، باب ما جاء أن طلاق الأمة تطليقتان (١١٨٢) وابن ماجه (١/ ٦٧٢) في الطلاق، باب في طلاق الأمة وعددها (٢٠٨٠) والدارقطني (٤/ ٣٩)، والحاكم (٢/ ٢٠٥)، والبيهقي (٧/ ٣٦٩) عن أبي عاصم نا ابن جريج عن مظاهر عن القاسم بن محمد عن عائشة قال رسول الله ـ ﷺ ـ طلاق الأمة تطليقتان، وقرؤها حيضتان. قال أبو عاصم: فلقيت مظاهراً فحدثني عن القاسم عن عائشة عن النبي ـ ﷺ ـ مثله إلاَّ أنه قال: وعدتها حيضتان.

قال أبو داود: وهو حديث مجهول.

وقال الترمذي: حديث عائشة حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً، إلاَّ من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر، لا نعرف له في العلم غير هذا الحديث.

وقال البيهقي: بإسناده عن ابن حماد يقول. قال البخاري: مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة، ضعفه أبو عاصم.

ويشهد له حديث ابن عمر أخرجه ابن ماجه (٢٠٧٩) والدارقطني (٤/ ٣٨)، والبيهقي (٧/ ٣٦٩) عن عمر بن شبيب المسلي عن عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر قال رسول الله ـ ﷺ ـ: طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان.

وقال البيهقي والدارقطني: تفرد به عمر بن شبيب المسلي هكذا مرفوعاً، وكان ضعيفاً. والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً. =

﴿ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ [الطلاق: ٤] فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار، ولأن الغرض الأصيل في العدة استبراء الرحم، والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام دون الطهر؛ ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة؛ ويقال أقرأت المرأة، إذا حاضت، وامرأة مقرىء، وقال أبو عمرو بن العلاء: دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها، أي: تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء، فإن قلت: فما تقول: في قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق: ١]، والطلاق الشرعي، إنما هو في الطهر؟ قلت: معناه مستقبلات لعدتهن، كما تقول: لقيته لثلاث بقين من الشهر، تريد مستقبلاً لثلاث، وعدتهنّ الحيض الثلاث، فإن قلت: فما تقول في قول الأعشى [من الطويل]:

.... لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا[1]

قلت: أراد: لما ضاع فيها من عدّة نسائك، لشهرة القروء عندهم في الاعتداد بهن،

= وأخرجه مالك (٢/ ٥٧٤) في الطلاق، باب ما جاء في طلاق العبد (٥٠) ومن طريقه أخرجه البيهقي (٧/ ٣٦٩) عن نافع عن ابن عمر موقوفاً.
وأخرجه الدارقطني (٤/ ٣٨) عن سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً.
وقال الدارقطني: وهذا هو الصواب. وحديث عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - منكر غير ثابت من وجهين:
أحدهما: أن عطية ضعيف. وسالم ونافع أثبت منه وأصح رواية.
والوجه الآخر: أن عمر بن شبيب ضعيف الحديث، لا يخبر بروايته.
قال الحافظ، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة بهذا ومظاهر ضعيف. ورواه ابن ماجه والدارقطني من رواية عطية عن ابن عمر نحوه: وفيه عمر بن شبيب وهو ضعيف. انتهى.

---

(١) أفي كل عام أنت جاشم غزوة ... تشدّ لأقصاها عزيم عزائكا؟
مؤثلة مالاً وفي الحي رفعة ... لما ضاع فيها من قروء نسائكا
للأعشى، يقول لجاره: أينبغي أن تتجشم وتكلف نفسك في كل عام دخول غزوة واقتحام مكارهها، تشد وتوثق عزيمة صبرك، لأقصاها: أي أبعدها وأعلاها أو غايتها ومنتهاها. ومؤثلة أي مؤصلة على اسم الفاعل. ويروى مورثة، أي تورثك تلك الغزوة مالاً كثيراً بغنائمها، ورفعة لك في الحي لأجل ما ضاع فيها أي في الأعوام المعلومة من ذكر كل عام. واللام للعاقبة، شبه ضياع القروء المترتب على خروجه للغزو بأمر مرغوب على طريق المكنية ولام العلة تخييل، أو شبه ترتب المرغوب عنه بترتب المرغوب فيه. واستعار له اللام على طريق التصريحية، وفيها نوع توبيخ. ويجوز أن ذلك الاستفهام للتعجُّب، فقوله «لما ضاع فيها» من تمام العجب. والأقراء التي تضيع على الزوج هي الأطهار، لأنها التي يوطأن فيها. لا الحيض، وضياع ذلك يؤدي إلى انقطاع النسل.
ينظر ديوانه (٩١)، المحتسب ١/ ١٨٣، الهمع ٢/ ١٤١، الدرر ٢/ ١٩٤، الدر المصون ١/ ٥٥٥، فتح القدير ١/ ٣٠٦.

أي: من مدّة طويلة كالمدة التي تعتد فيها النساء، استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لاقتحامه في الحروب والغارات، وأنه تمرّ على نسائه/ ٨٢أ مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاجعن فيها، أو أراد من أوقات نسائك، فإنّ القرء والقارىء جاء في معنى الوقت، ولم يرد لا حيضاً ولا طهراً، فإن قلت: فعلام انتصب ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾؟ قلت: على أنه مفعول به كقولك: المحتكر يتربص الغلاء، أي: يتربصن مضيّ ثلاثة قروء، أو على أنه ظرف، أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء، فإن قلت: لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء؟ قلت: يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية، ألا ترى إلى قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾، وما هي إلا نفوس كثيرة، ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء، فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل، فيكون مثل قولهم: ثلاثة شسوع، وقرأ الزهري: «ثلاثة قرو»، بغير همزة، ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾: من الولد أو من دم الحيض، وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض: قد طهرت؛ استعجالاً للطلاق، ويجوز أن يراد اللاتي يبغين إسقاط ما في بطونهن من الأجنة فلا يعترفن به ويجحدنه لذلك، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه، ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: تعظيم لفعلهن، وأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترىء على مثله من العظائم، والبعولة: جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كما في الحزونة والسهولة، ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك: بعل حسن البعولة، يعني: وأهل بعولتهن ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾: برجعتهن، وفي قراءة أبيّ: «بردّتهن»: ﴿في ذلك﴾ في مدة ذلك التربص، فإن قلت: كيف جُعلوا أحق بالرجعة، كأن للنساء حقاً فيها؟ قلت: المعنى أنّ الرجل إن أراد الرجعة وأبتها المرأة، وجب إيثار قوله على قولها وكان هو أحق منها، إلا أن لها حقاً في الرجعة، ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾: بالرجعة، ﴿إِصْلَٰحًا﴾: لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارّتهنّ، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾: ويجب لهنّ من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهم عليهنّ، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس فلا يكلفنهم ما ليس لهنّ ولا يكلفونهنّ ما ليس لهم ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه، والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة، لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال، ﴿دَرَجَةٌ﴾: زيادة في الحق وفضيلة، قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ

ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾: بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم، أي: التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال/ ٨٢ب دفعة واحدة، ولم يرد بالمرتين التثنية، ولكن التكرير، كقوله: (ثم ارجع البصر كرّتين) [الملك: ٤] أي: كرّة بعد كرّة، لا كرّتين اثنتين، ونحو ذلك من التثاني التي يراد بها التكرير قولهم: لبيك، وسعديك، وحنانيك، وهذاذيك، ودواليك، وقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾: تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون، بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجبهنّ، وبين أن يسرحوهنّ السراح الجميل الذي علمهم، وقيل: معناه الطلاق الرجعي مرّتان، لأنه لا رجعة بعد الثلاث، فإمساك بمعروف أي: برجعة، أو تسريح بإحسان أي: بأن لا يراجعها حتى تبين بالعدّة، أو بأن لا يراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدة عليها وضرارها، وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث، ورُوي: أنّ سائلاً سأل رسول الله ـ ﷺ ـ: أين الثالثة؟ فقال: عليه الصلاة والسلام ـ: «أو تسريح بإحسان» (١٦١) وعند أبي حنيفة وأصحابه: الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة، والسنة أن لا يوقع عليها إلا واحدة في طهر لم

---

١٦١ ـ أخرجه الدارقطني (٤/ ٣، ٤): كتاب الطلاق، حديث (١، ٢) الأول عن قتادة عن أنس، والثاني عن إسماعيل بن سميع الحنفي عن أنس وأخرجه أبو داود في المراسيل ص(١٨٩)، حديث (٢٢٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ١٩٠)، حديث (١٩٢١٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٣٣٧، ٣٣٨)، حديث (٩١ ـ ١١) مرسلاً.
والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٤٠): كتاب الخلع والطلاق: باب ما جاء في موضع الطلقة الثالثة من كتاب الله عز وجل. عن أنس وكذلك مرسلاً وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٩٥) وعزاه لابن مردويه والبيهقي عن أنس ولأحمد ووكيع وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والبيهقي، عن أبي رزين الأسدي قال: قال رجل...
قال الحافظ ابن حجر أخرجه الدارقطني من رواية عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس به. وقال في العلل: وهم فيه ليث بن حماد رواية عن عبد الواحد. والمحفوظ عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين مرسلاً. وقد أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي معاوية. وعبد الرزاق عن الثوري كلاهما عن إسماعيل بن سميع. ورواه الدارقطني أيضاً من رواية حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس قال قال رجل لرسول الله ـ ﷺ ـ «إني أسمع الله يقول: الطلاق مرتان فأين الثالثة؟ قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، هي الثالثة». انتهى.

يجامعها فيه، لما روي في حديث ابن عمر: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال له: «إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً فتطلقها لكل قرء تطليقة» (١٦٢) وعند الشافعي، لا بأس بإرسال الثلاث، لحديث العجلاني الذي لاعن امرأته، فطلقها ثلاثًا بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ فلم ينكر عليه (١٦٣) رُوي: أنّ جميلة بنت عبد الله بن أبيّ كانت تحت ثابت بن قيس بن

---

١٦٢ ـ أخرجه الدارقطني (٤/ ٣١) كتاب الطلاق: حديث (٨٤) من طريق شعيب بن رزيق أن عطاء الخراساني حدثهم عن الحسن عن ابن عمر فذكره.

وذكره عبد الحق في الأحكام الوسطى (٣/ ١٩٢) من طريق الدارقطني.

وقال: معلى بن منصور رماه أحمد بن حنبل بالكذب قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١)، وقال صاحب التنقيح: عطاء الخراساني قال ابن حبان: كان صالحاً غير أنه كان رديء الحفظ كثير الوهم فبطل الاحتجاج به وقد صرَّح الحسن بسماعه من ابن عمر، قال الإمام أحمد فيما رواه عنه ابنه صالح: الحسن سمع من ابن عمر، وكذلك قال أبو حاتم وقيل لأبي زرعة: الحسن لقي ابن عمر؟ قال نعم. ا.هـ. والحديث علّقه الإمام البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٥/ ٤٦١) كتاب الخلع والطلاق: باب الإختيار في الطلاق عن عطاء الخراساني عن الحسن عن ابن عمر وقال: عطاء الخراساني أتى في هذا الحديث بزيادات لم يتابع عليها وهو ضعيف في الحديث لا يقبل منه ما يتفرد به. ا.هـ.

قلت: وقد أعل البيهقي الحديث بعطاء فقط مع أن معلى أسوأ حالاً منه لأن معلى قد توبع على هذا الحديث تابعه يحيى بن عثمان بن كثير بن دينار الحمصي.

أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «نصب الراية (٣/ ٢٢٠) من طريق علي بن سعيد الرازي عن يحيى بن عثمان به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٣٩): رواه الطبراني وفيه على ابن سعيد الرازي قال الدارقطني: ليس بذاك وعظمه غيره وبقية رجاله ثقات.

قال الحافظ: أخرجه الدارقطني والطبراني من رواية شعيب بن رزين أن عطاء الخراساني حدثهم عن الحسن قال: حدثنا عبد العزيز بن عمير «أنه طلق امرأته تطليقة وهي حائض» ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين آخرتين عند القرأين فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ. فقال: يا ابن عمير، ما هكذا أمرك الله. قد أخطأت السنة، والسنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قرء: فأمرني بمراجعتها. فقال: إذا طهرت فطلق عند ذلك أو أمسك ـ الحديث». انتهى.

١٦٣ ـ أخرجه مالك (٢/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧) كتاب الطلاق: باب ما جاء في اللعان حديث (٣٤) والبخاري (٩/ ٣٦١) كتاب الطلاق: باب من جوز الطلاق الثلاث حديث (٥٢٥٩) ومسلم (٢/ ١١٢٩ ـ ١١٣٠) كتاب اللعان حديث (١/ ١٤٩٢) وأبو داود (٢/ ٦٧٩ ـ ٦٨٢) كتاب الطلاق: باب في اللعان حديث (٢٢٤٥) والنسائي (٦/ ١٧٠ ـ ١٧١) كتاب الطلاق باب بدء اللعان، وابن ماجه (١/ ٦٦٧) كتاب الطلاق: باب اللعان حديث (٢٠٦٦) وأحمد (٥/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧) والدارمي (٢/ ١٥٠) كتاب النكاح: باب في اللعان وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٧٥٦) وابن حبان (٤٢٧١ ـ الإحسان) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٠٢) والبيهقي (٧/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) كتاب اللعان: باب سنة اللعان، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٨١ ـ بتحقيقنا) من طريق الزهري عن سهل بن سعد به.

قال الحافظ ابن حجر متفق عليه من حديث سهل بن سعد لكن قيل: إن قوله «فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره النبي ـ ﷺ ـ بطلاقها» من كلام الزهري رواية عن سهل. (تنبيه) قال عبد الحق في الأحكام: =

شماس وكانت تبغضه وهو يحبها، فأتت رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله، لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله، ما أعيب عليه في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، ما أطيقه بغضاً، إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدّة فإذا هو أشدهم سوادًا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً، فنزلت، وكان قد أصدقها حديقة، فاختلعت منه بها، وهو أوّل خلع كان في الإسلام (١٦٤)، فإن قلت: لمن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا﴾؟ إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ

= لم يصح اللفظ بالثلاث إلاّ في حديث الملاعن. وتعقب بما في مسلم عن فاطمة بنت قيس قالت «طالقني زوجي ثلاثاً فخاصمته... الحديث». انتهى.

١٦٤ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٣٩٥) كتاب الطلاق: باب الخلع حديث (٥٢٧٣) والنسائي (٦/ ١٦٩) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخلع وابن ماجه (١/ ٦٦٣) كتاب الطلاق: باب المختلعة تأخذ ما أعطاها حديث (٢٠٥٦) والدارقطني (٤/ ٤٦) كتاب الطلاق والخلع والإيلاء (١٣٥) والبيهقي (٧/ ٣١٣) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٤١ ـ ١٤٢ ـ بتحقيقنا) من طريق عكرمة عن ابن عباس به.
وأخرجه أبو داود (١/ ٦٧٧) كتاب الطلاق: باب في الخلع حديث (٢٢٢٩) والترمذي (٣/ ٤٩١) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخلع حديث (١١٨٥) مكرر من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت منه فجعل النبي ـ ﷺ ـ عدتها حيضة.
وقال الترمذي: حسن غريب.
وقال أبو داود: وهذا الحديث رواه عبد الرزاق عن معمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً.
وأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣).
قال الحافظ: أخرجه الطبري في تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا معتمر بن سليمان قال: قرأت على فضيل عن أبي جرير أنه سأل عكرمة «هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي بن سلول، أتت رسول الله ـ ﷺ ـ فذكره «ولم يسمها» وقد سماها البخاري من رواية حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة «أن جميلة ـ فذكره» ولابن ماجه من رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس «أن جميلة بنت سلول» وكذا أخرجه عبد الرزاق من وجه آخر «أن امرأة أتت النبي ـ ﷺ ـ، وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي» وعند الدارقطني من طريق ابن جريج أخبرنا أبو الزبير «أن ثابت بن قيس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أبي. وكان أصدقها حديقة، فكرهته ـ إلى آخره» فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون لها اسمان. وقد رويت القصة لغيرها. وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد عن عمرو عن حبيبة بنت سهل «أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج إلى الصبح فوجدها عند بابه في الغلس. فقال من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل. قال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس» ومن طريقه أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد، ولابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميماً. فقالت: يا رسول الله لو لا مخافة الله لبزقت في وجهه: فقال: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم. فردت عليه حديقته. وفرق بينهما» ولأحمد من حديث سهل بن أبي حثمة قال «كانت بنت سهل ـ الحديث». انتهى.

ٱللَّهِ﴾، وإن قلت للأئمة والحكام، فهؤلاء ليسوا بآخذين منهن ولا بمؤتيهن؟ قلت: يجوز الأمران جميعاً: أن يكون أوّل الخطاب للأزواج، وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره، وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون، ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾: مما أعطيتموهنّ من الصدقات، ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾: إلا أن يخاف الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية، لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾: فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها/ ٨٣أ فيما أعطت، ﴿فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾: فيما فدت به نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت من المهر، والخلع بالزيادة على المهر مكروه وهو جائز في الحكم، ورُوي أن امرأة نشزت على زوجها فرفعت إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ، فأباتها في بيت الزبل ثلاث ليال ثم دعاها فقال: كيف وجدت مبيتك؟ قالت: ما بت منذ كنت عنده أقر لعيني منهن، فقال لزوجها: اخلعها ولو بقرطها (١٦٥)، قال قتادة: يعني بمالها كله، هذا إذا كان النشوز منها، فإن كان منه، كره له أن يأخذ منها شيئاً، وقرىء «إلا» أن يخافا، على البناء للمفعول وإبدال أن لا يقيما من ألف الضمير، وهو من بدل الاشتمال كقولك: خيف زيد تركه إقامة حدود الله، ونحوه: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ [الأنبياء: ٣] ويعضده قراءة عبد الله: ﴿إلا أن تخافوا﴾ وفي قراءة أبي: «إلا أن يظنا»، ويجوز أن يكون الخوف بمعنى الظن، يقولون: أخاف أن يكون كذا، وأفرق أن يكون، يريدون أظن، ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾: الطلاق المذكور الموصوف بالتكرار في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾، واستوفى نصابه، أو فإن طلقها مرة ثالثة بعد المرّتين، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾: من بعد ذلك التطليق، ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾: حتى تتزوّج غيره، والنكاح يسند إلى المرأة، كما يسند إلى الرجل كما التزوج، ويقال: فلانة ناكح في بني فلان، وقد تعلق من اقتصر على العقد في التحليل بظاهره وهو سعيد ابن المسيب، والذي عليه الجمهور أنه لا بد من الإصابة، لما روى عن عروة عن ـ عائشة رضي الله عنها ـ: أنّ امرأة رفاعة جاءت إلى النبي ـ ﷺ ـ فقالت: إن رفاعة طلقني فبت طلاقي وإن عبد الرحمٰن بن الزبير تزوّجني، وإنما معه مثل هدبة الثوب وإنه طلقني قبل أن يمسني، فقال

---

١٦٥ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ١٢٥)، حديث (١٨٥٢٥) وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٥٠٥)، حديث (١١٨٥١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٠٢) في تفسير سورة البقرة الآية (٢٢٩).
وعزاه عبد الرزاق، وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي.
قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والطبري وإبراهيم الحربي في أواخر الغريب له كلهم من رواية أيوب عن كثير مولى سمرة «أن عمر أتى بامرأة ناشزة فذكره» قال إبراهيم: الناشز التي تعصى زوجها. انتهى.

رسول الله - ﷺ -: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عُسيلته ويذوق عُسيلتك (١٦٦)، ورُوي: أنها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت، فقالت: إنه كان قد مسني،

---

١٦٦ - أخرجه مالك (٢/ ٥٣١) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وما أشبهه حديث (١٧) من طريق المسور بن رفاعة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير أن رفاعة بن سموال طلق امرأته. . .
ومن طريق مالك أخرجه الشافعي في «الأم» (٥/ ٢٤٨) باب نكاح المطلقة ثلاثاً وابن حبان (١٣٢٣ - موارد) والبيهقي (٧/ ٣٧٥) كتاب الرجعة: باب نكاح المطلقة ثلاثاً.
قال السيوطي في «تنوير الحوالك» (٢/ ٦) قال ابن عبد البر: كذا لأكثر الرواة مرسل ووصله ابن وهب عن مالك فقال عن أبيه وابن وهب من أجل من روى عن مالك هذا الشأن وأثبتهم فيه وتابعه أيضاً ابن القاسم وعلي بن زياد وإبراهيم بن طهمان وعبيد الله بن عبد المجيد الحنفي كلهم عن مالك وقالوا فيه: عن أبيه وهو صاحب القصة. ا.هـ.
ومن طريق ابن وهب أخرجه ابن الجارود (٦٨٢) والبيهقي (٧/ ٣٧٥) كتاب الرجعة: باب نكاح المطلقة ثلاثاً.
وأخرجه البزار (٢/ ١٩٤ - كشف) رقم (١٥٠٤) من طريق عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ثنا مالك بن أنس عن المسور بن رفاعة عن الزبير عن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٤٣): رواه البزار والطبراني ورجالهما ثقات وقد رواه مالك في الموطأ مرسلاً وهو هنا متصل. ا.هـ.
وقد ورد هذا الحديث موصولاً من حديث عائشة.
أخرجه أحمد (٦/ ٢٢٦) والبخاري (٥/ ٢٤٩) كتاب الشهادات: باب شهادة المختبىء حديث (٢٦٣٩) ومسلم (٢/ ١٠٥٥ - ١٠٥٦) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره حديث (١١١/ ١٤٣٣) والترمذي (٢/ ٢٩٣) كتاب النكاح: باب ما جاء فيمن يطلق امرأته ثلاثاً حديث (١١١٨) والنسائي (٦/ ١٤٨) كتاب الطلاق: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (١/ ٦٢١ - ٦٢٢) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً حديث (١٩٣٢).
والدارمي (٢/ ١٦١) كتاب الطلاق: باب ما يحل المرأة لزوجها الذي طلقها. . . والشافعي (٢/ ٣٤ - ٣٥) كتاب الطلاق حديث (١١٠) والحميدي (١/ ١١١) رقم (٢٢٦) وعبد الرزاق (٦/ ٣٤٦ - ٣٤٧) رقم (١١١٣١) والطيالسي (١/ ٣١٤ - ٣١٥) رقم (١٦١٢، ١٦١٣) وسعيد بن منصور (٢/ ٧٣ - ٧٤) رقم (١٩٨٥) وأبو يعلى (٧/ ٣٩٧) رقم (٤٤٢٣) وابن حبان (٤١٩٩ - الإحسان) والبيهقي (٧/ ٣٧٣ - ٣٧٤) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٦٩ - بتحقيقنا) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي - ﷺ - فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاقي فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تزوقي عسيلته ويذوق عسيلتك. . .
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وللحديث طرق أخرى عن عائشة.
فأخرجه البخاري (٩/ ٢٨٤) كتاب الطلاق: باب من قال لامرأته أنت عليَّ حرام حديث (٥٢٦٥) ومسلم (٢/ ١٠٥٧) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حى تنكح زوجاً غيره حديث (١١٤/ ١٤٣٣) وأحمد (٦/ ٢٢٩) والدارمي (٢/ ١٦٢) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

فقال لها: «كذبت في قولك الأوّل، فلن أصدّقك في الآخر»، فلبثت حتى قبض رسول الله ـ ﷺ ـ (١٦٧) فأتت أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالت: أأرجع إلى زوجي الأوّل، فقال: قد عهدت رسول الله ـ ﷺ ـ حين قال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قالت مثله لعمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: إن أتيتني بعد مرّتك هذه

= وأخرجه مسلم (٢/ ١٠٥٧) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره حديث (١١٥/ ١٤٣٣) وأحمد (٦/ ١٩٣) وأبو يعلى (٨/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) رقم (٤٩٦٤) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة.
وأخرجه أبو داود (١/ ٧٠٥) كتاب الطلاق: باب في المبتوتة لا يرجع إليها زوجها حتى تنكح زوجاً غيره حديث (٢٣٠٩) وأحمد (٦/ ٤٢) من طريق الأسود عن عائشة.
وأخرجه البخاري (١٠/ ٢٩٣) من طريق عبد الوهاب عن أيوب عن عكرمة.
«أنّ رفاعة طلّق امرأته، فتزوجها عبد الرحمن بن الزُّبير القرظي، قالت عائشة: وعليها خِمارٌ أخضر، فشكت إليها، وأرَتها خُضرة بجلدها. فلما جاء رسول الله ـ ﷺ ـ والنساء ينصر بعضهن بعضاً ـ قالت عائشة: ما رأيت مثل ما يلقى المؤمنات لجلدها أشد خضرة من ثوبها. قال وسمع أنها قد أتت رسول الله ـ ﷺ ـ، فجاء ومعه إبنان له من غيرها، قالت: والله ما لي إليه من ذنب، إلاّ أنّ ما معه ليس بأغنى عني من هذه ـ وأخذت هدبةً من ثوبها ـ فقال: كذبت والله يا رسول الله، إني لأنفضها نفض الأديم، ولكنها ناشزٌ تريد رفاعة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: فإن كان ذلك لم تحلّي له أو تصلحي له حتى يذوق من عسيلتك. قال وأبصر معه ابنين له فقال: بنوك هؤلاء؟ قال: نعم. قال: هذا الذي تزعمين ما تزعمين؟ فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب».
وفي الباب عن ابن عمر وعبيد الله بن عباس وأنس بن مالك والفضل بن عباس.
ـ **حديث ابن عمر:**
أخرجه أحمد (٢/ ٨٥) والنسائي (٦/ ١٤٨ ـ ١٤٩) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثاً وابن ماجه (١/ ٦٢٢) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فتتزوج فيطلقها ـ (١٩٣٣) من طريق محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد شمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر به.
أخرجه أحمد (٢/ ٦٢) والنسائي (٦/ ١٤٩) والبيهقي (٧/ ٣٧٥) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان عن ابن عمر.
قال النسائي: هذا أولى بالصواب.
وأخرجه أبو يعلى (٨/ ٣٧٤) رقم (٤٠٦٦) من طريق يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر.
قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٤٣): رواه الطبراني وأبو يعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.
قال الحافظ متفق عليه من هذا الوجه. انتهى.

١٦٧ ـ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٠٥) وعزاه لابن المنذر عن مقاتل بن حيان.
قال الحافظ قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة ـ فذكر الحديث. وفيه «فقعدت ما شاء الله. ثم جاءته فأخبرته أنه قد مسها، فمنعها أن ترجع إلى زوجها الأول، وقال: اللهم إن كان إنما بها أن يحلها لرفاعة فلا يتم لها نكاحه مرة أخرى. ثم أتت أبا بكر وعمر في خلافتهما فمنعاها». انتهى

لأرجمنك، فمنعها. فإن قلت فما تقول في النكاح المعقود بشرط التحليل؟ قلت: ذهب سفيان والأوزاعي وأبو عبيد ومالك وغيرهم إلى أنه غير جائز، وهو جائز عند أبي حنيفة مع الكراهة، وعنه أنهما إن أضمرا التحليل ولم يصرحا به فلا كراهة، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «أنه لعن المحلل والمحلل له» (١٦٨) وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا أوتى بمحلل ولا

---

١٦٨ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة وهم علي بن أبي طالب وابن مسعود وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله وأبو هريرة وابن عباس.

ـ **حديث علي:**

أخرجه أحمد (١/ ٨٧، ١٠٧، ١٢١، ١٣٣، ١٥٠، ١٥٨) وأبو داود (٢/ ٥٦٢) كتاب النكاح: باب في التحليل حديث (٢٠٧٦) والترمذي (٣/ ٤٢٧) كتاب النكاح: باب المحل والمحلل له حديث (١١١٩) وابن ماجه (١/ ٦٢٢) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٥) وأبو يعلى (١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤) رقم (٤٠٢) والبيهقي (٧/ ٢٠٨) كتاب النكاح: باب في نكاح المحلل، كلهم من طريق عامر الشعبي عن الحارث عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: لعن الله المحلل والمحلل له.

ـ **حديث ابن مسعود:**

أخرجه أحمد (١/ ٤٤٨) والترمذي (٣/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩) كتاب النكاح: باب المحل والمحلل له حديث (١١٢٠) والنسائي (٦/ ١٤٩) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثاً والدارمي (٢/ ١٥٨) كتاب النكاح: باب في النهي عن التحليل والبيهقي (٧٠/ ٢٠٨) كتاب النكاح: باب ما جاء في نكاح المحلل من طرق عن سفيان عن أبي قيس عن هزيل بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: لعن رسول الله ـ ﷺ ـ المحلل والمحلل له.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١) وأبو يعلى (٨/ ٤٦٨) رقم (٥٠٥٤) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٧٨ ـ بتحقيقنا).

من طريق عبد الكريم الجزري عن أبي واصل عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ لعن المحلل والمحلل له.

ـ **حديث عقبة بن عامر:**

أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٢٣) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٦) والدارقطني (٣/ ٢٥١) كتاب النكاح حديث (٢٨) والحاكم (٢/ ١٩٩) والبيهقي (٧/ ٢٠٨) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٦٤٦) من طريق الليث عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ألا أخبركم بالتيس المستعار وهو المحلل والمحلل له لعن الله المحلل والمحلل له.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال: وقد ذكر أبو صالح كاتب الليث عن ليث سماعه من مشرح.

ثم ساقه من طريقه عن الليث قال: سمعت مشرح به.

ثم قال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وقد أعلّ أبو زرعة هذا الحديث بعدم سماع الليث من مشرح فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤١١) رقم (١٢٣٢): سمعت أبا زرعة وذكر حديثاً رواه أبو صالح كاتب الليث وعثمان بن صالح =

. . . .

= قالا: حدثنا الليث عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ ألا أخبركم بالتيس المستعار قالوا بلى قال: المحل والمحلل له، فلعن الله المحلل والمحلل له. «قال أبو زرعة وذكرت هذا الحديث ليحيى بن عبد الله بن بكير وأخبرته برواية عبد الله بن صالح وعثمان بن صالح فأنكر ذلك إنكاراً شديداً وقال: لم يسمع الليث من مشرح شيئاً ولا روى عنه شيئاً وإنما حدثني الليث بن سعد بهذا الحديث عن سليمان بن عبد الرحمن أن رسول الله ـ ﷺ ـ. . . قال أبو زرعة: الصواب عندي حديث يحيى يعني بن عبد الله بن بكير. ا.هـ.

وقد أعلّ الإمام البخاري هذا الحديث بنفس العلة وهي عدم سماع الليث من شرح بن هاعان.
فقال الترمذي في «العلل الكبير» (ص ١٦١ ـ ١٦٢) رقم (٢٧٤): سألت محمداً ـ يعني البخاري ـ عن حديث عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر. . . فذكره.
فقال: عبد الله بن صالح لم يكن أخرجه في أيامنا ما أرى الليث سمعه من مشرح بن هاعان لأن حيوة روى عن بكر بن عمرو عن مشرح. ا.هـ.
ويرد هذا كله تصريح الليث بسماعه من مشرح عند ابن ماجه، فقال الليث: قال لي أبو مصعب مشرح بن هاعان وعند الحاكم: من طريق أبي صالح عن الليث قال: سمعت مشرح وعند البيهقي أيضاً.
لترتفع بذلك مظنة الانقطاع بين الليث ومشرح. والحديث ذكره البوصيري في الزوائد (٢/ ١٠٢) وقال: هذا إسناد مختلف فيه من أجل أبي مصعب. ا.هـ. وأبو مصعب هو مشرح بن هاعان.
قال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٢٥٠): مقبول: يعني عند المتابعة وإلاَّ فلين الحديث.
ـ حديث أبي هريرة:
أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣) وابن الجارود (٦٨٤) والبزار (٢/ ١٦٧ ـ كشف) رقم (١٤٤٢) وابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤١٣) رقم (١٢٣٧) والبيهقي (٧/ ٢٠٨) من طريق عبد الله بن جعفر المخرمي عن عثمان بن محمد عن المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لعن الله المحلل والمحلل له.
وذكره الحافظ في «التلخيص» (٣/ ١٧٠) وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه والترمذي في العلل وقال: وحسنه البخاري.
وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٧٠): رواه أحمد والبزار وفيه عثمان بن محمد الأخنسي وثقه ابن معين وابن حبان وقال ابن المديني: له عن أبي هريرة مناكير. ا.هـ.
وهنا لم يروه عن أبي هريرة ولكن رواه عن المقبري عن أبي هريرة.
ـ حديث جابر:
أخرجه الترمذي (٣/ ٤٢٧) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١١١٩) ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٦٤٧) من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر به.
وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقائم فإن مجالد بن سعيد قد ضعفه بعض أهل العلم منهم أحمد بن حنبل. ا.هـ.
وقال ابن الجوزي: قال أحمد: مجالد ليس بشيء وقال يحيى لا يحتج بحديثه.
وقال ابن الجوزي أيضاً: وقد روى هذا المعنى من طرق صحاح عن ابن مسعود وغيره. =

محلل له إلا رجمتهما (١٦٩)، وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: لا إنكاح إلا نكاح/ ٨٣ب رغبة غير مدالسة (١٧٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾: الزوج الثاني، ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾: أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزواج، ﴿إِن ظَنَّآ﴾: إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية، ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان، لأنّ اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن فسر الظن ههنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى، لأنك لا تقول: علمت أن يقوم زيد، ولكن: علمت أنه يقوم، ولأنّ الإنسان لا يعلم ما في الغد، وإنما يظن ظناً.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: أي: آخر عدتهن وشارفن منتهاها، والأجل يقع على المدّة كلها،

= ـ حديث ابن عباس:
أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٢٢) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٤) حدثنا محمد بن بشار ثنا أبو عامر عن زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ـ ﷺ ـ المحلل والمحلل له.
قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٠٢): هذا إسناد ضعيف لضعف زمعة بن صالح.
رواه أبو يعلى في مسنده حدثنا أبو هشام حدثنا أبو عامر حدثنا زمعة فذكره بزيادة في آخره.
وقال ابن حجر في «التلخيص» (٣/ ١٧٠): وفي إسناده زمعة بن صالح وهو ضعيف.
قال الحافظ روى عن ابن مسعود وعلي وجابر وعقبة بن عامر، وأبي هريرة، وابن عباس. قلت: أحال بها على تخريج الهداية وحديث ابن مسعود أخرجه الترمذي والنسائي وصححه ابن دقيق العبد على شرط البخاري. وحديث ابن عباس أخرجه ابن ماجه. وحديث علي أخرجه أحمد وأبو داود. وحديث أبي هريرة رواه أحمد والبيهقي. وحديث عقبة بن عامر أخرجه ابن ماجه. وحديث جابر ذكره الترمذي. انتهى.

١٦٩ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٢٦٥)، حديث (١٠٧٧٧) وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٧٥): كتاب السنن: باب ما جاء في المحل والمحلل له، حديث (١٩٩٢، ١٩٩٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٠٧) وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد الرزاق وأبو بكر بن الأثرم في سننه والبيهقي.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة من رواية المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر عن عمر فذكره. انتهى.

وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به: أجل، وكذلك الغاية والأمد، يقول النحويون: «من»، لابتداء الغاية، و «إلى»: لانتهاء الغاية، وقال [من الخفيف]:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمْـ ... ـرِ وَمُودٍ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهْ[1]

ويتسع في البلوغ - أيضاً - فيقال: بلغ البلد إذا شارفه وداناه، ويقال: قد وصلت، ولم يصل، وإنما شارف، ولأنه قد علم أنّ الإمساك بعد تقضّي الأجل لا وجه له، لأنها بعد تقضّيه غير زوجة له في غير عدّة منه، فلا سبيل له عليها، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: وإما أن يخليها حتى تنقضي عدّتها وتبين من غير ضرار، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾: كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطوّل العدة عليها، فهو الإمساك ضراراً، ﴿لِتَعْتَدُوا﴾: لتظلموهنّ، وقيل: لتلجئوهن إلى الافتداء، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: بتعريضها لعقاب الله، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ (١٧١) أي: جدّوا في الأخذ

---

١٧٠ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٢٢٦)، حديث (١١٥٦٧) عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - سئل عن المحلل، فقال لا نكاح إلا نكاح رغبة...
والحاكم في مستدركه (٢/١٩٩): كتاب الطلاق عن عمر بن نافع، عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً...
وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وأخرجه البيهقي (٧/٢٠٨، ٢٠٩): كتاب النكاح: باب ما جاء في نكاح المحلل.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٥٠٧) وعزاه للبيهقي عن سليمان بن يسار أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحللها لزوجها ففرق بينهما وقال لا ترجع إليه إلا نكاح رغبة غير دلسه.
قال الحافظ: لم أجده عن عثمان بل وجدته عن ابن عمر. أخرجه الحاكم من رواية عمر بن نافع عن أبيه أنه قال «جاء رجل إلى ابن عمر «فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ قال: لا إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله - ﷺ -» وقد روى مرفوعاً أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنها - «أن رسول الله - ﷺ - سئل عن المحلل. فقال: لا، إلا نكاح رغبة غير دلسة، ولا مستهزئ بكتاب الله تعالى لم يذق العسيلة» وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وهو ضعيف. انتهى.
١٧١ - أخرجه الطبري (٥/٨)، حديث (٤٩٠٩) بلفظ هو الذي يطلق امرأته ثم يدعها حتى إذا كان في آخر عدّتها راجعها...» عن مسروق، (٥/٩)، حديث (٤٩١٤) عن الربيع.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٥٠٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

---

(١) يقال: أودى إذا هلك، وأودى به السبل ونحوه أهلكه وذهب به. والودى كالغنى: الهلاك. ويروى أجله. والأمد والأجل يطلقان على جميع مدة الشيء وعلى منتهاها، كما تطلق الغاية على جميع المسافة وعلى آخرها. يقول: كل حي لا بد أنه يستكمل مدة عمره ويهلك إذا انتهت مدته وتسكين العمر لغة فيه.

بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً ولعباً، ويقال لمن لم يجدّ في الأمر: إنما أنت لا عب وهازىء، ويقال: كن يهودياً وإلا فلا تلعب بالتوراة، وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوّج ويقول: كنت لاعباً، (١٧٢) وعن النبي ـ ﷺ ـ: «ثلاث جدّهن جدّ وهزلهن جدّ: الطلاق[1] والنكاح والرجعة». (١٧٣) ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

---

١٧٢ ـ أخرجه الطبري (٥/١٣)، حديث (٤٩٢٣).
وذكره السيوطي في تفسيره الدر المنثور (١/٥٠٩) وعزاه لابن أبي شيبة، والطبري وابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان الرجل يطلق ويقول كنت لاعباً...

١٧٣ ـ أخرجه أبو داود (١/١٦٦) كتاب الطلاق باب في الطلاق على الهزل (٢١٩٤) والترمذي (٣/٤٩٠) كتاب الطلاق باب ما جاء في الجد والهزل في الطلاق (١١٨٤) وابن ماجه (١/٦٥٧) كتاب الطلاق باب من طلق أو نكح أو راجع لاعباً (٢٠٣٩) وسعيد بن منصور في السنن باب الطلاق لا رجوع فيه (١٦٠٣)، والطحاوي في شرح المعاني (٣/٩٨)، والدارقطني (٣/٢٥٦، ٢٥٧)، باب المهر (٤٥، ٤٧)، (٤/١٨، ١٩) كتاب الطلاق (٥٠، ٥١)، والحاكم (٢/١٩٨). وقال الحاكم: صحيح الإسناد وعبد الرحمن بن حبيب هذا هو ابن أردك من ثقات المدنيين.
وتعقبه الذهبي بقوله في عبد الرحمن هذا: «فيه لين».
والبغوي في شرح السنة (٥/١٦١) (٢٣٤٩ ـ بتحقيقنا).
كلهم من طريق عبد الرحمن بن أردك عن عطاء بن أبي رباح عن يوسف بن ماهك عن أبي هريرة.
وعبد الرحمن بن أردك سبق كلام الحاكم والذهبي فيه.
وقال الحافظ في التقريب (١/٤٧٦): «لين الحديث».
وللحديث شواهد ذكرها الزيلعي في «نصب الراية».
ـ **أولاً**: ما رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» قال حدثنا بشر بن عمر ثنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن عبادة بن الصّامت أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: لا يجوز اللعب في ثلاث: الطلاق والنكاح والعتاق فمن قالهن فقد وجبن».
وقد أعلّ بعلتين:
الأولى: الانقطاع بين عبيد الله بن جعفر وعبادة بن الصّامت.
الثانية: ضعف عبد الله بن لهيعة.
قال الحافظ في «التقريب» (١/٤٤٤):
«صدوق، من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرها».
ثانياً: ما رواه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم في تفسيره وابن جرير (٢/٤٩٦) (٤٩٢٦) عن الحسن مرسلاً: «كان الرجل في الجاهلية يطلق، ثم يراجع، ويقول: كنت لاعباً ويعتق ثم يراجع ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من طلّق أو حرّر، أو أنكح فقال: إني كنت لاعباً فهو جائز».
«وهذا مرسل صحيح الإسناد إلى الحسن وهو البصري». =

---

(١) قوله «وهزلهن جد الطلاق والنكاح والرجعة» في أبي السعود: النكاح والطلاق والعتاق. (ع)

عَلَيۡكُمۡ﴾: بالإسلام وبنبوّة محمد ـ ﷺ ـ ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾: من القرآن والسنة، وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها، ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾: بما أنزل عليكم، ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسراً، ولحمية الجاهلية لا يتركونهنّ يتزوّجن من شئن من الأزواج، والمعنى: أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهنّ، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلهنّ أن يرجعن إلى أزواجهنّ، رُوي: أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأوّل، (١٧٤) وقيل: في جابر بن/ ٨٤أ عبد الله حين عضل بنت عم له، (١٧٥) والوجه أن يكون خطاباً للناس، أي: لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين، والعضل: الحبس والتضييق، ومنه: عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج، وأنشد لابن هرمة [من الوافر]:

وَإِنَّ قَصَائِدِي لَكَ فَاصْطَنِعْنِي عَقَائِلُ قَدْ عَضَلْنَ عَنِ النِّكَاحِ[1]

وبلوغ الأجل على الحقيقة، وعن الشافعي ـ رحمه الله ـ: دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ﴾: إذا تراضى الخطاب والنساء، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: بما يحسن بالدين والمروءة من الشرائط، وقيل: بمهر المثل، ومن مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنها إذا زوجت نفسها بأقل من مهر مثلها فللأولياء أن يعترضوا، فإن قلت: لمن الخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾؟ قلت: يجوز أن يكون لرسول الله ـ ﷺ ـ ولكل أحد، ونحوه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ [المجادلة: ١٢] ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۗ﴾: من أدناس الآثام، وقيل: (أزكى وأطهر): أفضل وأطيب، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾: ما في ذلك من الزكاء والطهر،

= قال الحافظ: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث أبي هريرة وفي إسناده ضعف. انتهى.

١٧٤ ـ أخرجه الطبري (٥/ ١٧ ـ ١٨) رقم (٤٩٢٧ ـ ٤٩٣٧) والدارقطني (٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤) كتاب النكاح حديث (١٥، ١٦).

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد.

وعزاه لابن جرير عن ابن جريج.

وعزاه لابن جرير عن إسحاق الهمداني.

١٧٥ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٢١) رقم (٤٩٣٩) عن السديّ وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

---

(١) العقائل: جمع عقيلة، وهي المعقولة في خدرها من النساء. يقول: إن قصائدي لك مثل المخدرات، فلك: حال من القصائد أو العقائل. وقوله «فاصطنعني» اعتراض، أي فاتخذني مادحاً وكافئني على مدحي إياك بما لا أمدح به غيرك من القصائد. ولما شبّه القصائد بالنساء رشح ذلك بالعضل، وهو المنع من النكاح الخاص بالنساء.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ـه، أو والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع وأنتم تجهلونه.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

﴿يُرْضِعْنَ﴾: مثل يتربصن في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد، ﴿كَامِلَيْنِ﴾: توكيد كقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ لأنه مما يتسامح فيه فتقول: أقمت عند فلان حولين، ولم تستكملهما، وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أن يكمل الرضاعة»، وقرىء: «الرِّضاعة»، بكسر الراء، «والرضعة»، «وأن تتم الرضاعة»، و«أن يتم الرضاعة»، برفع الفعل تشبيهاً لـ «أن» بـ «ما»؛ لتأخيهما في التأويل، فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾: بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم، كقوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] لك بيان للمهيت به، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع، وعن قتادة: حولين كاملين، ثم أنزل الله اليسر والتخفيف فقال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾: أراد أنه يجوز النقصان، وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه بعد أن لا يكون في الفطام ضرر، وقيل: اللام متعلقة بـ ﴿يُرْضِعْنَ﴾، كما تقول: أرضعت فلانة لفلان ولده، أي: يرضعن حولين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة من الآباء، لأنّ الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح، وعند الشافعي: يجوز، فإذا انقضت عدّتها، جاز بالاتفاق، فإن قلت: فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن أولادهنّ؟ قلت: إما أن يكون أمراً على وجه الندب، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، وقيل: أراد الوالدات المطلقات/ ٨٤ب وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع، ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾: وعلى الذي يولد له وهو الوالد، و﴿لَهُۥ﴾: في محل الرفع على الفاعلية، نحو: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإن قلت لم قيل: ﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ دون الوالد، قلت: ليعلم أنّ الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات، وأنشد للمأمون بن الرشيد [من البسيط]:

فَـإِنَّـمَـا أُمَّـهَـاتُ الـنَّـاسِ أَوْعِـيَـةٌ   مُـسْـتَـوْدَعَـاتٌ وَلِـلآبَـاءِ أَبْـنَـاءُ(١)

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم، كالأظآر؛ ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: تفسيره ما يعقبه، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضارّا، وقرىء «لا تكلف»: بفتح التاء؛ و«لا نكلف»: بالنون، وقرىء: «لا تضارُّ»: بالرفع على الإخبار، وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل: تضارر بكسر الراء، وتضارر بفتحها، وقرأ: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾: بالفتح أكثر القراء، وقرأ الحسن بالكسر على النهي، وهو محتمل للبناءين ـ أيضاً ـ، ويبين ذلك أنه قرىء «لا تضارَرْ»، ولا «تضارِرْ»، بالجزم وفتح الراء الأولى، وكسرها، وقرأ أبو جعفر: لا «تضارْ»، بالسكون مع التشديد على نية الوقف، وعن الأعرج: «لا تضارْ» بالسكون والتخفيف، وهو من ضاره يضيره، ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر، أو اختلس الضمة فظنه الراوي سكونا، وعن كاتب عمر بن الخطاب: «لا تضرر»، والمعنى: لا تضارّ والدة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعد ما ألفها الصبي: اطلب له ظئرًا، وما أشبه ذلك؛ ولا يضارّ مولود له امرأته بسبب ولده، بأن يمنعها شيئًا مما وجب عليه من رزقها وكسوتها؛ ولا يأخذه منها وهي تريد إرضاعه، ولا يكرهها على الإرضاع؛ وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أي: يلحق بها الضرار من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرار بالزوج من قبلها بسبب الولد، ويجوز أن يكون: ﴿تُضَآرَّ﴾: بمعنى: تضر، وأن تكون الباء من صلته، أي: لا تضرّ والدة بولدها، فلا تسيء غذاءه وتعهده، ولا تفرط فيما ينبغي له، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها، ولا يضرّ

---

(١) لا تـزريـن بـفـتـى مـن أن يـكـون لـه   أم مـن الـروم أو سـوداء عـجـمـاء
فـإنـمـا أمـهـات الـنـاس أوعـيـة   مـسـتـودعـات ولـلآبـاء أبـنـاء
للمأمون بن الرشيد حين كتب إليه أخوه الأمين يوبخه على الخلافة بغير استحقاق، وفي آخره: ابن الأمة ما ألأمه: فأجابه بذلك. وأزرى به: إذا أوقع به العيب ورماه به. والنون في الفعل للتوكيد. ويروى: لا تزدرين فتى، على خطاب المؤنثة، وكأنه أراد به إسماع أخيه. وزرى عليه: إذا عاب عليه. والازدراء: افتعال منه، أي لا تعيبي، والنون ثابتة بعد النهي شذوذاً. والعجماء: التي لا تفصح في كلامها. وشبّه النساء بالأوعية التي تودع فيها الأشياء تشبيهاً بليغاً، أو على طريق التصريحية على رأي السعد في كل تشبيه بليغ. وروي: وللأبناء آباء. والمعنى أن الرفعة والضعة من جهة الآباء لا من جهة الأمهات، لأنها كالأوعية للأبناء. لكن هذا التشبيه مبني على الظاهر. ثم كتب المأمون أيضاً في جواب أخيه: القلم بمده، والسيف بحده، والمرء بسعده، لا بأبيه ولا بجده.

الوالد به بأن ينتزعه من يدها أو يقصر في حقها فتقصر هي في حق الولد. فإن قلت: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبيّ منها، فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد، ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾: عطف على قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، فكان المعنى: وعلى وارث المولود له/ ٨٥أ مثل ما وجب عليه من الرزق والكسوة، أي: إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها بالشريطة التي ذكرت من المعروف وتجنب الضرار، وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه، واختلفوا، فعند ابن أبي ليلى: كل من ورثه، وعند أبي حنيفة: من كان ذا رحم محرم منه، وعند الشافعي: لا نفقة فيما عدا الولاد، وقيل: من ورثه من عصبته مثل الجد، والأخ، وابن الأخ، والعم، وابن العمّ، وقيل: المراد وارث الأب، وهو الصبي نفسه، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في ماله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه، وقيل: ﴿على الوارث﴾: على الباقي من الأبوين من قوله: «واجعله الوارث منا[1]». ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾: صادراً، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، زادا على الحولين أو نقصا، وهذه توسعة بعد التحديد، وقيل: هو في غاية الحولين لا يتجاوز، وإنما اعتبر تراضيهما في الفصال وتشاورهما: أمّا الأب فلا كلام فيه، وأمّا الأمّ، فلأنها أحق بالتربية وهي أعلم بحال الصبي، وقرىء: «فإن أراد»، استرضع: منقول من أرضع، يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي، لتعديه إلى مفعولين، كما تقول: أنجح الحاجة، واستنجحته الحاجة والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه، كما تقول: استنجحت الحاجة ولا تذكر من استنجحته؛ وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأوّل، ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾: إلى المراضع، ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾: ما أردتم إيتاءه، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] وقرىء: «ما أتيتم»، من أتى إليه إحساناً إذا فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً، وروى شيبان عن عاصم: «ما أوتيتم»، أي: ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة، ونحوه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وليس التسليم بشرط للجواز والصحة، وإنما هو ندب إلى الأولى، ويجوز أن يكون بعثاً على أن يكون الشيء الذي تعطاه المرضع من أهنى ما يكون، لتكون طيبة النفس راضية، فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبي واحتياطاً في أمره، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد، كأنه قيل: إذا أدّيتم إليهن يداً

---

(١) قوله «واجعله الوارث منا» الرواية المشهورة: مني. (ع)

بيد ما أعطيتموهن، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلق بـ ﴿سَلَّمْتُم﴾، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه، ناطقين بالقول الجميل، مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾: على تقدير حذف المضاف، أراد: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، وقيل: معناه يتربصن بعدهم؛ كقولهم: السمن مَنَوَان بدرهم، وقرىء: «يتوفون» بفتح الياء[1]، أي: يستوفون آجالهم، وهي قراءة علي ـ رضي الله عنه ـ، والذي يحكى: أن أبا الأسود الدؤلي كان يمشي خلف جنازة، فقال له رجل: من المتوفي؟/ ٨٥ب ـ بكسر الفاء، فقال: الله تعالى، وكان أحد الأسباب الباعثة لعلي ـ رضي الله عنه ـ على أن أمره بأن يضع كتاباً في النحو، تناقضه هذه القراءة، ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾: يعتددن هذه المدّة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: عشراً ذهاباً إلى الليالي والأيام داخلة معها، ولا تراهم قط يستعملون التذكير فيه ذاهبين إلى الأيام. تقول: صمت عشراً[2]، ولو ذكرت خرجت من كلامهم، ومن البين فيه قوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣] ثم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤] ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: فإذا انقضت عدّتهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: أيها الأئمة وجماعة المسلمين، ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾: من التعرّض للخطاب، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي لا ينكره الشرع، والمعنى: أنهن لو فعلن ما هو منكر كان على الأئمة أن يكفوهن، وإن فرّطوا كان عليهم الجناح، ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾: هو أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوّج، وعسى الله أن

---

(١) قال محمود رحمه الله: «قرأها علي رضيَ الله عنه بفتح الياء... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ولعل السائل لأبي الأسود كان ممن يفهم عنه أنه لا فرق عنده بين الكسر والفتح وهو الظاهر، وعلى ذلك أجابه أبو الأسود، فلا تناقض حينئذٍ.

(٢) قال محمود رحمه الله: «تقول: صمت عشراً... إلخ» قال أحمد رحمه الله: ومنه «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر» فغلب الليالي أو كان الصوم غير متصور فيها حتى قالوا: إن شرطة النية وزمانها الليل، فلهذا جعل لها حظاً في الصوم وغلبها.

يسر لي امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أتزوجك، أو أخطبك، وروى ابن المبارك عن عبد الله بن سليمان عن خالته قالت: دخل عليَّ أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي، فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله ـ ﷺ ـ وحق جدّي عليّ وقدمي في الإسلام، فقلت: غفر الله لك! أتخطبني في عدّتي وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أوقد فعلت! إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ـ ﷺ ـ وموضعي، قد دخل رسول الله ـ ﷺ ـ على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير في يده من شدّة تحامله عليها، فما كانت تلك خطبة، (١٧٦) فإن قلت: أي: فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية: أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل، لطول القامة[(١)]، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض: أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا [من الطويل]:

.... وَحَسْبُكَ بِالتَّسلِيمِ مِنِّي تَقَاضِيَا[(٢)]

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى: التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده، ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه بألسنتكم لا معرّضين ولا مصرحين ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾: لا محالة ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهنّ ولا تصبرون عنه، وفيه طرف من التوبيخ، كقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، [البقرة: ١٨٧]، فإن قلت: أين المستدرك بقوله[(٣)]: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ﴾؟

---

١٧٦ ـ أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٢٤) كتاب النكاح حديث (١٨).
وقال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٣/ ٢٢٤) الحديث ذكره أيضاً ابن تيمية في المنتقى وعزاه إلى المصنّف، قال الشوكاني في «النيل»: هو منقطع لأن محمد بن علي هو الباقر ولم يدرك النبي ﷺ.
قال الحافظ: هكذا في كتاب النكاح لابن المبارك ورواه الدارقطني من رواية محمد بن الصلت عن عبد الرحمن بن سليمان ـ وهو ابن الغسيل ـ نحوه بتمامه. انتهى.

---

(١) قوله «لطول القامة» لعله: لطويل. (ع).
(٢) البيت لتوبة بن الحمير الخفاجي، نسب إليه في الحماسة البصرية ٢/ ١٧٧، وصدره:
أروح لتسليم عليك وأغتدي ....
وينظر: أنوار الربيع ٦/ ٦١، والتباين في علم المعاني ص ٢٧٦
(٣) قال محمود رحمه الله: «إن قلت أين المستدرك بقوله ولكن... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وقويت دلالة هذا المذكور على ما حذف، لأن المعتاد في مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقيبها. ونظير هذا النظم قوله تعالى ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ =

قلت: هو محذوف، لدلالة ستذكرونهنّ عليه، تقديره: علم الله أنكم ستذكرونهنّ فاذكروهنّ، ولكن لا تواعدوهنّ سرًا، والسر وقع كناية عن النكاح الذي هو الوطء، لأنه مما يسرّ، قال الأعشى [من الطويل]:

وَلاَ تَقْرَبَنْ مِنْ جَارَةٍ إِنَّ سِرَّهَا / ٨٦أعَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكِحَنْ أَوْ تَأَبَّدَا[١]

ثم عبر به عن النكاح الذي هو العقد؛ لأنه سبب فيه كما فعل بالنكاح، ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾: وهو أن تعرّضوا ولا تصرحوا، فإن قلت: بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت: بـ ﴿لَا تواعدوهنّ﴾، أي: لا تواعدوهنّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة. أي: لا تواعدوهنّ إلا بأن تقولوا، أي: لا تواعدوهنّ إلا بالتعريض، ولا يجوز أن يكون استثناءً منقطعاً من: ﴿سِرًّا﴾، لأدائه إلى قولك: لا تواعدوهنّ إلا التعريض[٢]، وقيل معناه: لا تواعدوهن جماعاً، وهو أن يقول لها إن نكحتك كان كيت وكيت، يريد ما

= الآية. ولهذا الحذف سر والله أعلم، وهو أنه اجتنب لأن الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً، بل اختصت بوجه واحد من وجوهه وذلك الوجه المباح عسر التميز عما لم يبح، فذكرت مستثناة بقوله ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾ تنبيهاً على أن المحل ضيق والأمر فيه عسر والأصل فيه الحظر، ولا كذلك الوطء في زمن ليل الصوم فإنه أبيح مطلقاً غير مقيد، فلذلك صدر الكلام بالإباحة والتوسعة، وجاء النهي عن مباشرة المعتكفة في المسجد تلواً للإباحة وتبعاً في الذكر، لأنها حالة فاذة والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم، ولكن الأمر يتعلق به من حيث المصاحب وهو الاعتكاف، فتفطن لهذا السر فإنه من غرائب النكت.

(١) ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة ... ولا تحسبن المال للمرء مخلدا
ولا تقربن من جارة إن سرها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا

للأعشى ميمون بن قيس. والبائس: الفقير المحتاج. والضرارة: العمى. وإسناد الإخلاد إلى المال مجاز، لأنه سببه على التوهُم، وتقرب ـ بفتح الراء ـ بمعنى نفعل، فمن زائدة. وجارة: مفعول، وبضمها بمعنى تدنو، فمن أصلية. وروى: ولا تقربن جارة ـ بتشديد النون ـ وعلى كل فهو كناية عن النهي عن الوطء. والسر: ضد الجهر، واستعمل هنا في الوطء مجازاً لأنه يقع فيه، أو لأنه مما يسر. والنكاح: عقد الزوجية. ويقال: أبد الوحشي أبوداً، وتأبد تأبداً: نفر عن الأنيس، وألفه هنا منقلبة عن نون التوكيد في الوقف، والمراد منه التباعد مجازاً، والمخاطب بذلك ليس معيناً. ونهاه عن الدنو منها لأنه أبلغ من نهيه عن وطئها، ثم قال: فتزوج أو اعتزل النساء كالوحش.
ينظر ديوانه (١٣٧)، اللسان (نكح)، الدر المصون ١/ ٥٤٠.

(٢) قال السمين الحلبي: ورَدَّ عليه الشيخ بأنَّ الاستثناءَ المنقطعَ ليس مِنْ شرطِهِ صِحَّةُ تسلُّطِ العاملِ عليه، بل هو على قسمين: قسم يَصِحُّ فيه ذلك، وفيه لغتان: لغةُ الحجازِ وجوبُ النصب مطلقاً نحو: «ما جاء أحدٌ إلا حماراً»، ولغةُ تميم إجراؤه مُجرى المتصلِ فيُجْرون فيه النصبَ والبدلية بشرطه، وقسم لا يَصِحُّ فيه ذلك نحو: «ما زادَ إلا ما نَقَصَ»، و «ما نفَعَ إلا ما ضر». وحكمُ هذا النصبُ عند العَربِ قاطبةً، فالقسمان يشتركان في التقديرِ بلكن عند البصريين. إلاَّ أنَّ أحدَهما يَصِحُّ تسلُّط العاملِ عليه في قولك: «ما جاء أَحدٌ إلا حمار» لو قلت: «ما جاء إلا حمارٌ» صَحَّ، بخلافِ القسمِ الثاني، فإنَّه لا يتوجَّه عليه العاملُ». انتهى. الدر المصون.

يجري بينهما تحت اللحاف، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً يعني من غير رفث ولا إفحاش في الكلام، وقيل: لا تواعدوهن سراً: أي: في السر على أنّ المواعدة في السرّ عبارة عن المواعدة بما يستهجن، لأن مسارّتهنّ في الغالب بما يستحيا من المجاهرة به، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، هو أن يتواثقا أن لا تتزوّج غيره، ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾: من عزم الأمر وعزم عليه، وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقدة النكاح في العدّة، لأن العزم على الفعل يتقدّمه، فإذا نهي عنه كان عن الفعل أنهى، ومعناه: ولا تعزموا عقد عُقدة النكاح، وقيل: معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح، وحقيقة العزم: القطع، بدليل قوله ـ عليه السلام ـ: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» ورُوي «لمن لم يبيت الصيام» ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ﴾: يعني ما كتب وما فرض من العدّة، ﴿يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: من العزم على ما لا يجوز، (١٧٧) ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾: ولا

---

١٧٧ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٨٢٣، ٨٢٤): كتاب الصوم: باب النية في الصّيام: حديث (٢٤٥٤)، والترمذي (٢/ ١١٦، ١١٧): كتاب الصوم: باب ما جاء لا صيام لمن لم يعزم من الليل حديث (٧٢٦)، والنسائي (٤/ ١٩٦، ١٩٧): كتاب الصيام: باب ذكر اختلاف الناقلين لخبر حفصة في ذلك وابن ماجه (١/ ٥٤٢): كتاب الصيام: باب ما جاء في فرض الصوم من الليل، والخيار في الصوم، حديث (١٧٠٠)، وأحمد (٦/ ٢٨٧)، والدارمي (٢/ ٦، ٧): كتاب الصوم: باب من لم يجمع الصيام من الليل، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٥٤): كتاب الصيام: باب الرجل ينوي الصيام بعدما يطلع الفجر. والدارقطني (٢/ ١٧٢): كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل وغيره، حديث (٢، ٣، ٤)، والبيهقي (٤/ ٢٠٢): كتاب الصيام: باب الدخول في الصوم بالنية، والخطيب (٣/ ٩٢، ٩٣).

من طريق عبد الله بن عمر عن حفصة أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من لم يبيّت الصيام من الليل فلا صيام له» واللفظ للنسائي ولفظ أبي داود والترمذي: «من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له».

وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلاّ من هذا الوجه وقد رُوي عن نافع عن ابن عمر قوله: وهو أصح.

قال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٢/ ١٨٨).

واختلف الأئمة في رفعه ووقفه فقال ابن أبي حاتم عن أبيه لا أدري أيهما أصح يعني رواية يحيى بن أيوب عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن سالم ورواية إسحاق بن حازم عن عبد الله بن أبي بكر عن سالم بغير وساطة الزهري لكن الوقف أشبه وقال أبو داود: لا يصح رفعه، وقال الترمذي: الموقوف أصح، ونقل في «العلل» عن البخاري أنه قال: هو خطأ وهو حديث فيه اضطراب والصحيح عن ابن عمر موقوف، وقال النسائي الصواب عندي موقوف ولم يصح رفعه وقال أحمد: ما له عندي ذلك الإسناد وقال الحاكم في الأربعين صحيح على شرط الشيخين وقال في المستدرك: صحيح على شرط البخاري، وقال البيهقي: رواته ثقات إلاّ أنه رُوي موقوفاً، وقال الخطابي أسنده عبد الله بن أبي بكر وزيادة الثقة مقبولة، وقال ابن حزم: الاختلاف فيه يزيد الخبر قوة، وقال الدارقطني: كلّهم ثقات. =

تعزموا عليه، ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: لا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: لا تبعة عليكم من إيجاب مهر، ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: ما لم تجامعوهن، ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو حتى تفرضوا، وفرض الفريضة: تسمية المهر، وذلك أن المطلقة غير المدخول بها إن سمى لها مهر فلها نصف المسمى، وإن لم يسم لها فليس لها نصف مهر المثل، ولكن المتعة، والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾: إلى قوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فقوله: فنصف ما فرضتم: إثبات للجناح المنفي ثمة، والمتعة: درع، وملحفة، وخمار، على حسب الحال عند أبي حنيفة، إلا أن يكون مهر مثلها أقل من ذلك، فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة، ولا ينقص من خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها، و﴿ٱلْمُوسِعِ﴾: الذي له سعة، و﴿ٱلْمُقْتِرِ﴾: الضيق الحال، و﴿قَدَرُهُۥ﴾: مقداره الذي يطيقه، لأنّ ما يطيقه هو الذي يختص به، وقرىء بفتح الدال، والقدْر والقدَر لغتان، وعن النبي - ﷺ -. أنه قال لرجل من الأنصار تزوج امرأة ولم يسم لها مهراً، ثم طلقها قبل أنْ يمسها: «أمتعتها»؟ قال: لم يكن عندي شيء، قال: «متعها بقلنسوتك»،

= وفي الباب عن عائشة:
أخرجه الدارقطني (٢/ ١٧١ ـ ١٧٢) كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل والبيهقي (٤/ ٢٠٣) كتاب الصيام: باب الدخول في الصوم بالنية.
قال الحافظ في «التلخيص» (٢/ ١٨٩). وفيه عبد الله بن عباد وهو مجهول وقد ذكره ابن حبان في الضعفاء.
وفي الباب أيضاً عن ميمونة بنت سعد.
أخرجه الدارقطني (٢/ ١٧٣) كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل، بلفظ من أجمع الصوم من الليل فليصم ومن أصبح ولم يجمعه فلا يصم.
وفيه محمد بن عمر الواقدي وهو متروك.
قال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن من حديث حفصة بلفظ «المن لم يجمع» وقوله: ورُوي «المن لم يبيت» هي عند النسائي. انتهى.

(١٧٨) وعند أصحابنا: لا تجب المتعة إلا لهذه وحدها، وتستحب لسائر المطلقات ولا تجب، ﴿مَتَٰعًا﴾: تأكيد/ ٨٦ب لـ ﴿متعوهن﴾، بمعنى تمتيعاً، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة، ﴿حَقًّا﴾: صفة لمتاعاً، أي: متاعاً واجباً عليهم، أو حق ذلك حقاً، ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتيع، وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال ـ ﷺ ـ. «من قتل قتيلاً فله سلبه». (١٧٩) ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾: يريد المطلقات، فإن قلت: أي: فرق بين قولك: الرجال يعفون، والنساء يعفون؟ قلت: الواو في الأوّل ضميرهم، والنون علم الرفع، والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهنّ، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل وهو في محل النصب، ويعفو: عطف على محله، و﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: الوليّ[1]، يعني: إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا

----

١٧٨ ـ بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٥١) وقال الحافظ: لم أجده. انتهى.
وينظر تفسير القرطبي (٣/ ٢٠٢).
١٧٩ ـ تقدم تخريج برقم (١٦).

---

(١) قال محمود رحمه الله: «والذي بيده عقدة النكاح الولي... إلخ» قال أحمد رحمه الله: هذا النقل وهم فيه الزمخشري عن الشافعي رضيَ الله عنه، فإن مذهبه موافق لمذهب أبي حنيفة رضيَ الله عنه في أن المراد به الزوج. وإنما ذهب إلى أن المراد الولي الإمام مالك رضيَ الله عنه، وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه:
الأول: أن الذي بيده عقدة النكاح ثابتة مستقرة هو الولي. وأما الزوج فله ذلك العقد المتقدم خاصة، ثم هو بعد الطلاق، والكلام حينئذٍ ليس من عقدة النكاح في شيء البتة، فإن قيل: أطلق عليه ذلك بعد الطلاق بتأويل «كان» مقدرة، فلا يخفى على المنصف ما في ذلك من البعد والخروج من حد إطلاق الكلام وأصله.
الثاني: أن الخطاب الأول للزوجات اتفاقاً بقوله ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ وفيهن من لا عفو لها البتة كالأمة والبكر، فلولا استتمام التقسيم بصرف الثاني إلى الولي على ابنته البكر أو أمته، وإلا لزم الخروج عن ظاهر عموم الأول، وحيث حمل الكلام على الولي صار الكلام بمعنى: إلا أن يعفون إن كن أهلاً للعفو، أو يعفو لهن إن لم يكن أهلاً، ولهذا كان الولي الذي يعفو ويعتبر عفوه عند مالك: هو الأب في ابنته البكر، والسيد في أمته خاصه.
الثالث: أن الكتاب العزيز جدير بتناسب الأقسام وانتظام أطراف الكلام، والأمر فيه على هذا المحمل بهذه المثابة، فإن الآية حينئذٍ مشتملة على خطاب الزوجات ثم الأولياء ثم الأزواج بقوله ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فتكون على هذا الوجه مليئة بالفوائد جامعة للمقاصد.
الرابع: أن المضاف إلى صاحب عقدة النكاح العفو كما هو مضاف إلى الزوجات، والعفو: الإسقاط لغة وهو المراد في الأول اتفاقاً، إذ المضاف إلى الزوجات هو الإسقاط بلا ريب، ولو كان المراد بصاحب العقدة الزوج لتعين حمل العفو على تكميل المهر وإعطائه ما لا يستحق عليه، وهذا إنما يطابقه من الأسماء التفضُل. ومن ثم قال في خطاب الأزواج ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ لأن المبذول من جهته غير مستحق عليه فهو فضل لا عفو. ولا يقال: لعل الزوج تعجَّل المهر كاملاً =

يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني ولا خدمته ولا استمتع بي فكيف آخذ منه شيئاً، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي، وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأوّل ظاهر الصحة، وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر، إلا أن يُقال: كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوّج، فإذا طلقها، استحقّ أن يطالبها بنصف ما ساق إليها، فإذا ترك المطالبة، فقد عفا عنها، أو سماه عفواً على طريق المشاكلة، وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة، وطلقها قبل أن يدخل بها، فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو، (١٨٠) وعنه: أنه دخل على سعد بن أبي وقاص، فعرض عليه بنتاً له فتزوّجها، فلما خرج، طلقها وبعث إليها بالصداق كاملاً، فقيل له: لم تزوّجتها؟ فقال: عرضها عليّ فكرهت ردّه، قيل: فلم بعثت بالصداق؟ قال: فأين الفضل؟ (١٨١) و﴿ٱلْفَضْلِ﴾: التفضل، أي: ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمرؤا ولا تستقصوا، وقرأ الحسن «أن يعفو الذي، بسكون

---

١٨٠ ـ أخرجه الطبري (٥/ ١٥٢) رقم (٥٣٢٢ ـ ٥٣٢٣) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٥١).
كتاب النكاح: باب من قال عفو المهر وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٢٢) وعزاه إلى الشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي.

١٨١ ـ أخرجه الطبري (٥/ ١٦٥) رقم (٥٣٦٤) من طريق سعيد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنه دخل على سعد بن أبي وقاص... فذكره.
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه الطبري من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد بن محمد بن جبير عن جده جبير بن مطعم به سواء. انتهى.

= قبل الطلاق وطلق فيجب استرجاع النصف فيسقطه ويعفو عنه، وحينئذٍ يبقى العفو من جانب الزوج على ظاهره وحقيقته، لأنا نقول: حسبنا في رد هذا الوجه ما فيه من الكلفة وتقدير ما الأصل خلافه.

الخامس: أن صدر الآية خطاب للأزواج في قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿فَرَضْتُمْ﴾ فلو جاء قوله ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ مراداً به الزوج لكان عدولاً والتفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، وليس هذا من مواضعه، ولأجل هذا جاء قوله ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ على صيغة الخطاب، لأن المراد به الأزواج لخطابهم أولاً.

السادس: أن قوله ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ وما عطف عليه استثناء من قوله ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ وأصل الكلام: فنصف ما فرضتم واجب عليكم إلا أن يعفو عنه الزوجات فليس بواجب عليكم إذاً، فإذا حمل الكلام على الولي استقام، إذ هم لو كملوا المهر لهن فالنصف واجب عليهم ولا يتغير ولا يخالف الحالة المستثناة مما وقع منه الاستثناء، فلا يجري الاستثناء على حقيقته في المخالفة بين الأول والثاني، إلا أن يقال: مقتضى قوله ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ واجب عليكم: أن النصف الآخر غير مؤدى إليهن لأنه ساقط عن الزوج، فإذا عفا بمعنى كمل المهر فقد صار النصف الآخر مؤدى إليهن، ففي هذا التأويل من الكلفة ما يسقط مؤنة رده.

الواو، وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيهاً لهما بالألف، تشبيهٌ لأنهما أختاها، وقرأ أبو نُهيك: «وأن يعفو»، بالياء، وقرىء: «ولا تنسو الفضل»، بكسر الواو.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾: أي الوسطى بين الصلوات، أو الفضلى، من قولهم للأفضل: الأوسط، وإنما أفردت وعطفت على الصلاة[1]، لانفرادها بالفضل وهي صلاة العصر، وعن النبيّ - ﷺ - أنه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً» (١٨٢) وقال - عليه الصلاة والسلام -: «إنها الصلاة التي شغل عنها

---

١٨٢ - أخرجه أحمد (٣/ ٢٥) والنسائي (٢/ ١٧) كتاب الأذان: باب الأذان للفائت من الصلوات، والطيالسي (١/ ٧٨ - منحة) رقم (٣٢٣) والدارمي (١/ ٣٥٨) كتاب الصلاة: باب الحبس عن الصلاة والشافعي في «الأم» (١/ ٨٦) وأبو يعلى (٢/ ٤٧١) رقم (١٢٩٦) وابن خزيمة (٢/ ٩٩) رقم (٩٩٦) وابن حبان (٢٨٥ - موارد) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٢١) كتاب الصلاة، والبيهقي (١/ ٤٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري قال: حبسنا يوم الخندق عن الصلاة حتى كان بعد المغرب بهوى من الليل كفينا وذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قال: فدعا رسول الله - ﷺ - بلالاً فأقام الظهر فأحسن صلاتها كما كان يصلّيها في وقتها ثم أمره فأقام العصر فصلاّها فأحسن صلاتها كما كان يصلّيها في وقتها ثم أمره فأقام المغرب فصلاها كذلك قال: وذلك قبل أن ينزل الله عز وجل في صلاة الخوف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾...

والحديث صحّحه ابن خزيمة وابن حبّان وصحّحه ابن السّكن كما في «نيل الأوطار» (٢/ ٣٤) وقال الشوكاني: رجال إسناده رجال الصحيح...

وفي الباب عن ابن مسعود وجابر.

- **حديث ابن مسعود:**

أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥)، والترمذي (١/ ١١٥): كتاب الصلاة: باب الرجل تفوته الصّلوات، الحديث (١٧٩)، (١/ ١٧): كتاب الأذان: باب الإجتزاء للفائت من الصلوات بأذان واحد، والبيهقي (١/ ٤٠٣): كتاب الصّلاة: باب الأذان والإقامة للجمع بين الصّلوات الفائتات، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن المشركين شغلوا رسول الله - ﷺ - عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء، فأمر بلالاً فأذّن ثم أقام فصلّى الظهر، ثم أقام فصلّى العصر ثم أقام فصلّى المغرب ثم أقام فصلّى العشاء.

وقال الترمذي: حديث عبد الله ليس بإسناده بأس إلاّ أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله. ا.هـ.

وللحديث طريق آخر عن ابن مسعود أيضاً.

أخرجه أبو يعلى (٥/ ٣٩) رقم (٢٦٢٨) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن زبيد الأيامي عن أبي عبد الرحمن السّلمي عن عبد الله بن مسعود به قال: شغل المشركون رسول الله - ﷺ - عن الصّلوات: =

---

(١) قوله «وعطفت على الصلاة» لعله: على الصلوات. (ع)

سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب» (١٨٣) وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤها، فأملت عليه: والصلاة الوسطى صلاة العصر (١٨٤)، وروي/٨٧أ عن عائشة

= الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهب ساعة من الليل ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بلالاً فأذّن وأقام ثم صلّى الظهر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العصر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى المغرب ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العشاء.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٧) وقال: رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن أبي أنيسة وهو ضعيف عند أهل الحديث إلاّ أن ابن عديّ قال: وهو مع ضعفه يُكتب حديثه. ا.هـ.
ويحيى روى له الترمذي وقال الحافظ في «التقريب» (٢/٣٤٣). ضعيف.
ـ حديث جابر:
أخرجه البزار (١/١٨٥ ـ كشف) رقم (٣٦٥) من طريق مؤمل بن إسماعيل ثنا حمّاد بن سلمة عن عبد الكريم بن أبي المخارق عن مجاهد عن جابر بنحو حديث ابن مسعود وقال في آخره: ما على وجه الأرض قوم يذكرون الله غيركم.
وقال البزار: لا نعلم رواه بهذا الإسناد إلاّ مؤمل ولا نعلمه يروي عن جابر بهذا اللفظ إلاّ من هذا الوجه.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٧) وقال: رواه البزّار والطبراني في الأوسط وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق وهو ضعيف. ا.هـ.
وفيه أيضاً مؤمل بن إسماعيل.
قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: في حديثه خطأ كثير.
وقال الذهبي: صدوق مشهور وثّق.
وقال الحافظ: صدوق سيّء الحفظ.
ينظر المغني (٢/٦٨٩)، والتقريب (٢/ ٢٩٠).
قال الحافظ: أخرجه مسلم من رواية شتير بن شكل عن علي به. والحديث في الكتب الستة، إلاّ أن قوله «صلاة العصر» عند مسلم وحده. وأخرجه البخاري في المغازي والجهاد والتفسير وفي الباب عن ابن مسعود رفعه «الصلاة الوسطى صلاة العصر» أخرجه الترمذي. وعنده عن سمرة نحوه. انتهى.

١٨٣ ـ أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٥/٥٤٣) من طريق مقاتل بن سليمان عن أبي إسحاق السَّبِيعي عن الحارث الأعور عن علي مرفوعاً.
قال الحافظ: وفي إسناده مقاتل بن سليمان وهو ساقط، وأخرجه ابن أبي شيبة (١/٢٤٥) رقم (٨٦١١) عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفاً ورجّح الحافظ صوابه عن المرفوع.
قال الحافظ: أخرجه ابن عديّ في الكامل عن علي مرفوعاً. قال «صلاة الوسطى صلاة العصر التي غفل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب» وفي إسناده مقاتل بن سليمان. وهو ساقط، ورواه ابن أبي شيبة من رواية أبي إسحاق عن الحارث ابن علي مرفوعاً، وهو أشبه بالصّواب. وفي الباب عن ابن عباس موقوفاً عند الطبري. انتهى.

١٨٤ ـ أخرجه مالك (١/١٣٩): كتاب صلاة الجماعة: باب الصّلاة الوسطى، حديث (٢٦) وابن حبان =

(١٨٥) وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: والصلاة الوسطى، وصلاة العصر (١٨٦)؛

= (٥/ ٣٨٩)، حديث (١٧٢٢) والبيهقي في سننه (١/ ٤٦٢): كتاب الصلاة: باب من قال هي الصبح، وأبو يعلى (١٣/ ٥٠)، حديث (٧١٢٩) والطبري في تفسيره (٥/ ٢٠٩)، حديث (٥٤٦٢)، وعبد الرزاق في مصنّفه (١/ ٥٧٨)، حديث (٢٢٠٢) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣/ ٣٠٨)، حديث (٣٥٥٠) وعزاه لأبي يعلى وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٣٧) وزاد نسبته إلى أبي عبيد وعبد بن حميد وابن الأنباري عن عمرو بن رافع قال كنت أكتب مصحفاً لحفصة. وأخرجه عبد الله بن أبي داود في المصاحف، ص (٩٦، ٩٧).

قال الحافظ: أخرجه الطبري من طريق أبي بشر عن سالم عن حفصة أنها أمرت رجلاً فكتب لها مصحفاً. فقالت: إذا بلغت هذا المكان فأعلمني. فلما بلغ ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ قالت: اكتب: صلاة العصر. وفي رواية له: فقالت له اكتب فإنّي سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى هي صلاة العصر» هكذا عند الطبري. والمشهور عن حفصة أنّها أملت على الكاتب: حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى صلاة العصر. كذلك رواه مالك في الموطّأ عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع أنه قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة فذكره. ورواه ابن حبّان من رواية ابن إسحاق: حدثني أبو جعفر محمد بن علي ونافع بن عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب حدّثهما أنه كان يكتب المصاحف في عهد أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فاستكتبتني حفصة مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية من هذه السورة ـ البقرة ـ فلا تكتبها حتى تأتيني بها فأمليها عليك كما حفظتها من رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فلمّا بلغتها جئتها بالورقة التي أكتبها: فقالت لي: اكتب حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وصلاة العصر. ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى والطحاوي. ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن نافع عن حفصة نحوه وكذا رواه الطبري من طريق عبد الله بن عمر عن نافع: أنّ حفصة أمرت مولىً لها: وأخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف من نحو عشرين طريقاً فيها كلّها وصلاة العصر بالواو. انتهى.

١٨٥ ـ أخرجه مالك (١/ ١٣٨، ١٣٩): كتاب صلاة الجماعة: باب الصّلاة الوسطى، حديث (٢٥)، ومسلم (٣/ ١٣٨ نووي): كتاب المساجد: باب الصّلاة الوسطى حديث (٢٠٧/ ٦٢٩)، وأبو داود (١/ ١١٢): كتاب الصّلاة: باب وقت صلاة العصر، حديث (٤١٠)، والترمذي (٥/ ٢١٧): كتاب التفسير: باب من سورة البقرة حديث (٢٩٨٢)، والنّسائي (١/ ٢٣٦): كتاب الصّلاة: باب المحافظة على صلاة العصر، حديث (٤٧٢)، والبيهقي (١/ ٤٦٢) الصّلاة: باب من قال هي الصّبح.

وعبد الله بن أبي داود في «المصاحف» ص (٩٤، ٩٥).

قال الحافظ: أما عائشة فروى مسلم من طريق أبي يونس مولى عائشة قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت إذا بلغت هذه الآية فآذني. فلمّا بلغتها آذنتها فأملت عليّ: حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وصلاة العصر وقالت سمعتها من رسول الله ـ ﷺ ـ وكذا أخرجه أبو داود والترمذي والنّسائي ومالك والشافعي وأحمد من هذا الوجه. وأما ابن عباس فرواه الطبري وابن أبي داود في المصاحف من رواية أبي إسحاق عمر بن مريم عن ابن عباس «أنه كان يقرؤها كذلك». انتهى.

١٨٦ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٢١٣)، حديث (٥٤٦٨) وعبد الله بن أبي داود، في كتاب المصاحف ص (٨٧).

بالواو، فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين: إحداهما الصلاة الوسطى، إمّا الظهر، وإمّا الفجر وإمّا المغرب، على اختلاف الروايات فيها، والثانية: العصر، وقيل: فضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: هي صلاة الظهر (١٨٧)، لأنها في وسط النهار، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يصليها بالهاجرة، ولم تكن صلاة أشدّ على أصحابه منها، وعن مجاهد: هي الفجر (١٨٨)، لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل، وعن قبيصة بن ذؤيب: هي المغرب (١٨٩)، لأنها وتر النهار ولا تنقص في السفر من الثلاث، وقرأ عبد الله: «وعلىٰ الصلاة الوسطى»، وقرأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «والصلاة الوسطى» بالنصب على المدح والاختصاص، وقرأ نافع: «الوصطى»، بالصاد ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾: في الصلاة، ﴿قَـٰنِتِينَ﴾: ذاكرين لله في قيامكم، والقنوت: أن تذكر الله قائماً، وعن عكرمة: كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا، وعن مجاهد: هو الركود، وكف الأيدي، والبصر، ورُوي: أنهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمٰن أن يمدّ بصره أو يلتفت، أو يقلب الحصا، أو يحدّث نفسه بشيء من أمور الدنيا، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾: فإن كان بكم خوف من عدو أو غيره، ﴿فَرِجَالًا﴾: فصلوا راجلين، وهو جمع راجل كقائم وقيام، أو رجل، يقال: رجل رجل، أي: راجل، وقرىء: «فرجالا»، بضم الراء، «ورجالاً» بالتشديد «ورجلاً»، وعند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: لا يصلون في حال المشي والمسايفة ما لم يمكن الوقوف، وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: يصلون في كل حال، والراكب يومىء ويسقط عنه التوجه إلى القبلة، ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾: فإذا زال خوفكم، ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: من صلاة الأمن، أو فإذا أمنتم فاشكروا الله على الأمن، واذكروه بالعبادة، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع، وكيف تصلون في حال الخوف وفي حال الأمن.

---

١٨٧ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٠١، ٢٠٢) حديث (٥٤٥١)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٣٦) وعزاه للبيهقي وابن عساكر.
وقال ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية أبي عقيل زهرة بن معبد أن سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير وإبراهيم بن طلحة سألوا ابن عمر عن الصلاة الوسطى. فقال: هي الظهر. انتهى.

١٨٨ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٢١٩)، حديث (٥٤٨٧).

١٨٩ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٢١٤)، حديث (٥٤٧١) من طريق إسحاق عن رجل عن قبيصة به وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٤٢) وعزاه لابن جرير الطبري عن قبيصة بن ذؤيب.
قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية إسحاق بن أبي فروة عن رجل عن قبيصة بن ذؤيب قال: الصّلاة الوسطى صلاة المغرب ألا ترى أنها ليست بأقلّها ولا أكثرها ولا تقصر في السفر؟ وإسحاق متروك وشيخه مجهول. انتهى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

تقديره: فيمن قرأ وصية بالرفع، ووصية الذين يتوفون، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم، أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم، وفيمن قرأ بالنصب: والذين يتوفون يوصون وصية، كقولك: إنما أنت سير البريد، بإضمار تسير، أو وألزم الذين يتوفون وصية، وتدل عليه قراءة عبد الله: «كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول»، مكان قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾، وقرأ أبيّ: «متاع لأزواجهم متاعاً»، ورُوي عنه: «فمتاع لأزواجهم»، ومتاعاً نصب بالوصية، إلا إذا أضمرت يوصون، فإنه نصب بالفعل، وعلى قراءة أبيّ متاعاً نصب بمتاع، لأنه في معنى التمتيع؛ كقولك: الحمد لله حمد الشاكرين، وأعجبني ضرب لك زيداً ضرباً شديداً، و﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: مصدر مؤكد، كقولك: هذا القول غير ما تقول، أو بدل من متاعاً، أو حال من الأزواج، أي: غير مخرجات، والمعنى: أن حق الذين يتوفون/ ٨٧ب عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً، أي: ينفق عليهنّ من تركته ولا يخرجن من مساكنهن، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقيل: نسخ ما زاد منه على هذا المقدار، ونسخت النفقة بالإرث الذي هو الربع والثمن، واختلف في السكنى، فعند أبي حنيفة وأصحابه: لا سكنى لهن، ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾: من التزين والتعرض للخطاب، ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾: مما ليس بمنكر شرعاً، فإن قلت: كيف نسخت الآية المتقدمةُ المتأخرةَ؟ قلت: قد تكون الآية متقدّمة في التلاوة وهي متأخرة في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٤٢] مع قوله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ﴾: عم المطلقات بإيجاب المتعة لهن بعد ما أوجبها لواحدة منهن وهي المطلقة غير المدخول بها، وقال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، كما قال ثمة: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وعن سعيد بن جبير وأبي العالية والزهري: أنها واجبة لكل مطلقة، وقيل: قد تناولت التمتيع الواجب والمستحب جميعاً، وقيل: المراد بالمتاع نفقة العدة.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟

ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب به من لم يَرَ ولم يسمع، لأنّ هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب، روي: أنّ أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفرّ من حكم الله وقضائه، وقيل مرّ عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقه وأصابعه، تعجباً مما رأى، فأوحى إليه: ناد فيهم أن قوموا بإذن الله، فنادى، فنظر إليهم قياماً يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت (١٩٠)، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذراً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم، ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾، فيه دليل على الألوف الكثيرة، واختلف في ذلك، فقيل: عشرة، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعون، ومن بدع التفاسير، ﴿أُلُوفٌ﴾: متآلفون، جمع آلف كقاعد وقعود، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾؟ قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأنّ الموت إذا لم يكن منه بدٌّ ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله، ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: حيث يبصرهم ما يعتبرون به ويستبصرون، كما بصر أولئك، وكما بصركم باقتصاص خبرهم، أو لذو فضل على الناس/٨٨أ حيث أحيى أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث، والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد: ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون، ﴿عَلِيمٌ﴾: بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

إقراض الله: مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه، والقرض الحسن: إما المجاهدة

---

١٩٠ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٢٧٠) رقم (٥٦٠٢، ٥٦٠٣) من طريق أسباط عن السّدي عن أبي مالك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٥١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

في نفسها، وإما النفقة في سبيل الله، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: قيل: الواحد بسبعمائة، وعن السدي: كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله، ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾: يوسع على عباده ويقتر، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فيجازيكم على ما قدّمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

﴿لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾: هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل، ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾: أنهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره، طلبوا من نبيهم نحو ما كان يفعل رسول الله ـ ﷺ ـ من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها، ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره، ورُوي أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم، ﴿نُّقَٰتِلْ﴾: قرىء بالنون والجزم على الجواب، وبالنون والرفع على أنه حال، أي: ابعثه لنا مقدّرين القتال، أو استئناف كأنه قال لهم: ما تصنعون بالملك؟ فقالوا: نقاتل، وقرىء: «يقاتل» بالياء والجزم على الجواب، وبالرفع على أنه صفة لـ ﴿ملكا﴾، وخبر «عسيتم»، ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾: والشرط فاصل بينهما، والمعنى: هل قاربتم أن لا تقاتلوا؟ يعني: هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول: عسيتم أن لا تقاتلوا، بمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال، فأدخل هل مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير، وتثبيت أنّ المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه[1]، كقوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان﴾ [الإنسان: ١] معناه: التقرير، وقرىء «عسيتم» بكسر السين وهي ضعيفة، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾: وأيّ داع لنا إلى ترك القتال، وأي: غرض لنا فيه، ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾: وذلك أنّ قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: قيل كان القليل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: وعيد لهم على ظلمهم في القعود عن القتال وترك الجهاد.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ

---

(١) قوله «وأنه صائب في توقعه» في الصحاح: صاب السهم القرطاس يصيبه، لغة في أصابه. (ع)

﴿عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

﴿طَالُوتَ﴾: اسم أعجمي كجالوت وداود، وإنما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته، وزعموا أنه من الطوال لما وصف به من البسطة في الجسم، ووزنه إن كان من الطول «فعلوت» منه، أصله طولوت، إلا أنّ امتناع صرفه يدفع أن يكون منه، إلا أن يقال: هو اسم عبراني وافق عربياً، كما وافق حنطاء حنطة، وبشمالا لها رحمانا رحيماً بسم الله الرحمٰن الرحيم، فهو من الطول كما لو كان عربياً، وكان أحد سببيه العجمة، لكونه عبرانياً، ﴿أَنَّى﴾/٨٨ب كيف ومن أين، وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له، فإن قلت: ما الفرق بين الواوين في: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾؟[1] قلت: الأولى للحال، والثانية: لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالاً، قد انتظمتهما معاً في حكم واو الحال، والمعنى: كيف يتملك علينا، والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بدّ للملك من مال يعتضد به، وإنما قالوا ذلك لأنّ النبوّة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد السبطين، ولأنه كان رجلاً سقاء أو دباغاً فقيراً، ورُوي: أنّ نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت (١٩١)، ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾: يريد أنّ الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكم الله، ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال، وهما العلم المبسوط والجسامة، والظاهر أنّ المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب، ويجوز أن يكون عالماً بالديانات وبغيرها، وقيل: قد أوحي إليه ونبيء، وذلك أنّ الملك لا بدّ أن يكون من أهل العلم، فإنّ الجاهل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيماً يملأ العين جهارة؛ لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب، والبسطة: السعة والامتداد، ورُوي أن الرجل القائم كان يمدّ يده فينال رأسه، ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾: أي الملك له غير منازع فيه، فهو يؤتيه من يشاء: من يستصلحه للملك، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: الفضل والعطاء،

---

١٩١ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/٣١٣) حديث (٥٦٥٢) عن السّدي.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت ما الفرق بين الواوين. . . إلخ»، قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا أن الواو الأولى أفادت جملتها الحالية بنفسها وأفادت الجملة الثانية الحالية أيضاً لكن بواسطة الواو العاطفة. وهذا النظر من السهل الممتنع.

يوسع على من ليس له سعة من المال ويغنيه بعد الفقر، ﴿عَلِيمٌ﴾: بمن يصطفيه للملك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

﴿ٱلتَّابُوتُ﴾: صندوق التوراة، وكان موسى ـ عليه السلام ـ إذا قاتل، قدّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرّون، والسكينة: السكون والطمأنينة، وقيل: هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كرأس الهرّ وذنب كذنبه وجناحان، فتئن فيزف التابوت نحو العدوّ وهم يمضون معه، فإذا استقرّ، ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة (١٩٢)، ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾: هي رضاض الألواح وعصى موسى وثيابه وشيء من التوراة، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى ـ عليه السلام ـ فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفاء الله طالوت، وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار فكان في أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملّك طالوت أصابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن، فقالوا: هذا بسبب التابوت بين أظهرنا، فوضعوه على ثورين، فساقهما الملائكة إلى طالوت، وقيل كان من خشب الشمشار مموّها بالذهب، نحواً من ثلاثة أذرع/ ٨٩أ في ذراعين، وقرأ أبيّ وزيد بن ثابت: «التابوه» بالهاء وهي لغة الأنصار، فإن قلت: ماوزن التابوت؟ قلت: لا يخلو من أن يكون فعلوتا[1] أو فاعولاً، فلا يكون: «فاعولا» لقلته، نحو: سلس وقلق، ولأنه تركيب غير معروف فلا يجوز ترك المعروف إليه، فهو إذاً «فعلوت»: من التوب، وهو الرجوع؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه، وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته، وأمّا من قرأ بالهاء فهو «فاعول» عنده، إلا فيمن جعل هاءه بدلاً من التاء،

---

١٩٢ ـ أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ص (١٠٠ ـ ١٠١) والطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٢٦) رقم (٥٦٦٦) والحاكم (٢/ ٤٦٠) من طريق سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن علي به.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٦٢) وزاد نسبته إلى أبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «وزن التابوت فعلوت... إلخ» قال أحمد رحمه الله: يريد لأن الفاء تاء واللام كذلك، والعرب تستثقل ما فاؤه ولامه حرف واحد لأنه توأم للتكرار.

لاجتماعهما في الهمس وأنهما من حروف الزيادة، ولذلك أبدلت من تاء التأنيث، وقرأ أبو السمال: «سَكِّينة»، بفتح السين والتشديد وهو غريب، وقرىء: «يحمله»، بالياء، فإن قلت: مَن ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾؟ قلت: الأنبياء من بني يعقوب بعدهما، لأن عمران هو ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب، فكان أولاد يعقوب آلهما، ويجوز أن يراد: مما تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾

﴿فَصَلَ﴾: عن موضع كذا، إذا انفصل عنه وجاوزه، وأصله: فصل نفسه، ثم كثر محذوف المفعول، حتى صار في حكم غير المتعدي كانفصل، وقيل: فصل عن البلد فصولاً، ويجوزأن يكون: فصله فصلاً، وفصل فصولاً كوقف وصدّ ونحوهما، والمعنى: انفصل عن بلده، ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾: رُوي أنه قال لقومه: لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه، ولا تاجر مشتغل بالتجارة، ولا رجل متزوّج بامرأة لم يبن عليها، ولا أبتغي إلا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيظاً، وسلكوا مفازة، فسألوا أن يجري الله لهم نهراً، فـ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾: بما اقترحتموه من النهر، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾: فمن ابتدأ شربه من النهر بأن كرع فيه، ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾: فليس بمتصل بي ومتحد معي، من قولهم: فلان مني، كأنه بعضه؛ لاختلاطهما واتحادهما، ويجوز أن يراد فليس من جملتي وأشياعي، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾: ومن لم يذقه، من طعم الشيء، إذا ذاقه، ومنه طِعم الشيء، لمذاقه؛ قال [من الطويل]:

.... وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نَقَاخاً(1) وَلاَ بَرْدَا(2)

---

(1) قوله «لم أطعم نقاخاً» هو الماء العذب الذي ينقخ الفؤاد ببرده. والنقخ: النقف. وهو كسر الرأس عن الدماغ. (ع)

(2) فإن شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً
للعرجي. وتاء شئت يحتمل أنها للمتكلم، وأنها للمخاطبة وهو أبلغ. وخاطب الواحدة بلفظ جمع المذكر تعظيماً. ولم أطعم: أي لم أتناول. والنقاخ ـ بالقاف والخاء المعجمة ـ: الماء العذب البارد. والبرد: النوم، وعن بعض العرب: منع البرد البرد، وهو من باب الجناس التام، والعرجي: =

ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم، ويقال: ما ذقت غماضاً، ونحوه من الابتلاء: ما ابتلى الله به أهل أيلة من ترك الصيد مع إتيان الحيتان شرَّعاً، بل هو أشد منه وأصعب، وإنما عرف ذلك طالوت بإخبار من النبي، وإن كان نبياً ـ كما يروي عن بعضهم ـ فبالوحي، وقرىء «بنهر» بالسكون، فإن قلت: ممَّ استثنى قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ﴾؟ قلت: من قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾[1]، والجملة الثانية في حكم المتأخرة، إلا أنها قدّمت للعناية كما قدم، ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد/ ٨٩ب دون الكروع، والدليل عليه قوله: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أي: فكرعوا فيه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: وقرىء: «غَرفة» بالفتح بمعنى المصدر، وبالضم بمعنى المغروف، وقرأ أبيّ والأعمش: «إلا قليل»، بالرفع، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً، وهو باب جليل من علم العربية، فلما كان معنى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ في معنى فلم يطيعوه، حمل عليه، كأنه قيل: فلم يطيعوه إلا قليل منهم، ونحوه قول الفرزدق [من الطويل]:

.... لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إِلاَّ مُسْحَتٌ أَوْ مُجَلَّفُ[2]

= هو عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، نسبة لعرج الطائف.

ينظر ديوانه (١٠٩)، البحر ٢/ ٢٧٣، الأضداد (٦٤) التهذيب للمبرد ١٤/ ١٠٥، اللسان: برد: فتر، الدر المصون ١/ ٦٠٤.

(١) قال محمود رحمه الله: «مستثنى من قوله ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وفي هذه الآية تقوية لمن ذهب إلى أن الاستثناء المتعقب للجمل لا يتعين عوده إلى الأخيرة لاحتمال عوده إلى ما قبلها. ورد على من منع ذلك محتجاً بامتناع الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بأجنبي من الاستثناء. ولذلك حقق عوده إلى الأخيرة، وتوقف في انعطافه على ما تقدمها، فيجوز عنده أن يعود على الجميع مع الأخيرة. وأما عوده على ما قبل الأخيرة دونها فمتعذر عند هذا القائل فلم يصف في العود إلى الأخيرة لهذه الشبهة. وقد بيَّن القاضي أبو بكر صلاحية عوده إلى ما قبل الأخيرة دونها رداً على هذا القائل، واستشهد بقوله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ووجه استشهاده: أن المعنى يأبى انعطاف هذا الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ويعين عوده إلى ما قبلها وسيأتي بيان ذلك عند الكلام على الآية.

(٢) إليك أمير المؤمنين رمت بنا شعوب النوى والهوجل المتعسّف
وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف
للفرزدق. يقول: يا أمير المؤمنين، قذفتنا إليك طرق البعد، لكن الرامي به في الحقيقة دواعي النفس، فإسناد الرمي إلى الشعوب مجاز عقلي: أو شبه الطرق بمن يصح منه الرمي على سبيل المكنية، والمراد بالرمي البعث مجازاً، والهوجل: الطويل الأحمق، أي البعير المتعسف الحائد عن سُنَن الطريق، أو الطريق المعوج، فهو عطف خاص على عام. وشبَّه الزمان المجدب بذي ناب على طريق المكنية، وإسناد العض له تخييل. والمسحت: البقية القليلة من الشيء، يقال سحته =

كأنه قال: لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف، وقيل: لم يبق مع طالوت إلا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني القليل، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يعني الخُلّص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه، أو الذين تيقنوا أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله، والمؤمنون مختلفون في قوة اليقين ونصوع البصيرة، وقيل: الضمير في ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا﴾: للكثير الذين انخذلوا، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه، كأنهم تقاولوا بذلك والنهر بينهما، يظهر أولئك عذرهم في الانخذال، ويرد عليهم هؤلاء ما يعتذرون به، ورُوي: أنّ الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته، والذين شربوا منه اسودّت شفاههم وغلبهم العطش.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

و «جالوت»: جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد، وكانت بيضته فيها ثلثمائة رطل، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: وهب لنا ما نثبت به في مداحض الحرب من قوّة القلوب، وإلقاء الرعب في قلب العدو ونحو ذلك من الأسباب، كان أيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم، فأوحي إلى اشمويل أنّ داود بن إيشى هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء وقد مرّ في طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته ورمى بها جالوت فقتله، وزوّجه طالوت بنته، ورُوي أنه حسده وأراد قتله ثم تاب، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: في مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: والنبوّة، ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾: من صنعة

= وأسحته إذا استأصله، والأولى لغة الحجاز، والثانية لغة نجد. والمجلف: المنقرض من جوانبه، يقال جلفه كنصره إذا قشره أو قطعه. والجائفة أبلغ من الجالفة، وقيل: المسحت والمجلف، الذي أخذ منه ماله أو هلك منه، وكان الواجب نصب الاستثناء: لأنه لا وجه للرفع، لكن روعي فيه معنى النفي فرفع، أي لم يبق من المال إلا هما. وروي: إلا مسحتا أو مجلف، فرفع الثاني عطفاً على المعنى. روي أنه سئل: لم خالفت بينهما فقال: قلت ذلك لتشقى به النحويون. ونداء عبد الملك بن مروان في الموضعين للتعظيم والاستعطاف.

ينظر ديوانه (٥٥٦)، المحتسب (١/ ١٨٠)، الخصائص (١/ ١٩٩)، شرح المفصل لابن يعيش (١/ ٣١)، الخزانة (٢/ ٣٤٧)، الإنصاف (١٨٨)، اللسان «سحت»، الدر المصون (١/ ٦٠٦).

الدروع، وكلام الطير والدواب وغير ذلك، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾: ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض، وقيل: ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار، لفسدت الأرض بعيث الكفار فيها وقتل المسلمين، أو لو لم يدفعهم بهم لعمّ الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: يعني القصص التي اقتصها، من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم، وتمليك طالوت/ ٩٠أ وإظهاره بالآية التي هي نزول التابوت من السّماء، وغلبة الجبابرة على يد صبي، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب، لأنه في كتبهم كذلك، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾: إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: لما أوجب ذلك من تفاضلهم في الحسنات، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير، وهو موسى - عليه السلام -، وقرىء: «كلم الله» بالنصب، وقرأ اليماني: «كالم الله»، من المكالمه، ويدل عليه قولهم: كليم الله، بمعنى مكالمه، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾: أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة، والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ[1] لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات

---

(١) قال محمود رحمه الله: «والظاهر أنه أراد محمداً عليه الصلاة والسلام... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وإنما أوردت هذا الفصل من كلامه استحساناً له لفظاً ومعنى، وتبركا بإعطاء المصطفى عليه الصلاة والسلام من الفضل بعض حقه. وأصاب الزمخشري في قوله: حيث أوتي النبي عليه الصلاة والسلام من الفضل المنيف على سائر ما أوتيه الأنبياء، على الجميع الصلاة والسلام. وليس كما يقال عن بعض أهل العصر من تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام على كل واحد واحد من آحاد =

المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلاّ القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس، ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم، يريد به الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيراً والنابغة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي، لم يفخم أمره، ويجوز أن يريد: إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولي العزم من الرسل، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كنا في المسجد نتذاكر فضل الأنبياء، فذكرنا نوحاً بطول عبادته، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا: رسول الله ﷺ أفضل منهم، بعث إلى الناس كافة؛ وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وهو خاتم الأنبياء، فدخل - عليه السلام - فقال: فِيمَ أَنْتُمْ؟ فَذَكَرْنَا لَهُ، فَقَالَ: لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ خَيْراً مِنْ يَحْيَى بِنْ زَكَرِيَّا، فَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ سَيِّئَةً قَطُّ وَلَمْ يَهِمَّ بِهَا، (١٩٣) فإن قلت: فلمَ خصّ موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت: لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، ولقد بيّن الله وجه التفضيل، حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات، فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصّا بالذكر في باب التفضيل، وهذا دليل بين أنّ من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره، ولما كان

---

١٩٣ - أخرجه البزار (٢٣٥٨ - كشف) والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢١٨) رقم (١٢٩٣٨) كلاهما من طريق أبي عاصم عبد الله بن عبيد العباداني عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس.
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٥٧) وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه وابن مردويه من هذا الطريق أيضاً والحديث ذكره الحافظ نور الدين الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٢) وقال: رواه البزار والطبراني وفيه علي بن زيد بن جدعان وضعّفه الجمهور وبقية رجاله ثقات. قلت: وفي إعلاله بعلي بن زيد وحده نظر فإن عبد الله بن عبيد الله أبا عاصم العباداني ليّن الحديث.
ينظر «التقريب» (٢/ ٤٤٣).
لذلك أصاب الحافظ رحمه الله في إعلال هذا الحديث: فأعلّه بأبي عاصم وعلي بن زيد.
قال الحافظ: أخرجه إسحاق بن راهويه: أخبرنا أبو عاصم العبادي أخبرنا علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عنه به ورواه البزّار والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عاصم العبادي به وهو ضعيف وشيخه مجهول. انتهى.

= الأنبياء. وينبغي الوقوف عن نسبته له، فإنه من العلماء الأعلام وعمد دين الإسلام، والوجه التوريك بالغلط على النقلة عنه.

نبينا ﷺ هو الذي أوتي/ ٩٠ب منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع، اللهمّ ارزقنا شفاعته يوم الدين، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئة إلجاء وقسر[1]، ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ﴾ من بعد الرسل، لاختلافهم في الدين، وتشعب مذاهبهم، وتكفير بعضهم بعضاً، ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾، لالتزامه دين الأنبياء، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾: لإعراضه عنه، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾: كرّره للتأكيد[2]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: من الخذلان والعصمة، ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: أراد الإنفاق الواجب، لاتصال الوعيد به، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾: لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾: حتى تبتاعوا ما تنفقونه، ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾: حتى يسامحكم أخلاؤكم به، وإن أردتم أن يحطّ عنكم ما في ذمّتكم من الواجب[3]، لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم في

---

(١) قوله «مشيئة إلجاء وقسر» يعني أنه أراد عدم الاقتتال، لكن لا إرادة قسر، ولذلك تخلف المراد عنها، وهذا مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فليس هناك إرادة يتخلف عنها المراد، بل كل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما بيّن في محله. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «كرر ولو شاء الله للتأكيد» قال أحمد رحمه الله: ووراء التأكيد سر أخص منه، وهو أن العرب متى بنت أول كلامها على مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع إلى الأول، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها. وذلك عندهم مهيع من الفصاحة مسلوك، وطريق معتد. وكان جدي لأمي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير يعد في كتاب الله تعالى مواضع في هذا المعنى: منها قوله تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ ومنها قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وهذه الآية من هذا النمط، لما صدر الكلام بأن اقتتالهم كان على وفق المشيئة. ثم طال الكلام، أو أريد بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت في هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء فهي نافذة في كل فعل واقع، وهو المعنى المعبّر عنه في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ طرأ ذكر تعلق المشيئة بالاقتتال لتلوه عموم تعلق المشيئة لتناسب الكلام وتعرف كل بشكله. فهذا سر ينشرح لبيانه الصدر ويرتاح السر، والله الموفق. وأي قدم يثبت للاعتزال قبالة هذا؟ لأنه الدائرة القاطعة لدابره، الكافلة بالرد على منتحله وناصره ولذلك جوزها الزمخشري لاغتناصها على تأويله، واعتصامها بالنصوصية من حيله ونحيله.

(٣) قال محمود رحمه الله: «ومعناه: إن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم... إلخ» قال أحمد رحمه الله: أما القدرية، فقد وطنوا أنفسهم على حرمان الشفاعة وهم جدير أن يحرموها. وأدلة أهل السنّة على إثباتها للعصاة من المؤمنين أوسع من أن تحصى. وما أنكرها القدرية إلا لإيجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة وللعاصي على المعصية إيجاباً عقلياً على زعمهم. فهذه الحالة في إنكار الشفاعة نتيجة تلك الضلالة. وقد تقدم جواب عن التمسك بإطلاق مثل هذه الآية في نفي الشفاعة، ونعيده فنقول: أيام القيامة متعددة والشفاعة في بعضها ثابتة، فكل ما ورد مفهماً لنفيها حمل على الأيام الخالية منها جمعاً بين الأدلة، كما ورد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وورد ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وورد ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا =

حط الواجبات، لأنّ الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير[1]، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون، فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾: للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان: ومن لم يحج؛ ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقرىء: «لا بيعُ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعةٌ، بالرفع.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

﴿ٱلْحَىُّ﴾: الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء[2]، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، وقريء: القيام، والقيم، والسنة: ما يتقدّم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس، قال ابن الرقاع العاملي [من الكامل]:

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ[3]

= جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ وورد ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ولا تخلص في أمثال هذه الآي باتفاق إلا الحمل على تعدُّد أوقات القيامة واختلاف أحوالها وأيامها، وكذلك أمر الشفاعة سواء. رزقنا الله الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة.

(١) قوله «لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير» هذا مذهب المعتزلة. وعند أهل السنّة قد تكون في تخفيف العذاب أيضاً. (ع)

(٢) قوله «الحي الباقي الذي لا سبيل عليه... إلخ» المعتزلة يفرون من أن يثبتوا لله صفة وجودية كالحياة التي تنافي الموت فلذا فسر الحي بما قال. (ع)

(٣) لولا الحياء وإن رأسي قد عثى ... فيه المشيب لزرت أم القاسم
وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت ... في عينه سنة وليس بنائم

لعدي بن الرقاع في تشبيب مدح الوليد بن عبد الملك. وعن الأصمعي: أنه لأحمد بن الرقاع. وعثى يعثى كسعى يسعى، وعاث يعيث كعاش يعيش: سار على وجه الإفساد. وروي «عسى» بالسين أي ظهر وانتشر واشتد، فعسى هنا تامة لا ناقصة. وأم القاسم: كنية محبوبته. وبين النساء: أي دون النساء، وقد روي كذلك أيضاً. و «أحور» فاعل «أعار» والحور: صفاء سواد العين وبياضها. والجآذر: جمع جؤذر وهو ولد الظبية. وجاسم: موضع بعينه. ووسنان: نعت أحور. وأقصدت الرجل: إذا طعنته فلم تخطىء مقتله، أي أصابه النعاس وهو ما يتقدم النوم من الفتور والغفلات. ورنق الماء: كدر. وترنق: تكدر. ورنقه وأرنقه: كدره ورنق الطائر ترنيقاً، إذا وقف في =

أي: لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم؛ لأنّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً، ومنه حديث موسى: أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام، ثم قال: خذ بيدك قارورتين مملوءتين، فأخذهما، وألقى الله عليه النعاس، فضرب إحداهما على الأخرى فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس، لزالتا (١٩٤). ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾: بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلّم يوم القيامة إلاّ إذا أذن له في الكلام، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما كان قبلهم وما يكون بعدهم، والضمير لما في السموات والأرض؛ لأنّ فيهم العقلاء، أو لما دل عليه: ﴿مَّن ذَا﴾: من الملائكة والأنبياء، ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾: من معلوماته، ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾: إلا بما علم، الكرسي ما يجلس عليه، ولا يفضل عن مقعد القاعد، وفي قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾: أربعة أوجه[(١)]: أحدها أنّ كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته/ ١٩١أ وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة ولا قعود، ولا قاعد، كقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧] من غير تصوّر

---

١٩٤ ـ أخرجه أبو يعلى (١٢/ ٢١) رقم (٦٦٦٩) والطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٩٤) رقم (٥٧٨٠) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٦٨) والدارقطني في «الأفراد» كما في «الكاف الشاف» ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٩ ـ ٤١) رقم (٢٢، ٢٣) كلهم من طريق أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة به.

وقال الدارقطني: تفرد به الحكم بن أبان عن عكرمة وتفرد به أمية عن الحكم وتفرد به هشام عن أمية.

=

= الهواء صافاً جناحيه يريد الوقوع. فالمعنى: وقفت في عينه سنة. ويجوز أن المعنى: رنقت عينه سنة، أي كدرتها. وأقحم «في» لأنه جعل العين ظرفاً للترنيق، وهذا يشعر بتشبيه العين بالماء في شدة الصفاء. والسنة من وسن فهو وسنان، فهي من باب عدة. وسبب النوم: ريح يقوم في أغشية الدماغ، فإذا وصل إلى العين فترت، وهذا هو الوسن، وإذا وصل إلى القلب وتمكن منه زال إدراك الحواس، وهذا هو النوم؛ فلذلك نفاه مع إثبات السنة.

ينظر: الحماسة الشجرية ٢/ ٦٨٢، البحر ٢/ ٢٨١، تهذيب اللغة ٢/ ١٠٥، اللسان: نعس، الدر المصون ١/ ٦١٣.

(١) قال محمود رحمه الله: «وفي قوله تعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أربعة أوجه... إلخ» قال أحمد رحمه الله: قوله في الوجه الأول أن ذلك تخييل للعظمة سوء أدب في الإطلاق وبعد في الإضرار، فإن التخيل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها في الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب.

قبضة وطيّ ويمين، وإنما هو تخييل، لعظمة شأنه، وتمثيل حسيّ، ألا ترى إلى قوله:

= وقال الخطيب: هكذا رواه أمية بن شبل عن الحكم بن أبان موصولاً مرفوعاً وخالفه معمر بن راشد فرواه عن الحكم عن عكرمة قوله لم يذكر فيه النبي ـ ﷺ ـ ولا أبا هريرة. ا.هـ.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٦).
وقال: رواه أبو يعلى وفيه أمية بن شبل ذكره الذهبي في الميزان ولم يذكر أن أحداً ضعفه وإنما ذكر له هذا الحديث وضعفه به، قلت: أما الطريق الذي أشار إليه الخطيب فقد أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١٠٢) ومن طريقه الطبري (٥/ ٣٩٤) رقم (٥٧٧٩) من طريق معمر بن راشد عن الحكم بن أبان عن عكرمة من قوله.
قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٤١) ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ وغلط من رفعه، والظاهر أن عكرمة رأى هذا في كتب اليهود فرواه فما يزال عكرمة يذكر عنهم أشياء لا يجوز أن يخفى هذا على نبيّ الله عزّ وجل وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب السنة عن سعيد ابن جبير قال: إن بني إسرائيل قالوا لموسى ـ عليه السّلام ـ هل ينام ربنا؟ وهذا هو الصّحيح فإن القوم كانوا جهّالاً بالله عزّ وجلّ. ا.هـ. وقد أنكر الحديث المرفوع الحافظ الذهبي فقال في الميزان (١/ ٤٤٣ ـ بتحقيقنا) في ترجمة أمية بن شبل: له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً قال: وقع في نفس موسى هل ينام الله... الحديث».
رواه عنه هشام بن يوسف وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة قوله وهو أقرب ولا يسوّغ أن يكون هذا وقع في نفس موسى وإنما روى أن بني إسرائيل سألوا موسى عن ذلك ا.هـ. وقد استغرب الحافظ عماد الدين بن كثير هذا الحديث فقال في «تفسيره» (١/ ٣٠٨): وهذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع.
قال الحافظ: قلت قوله «وذلك من قومه كطلب الرؤية. من كلام الزمخشري، أدرجه في الخبر. فقد رواه عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أن موسى سأل الملائكة: هل ينام الله عزّ وجلّ؟ فذكره» وقد رواه أبو يعلى والطبري والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الصّفات، كلّهم من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل عن هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يُحكى عن موسى ـ عليه السلام ـ قال قد وقع في نفس موسى: هل ينام ربنا؟ فأرسل إليه ملكاً فأرقه، ثم أعطاه قارورتين في كلّ يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام ويكاد يداه يلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة. فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلاً: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض» ورواه البيهقي موقوفاً وقال: هذا هو الأشبه. وقال الدارقطني تفرّد به الحكم عن عكرمة وأمية عن الحكم وهشام عن أمية. وقال الخطيب: رواه معمر عن الحكم عن عكرمة من قوله. ولم يذكر أبا هريرة... ولا النبي ـ ﷺ ـ قلت: ورواية عبد الرزاق ترد عليه. لكنها موقوفة. وقد ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية وقال: يشبه أن يكون عكرمة تلقاه عن كتب أهل الكتاب. قال: وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة له عن سعيد بن جبير «أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه الصّلاة والسّلام: هل ينام ربّنا» قال: وهذا هو الصّحيح. انتهى.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ والثاني: وسع علمه وسمّى العلم كرسياً تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم، والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك، والرابع ما رُوي: أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش دونه السّموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء، وعن الحسن: الكرسي هو العرش، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: ولا يثقله ولا يشق عليه، ﴿حِفْظُهُمَا﴾: حفظ السموات والأرض، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾: الشأن، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: الملك والقدرة، فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي[1] من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما

---

(١) عاد كلامه قال: «فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي وما بالها لم تعطف بالواو؟ قلت: لأنها كلها في حكم البيان والبيان متحد بالمبين فدخول الواو بينهما ـ كما تقول العرب ـ دخول بين العصا ولحائها، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه، والثانية لكونه سالكاً لتدبيره، والثالثة لكبرياء شأنه، والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق، والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها. وقد وردت آثار في تفضيلها. منها قوله عليه السلام «ما قرئت هذه الآية في دار إلا اجتنبتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة، يا علي علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها» وعن علي رضيَ الله عنه سمعت نبيكم على أعواد المنبر يقول «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله» وتذاكر الصحابة أفضل ما في القرآن فقال علي أين أنتم من آية الكرسي، ثم قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا علي، سيد البشر آدم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال طور سيناء، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي». وإنما فضلت لما فضلت له سورة الإخلاص، من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى» قال أحمد: وكان جدي رحمة الله عليه يقول: اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عزَّ وجل وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعاً فيها اسم الله تعالى، ظاهراً في بعضها ومستكناً في بعض، ويظهر لكثير من العادين منها ستة عشر إلا على بصير حاد البصيرة لدقة استخراجه. الأول الله، الثاني هو، الثالث الحي، الرابع القيوم، الخامس ضمير لا تأخذه، السادس ضمير له، السابع ضمير عنده، الثامن ضمير إلا بإذنه، التاسع ضمير يعلم، العاشر ضمير علمه، الحادي عشر ضمير شاء، الثاني عشر ضمير كرسيه، الثالث عشر ضمير ولا يئوده، الرابع عشر وهو، الخامس عشر العلي، السادس عشر العظيم. فهذه عدة الأسماء البينة. وأما الخفي فالضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله (حفظهما) فإنه مصدر مضاف إلى المفعول، وهو الضمير البارز، ولا بد له من فاعل وهو الله، ويظهر عند فك المصدر فيقول: ولا يئوده أن يحفظهما هو. وكان الشيخ أبو عبدالله محمد بن أبي الفضل المرسي قد رام الزيادة على هذا العدد لما أخبرته به عن الجد رحمه الله فقال: يمكن أن يعد ما في الآية من الأسماء المشتقة كل واحد منها بآيتين. لأن كل واحد يتحمل ضميراً ضرورة كونه مشتقاً، وذلك الضمير إنما يعود إلى الله تعالى، وهي باعتبار ظهورها اسم وقد اشتملت على آخر مضمر، فيكون جملة العدد على هذا النظر أحداً وعشرين اسماً، وكنت أجريت معه في تعدُّد الزيادة المذكورة وجهاً لطيفاً، وهو أن الاسم المشتق لا يتحمل =

تقول العرب: بين العصا ولحائها[1]، فالأولى، بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه، والثانية: لكونه مالكاً لما يدبره، والثالثة: لكبرياء شأنه، والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى، والخامسة: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره، فإن قلت: لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد منه قوله ﷺ: «ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجَرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة، يا عليّ علمها ولدك وأهلك وجيرانك، فما نزلت آية أعظم منها» (١٩٥) وعن عليّ رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ على أعواد المنبر وهو يقول: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمّنه الله على نفسه، وجاره، وجار جاره والأبيات حوله» (١٩٦)، وتذاكر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أفضل ما في القرآن، فقال لهم عليّ رضي الله عنه:

---

١٩٥ ـ بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦٠) وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

١٩٦ ـ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٥٨) رقم (٢٣٩٥) عن الحاكم بسنده عن نهشل ابن سعيد عن أبي إسحاق الهمداني عن حبة العرني عن علي بن أبي طالب مرفوعاً.
وقال البيهقي: إسناده ضعيف.
ومن طريق البيهقي أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٤٣) لكن وقع عنده عن عبد العزّى عن علي وهو تصحيف وقع عند ابن الجوزي لذا قال عقب الحديث: هذا حديث لا يصح: عبد العزّى لا يعرف ونهشل قد كذبه أبو داود الطيالسي وابن راهويه، وقال الرازي والنّسائي هو متروك وقال ابن حبّان: لا يحلُّ كتب حديثه إلاّ على سبيل التعجب. ا.هـ.
قلت: وحبه العرني هو حبة بن جوين بن علي العرني.
قال ابن معين والجوزجاني: غير ثقة.
وقال النّسائي: ليس بالقوي.
وقال ابن خراش: ليس بشيء. =

= الضمير بعد صيرورته بالتسمية علماً على الأصح، وهذه الصفات كلها أسماء الله تعالى، ثم ولو فرضناها متحملة للضمائر بعد التسمية على سبيل التنزيل، فالمشتق إنما يقع على موصوفه باعتبار تحمله ضميره. ألا تراك إذا قلت: زيد كريم، وجدت «كريماً» إنما يقع على زيد، لأن فيه ضميره، حتى لو جردت النظر إليه لم تجده مختصاً بزيد، بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكرم من الناس، ولا تجده مختصاً بزيد إلا باعتبار اشتماله على ضميره، فليس المشتق إذاً مستقلاً بوقوعه على موصوفه إلا بضميمة الضمير إليه، فلا يمكن أن يجعل له حكم الانفراد عن الضمير مع الحكم برجوعه إلى معين البتة، فرضي الشيخ المذكور عن هذا البحث وصوبه والله الموفق للصواب.

(١) قوله: «بين العصا ولحائها» في الصحاح: اللحاء ـ ممدود ـ قشر الشجر. وفي المثل: لا تدخل بين العصا ولحائها. (ع)

أين أنتم عن آية الكرسي، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ «يا عليّ، سيد البشر آدم، وسيد

= ووثّقه ابن حبّان والعجلي.
وقال الحافظ في «التقريب» صدوق.
وهذا يخالف ما كتبه في «الكاف الشاف» حيث أعلّ حديث علي بن أبي طالب فقال: وفي إسناده نهشل بن سعيد وهو متروك وكذلك حبه العرني. ا.هـ.
وللحديث شاهد من حديث أنس.
أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٤٥٨ ـ ٤٥٩) رقم (٢٣٩٦) عن الحاكم بسنده عن عبد الله ابن عبد الرحمن اليمامي عن سالم الخياط عن الحسن والمختار عن أنس به.
وقال البيهقي إسناده ضعيف. ا.هـ.
ولصدر الحديث شاهد قوي من حديث أبي أمامة.
أخرجه النّسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٠) كتاب عمل اليوم والليلة: باب ثواب من قرأ آية الكرسي حديث (٩٩٢٨) من طريق الحسين بن بشر عن محمد بن حمير عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة مرفوعاً.
وقال المنذري في «الترغيب» (٢/٤٤٨): رواه النّسائي والطبراني بأسانيد أحدها صحيح وقال شيخنا أبو الحسن: هو على شرط البخاري وأخرجه ابن حبّان في كتاب الصّلاة وصحّحه. ا.هـ. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٠٥).
وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد وأحدها جيد. ا.هـ.
قلت: وقد غفل ابن الجوزي غفلة شديدة فأخرج هذا الحديث في «الموضوعات» (١/ ٢٤٤) من طريق الدارقطني بسنده حدثنا هارون ابن زياد النجّار وعلي بن صدقة الأنصاري.
قالا: حدثنا محمد بن حميرية.
وقال: قال الدارقطني: غريب من حديث الألهاني تفرّد به محمد بن حمير عنه، قال يعقوب بن سفيان: ليس بالقوي. ا.هـ.
وقد تعقّبه السيوطي في «اللاليء المصنوعة» (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١) فقال: كلا بل قوي ثقة من رجال البخاري والحديث صحيح على شرطه وقد أخرجه النّسائي وابن حبّان في صحيحه وابن السنّي في عمل اليوم والليلة وصحّحه أيضاً الضياء المقدسي في المختارة وقال الحافظ ابن حجر في تخريج المشكاة: غفل ابن الجوزي فأورد هذا الحديث في الموضوعات وهو من أسمج ما وقع له، وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي في جزء جمعه في تقوية هذا الحديث محمد بن حمير القضاعي الحمصي كنيته أبو عبد الحميد احتجّ به البخاري في صحيحه وكذلك محمد بن زياد الألهاني أبو سفيان الحمصي احتجّ به البخاري أيضاً... ا.هـ.
ولتمام كلام السيوطي يراجع اللاليء فله كلام طيب على هذا الحديث إلاّ أننا لنا مؤاخذة واحدة على كلامه وهي أنه عزا حديث أبي أمامة إلى ابن حبّان في صحيحه وهو وهم حيث أن ابن حبّان روى هذا الحديث في كتاب الصّلاة ـ كتاب منفصل له ـ نصّ على هذا المنذري في «الترغيب» كما تقدم. وللحديث شاهد أيضاً من حديث المغيرة.
أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٢١) من طريق مكي بن إبراهيم ثنا هاشم بن هاشم عن عمر ابن إبراهيم عن محمد بن كعب عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً».
وقال أبو نعيم: حديث غريب من حديث المغيرة تفرّد به هاشم بن هاشم عن عمر عن محمد ما =

العرب: محمد ولا فخر، وسيد الفرس: سلمان، وسيد الروم: صهيب، وسيد الحبشة: بلال، وسيد الجبال: الطور، وسيد الأيام: يوم الجمعة، وسيد الكلام: القرآن، وسيد القرآن: البقرة، وسيد البقرة: آية الكرسي» (١٩٧) قلت: لما فضلت له سورة الإخلاص لاشتمالها على توحيد الله، وتعظيمه، وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من ربّ العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار، وبهذا يعلم أنّ أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله/ ٩١ب علم أهل العدل والتوحيد[(١)] ولا يغرّنك عنه كثرة أعدائه [من البسيط]:

إِنَّ الْـعَـرَانِـيـنَ تَـلْـقَـاهَـا مُـحَـسَّـدَةً   وَلَـنْ تَـرَى لِـلِـئَـامِ الـنَّـاسِ حُـسَّـادَا[(٢)]

= كتبناه عالياً إلاّ من حديث مكي.

قال السيوطي في «اللالىء» (١/ ٢٣١): وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي مكي وهاشم ومحمد بن كعب اتفقا على الاحتجاج بهم وعمر بن إبراهيم أبو حفص العبدي البصري احتجّ به الترمذي والنّسائي وابن ماجه وقال فيه يحيى بن معين ثقة وقال عبد الصّمد ابن عبد الوارث ثقة وفوق الثقة. ا.هـ.

وللحديث شواهد أخرى يراجع لها اللاليء المصنوعة (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣٣).

قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن إسحاق عن حبة بن جوين العرفي. سمعت علي بن أبي طالب يقول: فذكره دون قوله «ولا يواظب عليها إلاَّ صدّيق أو عابد»: وذكر ما بعده. وفي إسناده نهشل بن سعيد وهو متروك. وكذلك حبة العرفي، وأخرجه أيضاً من حديث أنس بلفظ «من قرأ في دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي حفظ إلى الصّلاة، ولا يحافظ عليها إلاَّ نبيٌّ أو صدّيق أو شهيد» وإسناده ضعيف وصدرُ الحديث أخرجه النّسائي وابن حبّان. من حديث أبي أمامة، وإسناده صحيح، وله شاهد عن المغيرة بن شعبة عند أبي نعيم في الحلية من رواية محمد بن كعب القرظي عنه، وغفل ابن الجوزي فأخرجه في الموضوعات. انتهى.

١٩٧ ـ ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦١ ـ ١٦٢) وقال: ذكره أبو شجاع الديلمي في كتاب الفردوس من حديث علي مرفوعاً.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده وقد ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ابنه ا.هـ.

وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٤٧٥٤ ـ فيض) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس ورمز له =

---

(١) قوله «علم أهل العدل والتوحيد» المعتزلة سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وعلم التوحيد أشرف العلوم في نفسه لا بقيد إضافته إلى فرقة من أهله، اللهم إلا عند المتعصب. (ع)

(٢) للمغيرة شاعر آل المهلب. وقيل للمهلبية: ما أكثر حسادكم فأنشدوه. والعَرَانين: الخيار الأشراف و «لن» لتوكيد النفي. ويروى: ولا ترى. ويروى: ما ترى. واللئيم: الخسيس، واللئام جمعه. وحساد ـ بضم الحاء ـ جمع حاسد. أي ليس للئيم الناس حاسداً، فهو من مقابلة الجمع بالجمع. وفتحها على أنه مفرد أبلغ من حيث المعنى، حيث نفى الواحد عن الجمع نفياً شمولياً.
ينظر: أساس البلاغة (حسد).

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾: أي: لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر، ولكن على التمكين والاختيار، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩] أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار، ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾: قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله، ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: من الحبل الوثيق المحكم، المأمون انفصامها، أي: انقطاعها، وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوّره السّامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده والتيقن به، وقيل: هو إخبار في معنى النّهي، أي: لا تتكرهوا في الدين، ثم قال بعضهم: هو منسوخ بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣] وقيل: هو في أهل الكتاب خاصة، لأنهم حصنوا أنفسهم بأداء الجزية، ورُوي: أنه كان لأنصاري من بني سالم بن عوف ابنان، فتنصرا قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، ثم قدما المدينة، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتّى تُسلما، فأبيا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ الله، أَيَدْخُلُ بَعْضِي النَّارَ وَأَنَا أَنْظُرُ؟ فَنَزَلَتْ: فَخَلاَّهُمَا (١٩٨).

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

= بالضعف وقال المناوي في «الفيض» (٤/ ١٢٣): وفيه محمد ابن عبد القدوس عن مجالد بن سعيد ومحمد قال الذهبي مجهول، ومجالد قال أحمد: ليس بشيء وضعّفه غيره ورواه أيضاً ابن السنّي وعنه تلقاه الديلمي مصرّحاً فلو عزاه للأصل لكان أولى ا.هـ. والحديث ذكره أيضاً الهندي في «كنز العمال» (٣٢٢٧٠) وعزاه إلى الديلمي في «مسند الفردوس».

قال الحافظ: لم أجده. وقد ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ابنه. ا.هـ.

١٩٨ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٤١٠) رقم (٥٨١٩) عن ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٨٣) عن ابن عباس وعزاه لابن إسحاق والطبري.

وينظر «معالم التنزيل» (١/ ٢٤٠).

قال الحافظ: أخرجه الواحدي في أسبابه من قول مسروق، وكذلك البغوي وقد أخرج الطبري من رواية أبي إسحاق عن محمد بن أبي محمد عند عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين: كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلماً فقال يا رسول الله ألا استكرههما فأنزل الله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ...﴾. انتهى.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي: أرادوا أن يؤمنوا يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾: أي: صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك، أو الله وليّ المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين ـ إن وقعت لهم ـ بما يهديهم ويوفّقهم له من حلّها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾: الشياطين، ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾: من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشكّ والشُّبهة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تعجيب من محاجة نمروذ في الله وكفره به، ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ متعلق بحاجّ على وجهين[1]:

أحدهما حاجّ لأن آتاه الله الملك، على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتوّ فحاجّ لذلك، أو على أنه[2] وضع المحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك، فكأن المحاجة كانت لذلك، كما تقول: عاداني فلان لأني أحسنت إليه، تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة: ٨٢].

---

(١) قال محمود: «إن أتاه متعلق بحاج على وجهين... إلخ» قال أحمد: عفا الله عنه، والوجهان قريبان من حيث المعنى، إلا أن بينهما في الصناعة فرقاً، وهو إنما استعمل المصدر في الأول مفعولاً من أجله، وفي الثاني ظرفاً. وقد وقعت المصادر ظروفاً في مثل: خفوق النجم، ومقدم الحاج، وأمثال ذلك. وإنما وقعت محاجته بهذا الظرف لاشتماله على إيتاء الملك الحامل له على البطر، أو على وضع كفر النعمة فيه مكان شكرها. وهذان المعنيان هما المذكوران في الوجه الأول بعينهما؛ فلهذا نبهت على أن الفرق بين الوجهين صناعي لا معنوي. والله الموفق لمعاني كلامه.

(٢) قوله «أو على أنه» لعله: أو على معنى أنه. (ع)

والثاني: حاجّ وقت أن آتاه الله الملك. فإن قلت: كيف جاز أن يؤتي الله الملك الكافر؟ قلت: فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع، وأما التغليب والتسليط فلا، وقيل: ملكه امتحاناً لعباده[1] / ١٩٢أ و﴿وَإِذْ قَالَ﴾: نصب بحاج أو بدل من آتاه إذ جعل بمعنى الوقت، ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾: يريد أعفو عن القتل[2] وأقتل، وكان الاعتراض عتيداً، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق، لم يحاجه فيه، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب، ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجّة إلى حجّة، وقرىء: «فبهت الذي كفر»: أي فغلب إبراهيم الكافر، وقرأ أبو حيوة: فبهت، بوزن قرب، وقيل: كانت هذه المحاجّة حين كسر الأصنام وسجنه نمروذ، ثم أخرجه من السجن ليحرقه فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت، ﴿أَوْ كَالَّذِى﴾: معناه: أو أرأيت مثل الذي مرّ[3]، فحذف لدلالة: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾: عليه؛ لأنّ كلتيهما كلمة تعجيب، ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنّه قيل: أرأيت كالذي حاجّ إبراهيم أو كالذي مرّ على قرية، والمارّ كان كافراً[4] بالبعث،

(١) قال محمود: «فإن قلت كيف جاز أن يؤتى الله الملك الكافر؟ قلت: ذلك على وجهين: أحدهما آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع، فأما التغليب والتسليط فلا. الثاني أن يكون ملكه امتحاناً لعباده، قال أحمد: السؤال مبني وروده على قاعدة فاسدة، وهي اعتقاد وجوب مراعاة ما يتوهمه القدرية صلاحاً أو أصلح على الله تعالى في أفعاله، وكل ذلك من أصول القدرية التي اجتثها البرهان القاطع فما لها من قرار. وأما إيراد السؤال على صيغة: لم آتاه الله الملك وهو كافر؟ أو لم أفعل كذا وكذا؟ فجواب رده على الإطلاق في قوله تعالى ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لو سمع الصم البكم. والله ولي التوفيق. (عاد كلامه) قال ومعنى قوله أنا أحيي وأميت: أعفو عن القتل وأقتل، وكان الاعتراض عنيداً ولكن إبراهيم عليه السلام لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ولكنه انتقل إلى ما لا يقدر فيه على مثل ذلك ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة، قال أحمد: وقد التزم غير واحد من العلماء أن هذا الذي صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام ليس بانتقال من الحجة، ولكن من المثال. وأما الحجة فهي استدلاله على ألوهية الله تعالى بتعلّق قدرته بما لا يجوز تعلُّق قدرة الحادث به، ثم هذا له أمثلة منها الإحياء والإماتة، ومنها: الإتيان بالشمس من المشرق. والعدول بعد قيام الحجة وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال ليس ببدع عند أهل الجدل والله أعلم.

(٢) قوله «يريد أعفو عن القتل» في الصحاح عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه. وفيه: أعفني من الخروج معك أي دعني منه. (ع)

(٣) قال محمود: «معناه أو أرأيت مثل الذي مر... إلخ» قال أحمد: ومثل هذا النظم يحذف منه قبل الرؤية كثيراً، كقوله [من]:

حتى إذا الكلاب قال لها كاليوم مطلوباً ولا طلبا

يريد لم أر كاليوم فحذف الفعل وحرف النفي. والظاهر حمل الآية على الوجه الأول لوجود نظيره، والله أعلم.

(٤) (عاد كلامه) قال والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ في سلك واحد. وقيل: =

وهو الظاهر، لانتظامه مع نمروذ في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي: أنى يحيى، وقيل: هو عزير أو الخضر، أراد أن يعاين إحياء الموتى، ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وقوله: ، ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾: اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي، والقرية: بيت المقدس حين خربه بختنصر، وقيل: هي التي خرج منها الألوف، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: تفسيره فيما بعد، ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: بناء على

= كان مؤمناً وهو عزير أو الخضر، وأراد أن يعاين الإحياء كما طلبه إبراهيم. وقوله يوماً، بناه على الظن. روي أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس فقال ـ قبل النظر إلى الشمس ـ يوماً، ثم التفت فرأى بقية منها فقال: أو بعض يوم، انتهى كلامه. قال أحمد: أما استدلال الزمخشري على أن المار كان كافراً بانتظامه مع نمروذ في سلك واحد، فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام في نسق واحد، فليس الاستدلال على كفره باقتران قصته مع قصة نمروذ، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم، إلا أن يقول إن قصة هذا المار معطوفة على قصة نمروذ عطف تشريك في الفعل، منطوقاً به في الأولى ومحذوفاً من الثانية، مدلولاً عليه بذكره أولاً، ولا كذلك عطف قصة إبراهيم فإنها مصدرة بالواو التي لا تدخل في كثير من أحوالها للتشريك، ولكن لتحسين النظم حتى تتوسط بين الجمل التي يعلم تعاطفها لذلك الغرض، ولا كذلك عطفها في قصة نمروذ، فإنه بأو التي لا تستعمل إلا مشركة، إذ عطف التحسين اللفظي خاص بالواو فنقول: إذا انتهى الترجيح إلى هذا التدقيق فهو معارض بما بين قصة المار وقصة إبراهيم من التناسب المعنوي، لأن طلبتهما واحدة، إذ المار سأل معاينة الأحياء، وكذلك طلبة إبراهيم ثم التناسب المعنوي أرجح من التعلق بأمور لفظية ترد إلى أنحاء مختلفة ويؤيد القول بأن المار كان مؤمناً تحريه في قوله تعالى: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فإن ظاهره الاحتراز من التحريف في القول حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم حذراً من إبهام طلبته لجملة اليوم. ومثل هذا التحري لا يصدر عن معطل، والله أعلم. ولا يقال إنما صدر منه هذا التحري بعد أن حيي وآمن، لأنا نقول إنما آمن على القول بكفره بعد ظهور الآيات، يدل عليه قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأما التحري المذكور فكان أول القصة قبل الإيمان وما قدرت هذا السؤال إلا لنكتة يذكرها الزمخشري الآن تشعر بإيراده على الترجيح المذكور. ثم هذه الجرأة التي نقلها الزمخشري في خلال كلامه من أنه إنما قال: أو بعض يوم لما رأى بقية من الشمس لم يكن رآها أول كلامه فاستدرك الأمر، فيها نظر دقيق لم أقف عليه لأحد ممن أورد الحكاية في تفسيره. وذلك أن الأمر إذا كان على ما تضمنته، وكلام المار المذكور بني أولاً على الجزم بأنه لبث يوماً ثم جزم آخراً أن لبثه إنما كان بعض يوم لرؤية بقية من الشمس، وكان مقتضى التعبير عن حاله أن يقول: بل بعض يوم، مضرباً عن جزمه الأول إلى جزمه الثاني، لأن «أو» إنما تدخل في الخبر إذا انبنى أوله على الجزم ثم عرض في آخره شك، ولا جزم بالنقيض، فالحكاية المذكورة توجب أن يكون الموضع لـ «بل» لا لـ «أو» إذ موضع «بل» جزم بنقيض الأول، فإذا استقر ذلك فالظاهر من حال المار أنه كان أولاً جازماً ثم شك لا غير اتباعاً لمقتضى الآية، وعدولاً عن الحكاية التي لا تثبت إلا بإسناد قاطع، فيضطر إلى تأويل، فتأمل هذا النظر فإنه من لطيف النكت، والله الموفق.

الظن، رُوي أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يوماً، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: أو بعض يوم، ورُوي: أنّ طعامه كان تيناً وعنباً، وشرابه عصيراً أو لبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم يتغيّر، والهاء أصلية أو هاء سكت، واشتقاقه من السنة على الوجهين؛ لأنّ لامها هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغيّر بمرور الزمان، وقيل: أصله يتسنن، من الحمأ المسنون، فقلبت نونه حرف علّة، كتقضي البازي، ويجوز أن يكون معنى، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم تمرّ عليه السنون التي مرت عليه، يعني: هو بحاله كما كان كأنه لم يلبث مائة سنة، وفي قراءة عبد الله: فانظر إلى طعامك، وهذا شرابك لم يتسن، وقرأ أبيّ: لم يسنه، بإدغام التاء في السين، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: كيف تفرّقت عظامه ونخرت، وكان له حمار قد ربطه، ويجوز أن يراد: وانظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه وشرابه من التغيّر، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: فعلنا ذلك يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه، وقيل: أتى قومه راكب/ ٩٢ب حماره، وقال: أنا عزير، فكذّبوه، فقال: هاتوا التّوراة فأخذ يهذها هذاً[1] عن ظهر قلبه وهم ينظرون في الكتاب، فما خرم حرفاً، فقالوا: هو ابن الله، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزير، فذلك كونه آية، وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب، فإذا حدّثهم بحديث، قالوا: حديث مائة سنة، ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾: هي عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم، ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾: كيف نحييها، وقرأ الحسن: ننشرها، من نشر الله الموتى، بمعنى: أنشرهم فنشروا، وقريء بالزاي، بمعنى نحرّكها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب، وفاعل «تبيّنَ» مضمر، تقديره: فلما تبيّن له أن الله على كلّ شيء قدير، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فحذف الأول، لدلالة الثاني عليه، كما في قولهم: ضربني وضربت زيداً، ويجوز: فلما تبيّن له ما أشكل عليه، يعني: أمر إحياء الموتى، وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فلما تبين له على البناء للمفعول، وقريء: قال اعلم، على لفظ الأمر، وقرأ عبد الله: قيل اعلم، فإن قلت: فإن كان المارّ كافراً فكيف يسوغ أن يكلّمه الله[2]؟ قلت: كان الكلام بعد البعث ولم يكن إذ ذاك كافراً.

---

(١) قوله «فأخذ يهذها» أي يسرع بها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) (عاد كلامه) قال: «فإن قلت إذا كان المار كافراً. . . إلخ» قال أحمد: وهذا سؤال عجيب، والجواب عنه أعجب منه، ومن سلم لهذا السائل أن الله تعالى لا يسوغ أن يكلم الكافر؟ وهل هذا إلا خطب بلا أصل؟ أليس أن إبليس رأس الكفر ومعدنه ومع هذا قال الله تعالى ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ =

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

﴿أَرِنِي﴾: بصرني، فإن قلت: كيف قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾، وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً[1]؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسّامعين، و﴿بَلَىٰ﴾:

= رَّجِيمٌ﴾... إلى آخر الآية ويقول تعالى للكفار وهم بين أطباقها يعذبون ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ولأن هذا الأمر متيقن وقوعه فضلاً عن جوازه أول العلماء قوله تعالى ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بمعنى ولا يكلمهم بما يسرهم وينفعهم. هذا وجه تعجبي من السؤال. وأما الجواب فقد أسلفت آنفاً رده بأن إيمان هذا المار على القول بأنه كان كافراً إنما حصل في آخر القصة بعد أن تبينت له الآيات. وأما كلام الله تعالى فمن أول القصة. قلت: الزمخشري كفانا مؤنة هذا الفصل سؤالاً وجواباً والله المستعان.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف قال له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾ وقد علم... إلخ»؟ قال أحمد: الأولى في هذه الآية أن يذكر فيها المختار في تفسيرها من الممتحنة بالفكر المحرر، والنكت المفصحة بالرأي المخمر فما وافق من كلام المصنف ما يذكره فالحمد لله، وما خالفه فالحق فيما ذكرناه والله الموفق. فنقول: أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله عن الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لا ثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية. وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» أي ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى. فإن قلت: إذا كان السؤال مصروفاً إلى الكيفية التي لا يضر عدم تصورها ومشاهدتها بالإيمان ولا تخل به، فما موقع قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾؟ قلت: قد وقعت لبعض الحذاق فيه على لطيفة وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مر، وقد تستعمل في الاستعجاز. مثاله: أن يدعي مدع أنه يحمل ثقلا من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله، فتقول له: أرني كيف محمل هذا، فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم مبرأ منه، أراد بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله: بلى آمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى: ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك. فإن قلت: قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين، فما موقع قول إبراهيم ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾ وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة؟ قلت: معناه ولكن ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة، لأني إذا شاهدتها سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها المتخيلة، وتعينت عندي بالتصوير المشاهد وجاءت الآية مطابقة لسؤاله، لأنه شاهد صورة حياة الموتى، تقديره: الذي يحيي ويميت، فهذا أحسن ما يجري لي في تفسير هذه الآية وربك الفتاح العليم. وأما قول الزمخشري: «إن علم الاستدلال يتطرق إليه =

إيجاب لما بعد النّفي، معناه بلى آمنت، ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾: ليزيد سكوناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة واليقين، ولأنّ علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك، فإن قلت: بم تعلقت اللام في: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾: ؟ قلت: بمحذوف تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب، ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾: قيل: طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: بضم الصاد وكسرها بمعنى فأملهنّ واضممهنّ إليك، قال [من الطويل]:

.... وَلَـكِـنَّ أَطْـرَافَ الـرِّمَـاحِ تَـصُـورُهَـا[(١)]

وقال [من الطويل]:

وَفَـرْعٍ يَـصِـيـرُ الْـجِـيـدَ وَحْـفٍ كَـأَنَّـهُ ... عَلَى اللَّيْتِ قِنْوَانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ[(٢)]

وقرأ ابن عباس - رضي الله عنه - «فصرهن» بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء، من صره يصره ويصره إذا جمعه، نحو: ضره ويضره ويضره، وعنه: «فصرّهن»، من التصرية، وهي الجمع - أيضاً - ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، يريد: ثم جزّئهن وفرّق أجزاءهن على الجبال، والمعنى: على كل جبل من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك، وقيل: كانت أربعة أجبل، وعن السّدّي: سبعة، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾: وقل لهن: تعالين بإذن الله،

= التشكيك بخلاف العلم الضروري، فكلام لم يصدر عن رأي منور ولا فكر محرر، وذلك أن العلم الموقوف عن سبب لا يتصور فيه تشكيك، ما دام سببه مذكوراً في نفس العالم، وإنما الذي يقبل التشكيك قبولاً مطلقاً هو الاعتقاد وإن كان صحيحاً وسببه باقٍ في الذكر، وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن ذروة العلم، ولكن للقدماء من القدرية خبط طويل في تميز العلم عن الاعتقاد، حتى غالى أبو هاشم فقال العلم بالشيء والجهل به مثلان. وهذا على الحقيقة جهل حتى لحقيقة الجهل، والزمخشري في قواعد العقائد يقفو آثار هذا القائل أية سلك فلعله من ثم طرق إلى العلم النظري الشك حسب تطرقه إلى الاعتقاد الذي يكون مرة جهلاً ومرة مطابقاً، والله الموفق.

(١) ومـا صَـيَـرُ الأعـنـاق فـيـهـم جـبـلـة ... ولـكـن أطـراف الـرمـاح تـصـورهـا

الصير - بالتحريك - اعوجاج العنق. ويقال صاره يصوره ويصيره، بمعنى أماله وقطعه. أي ليس ميل الأعناق طبيعة فيهم ولكن أطراف الرماح لكثرتها فوق رءوسهم تميل أعناقهم. وإسناد الإمالة للأطراف مجاز عقلي من الإسناد للسبب. ويجوز أن «فيهم» حال من الصير لا من جبلة، أي حال كونه فيهم.

ينظر: جمهرة اللغة ص (٧٤٥).

(٢) صاره يصيره ويصوره، إذا أماله أو قطعه: وروي: يزين الجيد. والجيد: العنق. والوحف: الكثيف الأسود. والليت: صفحة العنق. والدوالح: المثقلات بالحمل، يصف شعر محبوبته بأنه يميل عنقها لثقله عليه، وشبّه غدائره على جانب جيدها بعناقيد الكروم المثقلات بالحمل.

ينظر: ديوان الأدب (٣/ ٤٠٥).

﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾: ساعيات مسرعات في طيرانهن أو في مشيهن/ ١٩٣أ على أرجلهن، فإن قلت: ما معنى أمره بضمّها إلى نفسه بعد أن يأخذها[١]؟ قلت: ليتأمّلها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحلاها[٢]، لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك، ولذلك قال: يأتينك سعياً، ورُوي أنه أمر بأن يذبحها، وينتف ريشها، ويقطعها، ويفرّق أجزاءها، ويخلط ريشها، ودماءها، ولحومها، وأن يمسك رؤسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر، حتى صارت جثثا ثم أقبلن فانضممن إلى رؤسهن، كل جثة إلى رأسها، وقرىء: «جزأ» بضمتين، «وجزّا»، بالتشديد، ووجهه أنه خُفّف بطرح همزته، ثم شُدّد كما يشدد في الوقف، إجراء للوصل مجرى الوقف.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾: لا بد من حذف مضاف، أي: مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة، والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات، كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلة، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف، كأنّها ماثلة بين عيني الناظر، فإن قلت: كيف صحّ هذا التمثيل والممثّلُ به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود في الدُّخن والذرة وغيرهما، وربّما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المغلّة فيبلغ حبّها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير، فإن قلت: هلا قيل: سبع سنبلات، على حقه من التمييز بجمع القلة، كما قال: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٥٣]؟ قلت: هذا لما قدمت عند قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، [البقرة: ٢٢٨] من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾: أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، لتفاوت أحوال المنفقين، أو يضاعف سَبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: ما معنى أمره بضمها... إلخ»؟ قال أحمد: يريد: ولم يقل طيراناً لأنه إذا كانت ساعية كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة، والله أعلم.

(٢) قوله «وهيآتها وحلاها» جمع حلية بالكسر أي صفاتها. أفاده الصحاح. (ع)

رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾:

المنّ: أن يعتدّ على من أحسن إليه بإسحانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقّاً له، وكانوا يقولون: إذا صنعتم صنيعة فانسوها، ولبعضهم [من الطويل]:

وَإِنَّ امْـرَأً أَسْـدَىٰ إِلَـيَّ صَـنِـيـعَـةً ... وَذَكَّـرَنِـيـهَـا مَـرَّةً لَـلَـئِـيـمُ[1]

وفي نوابغ الكلم: صنوان[2] من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضنّ، وفيها: طعم الألاء أحلى من المنّ وهي أمرّ من الألاء[3] مع المنّ، والأذى: أن يتطاول عليه بسبب ما أزال إليه، ومعنى: «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى، وأنّ تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، فإن قلت: أيُّ: فرق بين قوله: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وقوله فيما بعد: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾:؟ قلت: الموصول لم يضمّن ههنا معنى الشرط/ ٩٣ب وضمنه ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى أنّ الفاء فيها، دلالة على أنّ الإنفاق به استحق الأجر،

---

(١) يقول: وإن رجلاً أعطاني عطية وذكرني بها مرة واحدة ـ للئيم. أي بليغ في اللؤم والخسة.

(٢) قال محمود: «في نوابغ التكلم صنوان. . . إلخ» قال أحمد: «ثم» في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبعد ما بينهما، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك كهذه الآية: وحاصله: أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة، وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها: وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن. ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه؛ وعليه حمل قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أي داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد، وتلك الاستقامة هي المعتبرة، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات. وكذلك قوله ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ أي يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإذاية وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون، والله أعلم. وقريب من هذا أو مثله أن السين تصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ فليس إلى حمل السين على تراخي زمان وقوع الهداية له من سبيل، فيتعين المصير إلى حملها على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخي بقائها وتمادي أمدها. ولعل الزمخشري أشار إلى هذا المعنى في آية إبراهيم عليه السلام، فتأمل هذا الوجه فهو أوجه مما حمل الزمخشري عليه آية البقرة. وهذه الآية أبقى على الحقيقة وأقرب إلى الوضع على أحسن طريقة والله الموفق.

(٣) قوله «وفيها طعم الآلاء» في الصحاح: الآلاء النعم، واحدها «ألا» بالفتح. وفيه أيضاً: الألاء ـ بالفتح ـ شجر حسن المنظر مر الطعم اهـ. واسم النعم على زنة أسباب. والظاهر أن اسم الشجر على زنة صحاب، فليحرر ما في النوابغ. (ع)

وطرحها عار عن تلك الدلالة.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: ردّ جميل، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: وعفو عن السّائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤل، أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل، أو وعفو من جهة السائل لأنه إذا ردّه ردّا جميلاً عذره، ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾: وصح الإخبار عن المبتدأ النكرة، لاختصاصه بالصّفة، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾: لا حاجة به إلى منفق يمنُّ ويؤذي، ﴿حَلِيمٌ﴾: عن معاجلته بالعقوبة، وهذا سخط منه ووعيد له، ثم بالغ في ذلك بما أتبعه، ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾: أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله، ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: لا يريد بإنفاقه رضاء الله ولا ثواب الآخرة، ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾: مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بصفوان بحجر أملس عليه تراب، وقرأ سعيد بن المسيّب: صَفَوَان بوزن كروان، ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾: مطر عظيم القطر، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾: أجرد نقيا من التراب الذي كان عليه، ومنه: صلد جبين الأصلع إذا برق، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾: كقوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ويجوز أن تكون الكاف في محل النّصب على الحال، أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق، فإن قلت: كيف قال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾، بعد قوله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ﴾؟ قلت: أراد بالذي ينفق الجنس أو الفريق الذي ينفق، ولأن «من»، و «الذي»: يتعاقبان، فكأنّه قيل: كمن ينفق.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: وليثبتوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح، وبذله أشقّ شيء على النّفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان؛ لأن النّفس إذا ريضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها، وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتاً لها على الإيمان واليقين، ويجوز أن يراد: وتصديقاً للإسلام، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه، «ومن»: على التفسير الأوّل

للتبعيض، مثلها في قولهم: هز من عطفه، وحرك من نشاطه، وعلى الثاني؛ لابتداء الغاية، كقوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، ويحتمل أن يكون المعنى: وتثبيتاً من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه، وتعضّده قراءة مجاهد: وتبيينا من أنفسهم، فإن قلت: فما معنى التبعيض؟ قلت: معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبّت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذي ثبتها كلها[1]، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] والمعنى: ومثل نفقة/ ١٩٤أ هؤلاء في زكائها عند الله، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾: وهي البستان، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: بمكان مرتفع، وخصّها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: مطر عظيم القطر، ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾: ثمرتها، ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾: فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها، أو مثل حالهم عند الله بالجنّة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطلّ، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة ـ بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع ـ زاكية عند الله، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده، وقرىء: كمثل حبة، وبربوة ـ بالحركات الثلاث ـ و«أكلها» بضمتين.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

الهمزة في، ﴿أَيَوَدُّ﴾: للإنكار، وقرىء: له جنات، وذرية ضعاف، والإعصار: الريح التي تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود، وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار فبلغ الكبر، وله أولاد ضعاف والجنة معاشهم ومنتعشهم، فهلكت بالصاعقة، وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا: الله أعلم، فغضب وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك. قال: ضربت مثلاً لعمل. قال: لأي: عمل؟ قال: لرجل غني يعمل الحسنات. ثم بعث

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «والظاهر أنه نفسه هي التي تُثَبِّته وتحمله على الإنفاق في سبيل الله ليس محرك إلا هي، لما اعتقدَتْه من الإيمان والثواب» يعني فيترجح أن التثبيت مسند في المعنى إلى أنفسهم». انتهى. الدر المصون.

الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها[1]، (١٩٩) وعن الحسن رضي الله عنه: هذا مثلٌ قلّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. فإن قلت: كيف قال، ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: ثم قال: ، ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2]: قلت: النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما ـ وإن كانت محتوية على سائر الأشجار ـ تغليباً لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات، ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها كقوله: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [**الكهف**: ٣٤] بعد قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾[**الكهف**: ٣٢] فإن قلت: علام عطف قوله: ، ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾:؟ قلت: الواو للحال لا للعطف، ومعناه أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر، وقيل: يقال: وددت أن يكون كذا ووددت لو كان كذا، فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيودّ أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾: من جياد مكسوباتكم، ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم﴾: من الحب والثمر والمعادن وغيرها. فإن قلت: فهلا قيل: وما أخرجنا لكم، عطفاً على، ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾: حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض؟ قلت/ ٩٤ب معناه: ومن طيبات ما أخرجنا لكم إلا أنه حذف لذكر الطيبات، ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾: ولا تقصدوا المال الرديء، ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾: تخصونه بالإنفاق، وهو في محل الحال، وقرأ

----

١٩٩ ـ أخرجه البخاري (٨/ ٤٩): كتاب التفسير: باب قوله ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ...﴾ حديث (٤٥٣٨).
والحاكم في مستدركه (٢/ ٢٨٣) والطبري (٥/ ٥٤٥)، حديث (٦٠٩٦).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٠٢) وعزاه لابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد والبخاري والطبري وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس.
قلت: وفي استدراك الحاكم لهذا الحديث وهم.
قال الحافظ: أخرجه البخاري من حديث عبيد بن عمير: أن عمر سأل. فذكره. ا.هـ.

---

(١) قوله «أغرق أعماله كلها» في بعض نسخ الجلال: أحرق، بالحاء، وكذلك عبارة النسفي. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لم ذكر النخيل والأعناب أولاً... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: وهذا من باب تثنية ذكر ما يقع الاهتمام به مرتين عموماً وخصوصاً ومثله (فيهما فاكهة ونخل ورمان) إلا أنه في تلك الآية بدأ بالتعميم وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص والمقصود هو ما نبهنا عليه، والله أعلم.

عبد الله: «ولا تأمموا»، وقرأ ابن عباس: «ولا تيمموا»، بضم التاء، ويممه وتيممه وتأممه، سواء في معنى قصده ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم، ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾: إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترحضوا فيه من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غضّ بصره، ويقال للبائع: أغمِض، أي: لا تستقص، كأنك لا تبصر، وقال الطِّرِمّاح [من الخفيف]:

لَـمْ يَـفُـتْـنَـا بِـالـوِتْـرِ قَـوْمٌ ولِـلـضَّـيْـ ... ـمِ رِجَـالٌ يَـرْضَـوْنَ بِـالإِغْـمَـاضِ[1]

وقرأ الزهريّ: «تغمضوا»، وأغمض وغمض بمعنى، وعنه: «تغمِضُوا»، بضم الميم وكسرها. من غمض يغمض ويغمض، وقرأ قتادة: «تُغمَضُوا»، على البناء للمفعول، بمعنى إلا أن تدخلوا فيه وتجذبوا إليه، وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين، وعن الحسن رضي الله عنه: لو وجدتموه في السوق يباع ما أخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾:

أي: يعدكم في الإنفاق، ﴿ٱلْفَقْرَ﴾، ويقول لكم إنَّ عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا، وقرىء: الفقر، بالضم. والفقر ـ بفتحتين ـ والوعد يستعمل في الخير والشر، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ [الحج: ٧٢]، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾: ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور، والفاحش عند العرب: البخيل[2]، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾: في الإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم وكفارة لها، ﴿وَفَضْلًاۗ﴾: وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، أو ثواباً عليه في الآخرة.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ

---

(١) قوله «لم يفتنا بالوتر قوم» في الصحاح «الموتور» الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. تقول منه: وتره وتراً وترة. وكذلك وتره حقه أي نقصه. (ع)

(٢) الباء للملابسة أو بمعنى مع. والوتر ـ بالكسر ـ الظلم ونقص بعض الحق، ومثله الترة. والفعل وتر كوعد. والضيم: الظلم، والإغماض: ترك بعض الحق والإعراض عنه، كأنه لا يراه. يقول: لم يسبقنا قوم بالوتر ويظفروا منا به. وقوله: وللضيم رجال: استئناف، يعني إنا لا نعرض عن حقنا كغيرنا لشجاعتنا دونهم، أوحال، أي والحال أن للظلم ناس يرضون بترك حقوقهم لعجزهم، ويؤول إلى الأول.

(٣) قوله: «والفاحش عند العرب البخيل» قال [من الطويل]:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد. (ع)

﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾: يوفق للعلم والعمل به، والحكيم عند الله: هو العالم العامل وقرىء: «ومن يؤت الحكمة» بمعنى ومن يؤته الله[1] الحكمة، وهكذا قرأ الأعمش، و﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾: تنكير تعظيم، كأنه قال: فقد أوتي أيّ خير كثير ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. يريد الحكماء العلاّم العمّال، والمراد به الحثّ على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾: في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان، ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾: في طاعة الله، أو في معصيته، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يفون بالنذور، أو ينذرون في المعاصي، ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «إن أرادَ تفسيرَ المعنى فهو صحيحٌ، وإن أرادَ الإعرابَ فليس كذلك؛ إذ ليس ثَمّ ضميرُ نصبٍ محذوفٌ، بل مفعولُ «يُؤتِ» مَنْ الشرطيةُ المتقدمةُ. قلت: ويؤيِّدُ تقديرَ الزمخشري قراءةُ الأعمش: «ومَنْ يُؤتِه الحكمةَ» بإثباتِ هاءِ الضمير، و «مَنْ» في قراءتِه مبتدأٌ لاشتغالِ الفعلِ بمعمولِهِ، وعند مَنْ يجوِّزُ الاشتغالَ في أسماءِ الشرطِ والاستفهام يجوُز في «مَنْ» النصبَ بإضمارِ فعلٍ، ويقدِّرُه متأخراً، والرفعُ على الابتداءِ، وقد تقدَّم تحقيق هذهِ في غضونِ هذا الإعرابِ.

قال الشيخ: «وتقديرُه هكذا يُؤدي إلى حَذْفِ الموصوفِ بـ «أي» وإقامةِ الصفةِ مُقامَه، فإنَّ التقديرَ: فقد أوتي خيراً أيَّ خيرٍ كثيرٍ، وإلى حذفِ «أيّ» الواقعةِ صفةً، وإقامةِ المُضاف إليها مُقامَها، وإلى وصفِ ما يُضاف إليه «أي» الواقعةُ صفةً نحو: مَرَرْتُ برجلٍ أيِّ رجلٍ كريم، وكلُّ هذا يَحْتاج إثباتُه إلى دليل، والمحفوظُ عن العربِ أنّ «أياً» الواقعةَ صفةً تُضاف إلى ما يُماثِلُ الموصوف نحو: «دَعَوْتُ امرأً أيَّ امرىءٍ، فأجابني» وقد يُحْذَفُ المصوفُ بأيّ كقوله [من الطويل]:

إِذَا حَارَبَ الحَجّاجُ أيَّ مُنَافِقٍ ....

تقديرُهُ: منافقاً أيَّ منافقٍ، وهذا نادرٌ، وقد تقدَّم أنَّ تقديرَ الزمخشري كذلك، أعني كونَه حَذْفَ موصوفَ أيّ. وأصلُ «يَذَّكَّرُ»: يَتَذَكَّر فأَدْغَمَ. انتهى. الدر المصون.

«ما» في (نِعمّا): نكرة غير موصولة ولا موصوفة، ومعنى، ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: فنعم شيئاً إبداؤها، وقريء بكسر النون وفتحها، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾: وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: فالإخفاء خير لكم، والمراد الصدقات المتطوّع بها، فإنّ الأفضل في الفرائض أن يجاهر بها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «صدقات السر في التطوّع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً» (٢٠٠) وإنما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل، لنفي التهمة، حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل، والمتطوّع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل (نُكَفِّر) وقرىء بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ونحن نُكَفِّر. أو على أنه جملة من فعل وفاعل مبتدأة، ومجزوماً عطفاً على محل الفاء وما بعده، لأنه جواب الشرط، وقرىء: «ويكفّر»، بالياء مرفوعاً، والفعل لله أو للاخفاء، وتكفر بالتاء، مرفوعاً ومجزوماً، والفعل للصدقات، وقرأ الحسن رضي الله عنه بالياء والنصب بإضمار أن ومعناه: إن تخفوها يكن خيراً لكم، وأن يكفر عنكم.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾: لا يجب عليك أن تجعلهم[1] مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المنّ والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي

---

٢٠٠ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٥٨٣)، حديث (٦١٩٧).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٢٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.
قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية ابن عباس قال: «جعل الله صدقة السر التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً وجعل صدقة الفريضة علانيتها تفضل سرها خمساً وعشرين ضعفاً»، وكذا جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلّها. انتهى.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين... إلخ». قال أحمد رحمه الله: المعتقد الصحيح أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداه، وذاك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه. وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما في هذه الآية، فهو مؤول على زعم الزمخشري بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه. إن هذا إلا اختلاق، وهذه النزعَة من توابع معتقدهم السيء في خلق الأفعال وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسئول أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا.

فحسب، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: يلطف بمن يعلم أنّ اللطف ينفع فيه فينتهي عما نهى عنه، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾: من مال، ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾: فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ﴾: وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجه الله ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله؟، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه وأجملها، وقيل: حجت أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فأتتها أمها تسألها وهي مشركة، فأبت أن تعطيها، فنزلت، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين (٢٠١)، وروي: أنّ ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم[1]، وعن بعض العلماء: لو كان شر خلق الله، لكان لك ثواب نفقتك، واختلف في الواجب، فجوز أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ صرف صدقه الفطر إلى أهل الذمة، وأباه غيره.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

الجار متعلق بمحذوف، والمعنى: اعمدوا للفقراء، واجعلوا ما تنفقون للفقراء، كقوله تعالى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ [النمل: ١٢] ويجوزأن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: صدقاتكم للفقراء، و﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هم الذين أحصرهم الجهاد، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: لاشتغالهم به، ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: للكسب، وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد ـ وهي سقيفته ـ يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى[2] بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضل

---

٢٠١ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٥٨٧، ٥٨٨)، حديث (٦٢٠٣).

---

(١) قوله «كرهوا أن ينفقوهم» لعله على تضمين الفعل معنى الإعطاء. أو لعله محرف وأصله ينفعوهم من النفع. (ع)

(٢) قوله «ويرضخون النوى» في الصحاح: رضخت الحصى والنوى: كسرته، ورضخت له رضخاً، وهو العطاء ليس بالكثير اهـ. (ع)

أتاهم به إذا أمسى، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: «أَبْشِرُوا يا أصحاب الصفة، فمن بقي من أُمَّتِي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائي في الجنة»، (٢٠٢) ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾: بحالهم، ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾: من صفرة الوجه ورثاثة الحال، والإلحاف: الإلحاح، وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه. من قولهم: لحفني من فضل لحافه، أي: أعطاني من فضل ما عنده، وعن النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى يحبّ الحَيِيّ الحليم المتعفف، ويبغض البذيّ السئال الملحف» (٢٠٣) ومعناه: أنهم إن سألوا سألوا بتلطف

---

٢٠٢ ـ أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٢٧٧) بعد ترجمة مبادر بن عبيد الله الرقي عن ابن عباس قال: وقف النبي يوماً على أصحاب الصفة...
وذكره المتقى الهندي في الكنز (٦/ ٤٦٧)، حديث (١٦٥٧٧) وعزاه للخطيب البغدادي.
والحديث ذكره السيوطي في «الجامع الكبير» (١٢٨) وعزاه لأبي عبد الرحمن السلمي في «سنن الصوفية» والخطيب والديلمي عن ابن عباس.
قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٢٠٣ ـ أخرجه البزار في مسنده (٢/ ٤٣٠ كشف): كتاب الأدب: باب فيمن لا يستحي، حديث (٢٠٣١) من طريق مجاهد عن أبي هريرة.
ـ وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ١٦٤)، حديث (١٦٩) وعزاه لإسحاق بن راهويه والطبراني في مسند الشاميين عن عطاء بن مسلم الخراساني عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ أن الله يحب الحليم...
ـ وأخرجه السهمي في تاريخ جرجان ص (١٤٢) من طريق أبي صالح عن أبي هريرة وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٧٨).
ـ وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٠/ ٢٤١)، حديث (١٠٤٤٢) عن عبد الله بن مسعود.
ـ وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٣)، حديث (٢٥٣٤٤) من طريق الأعمش عن حبيب عن ميمون بن أبي شبيب. قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن الله يحب الحيي العفيف...
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٣٤) وعزاه للطبري وابن المنذر عن قتادة قال: ذكر لنا أنّ النبيّ كان يقول: إن الله يحب...
وقد أخرجه الطبري (٥/ ٦٠٠) حديث (٦٢٣١) من طريق قتادة.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبة في الأدب من رواية ميمون بن أبي شبيب عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً إلاّ أنه قال «ويبغض الفاحش البذيء». وقد رُوي موصولاً، والبزّار من طريق محمد بن كثير الملائي عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة به. في حديث أوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وقال: لا نعلمه عن أبي هريرة إلاّ بهذا الإسناد. ا.هـ. وإسناده ضعيف. وقد رواه الطبراني من حديث ابن مسعود به، وأتمّ منه وفي إسناده سوار بن مصعب، وهو ضعيف وله طريق أخرى عن أبي هريرة أخرجها إسحاق في مسنده، والطبراني في مسند الشاميين من طريقه قال: أخبرنا كلثوم بن محمد قال حدثنا عطاء بن أبي مسلم الخراساني عن أبي هريرة ـ =

ولم يلحوا، وقيل: هو نفي للسؤال والإلحاف جميعاً كقوله [من الطويل]:

عَلَى لاَحِبٍ[1] لاَ يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ .... [2]

يريد نفي المنار والاهتداء به.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾:

﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال، وقيل: نزلت في أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ حين تصدّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السرّ، وعشرة في العلانية، وعن ابن عباس

= فذكره مقتصراً على ما ذكره المصنّف بمعناه. وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان وحمزة السهمي في تاريخ جرجان، كلاهما من طريق عيسى بن خالد البلخي عن ورقاء عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ: «إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه، ويكره البؤس والتبؤس ويبغض السائل الملحف، ويحب العفيف المتعفّف». انتهى.

---

(١) قوله: «على لاحب» أي طريق واضح. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) وإني زعيم إن رجعت مملكاً ... بسير ترى منه الفرانق أزورا
على لاحب لا يهتدي بمناره ... إذا سافه العود النباطي جرجرا

لامرىء القيس. والزعيم الكفيل. والفرانق ـ بضم الفاء ـ: رسول يوصل خبر الخوف. والأزور: المائل. يقول: إن ملكوني عليهم كما كنت فإني متكفل بسفر صعب. واللحب واللاحب: الطريق الواسع، من لحبه إذا وطنه ومر فيه، فأصله ملحوب. والمنار أعلام الطريق. وسافه يسوفه سوفاً إذا شمه شماً. ومنه المسافة. والعود: الجمل المسن. ويطلق على الطريق القديم. والسؤدد: القديم. والنباطي: نسبة للنبط، وهم قوم يحلون البطاح بين العراقين يستنبطون منها الماء، كيماني نسبة لليمن. ويروى: العود الديافي. وداف يدوف إذا خلط، ودياف: موضع بالجزائر فيه نبط الشام. والديافي نسبة إليه. والجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته، يعني أنه طريق واسع لا منار فيه يهتدى به، وفيه نوع من البديع يسمونه نفي الشيء بإيجابه، ويفسرونه بأن يكون الكلام ظاهره إيجاب الشيء وباطنه نفيه، بأن ينفي ما هو من سببه وهو المنفي في الباطن. وفي البيت نفي الاهتداء بالمنار، والمقصود نفي المنار كما ذكره السيوطي في شرح عقود الجمان، إذا شمه الجمل المسن عرف أنه طريق وعر لتجربته الطرق، وجرجر خوفاً منه لصعوبته عليه مع تمرنه على السفر، سيما إذا كان من إبل النبط لكثرة رحيلهم. هذا ويحتمل أن السير مجاز عن السياسة كما يشعر به طلب الملك؛ فيكون ما بعده ترشيح للمجاز.

ينظر ديوانه (٩٥)، أمالي ابن الشجري ١/ ١٩٢، الخصائص ٣/ ١٦٥، معاني الزجاج ١/ ٣٥٧، أمالي المرتضى ١/ ١٦٥، اللسان: سوق: الدر المصون ١/ ٦٥٧.

رضي الله عنهما ـ نزلت في عليّ رضي الله عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، (٢٠٤) وقيل: نزلت في علف الخيل وارتباطها في سبيل الله، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، كان إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾:

﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: كتب بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة وزيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع، ﴿لَا يَقُومُونَ﴾: إذا بعثوا من قبورهم[1]، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: أي: المصروع، وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد

---

٢٠٤ ـ أخره الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٩٧)، حديث (١١١٦٤).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٧): وفيه عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٤٢) وعزاه لابن جرير وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر.
من طريق عبد الوهاب عن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «يعني إذا بعثوا من قبورهم... إلخ» قال أحمد: قوله: وتخبط الشيطان من زعمات العرب، أي كذباتهم وزخارفهم التي لا حقيقة لها، كما يقال في الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، فقد ورد «ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخاً» وفي بعض الطرق «إلا طعن الشيطان في خاصرته ومن ذلك يستهل صارخاً إلا مريم وابنها، لقول أمها: إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» وقوله عليه السلام «التقطوا صبيانكم أول العشاء فإنه وقت انتشار الشياطين» وفي حديث مكحول: أنه مر برجل نائم بعد العصر فركضه برجله وقال: لقد دفع عنك الشياطين، أو لقد عوفيت، إنها ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون وفيها يكون الخبتة. قال شمر: كان في لسان مكحول لكنة، وإنما مراد الخبطة من الشيطان، أي إصابة مس أو جنون. وقد ورد في حديث لمفقود الذي اختطفته الشياطين وردته في زمنه عليه الصلاة والسلام أنه حدث عن شأنه معهم قال: فجاءني طائر كأنه جمل، فتعثرني، فاحتملني على خافية من خوافيه، إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره. واعتقاد السلف وأهل السنّة أن هذه أمور على حقائقها واقعة، كما أخبر الشرع عنها. وإنما القدرية خصماء العلانية فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم، من ذلك: السحر، وخبطة الشيطان، ومعظم أحوال الجن، وإن اعترفوا بشيء من ذلك، فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنّة وينبىء عنه ظاهر الشرع، في خبط طويل لهم فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

على ما كانوا يعتقدون، والمس: الجنون، ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنيَّ يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل: معناه ضربته الجنّ ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات. فإن قلت: بم يتعلق قوله: ، ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ :؟ قلت: بـ «لا يقومون»، أي: لا يقومون من المسّ الذي بهم إلا كما يقوم المصروع، ويجوز أن يتعلق بيقوم، أي: كما يقوم المصروع من جنونه، والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف، وقيل الذين يخرجون من الأجداث يوفضون، إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرون على الإيفاض، ﴿ذَٰلِكَ﴾: العقاب بسبب قولهم، ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ : . فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأنّ الكلام في الربا لا في البيع[1] فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع، وقوله: ، ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: إنكار لتسويتهم بينهما، ودلالة عل أنّ القياس يهدمه النص، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾: فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا، ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾: فتبع النهي وامتنع، ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾: فلا يؤخذ بما مضى منه، لأنه أخذ قبل نزول التحريم، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

---

(١) قال محمود: «إن قلت لِمَ لمْ يقولوا: إنما الربا مثل البيع... إلخ» قال أحمد: وعندي وجه في الجواب عن السؤال الذي أورده غير ما ذكر، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين في ثبوت الحكم. فللقائل أن يسوي بينهما طرداً، فيقول مثلاً: الربا مثل البيع، وغرضه من ذلك أن يقول: والبيع حلال فالربا حلال. وله أن يسوي بينهما في العكس فيقول: البيع مثل الربا، فلو كان الربا حراماً كان البيع حراماً ضرورة المماثلة. ونتيجته التي دلت قوة الكلام عليها أن يقول: ولما كان البيع حلالاً اتفاقاً غير حرام، وجب أن يكون الربا مثله، والأول على طريقة قياس الطرد، والثاني على طريقة قياس العكس، ومآلهما إلى مقصد واحد، فلا حاجة على هذا التقرير إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره، وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذي تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح وإن كان قياساً فاسد الوضع، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً في تحريم الربا وتحليل البيع وقطع القياس بينهما، ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالاً صحيحاً فقل في الأول: النبيذ مثل الخمر في علة التحريم، وهو الإسكار، والخمر حرام فالنبيذ حرام. وقل في الثانية: إنما الخمر مثل النبيذ فلو كان النبيذ حلالاً لكان الخمر حلالاً، وليست حلالاً اتفاقاً فالنبيذ كذلك ضرورة المماثلة المذكورة، فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه، والله أعلم.

يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾: إلى الربا، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: وهذا دليل بيّن[1] على تخليد الفساق[2]، وذكر فعل الموعظة لأنّ تأنيثها غير حقيقي، ولأنها في معنى الوعظ، وقرأ أبيٌّ والحسن: «فمن جاءته».، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الربا وإن كثر إلى قلّ.، ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾: ما يتصدّق به بأن يضاعف عليه الثواب ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه، وفي الحديث.: «ما نقصَتْ زكاةٌ من مال قط»، (٢٠٥) ﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين.

---

٢٠٥ ـ أخرجه مسلم (٨/ ٥٤٦ ـ الأبي): كتاب البر والصّلة والأدب: باب استحباب العفو والتواضع حديث (٦٩/ ٢٥٨٨)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)، وابن خزيمة (٤/ ٩٧) حديث (٢٤٣٨) والدارمي (١/ ٣٩٦): كتاب الزكاة: باب في فضل الصّدقة.
ومالك (٢/ ١٠٠٠): كتاب الصّدقة: باب ما جاء في التعفف، حديث (١٢) وأحمد (٢/ ٢٣٥، ٣٨٦، ٤٣٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٨٧): كتاب الزكاة: باب كراهية البخل (١٠/ ٢٣٥) والترمذي (٤/ ٣٧٦): كتاب البر والصّلة: باب ما جاء في التواضع، حديث (٢٠٢٩) وابن حبّان في صحيحه (٨/ ٤٠)، حديث (٣٢٤٨) والبغوي في شرح السنة (٣/ ٣٩٩ ـ بتحقيقنا): كتاب الزكاة: باب فضل الصّدقة، حديث (١٦٢٧) عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.
وأخرجه البزار (١/ ٤٤٠ ـ كشف الأستار)، حديث (٩٣٠) من طريق عبد الله بن غالب ثنا هشام بن عبد الرحمن الكوفي ثنا علقمة بن مرثد عن أبي الربيع عن أبي هريرة به.
وقال البزار: ما حدّث به هكذا إلاّ هشام ولا رواه عنه إلاّ عبد الله بن غالب العبّادَانِي.
وقد حدّث بغير حديث عن الأعمش، قال الحافظ ابن حجر:
من رواية العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بلفظ «ما نقصت صدقة من مال... الحديث» ورواه البزّار من هذا الوجه، فزاد فيه قط. انتهى.

---

(١) قوله «على تخليد الفساق» وهو مذهب المعتزلة ولا يخلدون عند أهل السنّة كما بين في محله. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «في هذه الآية دليل على تخليد الفساق... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وهو يبني على أن المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة، ولا يساعده على ذلك الظاهر الذي استدل به، فإن الذي وقع العود إليه مسكوت عنه في الآية. ألا تراه قال (ومن عاد) فلم يذكر المعود إليه، فيحمل على ما تقدم كأنه قال: ومن عاد إلى ما سلف ذكره فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذي سلف ذكره فعل الربا واعتقاد جوازه، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع. ولا شك عندنا ـ أهل السنّة والجماعة ـ أن من تعاطى معاملة الربا مستحلاً لها مكابراً في تحريمها مسنداً إحلالها إلى معارضة آيات الله البينات بما يتوهمه من الخيالات فقد كفر ثم ازداد كفراً، وإذ ذاك يكون الموعود بالخلود في الآية من يقال إنه كافر مكذب غير مؤمن، وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل للزمخشري إذاً على اعتزاله في هذه الآية، والله الموفق. وإنما هو موكل بتحميل الآيات من المعتقدات الباطلة ما لا تحتمله، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأمروا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. روي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، وقرأ الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «ما بقىٰ»، بقلب الياء ألفاً على لغة طيء: وعنه «ما بقي» بياء ساكنة، ومنه قول جرير [من البسيط]:

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارْضَوْا مَا رَضِي لَكُمُ مَاضِي الْعَزِيمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنَفُ[1]

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: إن صح إيمانكم، يعني أنّ دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك، ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ﴾: فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به، وقرىء: «فآذنوا»، فأعلموا بها غيركم، وهو من الإذن وهو الاستماع، لأنه من طرق العلم، وقرأ الحسن: «فأيقنوا»، وهو دليل لقراءة العامّة. فإن قلت: هلا قيل بحرب الله ورسوله؟ قلت: كان هذا أبلغ، لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم [من] عند الله ورسوله، وروي أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا يديْ لنا بحرب الله ورسوله. ، ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ﴾: من الارتباء، ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ﴾: المديونين[2] بطلب الزيادة عليها، ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾: بالنقصان منها. فإن قلت: هذا حكمهم إن تابوا، فما حكمهم لو لم يتوبوا قلت: قالوا: يكون مالهم فيئاً للمسلمين، وروى المفضل عن عاصم: «لا تظلمون ولا تظلمون»، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ﴾: وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة أو ذو إعسار وقرأ عثمان ـ رضي الله عنه ـ. «ذا عسرة» على وإن كان الغريم ذا عسرة، وقرىء: «ومن كان ذا عسرة». ، ﴿فَنَظِرَةٌ﴾: أي: فالحكم أو فالأمر نظرة وهي الإنظار، وقرىء: «فنظْرة»

---

(١) أي هو المعروف بالعدل. أو هو الخليفة الكامل فارضوا ما رضيَ لكم من الأحكام. وتسكين آخر «رضيَ» ونحوه: لغة شاذة. ماضي العزيمة: نافذ الحكم، ليس في حكمه جنف: أي ميل عن الحق إلى غيره.
ينظر: ديوانه (٣٩٠)، الدر المصون (١/ ٦٦٥).

(٢) قوله «المديونين بطلب الزيادة» القياس المدينين، فلعل هذا مسموع شذوذاً، وسيعبر به فيما بعد أيضاً. (ع)

بسكون الظاء، وقرأ عطاء: «فناظره» بمعنى فصاحب الحق ناظره: أي: منتظره، أو صاحب نظرته على طريقة النسب كقولهم: مكان عاشب وباقل، أي: ذو عشب وذو بقل، وعنه: فناظِرْه، على الأمر بمعنى فسامحه بالنظرة وياسره بها، ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾: إلى يسار وقرىء بضم السين، كمقبرة ومقبرة ومشرقة ومشرقة، وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله [من البسيط]:

.... وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا[1]

وقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]، ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: ندب إلى أن يتصدقوا برءوس أموالهم على من أعسر من غرمائهم أو ببعضها، كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقيل: أريد بالتصدق الإنظار لقوله ﷺ: «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»، (٢٠٦) ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه خير لكم

---

٢٠٦ ـ أخرجه ابن ماجه (٢/٨٠٨) كتاب الأحكام باب إنظار المعسر حديث (٢٤١٨) من طريق الأعمش عن نفيع أبي داود عن بريدة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: من أنظر معسراً كان له كلّ يوم صدقة ما لم يحل ومن أنظره بعد حلّة كان له مثله في كلّ يوم صدقة.

قال البوصيري في «الزوائد» (٢/٢٤٦): هذا إسناد ضعيف نفيع بن الحارث الأعمى الكوفي متفق على ضعفه.

وللحديث طريق آخر أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١) والحاكم (٢/ ٢٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٥٣٨) من طريق محمد بن جحادة عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً.

ومن هذا الطريق ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦٦) وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه وأبي يعلى والطبراني في «جمعه أحاديث محمد بن جحادة».

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ١٥١) رقم =

---

(١) إن الخليط أجدوا البين وانجردوا   وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

لأبي أمية الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب. وقيل: لزهير. والخليط: المخالط في العشرة، وهو كالعشير. يقال للواحد والمتعدد. وأجدوا البين: اجتهدوا في الفراق. وانجردوا. مضوا. وعد الأمر: أصله عدة الأمر. وأصلها وعد، فعوضت التاء عن الواو، ثم حذفت التاء للإضافة كالتنوين على لغة، واختلف فقيل إنها سماعية. وقيل إنها قياسية. واشتراطهم للحذف عدم اللبس ـ فيمتنع في شجرة زيد للبس بشجر زيد ـ يؤيد كونها قياسية. وفي المراح: أن حذف تاء التعويض جائز هنا اتفاقاً. أما عند سيبويه فلأن التعويض عنده من الأمور الجائزة. وأما عند الفراء فلأنه لا يوجب التاء إلا عند عدم الإضافة، وهي هنا متحققة فتقوم مقام العوض، وعائد الموصول محذوف، أي الأمر الذي وعدوه إياك.

ينظر: شرح شواهد الشافية ص ٦٤، شرح التصريح ٢/٣٩٦، لسان العرب «غلب»، «خلط» المقاصد النحوية ٤/٥٧٢، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٥/٢٤١، شرح الأشموني ٢/٣٠٤، شرح شافية الحاجب ١/١٥٨، شرح عمدة الحافظ ص ٤٨٦، لسان العرب (وعد)، (خلط) أوضح المسالك ٤/٤٠٧، الخصائص ٣/١٧١.

فتعملوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه، وقرىء «تصدّقوا» بتخفيف الصاد على حذف التاء، ﴿تُرْجَعُونَ﴾: قرىء على البناء للفاعل والمفعول: وقرىء: «يرجعون» بالياء على طريقة الالتفات، وقرأ عبد الله: «تردّون»: وقرأ أبيّ: «تصيرون»، وعن ابن عباس: أنها آخر آية نزل بها جبريل ـ عليه السلام ـ، وقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة، وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً، (٢٠٧) وقيل: أحداً وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث ساعات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم

= (١١٣٣٠).

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٣٨/٤): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحكم بن الجارود ضعّفه الأزدي وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما.

قال الحافظ ابن حجر:

رواه ابن ماجه من رواية الأعمش عن أبي داود نفيع عن بريدة رفعه «من أنظر معسراً كان له بكلّ يوم صدقة. ومن أنظره بعد حلّه كان له مثله في كلّ يوم صدقة» وأبو داود ضعيف وقد اختلف عليه فيه فرواه عبد الله بن نمير عن الأعمش هكذا وخالفه أبو بكر بن عياش فرواه عن الأعمش عن أبي داود عن عمران بن حصين أخرجه أحمد والطبراني وقد أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي في آخر الشعب كلهم من رواية عبد الوارث عن محمد بن جحادة عن ابن بريدة عن أبيه نحوه وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني. انتهى.

٢٠٧ ـ أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٣٧/٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٣/١) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾: إذا داين بعضكم بعضاً. يقال: داينت الرجل إذا عاملته، ﴿بِدَيْنٍ﴾: معطياً أو آخذاً كما تقول: بايعته إذا بعته أو باعك. قال رؤبة [من الرجز]:

دَايَنْتُ أَرْوَى والدُّيُونُ تُقْضَى فَمَطَلَتْ بَعْضاً وَأَدَّتْ بَعْضَا[1]

والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه. فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى[2] وأي: حاجة إلى ذكر «الدين» كما قال: داينت أروى، ولم يقل: بدين؟ قلت: ذكر ليرجع الضمير إليه في قوله: ، ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾: إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحالّ. فإن قلت: ما فائدة قوله: ، ﴿مُّسَمًّى﴾: قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع الحاج، لم يجز لعدم التسمية، وإنما أمر بكتبة الدين، لأنّ ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود، والأمر للندب، وعن ابن عباس: أن المراد به السلم، وقال: لما حرم الله الرّبا أباح السلف، وعنه: أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه أطول آية، (٢٠٨) ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلق بكاتب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب،

---

٢٠٨ ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٢٨٦) والطبري (٦/ ٤٠)، حديث (٦٣٢١) وعلّقه البخاري (٤/ ٥٠٦): كتاب البيوع: باب السّلم إلى أجل معلوم.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٠٥)، حديث (١٢٩٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٨، =

---

(١) لرؤبة. يقول: عاملت محبوبتي بدين لي عليها من لوازم المودة، فمطلت: أي أخرت بعضاً منه وأطالت مدة تأخيره، وقضت بعضاً منه. وقوله «والديون تقضى» جملة حالية أو اعتراضية مبينة لظلمها في المطل وأصل المطل: المط والمد.
ينظر: ديوانه (٧٩)، الخصائص (٢/ ٩٦)، شواهد الكتاب (٢/ ٣٠٠)، الدر المصون (١/ ٦٧٢).

(٢) قال محمود: «إن قلت هلا قيل إذا تداينتم... إلخ»؟ قال أحمد: الأجل المسمى هو المعلوم انتهاؤه، ولعلم الانتهاء طرق منها التحديد بنفس الزمان كالسنة والشهر. ومنها التحديد بما يعتاد وقوعه في زمن مخصوص مضبوط بالعرف. كالحصاد، ومقدم الحاج. وكيفما علم الأجل صح ضربه، فمن ثم أجاز مالك البيع إلى الحصاد لأنه معلوم عندهم، ثم المعتبر زمان وقوع هذه المسميات لا نفس وقوعها حتى لو حل زمن قدوم الحاج فمنعه مانع من القدوم مثلاً لم يكن به عبرة وحكمنا بحلول أجل الدين، والله أعلم.

يكتب بالسوية والاحتياط. لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص، وفيه: أن يكون الكاتب فقيها عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع، وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلا فقيهاً دينا، ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾: ولا يمتنع أحد من الكتاب وهو معنى تنكير كاتب، ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾: مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير، وقيل هو كقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] أي: ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها، وعن الشعبي: هي فرض كفاية، وكما علمه الله: يجوز أن يتعلق بأن يكتب، وبقوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾. فإن قلت: أي: فرق بين الوجهين؟ قلت: إن علقته بأن يكتب فقد نهى عن الامتناع من الكتابة المقيدة، ثم قيل له، ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾: يعني فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها للتوكيد، وإن علقته بقوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ فقد نهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بها مقيدة[1]، ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾: ولا يكن المملي إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود على ثباته في ذمته وإقراره به، والإملاء والإملال لغتان قد نطق بهما القرآن ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ﴾: من الحق، ﴿شَيْئًا﴾: والبخس: النقص، وقرىء «شياً»، بطرح الهمزة: «وشياً»، بالتشديد، ﴿سفيهاً﴾: محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾: صبياً أو شيخاً مختلاً، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾: أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعيّ به أو خرس، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾: الذي يلي أمره من وصيّ إن كان سفيهاً أو صبياً، أو وكيل إن كان غير مستطيع، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدقه، وقوله تعالى: ، ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾: فيه أنه غير مستطيع بنفسه ولكن بغيره، وهو الذي يترجم عنه، ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾: واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدَّين، ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾: من رجال المؤمنين، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء، وعن علي - رضي

= ١٩): كتاب البيوع: باب جواز السّلف المضمون بالصّفة.

وذكره السيوطي في الدر (١/ ٦٥٤) وعزاه للشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر والحاكم والبيهقي، عن عبد الله بن عباس.

قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الحاكم من رواية أبي حيّان الأعرج عن الأعمش عن ابن عباس قال «أشهد أن السلم المضمون إلى أجل مسمّى أن الله أجله في الكتاب وأذن فيه وقرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهو خلاف الظاهر، وتكون الكاف في هذا القولِ للتعليل» قلت: وعلى القولِ بكونها متعلقةً بقوله: «فليكتب» يجوز أن تكون للتعليل إيضاً، أي: فلأجلِ ما علمه الله فليكتب. انتهى. الدر المصون.

الله عنه ـ: لا تجوز شهادة العبد في شيء، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتيّ أنها جائزة، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل. ، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾: فإن لم يكن الشهيدان، ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾: فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبي حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص، ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾: ممن تعرفون عدالتهم، ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾: أن لا تهتدي إحداهما للشهادة بأن تنساها، من ضل الطريق إذا لم يهتد له، وانتصابه على أنه مفعول له أي: إرادة أن تضل. فإن قلت: كيف يكون ضلالها مراداً لله تعالى؟ قلت: لما كان الضلال سبباً للإذكار، والإذكار مسبباً عنه، وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإذكار إرادة للإذكار، فكأنه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، ونظيره قولهم: أعددت الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه، وأعددت السلاح أن يجيء عدوٌّ فأدفعه، وقرىء: «فتذكر» بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان، و«فتذاكر»، وقرأ حمزة: «إن تضل إحداهما» على الشرط. فتذكر، بالرفع والتشديد، كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] وقرىء: «أن تُضَلَّ إحداهما» على البناء للمفعول والتأنيث، ومن بدع التفاسير فتذكر، فتجعل إحداهما الأخرى ذكرا، يعني أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر، ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾: ليقيموا الشهادة، وقيل: ليستشهدوا، وقيل لهم شهداء قبل التحمل، تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن، وعن قتادة: كان الرجل يطوف [في] الحواء[1] العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد، فنزلت. كني بالسأم عن الكسل، لأنّ الكسل صفة المنافق، ومنه الحديث: «لا يقول المؤمن كسلت» (٢٠٩) ويجوز أن يراد من كثرت مدايناته؛ فاحتاج أن يكتب لكل دين صغير أو كبير كتاباً، فربما مل كثرة الكتب، والضمير في، ﴿تَكْتُبُوهُ﴾: للدين أو الحق، ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾: على أي حال كان الحق من صغر أو كبر، ويجوز أن يكون الضمير للكتاب؛ وأن يكتبوه مختصراً أو مشبعاً لا يخلوا بكتابته، ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾: إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: إشارة إلى أن تكتبوه، لأنه في معنى المصدر، أي: ذلكم الكتب، ﴿أَقْسَطُ﴾: أعدل من القسط، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾: وأعون على إقامة الشهادة، ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: وأقرب من انتفاء الريب. فإن قلت: مِمَّ بني أفعلا التفضيل، أعني: أقسط، وأقوم؟ قلت: يجوز على مذهب سيبويه أن يكونا مبنيين من أقسط وأقام، وأن يكون أقسط

---

٢٠٩ ـ سيأتي تخريجه في سورة براءة. انتهى.

---

(١) قوله «يطوف في الحواء» في الصحاح: الحواء جماعة بيوت من الناس مجتمعة. (ع)

من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذي قسط، وأقوم من قويم، وقرىء[1]. «ولا يسأموا أن يكتبوه» بالياء فيهما. فإن قلت: ما معنى، ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾: وسواء أكانت المبايعة بدين أوبعين فالتجارة حاضرة؟ وما معنى إدارتها بينهم؟ قلت: أريد بالتجارة ما يتجر فيه من الأبدال، ومعنى إدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد، والمعنى: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوه، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، وقرىء: ﴿تجارةٌ حاضرةٌ﴾ بالرفع على كان التامّة، وقيل: هي الناقصة على أنّ الاسم (تجارة حاضرة) والخبر ﴿تُدِيرُونَهَا﴾ وبالنصب على إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كبيت الكتاب [من الطويل]:

بَنِـي أَسَـدٍ هَـلْ تَـعْـلَـمُـونَ بـلاَءَنَـا ... إِذَا كَـانَ يَـوْمـاً ذَا كَـوَاكِـبَ أَشْـنَـعَـا؟[2]

أي: إذا كان اليوم يوماً، ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾: أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً، ناجزاً أو كالئا لأنه أحوط وأبعد مما عسى [أن] يقع من الاختلاف، ويجوز أن يراد: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعني التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة، وعن الحسن: إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد، وعن الضحاك: هي عزيمة من الله ولو على باقة بقل[3]، ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾: يحتمل البناء للفاعل والمفعول، والدليل عليه

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: لم ينصَّ سيبويه على أنَّ أفعلَ التفضيلِ تبني من «أَفعل»، إنما يُؤْخَذُ ذلك بالاستدلالِ، فإنه نصَّ في أوائلِ كتابِه على أنَّ «أَفعَل» للتعجبِ يكونُ من فَعَل وفَعِل وفَعُل وأَفعَل، فظاهرُ هذا أن «أَفعَل» للتعجب يُبني منه أَفعل للتفضيل، فما اقتاسَ في التعجبِ اقتاسَ في التفضيلِ، وما شَذَّ فيه شَذَّ فيه. وقد اختلف النحويون في بناءِ التعجبِ وأَفعَل التفضيلِ من أَفعَل على ثلاثةِ مذاهب: الجوازُ مطلقاً، والمنعُ مطلقاً، والتفصيلُ بين أَنْ تكونَ الهمزةُ للنقلِ فيمتنِعَ، أو لا فيجوزَ، وعليه يُؤَوَّل كلامُ سيبويه، حيث قال: «إنه يبني من أَفعَل» أي الذي همزتُه لغيرِ التعدية. ومَنْ مَنَعَ مطلقاً قال: «لم يَقُلْ سيبويه وأَفعَلَ بصيغة الماضي» إنما قالها أَفعِل بصيغةِ الأمر، فالتبس على السامعِ، ويعني أنه يكونُ فعلُ التعجب على أَفعِلْ، بناؤه من فَعَل وفَعِل وفعُل، وعلى أفعِل. انتهى. الدر المصون.

(٢) من أبيات الكتاب. والمراد من هذا الاستفهام الوعيد والتهديد وتذكير ما سبق أو التقرير، أو هل بمعنى قد. والبلاء: الحرب وكل مكروه. أي يا بني أسد، هل تعلمون حربنا إذا كان اليوم يوماً صاحب كواكب، فاسم كان محذوف. ويجوز أن اسم كان ضمير البلاء، ويوماً ظرف متعلق بالخبر المحذوف. وكنّى بذي الكواكب عن المظلم، لأن الكواكب المتعددة لا تظهر إلا ليلاً، فالمعنى: إذا كان اليوم يشبه الليل في الظلمة من اشتداد الحرب وإثارة الغبار فيحجب الشمس. فكأن النجوم ترى فيه. وأقرب من ذلك أنه استعار الكواكب لأطراف الرماح، وسيوف للمعانها وانتشارها ذلك اليوم كالنجوم على طريق التصريحية، والأشنع: القبيح.
البيت لعمرو بن شأس ينظر الكتاب ١/ ٤٧، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٦٣، وخزانة الأدب ٨/ ٥٢١، والأزهية ص ١٨٦، ولحصين بن همام ينظر المعاني الكبير ص ٩٧٣، ولسان العرب (شهب)، والمقتضب ٤/ ٩٦، والدر المصون ١/ ٦٨٤.

(٣) قوله «على باقة بقل» حزمة منه. أفاده الصحاح. (ع)

قراءة عمر ـ رضي الله عنه ـ: «ولا يضارر»، بالإظهار والكسر، وقراءة ابن عباس رضي الله عنه: «ولا يضارر»، بالإظهار والفتح، والمعنى نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم، ويلزا، أو لا يعطي الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد[1] وقرأ الحسن: «ولا يضار»، بالكسر، ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾: وإن تضارّوا، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: فإنّ الضرار، ﴿فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾: وقيل: وإن تفعلوا شيئاً مما نهيتم عنه، ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: مسافرين، وقرأ ابن عباس وأبيّ ـ رضي الله عنهما ـ «كتاباً»، وقال ابن عباس: أرأيت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والدواة، وقرأ أبو العالية: «كتبا»، وقرأ الحسن: «كتاباً»، جمع كاتب، ﴿فَرِهَٰنٌ﴾: فالذي يستوثق به رهن، وقرىء «فرهن» بضم الهاء وسكونها، وهو جمع رهن، كسقف وسقف، و «فرهان». فإن قلت: لم شرط السفر في الارتهان ولا يختص به سفر دون حضر[2] وقد رهن رسول الله ﷺ درعه في غير سفر.

---

٢١٠ ـ أخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢) كتاب البيوع: باب شراء النبي بالنسيئة حديث (٢٠٦٩) وأحمد (٣/ ١٣٣) والنسائي (٧/ ٢٨٨) كتاب البيوع: باب الرهن في الحضر، وابن ماجه (٢/ ٨١٥) كتاب الرهون: باب (١) حديث (٢٤٣٧).
والترمذي (٣/ ٥١٩ ـ ٥٢٠) كتاب البيوع: باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل حديث (١٢١٥) وأبو يعلى (٥/ ٣٩٤) رقم (٣٠٦١) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص ٢٦٣).
والبيهقي (٦/ ٣٦) كتاب الرهن: باب جواز الرهن، كلهم من حديث قتادة عن أنس أنه مشى إلى النبي ـ ﷺ ـ بخبز شعير وإهالة سَنِخَه ولقد رهن النبي ـ ﷺ ـ درعاً له بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيراً لأهله ولقد سمعته يقول: ما أمسى عند آل محمد ـ ﷺ ـ صاع برّ ولا صاع حبّ وإن عنده لتسع نسوة...
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
قال الحافظ ابن حجر:

---

(١) قوله «مؤنة مجيئه من بلد» لعله من بلد بعيد. (ع)
(٢) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لم شرط السفر في الارتهان ولا يختص به سفر... إلخ» قال أحمد رحمه الله: فالتخصيص بالسفر على هذا جرى على وفق الغالب فلا مفهوم له. وفي هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضيَ الله عنه في إقامة الرهن عند التنازع في قدر الدين مقام شاهد للمرتهن إلى تمام قيمته، حتى لو تنازعا فقال الراهن: رهنتكه بمائة، وقال المرتهن: بل الرهن بمائتين، لكان الرهن شاهداً بقيمته. خلافاً للشافعي رضيَ الله عنه فإنه يرى القول قول الراهن مطلقاً، لأنه غارم، ووجه الدليل لمالك رضيَ الله عنه من الآية: أن الله تعالى جعل الرهن في التوثق عوضاً من الإشهاد والكتابة، وخصه بالسفر لإعوازهما حينئذٍ، ولو كان القول قول الراهن شرعاً لم يكن قائماً مقام الإشهاد ولا مفيداً فائدته بوجه، إذ لو لم يكن الرهن لكان القول قول المديان في قدر الدين فلم يزد وجود الرهن فائدة على عدمه باعتبار نيابته عن الإشهاد، ولا يقال: إن فائدته الامتياز به على =

(٢١٠) قلت: ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة، ولكن السفر لما كان مظنة لإعواز الكتب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر، بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد، وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوّزاه إلا في حال السفر أخذاً بظاهر الآية، وأما القبض فلا بدّ من اعتباره[1]، وعند

= متفق عليه من رواية الأسود بن يزيد عن عائشة. أن النبي - ﷺ - اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل ورهنه درعاً من حديد» وللبخاري من رواية قتادة عن أنس قال: «ولقد رهن رسول الله - ﷺ - درعاً له بالمدينة عند يهودي، وأخذ منه شعيراً لأهله. انتهى.

= الغرماء، لأن تلك فائدة الإشهاد حتى يكون نائباً عنه عند تعذره، ولا فائدة إذ ذاك إلا جعل القول قول المرتهن في قدر الدين عند التخالف وهو مذهب مالك المقدم ذكره. ومن ثم لم يجعله شاهداً إلا في قيمته لا فيما زاد عليها، معتضداً بالعادة في أن رب الدين لا يقبل في دينه إلا الموفى بقيمته. فدعوة أن الدين أكثر من القيمة مردودة بالعادة، والمديان أيضاً لا يسمح بتسليم ما قيمته أكثر فيما هو أقل، فدعواه أن الدين أقل من القيمة مردودة بالعادة، ولا يبقى إلا النظر في أمر واحد، وهو أن المعتبر عند مالك في القيمة يوم الحكم، حتى لو تصادقا على أن القيمة كانت يوم الرهن أكثر أو أقل لم يلتفت إلى ذلك زادت أو نقصت، وإنما يعتبر يوم القضاء. ولقائل أن يقول: إذا جعلتم الرهن مقام الشاهد عند عدمه لأن العادة تقتضي أن الناس إنما يرهنون في الديون المساوي قيمته لها، فينبغي أن تعتبروا القيمة يوم الرهن غير معرجين على زيادتها ونقصانها يوم القضاء، وعند ذلك يتجاذب أطراف الكلام في أن المقتضي لإقامته مقام الشاهد هو المعنى المتقدم أو غيره. وليس غرضنا إلا أن الآية ترشد إلى إقامته مقام الشهادة في الجملة. وأما تفاصيل المسألة فذلك من حظ الفقه.

(١) قال محمود: «وأما القبض فلا بد من اعتباره. . . إلخ» قال أحمد رحمه الله: ليس بين مالك والشافعي خلاف في صحة الارتهان بالإيجاب والقبول دون القبض، ولكنه عند مالك رضيَ الله عنه يصح بذلك، ويلزم الراهن بالعقد تسليمه للمرتهن. وعند الشافعي لا يلزم بالعقد ولكن للقبض عند مالك اعتبار في الابتداء والدوام، ولا يشترط الشافعي كثيراً من أحكامه عند مالك، وذلك أنهما لو تقاررا على القبض ثم قام الغرماء انتفع بالرهن عند الشافعي وامتاز به، ولم ينتفع به عند مالك وكان أسوة الغرماء فيه، حتى ينضاف إلى الشهادة عليهما بالقبض معاينة البينة لذلك، لأنه يتهمهما بالتواطؤ على إسقاط حق الغرماء فلا يعتبر إقرارهما إلا بانضمام المعاينة، فالقبض من هذا الوجه أدخل في الاعتبار على رأي مالك منه على رأي الشافعي، هذا في الابتداء. وأما في الدوام فمالك رضيَ الله عنه يشترط بقاءه في يد المرتهن حتى لو عاد إلى يد الراهن بأن أودعه المرتهن إياه أو أجره منه أو أعاره إياه إعارة مطلقة فقد خرج من الرهن، ولو قام الغرماء وهو بيد الراهن بوجه من الوجوه المذكورة كان أسوة الغرماء فيه، والشافعي رضيَ الله عنه لا يشترط دوام القبض على هذا الوجه، بل الراهن عند الشافعي أن ينتفع بالرهن ولو كره المرتهن إذا لم يكن الانتفاع مضراً بالرهن، كسكنى الدار، واستخدام العبد. وله أن يستوفي منافعه بنفسه على الصحيح عنده المنصوص عليه في الأم ولا يؤثر ذلك في الرهن بطلاناً ولا خللاً. فقد علمت أن القبض أدخل في الاعتبار على مذهب مالك ابتداء ودواماً، والآية تعضده فإن الرهن في اللغة هو الدوام. أنشد أبو علي:

فالخبز واللحم لهم راهن ... وقهوة راووقها ساكب =

مالك يصح الارتهان بالإيجاب والقبول بدون القبض، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين[1] لحسن ظنه به، وقرأ أبيّ «فإن أومن» أي: آمنه الناس[2] ووصفوا المديون بالأمانة والوفاء والاستغناء عن الارتهان من مثله، ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾: حث المديون على أن يكون عند ظن الدائن به وأمنه منه وائتمانه له، وأن يؤدّي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه، وسمي الدين أمانة وهو مضمون لائتمانه عليه بترك الارتهان منه، والقراءة أن تنطق بهمزة ساكنة بعد الذال أو ياء، فتقول: الذي اؤتمن، أو الذي تمن، وعن عاصم أنه قرأ: «الذي اتمن»، بإدغام الياء في التاء، قياساً على اتسر في الافتعال من اليسر، وليس بصحيح. لأنّ الياء منقلبة عن الهمزة، فهي في حكم الهمزة و «اتزر» عاميٌّ، وكذلك ريا في رؤيا، ﴿ءَاثِمٌ﴾: خبر إن، و﴿قَلْبُهُۥ﴾: رفع بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه، ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء، وآثم خبر مقدّم، والجملة خبر إن. فإن قلت: هلا اقتصر على قوله: ، ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ﴾؟ وما فائدة ذكر القلب ـ والجملة هي الآثمة لا القلب وحده ـ؟ قلت: كتمان الشهادة: هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً بالقلب أسند إليه، لأنّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأنّ القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أنّ القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه، ولأنّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تتشعب منها. ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيآت الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أكبر الكبائر

= ولعل القائل باشتراط دوام الرهن في يد المرتهن بما في لفظ الرهن من اقتضاء الدوام، وله في ذلك متمسك. وما طولت في حكاية مذهب مالك في القبض، إلا لأن المفهوم من كلام الزمخشري إطراح القبض عند مالك لأنه فهم من قول أصحابه أن القبض لا يشترط في صحة الرهن. ولا في لزومه أنه غير معتبر عنده بالكلية، والله أعلم.

(١) قوله «المديونين لحسن ظنه به» لعله مسموع شاذ، والقياس المدينين، وكذا المديون قياسه المدين. (ع)

(٢) قوله «أي آمنه الناس» الظاهر أنه من الإفعال بالكسر، لا من المفاعلة، أي جعل الناس البعض وهو الدائن بحيث يأمن البعض الآخر وهو المدين، وذلك بأن وصفوا له المدين بالأمانة إلخ، فصار الدائن بحيث يأمن المدين. (ع)

الإشراك بالله لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، (٢١١) وقرىء: «قلبَه»، بالنصب، كقوله: ، ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقرأ ابن أبي عبلة: «أثم قلبه»، أي: جعله آثماً[1].

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾:

﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾: يعني من السوء ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: ممن استوجب العقوبة بالإصرار، ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان: الوساوس وحديث النفس، لأنّ ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه تلاها فقال: لئن آخذنا الله بهذا لنهلكنّ، ثم بكى حتى سمع نشيجه[2] فذكرَ لابن عباس فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمٰن. قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد فنزل، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾: (٢١٢) وقرىء: «فيغفر» و«يعذب»، مجزومين عطفاً على جواب الشرط، ومرفوعين على فهو يغفر ويعذب. فإن قلت: كيف يقرأ الجازم؟ قلت: يظهر الراء ويدغم الباء، ومدغم الراء في اللام لاحن مخطىء خطأ فاحشا، وراويه عن أبي عمرو مخطىء مرّتين، لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب في قلة الضبط قلة

---

٢١١ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٠٠) رقم (٦٤٤٧).

٢١٢ ـ أخرجه الطبري (٦/ ١٠٦) رقم (٦٤٥٩) والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٣٨٤) رقم (١٠٧٦٩) كلاهما من طريق الزهري عن سعيد بن مرجانة عن ابن عمر.
وله طريق آخر عن ابن عمر.
أخرجه الحاكم (٢/ ٢٨٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٩٧) رقم (٣٢٩) من طريق سالم عن ابن عمر بنحو الطريق الأول.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
قال الحافظ:
أخرجه الطبري من طريق الزهري عن سعيد بن مرجانة عن ابن عمر به.
وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن ابن عمر. انتهى.

---

(١) قوله «أثم قلبه أي جعله آثماً» يحتمل أنه بمد الهمزة من الأفعال، وأنه بتشديد التاء من التفعيل، فليحرر. (ع)

(٢) قوله «حتى سمع نشيجه» في الصحاح: نشج الباكي نشجاً ونشيجاً، إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب. (ع)

الدراية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو، وقرأ الأعمش: «يغفر» بغير فاء مجزوماً على البدل من «من يحاسبكم»، كقوله [من الطويل]:

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[1]

ومعنى هذا البدل التفصيل لجملة الحساب، لأنّ التفصيل أوضح من المفصل، فهو جار مجرى بدل البعض من الكل أو بدل الاشتمال، كقولك: ضربت زيداً رأسه، وأحب زيداً عقله، وهذا البدل واقع في الأفعال وقوعه في الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: إن عطف على الرسول كان الضمير ـ الذي التنوين نائب عنه في كل ـ راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين[2]، ووقف عليه، وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين، ووحد ضمير ﴿كُلٌّ﴾ في ﴿ءَامَنَ﴾ آمن على معنى: كل واحد منهم آمن، وكان يجوز أن يجمع، كقوله: ﴿كُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقرأ ابن عباس: «وكتابه»، يريد القرآن أو الجنس[3] وعنه الكتاب أكثر من الكتب. فإن قلت: كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ قلت: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس ـ والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها ـ لم يخرج منه شيء. فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع[4]، ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾: يقولون لا نفرق، وعن أبي

---

(١) «تلمم» بدل مما قبله، أي متى تنزل عندنا تجدنا موقعين النار بحطب غليظ، وهذا كناية عن كرمهم. وتأججاً: مسند لضمير الحطب والنار، أي اشتعلا، واستدل بهما. وإسناده للنار حقيقي، وللحطب من باب الإسناد للسبب، فهو مجاز عقلي وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز في الإسناد.
والبيت لعبيد الله بن الحر الجعفي. ينظر: الكتاب (٣/٨٦)، شرح المفصل (٧/ ٥٣)، الدرر (٢/ ١٦٦)، الخزانة (٣/ ٦٦٠) والإنصاف (٢/ ٥٨٣) والهمع (٢/ ١٢٨) وشرح الأشموني (٣/ ١٣١)، القرطبي (١/ ٢٦١)، والدر المصون (١/ ١١٣).

(٢) قوله «ورسله من المذكورين» لعل قبله سقطا تقديره: أي كل من المذكورين. (ع)

(٣) قال محمود: «نقل عن ابن عباس أنه قرأ وكتابه. . . إلخ» قال أحمد: وقد قال مالك: إن التمر أحرى باستغراق الجنس من التمور، فإن التمر استرسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمور يرده إلى تخيل الوحدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع وفي صيغة الجمع مضطرب. وهذا الكلام من الإمام لو ظفر له بقول ابن عباس هذا لأشهر الفرضية في الاستشهاد به على صحة مقالته هذه فلا نعيده.

(٤) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليس كما ذكر؛ لأنَّ الجمعَ متى أُضِيف أو دَخَلَتْه الألفُ واللامُ الجنسية صارَ عامًّا، ودلالةُ العامِّ دلالةٌ على كلِّ فردٍ فردٍ، فلو قال: «أَعْتَقْتُ عبيدي» لشمل ذلك كلَّ عبدٍ له، ودلالةُ الجمعِ أظهرُ في العموم من الواحدِ سواءً كانت فيه الألفُ واللامُ أو الإضافةُ، بل لا =

عمرو: «يفرق» بالياء، على أن الفعل لكل، وقرأ عبد الله: «لا يفرقون»، و﴿أَحَدٍ﴾: في معنى الجمع، كقوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٧] ولذلك دخل عليه بين. ، ﴿سَمِعْنَا﴾: أجبنا، ﴿غُفْرَانَكَ﴾: منصوب بإضمار فعله. يقال: غفرانك لا كفرانك، أي: نستغفرك ولا نكفرك وقرىء: «وكتبه ورسله» بالسكون.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

الوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى: ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾: [البقرة: ١٨٥] لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة، وقرأ ابن أبي عبلة «وسعها» بالفتح، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾: ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها. فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لادلالة فيه على الاعتمال. أي: لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا. فإن قلت: النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما[1]؟ قلت: ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ما هما

= يُذْهَبُ إلى العموم في الواحدِ إلاّ بقرينةٍ لفظيةٍ؛ كَأَنْ يُستَثْنَى منه أو يوصفَ بالجمعِ؛ نحو: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفر والدرهم البيض» أو قرينةٍ معنويةٍ نحو: «نيّةُ المؤمنِ أبلغُ مِنْ عملِه» وأقصى حالِهِ أن يكونَ مثلَ الجمعِ العامِّ إذا أُريد به العمومُ» قلت: للناس خلافٌ في الجمعِ المحلّى بألْ أو المضافِ: هل عمومُه بالنسبةِ إلى مراتبِ الجموعِ أم إلى أعمَّ من ذلك، وتحقيقُه في علم الأصول. انتهى. الدر المصون.

(١) قال محمود: «فإن قلت النسيان والخطأ متجاوز عنهما. . . إلخ» قال أحمد: ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنّة، لأنا نقول: إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع كقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» وإذا كان كذلك فلعل رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة، فقد نقل أن الله تعالى قال عند كل دعوة منها: قد فعلت. وإنما التزم الزمخشري ورود السؤال على قواعد القدرية الذاهبين إلى استحالة المؤاخذة بالخطأ والنسيان عقلاً، لأنه من تكليف ما لا يطيق، وهو المستحيل عندهم تفريعاً على قاعدة التحسين والتقبيح، وكلها قواعد باطلة ومذاهب =

مسببان عنه من التفريط والإغفال. ألا ترى إلى قوله: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ [الكهف: ٦٣] والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان، ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه، والإصر: العبء الذي يأصر حامله أي: يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاقّ، من نحو قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك، وقرىء: «آصاراً» على الجمع، وفي قراءة أبيّ: «ولا تحمّل علينا» بالتشديد. فإن قلت: أيّ فرق بين هذه التشديدة والتي في، ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾:؟ قلت: هذه للمبالغة في حمل عليه، وتلك لنقل حمله من مفعول واحد إلى مفعولين، ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾: من العقوبات النازلة بمن قبلنا، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التي كلفها من قبلهم، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها، وقيل: المراد به الشاقّ الذي لا يكاد يستطاع من التكاليف، وهذا تكرير لقوله: ، ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾: . ﴿مَوْلَىٰنَا﴾: سيدنا ونحن عبيدك. أو ناصرنا. أو متولي أمورنا، ﴿فَٱنصُرْنَا﴾: فمن حق المولى أن ينصر عبيده. أو فإنّ ذلك عادتك. أو فإنّ ذلك من أمورنا التي عليك توليها، وعن ابن عباس: «أنّ رسول الله ﷺ لما دعا بهذه الدعوات، قيل له عند كل كلمة: قد فعلت» (٢١٣) وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ الآيتين من

---

٢١٣ ـ أخرجه مسلم (١/ ٤٢٢ نووي): كتاب الإيمان: باب بيان أنه «سبحانه وتعالى لم يكلّف. . .، حديث (٢٠٠/١٢٦).
والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧) عن سعيد بن جبير.
والترمذي في سننه (٥/ ٢٢١): كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٩٢) وأحمد (١/ ٢٣٣) والنسائي في التفسير (١/ ٢٩٣)، حديث (٧٩)، والطبري (٦/ ١٠٤، ١٠٥)، حديث (٦٤٥٧)، وصحّحه ابن حبّان في صحيحه (١١/ ٤٥٨، ٤٥٩)، حديث (٥٠٦٩).
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه مسلم من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ. . . الآية﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم. فقال: قولوا: سمعنا وأطعنا ـ الحديث، وفيه: قد فعلت. في مواضع، وغفل الحاكم فاستدركه. انتهى.

= ماحلة. فالله تعالى يجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ويلهمنا المعتقد الحق والقول المصيب، إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» (٢١٤) وعنه عليه الصلاة والسلام: «أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهنّ نبيٌّ قبلي» (٢١٥) وعنه ـ عليه السلام ـ: «أنزل الله

---

٢١٤ ـ أخرجه البخاري (٨/ ٦٧٢) كتاب فضائل القرآن: باب فضل سورة البقرة حديث (٥٠٠٩) ومسلم (١/ ٥٥٥) كتاب صلاة المسافرين: باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٢٥٥/ ٨٠٧) وأبو داود (١/ ٤٤٤) كتاب الصّلاة: باب تحزيب القرآن حديث (١٣٩٧) والترمذي (٥/ ١٥٩) كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في آخر سورة البقرة حديث (٢٨٨١) والنّسائي في «الكبرى» (٥/ ٩) كتاب فضائل القرآن باب سورة كذا وسورة كذا حديث (٨٠٠٣)، و(٥/ ١٤) باب الآيتان من آخر سورة البقرة حديث (٨٠١٨) وأحمد (٤/ ١٢١، ١٢٢) وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص١٠٥ ـ ١٠٦) رقم (٢٣٣) وعبد الرزاق (٣/ ٣٧٧) رقم (٦٠٢٠) والدارمي (١/ ٢٨٨) وسعيد بن منصور (٤٧٥) وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص ـ ٨٣) رقم (١٦١) والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) رقم (٥٥٠، ٥٥٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٠) كتاب الصّلاة: باب كم يكفي الرجل قراءة القرآن في ليله، وفي «شعب الإيمان» (٢/ ٤٦٢) رقم (٢٤٠٥، ٢٤٠٦) كلّهم من طريق منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنت أحدّث عن أبي مسعود حديثاً فلقيته وهو يطوف بالبيت فسألته فحدّث عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: من قرأ الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
قلت: والذي حدّث عبد الرحمن بن يزيد بهذا الحديث هو علقمة بلا شك.
فأخرجه البخاري (٨/ ٧١٢) كتاب فضائل القرآن باب في كم يقرأ القرآن حديث (٥٠٥١).
قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن مسعود. واختلف في معناه. فقيل: كفتاه: أجزأتاه عن قيام الليل كما في الذي قبله، وقيل: كفتاه: أجراً وفضلاً، وقيل: كفتاه من كلّ شيطان أو من كلّ آفة. انتهى.

٢١٥ ـ أخرجه مسلم (٣/ ٦ نووي): كتاب المساجد: باب (٥)، حديث (٤/ ٥٢٢).
والنّسائي (٥/ ١٥ كبرى): كتاب فضائل القرآن: باب الآيتان من آخر سورة البقرة، حديث (٨٠٢٢) وأحمد (٥/ ٣٨٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٣): كتاب فضائل القرآن.
وصحّحه ابن حبّان في صحيحه (٤/ ٥٩٥)، حديث (١٦٩٧)، وابن خزيمة (١/ ١٣٢)، حديث (٢٦٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٢٢٣): كتاب الطهارة: باب عواذ الماء بعد طلبه، وفي الشعب (٢/ ٤٦٠)، حديث (٢٣٩٩) وفي الدلائل (٥/ ٤٧٥)، وذكره الزيلعي (١/ ١٧٠، ١٧١) حديث (١٧٩) وزاد نسبته إلى البزّار وابن أبي شيبة عن ربعي بن حراش عن حذيفة به.
وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٦٠)، حديث (٢٤٠٤) وأحمد (٥/ ١٥١) والحاكم (١/ ٥٦٢) بلفظ إن الله ختم البقرة... وذكره الزيلعي (١/ ١٧١)، حديث (١٧٩) وزاد في نسبته إلى إسحاق ابن راهويه.
قال الحافظ ابن حجر:
هذا طرف من حديث. أوّلُه عن حذيفة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فُضّلنا على الناس بثلاث: جُعلت لنا الأرض كلّها مسجداً وجُعلت تربتها لنا طهوراً، وجُعلت صُفوفنا كصفوف الملائكة، وأوتيت هؤلاء الآيات آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يُعط منه أحد قبلي، ولا يعطى منه أحد بعديّ: أخرجه النّسائي وأحمد والبزّار وابن أبي شيبة وابن خزيمة وابن حبّان من رواية أبي =

آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمٰن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل» (٢١٦). فإن قلت: هل يجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة أو قرأت البقرة. قلت: لا بأس بذلك، وقد جاء في حديث النبي ﷺ «من آخر سورة البقرة» و «خواتيم سورة البقرة» و «خواتيم البقرة»: (٢١٧).

وعن عليّ رضي الله عنه «خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش» (٢١٨).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أنه رمى الجمرة ثم قال «من ههنا ـ والذي لا إله غيره ـ رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة» (٢١٩)

= مالك الأشجعي عن ربعي بن خراش عن حذيفة، وقد أخرجه مسلم، لكن قال في الثالثة وذكر خصلة أخرى: فأبهمها، وذكرها أصحاب المستخرجات وغيرهم من طريق شيخه بإسناده فيه، وغفل الحاكم فذكر في فضائل القرآن في المستدرك: أنّ مسلماً أخرج هذه الجملة، ولعلّ مسلماً إنّما أبهمها للاختلاف على ربعي فيها، فقد رواه أحمد وإسحاق من رواية جرير عن منصور عن ربعي عن خراش عن زيد بن ظبيان عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لكن تابع أبو مالك نعيم بن أبي هند، أخرجه الطبراني في الأوسط في المحمدين منه من طريقه. انتهى.

٢١٦ ـ أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٧/ ٢٥٤٥) والسّهمي في «تاريخ جرجان» (٢٦٨).
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦٩) وعزاه لابن عديّ والسّهمي.
وكذا فعل السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٦٩).
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن عديّ من حديث ابن مسعود وفي إسناده الوليد بن عباد وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش وهو متروك.

٢١٧ ـ تقدم برقم (٢١٤).
قال الحافظ: تقدماً جميعاً قريباً، ولمسلم من حديث مرة بن شراحيل الطبيب عن ابن مسعود: أُعطي رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً: الصّلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة ـ الحديث. وله عن ابن عباس: بينما جبريل عند النبي ـ ﷺ ـ إذ نزل ملك ـ الحديث وفيه: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة. انتهى.

٢١٨ ـ أخرجه الدارمي (٢/ ٤٤٩): كتاب فضائل القرآن: باب فضل أول سورة البقرة وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٦٩) وعزاه للدارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس وابن مردويه عن علي: ما كنت أرى أن أحداً... إلى أن قال: وإنهن عن كنز تحت العرش.

٢١٩ ـ أخرجه البخاري (٣/ ٥٨١): كتاب الحج: باب يكبّر مع كلّ حصاة، حديث (١٧٥٠)، ومسلم (٢/ ٩٤٢): كتاب الحج: باب رمي جمرة العقبة من بطن الوادي، وتكون مكة عن يساره، ويكبّر مع كلّ حصاة، حديث (٣٠٥/ ١٢٩٦)، وأبو داود (٢/ ٤٩٧): كتاب المناسك (الحج): باب في رمي الجمار، حديث (١٩٧٤)، والترمذي (٣/ ٢٤٥، ٢٤٦): كتاب الحج: باب ما جاء: كيف ترمي الجمار، حديث (٩٠١)، والنّسائي (٥/ ٢٧٣): كتاب الحج: باب المكان الذي ترمي منه جمرة العقبة، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٨): كتاب المناسك: باب من أين ترمي جمرة العقبة، حديث (٣٠٣٠)، وأحمد (١/ ٤١٥). والطيالسي (١/ ٢٢٣ ـ منحة) رقم (١٠٨٢) والحميدي (١/ ٦١) رقم =

ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف وسورة الممتحنة وسورة المجادلة، وإذا قيل: قرأت البقرة، لم يشكل أنّ المراد سورة البقرة كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وعن بعضهم أنه كره ذلك وقال: يقال قرأت السورة التي تذكر فيه البقرة.

عن رسول الله ﷺ: «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فإنّ تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة. قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة» (٢٢٠).

= (١١١) وابن خزيمة (٤/ ٢٧٨) رقم (٢٨٧٩، ٢٨٨٠) وأبو يعلى (٨/ ٣٨٦) رقم (٤٩٧٢) والبيهقي (٥/ ١٢٩) كتاب الحج: باب رمي الجمرة من بطن الوادي والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ١٠٨ ـ بتحقيقنا).

من طريق عبد الرحمن بن يزيد قال: «رمى عبد الله بن مسعود جمرة العقبة من بطن الوادي بسبع حصيات يكبّر مع كلّ حصاة، قال: فقيل له: إنّ أناساً يرمونها من فوقها، فقال عبد الله بن مسعود: هذا والذي لا إله غيره مقام الذي أنزل عليه سورة البقرة».
وقال الترمذي: حسن صحيح.
قال الحافظ: متفق عليه من رواية الأعمش: سمعت الْحَجّاج بن يوسف على المنبر يقول: السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران. والسورة التي يذكر فيها النساء. قال: فذكرته لإبراهيم فقال: حدثني عبد الرحمن بن يزيد أنه كان مع ابن مسعود حين رمى جمرة العقبة. . . الحديث. انتهى.

٢٢٠ ـ قال الزيلعي (١/ ١٧٣)، حديث (١٨٢): غريب بهذا اللفظ.
وأخرجه مسلم (٣/ ٣٤٩ نووي): كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن، حديث (٨٠٤) وأحمد (٥/ ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٥٤) وصحّحه ابن حبّان (١/ ٣٢٢)، حديث (١١٦)، والحاكم في مستدركه (١/ ٥٦٤): كتاب فضائل القرآن، والدارمي (٢/ ٤٣٢): كتاب فضائل القرآن: والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٥، ٣٩٦): كتاب الصّلاة: باب المعاهد على قراءة القرآن وعبد الرزاق (٣/ ٣٦٥، ٣٦٦)، حديث (٥٩٩١)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٨)، حديث (٧٥٤٢). وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٧٣)، حديث (١٨٢).
وعزاه للثعلبي والبغوي من حديث بريدة أيضاً.
قال الحافظ: ذكر أبو شجاع الديلمي في الفردوس. من حديث أبي سعيد الخدري: والمسألة في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة مرفوعاً: اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة. قال معاوية أحد رواته: المعنى أن البطلة السحرة. وفي الباب عن بريدة عند الثعلبي والبغوي.
(تنبيه) المصنّف ذكر حديث أبي سعيد مستدلاً به أن قال: السورة التي يذكر فيها كذا. ولما قبله على الجواز. فإنه من المرفوع ما رواه الطبراني في الأوسط في المحمدين وابن مردويه في تفسيره من حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه رفعه: «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران، وكذا القرآن كلّه، ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كلّه، وفي إسناده عيسى بن ميمون أبو سلمة الخواص، وهو ساقط. انتهى.

سورة آل عمران

مدنية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤﴾

«م» حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام، وأن يبدأ ما بعدها كما تقول: واحد اثنان: وهي قراءة عاصم، وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف. فإن قلت: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام فلا تثبت حركتها لأنّ ثبات حركتها كثباتها؟ قلت: هذا ليس بدرج، لأنّ (م) في حكم الوقف والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنما حذفت تخفيفاً وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها، ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال[1]. فإن قلت: هلا زعمت أنها حركة لالتقاء الساكنين؟ قلت: لأنّ التقاء الساكنين لا يبالى به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق، ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمين في ألف لام ميم، لالتقاء الساكنين، ولما انتظر

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وجوابه ليس بشيء؛ لأنه ادعى أن الميم حين حركت موقوف عليها، وأن ذلك ليس بدَرَج، بل هو وقف وهذا خلاف ما أجمعت عليه العرب والنحاة من أنه لا يوقف على متحرك ألبتة، سواء كانت حركته إعرابية أم بنائية أم نقلية، أم لالتقاء الساكنين، أم للاتباع، أم للحكاية؛ فلا يجوز في «قد أفلح» إذا حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى دال «قد» أن تقف على دال قد بالفتحة بل تسكنها قولاً واحداً». وأما قوله: «ونظير ذلك «واحد اثنان» بإلقاء حركة الهمزة على الدال فإن سيبويه ذكر أنهم يشمون آخر واحد» لتمكنه، ولم يحك الكسر لغة، فإن صح الكسر فليس «واحد» موقوفاً عليه كما زعم الزمخشري، ولا حركته حركة نقل من همزة الوصل، ولكنه موصول بقولهم: اثنان فالتقى ساكنان: دال واحد وثاء اثنين فكسرت الدال لالتقاء الساكنين وحذفت همزة الوصل لأنها لا تثبت في الوصل. انتهى. الدر المصون.

ساكن آخر[1]. فإن قلت: إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في ميم، لأنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك فحركوا. قلت: الدليل على أن الحركة ليست لملاقاة الساكن أنه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، بسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا بين ساكنين، كما قالوا: أصيم، ومديق. فلما حركوا الدال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين[2].

فإن قلت: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ قلت: هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين وما هي بمقولة، و﴿التَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: اسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل ووزنهما بتفعلة وأفعيل، إنما يصح بعد كونهما عربيين، وقرأ الحسن: «الأنجيل»، بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمة، لأن أفعيل ـ بفتح الهمزة ـ عديم في أوزان العرب. فإن قلت: لم قيل ﴿نزل الكتاب﴾[3]، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: ؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة، وقرأ الأعمش: «نزَل عليك الكتابُ» بالتخفيف ورفع الكتاب، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: أي: لقوم موسى وعيسى، ومن قال نحن متعبدون بشرائع من قبلنا فسره على العموم. فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب السماوية[4]، لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل أو الكتب التي ذكرها كأنه قال

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهو سؤال صحيح وجواب صحيح، لكن الذي قال: «إن الحركة هي لالتقاء الساكنين» لا يتوهم أنه أراد التقاء الياء والميم من «ألم» في الوقف، وإنما عني التقاء الساكنين اللذين هما ميم ميم الأخيرة ولام التعريف كالتقاء نون «من» ولام الرجل إذا قلت: «من الرجل» قلت: هذا الوجه هو الذي قدمته عن بعضهم وهو مكي وغيره. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وفي سؤاله تعمية في قوله: «فإن قلت: لم يحركوا لالتقاء الساكنين» ويعني بالساكنين: الياء والميم وحينئذ يجيء التعليل بقوله: «أنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين» يعني الياء والميم. ثم قال: «فإذا جاء ساكن ثالث ـ يعني لام التعريف ـ لم يكن إلا التحريك ـ يعني في الميم ـ فحركوا ـ يعني الميم ـ لالتقائها ساكنة مع لام التعريف؛ إذ لو لم يحركوا لاجتمع ثلاث سواكن وهو لا يمكن». انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «فإن قلت: لم قيل في القرآن نزل... إلخ» قال أحمد: يريد لأن «فعل» صيغة مبالغة وتكثير، فلما كان نزول القرآن منجماً كان أكثر تنزيلاً من غيره لتفرقه في مرار عديدة، فعبر عنه بصيغة مطابقة لكثرة تنزيلاته، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة والتكثير والله أعلم.

(٤) (عاد كلامه) قال: والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي ذكرها أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور. كما أفرده وأخر ذكره في قوله ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل، بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله والله أعلم. قال أحمد: وقد جعل الزمخشري سر التعبير عن نزول القرآن بصيغة «فعل» تفريقه في التنزيل كما تقدم آنفاً، ثم حمل الفرقان على أحد تأويلاته على القرآن والتعبير عنه بأفعل كغيره، فإن يكن هذا ـ والله أعلم ـ فالوجه أنه لما عبر أولاً عن نزوله الخاص به، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى ذكره ثانياً لينعت بصفة زائدة =

بعد ذكر الكتب الثلاثة: وأنزل ما يفرق بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور، كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وهو ظاهر. أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس، تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله ﴿بِءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: له انتقام شديد[1] لا يقدر على مثله منتقم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾: في العالم فعبر عنه بالسماء والأرض، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: من الصور المختلفة المتفاوتة، وقرأ طاوس: «تصوّركم»، أي: صوّركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالاً، إذا جعلته أثلة، أي: أصلاً، وتأثلته، إذا أثلته لنفسك، وعن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أنّ عيسى كان رباً، كأنه نبه بكونه مصوراً في الرحم، على أنه عبد كغيره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾: أحكمت عبارتها[2] بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه، ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾:

= على اسم الجنس، عبر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاء بتميُّزه أولاً وإجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى: الكلام يجمل في غير مقصوده، ويفصل في مقصوده.

(١) قال محمود: «معناه له انتقام شديد... إلخ». قال أحمد: وإنما يلقى هذا التفخيم من التنكير وهو من علاماته مثله في قوله ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾.

(٢) قال محمود: «المحكمات التي أحكمت عبارتها... إلخ». قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي على وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي. وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى على بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه بزعمهم إلى الآية التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم. والآية قوله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وغرضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فنقول: محمل قوله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في دار الدنيا. ومحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعاً بين الأدلة. أو نقول: =

مشتبهات محتملات، ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها، ومثال ذلك ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣]، ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]. فإن قلت: فهلا كان القرآن كله محكماً؟ قلت: لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمّل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله، ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوّة في إيقانه، ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: هم أهل البدع، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾: فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق، ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم، ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: وطلب أن يأوّلوه التأويل الذي يشتهونه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى

= الأبصار وإن كانت ظاهرة العموم إلا أن المراد بها الخصوص، أي لا تدركه أبصار الكفار كقوله ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ ونقول: لا تعارض بين الآيتين. فنقر كل واحدة منها في نصابها. وبيان ذلك: أن الأبصار عام بالألف واللام الجنسيتين، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذٍ يكون في العموم مرادفة لدخول كل، لأن كليهما أعني المعروف والجنسي، وكلا يفيد الشمول والإحاطة، وإذا أثبت ذلك فالسلب داخل على الكلية. والقواعد مستقرة على أن سلب الكلية جزئي لغة وتعقلاً. ألا ترى أن القائل إذا قال: لا تنفق كل الدراهم، كان المفهوم من ذلك الإذن في إنفاق البعض والنهي عن إنفاق البعض، ومن حيث المعقول أن الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد ولو واحداً، وحينئذٍ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأبصار وثبوتها لبعض الأبصار، وهذا عين مذهب أهل السنّة، لأنهم يثبتونها للموحدين ويسلبونها عن الكفار كما أنبأ عنه قوله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ فقد ثبت أن هذه الآية إما محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها، دليلاً على ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال قد ثبت الفرق بين دخول كل على المعرف تعريف الجنس وبين عدم دخولها. ألا ترى أنهم يقولون إن قولنا: «الإنسان كاتب» مهمل في قوة الجزئية، وإن قولنا «كل إنسان حيوان» كلي لا جزئي. لأنا نقول إنما جارينا القدرية على ما يلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام، ولكفونا مؤنة البحث في ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملاً، بل هذا هو الكلي عندهم والله الموفق. وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ والأخرى التي هو قوله تعالى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فلا ينازع الزمخشري في تمثيل المحكم والمتشابه بهما.

﴿ٱلْعِلْمِ﴾: أي: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله[1] وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع، ومنهم من يقف على قوله (إلا الله)، ويبتدىء ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه، والأوّل هو الوجه، ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: أي: بالمتشابه، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: أي: كل واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمّل ويجوز أن يكون، ﴿يَقُولُونَ﴾: حالا من الراسخين، وقرأ عبد الله: «إن تأويله إلا عند الله»، وقرأ أبيّ: «ويقول الراسخون».

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا[2]، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: وأرشدتنا لدينك. أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا، ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾: من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة، وقرىء «لا تزغ قلوبنا»، بالتاء والياء ورفع القلوب، ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾: أي: تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]

---

(١) قال محمود: «معناه لا يهتدي إلى تأويله... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وقوله «لا يهتدي إليه إلا الله» عبارة قلقة، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أن في هذه اللفظة إيهاماً إذ الاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جهل وضلال ـ جل الله وعز ـ حتى إن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه: فلان المهتدي، ذلك مقتضى اللغة فيه فإنه مطاوع هدى. يقال: هديته فاهتدى، والإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه وكان موهماً لا يجوز إطلاقه على الله عز وجل. ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى حيث حد مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه. فلأن ينكر على الزمخشري إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجدر. وما أراها صدرت منه إلا وهما حيث أضاف العلم إلى الله تعالى وإلى الراسخين في العلم، فأطلق الاهتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه ذكرهم مضائين إلى الله تعالى في الفعل المذكور والله أعلم.

(٢) قال محمود: «معناه ربنا لا تبلنا ببلايا... إلخ» قال أحمد: أما أهل السنّة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة، لأنهم يوحدون حق التوحيد، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيغ مخلوق لله تعالى. وأما القدرية فعندهم أن الزيغ لا يخلقه الله تعالى وإنما يخلقه العبد لنفسه، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف به، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافاً إلى هذه الدعوة بأن لا يبتلينا ولا يمنعنا لطفه آمين، لأن الكل فعله وخلقه، ولا موجود إلا هو وأفعاله، التي نحن وأفعالنا منها.

وقرىء: «جامع الناس»، على الأصل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: معناه أنّ الإلهية تنافي خلف الميعاد كقولك:

إن الجواد لا يخيب سائله

والميعاد: الموعد. قرأ علي ـ رضي الله عنه ـ: «لن تغني» بسكون الياء، وهذا من الجدّ في استثقال الحركة على حروف اللين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

﴿مِّنَ﴾: في قوله: ، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: مثله في قوله: ﴿وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً﴾ [النجم: ٢٨] والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله، ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾: أي: بدل رحمته وطاعته وبدل الحق: ومنه: «ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ» أي: لا ينفعه جدّه وحظه من الدنيا بذلك، أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عندك وفي معناه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧] وقرىء: «وقود»، بالضم بمعنى أهل وقودها، والمراد بالذين كفروا من كفر برسول الله ﷺ، وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير. الدأب: مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم، ويجوز أن ينتصب محل الكاف بـ «لن تغني»، أو بالوقود. أي: لن تغني عنهم مثل ما لم تُغنِ عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كدأب أبيك تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإنّ فلاناً لمحارف كدأب[1] أبيه، تريد كما حورف أبوه ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مافعلوا وفعل بهم، على أنه جواب سؤال مقدّر عن حالهم، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هم مشركو مكة، ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾: يعني يوم بدر، وقيل: هم اليهود. لما غلب رسول الله ﷺ يوم بدر قالوا: هذا والله النبي الأميّ الذي بشرنا به موسى، وهموا باتباعه. فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكُّوا، وقيل جمعهم رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل، فقالوا: لا يغرّنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم

---

(١) قوله «وإن فلاناً لمحارف كدأب أبيه» في الصحاح: رجل محارف ـ بفتح الراء ـ أي محدود محروم، وهو خلاف قولك: مبارك. (ع)

بالحرب فأصبت منهم فرصة، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، (٢٢١) فنزلت، وقرىء: «سيغلبون ويحشرون»، بالياء، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم﴾ [الأنفال: ٣٨] على قل لهم قولي لك سيغلبون. فإن قلت: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم. فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون وهو الكائن من نفس المتوعد به والذي يدل عليه اللفظ ومعنى القراءة بالياء الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. كأنه قال: أدّ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك سيغلبون ويحشرون.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾: الخطاب لمشركي قريش، ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾: يوم بدر، ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾: يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين[1] قريباً من ألفين. أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله كما أمدّهم بالملائكة، والدليل عليه قراءة نافع: «ترونهم»، بالتاء أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم. فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]. قلت: قللوا أوّلا في أعينهم حتى اجترؤا عليهم فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩] وقوله تعالى:

---

٢٢١ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ١٥٤): كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، حديث (٣٠٠١).
والطبري (٦/ ٢٢٨)، حديث (٦٦٦٨).
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه أبو داود والطبري من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال «لما أصاب رسول الله ـ ﷺ ـ قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود ـ الحديث... انتهى.

---

(١) قال محمود: «معناه يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين... إلخ» قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدمة على رأي أهل السنّة.

﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية، وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين[١] على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ [الأنفال: ٦٦] بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ [الأنفال: ٦٥] ولذلك وصف ضعفهم[٢] بالقلة لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم، وقراءة نافع لا تساعد عليه، وقرأ ابن مصرّف: «يرونهم»، على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي: يريهم الله ذلك بقدرته، وقرىء: «فئة تقاتل وأخرى كافرة»، بالجرّ على البدل من فئتين، وبالنصب على الاختصاص. أو على الحال من الضمير في «التقتا». ، ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ﴾: يعني رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، معاينة كسائر المعاينات، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ﴾: كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدوّ.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾: المزين هو الله سبحانه وتعالى[٣] للابتلاء، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى

---

(١) (عاد كلامه) قال: «وقيل يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين... إلخ» قال أحمد: إنما قال ذلك لأن الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أي ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثلين أيضاً للمسلمين. وقد جاء على لفظ الغيبة فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة والالتفات وإن كان سائغاً فصيحاً، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين. وقد جاء ههنا الكلام جملة واحدة، لأن مثلهم مفعول ثان للرؤية، ولو قال القائل: ظننتك يقوم، على لفظ الغيبة بعد الخطاب، لم يكن بذاك، فهذا هو الوجه الذي أعد الزمخشري به بين قراءة نافع وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين آنفاً، لأنه قال: معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم أو مثلي فئتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثاني يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة في الجملة بعينها، كما ألزمه هو على ذلك الوجه والله أعلم.

(٢) قوله «ولذلك وصف ضعفهم» لعل هذا في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ أي وصف ضعف المسلمين وهو الستمائة بالقلة، مع أن ضعف الشيء أكثر منه، فتدبر. (ع)

(٣) قال محمود: «المزين هو الله تعالى... إلخ» قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها =

ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ [الكهف: ٧] ويدل عليه قراءة مجاهد: «زَيَّنَ للناس»، على تسمية الفاعل، وعن الحسن: الشيطان، والله زينها لهم، لأنا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها، ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: جعل الأعيان التي ذكرها شهوات[1] مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية، وقال: ، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: ثم جاء بالتفسير، ليقرر أوّلا في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلّ على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله، والقنطار: المال الكثير. قيل: ملء مسك ثور، وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار، ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، و﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾: مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة، وبدرة مبدرة، و ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: المعلمة، من السومة وهي العلامة. أو المطهمة أو المرعية[2] من أسام الدابة وسوّمها، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الأزواج الثمانية، ﴿ذَٰلِكَ﴾: المذكور، ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾: كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم، كما تقول: هل أدلك على رجل عالم؟ عندي رجل صفته كيت وكيت، ويجوز أن يتعلق اللام بـ «خير»، واختص المتقين، لأنهم هم المنتفعون به، وترتفع، ﴿جَنَّٰتٌ﴾: على: هو جنات، وتنصره قراءة من قرأ «جنات» بالجرّ على البدل من خير، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعدّ لهم الجنات.

= في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة، لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء، من جوهر، ومن عرض قائم بالجوهر، حب أو غيره. محمود في الشرع أولا. ويطلق التزيين ويراد به الحض على تعاطي الشهوات والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً كالنكاح المقترن بقصد التناسل واتباع السنة فيه وما يجري مجراه. وأما الشهوات المحظورة فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها. وكلام الحسن رضيَ الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول، فإنه يحاشي أن ينسب خلق الله إلى غير الله. وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة تنزيلاً لها على قواعد القدرية الفاسدة، فتفطن لها وبرىء قائلها من السلف الصالح عما يزعم الزمخشري النقل عنه، والله الموفق.

(١) (عاد كلامه) قال: «جعل الأعيان التي ذكرها شهوات. . . إلخ» قال أحمد: يريد إلحاقها بباب: رجل صوم وفطر، مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(٢) قوله «أو المطهمة أو المرعية» عبارة أبي السعود. أو المطهمة التامة الخلق اهـ. وفي الفخر: قال القفال: المطهمة المرأة الجميلة المرتبة اهـ. (ع)

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾: نصب على المدح، أو رفع، ويجوز الجرّ صفة للمتقين أو للعباد، والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كما لهم في كل واحدة منها، وقد مرّ الكلام في ذلك، وخص الأسحار لأنهم كانوا يقدّمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وعن الحسن: كانوا يصلون في أوّل الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار، هذا نهارهم، وهذا ليلهم.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك واحتجاجهم عليه، ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه كقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[1] [فاطر: ٣١]. فإن قلت: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه؟ ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكباً لم يجز؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] إن انتصب

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليس من بابِ الحالِ المؤكدةِ؛ لأنه ليس من باب: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ولا من باب: «أنا عبدُ الله شجاعاً» فليس: «قائماً بالقسط» بمعنى شَهِد، وليس مؤكداً لمضونِ الجملةِ السابقةِ في نحو: أنا عبدُ الله شجاعاً وهو زيدٌ شجاعاً، لكنْ في هذا التخريجِ قَلَقٌ في التركيبِ؛ إذ يصير كقولك: «أكلَ زيدٌ طعاماً وعائشةُ وفاطمةُ جائعاً» فَيَفْصِل بين المعطوفِ عليه والمعطوفِ بالمفعول، وبين الحالِ وذي الحال بالمفعول والمعطوفِ، لكنْ بمشيئةِ كونِها كلِّها معمولةً لعاملٍ واحدٍ.» انتهى.

قلت: مؤاخَذَتُهُ له في قولِهِ: «مؤكدةٌ» غيرُ ظاهرٍ؛ وذلك أنَّ الحالَ على قسمين: إمّا مؤكدةٌ وإمّا مُبيِّنة، وهي الأصلُ، فالمُبَيِّنَةُ لا جائزٌ أن تكونَ ههنا، لأنَّ المبيِّنة تكونُ منتقلةً، والانتقالُ هنا مُحالٌ؛ إذ عَدْلُ اللّهِ تعالى لا يتغيَّرُ، فإنْ قيل لنا قسمٌ ثالثٌ، وهي الحالُ اللازمةُ فكانَ للزمخشري مندوحةٌ عن قوله «مؤكدة» إلى قوله «لازمةٌ» فالجوابُ أنَّ كلَّ مؤكدةٍ لازمةٌ وكلَّ لازمةٍ مؤكدةٌ فلا فرقَ بين العبارتين، وإن كان الشيخُ زَعَم أنَّ إصلاحَ العبارةِ يَخصُل بقوله: «لازمة»، ويَدُلُّ على ما ذكرتُهُ من ملازَمَةِ التأكيدِ للحالِ اللازمةِ وبالعكس الاستقراءُ. وقولُه: «ليس معنى قائماً بالقسط معنى شهد» ممنوعٌ بل معنى «شَهِد» مع متعلَّقِهِ ـ وهو أنه لا إله إلا هو ـ مساوٍ لقولِهِ «قائماً بالقسط» لأنَّ التوحيدَ ملازمٌ للعدلِ.

«نافلة» حالا عن «يعقوب»، ولو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة[1]، أو على المدح. فإن قلت: أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة كقولك: الحمد لله الحميد. «إنا معشر الأنبياء لا نورث». (٢٢٢) [من البسيط]:

----

٢٢٢ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) كتاب فرض الخمس: باب فرض الخمس حديث (٣٠٩٤)، (٧/ ٣٨٩) كتاب المغازي: باب حديث لبني النضير حديث (٤٠٣٣)، (٩/ ٤١٢ ـ ٤١٣) كتاب النفقات: باب حبس الرجل قوت سنة على أهله حديث (٥٣٥٨)، (١٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع حديث (٧٣٠٥) ومسلم (٣/ ١٣٧٧ ـ ١٣٧٩) كتاب الجهاد: باب حكم الفيء حديث (٤٩/ ١٧٥٧) وأبو داود (٢/ ١٥٤ ـ ١٥٦) كتاب الخراج: باب في صفايا رسول الله ـ ﷺ ـ من الأموال حديث (٢٩٦٣) والترمذي (٤/ ١٥٨) كتاب السير: باب ما جاء في تركة رسول الله ـ ﷺ ـ حديث (١٦١٠) وفي «الشمائل» (٢١٦) وعبد الرزاق (٩٧٧٢) وأبو يعلى (١/ ١٢، ١٣) رقم (٢، ٤) وابن حبّان في «صحيحه» (٨/ ٢٠٧ ـ الإحسان) حديث (٦٥٧٤) والبيهقي (٦/ ٢٩٧) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٦٣١، ٦٣٢ ـ بتحقيقنا) كلّهم من طريق الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب به وفيه قصة طويلة.
وأخرجه مالك (٢/ ٩٩٣) كتاب الكلام: باب ما جاء في تركة النبي ـ ﷺ ـ حديث (٢٧) والبخاري (١٢/ ٨،٧) كتاب الفرائض: باب قول النبي ـ ﷺ ـ لا نورّث ما تركنا صدقة حديث (٦٧٢٧، ٦٧٣٠) ومسلم (٣/ ١٣٧٩) كتاب الجهاد والسير: باب قول النبي ـ ﷺ ـ: «لا نورّث ما تركنا فهو صدقة». حديث (٥١/ ١٧٥٨) وأبو داود (٢/ ١٦٠، ١٦١) كتاب الخراج والفيء والإمارة: باب في صفايا رسول الله ـ ﷺ ـ من الأموال حديث (٢٩٧٦، ٢٩٧٧) والنسائي (٧/ ١٣٢) كتاب قسم الفيء وأحمد (٦/ ١٤٥، ٢٦٢) وعبد الرزاق (٩٧٧٤) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (١٠٩٨) وابن حبّان (٨/ ٢٩ ـ الإحسان) رقم (٦٥٧٧) والبيهقي (٦/ ٢٩٧، ٢٩٨) كلّهم من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: إنّ أزواج النبي ـ ﷺ ـ حين توفي رسول الله ـ ﷺ ـ أردن أن يبعثن عثمان بن عفّان إلى أبي بكر فيسألنه ميراثهن من النبي ـ ﷺ ـ قالت عائشة لهنّ: أليس قد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا نورّث ما تركنا فهو صدقة». =

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وما ذَكَره مِنْ قوله: «جاءني زيدٌ وعمروٌ راكباً» أنه لا يجوزُ ـ ليس كما ذَكَر، بل هذا جائزٌ؛ لأنَّ الحالَ قَيْدٌ فيمن وَقَعَ منه أو به الفعلُ أو ماأ شبه ذلك، وإذا كان قيداً فإنه يُحْمَل على أقرب مذكورٍ، ويكون «راكباً حالاً مِمَّا يَليه، ولا فرقَ في ذلك بين الحالِ والصفةِ، لو قلت: «جاءني زيدٌ وعمروٌ الطويلُ» كان «الطويلُ» صفةً لعمرو، ولا تقولُ: لا تجوزُ هذه المسألةُ لِلَّبْس؛ إذ لا لَبْسَ في هذا وهو جائزٌ، وكذلك الحالُ. وأمَّا قولُه: «إنَّ نافلةً» انتصَب حالاً عن يعقوب» فلا يتعيَّنُ أَنْ يكونَ حالاً عن يعقوب؛ إذ يُحتمل أَنْ يكونَ «نافلةً» مصدراً كالعاقبة والعافِية، ومعناه: «زيادة، فيكونُ ذلك شاملاً لإِسحاق ويعقوب؛ لأنهما زيداً لإِبراهيم بعد ابنه إسماعيل وغيره» قلت: مرادُ الزمخشري بمنع «جاءني زيد وعمرو راكباً» إذا أُريد أَنَّ الحالَ منهماً معاً، أمَّا إذا أريد أنها حالٌ من واحدٍ منهما فإنَّما تُجْعَلُ لِما تليه، لعودِ الضميرِ على أقرب مذكور، وبعضَهم جَعَله حالاً من «هو». انتهى. الدر المصون.

إِنَّـا بَـنِـي نَـهْـشَـلٍ لاَ نَـدَّعِـي لأَبٍ ....

قلت: قد جاء نكرة كما جاء معرفة، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي[من المتقارب]:

وَيَـأْوِي إِلَـى نِـسْـوَةٍ عُـطَّـلٍ وَشُعْـثـا مَـرَاضِـيـعَ مِـثْـلَ السَّعَـالِـي[1]

فإن قلت: هل يجوز أن يكون صفة للمنفي كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ قلت: لا يبعد، فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف. فإن قلت: قد جعلته حالا من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالاً عن «هو» في، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ :؟ قلت: نعم، لأنها حال مؤكدة والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها، كقولك: أنا عبد الله شجاعاً، وكذلك لو قلت: لا رجل إلا عبد الله شجاعاً[2]، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدح.

= وفي بعض طرق الحديث أنّ راوي هذا الحديث هو أبو بكر.
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه أحمد. حدّثنا وكيع حدّثنا سفيان عن أبي الزّناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا. ورواه النّسائي في الكبرى، من رواية ابن عيينة عن الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: قال عمر لعبد الرحمن وسعد وعثمان وطلحة والزبير «أنشدكم بالله الذي قامت له السّموات والأرض، أسمعتم النبي ـ ﷺ ـ يقول ـ فذكره، وفيه قالوا: اللّهمّ نعم» وأخرجه في الكنى في ترجمة أبي إدريس تلميذ أبي سليمان من رواية عن عبد الملك بن عمر عن أبي هريرة مثله. وأصله متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «لا نورّث ما تركنا صدقة». انتهى.

---

(1) للهذلي يصف رجلاً يصيد ويرجع إلى زوجته وبناته عطل عاريات من الحلي والثياب. وشعثا نصب على الذم، أي وأذم شعثاً أي مغبرات الوجوه من الجوع. والعطل: جمع عاطلة. والشعث. جمع شعثاء، كسود وسوداء. ومراضيع: جمع مرضاع قياساً، أو مرضع سماعاً، أي ترضع أولادها مثل السعالي جمع سعلاة وهي أنثى الشياطين، أي كريهات المنظر مثل الأغوال، وهي أقبح شيء عند العرب.
البيت لأمية بن أبي عائذ الهذلي في خزانة الأدب ٢/٤٢٦، ٤٣٢، ٥/٤٠، وشرح أبيات سيبويه ١/١٤٦، وشرح أشعار الهذليين ٢/٥٠٧، وشرح التصريح ٢/١١٧، والكتاب ١/٣٩٩، ٢/٦٦، ولأبي أمية في المقاصد النحوية ٤/٦٣، وللهذلي في شرح المفصل لابن يعيش ٢/١٨، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/٣٢٢، وأوضح المسالك ٣/٣١٧، ورصف المباني ص ٤١٦، وشرح الأشموني ٢/٤٠٠، والمقرب ١/٢٢٥ وينظر الدر المصون ٢/٤٤.

(2) قال السمين الحلبي: يعني أنّ الحالَ المؤكَّدَة لا يَكونُ العاملُ فيها النصبَ شيئاً من الجملةِ السابقةِ قبلَها، إنما ينتصبُ بعاملٍ مضمرٍ، فإنْ كان المتكلمُ مُخبِراً عن نفسه نحو: «أنا عبدُ الله شجاعاً» قَدَّرْتَه: أَحقُّ شجاعاً، مبنياً للمفعول، وإنْ كان مُخبِراً عن غيره قَدَّرْتَه مبنياً للفاعل نحو: «هذا عبدُ الله شجاعاً» أي: أَحقُّه، هذا هو المذهبُ المشهورُ في نصبِ مثلِ هذه الحالِ. وفي المسألةِ قولان =

فإن قلت: هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولي العلم كما دخلت الوحدانية؟ قلت: نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفة للمنفي، كأنه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط، وقرأ عبد الله: «القائم بالقسط»، على أنه بدل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف، وقرأ أبو حنيفة: «قيما بالقسط»، ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: صفتان مقرّرتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل، يعني أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله. فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل[1] والتوحيد، وقرىء: «أنه» بالفتح، و﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾: بالكسر على أنّ الفعل واقع على أنه بمعنى شهد الله على أنه، أو بأنه، وقوله: ، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾: جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدته أن قوله: ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: توحيد، وقوله: ، ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: تعديل، فإذا أردفه قوله: ، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾: فقد آذن أن الإسلام هو العدل[2] والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين، وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدّي إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بين جلي كما ترى، وقرئا مفتوحين، على أن الثاني[3] بدل من الأوّل. كأنه قيل: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً، لأن دين الله هو التوحيد والعدل، وقرىء الأوّل بالكسر والثاني بالفتح، على أن الفعل واقع على «إنّ»[4] وما بينهما

= لأبي إسحاق أنَّ العاملَ فيها هو خبرُ المبتدأ؛ لِما ضُمِّنَ من معنى المشتق؛ إذ هو بمعنى المُسَمَّى. وقولٌ ثالثٌ: أنَّ العاملَ فيها المبتدأ لِما ضُمِّن مِنْ معنى التنبيه، وهي مسألةٌ طويلةٌ. وبعضُهم جَعَلَه حالاً من الجميع على اعتبارِ كلِّ واحدٍ قائماً بالقسط. وهذا مناقضٌ لِما قاله الزمخشري من أنَّ الحالَ مختصةٌ باللّهِ تعالى دونَ ما عُطِفَ عليه. وهذا المذهبُ مردودٌ بأنه لو جازَ ذلك لجازَ «جاء القومُ راكباً». أي كلُّ واحدٍ منهم راكباً، والعرب لا تقولُ ذلك ألبتّة، فَفَسَدَ هذا. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله «والبراهين القاطعة وهم علماء العدل» تلميح بالمعتزلة حيث سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، لكن الإنصاف التعميم حتى يشمل أهل السنة والجماعة. (ع)

(٢) قوله «فقد آذن أن الإسلام هو العدل» تعسف لا يقتضيه النظم الكريم، لكن دعى إليه التعصب، وقوله «وفيه أن من ذهب» إلخ تورك على أهل السنة مبني على ذلك، وتحقيقه في علم التوحيد، وبالجملة فالعدل والتوحيد لم ينحصرا في مذهب المعتزلة. (ع)

(٣) قوله «وقرئا مفتوحتين على أن الثاني» الضمير عائد إلى قوله تعالى ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقوله (إن الدين) اهـ. (ع)

(٤) قوله «واقع على إن» أي على إن الدين. . . إلخ. (ع)

اعتراض مؤكد، وهذا أيضاً شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك، وقرأ عبد الله: «أن لا إله إلا هو»، وقرأ أبيّ: «إن الدين عند الله للإسلام»، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية، وقرىء: «شهداء لله»، بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله. فإن قلت: فعلام عطف على هذه القراءة، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾: ؟ قلت: على الضمير في شهداء، وجاز لوقوع الفاصل بينهما. فإن قلت: لم كرر قوله: ، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]: قلت: ذكره أوّلاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية، وأنه لا إله إلا تلك الذات المتميزة، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل، للدلالة على اختصاصه بالأمرين، كأنه قال: لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل، ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل[2]، ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: أنه الحق الذي لا محيد عنه، فثلثت النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوّة

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت ما فائدة تكرار لا إله إلا هو... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: وهذا التكرار لما قدمته في نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده. وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به، ثم قوله (قائماً بالقسط) وهو التنزيه. فطال الكلام بذلك، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلي قوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمنقطع في الفهم مما أريد إيصاله به والله أعلم. قال: «وفيه أن من ذهب إلى تشبيه... إلخ». قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام بل تصريح. وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وسلّم بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده فشهدوا أن لا إله إلا هو ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو. واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية. وتلك المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هذا إيمان القوم وتوحيدهم، لا كقوم يغيرون في وجه النصوص فيجحدون الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها. ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة ومعاندة لله في ملكه. ثم بعد ذلك يستترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى. ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين. ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الإنصاف إلى جهالة القدرية وضلالها، لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها، ولخرجت عن مزالق البدع ومزالها، ولكن كره الله انبعاثهم. ولعلمت أي الفريقين أحق بالأمن وأولى بالدخول في أولي العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل. اللهم ألهمنا على اقتفاء السنة شكرك. ولا تؤمنا مكرك إنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، فليس ينجي من الخوف إلا الخوف. والله ولي التوفيق.

(٢) قوله «تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل» مبني على ما قاله آنفاً. (ع)

فينا من قريش لأنهم أمّيون ونحن أهل الكتاب، وهذا تجوير لله، ﴿بَغْيَا بَيْنَهُمْ﴾: أي: ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرياسة وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً يطؤن أعقابهم، لاشبهة في الإسلام، وقيل: هو اختلافهم في نبوّة محمد ﷺ، حيث آمن به بعض وكفر به بعض، وقيل: هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء، فمنهم من آمن بموسى، ومنهم من آمن بعيسى، وقيل هم اليهود، واختلافهم أن موسى ـ عليه السلام ـ حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بني إسرائيل، وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع، فلما مضى قرن بعد قرن واختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغيا بينهم وتحاسدوا على حظوظ الدنيا والرياسة، وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: فإن جادلوك في الدين، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾: أي: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده لم أجعل فيها لغيره شركا بأن أعبده وأدعوه إلها معه؛ يعني أن ديني التوحيد وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤] فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه؛ فما معنى المحاجة فيه؟، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾: عطف على التاء في «أسلمت» وحسن للفاصل، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولاً معه، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: من اليهود والنصارى، ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب، ﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾: يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضي حصوله لا محالة؛ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار[١] وتعيير بالمعاند وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاندة بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداد بينه وبين الإذعان[٢]، وكذلك في: هل فهمتها؟ توبيخ بالبلادة وكلة القريحة، وفي

(١) قوله «وفي هذا الاستفهام استقصار» أي عد المخاطب قاصراً. (ع)
(٢) قوله «يضرب أسداد بينه وبين الأذعان» لعله أسداداً، أي حجباً. (ع)

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه، ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾: فقد نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور، ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: لم يضروك فإنك رسول منبه عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قرأ الحسن: «يقتلون النبيين»، وقرأ حمزة: «ويقاتلون الذين يأمرون» وقرأ عبد الله: «وقاتلوا» وقرأ أبيّ. «يقتلون النبيين والذين يأمرون»، وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله، وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله، أي: الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً؛ أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر» ثم قرأها ثم قال: «يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّا من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار»، (٢٢٣) ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: لأنّ لهم اللعنة والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. فإن قلت: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلت: لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم، و «إنّ» لا تغير معنى الابتداء فكأنّ دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها «ليت» أو «لعل» لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم

---

٢٢٣ ـ أخرجه البزار (٣٣١٤ ـ كشف)، والطبري (٦/ ٢٨٥)، حديث (٦٧٨٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره ص (١٦١) حديث (٢٧٦).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٣) وعزاه للطبري وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجرّاح قال: قلن يا رسول الله: أي الناس...

قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه البزار والطبراني وابن أبي حاتم والثعلبي والبغوي من حديثه. وفيه أبو الحسن مولى بني أسد وهو مجهول. انتهى.

مَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة، و «من»: إما للتبعيض وإما للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة أو من اللوح التوارة وهي نصيب عظيم، ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: وهو التوراة، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: وذلك أنّ رسول الله ﷺ دخل مدارسهم فدعاهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قالا: إنّ إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إنّ بيننا وبينكم التوارة، فهلموا إليها» (٢٢٤) فأبيا، وقيل نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه، وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب، ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾: وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم، وقرىء «لِيُحْكَمَ» على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أنّ قوله: ، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم، لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، ﴿ذَٰلِكَ﴾: التولي والإعراض بسبب تسهيلهم[1] على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من

---

٢٢٤ ـ أخرجه الطبري (٦/ ٢٨٨)، حديث (٦٧٨١) عن عكرمة عن ابن عباس وابن أبي حاتم (٢/ ١٦٦)، حديث (٢٧٧) عن عكرمة... به. وابن إسحاق (٦٣٢ ـ سيرة بن هشام).
وذكره السيوطي (٢/ ٢٤) وزاد نسبته إلى ابن المنذر عن ابن عباس... به.
وذكره الزيلعي (١/ ١٧٩)، حديث (١٨٦) وزاد نسبته إلى الواحدي في أسباب النزول.
قال الحافظ:
أخرجه الطبري من رواية إسحاق عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما به. انتهى.

---

(١) قال محمود: «ذلك التولي والإعراض بسبب طمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت الحشوية والمجبرة وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون» قال أحمد رحمه الله: هذا أيضاً تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد إلى مشيئة الله تعالى وإن مات مصراً عليها إيماناً بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وتصديقاً بالشفاعة لأهل الكبائر وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلاً يقيس عليهم اليهود القائلين ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبيده الفقير إلى التورك عليه، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر السنة، فأصمي أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة.

النار بعد أيام قلائل كما طمعت المجبرة والحشوية[1]، ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من أنّ آباءهم هم الأنبياء يشفعون لهم كما غرت أولئك شفاعة رسول الله ﷺ في كبائرهم، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾: فكيف يصنعون فكيف[2] تكون حالهم، وهو استعظام لما أعدّ لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون، وروي أنّ أوّل راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رءوس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: يرجع إلى كل نفس على المعنى، لأنه في معنى كل الناس كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسي.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾:

الميم في، ﴿اللَّهُمَّ﴾: عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته في يا ألله، وبغير ذلك، ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾: أي: تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرّف الملاك فيما يملكون، ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾: تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك، ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾: النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأوّل عام شامل، والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روى. (٢٢٥) أنّ رسول الله ﷺ حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون

---

٢٢٥ ـ ذكره البغوي في تفسيره (١/ ٢٨٩، ٢٩٠) عن ابن عباس، وأنس ابن مالك عن قول قتادة.
وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٨٠)، حديث (١٨٧) وقال: غريب.
وعزاه للواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس، وأنس.
قال الحافظ:
ذكره الواحدي في أسبابه عن ابن عباس وأنس ـ رضي الله عنهم ـ ولم أجد له إسناداً. انتهى.

---

(١) قوله «كما طمعت المجبرة والحشوية» تورك على أهل السنة، حيث ذهبوا إلى أن من دخل النار من أهل الكبائر المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بعفو الله، كما نطقت به الأحاديث. (ع)

(٢) قوله «فكيف تكون» لعله أو فكيف. (ع)

واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ هم أعز وأمنع من ذلك، وروي أنّ رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدّعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر وكبر المسلمون وقال: أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل ـ عليه السلام ـ أن أمّتي ظاهرة على كلها، فأبشروا. فقال المنافقون: ألا تعجبون، يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزلت. (٢٢٦) فإن قلت: كيف قال: ، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾: فذكر الخير دون الشر؟ قلت: لأنّ الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضارّ صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه.

---

٢٢٦ ـ أخرجه النّسائي (٥/ ٢٦٩ كبرى): كتاب السير: باب حفر الخندق، حديث (٨٨٥٨) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٤٤) حديث (١٦٨٥) وأحمد (٤/ ٣٠٣)، وأبو نعيم (١/ ٣٧٦، ٣٧٧)، من الأخبار في غزوة الخندق، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٢١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٨)، حديث (٣٦٨٢٠)، وذكره الزيلعي (١/ ١٨١) وزاد في نسبته إلى إسحاق بن راهويه من حديث البراء بن عازب.

ـ وأخرجه أبو نعيم في الدلائل (١/ ٣٧٧).

والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤١٩) باب ما ظهر في حفر الخندق من دلائل. . . وابن سعد في الطبقات (٤/ ٦٢) من حديث عمرو بن عوف.

وذكره الزيلعي (١/ ١٨٢، ١٨٣)، وزاد نسبته إلى الواحدي في أسباب النزول، والثعلبي والبغوي من حديث عمرو بن عوف.

قال الحافظ: أخرجه البيهقي. وأبو نعيم في دلائل النبوة لهما؛ من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه. قال «خط رسول الله ـ ﷺ ـ الخندق عام الأحزاب، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كلّ عشرة» قال عمرو بن عوف، فكنت أنا وسليمان وحذيفة والنّعمان بن مقرن وستة نفر من الأنصار في أربعين ذراعاً فذكره مطوّلاً من هذا الوجه. ذكره الواحدي في أسباب النزول والطبري والثعلبي والبغوي. ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة سلمان. قال: أخبرنا ابن أبي فديك عن كثير بن عبد الله به. وقال الواقدي في المغازي: حدّثني عاصم ابن عبد الله الحكمي عن عمر بن الحكم قال «كان عمر بن الخطّاب يومئذ يضرب بالمعول، إذ صادف حجراً أصلد فضرب ضربة ـ فذكره بنحوه، ورواه النّسائي وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى كلّهم من رواية ميمون أبي عبد الله عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ مختصراً وإسناده حسن. انتهى.

ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحيّ والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب دلالة من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام «كما تكونوا يولى عليكم» (٢٢٧).

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر، وقد كرّر ذلك في القرآن ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان، ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾: ومن يوالي الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول فإنّ موالاة الوليّ وموالاة عدوّه متنافيان، قال [من الطويل]:

تَـوَدُّ عَـدُوِّى ثُـمَّ تَـزْعُـمُ أَنَّـنِـي صَدِيقُكَ لَيْسَ النَّوْكُ عَنْكَ بِعَازِبِ[1]

---

٢٢٧ ـ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث (٧٣٩٢) وذكره السيوطي في تفسيره (٣/ ٨٦) وعزاه للحاكم في التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان. عن أبي إسحاق.
قال الحافظ: رواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية المبارك بن فضالة عن الحسن عن أبي بكرة وفي إسناده إلى مبارك مجاهيل. انتهى.

---

(١) تـود عـدوي ثـم تـزعـم أنـنـي صديقك ليس النوك عنك بعازب
فـلـيـس أخي من ودني رأى عينه ولكن أخي من ودني في المغايب
النوك: الحمق. والعازب: البعيد. يقول: إن الصديق من لا يصادق بغيض صديقه، ومن يراعي الأخوة بظهر الغيب، لا برأي العين. ويجوز أن تود على تقدير الاستفهام التوبيخي، وأبرزه في صورة الخبر للتشنيع. ورأي عينه: نصب على الظرف أي حين رأي عينه: والمغايب: أزمان الغياب.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، وقرىء: «تقية». قيل للمتقي تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروبه. رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعدواة والبغضاء، وانتظار زوال المانع من قشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه: «كن وسطاً وامش جانباً»، (٢٢٨) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد، ويجوز أن يضمن، ﴿تَتَّقُواْ﴾: معنى تحذروا وتخافوا، فيعدى بمن وينتصب، ﴿تُقَىٰةً﴾: أو تقية على المصدر، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾: من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضي الله، ﴿يَعْلَمْهُ﴾: ولم يخف عليه وهو الذي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لا يخفى عليه من شيء قط. فلا يخفى عليه سركم وعلنكم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو قادر على عقوبتكم، وهذا بيان لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] لأنّ نفسه وهي ذاته المميزة من سائر الذوات، متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلها، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاّطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر، ونصب عليه عيوناً، وبث من يتجسس عن بواطن أموره، لأخذ حذره وتيقظ في أمره، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أنّ العالمَ الذات[1] الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ

---

٢٢٨ ـ وذكره علي بن محمد الملاّ في الأسرار ص (١٨٠)، حديث (٦٩٩) ولم ينسبه إلى عيسى عليه السّلام ولكن قال: قال بعضهم: كن وسطاً.

---

(١) قوله «فما بال من علم أن العالم الذات» من إضافة الوصف إلى مرفوعه كالحسن الوجه، يعني أن علمه بذاته، لا بعلم زائد على ذاته كعلم الحوادث، وهذا عند المعتزلة. (ع)

﴿أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾: منصوب بتودّ، والضمير في بينه لليوم، أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أنّ بينها وبين ذلك اليوم[1] وهوله أمداً بعيداً، ويجوز أن ينتصب، ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾: بمضمر نحو: اذكر، ويقع على «ما عملت» وحده[2]، ويرتفع، ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾: على الابتداء، و﴿تَوَدُّ﴾: خبره، أي: والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع تودّ. فإن قلت: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله ودّت؟ قلت: لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامّة، ويجوز أن يعطف، ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾: على، ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾: ويكون، ﴿تَوَدُّ﴾: حالاً، أي: يوم تجد عملها محضراً وادّة تباعد ما بينها وبين اليوم أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ [الكهف: ٤٩] يعني مكتوباً في صحفهم يقرؤنه ونحوه ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦]، والأمد المسافة كقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨] وكرّر قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: يعني أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه، وعن الحسن: من رأفته بهم أن حذرهم نفسه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته، مرجوّ لسعة رحمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة، ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾: حتى يصحّ ما تدعونه من إرادة عبادته، يرض عنكم ويغفر لكم،

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وأَبْعَدَ الزمخشري في عودِه على «اليوم»؛ لأنَّ أحدَ القِسْمين اللذين أُحْضِرا في ذلك له هو الخيرُ الذي عمله، ولا يُطلب تباعُدُ وقتِ إحضارِ الخير إلا بتجوُّز؛ إذ كان يشتمل على إحضار الخير والشر فتودُّ تباعدَه لتسلم من الشر، ودَعْه لا يحصُل له الخيرُ، والأَوْلى عَوْده إلى ما عملت من السوء لأنه أقرب مذكور. ولأن المعنى: أن السوء يُتَمَنَّى في ذلك اليوم التباعُدُ منه» انتهى. الدر المصون

(٢) قوله «ويقع على ما عملت وحده» أي يقع فعل الوجدان على ما عملت من خير وحده. (ع)

وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل (٢٢٩)، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينعر ويصعق(١) فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا أنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق تصوّرها، وربما رأيت المنيَّ قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامة على حواليه قد ملئوا أدرانهم بالدموع لما رققهم من حاله، وقرىء: «تحبون»، و«يحببكم» و«يحبكم»، من حبه يحبه. قال [من الطويل]:

أُحِبُّ أَبَا ثَرْوَانَ مِنْ حُبِّ تَمْرِهِ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّفْقَ بِالجَارِ أَرْفَقُ

وَوَاللَّهِ لَوْلاَ تَمْرُهُ مَا حَبَبْتُهُ ... وَلاَ كَانَ أَدْنَى مِنْ عُبَيْدٍ وَمُشْرِقُ(٢)

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: يحتمل أن يكون ماضياً، وأن يكون مضارعاً بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ

---

٢٢٩ ـ أخرجه الطبري (٦/ ٣٢٣)، حديث (٦٨٤٨) عن الحسن: «إنّ أقواماً كانوا على عهد...».
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

---

(١) قوله «وينعر ويصعق» في الصحاح: النعرة صوت في الخيشوم. ويقال: ما كانت فتنة إلا نعر فيها فلان، أي نهض. (ع)

(٢) لغيلان بن شجاع النهشلي. يقول: أحب هذا الرجل من أجل حب تمره. ويروى: أبا مروان، وأعلم أن الرفق بالجار أرفق منه بغيره، أي أشد رفقاً، وأسند الرفق إلى نفسه مبالغة كجد جده. ويجوز أن المعنى أن الرفق بالجار أحق أو أكمل منه بغيره. وأمالو قرىء «أوفق» بالواو فظاهر. وفيه استعطاف لأبي مروان، وطلب الرفق منه بالشاعر. واللغة الغالية أحب الرباعي. وحبه يحبه بكسر فاء المضارع من باب ضرب نادر من جهة مجيئه ثلاثياً ومن جهة كسر فاء مضارعه. وقياس مضارع الثلاثي المضاعف المتعدي ضم فائه كيشد ويرد. وقد يجيء حب يحب من باب علم يعلم. ولا كان أدني: أي أقرب إلي من عبيد ومشرق، وهما ابناه. وفي القافية الإقواء. وروى أبو العباس المبرد بدل الشطر الأخير: وكان عياض منه أدنى ومشرق، أي أقرب إلي من أبي مروان. وعليه فلا إقواء فيها.

ينظر: لسان العرب (حبب)، الأشباه والنظائر (٢/ ٤١٠)، خزانة الأدب (٩/ ٤٢٩)، شرح شواهد المغني (٢/ ٧٨٠)، شرح المفصل لابن يعيش (٧/ ١٣٨)، الخصائص (٢/ ٢٢٠)، مغني اللبيب (١/ ٣٦١).

مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما، و﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾: موسى وهرون[1] ابنا عمران بن يصهر، وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة، و﴿ذُرِّيَّةً﴾: بدل من آل إبراهيم وآل عمران، ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾: يعني أنّ الآلين ذرّية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض: موسى وهرون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من فاهث، وفاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود[2] بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ، وقيل: «بعضها من بعض» في الدين، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أنّ بعضهم من بعض في الدين. أو «سميع عليم» لقول امرأة عمران ونيتها، و﴿إِذْ﴾: منصوب به، وقيل: بإضمار اذكر، وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان، أم مريم البتول. جدّة عيسى ـ عليه السلام ـ، وهي حنة بنت فاقوذ، وقوله: ، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾: على أثر قوله: ، ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾: مما يرجح أنّ عمران هو عمران بن ماثان جدّ عيسى، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرن بإبراهيم كثيراً في الذكر. فإن قلت: كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهرون؟ قلت: كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول، لأن زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوّج

---

(١) قال محمود رحمه الله: «آل عمران وموسى وهرون... إلخ» قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني أن السورة تسمى آل عمران ولم تشرح قصة عيسى ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة. وأما موسى وهارون فلم يذكر قصتهما في هذه السورة، فيدل ذلك على أن عمران المذكور ههنا هو أبو مريم والله أعلم.

(٢) قوله «ابن ماثان بن سليمان بن داود» قوله: ابن سليمان، أي من نسله. وقوله: ابن يهوذا، أي من نسله، كما صرح به الفخر الرازي. وذكر أبو السعود بين ماثان وسليمان نحو خمسة عشر جداً، وبين إيشا ويهوذا تسعة جدود. (ع)

زكريا بنته إيشاع أخت مريم فكان يحيى وعيسى ابني خالة. روي أنها كانت عاقرا لم تلد إلى أن عجزت، فبينا هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك عليّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه، (٢٣٠) فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل، ﴿مُحَرَّرًا﴾: معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يدَ لي عليه ولا أستخدمه ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم، وروي: أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، وعن الشعبي، ﴿مُحَرَّرًا﴾: : مخلصاً للعبادة، (٢٣١) وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق ذكراً، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: الضمير لـ «ما في بطني»(١) وإنما أنث على المعنى لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة. فإن قلت: كيف جاز انتصاب، ﴿أُنثَىٰ﴾: حالا من الضمير في وضعتها(٢) وهو كقولك وضعت الأنثى أنثى؟ قلت: الأصل: وضعته أنثى، وإنما أنّث لتأنيث الحال؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنث الاسم في ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦] وأمّا على تأويل الحبلة أو النسمة فهو ظاهر، كأنه قيل: إني وضعت

---

٢٣٠ ـ ذكر السيوطي في الدر (٢/ ٣٢) وعزاه لإسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس بمعناه وذكره في (٢/ ٣٣، ٣٤) وعزاه للطبري وابن المنذر عن عكرمة.

٢٣١ ـ أخرجه الطبري (٦/ ٣٣١)، حديث (٦٨٦٢).

---

(١) قال محمود: «الضمير عائد إلى ما في بطني... إلخ» قال أحمد: الضمير في قوله «وضعتها» يتناول إذاً ما نسب إليها الوضع والأنوثة، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة وتلك الجهة كونها شيئاً وضع لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها. وقد مر هذا البحث بعينه عند قوله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾.

(٢) قال السمين الحلبي: ناقشه في الجواب الأول فقال: «وآل قولُه ـ يعني الزمخشري ـ إلى أنها حال مؤكِّدة، ولا يُخرجُه تأنيثُه لتأنيث الحال عن أن تكون حالاً مؤكِّدة. وأمّا تشبيهُه ذلك بقوله: «مَنْ كانت أمَّك» حيث عادَ الضميرُ على معنى «مَنْ» فليس ذلك نظيرَ «وضَعَتْها أنثى» لأن ذلك حُمِل على معنى «مَنْ» إذا المعنى: أيةُ امرأة كانَتْ أمَّك، أي: كانت هي أي أمَّك، فالتأنيثُ ليس لتأنيث الخبر، وإنما هو من باب الحَمل على معنى مَنْ، ولو فرضنا أنه من تأنيث الاسم لتأنيث الخبر، لم يكن نظيرَ «وضَعَتْها أنثى» لأنَّ الخبرَ تخصَّص بالإضافة إلى الضميرِ، فاستُفيد من الخبرِ ما لا يُسْتَفاد من الاسمِ، بخلاف «أنثى» فإنه لمجردِ التوكيدِ. وأمّا تنظيرهُ بقولِه: «فإنْ كانتا اثنتين» فيعني أنه ثَنَّى الاسم لتثنيةِ الخبرِ، والكلامُ عليه يأتي في مكانه، فإنه من المُشْكلات، فالأحسن أن يُجْعَلَ الضميرُ في «وضعَتْها أنثى» عائداً على النَّسَمَة أو النفس، فتكون الحالُ مبنيةً لا مؤكدةً».

قلت: قوله «ليس نظيرَه»، لأنَّ «مَنْ كانت أمَّك» حُمِل فيه على معنى «مَنْ»، وهذا أُنّث لتأنيث الخبر» =

الحبلة أو النسمة أنثى. فإن قلت: فلم قالت: إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسراً[1] على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها. فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً، ولذلك نذرته محرّراً للسدانة، ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن[2] قال الله تعالى: ، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: تعظيماً لموضوعها

= ـ ليس كما قال، بل هو نظيره؛ وذلك أنه في الآية الكريمةِ حُمِل على معنى «ما» كما حُمِل هناك على معنى «مَنْ»، وقول الزمخشري: «لتأنيث الخبرِ» أي: لأن المراد بـ «مَنْ» التأنيثُ بدليل تأنيثِ الخبرِ، فتأنيثُ الخبرِ بيّن لنا أن المراد بـ «مَنْ» المؤنثُ، كذلك تأنيثُ الحال ـ وهي أنثى ـ بيّن لنا أن المراد بـ «ما» في قوله: «ما في بطني» أنه شيء مؤنث، وهذا واضح لا يَحتاج إلى فكر. وأما قوله: «فقد استُفيد من الخبر ما لا يُستفاد من الاسم بخلاف «وضَعَتْها أنثى» فإنه لمجرد التوكيد» فليس بظاهرٍ أيضاً؛ وذلك لأنَّ الزمخشري إنما أراد بكونه نظيرَه من حيث إنَّ التأنيث في كلٍّ من المثالَيْنِ مفهومٌ قبلَ مجيءِ الحال في الآية، وقبلَ مجيءِ الخبرِ في النظير المذكور. أمّا كونهُ يفارقه في شيء آخرَ لعارضٍ فلا يَضُرُّ ذلك في التنظير، ولا يُخرِجه عن كونه يُشْبِهُه من هذه الجهة. انتهى. الدر المصون.

(١) (عاد كلامه) قال: «وإنما أرادت بقولها: وضعتها أنثى التحسُّر والتأسُّف... إلخ» قال أحمد: هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى لا حكاية عنها. وقد ذكر أهل التفسير تأويلاً آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاه الله تعالى عنها، أعني قوله ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ويرشد إليه عطف كلامها عليه وهو قوله ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾... إلخ ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون: وليست الأنثى كالذكر، فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فنفى عن الكامل شبه الناقص، مع أن الكمال لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء. وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران والله أعلم. ومنه أيضاً ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

(٢) في قوله ـ تعالى ـ «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى» ترى في هذا الخبر تحسراً وتحزناً، وهذا ما عرفه المفسر العلامة بهذا العنوان.

بهذا الفهم البلاغي يفتح المفسر العلامة باباً واسعاً من أبواب البلاغة في الخبر والغرض منه وخلاصة ذلك:

١ ـ أن الخبر الذي يلقيه المتكلم يفيد أحد أمرين:

(أ) الفائدة إذا لم يكن المخاطب يعلم شيئاً عن الخبر فنقول له حضر محمد، وأكرم إخوانه.

(ب) لازم الفائدة، وذلك إذا كان المخاطب يعلم الخبر وأنت تريد إفادته أنك تعلم هذا الخبر، فنقول له «أنت محمد».

٢ ـ وقد يخرج الخبر عن الفائدة ولازم الفائدة إلى معانٍ أخرى تدرك بمعونة المقام وسياق الكلام، فمنه ما ورد هنا في الآية الشريفة:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ لم تقله راضية بما وضعت، وإنما تحسرت وحزنت أن ولدت ما كانت تتوقع غيره، إذ كانت تريد ذكراً لتحرره عابداً لربه، ولكن أراد أن يعدل موازين البشر فقال ـ سبحانه ـ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ لأن الأنثى ستكون عابدة على ما أرادت ثم تكون هذه الأنثى «مريم» أما لنبية عيسى عليه السلام، وبهذا لا يكون الذكر كالأنثى، بل الأنثى في هذا المقام أفضل يقول سعد الدين التفتازاني:

وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً. فلذلك تحسرت، وفي قراءة ابن عباس «والله أعلم بما وَضَعْتِ» على خطاب الله تعالى لها أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلوّ قدره، وقرىء: «وضعت». بمعنى: ولعلّ لله تعالى فيه سراً وحكمة، ولعلّ هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها. فإن قلت: فما معنى قوله: ، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: ؟ قلت: هو بيان لما في قوله: ، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: من التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد. فإن قلت: علام عطف قوله: ، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: ؟ قلت: هو عطف على إني وضعتها أنثى، وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٦] فإن قلت: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ قلت: لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة[(١)]، فأرادت بذلك التقريب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث. «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس

= «لا شك أن قصد المخبر أي من يكون بصدد الإخبار والإعلام لا من يتلفظ بالجملة الخبرية فإنه كثيراً ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخر سوى إفادة الحكم أو لازمه كقوله ـ تعالى ـ حكاية عن امرأة عمران ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ـ إظهاراً للتحسر على خيبة رجائها، وعكس تقديرها، وللتحزن إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً» وبهذا ينفتح الباب لأغراض نفسية تثور في الأنفس بلا حد ولا عد، وهذا المجال واسع، وقد حصر منه البلاغيون بعض أنماطه في آيات الكتاب العزيز، ولكن الطريق طويل، وإلى الله ـ وحده ـ المصير.

«ينظر المطول ٤٣ وما بعدها، والإيضاح ١/ ٨٦، ٨٧، عقود الجمان وشرحه للسيوطي، وحواشي المرشدي عليه ١/ ٤٠، ٤١، خصائص التراكيب لأبي موسى ٤٦، علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني ١/ ٣٨٨ وما بعدها.

(١) (عاد كلامه) قال: «وفائدة قولها (وإني سميتها مريم) أن مريم في لغتهم العابدة... إلخ» قال أحمد: أما الحديث فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه عليه السلام بتحميله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزعة في إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض. وقد قدمت عند قوله تعالى ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتى بقرها، ووكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل، كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره، جراءة وسوء أدب. ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً. وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل.

الشيطان إياه، إلا مريم وابنها» فالله أعلم بصحته. فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها» (٢٣٢) فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠] واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي [من الطويل]:

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ[1]

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: فرضي بها في النذر مكان الذكر، ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء كالسعوط واللدود، لما يسعط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمّها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة، وروي: أن حنة حين ولدت مريم، لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنو ماثان رءوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها،

---

٢٣٢ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٥٤١): كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾، حديث (٣٤٣١)، وطرفه في (٤٥٤٨)، ومسلم (٨/ ١٣١ نووي): كتاب الفضائل: باب فضل عيسى عليه السّلام، حديث (١٤٦/ ٢٣٦٦) وأحمد (٢/ ٢٣٣، ٢٧٤ ـ ٧٥) والطبري (٦/ ٣٣٧، ٣٣٩)، حديث (٦٨٩١، ٦٨٨٧) والبغوي في تفسيره (١/ ٢٩٥) آية (٣٦) من آل عمران، وابن حبّان في صحيحه (١٤/ ١٢٩)، حديث (٦٢٣٥).
قال الحافظ:
قال المصنّف: الله أعلم بصحته هكذا قال والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة في آخره: قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. انتهى.

---

(١) لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد
لابن الرومي، يقول: إن بكاء الطفل حين ولادته لأجل ما تشعر به الدنيا من حوادثها فقط، وإن لا يكن بكاؤه لذلك، فأي شيء منها يبكيه، أو فأي شيء يبكيه منها، وإنها أي الدنيا، وروي: وإنه، أي الطفل لأفسح موضعاً مما كان فيه من ضيق الرحم وأرغد منه. وعوده على ما يبكيه بعيد، أو غير سديد. ويجوز أنه عائد على فضاء الدنيا المعلوم من المقام، ثم قال: إذا أبصرها صرخ، كأنه يخوف بما سوف يناله من أذاها قبل حصوله.

عندي خالتها فقالوا: لا حتى نقترع عليها، فانطلقوا ـ وكانوا سبعة وعشرين ـ إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فتكفلها، (٢٣٣) والثاني: أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتقبلها بذي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن وهو الاختصاص، ويجوز أن يكون معنى، ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: فاستقبلها، كقولك: تعجله بمعنى استعجله، وتقصاه بمعنى استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوّله وعنفوانه قال القطامي [من الوافر]:

وَخَيْرُ الأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ ... وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا[(١)]

ومنه المثل «خذ الأمر بقوابله». أي: فأخذها في أوّل أمرها حين ولدت بقبول حسن، ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، وقرىء: «وَكَفِلَها زكريا»، بوزن وعملها، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾: بتشديد الفاء ونصب زكرياء[(٢)]، والفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، ويؤيدها قراءة أبيّ: وأكفلها، من قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣] وقرأ مجاهد: فتقبلها ربها، وأنبتها، وكفلها، على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها، تدعو بذلك، أي: فاقبلها يا ربها وَرَبِّهَا، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد، أي: غرفة يصعد إليها بسلم، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدّمها، كأنها وضعت في

---

٢٣٣ ـ أخرجه الطبري (٦/ ٣٥١)، حديث (٦٩٠٩) عن عكرمة.
قال الحافظ:
قوله «أنا أحق بها عندي خالتها، قوله «خالتها: يعني زوجته إيشاع أخت حنة لكن تقدم أنها أخت مريم وقال ـ ﷺ ـ في يحيى وعيسى هما ابنا خالة وفي أبي السّعود قيل في تأويل ذلك أنّ الأخت كثيراً ما تطلق على بنت الأخت فجرى الحديث على ذلك وقيل إنّ إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب. انتهى.

---

(١) يقول: خير الأمور هو الذي تستقبله وتنتظره فتأخذه أول إتيانه. وليس خيرها ما تصبر عنه حتى يفوتك ويمضي ثم تتبعه وتذهب وراءه لتدركه، فالباء زائدة في خبر ليس، وهو على تقدير مضاف، أي ذي التتبع. وتتبعه: أصله تتتبعه حذفت منه تاء المضارعة أو تاء التفعل أو التاء التي هي فاء الفعل وهو أولاها، لأن كل من الأوليين جاء لمعنى. وقال الجوهري: وضع الاتباع موضع التتبع اهـ، فهو اسم مصدر، أو مصدر حذف منه بعض الزوائد. والتفعل أبلغ من الافتعال، فيتعين إرادته هنا لأنه مؤكد.
ينظر ديوانه (٤٠)، والكتاب ٤/ ٨٢، والخصائص ٢/ ٣٠٩، وابن يعيش ١/ ١١١، وأمالي الشجري ٢/ ١٤١، والخزانة ١/ ٣٩٢، والمقتضب ٣/ ٢٠٥، وديوان الحماسة ١/ ١٣٥، والبيان ٢/ ٤٧٠، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧١، والدر المصون ٢/ ٦٠.
(٢) قوله «ونصب زكريا الفعل لله تعالى» لعله والفعل. (ع)

أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وروي: أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾: كان رزقها ينزل عليها من الجنة ولم ترضع ثديا قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾: من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك؟، ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾: فلا تستبعد. قيل تكلمت وهي صغيرة كما تكلم عيسى وهو في المهد، وعن النبي ﷺ أنه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة - رضي الله عنها - رغيفين وبضعة لحم آثرته بها، فرجع بها إليها، وقال: هلمي يا بنية فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً، فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله، فقال لها ﷺ: «أنّى لك هذا»؟ فقالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل»، ثم جمع رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها، (٢٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ﴾: من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزّة عزّ من قائل، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: بغير تقدير لكثرته، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا[1] وثم وحيث للزمان. لما رأى حال مريم في كرامتها على الله

---

٢٣٤ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٣٦) وعزاه لأبي يعلى.

---

(١) قال محمود: «فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان... إلخ» قال أحمد: لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر على مشاهدة مثله، فإن العقل يقضي بجواز ذلك في قدرة الله تعالى وإن لم يقع نظيره. وأحسن من هذه العبارة وأسلم أن يقال: لما شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم امتد أمله إلى حادث يناسبه كرامة له، والله أعلم.

ومنزلتها، رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر، ﴿ذُرِّيَّةً﴾: ولداً، والذرية يقع على الواحد والجمع، ﴿سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: مجيبه. قرىء: «فناداه الملائكة»، وقيل: ناداه جبريل ـ عليه السلام ـ، وإنما قيل الملائكة على قولهم: فلان يركب الخيل، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾: بالفتح على بأن الله، وبالكسر على إرادة القول. أو لأن النداء نوع من القول، وقرىء: «يبشرك»، «ويبشرك»، من بشره وأبشره. «ويَبْشُرك»[1] بفتح الياء من بشره، ويحيى إن كان أعجمياً وهو الظاهر فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كيعمر، ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: مصدّقاً بعيسى مؤمناً به. قيل هو أول من آمن به، وسمي عيسى «كلمة» لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: «كن» من غير سبب آخر، وقيل: مصدّقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه، وسمي الكتاب كلمة، كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته، والسيد: الذي يسود قومه، أي: يفوقهم في الشرف، وكان يحيى فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنه لم يركب سيئة قط، ويالها من سيادة، والحصور: الذي لا يقرب النساء حصراً لنفسه أي: منعاً لها من الشهوات، وقيل هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأخطل [من البسيط]:

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِي لاَ بِالحَصُورِ وَلاَ فِيهَا بِسَئَّارِ[2]

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو، وقد روي أنه مرّ وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت، ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ناشئاً من الصالحين، لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين كقوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [البقرة: ١٣٠]. ، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: استبعاد من حيث العادة كما قالت مريم، ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: كقولهم: أدركته السنّ العالية، والمعنى أثر فيّ الكبر فأضعفني، وكانت له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: يفعل الله ما يشاء من

---

(١) قوله «ويبشرك» لعل هذه بدون ضمير الخطاب، وإن كانت السابقة من بشره بفتح الباء أيضاً. (ع)

(٢) للأخطل، يقول: رب شارب مشترٍ للخمر بالثمن الربيح الزائد، نادمني بالكأس. ويجوز تعلقه بما قبله، ليس حصوراً مانعاً نفسه من الدخول على القوم في لعب الميسر، ولا سآر على صيغة «فعال» للمبالغة، أي مبقياً في الكأس سؤراً، أي بقية، من أسأر إذا أبقى، وهو شاذ كجبار من أجبر. ويروى بسوار من السورة وهي الوثبة والعربدة، ففي سببية، أي ولا متغير العقل بسببها، ولا عاطفة على مربح، والثانية توكيد، والباء زائدة بعد كل، ونادمني خبر، فيجوز الرجوع إلى الوصف بعد الإخبار.

ينظر ديوانه (١٦٨)، والمحتسب ٢/ ٢٤١، والمعاني الكبير ١/ ٤٦٤، ورغبة الآمل ٢/ ٤٩، وجمهرة أشعار العرب ص ٧٢٤، والتاج ٣/ ١٤٣، ومجاز القرآن ١/ ٩٢، والدر المصون ٢/ ٨٥.

الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر، أي: على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء بيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات، ﴿ءَايَةً﴾: علامة أعرف بها الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا﴾: تقدر على تكليم الناس، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله، ولذلك قال: ، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة. فإن قلت: لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت: ليخلص المدّة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك[1] إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال، ومنتزعاً منه، ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصله التحرّك. يقال ارتمز: إذا تحرّك، ومنه قيل للبحر الراموز، وقرأ يحيى ابن وثاب «إلا رمزاً» بضمتين، جمع رموز كرسول ورسل، وقرىء: «رمزاً» بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم، وهو حال منه ومن الناس دفعة كقوله [من الوافر]:

مَتَى مَا تَلْقَنِي فَرْدَيْنِ تَرْجُفْ ... رَوَانِفُ أَلْيَتَيْكَ وَتُسْتَطَارَا[2]

---

(١) قوله «أن تحبس لسانك» لعله: يحبس. (ع)

(٢) أحولي تنفض استك مذرويها ... لتقتلني فها أنا ذا عمارا
متى ما تلقني فردين ترجف ... روانف أليتيك وتستطارا
وسيفي صارم قبضت عليه ... أصابع لا ترى فيها انتشارا

لعنترة يخاطب عمارة بن زياد العبسي، لما قال لقومه: ليتني لقيته فأرحتكم منه وأعلمتكم أنه عبد، والاست: الدبر، وهي فاعل. ومذرويها: مفعول، وكان قياسه: مذريان بالياء لأنه مقصور زائد على ثلاثة أحرف، وقياس تثنيته كذلك، فمجيئه بالواو شاذ، وسهله أن تثنيته تقديرية لأنه لم يسمع له مفرد. وحكي عن أبي عمرو «مذري» مفرداً، فيكون مثنى حقيقة، وبه قبل. وحكي عن أبي عبيدة مذري مفرداً، ومذريان مثنى بالياء على القياس، وإن نصب الاست كان مفعولاً، ومذرويها بدلاً منه. والمذروان بالكسر فرعا الأليتين وقرنا الرأس. يقال: جاء ينفض مذرويه يختال ويتبختر، وقوس هتافة المذروني، وهما موقعا الوتر من أعلى وأسفل. أي رنانتهما، وها أنا ذا أصله أنا هذا، فقدمت الهاء مبادرة إلى التنبيه، ثم قال: متى تلاقني حال كوننا منفردين عن غيرنا، تخف مني فترتعد أطراف أليتيك، فارتعادها كناية عن الخوف. وتستطارا مؤكد بالنون الخفيفة المنقلبة ألفاً، والفاعل ضمير المخاطب كأن الخوف يطيره. ويجوز أن الضمير للروانف، أي تنتفض وتنتشر كالطائر. ويروى: روادف، والمراد واحد.

ينظر خزانة الأدب ٤/٢٩٧، ٧/٥٠٧، ٥١٤، ٥٥٣، ٨/٢٢، والدرر ٥/٩٤، وشرح التصريح ٢/ ٢٩٤، وشرح شواهد الشافية ص ٥٠٥، وشرح عمدة الحافظ ص ٤٦٠، وشرح المفصل لابن =

بمعنى إلا مترامزين، كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم، والعشيّ: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، و﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقرىء «والأبكار»، بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وأسحار. يقال: أتيته بكراً بفتحتين. فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام؛ فكيف استثنى منه؟ قلت: لما أدّى مؤدّى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾: روي أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا أو إرهاصا لنبوّة عيسى، ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾: أولاً حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾: مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود، ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾: آخراً، ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: بأن وهب لك عيسى من غير أب؛ ولم يكن ذلك لأحد من النساء. أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيآت الصلاة وأركانها؛ ثم قيل لها، ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أي: في الجماعة؛ أو انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم، ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من نبإ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعني أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة، ونحوه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾

= يعيش ٢/ ٥٥، ولسان العرب (طير)؟ (ألا)، (خصا)، والمقاصد النحوية ٣/ ١٧٤، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ١٩١، وأمالي ابن الحاجب ١/ ٤٥١، وشرح الأشموني ٣/ ٥٧٩، وشرح شافية ابن الحاجب ٣/ ٣٠١، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/ ١١٦، ٦/ ٨٧، ولسان العرب (رنق)، وهمع الهوامع ٢/ ٦٣. والدر المصون ٢/ ٩٠.

[القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾: أزلامهم وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين، وقيل: هي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، اختاروها للقرعة تبركا بها، ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾: في شأنها تنافساً في التكفل بها. فإن قلت: ، ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ﴾: بم يتعلق؟ قلت: بمحذوف دلّ عليه «يلقون أقلامهم»، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾

﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: لقب من الألقاب المشرفة، كالصدّيق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية، ومعناه المبارك، كقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] وكذلك، ﴿عِيسَى﴾: معرب من أيشوع، ومشتقهما من المسح والعيس، كالراقم في الماء[1]. فإن قلت: ﴿إِذۡ قَالَتِ﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو بدل من، ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ويجوز أن يبدل من، ﴿إِذۡ

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يَصِحُ أنْ يكون «المسيح» في هذا التركيب صفةً؛ لأن المُخْبَرَ به على هذا لُفِظَ، والمسيحُ من صفةِ المدلولِ لا من صفةِ الدالِّ؛ إذ لفظُ عيسى ليس المسيح، ومَنْ قال: إنهما اسمان قال: فَقُدِّمَ المسيحُ على عيسى لشهرتِهِ. قال ابن الأنباري: «وإنَّما قُدِّمَ ـ بُدِيء بلقبه ـ لأن المسيحَ أشهرُ من عيسى؛ لأنه قَلَّ أن يقعَ على سُمَيٍّ يَشْتَبِهُ به، وعيسى قد يقع على عدد كثير فقدَّمه لشهرتِهِ، ألا ترى أن ألقاب الخلفاء أشهرُ من أسمائِهم»، فهذا يَدُلُّ على أنَّ المسيحَ عند ابن الأنباري «لقبٌ» لا اسمٌ. وقال أبو إسحاق: «وعيسى مُعَرَّبٌ من أَيْسوع وإنْ جَعَلْتَه عربياً لم تَصْرِفْهُ في معرفةٍ ولا نكرةٍ؛ لأنَّ فيه ألفَ التأنيث، ويكون مشتقاً مِنْ عاسَه يَعُوسه إذا سَاسَه، وقام عليه». انتهى. الدر المصون.

﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾: على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا. فإن قلت: لم قيل: عيسى ابن مريم والخطاب لمريم[1]؟ قلت: لأنّ الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين. فإن قلت: لم ذكر ضمير الكلمة؟ قلت: لأن المسمى بها مذكر. فإن قلت: لم قيل: اسمه المسيح عيسى ابن مريم[2]، وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنه قيل: الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة، ﴿وَجِيهًا﴾: حال من ﴿كَلِمَةٍ﴾ وكذلك قوله: «من المقربين» «ويكلم» «ومن الصالحين» أي: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات، وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة، والوجاهة في الدنيا: النبوّة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة، وكونه ﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة، والمهد: ما يمهد للصبي من مضجعه، سمي بالمصدر، و﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾: في محل النصب على الحال، ﴿وَكَهۡلًا﴾: عطف عليه بمعنى: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء، ومن بدع التفاسير أن قولها: «رب» نداء لجبريل ـ عليه السلام ـ بمعنى يا سيدي ﴿ونعلمه﴾ عطف على يبشرك، أو على وجيها أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ، وقرأ عاصم ونافع: «ويعلمه»، بالياء. فإن قلت: علام تحمل: و«رسولاً»، و«مصدّقاً» من المنصوبات المتقدّمة، وقوله: ، ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾: و﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾: يأبى حمله عليها؟ قلت: هو من المضائق، وفيه وجهان: أحدهما أن يضمر له «وأرسلت» على إرادة القول؛ تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم،

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم. . . إلخ» قال أحمد: ويحقق هذا الجواب قولها ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ [مريم: ٢٠] فإنه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب، إلا أنه لما نسبه إليها دل على أنها فهمت من ذلك كونه من غير أب، والله أعلم.

(٢) (عاد كلامه) قال: «فإن قلت لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم. . . إلخ» قال أحمد: وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه فيقولون: المسيح في الآية إن أريد به التسمية وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم؟ والتسمية لا توصف بالنبوة، وإن أريد بالمسيح المسمى بهذه التسمية لم يلتئم مع قوله اسمه؟ ويجاب عن الإشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه، والمراد التسمية، وأما عيسى ابن مريم فخبر مبتدأ محذوف تقديره: هو عيسى ابن مريم، ويكون الضمير عائداً إلى المسمى بالتسمية المذكورة، منقطعاً عن قول المسيح. والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه هذا الإشكال، وهو حسن جداً، والله أعلم.

ومصدقاً لما بين يدي، والثاني أن الرسول والمصدّق فيهما معنى النطق، فكأنه قيل: وناطقاً بأني قد جئتكم، وناطقاً بأني أصدق ما بين يدي وقرأ اليزيدي: ورسول: عطفاً على كلمة، ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾: أصله أرسلت بأني قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل، و﴿أَنِّيَ أَخْلُقُ﴾: نصب بدل من، ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾: أو جرّ بدل من آية، أو رفع على: هي أني أخلق لكم، وقرىء: «إني»، بالكسر على الاستئناف، أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾: الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾: فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً، وقرأ عبد الله: «فأنفخها» قال [من البسيط]:

.... كَالهَبْرَقِيِّ تَنَحَّى يَنْفُخُ الفَحَمَا[1]

وقيل: لم يخلق غير الخفاش، ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الذي ولد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، ويقال: لم يكن في هذه الأمّة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير، وروي أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده، (٢٣٥) وكرر، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية، وروي: أنه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا هذا سحر فأرنا آية، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبىء لك كذا، وقرىء «تذخرون»، بالذال والتخفيف، ﴿وَلِأُحِلَّ﴾: ردّ على قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم ويجوز أن يكون، ﴿مُصَدِّقًا﴾: مردوداً عليه أيضاً، أي: جئتكم بآية وجئتكم مصدقاً، وما حرم الله عليهم في شريعة موسى: الشحوم والثروب[2] ولحوم الإبل، والسمك، وكل ذي ظفر، فأحل لهم عيسى بعض ذلك. قيل: أحل لهم من السمك والطير ما لا صيصية[3] له، واختلفوا في إحلاله لهم السبت، وقرىء «حرم عليكم» على

---

٢٣٥ ـ أخرجه الطبري (٦/ ٤٣١، ٤٣٢)، حديث (٧٠٩٨).
وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٥٧، ٥٨) وعزاه للطبري.

---

(١) مولي الريح روقيه وجبهته ... كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما
للنابغة، يصف ثوراً وحشياً موجهاً قرنيه وجبهته إلى الريح، فهو مستقبلها برأسه وينفخ في مقابلتها بفمه، فيسمع له صوت، فهو كالهبرقي ـ وزان جعفري وزبرجي ـ وهو الحداد والصائغ. ويروى: كالحرقي، أي الحداد، نسبة لحرق النار، شبهه به حال كونه انحاز إلى ناحية ينفخ الفحم المنقد بالنار، فينفخ: حال متداخلة.
ينظر: ديوانه (١١٠) واللسان والدر المصون (٢/ ١٠٥)، والبحر المحيط (٢/ ٤٨٨).
(٢) قوله «الثروب» الشحوم الرقيقة التي تغشي الكرش والأمعاء. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «ما لا صيصية له» الصيصية شوكة كالتي في رجل الديك. أفاده الصحاح. (ع)

تسمية الفاعل، وهو ما بين يديّ من التوراة، أو الله عزّ وجلّ، أو موسى ـ عليه السلام ـ؛ لأن ذكر التوراة دل عليه، ولأنه كان معلوماً عندهم، وقرىء: «حرم»، بوزن كرم ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله: ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: لأنّ جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرىء بالفتح على البدل من ﴿ءَايَةٍ﴾، وقوله: ، ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: اعتراض، فإن قلت: كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت: لأنّ الله تعالى جعله له علامة يعرف منها أنه رسول كسائر الرسل، حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال، ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: ﴿جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، من خلق الطير، والإبراء، والإحياء، والإنباء بالخفايا، وبغيره من ولادتي بغير أب، ومن كلامي في المهد، ومن سائر ذلك، وقرأ عبد الله. «وجئتكم بآيات من ربكم»، فاتقوا الله لما جئتكم به من الآيات، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه. ثم ابتدأ فقال: ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: ومعنى قراءة من فتح: ولأنّ الله ربي وربكم فاعبدوه، كقوله: ، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ . . . . فَلْيَعْبُدُوا﴾ [قريش: ١ ـ ٣] ويجوز أن يكون المعنى: وجئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وما بينهما اعتراض.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾: فلما علم منهم، ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، و﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: من صلة «أنصاري» مضمناً معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله، ينصرونني كما ينصرني، أو يتعلق بمحذوف حالاً من الياء، أي: من أنصاري، ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه، ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: أي: أنصار دينه ورسوله، وحواريّ الرجل: صفوته وخالصته، ومنه قيل للحضريات: الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن قال [من الطويل]:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ: يَبْكِينَ غَيْرَنَا وَلاَ تَبْكِنَا إلاَّ الْكِلاَبُ النَّوَابِحُ[1]

وفي وزنه الحوالي، وهو الكثير الحيلة، وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً

---

(١) لليشكري، يقول: فقل للنساء الحضريات الصافيات البياض يبكين غيرنا، كناية عن أنه ليس من أهل التنعم، ثم نهى عن أن يبكيهم أحد إلا الكلاب التي تساق معهم للصيد، أو التي جرت عادتها بأكل قتلاهم في الحرب أو التي تنبحهم إذا أقبلوا على أصحابها، كناية عن أنه من أهل البدو والغزو.
ينظر البيت في المؤتلف والمختلف (٧٩)، ومعاني الزجاج ١/ ٤٢٣، ومجاز القرآن ١/ ٩٥، والجمهرة ١/ ٣٣٠، ٢/ ١٤٦، وجامع البيان، ٦/ ٤٥١، والبحر ٢/ ٤٩٣، والدر المصون ٢/ ١١٣.

لإيمانهم، لأنّ الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم، ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية، وقيل: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنهم شهداء على الناس، ﴿وَمَكَرُواْ﴾: الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة، ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾: ظرف لـ «خير الماكرين» أو لـ «مكر الله»، ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾: أي: مستوفي أجلك. معناه: إني عاصمك[1] من أن يقتلك الكفار؛ ومؤخرك إلى أجل كتبته لك، ومميتك حتف أنفك لا قتيلاً بأيدهم، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: إلى سمائي ومقرّ ملائكتي، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل «متوفيك»: قابضك من الأرض، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته: وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن: وقيل: متوفي نفسك بالنوم من قوله: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب، ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى، ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: تفسير الحكم قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾... ﴿فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[2] وقرىء ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره، ﴿نَتْلُوهُ﴾: و﴿مِنَ

---

(١) قوله «أي مستوفي أجلك ومعناه إني عاصمك» مبني على أن القتيل يموت قبل استيفاء أجله، وهو مذهب المعتزلة. (ع)

(٢) قوله «فأعذبهم فنوفيهم» هذا في الذين كفروا. وقوله: فنوفيهم... إلخ، في الذين آمنوا. (ع)

﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، و«نتلوه» صلته. «ومن الآيات» الخبر، ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره نتلوه، ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾: القرآن، وصف بصفة من هو سببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾: إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم[١]، وقوله: ، ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾: جملة مفسرة لما له شبه[٢] عيسى بآدم أي: خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، وكذلك حال عيسى. فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب، ووجد آدم من غير أب وأم؟ قلت: هو مثيله في إحدى الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأنَّ المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب، فشبه الغريب بالأغرب؛ ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه، وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم: لِمَ تعبدون عيسى، قالوا: لأنه لا أب له. قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيي الموتى. قال: فحزقيل أولى، لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. قالوا: كان يبرىء الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى، لأنه طبخ وأحرق ثم قام سالماً. ، ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾: قدّره جسداً من طين، ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾: أي: أنشأه بشراً كقوله:[٣] ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿فَيَكُونُ﴾: حكاية حال ماضية.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يَظْهَرُ لي فَرْقٌ بين كلامِه هذا وبين مَنْ جَعَلَ المَثَل بمعنى الشأن والحال وبمعنى الصفة». قلت: قد تقدَّم في أولِ البقرة أنَّ المَثَل قد يُعَبَّر به عن الصفة وقد لا يُعَبَّر به عنها؛ فدلَّ ذلك على تغايُرهما، وقد مرَّ تفسيرُه وعبارةُ الناسِ فيه، ويَدُلُّ على ذلك ما قاله صاحب «ريِّ الظمآن» عن الفارسي قال: «قيل: المَثَلُ بمعنى الصفة، وقولك: صفةُ عيسى كصفةِ آدم كلامٌ مُطَّرد، على هذا جُلُّ اللغويين والمفسرين، وخالف أبو علي الفارسي الجميعَ، وقال: المَثَلُ بمعنى الصفة لا يُمْكِنُ تصحيحُه في اللغة، إنما المَثَلُ التشبيهُ، على هذا تدورُ تصاريفُ الكلمة، ولا معنى للوصفيةِ في التشابهِ، ومعنى المثل في كلامِهم «أنها كلمةٌ يرسلها قائلُها لحكمةٍ يُشَبِّه بها الأمورَ ويقابِلُ بها الأحوالَ» قلت: فقد فَرَّق بين لفظِ المثل في الاصطلاحِ وبين الصفة. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «لما له شبه» أي للأمر الذي لأجله كان ذلك التشبيه. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولو كان الخَلْقُ بمعنى الإِنشاء لا بمعنى التقدير، لم يأتِ بقوله «كن»؛ لأنَّ ما خُلِقَ لا يقال له: كُنْ، ولا يُنْشَأُ إلا إنْ كان معنى «ثم قال له كن» عبارةً عن نَفْخِ الروح فيه. «قلت: قد تعرَّض الواحدي لهذه المسألة فَأَتْقَنها فقال: «وهذا ـ يعني قوله خلقه من =

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق كقول أهل خيبر: محمد والخميس (٢٣٦) ونهيه عن الامتراء ـ وجل رسول الله ﷺ أن يكون ممتريا ـ من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾: من النصارى، ﴿فِيهِ﴾: في عيسى، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي: من البينات الموجبة للعلم، ﴿تَعَالَوْا۟﴾: هلموا، والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعالَ نفكر في هذه المسألة، ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾: أي: يدع كل مني ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: ثم نتباهل بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم، والبهلة بالفتح، والضم: اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته من قولك: «أبهله» إذا أهمله، وناقة باهل: لاصرار عليها[1] وأصل الابتهال هذا، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا، وروي: «أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمداً نبيٌّ مرسل، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكنّ فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتى رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنا الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليٌّ

---

٢٣٦ ـ سيأتي تخريجه في سورة الصّافات.
قال الحافظ: هو طرف من حديث لأنس متفق عليه بلفظ «صبّح رسول الله ـ ﷺ ـ أهل خيبر وقد خرجوا بالمساحي على أعناقهم فلمّا رأوه قالوا: هذا محمد والخميس... الحديث».
وسيأتي في صورة الصّافات انتهى.

= تراب ـ ليس بصلةٍ لآدم ولا صفةٍ، لأنَّ الصلة للمبهمات والصفةَ للنكرات ولكنه خبرٌ مستأنفٌ على جهةِ التفسير لحالِ آدمَ عليه السلام» قال: «قال الزجاج «وهذا كما تقولُ في الكلام: «مَثَلُك كمثلِ زيد» تريد أنك تُشبهه في فِعْلٍ ثم تخبرُ بقصة زيد، فتقول: فعل كذا وكذا». انتهى. الدر المصون.

(١) قوله «وناقة باهل لاصرار عليها» في الصحاح صررت الناقة شددت عليها الصرار، وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية، لئلا يرضعها ولدها. وفيه الخلف: حلمة ضرع الناقة. وفيه التودية: خشبة تشد عليه. (ع)

خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمّنوا، فقال أسقف نجران[1]: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوها لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك ونثبت على ديننا قال: «فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فأبوا. قال: «فإني أناجزكم» فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أنّ نؤدي إليك كل عام ألفي حلة: ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد. فصالحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» (٢٣٧) وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود. فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. (٢٣٨) فإن قلت: ما كان دعاؤه

---

٢٣٧ ـ أخرجه أبو نعيم في الدلائل (١/٢٥٨، ٢٥٩) عن ابن عباس عن الشعبي عن جابر قال: قدم على النبي ـ ﷺ ـ العاقب، والطيّب والطبري (٦/٤٧٩)، حديث (٧١٨١)، (٧١٨٣) في الأول عن محمد بن جعفر بن الزبير والثاني عن السديّ وأخرجه ابن إسحاق (٦٧٧ ـ سيرة بن هشام) وأخرجه أبو داود (٣/١٦٧): كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب في أخذ الجزية، حديث (٣٠٤١) عن ابن عبّاس بنحو الأول.

قال الحافظ: أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوّة، من طريق محمد بن مروان السديّ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بطوله وابن مروان متروك متّهم بالكذب ثم أخرج أبو نعيم نحوه عن الشعبي مرسلاً، وفيه «فإن أبيتم المباهلة فأسلموا ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فأعطونا الجزية. كما قال الله تعالى. قالوا: ما نملك إلاّ أنفسنا قال: فإن أبيتم فإني أنبذ إليكم على سواء، فقالوا: لا طاقة لنا بحرب العرب، ولكن نؤدي الجزية، فجعل عليهم في كلّ سنة ألفي حلّة: ألفاً في صفر، وألفاً في رجب، فقال ـ ﷺ ـ: لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تمّوا على الملاعنة» رواه الطبري من طريق أبي إسحاق، حدّثني محمد بن جعفر بن الزبير في قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ فذكره مرسلاً، وفي سنن أبي داود من حديث ابن عباس «صالح النبي ـ ﷺ ـ أهل نجران على ألفي حلّة النّصف في صفر، والبقية في رجب يؤدونه إلى المسلمين» وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كلّ صنف من أصناف السّلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يردّوها عليهم، وهو طرف من هذه القصّة. انتهى.

٢٣٨ ـ أخرجه مسلم (٨/٢٠٨ ـ نووي): كتاب فضائل الصّحابة: باب فضائل أهل البيت، حديث (٦١/ ٢٤٢٤)، والحاكم (٣/١٤٧): كتاب الفضائل وابن أبي شيبة (٦/ ٣٧٠)، حديث (٣٢١٠٢).

---

(١) قوله «فقال أسقف نجران يا معشر النصارى» أي حبرهم عبد المسيح اهـ. (ع)

إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده[1] وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: الذي قص عليك من نبأ عيسى، ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾: قرىء بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون، لأن اللام تنزل من ﴿هو﴾ منزلة بعضه، فخفف كما خفف عضد، وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها، وإما مبتدأ و«القصص الحق» خبره، والجملة خبر «إن». فإن قلت: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلت: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز، لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ، و «من» في قوله: ، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: بمنزلة البناء على الفتح في «لا إله إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق، والمراد الردّ على النصارى في تثليثهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: ، ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟

= وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وهو واهم في ذلك فالحديث أخرجه مسلم.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٧٧) وعزاه لمسلم، وأحمد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والحاكم عن عائشة.
قال الحافظ: أخرجه مسلم من طريق صفية بنت شيبة عنها. وغفل الحاكم فاستدركه. انتهى.

---

(١) قوله «وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه» في الصحاح: الفلذ: كبد البعير. والجمع: أفلاذ. والفلذة: القطعة من الكبد واللحم والمال وغيرها، والجمع فلذ اهـ. فتدبر. (ع)

يُفۡسِدُونَ﴾: [النحل: ٨٨].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: قيل: هم أهل الكتابين، وقيل: وفد نجران، وقيل: يهود المدينة، ﴿سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾: مستوية بيننا وبينكم، لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل، وتفسير الكلمة قوله: ، ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعني تعالوا إليها حتى لا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة: ٣١] وعن عدي بن حاتم: «ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال: أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قال: هو ذاك» وعن الفضيل: لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة، وقرىء «كلمة» بسكون اللام، وقرأ الحسن «سواء» بالنصب بمعنى استوت استواء، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: عن التوحيد، ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾: أي: لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما: اعترف بأني أنا الغالب وسلم لي الغلبة، ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه: اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره. زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه فقيل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال، ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: «ها» للتنبيه، و«أنتم» مبتدأ و«هؤلاء» خبره، و﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾: جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى، يعني أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى

وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم، ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: مما نطق به التوراة والإنجيل، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم، وعن الأخفش: ها أنتم هو آأنتم على الاستفهام. فقلبت الهمزة هاء، ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم، وقيل: ، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: بمعنى اللذين و﴿حَٰجَجْتُمْ﴾: صلته، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾: علم ما حاججتم فيه، ﴿وَأَنتُمْ﴾: جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا، ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: كما لم يكن منكم. أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح، ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: إن أخصهم به وأقربهم منه من الولي وهو القرب، ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾: في زمانه وبعده، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾: خصوصاً، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: من أمته، وقرىء: «وهذا النبيَّ» بالنصب عطفاً على الهاء في «اتبعوه»، أي: اتبعوه واتبعوا هذا النبي، وبالجر عطفاً على إبراهيم.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾: هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم. أو وما يقدرون على إضلال المسلمين، وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوّة رسول الله ﷺ وغيرها، وشهادتهم: اعترافهم بأنها آيات الله. أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوّة الرسول، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: نعته في الكتابين. أو تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق. قرىء «تلبسون» بالتشديد وقرأ يحيى بن وثاب «تلبَسُون» بفتح الباء أي: تلبسون الحق مع الباطل. كقوله: «كلابس ثوبَيْ زور»، وقوله [من الطويل]:

. . . . إذَا هُـوَ بِـالْـمَـجْـدِ ٱرْتَـدَى وَتَـأَزَّرَا[1]

---

(١) فـلا أب وابـنـاً مـثـل مـروان وابـنـه إذا هـو بـالـمـجـد ارتـدى وتـأزرا
للفرزدق. وابناً: نصب عطفاً على موضع الأب، ومثل بالرفع ـ خبر لا أو نصب صفة لأب وابناً، والخبر محذوف. وابنه هو عبدالملك. و «إذا هو» أي مروان، لأن مجد الابن بمجد الأب لا العكس، والمراد بالمجد هنا: الأفعال الحميدة التي تتجدد منه، ثم إنه شبهه باللباس بجامع صون كل لصاحبه على طريق المكنية، والارتداء والتأزر تخييل. ويحتمل أنه شبّه الاتصاف به ظاهراً وباطناً بالارتداء والتأزر على طريق التصريحية. ويجوز أن المراد من «إذا» الزمن المستمر، لا المستقبل فقط.

=

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أوّله. قال [من الكامل]:

مَـنْ كَـانَ مَـسْـرُوراً بِـمَـقْـتَـلِ مَـالِـكٍ ... فَـلْـيَـأْتِ نِـسْـوَتَـنَـا بِـوَجْـهِ نَـهَـارِ[1]

والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أوّل النهار، ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ﴾: به في آخره لعلهم يشكون في دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد يتبين لهم فيرجعون برجوعكم، وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أوّل النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه وبطلان دينه فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينهم، وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أوّل النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة، ولعلهم

= وهو لرجل من عبد مناة بن كنانة في تخليص الشواهد ص ٤١٣، ٤١٤؛ وخزانة الأدب ٤/٦٧، ٦٨؛ وشرح التصريح ١/٢٤٣؛ وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٠٧، والمقاصد النحويّة ٢/٣٥٥، وله أو للفرزدق في الدرر ٦/١٧٢، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/٤١٩، ٢/٥٩٣، ٨٤٧، وأوضح المسالك ٢/٢٢، وجواهر الأدب ص ٢٤١، وشرح الأشموني ١/١٥٣، وشرح قطر الندى ص ١٦٨، وشرح المفصّل ٢/١٠١، ١١٠ واللامات ص ١٠٥، واللمع ص ١٣٠، والمقتضب ٤/٣٧٢، همع الهوامع ٢/١٤٣.

(١) مـن كـان مـسـروراً بـمـقـتـل مـالـك ... فـلـيـأت نـسـوتـنـا بـوجـه نـهـار
يـجـد الـنـسـاء حـواسـراً يـنـدبـنـه ... يـلـطـمـن أوجـهـهـن بـالأسـحـار

لربيع بن زياد. يرثي مالك بن زهير العبسي. ووجه النهار: أوله. والحواسر: كاشفات الوجوه، وصرف للوزن. والندبة: رفع الصوت بالبكاء على الميت. والأسحار: مقدم أعالي الأعناق. والباء بمعنى مع. كانت عادة العرب أن لا يندبوا القتيل إلا بعد أخذ ثأره فضمن الرثاء معنى المدح لهم والتشفي من عدوهم. وقال: من كان شامتاً بقتله فليجيء إلى نسائنا في أول النهار يجدهن كاشفات وجوههن يبكين عليه برفع أصواتهن، يضربن أوجههن مع صفاح أعناقهن. يعني أننا أخذنا ثأره فحل لنسائنا البكاء عليه، وانتقد ابن العميد قوله: فليأت نسوتنا. ولله در الإمام المرزوقي حيث أبدله بقوله: فليأت ساحتنا، لأنه فيه أيضاً الفرار من الإظهار موضع الإضمار.
ينظر البيت في ديوان الحماسة ١/٤٩٤، واللسان (وجه)، ومجاز القرآن ١/٩٧، وأمالي المرتضى ١/٢١١، والأشباه والنظائر ٢/٨٢، وتذكرة النحاة ص ١٣٩، والاستغناء في أحكام الاستثناء ص ٦٣٢، والبحر المحيط ٢/٥١٧، والدر المصون ٢/١٣٤.

يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾: متعلق بقوله: ، ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾: وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا: أسرّوا تصديقكم بأنّ المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام، ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: عطف على أن يؤتى[1] والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع[2]، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، أنّ المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة. فإن قلت: فما معنى الاعتراض؟ قلت: معناه أنّ الهدى هدى الله، من شاء أن يلطف به حتى يسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: يريد الهداية والتوفيق. أو يتمّ الكلام عند قوله: ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: على معنى: ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار «إلا لمن تبع دينكم»: إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغيظ لهم، وقوله: ، ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾: معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه، لا لشيء آخر، يعني أن ما بكم من الحسد والبغي ـ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب ـ دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: أأن يؤتى أحد بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد. فإن قلت: فما معنى قوله: ، ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾: على هذا؟ قلت: معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم، ويجوز أن يكون، ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾: بدلاً من الهدى، و﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾: خبر إن، على معنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم «أو يحاجوكم» حتى يحاجوكم «عند ربكم» فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم، وقرىء: «إن يؤتى أحد». على إن النافية، وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما

---

(١) قال محمود: «أو يحاجوكم معطوف على أن يؤتى... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال، وهو وقوع أحد في الواجب، لأن الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات، إذ حاصله أنه أنكر عليهم ووبخهم على وما وقع منهم وهو إخفاء الإيمان بأن النبوة لا تخص بني إسرائيل لأجل العلتين المذكورتين. فهو إثبات محقق. ويمكن أن يقال: روعيت صيغة الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقة، فحسن لذلك دخول أحد في سياقه. والله أعلم.

(٢) قال محمود: «والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع... إلخ» قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم، يعني ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب، ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾: بفعل مضمر يدل عليه قوله: ، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله، فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؛ لأن قولهم، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

عن ابن عباس، ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾: هو عبد الله بن سلام، استودعه رجل من قريشٍ ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأدّاه إليه، و ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾: فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجحده وخانه، وقيل: المأمونون على الكثير النصارى، لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود، لغلبة الخيانة عليهم، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: إلا مدّة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه، وقرىء: «يؤده» بكسر الهاء والوصل، وبكسرها بغير وصل، وبسكونها، وقرأ يحيى بن وثاب: «تئمنه»، بكسر التاء، ودمت بكسر الدال من دام يدام، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ترك الأداء الذي دلّ عليه لم يؤدّه، أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم، ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾: أي: لا يتطرّق علينا عتاب وذم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم، لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة، وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها: «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر» (٢٣٩) وعن ابن عباس أنه

---

٢٣٩ ـ أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٢)، حديث (٧٢٦٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٣٤٩)، حديث (٨١٢) وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٧٨) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير.

قال الحافظ:

أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق يعقوب بن النّعمان القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير به مرسلاً. انتهى.

سأله رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل. إنهم إذا أدّوا الجزية لم يحلّ لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم، (٢٤٠) ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: بادعائهم أن ذلك في كتابهم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أنهم كاذبون، ﴿بَلَىٰ﴾: إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي: «بلى» عليهم سبيل فيهم، وقوله: ، ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾: جملة مستأنفة مقرّرة للجملة التي سدّت «بلى» مسدّها، والضمير في «بعهده» راجع إلى «من أوفى»، على أنّ كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإنّ الله يحبه. فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإنّ الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء. فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير، وعن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿يَشْتَرُونَ﴾: يستبدلون، ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم، ﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ﴾: وبما حلفوا به من قولهم، والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك، وقيل: نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول الله ﷺ، وأخذوا الرشوة على ذلك، وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم

---

٢٤٠ ـ أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٣)، حديث (٧٢٧٣) وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٢٣، ١٢٤).
قال الحافظ:
أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق أبي إسحاق عن صعصعة بن معاوية أنه سأل ابن عباس ـ فذكره انتهى.

ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: لقد هممت أن أُمِيرَكم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه. فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعت الذي نعت لنا، ففرح ومارَهُمْ، وعن الأشعث بن قيس: نزلت فيّ، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «شاهداك أو يمينه» فقلت إذن يحلف ولا يبالي فقال «من حلف على يمين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان» وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه، والوجه أن نزولها في أهل الكتاب، وقوله: ، ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: يقوّي رجوع الضمير في «بعهده» إلى الله، ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾: مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: ولا يثني عليهم. فإن قلت: أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه؟ قلت: أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر، ﴿لَفَرِيقًا﴾: هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحييّ بن أخطب وغيرهم، ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾: يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف وقرأ أهل المدينة: «يلوّن»، بالتشديد، كقوله: ﴿لووا رؤوسهم﴾ [المنافقون: ٥]، وعن مجاهد وابن كثير: يلون ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزة، ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في، ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾:؟ قلت: إلى ما دلّ عليه «يلوون ألسنتهم بالكتاب» وهو المحرف، ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب وقرىء: «ليحسبوه» بالياء، بمعنى: يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: تأكيد لقوله: هو من الكتاب، وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنهم لا يعرّضون ولا يورُّون وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك لفرط جراءتهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الأخرة، وعن ابن عباس: هم اليهودالذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾: تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى، وقيل: إنّ أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله! فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني فنزلت، (٢٤١) وقيل: قال رجل: يا رسول الله، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله» (٢٤٢) ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: والحكمة وهي السنة، ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾: ولكن يقول: كونوا، والربانيّ: منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون؛ كما يقال: رقباني ولحياني، وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته، وعن محمد ابن الحنفية: أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات ربانيّ هذه الأمّة، وعن الحسن: ربانيين: علماء فقهاء، وقيل: علماء معلمين، وكانوا يقولون: الشارع الرباني: العالم العامل المعلم، ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾: بسبب كونكم عالمين[1] وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوّة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد

---

٢٤١ ـ أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٣٨٤).
والطبري (٦/ ٥٣٩)، حديث (٧٢٩٦) عن ابن عبّاس وابن إسحاق (٦٣٥ ـ سيرة بن هشام).
وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٨٢) وعزاه لابن إسحاق والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس.
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه البيهقي في الدلائل والطبري من طريق ابن إسحاق: حدّثني محمد بن أبي محمد حدّثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ـ ﷺ ـ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلاّ يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلاّ نصرانياً. فأنزل الله فيهم ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ـ الآية﴾ قال أبو رافع القرظي ورجل آخر منهم يقال له الرئيس وهو السّيد ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ وقد دعاهم للإسلام ـ أتريد منّا يا محمد ـ فذكره» وذكر الواحدي في الأسباب من طريق الكلبي وعطاء بن عياش «أنّ أبا رافع والرئيس من نصارى نجران قالا يا محمد ـ فذكره». انتهى.
٢٤٢ ـ ذكره السيوطي في الدر (٢/ ٨٢) وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٩٢)، حديث ١٩٩ وقال: غريب، وعزاه للواحدي في أسباب النزول عن الحسن بلفظ السيوطي: بلغني أن رجلاً...
قال الحافظ:
لم أجد له إسناداً ونقله الواحدي في الأسباب عن الحسن البصري «أنّ رجلاً» فذكره انتهى.

---

(١) قوله «بسبب كونكم عالمين» تفسير لقراءة (تعلمون) من العلم. (ع)

نفسه وكدّ روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها: وقرىء «تعلمون»، من التعليم. «وتعلمون» من التعلم، ﴿تَدْرُسُونَ﴾: تقرءون، وقرىء «تدرسون»، من التدريس، وتدرسون على أن أدرس بمعنى درّس كأكرم وكرّم وأنزل ونزّل. «وتدرّسون»، من التدرّس، ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسونه على الناس كقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فيكون معناهما معنى تدرسون من التدريس، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته، وقرىء «ولا يأمركم» بالنصب عطفاً على، ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾: وفيه وجهان: أحدهما: أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾: والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمركم، ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾: كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي، والثاني: أن تجعل «لا» غير مزيدة، والمعنى: أن رسول الله ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح. فلما قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله، ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله «ولن يأمركم»، والضمير في، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: و﴿أَيَأْمُرُكُم﴾: لبشر، وقيل لله، والهمزة في أيأمركم للإنكار، ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين أستأذنوه أن يسجدوا له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾: فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه، كما تقول ميثاق الله وعهد الله، كأنه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم، والثالث: أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف، والرابع: أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم، لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، وتدل عليه قراءة أبيّ وابن

مسعود: «وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب» واللام في، ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾: لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف[1] وفي «لتؤمنن» لام جواب القسم، و «ما» يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط، و«لتؤمنن» سادّ مسدّجواب القسم والشرط جميعاً وأن تكون موصولة بمعنى: للذي آتيتكموه لتؤمنن به، وقريء: «لما آتيناكم» وقرأ حمزة: «لما آتيتكم». بكسر اللام ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة؛ ثم لمجيء رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به. على أن «ما» مصدرية، والفعلان معها أعني «آتيتكم» و «جاءكم» في معنى المصدرين، واللام داخلة للتعليل على معنى: أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه، لأجل أني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف، ويجوز أن تكون «ما» موصولة[2]. فإن قلت: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: ، ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ﴾: لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة، لأنك لا تقول: للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ قلت: بلى[3] لأنّ ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنه قيل: للذي آتيكموه وجاءكم رسول مصدق له، وقرأ سعيد بن جبير «لما» بالتشديد، بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة. ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته، وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميما بإدغامها في الميم، فحذفوا إحداها فصارت لما، ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى، ﴿إِصۡرِي﴾: عهدي، وقرىء: «أصرى» بالضم، وسمي إصراً، لأنه مما يؤصر، أي: يشدّ ويعقد، ومنه الإصار، الذي يعقد به، ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر، كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار، ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ من إقراركم وتشاهدكم، ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرُّجوع

---

(١) قال محمود: اللام في لما آتيتكم لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى القسم. . .الخ، قال أحمد: يريد على أن قوله (رسول) فاعل جاء، لأنه لا يخلو من الضمير وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً ورسول خبر الموصول. ولم يرد الزمخشري إلا الأول، وهو ظاهر الآية.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وفيه حدسٌ لطيف جداً وحاصلُ ما ذكر أنهم إن أرادوا تفسير المعنى فيمكن أن يقال، وإن أرادوا تفسير الإعراب فلا يصح، لأن كلاً منهما ـ أعني الشرط والقسم ـ يطلبُ جواباً على حدة، ولا يمكن أن يكون هذا محمولاً عليهما؛ لأن الشرط يقتضيه على جهة العمل فيكون في موضع جزم، والقسم يطلبه من جهة التعلق المعنوي به من غير عمل فلا موضع له من الإعراب، مُحال أن يكون الشيء له موضع من الإعراب ولا موضع له من الإعراب. انتهى. الدر المصون.

(٣) عاد كلامه، قال مجيباً عن السؤال: «قلت: بلى. . .الخ» قال أحمد: يريد أن الكلام وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد فيجوز دخوله في الصلة، والله أعلم.

إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض، وقيل: الخطاب للملائكة، ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: الميثاق والتوكيد، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: أي: المتمردون من الكفار دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة، والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره ﴿أ﴾: يتولون ﴿فغير دين الله يبغون﴾: وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل، وروي: أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم» (٢٤٣) فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت: وقرىء: «يبغون»، بالياء: «وترجعون» بالتاء وهي قراءة أبي عمرو، لأنّ الباغين هم المتولون، والراجعون جميع الناس، وقرئا بالياء معاً، وبالتاء معاً، ﴿طَوْعًا﴾: بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه، ﴿وَكَرْهًا﴾: بالسَّيف، أو بمعاينة ما يلجىء إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت[1] ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤] وانتصب طوعاً وكرها على الحال، بمعنى طائعين ومكرهين.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان، فلذلك وحد الضمير في، ﴿قُلْ﴾: وجمع في، ﴿آمَنَّا﴾: ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه. فإن قلت: لم عدّى «أنزل» في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر، ومن قال: إنما قيل،

---

٢٤٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٩٢): غريب ونقله الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس: أنّ أهل الكتاب اختصموا... ا.هـ.
ذكر الحافظ ابن حجر: لم أجد له إسناداً، وذكره الواحدي في الأسباب أيضاً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ انتهى.

---

(١) قوله: «والاشفاء على الموت» أي الإشراف، كما في الصحاح (٤).

﴿عَلَيْنَا﴾: لقوله: ، ﴿قُلْ﴾: ؛ و﴿إِلَيْنَا﴾: لقوله: ﴿قُولُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٣٦] تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف. ألا ترى إلى قوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٨]، و﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ١٠٥] وإلى قوله: ، ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها؛ ثم قال: ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى: ، ﴿دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشياع، وقرىء: «ومن يبتغ غير الإسلام» بالإدغام.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا﴾: كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق، وبعدما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوّة ـ وهم اليهود ـ كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به؛ وذلك حين عاينوا ما يوجب قوّة إيمانهم من البينات، وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم طعمة بن أبيرق، وَوَحْوَحُ بن الأسلت، والحرث بن سويد بن الصامت. فإن قلت: علام عطف قوله، ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾: ؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل؛ لأن معناه بعد أن آمنوا، كقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ﴾ [المنافقون: ١٠] وقول الشاعر [من الطويل]:

... لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلاَ نَاعِبٍ[1] ....

---

(١) مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها
أنشده أبو المهدي. والشؤم: ضد اليمن. والناعب: الصائح، من باب ضرب ونفع، والبين: مصدر بمعنى الانفصال والبعد. وجر ناعب على توهم: ليسوا بمصلحين ولا ناعب، وجعل هذا جمهور النحاة مطرداً، ومنعه بعضهم. وروى «إلا بشؤم» وصوت الغراب كثيراً ما تتشاءم منه العرب. وهو كناية عن تشتت شمل تلك المشائيم وعدم اتفاق كلمتهم.
البيت للفرزدق وقيل للأحوص الدياحي ـ ينظر الكتاب (١/ ١٦٥)، (٩١٣) للفرزدق، والإنصاف ١/ ١٩٣، والخصائص (٢/ ٣٥٤)، والمغني ٢/ ٤٧٥، والحافظ في البيان ٢/ ٢٦١، وروح المعاني =

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار «قد» بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي﴾: لا يلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم.، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾: الكفر العظيم والارتداد، ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: ما أفسدوا أو ودخلوا في الصلاح، وقيل: نزلت في الحرث بن سويد بعد أن ندم على ردّته وأرسل إلى قومه أن سلوا: هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية. فأقبل إلى المدينة فتاب وقبل رسول الله ﷺ توبته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾: هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن. أو كفروا برسول الله بعدما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم في كل وقت، وعداوتهم له، ونقضهم ميثاقه، وفتنتهم للمؤمنين، وصدهم عن الإيمان به، وسخريتهم بكل آية تنزل، وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون، وإن أردنا الرجعة نافقنا بإظهار التوبة. فإن قلت: قد علم أنّ المرتد كيفما ازداد كفرا فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى، ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾:؟ قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأنّ الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل: إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم. فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين، ﴿لَّن تُقۡبَلَ﴾: بغير فاء، وفي الآخرى، ﴿فَلَن يُقۡبَلَ﴾:؟ قلت: قد أوذن بالفاء أنّ الكلام بني على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب. كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم. فإن قلت: فحين كان المعنى، ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾: بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجرّه إلى الموت على الكفر؟ قلت: لأنه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر. فإن

= ٩٨/١٢، والخزانة ١٥٨/٤ والأشموني ٢/ ٢٣٥ وابن يعيش ٢/ ٥٢، ورغبة الآمل ٤/ ٩٣ وضرائر الشعر ص ١٨٠، والدر المصون ٢/ ١٦١.

قلت: فأي: فائدة في هذه الكناية، أعني أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟ قلت: الفائدة فيها جليلة، وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها، ألا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة، ﴿ذَهَبًا﴾: نصب على التمييز، وقرأ الأعمش: «ذهب»، بالرفع رداً على «ملء»، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجال. فإن قلت: كيف موقع قوله: ، ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾[1] :؟ قلت: هو كلام محمول على

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت كيف موقع قوله ولو افتدى به... الخ» قال أحمد: لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب إليه بوجه، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره، ثم نقرر وجهاً يطابق الآية، وذلك أن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى، مثاله قولك: أكرم زيداً ولو أساء، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره: أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه إن أساء على أن إكرامه أن أحسن بطريق الأولى. ومنه ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ معناه ـ والله أعلم: لو كان الحق على غيركم، ولو كان عليكم، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم، فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً، لأن قوله: ﴿ولو افتدى به﴾ يقتضي شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منها عليه بطريق الأولى، وهذه الحال المذكورة وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها، فلذلك قدر الكلام بمعنى: لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور. وأما تنزيل الآية عليه فعسر جداً، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله فنقول: قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال: منها أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول. ومنها أن يقول المقتدي في التقدير: أفدي نفسي بكذا، وقد لا يفعل. ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذي يفدي به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول فديته. وإذا تعددت الأحوال فالمراد في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول، وهو أن يفتدي بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً، ومع ذلك لا يقبل منه؛ فمجرد قوله أبذل المال وأقدر عليه أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها، تنبيهاً على أن ثم أحوالاً أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة. وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ والله أعلم. وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس في ذلك اليوم. ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلي في يدي هذه، فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع. والله ولي التوفيق.

المعنى. كأنه قيل: فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ويجوز أن يراد: ولو افتدى بمثله[1]، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ [الزمر: ٤٧] والمثل يحذف كثيراً في كلامهم، كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه، وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله «ولا هيثم الليلة للمطيّ» و«قضية ولا أبا حسن لها»، تريد: ولا مثل هيثم، ولا مثل أبي حسن، كما أنه يراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا، تريد أنت، وذلك أنّ المثلين يسدّ أحدهما مسدّ الآخر فكانا في حكم شيء واحد، وأن يراد: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدق به، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه، وقرىء: «فلن يَقْبَلَ من أحدهم ملء الأرض ذهباً» على البناء للفاعل وهو الله عزّ وعلا، ونصب «ملء»، ومل كـ «رض» بتخفيف الهمزتين.

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾: لن تبلغوا حقيقة البرّ، ولن تكونوا أبراراً، وقيل: لن تنالوا بر الله وهو ثوابه، ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾: حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها، وتؤثرونها كقوله: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله، وروي: أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسو الله. إن أحبّ أموالي إليّ بيرحاء فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ «بخ بخ ذاك مال رابح أو مال رائح وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها في أقاربه. (٢٤٤) وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال: هذه

---

٢٤٤ ـ أخرجه مالك (٢/ ٩٩٥) كتاب الصّدقة، باب: الترغيب في الصّدقة حديث (٢).

ـ والبخاري (٤/ ٨٤) كتاب الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب حديث (١٤٦١)، (٥/ ٢٦٣)، كتاب الوكالة، باب: «إذا قال الرّجل لوكيله: ضعه...» حديث (٢٣١٨)، (٦/ ٣٣) كتاب الوصايا، باب: إذا أوصى الرجل لأقاربه، حديث (٢٧٥٢)، (٦/ ٥٣)، باب: إذا وقف أرضاً ولم يبيّن الحدود فهو جائز...، حديث (٢٧٦٩)، (٨/ ٧١) كتاب التفسير، باب: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ إلى ـ ﴿عَلِيمٌ﴾ حديث (٤٥٥٤)، (١١/ ٢٠٣) باب: استعذاب الماء، حديث (٥٦١١).

ـ ومسلم (٢/ ٦٩٣) كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصّدقة على الأقربين والزوج والأولاد، حديث (٩٩٨).

ـ والترمذي (٥/ ٢٢٤) كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، حديث (٢٩٩٧). =

---

(١) (عاد كلامه) قال: «ويجوز أن يكون معنى الكلام ولو افتدي بمثله...الخ» قال أحمد: وعلى هذا النمط يجري الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى.

في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله أسامة بن زيد، فكأنّ زيداً وجد في نفسه وقال: إنما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله ﷺ: أما إن الله تعالى قد قبلها منك،(٢٤٥) وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبته فقال: إن الله تعالى يقول: ، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾: فأعتقها، ونزل بأبي ذرّ ضيف فقال للراعي ائتني بخير إبلي فجاء بناقة مهزولة. فقال: خنتني، قال: وجدت خير الإبل فحلها، فذكرت يوم حاجتكم إليه فقال: إنّ يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي، (٢٤٦) وقرأ عبد الله: «حتى تنفقوا بعض ما تحبون»، وهذا دليل على أنّ «مِن» في، ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾: للتبعيض، ونحوه: أخذت من المال، و«من» في، ﴿مِن شَيْءٍ﴾: لتبيين ما تنفقوا، أي: من أي شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: عليم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

= ـ وأحمد (٣/٢٥٦، ١١٥، ١٧٤، ٢٦٢).
ـ والدارمي (١/ ٣٩٠) كتاب الزكاة، باب: أيُ الصّدقة أفضل.
ـ والبيهقي في سننه (٦/ ١٦٤) كتاب الوقف، باب: الصدقة في الأقربين.
ـ وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٨٩) وعزاه لمالك وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنّسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس، وذكر الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

٢٤٥ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٦، ٥٩٢)، حديث (٧٣٩٧)، من طريق عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن عمرو بن دينار قال: فذكره.
قال الشيخ أحمد شاكر: هذا حديث مرسل، لأن عمرو بن دينار تابعي. داود بن عبد الرحمن العطار المكي: ثقة من شيوخ الشافعي ووثّقه ابن معين، وأبو داود، وغيرهما، عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين بن الحارث، المكي النّوفلي: ثقة. أخرج له الجماعة. ا.هـ.
وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب ومن طريقه الطبري في تفسيره (٦/ ٥٩٢)، بنحو حديث عمرو بن دينار، وهذا الحديث معضل، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره والطبري من طريقه: أخبرنا معمر عن أيوب وغيره «أنه لمّا نزلت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ جاء زيد بن حارثة بفرس له ـ فذكره) وهو معضل ـ وأخرجه الطبري من رواية عمرو بن دينار نحوه مرسلاً، ورجاله ثقات. انتهى.

٢٤٦ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٥٨٨)، رقم (٧٣٩٢) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به.
وأخرجه الواحدي في الوسيط (١/ ٤٦٣) من حديث ابن أبي نجيح عن مجاهد به، وقال الحافظ ابن حجر: رواه الطبراني من رواية أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال: «كتب عمر إلى أبي موسى ـ فذكره» انتهى.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾: كل المطعومات أو كل أنواع الطعام، والحل مصدر. يقال: حل الشيء حلا كقولك: ذلت الدابة ذلاً، وعزّ الرجل عزاً، وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كنت أطيبه لحله وحرمه، (٢٤٧) ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث

----

٢٤٧ ـ أخرجه البخاري (٣/٣٩٦): كتاب الحج: باب الطيب عند الإحرام، وما يلبس إذا أراد أن يحرم ويترجّل ويدّهن، حديث (١٥٣٩)، ومسلم (٢/٨٤٦): كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام، حديث (٣٣/١١٨٩)، وأبو داود (٢/٣٥٨، ٣٥٩): كتاب المناسك (الحج): باب الطيب عند الإحرام، حديث (١٧٤٥)، والترمذي (٣/٢٥٩): كتاب الحج: باب ما جاء في الطيب عند الإحلال قبل الزيارة، حديث (٩١٧)، والنسائي (٥/١٣٦، ١٣٧، ١٣٨): كتاب الحج: باب الطيب عند الإحرام، وابن ماجه (٢/٩٧٦): كتاب المناسك: باب الطيب عند الإحرام، حديث (٢٩٢٦)، ومالك (١/٣٢٨): كتاب الحج: باب ما جاء في الطيب في الحج، حديث (١٧)، وابن الجارود (٤١٤)، والشافعي في «المسند» (ص: ١٢٠)، والحميدي (١/١٠٤)، رقم (٢١٠)، والدارمي (٢/٣٣): كتاب الحج: باب الطيب عند الإحرام وأحمد (٦/١٨١، ١٨٦، ١٩٢، ٢٠٠) وابن خزيمة (٤/١٥٥).

والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/١٣٠): باب الطيب للمحرم والبيهقي (٥/٣٤) وابن طهمان في مشيخته (٢٠، ١٦٠، ١٦٣) والدارقطني (٢/٢٧٤) من طرق عن القاسم عن عائشة به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه مسلم (٢/٨٤٦) كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام حديث (٣١/١١٨٩)، والنسائي (٥/١٣٦ ـ ١٣٧) كتاب المناسك: باب إباحة الطيب عند الإحرام والشافعي في «المسند» (ص ـ ١٢٠) والحميدي (١/١٠٥) رقم (٢١١) والبيهقي (٥/٣٤) وأبو يعلى (٧/٣٥٣) رقم (٤٣٩١) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: طيَّبت رسول الله ـ ﷺ ـ لإحرامه وطيَّبته لإحلاله قبل أن يطوف بالبيت.

وأخرجه البخاري (١٠/٣٨٢) كتاب اللباس: باب ما يستحب من الطيب حديث (٥٩٢٨) ومسلم (٢/٨٤٧) كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام (٣٦، ٣٧/١١٨٩) والنسائي (٥/١٣٧ ـ ١٣٨) كتاب المناسك باب إباحة الطيب عند الإحرام والدارمي (٢/٣٣) كتاب المناسك: باب الطيب عند الإحرام وأحمد (٦/١٣٠، ١٦٢) والحميدي (١/١٠٦) رقم (٢١٣) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/١٣٠) والبيهقي (٥/٣٤) من طريق عثمان بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كنت أطيّب النبيَّ ـ ﷺ ـ عند إحرامه بأطيب ما أجد وهذا لفظ البخاري.

وأخرجه البخاري (٣/٣٩٦) ومسلم (٢/٨٤٧) كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام (٣٩/١١٩٠) وأبو داود (١/٥٤٤) كتاب المناسك: باب الطيب عِند الإحرام (١٧٤٦) والنّسائي (٥/١٤٠) وابن ماجه (٢/٩٧٧) كتاب المناسك: باب الطيب عن الإحرام (٢٩٢٨) وأحمد (٦/ ٣٨، ٢٤٥) وابن الجارود (٤١٥) وابن خزيمة (٤/١٥٧) رقم (٢٥٨٧) والطيالسي (١٣٧٨) والحميدي (١/١٠٦) رقم (٢١٥) والبيهقي (٥/٣٤) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/١٢٩ ـ ١٣٠) من طريق الأسود عن عائشة قالت: كأنّي أنظر إلى وبيص الطيب في مفرق رسول الله ـ ﷺ ـ وهو محرم.

والواحد والجمع. قال الله تعالى: ﴿لاهنَّ حلٌّ لهم﴾ [الممتحنة: ١٠] والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب ـ عليه السلام ـ على نفسه لحوم الإبل وألبانها وقيل العروق. كان به عرق النسا، فنذر إن شفي أن يحرّم على نفسه أحب الطعام إليه، وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه، وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه، ففعل ذلك بإذن من الله، فهو كتحريم الله ابتداء والمعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه، وهو رد على اليهود وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١] وفي قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: ١٤٦] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ وجحود ما غاظهم واشمأزوا منه وامتعضوا[1] مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم، فقالوا: لسنا بأوّل من حرّمت عليه، وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرّمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلم جرا، إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدّد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حُرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾: أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرّم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه، فروي أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه، ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: بزعمه أن ذلك كان محرماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾: تعريض بكذبهم كقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أي: ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون، ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾: وهي

= قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديثها. انتهى.

---

(١) قوله: «واشمأزوا منه وامتعضوا» أي غضبوا منه وشق عليهم، أفاده الصحاح (ع).

ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾: صفة لـ «بيت»، والواضع هو الله عز وجلّ، تدل عليه قراءة من قرأ «وضع للناس» بتسيمة الفاعل وهو الله، ومعنى وضع الله بيتا للناس، أنه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أوّل متعبد للناس الكعبة، وعن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن أوّل مسجد وضع للناس فقال: «المسجد الحرام. ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، (٢٤٨) وعن عليّ رضي الله عنه أن رجلاً قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأوّل من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش، (٢٤٩) وعن ابن عباس: هو أوّل بيت حُجَّ بعد الطوفان، (٢٥٠) وقيل: هو أوّل بيت ظهر

---

٢٤٨ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٤٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء باب (١٠) حديث (٣٣٦٦) ومسلم (٣/ ٥ ـ نووي) كتاب المساجد: حديث (١، ٢/ ٥٢٠) والنّسائي (٢/ ٣٢) كتاب المساجد: باب ذكر أيّ مسجد وضع أوّلاً وابن ماجه (١/ ٢٤٨) كتاب المساجد باب أيّ مسجد وضع أوّلاً حديث (٧٥٣) وأبو عوانة (١/ ٣٩١، ٣٩٢) وأحمد (٥/ ١٦٠، ١٦٦) وعبد الرزاق (١٥٧٨) والحميدي (١٣٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٢) وابن خزيمة (١٢٩٠) وابن حبّان (١٥٩٨، ٦٢٢٨) والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٣٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٤٣٣) وفي «دلائل النبوة» (٢/ ٤٣) كلّهم من طريق الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر به.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن أول مسجد وضع للناس، قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: بيت المقدس. قلت: كم بينهما؟ قال أربعون عاماً. ثمّ الأرض لك مسجد فحيث أدركتك الصّلاة فصلّ» انتهى.

٢٤٩ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٠٢)، رقم (٩٦٢) من طريق مجالد عن الشعبي عن عليّ به.
ـ والطبري في تفسيره (٧/ ١٩) رقم (٧٤٢٢)، من طريق شعبة عن سماك عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى عليّ فقال: بنحوه.

٢٥٠ ـ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٣١)، رقم (٣٩٨٤) من طريق عبد الملك بن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ أوّل بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مدت منه الأرض، وإن أول جبل وضعه الله عزّ وجلّ في الأرض أبو قبيس ثم مدت منه الجبال.

على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته، وقيل: هو أوّل بيت بناه آدم في الأرض، وقيل: لما هبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات، ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾: البيت الذي ببكة، وهي عَلَمٌ للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه، نحو قولهم: النبيط والنميط، في اسم موضع بالدهناء، ونحوه من الاعتقاب: أمر راتب وراتم، وحمى مغمطة ومغبطة[1] وقيل: مكة، البلد، وبكة: موضع المسجد، وقيل اشتقاقها من «بكه» إذا زحمه لازدحام الناس فيها، وعن قتادة: يَبُكُّ الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة كأنها سميت ببكة وهي الزحمة. قال [من الزجر]:

إذَا الشَّرِيبُ أخَذَتْهُ الأكَّهْ ... فَخَلِّهِ حَتى يَبُكَّ بَكَّهْ[2]

وقيل: تبك أعناق الجبابرة أي: تدقها. لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. ، ﴿مُبَارَكًا﴾: كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف، لأن التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدر في الظرف من فعل الاستقرار، ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾: لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾: عطف بيان لقوله: ، ﴿ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾: . فإن قلت: كيف صح بيان الجماعة بالواحد[3]؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد، كقوله

---

(١) قوله: «وحمي مغمطة ومغبطة» في الصحاح: أغمطت عليه الحمى لغة في أغبطت، أي دامت اهـ.

(٢) يقول إذا أخذت «الأكة» وهي سوء الخلق «الشريب» الذي يشرب معك، أو الذي يسقي بإبله معك، كأنها ملكته واستولت عليه «فخله» أي اتركه حتى يقتطع من الماء قطعة، أو حتى يزدحم بإبله على الماء مرة، من الازدحام. وهذا وصية بمكارم الأخلاق، والحلم عند الغضب، والسماحة.
البيت لعامان بن كعب، ينظر تاج العروس (بكك)، لسان العرب: (شرب)، (أكك)، (بكك)، وجمهرة اللغة ٥٨، ٧٤، ٣١١، ومقاييس اللغة: ١/ ١٨، ١٨٦، ومجمل اللغة: ١/ ١٤٩ وديوان الأدب: ٣/ ١٢٩.

(٣) قال محمود: إن قلت: كيف صح بيان الجماعة بالواحد. . .الخ؟ قال أحمد: ونظير هذا التأويل ما تقدم لي عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قال محمود فيما تقدم «والذي صدر منهم أمنية واحدة، فما وجه جمعها» وبينت فيها هذا بعينه، وهو أن الشيء الواحد متى أريد تمكينه وامتيازه عن غيره من صفة جمع، أفاد الجمع فيه ذلك، وقد لاح لي الآن في جمع الأماني، ثم وجه آخر، وذلك أن كل واحد منهم صدرت منه هذه الأمنية، فجمعها بهذا الاعتبار تنبيهاً على تعددها بتعددهم، والعجب أن الجمع في مثل هذا هو الأصل، وأن الإفراد إنما يقع فيه على نوع ما من الاختصار. ومنه: كلوا في بعض بطنكم تصحوا.

تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] والثاني: اشتماله على آيات[1] لأنّ أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنّة آية، ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، لأنّ الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة[2]، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما. دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وكثير سواهما، ونحوه في طيّ الذكر قول جرير [من الكامل]:

كَانَتْ حَنِيفَةُ أَثْلاَثاً فَثُلْثُهُمْ ... مِنَ الْعَبِيدِ وَثُلْثٌ مِنْ مَوَالِيهَا[3]

ومنه قوله عليه الصلاة: والسلام: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة» (٢٥١) وقرأ ابن عباس وأبيّ ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية

---

٢٥١ ـ أخرجه النسائي (٧/ ٦١ ـ ٦٢) في عشرة النساء، باب حبّ النساء وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ـ ﷺ ـ وآدابه ص (٢٢٩ ـ ٢٣٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢، ٣٥٣٠)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، والطبراني في الصغير (١/ ٢٦٢) من حديث أنس مرفوعاً، حُبّب إليّ النّساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصّلاة.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: قد تقدّم أنّه أورده عند قوله تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ مختصراً. وقد تقدم أن النسائي أخرجه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان ومن طريق سلام بن مسكين، كلاهما عن ثابت عن أنس. ومن طريق سيار. رواه أحمد في الزهد =

---

(١) عاد كلامه. قال: الوجه الثاني اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع كثرة عدوه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم وأمن من دخله، وكثيراً سواهما والله أعلم.

(٢) قال السمين الحلبي: وردّ عليه الشيخ هذا من جهة تخالفهما تعريفاً فيتبعون النكرة النكرة والمعرفة المعرفة، وتبعهم في ذلك أبو علي الفارسي، وأما البصريون فلا يجوز عندهم إلا أن يكونا معرفتين، ولا يجوز أن يكونا نكرتين، وكل شيء أورده الكوفيون مما يوهم جواز كونه عطفاً جعله البصريون بدلاً، ولم يقم دليلاً للكوفيين». انتهى. الدر المصون.

(٣) الجرير يقول: كانت [هذه القبيلة منقسمة أثلاثاً، فثلثها من العبيد الأرقاء، وثلثها من عتقي القبيلة أو من عتقي العبيد. وعليه فالإضافة على معنى «من» ولم يذكر الثلث الثالث، لأنه من المعلوم أنه لم يبق إلا السادة الأشراف، بدليل الحصر في الأثلاث، والترقي من العبيد إلى العتقي. وهذا يحتمل الذم، وأن ثلث القبيلة فقط كرام والباقي لئام. ويحتمل المدح وأن خدمهم من العبيد كثير].
ينظر: البيت في ديوانه ص ٧٠٧، والبحر المحيط ٣/ ١٠، وروح المعاني ٤/ ٦، وحاشية الشهاب ٣/ ٤٨، والدر المصون ٢/ ١٧٠.

قتيبة: «آية بينة»، على التوحيد، وفيها دليل على أنّ مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان. فإن قلت: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات؟ وقوله: ، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾: جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية؟ قلت: أجزت ذلك من حيث المعنى، لأن قوله: ، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾: دلّ على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن داخله. ألا ترى أنك لو قلت: فيه آية بينة، من دخله كان آمناً صحّ، لأنه في معنى قولك: فيه آية بينة، أمن من دخله. فإن قلت: كيف كان سبب هذا الأثر؟ قلت: فيه قولان: أحدهما: أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه، وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه، ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر، فبقي أثر قدميه عليه، ومعنى، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾: معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وذلك بدعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب، وعن عمر رضي الله عنه «لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه» (٢٥٢) وعند أبي حنيفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص

= والحاكم في المستدرك. ومن طريق سلام أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وابن سعد والبزّار وأبو يعلى، وابن عديّ في الكامل، وأعلّه به، والعقيلي في الضعفاء كذلك. وقال الدارقطني في علله. رواه أبو المنذر سلام. وسلام بن أبي الصهباء وجعفر بن سليمان، فرووه عن ثابت عن أنس، وخالفهم حمّاد بن زيد عن ثابت مرسلاً. وكذا رواه محمد بن ثابت البصري. والمرسل أشبه بالصّواب. وقد رواه عبد الله بن أحمد في زيادات الزهد عن غير أبيه من طريق يوسف بن عطية، عن ثابت مرسلاً أيضاً. ويوسف ضعيف. وله طريق أخرى معلولة عند الطبراني في الأوسط عن محمد بن عبد الله الحضرمي عن يحيى بن عثمان الحربي عن المقل بن زياد عن الأوزاعي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس مثله قلت: ليس في شيء من طرقه لفظ «ثلاث» بل أوّله عند الجميع «حُبّب إليّ من دنياكم النّساء ـ الحديث» وزيادة «ثلاث» تفسد المعنى، على أنّ الإمام أبا بكر بن فورك شرحه في جزء مفرد بإثباتها، وكذلك أورده الغزالي في الإحياء واشتهر على الألسنة. انتهى.

٢٥٢ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنّفه (٥/ ١٥٣)، كتاب الحج، باب: ما يبلغ الإلحاد ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ رقم (٩٢٢٨)، من طريق ابن أبي حسين يحدّث عن عكرمة بن خالد قال: قال عمر. . . وذكره.

وعزاه الزيلعي لأبي الوليد الأزرقي في تاريخ مكة، عن ابن جريج به. قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق في كتاب الحج من مصنّفه وأبو الوليد الأزرقي في تاريخ مكة من طريقه عن ابن جريج سمعت ابن أبي حسين عن عكرمة بن خالد قال: قال عمر بهذا وهذا منقطع. انتهى.

أوردّة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لـم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج، وقيل: آمنا من النار، وعن النبي ﷺ «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا» (٢٥٣) وعنه عليه الصلاة والسلام «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة» (٢٥٤) وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود: وقف

---

٢٥٣ ـ جاء من حديث جابر، وأنس وسلمان وعمر وحاطب، أما حديث جابر: ذكره المتقى الهندي في الكنز (١٢/ ٢٧١)، حديث (٣٥٠٠٥) وعزاه للطيالسي وابن عديّ (٤/ ١٤٥٥) وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ١٩٨) لابن عديّ في الكامل وأعلّه بعبد الله بن المؤمل.

ـ وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه موسى بن عبد الرحمن المسروقي وقد ذكره ابن حبان في الثقات، عبد الله بن المؤمل وثقه ابن حبّان وغيره وضعّفه أحمد وغيره وإسناده حسن.

ـ وأما حديث أنس فرواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٩٠) حديث (٤١٥٨)، ولفظه (من مات في أحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة، ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة).

ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ١٩٨) لإسحاق بن راهويه في مسنده.

ـ وأما حديث سلمان، فرواه البيهقي في الشعب والطبراني في الكبير، كما في الكنز (١٢/ ٢٧١) رقم (٣٥٠٠٦).

ـ وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٢٢) باب: فيمن مات في أحد الحرمين: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الغفور بن سعيد، وهو متروك.

ـ وأما حديث عمر، فرواه البيهقي في الشعب (٣/ ٤٨٨)، حديث (٤١٥٣).

ـ وأما حديث حاطب: فرواه الدارقطني في سننه (٢/ ٢٧٨) كتاب الحج، باب: المواقيت، من طريق هارون بن أبي قزعة، عن رجل من آل حاطب، عن حاطب قال: بنحوه.

ـ وعبد الرزاق في مصنّفه (٩/ ٢٦٧)، حديث (١٧١٦٦) من طريق غالب بن عبيد الله، رفع الحديث بنحوه، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف:

قال إسحاق: أخبرنا عيسى بن يونس حدّثنا ثور بن يزيد حدّثني شيخ عن أنس به. ورواه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي فديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد: «من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة» وأخرجه أبو داود الطيالسي تاماً من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ بإسناد فيه ضعف، وهو مجهول، وقال عبد الرزاق في مصنّفه، أخبرنا يحيى بن العلاء وغيره، وغالب بن عبيد الله يرفعه، فذكره، ويحيى وغالب ضعيفان جداً وأخرجه الدارقطني من رواية هارون بن أبي قزعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب بتمامه، وهو معلول «ورواه الطبراني في الأوسط والصغير، من وجهين عن عبد الله بن المؤمل عن أبي الزبير عن جابر دون الزيادة، وأورده ابن عديّ في ترجمة عبد الله بن المؤمل: وأخرجه البيهقي في الشعب والطبراني من حديث عبد الغفور بن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان عن سلمان قال البيهقي: عبد الغفور ضعيف، وقد رُوي بإسناد أحسن من هذا، ثم ذكر طريق عبد الله بن المؤمل، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق عبد الغفور ونقل عن ابن حبّان أنه قال: كان يضع الحديث. قلت: وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرّفه فإنه لم يختص بعبد الغفور. انتهى.

٢٥٤ ـ ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٥١)، حديث (١١١٢) وقال: ذكره في «الكشاف» وبيّض له =

رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة، فقال: «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر، (٢٥٥) يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر» وعن النبي ﷺ: «من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام»، (٢٥٦) ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ﴾: بدل من الناس، وروي: أنّ رسول الله ﷺ فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة، (٢٥٧) وكذا عن ابن عباس وابن عمر

= الزيلعي في تخريجه وتبعه الحافظ ابن حجر وسكت عليه السّخاوي، وقال القاريء: لا يعرف له أصل. أ.هـ.

وقال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٩٩): غريب جداً.

وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٢٥٥ ـ ذكره المتقي الهندي في الكنز (١٢/ ٢٦٢)، حديث (٣٤٩٦٠) وعزاه للديلمي عن ابن مسعود.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: لم أجده. انتهى.

٢٥٦ ـ أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ١١٩)، حديث (٥٨٧١) من طريق أنس بن مالك.

وأخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٢٢٦)، من طريق عطاء عن ابن عباس، وقال العقيلي: هذا حديث باطل، لا أصل له.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: هكذا ذكره أبو الوليد الأزرقي في تاريخ مكة، لكن بغير إسناد وقد أخرجه العقيلي في ترجمته الحسن بن رشيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رفعه «من صبر في حرّ مكة ساعة باعد الله منه جهنم سبعين خريفاً، وقال هذا باطل، لا أصل له، والحسن بن رشيد يُحدّث بالمناكير. وأورده أبو شجاع في الفردوس من حديث أنس، بلفظ «تباعدت عنه جهنّم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنّة مائة عام». انتهى.

٢٥٧ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصّحابة وهم أنس بن مالك وابن عمر وابن عباس وعائشة وجابر وابن مسعود وابن عمرو بن العاص والحسن مرسلاً.

حديث أنس:

أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٦) كتاب الحج حديث (٦، ٧) والحاكم (١/ ٤٤٢) من طريق علي بن سعيد بن مسروق الكندي ثنا ابن أبي زائدة عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ قال: قيل: يا رسول الله ما السّبيل قال: الزاد والراحلة.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد تابع حمّاد بن سلمة سعيداً على روايته عن قتادة ووافقه الذهبي.

ثم أخرجه من طريق حمّاد بن سلمة عن قتادة عن أنس به.

وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره البيهقي معلّقاً من طريق سعيد بن أبي عروبة (٤/ ٢٣٠).

وقال: ولا أراه إلاّ وهماً.

ثم أخرجه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن به مرسلاً.

وقال: هذا هو المحفوظ عن قتادة عن الحسن عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً رواه يونس بن عبيد عن =

وعليه أكثر العلماء، وعن ابن الزبير: هو على ....

= الحسن، أما الطريق الثاني الذي خرجه الحاكم وصحّحه على شرط مسلم ذكره الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ٢٢١) وقال: إلاً أن الراوي عن حمّاد هو أبو قتادة عبد الله بن واقد الحراني وقد قال أبو حاتم: هو منكر الحديث.

حديث ابن عمر:

أخرجه الترمذي (٣/١٧٧) كتاب الحج: باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة (٨١٣) وابن ماجه (٢/٩٦٧) كتاب المناسك: باب ما يوجب الحج (٢٨٩٦) والشافعي في «المسند» (١/ ٢٨٤) كتاب الحج: باب فيما جاء في فرض الحج وشروطه (٧٤٤) والطبري في «تفسيره» (٣/ ٣٦٤) والدارقطني (٢/ ٢١٧) كتاب الحج حديث (٩، ١٠) وابن عديّ في «الكامل» (١/ ٢٢٦) والبيهقي (٤/ ٣٣٠) وفي «شعب الإيمان» (٣/ ٤٢٨) رقم (٣٩٧٤) من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي المكي قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

وقال البيهقي: ضعّفه أهل العلم بالحديث.

قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٨): وإبراهيم بن يزيد قال في «الإمام» قال فيه أحمد والنّسائي وعلي بن الجنيد: متروك.

وقال ابن معين: ليس بثقة وقال مرة: ليس بشيء وقال الدارقطني: منكر الحديث.

وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ٢٢١): وهو من رواية إبراهيم الخوزي وقد قال فيه أحمد والنّسائي: متروك الحديث.

وقال في «التقريب» (١/ ٤٦) رقم (٣٠٣) إبراهيم بن يزيد الخوزي متروك الحديث.

وقد توبع إبراهيم على هذا الحديث تابعه محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي.

أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٧) كتاب الحج رقم (٩) من طريقه عن محمد بن عباد عن ابن عمر به.

قال البيهقي (٤/ ٣٣٠): وقد تابعه ـ أي إبراهيم الخوزي ـ محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي إلاّ أنه أضعف من إبراهيم بن يزيد.

وللحديث طريق آخر عن ابن عمر:

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٢٩٧) رقم (٨٩١): سألت علي بن الحسين بن الجنيد عن حديث رواه سعيد بن سلام العطار عن عبد الله بن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

قال الزاد والراحلة قال: هذا حديث باطل. ا.هـ.

وعلّته سعيد بن سلام العطار.

قال أحمد كذّاب وكذّبه ابن نمير، وقال البخاري: يذكر بوضع الحديث وقال النّسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً. ينظر المغني (١/ ٢٦٠) واللسان (٣/ ٣١ ـ ٣٢) فيظهر مما سبق أن طرق الحديث عن ابن عمر كلّها ضعيفة والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٩٩) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجه (٢/ ٩٦٧) كتاب المناسك: باب ما يوجب الحج حديث (٢٨٩٧) ثنا سويد بن سعيد ثنا هشام بن سليمان القرشي عن ابن جريج قال: وأخبرنيه أيضاً عن عطاء عن عكرمة عن ابن =

. . . .

= عباس أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الزاد والراحلة» يعني قوله: من استطاع إليه سبيلاً.
قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٩): قال في «الإمام»: وهشام بن سليمان بن عكرمة قال أبو حاتم: مضطرب الحديث ومحلّه الصّدق ما أرى به بأساً. ا.هـ.
قلت: وابن عطاء هو عمر بن عطاء بن وراز روى له أبو داود وابن ماجه.
وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٦١): ضعيف.
وله طريق آخر عن ابن عباس:
أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٨) كتاب الحج رقم (١٤) من طريق حصين بن مخارق عن محمد بن خالد عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس به.
قال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني»: (٢/ ٢١٨): حصين بن مخارق قال الدارقطني: يضع الحديث ونقل ابن الجوزي أن ابن حبّان قال: لا يجوز الاحتجاج به.
وله أيضاً طريق ثالث.
أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٨) من طريق داود بن الزبرقان عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عباس به.
قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٩): وأخرجه الدارقطني في «سننه» عن داود بن الزبرقان عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عباس وأخرجه أيضاً عن حصين بن المخارق عن محمد بن خالد عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس. . . وداود وحصين كلاهما ضعيف.
حديث عائشة:
أخرجه العقيلي (٣/ ٣٣٢) والدارقطني (٢/ ٢١٧) والبيهقي (٤/ ٣٣٠) من طريق عتاب بن أعين عن سفيان الثوري عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أمه عن عائشة في قول الله عزّ وجلّ: «﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. قال: سأل رجل رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذلك فقال: السّبيل الزاد والراحلة.
قال العقيلي: عتاب في حديثه وهم.
ثم أخرجه من طريق سفيان عن إبراهيم الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر به.
وقال: هذا أولى على ضعفه أيضاً.
قال البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٣/ ٤٧٨):
ورُوي عن الثوري عن يونس عن الحسن عن أمه عن عائشة موصولاً وليس بمحفوظ.
حديث جابر:
أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٥) كتاب الحج حديث (١) من طريق عبد الملك بن زياد النصيبي ثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبي الزبير أو عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال الزاد والراحلة.
وذكره الغسّاني في «تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني» (ص ـ ٢٥٦) وقال: محمد بن عبد الله بن عبيد ضعيف.
وبه ضعفه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ١٠) فقال: ومحمد بن عبد الله بن عبيد أجمعوا على ضعفه وتركه.
حديث ابن مسعود: =

قدر القوّة، (٢٥٨) ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه، وعنه: ذلك على قدر

= أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٦) من طريق بهلول بن عبيد عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: قيل يا رسول الله ما السّبيل قال: الزاد والراحلة.

قال الغسّاني: بهلول متروك.

وقال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٢/ ٢١٦): بهلول بن عبيد قال أبو حاتم: ضعيف الحديث ذاهب وقال أبو زرعة ليس بشيء وقال ابن حبّان: يسرق الحديث ا.هـ.

وذكره برهان الدين الحلبي في كتابه «الكشف الحثيث عمن رُمي بوضع الحديث» (ص - ١١٥) وقال: ذكر شيخنا الحافظ العراقي في شرح الألفية له في المقلوب فيما قرأته عليه أنه من الوضّاعين.

وذكره أيضاً ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٤٣) في ذكر أسماء الوضّاعين والكذّابين فقال: بهلول بن عبيد الكندي الكوفي قال الحاكم وأبو سعيد البقال: روى موضوعات.

حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٥) من طريق عبد الله بن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبي - ﷺ - قال: السّبيل إلى البيت الزاد والراحلة.

قال الحافظ الغسّاني في «تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني» (ص - ٢٥٦): ابن لهيعة ضعيف. ا.هـ.

وقد تابعه محمد بن عبيد الله العرزمي.

أخرجه الدارقطني (٢/ ٢١٥) من طريقه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

قال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٢/ ٢١٦): محمد بن عبيد الله هو محمد بن عبيد الله بن ميسرة العرزمي الكوفي قال أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه وقال ابن معين: لا يكتب حديثه وقال الفلاس: متروك.

قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ١٠): قال الشيخ في «الإمام»: وقد خرّج الدارقطني هذا الحديث عن جابر وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن مسعود وعائشة وليس فيها إسناد يُحتجّ به.

وقال الحافظ في «التلخيص» (٢/ ٢٢١): قال عبد الحق: إن طرقه كلّها ضعيفة وقال أبو بكر بن المنذر: لا يثبت الحديث في ذلك مسنداً والصّحيح من الروايات رواية الحسن المرسلة.

مرسل الحسن:

أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٩٠) والطبري في «تفسيره» (٣/ ٣٦٤) رقم (٧٤٨٤) والدارقطني (٢/ ٢١٨) والبيهقي (٤/ ٣٢٧) وأبو داود في «المراسيل» (ص - ١٤٣ - ١٤٤) من طريق يونس عن الحسن قال: لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: قيل يا رسول الله ما السّبيل قال: الزاد والراحلة.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٩٩) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

وقد روى الطبري في «تفسيره» (٣/ ٣٦١، ٣٦٢) هذا موقوفاً على عمر بن الخطاب وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري وأخرجه ابن أبي شيبة عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وعطاء كما في «الدر المنثور» / ٢/ ١٠٠). =

الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة، وعن الضحاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع، وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه؟ (٢٥٩) بل كان ينطلق إليه ولو حبواً فكذلك يجب عليه الحج، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾: للبيت أو للحج، وكلُّ مأتيّ إلى الشيء فهو سبيل إليه وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد[1]، ومنها قوله: ، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ

= وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمر، بلفظ السّبيل الزاد والراحلة، فيه إبراهيم بن يزيد الجوزي. وهو ضعيف والحاكم من حديث أنس، وهو معلول. وأخرجه الدارقطني والحاكم من رواية قتادة عن أنس، لكن قال البيهقي: الصّواب عن قتادة عن الحسن مرسلاً، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، والصّحيح عنه قوله. كما أخرجه ابن المنذر. وقال: لا يثبت مرفوعاً. وفي الباب عن علي وابن مسعود. وعائشة وجابر وعبد الله بن عمر. وأخرجها الدارقطني بأسانيد ضعيفة. انتهى.

٢٥٨ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٣)، رقم (٧٤٩٢) من طريق رجل عن ابن الزبير.

٢٥٩ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٢٦)، رقم (١٠٢٨) من طريق جويبر عن الضحّاك بلفظ (إن كان فقيراً وهو صحيح شاب فليؤاجر نفسه بالأكلة والعقبة حتى يحج).

ـ والطبري في تفسيره (٧/ ٤٣)، رقم (٧٤٩٣)، من طريق جويبر عن الضحّاك، ولفظه ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: الزاد والراحلة فإن كان شاباً صحيحاً ليس له مال، فعليه أن يؤاجر نفسه بأكمله وعُقْبَتِهِ حتى يقضي حجته به، فقال له قائل: كلّف الله الناس أنّ يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو أن لبعضهم ميراثاً بمكة، أكان تاركه؟ والله لانطلق إليه ولو حبواً!! كذلك يجبُ عليه الحج.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فيه عناصر توكيد وتشديد، وقد بين العلامة المفسر هذا

قلنا: عناصر التوكيد في القرآن الكريم كثيرة، ولا يمكن الإحاطة بها، فيأتي من يقبل بناء الكلام، وأدوات التوكيد، فالذكر فيه توكيد، وكذا الحذف قد يفيده، والفصل والوصل وكثير من ألوان الإطناب البلاغي، والالتفات، وكل ألوان البيان، وكل ذلك لتثبيت المعني أو نفيه، بل قد تدل الكلمة بخصوص دلالتها على المعنى مع التوكيد كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٧] فكلمة العلو أفادت معناها مع التوكيد عليه، وقد لحظ الزمخشري هذا وبين أن في هذه الكلمة «الأعلى» تقرير لغلبته، وقهره، ومعه توكيد بالاستئناف وبالحرف «إن» المشددة، وبتكرير الضمير «إنك أنت» وتعريف الخبر «الأعلى» واختصاص هذه المادة بالعلو مما يفيد الغلبة والتفضيل. الكشاف ٢/ ٥٤٤

هذا كله يدخل من باب التوكيد والتقرير لحالة نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ حتى ينتفي عنه الخوف «لا تخف».

وهكذا، وتلاحظ أن الجملة الاسمية تفيد التوكيد بطريق الثبوت والاستمرار كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ﴾ [البقرة: ١٠٣].

والواجب أن ندرك أن توكيد الإسمية لا يكون بها وحدها وإنما يكون بضميمة توكيد آخر بالحرف «إن» أو بالمقام المساعد على ذلك، هذا ما قرره أهل البلاغة من سياق النصوص وقد يكون التوكيد =

ٱلْبَيْتِ﴾:[1] يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته، ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً، وفيه ضربان من التأكيد: أحدهما: أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له، والثاني: أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين، ومنها قوله: ، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾: مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» (٢٦٠) ونحوه من التغليط «من ترك الصلاة متعمداً فقد

---

٢٦٠ ـ رُوي من حديث عليّ، ومن حديث أبي أمامة، ومن حديث أبي هريرة.
أما حديث عليّ:
أخرجه الترمذي (٣/ ١٦٧)، كتاب الحج، باب: ما جاء في التغليظ في ترك الحج، حديث (٨١٢)، من طريق الحارث عن عليّ، ولفظه (من ملك زاداً وراحلة تُبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً. وذلك أنّ الله يقول في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.
ـ وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٢)، حديث (٧٤٨٩)، من طريق الحارث عن عليّ. =

= بترتيب عناصر الجملة ترتيباً خاصاً يؤكد المعنى المراد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣].

فقد بيّن المفسر العلامة هذه التوكيدات الواردة في نظم الآية، والنظم نفسه توكيد للمعنى وقد يرى حرف ينضم إلى الجملة يسميه النحاة زائداً، ولكنه في القرآن من عناصر النظم فلا زيادة في كتاب الله إطلاقاً كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ وتقدير الكلام ما منعك أن تسجد أي من أن تسجد، فـ «لا» كما قال المفسر صلة أي مؤكدة.

والموضوع فيه ذيول كثيرة، وآيات عديدة، ولو قلنا بالتوكيد بهذا الاتساع لشمل جل موضوعات البلاغة من معان، وبيان، وبديع، فجميع ما في حديثهم جلة يقوم على البيان والتوكيد وتعميق المقاصد، وفي هذا القدر إشارة لمن أراد الغاية.

«ينظر البلاغة القرآنية لابن موسى ٤١٧ وما بعدها. وفتح القدير للشوكاني ١/ ٣٦٢، علم المعاني في تفسير فتح القدير ١/ ٢٩١ فتحي حجازي وتعليقات خفاجي على الإيضاح ١/ ٩١ وما بعدها والمطول ٤٧، وروح المعاني ١١/ ١٣٦، ومفاتيح الغيب للرازي ٨/ ٣٨٠، ٣٨١ ط. دار الغد العربي وأبو السعود ١/ ٣٨٩، ٣٩٠.

(١) قال محمود: «وفي الكلام أنواع من التوكيد منها قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي في رقابهم لا ينفكون عنه. . الخ» قال أحمد: قوله: «إن المراد بمن كفر من ترك الحج وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه» فيه نظر، فإن قاعدة أهل السنة توجب أن تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً، فيتعين حمل الآية على تارك الحج جاحداً لوجوبه، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد لا إلى مجرد الترك. وأما الزمخشري فيستحل ذلك لأن تارك الحج بمجرد الترك يخرج من ربقة الإيمان ومن اسمه ومن حكمه، لأنه عنده غير مؤمن ومخلد تخليد الكفار، وعلى قاعدة أهل السنة يتعين المصير إلى ما ذكرناه، هذا إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج. ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر، فيبقى على ظاهره والله أعلم.

كفر» (٢٦١) ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان،

= وكذا العقيلي في الضعفاء، (٣٤٨/٤) حديث (١٩٥٥)، من طريق الحارث عن علي.
وأما حديث أبي أمامة:
فرواه الدارمي في سننه (٢٨/٢)، كتاب المناسك، باب: من مات ولم يحج، عن أبي أمامة مرفوعاً (من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً).
وأما حديث أبي هريرة:
فرواه ابن عديّ في الكامل (٧/ ٢٥٨٠)، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة، وفي إسناده عبد الرحمن القطامي وأبو المهزم وهما متروكان. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي من رواية هلال بن عبد الله الباهلي: حدّثنا أبو إسحاق عن الحارث عن علي رفعه «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً» وقال: غريب وفي إسناده مقال. وهلال بن عبد الله مجهول. والحارث يضعف. وأخرجه البزّار من هذا الوجه. وقال: لا نعلمه عن علي إلاّ من هذا الوجه وأخرجه ابن عديّ والعقيلي في ترجمة هلال ونقلا عن البخاري أنه منكر الحديث. وقال البيهقي في الشعب: تفرّد به هلال. وله شاهد من حديث أبي أمامة، أخرجه الدارمي بلفظ «من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً. وإن شاء نصرانياً» أخرجه من رواية شريك عن لبيد ابن أبي سليم عن عبد الرحمن بن سابط عنه. ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في الشعب. وقد أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن ليث عن عبد الرحمن مرسلاً، لم يذكر أبا أمامة. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق ابن عديّ. وابن عديّ أورده في الكامل في ترجمة أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً ونحوه. ونقل عن الفلاس أنه كذّب أبا المهزم وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرّفه. لأن الطريق إلى أبي أمامة ليس فيه من اتهم بالكذب. فضلاً عمن كذب. انتهى.

٢٦١ ـ ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٠٠)، بلفظ «من ترك الصّلاة متعمّداً فقد حبط عمله».
وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصّحيح.
ـ وأخرجه البزّار كما في تخريج الزيلعي (١/ ٢٠٣)، من حديث راشد الحماني: عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: أوصاني أبو القاسم ـ ﷺ ـ ألاّ أشرك بالله شيئاً وإن حرقت، ولا أترك صلاة مكتوبة متعمّداً؛ فمن تركها متعمّداً فقد كفر، ولا أشرب الخمر؛ فإنها مفتاح كلّ شر. قال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الدارقطني في العلل. من رواية أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس قال: رواه علي بن الجعد عن أبي جعفر عن الربيع مرسلاً. وهو أشبه بالصّواب. ورواه البزّار من حديث أبي الدرداء قال «أوصاني أبو القاسم ـ ﷺ ـ ألاّ أشرك بالله شيئاً وإن حرقت، ولا أترك صلاة مكتوبة متعمداً. فمن تركها متعمّداً فقد كفر، ولا أشرب الخمر، فإنها مفتاح كلّ شر» أخرجه من رواية راشد الحناني عن شهر بن حوشب. وقال: راشد بصري ليس به بأس. وشهر مشهور. والحديث عند الترمذي والنّسائي وأحمد وابن حبّان والحاكم من حديث بريدة دون قوله «متعمّداً» ولفظه «العهد الذي بيننا وبينهم الصّلاة، فمن تركها فقد كفر» قد تقدم في البقرة حديث جابر عند مسلم «بين العبد والكفر ترك الصّلاة» وروى الترمذي من طريق عبد الله بن شقيق قال «كان أصحاب محمد النبي ـ ﷺ ـ لا =

ومنها قوله: ، ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: وإن لم يقل عنه، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه، وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود، فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب وروى: أنه لما نزل قوله تعالى: ، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال: إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا: لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نحجه، فنزل، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾: (٢٦٢) وعن النبي ﷺ، «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة» (٢٦٣) وروي. «حجوا قبل أن لا تحجوا، حجوا قبل أن يمنع البرجانبه» (٢٦٤) وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت، (٢٦٥) وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا (٢٦٦) وقرىء «حج البيت» بالكسر.

= يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلاّ الصلاة» وإسناده صحيح. الحاكم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

٢٦٢ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٤٩/٧)، حديث (٧٥١٥) من طريق جويبر عن الضحّاك مرسلاً، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه الطبري من حديث جويبر عن الضحّاك قال: «لما نزلت: فذكره» وهو معضل وجويبر متروك الحديث ساقط. انتهى.

٢٦٣ ـ أخرجه ابن حبّان في صحيحه (١٥/ ١٥٣)، كتاب التاريخ، باب إخباره ـ ﷺ ـ عمّا يكون...، حديث (٦٧٥٣) من طريق بكر بن عبد الله المزني عن ابن عمر بنحوه.
وأخرجه ابن خزيمة (٢٥٠٦) والبزّار (١٠٧٢) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٢٠٢).
وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٠٩): رواه البزّار والطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة. أخبرنا يزيد بن هارون عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني عن عبد الله بن عمر قال: (تمتعوا من هذا البيت، فإنه ـ فذكره موقوفاً) وقد رُوي مرفوعاً: أخرجه ابن حبّان والحاكم والبزّار والطبراني من طريق سفيان بن حبيب عن حميد بهذا. انتهى.

٢٦٤ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف» (١/ ٢٠٦) هو هكذا في الفائق لابن غانم التنسيسي. قال الحافظ ابن حجر: لم أره هكذا. والذي في الدارقطني في آخر كتاب الحج من السنن من رواية عبد الله بن عيسى الجندي عن محمد بن أبي محمد عن أبيه عن أبي هريرة ـ رفعه «حجّوا قبل أن لا تحجّوا. قال: وما شأن الحج يا رسول الله، قال: يفعله أعرابها على أذناب أوديتها، فلا يصل إلى الحج أحد» وعبد الله ومحمد مجهولان. قاله العقيلي. ا.هـ.

٢٦٥ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشّاف» (١/ ٢٠٧) غريب. وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٢٦٦ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أجده.
وفي مصنّف عبد الرزاق (٥/ ١٣) من طريق سالم بن أبي حفصة أن ابن عباس [قال]: «لو ترك =

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾: الواو للحال، والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد ﷺ والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته. قرأ الحسن: «تصدّون»، من أصدّه، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن دين حق علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام، وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه، ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله، ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: تطلبون لها اعوجاجاً[1] وميلاً عن القصد والاستقامة. فإن قلت: كيف تبغونها عوجاً[2] وهو محال؟ قلت فيه معنيان: أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجاً بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك، والثاني: أنكم تتعبون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾: أنها سبيل الله التي لا يصدّ عنها إلا ضال مضلّ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم أمورهم، وهم الأحبار، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾: وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

قيل: مرَّ شاس بن قيس اليهودي ـ وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون،

= الناس زيارة هذا البيت عاماً واحداً ما مُطروا» وهو منقطع. انتهى.

(١) قال محمود: «أي تطلبون لها اعوجاجاً. . .الخ» قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول حيث قال: تطلبون لها اعوجاجاً، تنقيص من المعنى، وأتم من إعرابه معنى أن تجعل الهاء هي المفعول به وعوجاً حال وقع فيها المصدر الذي هو عوجاً موقع الاسم. وفي هذا الاعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم، وتوبيخهم، والله أعلم.

(٢) قوله: «فإن قلت كيف تبغونها عوجا» لعله: كيف قال تبغونها. أو لعله: كيف يبغونها (ع).

فغاظه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث[1] وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: أتدعون الجاهلية[2] وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم. فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، فما كان يوم أقبح أوّلاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم (٢٦٧).

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز، ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: على لسان الرسول غضة طرية[3] وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم، ﴿وَمَن يَعْتَصِم

---

٢٦٧ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/٥٥)، حديث (٧٥٢٤) من طريق زيد بن أسلم.
ـ وذكره ابن هشام في السيرة (٢/١٩٧ ـ ١٩٩) حديث (٦٣٧، ٦٣٨) من قول ابن إسحاق لم يجاوزه، وزاد في آخره: وكان يومئذ على الأوس حضير بن سماك الأشهلي، وهو أبو أسيد بن الحضير وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعاً، قال: وأنزل الله في شاس بن قيس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٠٨) للثعلبي في تفسيره عن زيد بن أسلم من غير سند، وكذلك للواحدي في أسباب النزول.
وكلّهم قالوا فيه: «أبدعوى الجاهلية» ليس عند أحد منهم «أتدعون» قال الحافظ: أخرجه الطبري عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه بلفظه وأخرجه ابن إسحاق في المغازي، من طريق الطبري أيضاً قال: حدّثنا الثقة عن زيد بن أسلم مطوّلاً. وذكره ابن هشام فلم يذكر إسناد إسحاق. وزاد في آخره «وكان يومئذ على الأوس حضير بن سماك والد =

---

(١) قوله: «يوم بعاث» بعاث بالضم يوم وقعة للأوس والخزرج (ع).
(٢) قوله: «فقال أتدعون الجاهلية» في الشهاب على البيضاوي أنه محرف والرواية أبدعوى الجاهلية أي أتأخذون بها (ع).
(٣) قوله: «على لسان الرسول غضة طرية» في الصحاح: شيء غض، أي طرى، وكل ناضر غض، =

﴿بِٱللَّهِ﴾: ومن يتمسك بدينه، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم، ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾: فقد حصل له الهدى لا محالة كما تقول: إذا جئت فلاناً فقد أفلحت، كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلاً، ومعنى التوقع في ﴿قَدْ﴾ ظاهر لأنّ المعتصم بالله متوقع للهدى، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: واجب تقواه وما يحق منها، وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم، ونحوه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً، وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى» (٢٦٨) وروي مرفوعاً، وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط

= أُسيد، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي. فقتلا جميعاً. وأنزل الله في شاس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ـ الآية﴾ وذكره الثعلبي والواحدي في أسبابه عن زيد بن أسلم بغير إسناد. انتهى.

٢٦٨ ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٢٩٤)، كتاب التفسير وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وليس فيه ويشكر فلا يكفر.
ـ وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٤٦)، رقم (١٠٧٩) وهذان من طريق مرّة عن عبد الله موقوفاً.
ـ والطبري في تفسيره (٧/ ٥٧)، رقم (٧٥٣٦).
ـ والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٩٣)، رقم (٨٥٠١ ـ ٨٥٠٢).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٩): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصّحيح والآخر ضعيف.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢١٠) لابن مردويه في تفسيره من طريق مرة عن ابن مسعود مرفوعاً.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
قال المصنّف ورُوي مرفوعاً انتهى. فأما الموقوف فأخرجه الحاكم من طريق مسعر عن زيد عن مرة عنه، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبري وابن أبي حاتم والطبراني، وقال أبو نعيم في ترجمة مسعر من الحلية:
حدّثنا سليمان بن أحمد، وهو الطبراني ـ فذكره. ثم قال: هكذا رواه الناس عن زيد موقوفاً. ورفعه النضر عن محمد بن طلحة عن زيد ثم ساقه مرفوعاً. وأخرجه ابن مردويه من طريق ابن وهب عن =

= نحو الشباب وغيره، وفيه شيء طري، أي غض بين الطراوة. (ع)

ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه (٢٦٩)، وقيل: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه (٢٧٠)، والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾: معناه: ولا تكوننّ على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدوّ: لا تأتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان. قولهم اعتصمت بحبله: يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته، بامتساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارة لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه، والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تفرقوا عنه. أو واجتمعوا على التمسك بعهده إلى عباده وهو الإيمان والطاعة؛ أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الردّ، من قال به صدق؛ ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم» (٢٧١)، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾: ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه ـ أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين

= سفيان الثوري عن زيد مرفوعاً أيضاً. وله شاهد عن ابن عباس مرفوعاً. أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس. لكنه من نسخة عبد الغني بن سعيد الثقفي عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني. وهي ساقطة. انتهى.

٢٦٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٦٧)، رقم (٧٥٥٢)، من طريق علي عن ابن عباس بلفظ «أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم».
وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٤٩)، رقم (١٠٩٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وزاد فيه عن رواية الطبري «فإنها لم تنسخ».
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٠٦) لابن المنذر.

٢٧٠ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٤٨) رقم (١٠٨٩) من طريق عطاء الواسطي عن أنس به وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٠٦) وعزاه لابن أبي حاتم فقط.

٢٧١ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٢) كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل القرآن حديث (٢٩٠٦) والدارمي (٢/ ٤٣٥) كتاب فضائل القرآن: باب فضل من قرأ القرآن من طريق الحارث الأعور عن علي مرفوعاً به.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي الحارث مقال:
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٢١٢) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه =

قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا، ﴿إِخْوَانًا﴾: متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله، وقيل: هم الأوس والخزرج، كاناأخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم برسول الله ﷺ (٢٧٢)، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: وكنتم مشفين[١] على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر، ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: بالإسلام، والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا[٢]

= والبزّار من طريق الحارث عن علي.

وقال البزّار: ولا نعلم رواه عن علي إلاّ الحارث، وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود.
أخرجه الحاكم (١/ ٥٥٥) من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً بنحو حديث علي.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وقال الذهبي: صالح خرّج له مسلم لكن إبراهيم الهجري ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، من حديث الحارث الأعور عن علي ـ رضي الله عنه ـ مطوّلاً. وفيه قصّة وقال: غريب لا نعرفه إلاّ من حديث حمزة الزيات. وإسناده مجهول انتهى. وأخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والدارمي والبزّار من طريق الحارث. قال البزّار: لا نعلمه إلاّ من طريق علي. ولا نعلمه رواه عنه إلاّ الحارث انتهى. وله شاهد عن معاذ بن جبل. أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة عن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ الفتن فشددها. قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله ـ فذكر الحديث بطوله. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود مرفوعاً أيضاً «إنّ هذا القرآن حبل الله والنور المبين، والشافع، عصمة لمن تمسك به. . . الحديث» أخرجه من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم البحري عن أبي الأحوص عنه. وإبراهيم ضعيف. انتهى.
٢٧٢ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٨٧) رقم (٧٥٨٤).

---

(١) قوله: «وكنتم مشفين» أي مشرفين. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قال محمود: «الضمير للشفا وهو مذكر وإنما أتته للإضافة. . .الخ» قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة فلا يحتاج إلى تأويله المذكور، كما تقول: أكرمت غلام هند، وأحسنت إليها. والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالانقاذ منها حقيقة. وأما الامتنان بالانقاذ من الشفا فلا يستلزمه الكون على الشفا غالباً، ومن الهوى إلى الحفرة، فيكون الانقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التي يتوقع الهوى فيها، فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع، مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علي في التعاليق من ضرورة الشعر. خلاف رأيه في الإيضاح. نقله ابن يسعون. وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالانقاذ منها، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالانقاذ من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الانقاذ الرباني. ألا ترى إلى قوله عليه السلام «المرتع حول الحمي يوشك أن يقع فيه» وإلى قوله تعالى: ﴿أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً =

وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة وهو منها كما قال [من الطويل]:

. . . . كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ[1]

وشفا الحفرة وشفتها: حرفها، بالتذكير والتأنيث، ولامها واو، إلا أنها في المذكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبة. فإن قلت: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلت: لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل ذلك البيان البليغ، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: إرادة أن تزدادوا هدى.

= إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله (هار) والله أعلم.

(١) فلو كنت في جب ثمانين قامة ... ورقيت أسباب السماء بسلم
ليستدرجنك القول حتى تهره ... وتعلم أني عندكم غير مفحم
وتشرق بالقول الذي قد أذعته ... كما شرقت صدر القناة من الدم

للأعشى ميمون بن قيس وفيه وجهان: الأول أنه يصف رجلاً بإفشاء السر، وأنه لو تحيل لكتمه لم يقدر، أي لو بالغت في الكتمان حتى كأنك كنت في بئر عميق، فالعدد كناية عن ذلك، ثم رقيت من قعره وبلغت أسباب السماء، أي أبوابها. وقوله «بسلم» مبالغة في التشبيه، كأنه صعد حقيقة على سلم «ليستدرجنك» بالنون المخففة، أي ليستنزلنك «القول» من السماء درجة درجة إلى قعر البئر كما كنت ويفسد تحيلك، فتهره أي تقوله. ودرج الصبي: إذا قارب بين خطاه. ودرج القوم: مات بعضهم إثر بعض. وهر الكلب هريراً إذا صوت. وفيه إشعار بتشبيهه بالكلب النابح. وتعلم، أي وأجيب أنا عن قولك فتعلم أني غير عاجز عن الجواب فيما بينكم. وروى «عنكم» بدل «عندكم» وهي هي. ورجع إلى بيان استدراج القول له فقال: وتشرق بالقول الذي قد أذعته ونشرته عني. وشرق: إذا غص بريقه أو نحوه. وذاع الخبر ذيعاً وذيوعاً: انتشر. وأذاعه: نشره. أي لم تقدر على ابتلاعه وكتمانه كما لم يبلغ صدر القناة أي الرمح الدم الذي يكون عليه من القتيل. وشبه القول الذي لم يقدر على كتمانه بالشيء الذي لم يقدر على ابتلاعه، فاستعار الشرق للعجز عن الكتمان على طريق التصريحية. وشبه الشرق الأول بالثاني ليفيد ضمناً أن قوله كالدم للمبالغة في عدم إمكان الكتمان. الوجه الثاني أن معناه لو كنت متباعداً عني كأنك في قعر البئر ورقيت منه إلى السماء ليقربنك القول إلي شيئاً فشيئاً حتى تهره، أي تكرهه وتبغضه، وتعلم أني عندكم غير عاجز عن الكلام الذي يقربك إلي، وتشرق بالقول الذي قد أذعته أنا عنك، فالتاء على هذا للمتكلم، أي لم تقدر على استماعه ودخوله أذنك كما لم تقدر صدر القناة على ابتلاع الدم. وصدر القناة مذكر. ولكن اكتسب التأنيث من المضاف إليه، فلذلك أنث فعله وقال: شرقت، وقيل: القناة هنا مجرى الماء، وأين هي من الدم.

ينظر: ديوانه ص ١٧٣، وخزانة الأدب ٥/ ١٠٦، والدرر ٥/ ١٩ وشرح أبيات سيبويه ١/ ٥٤، والكتاب ١/ ٥٢، ولسان العرب (صدر)، (شرق)، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٧٨، والأزهية ص ٤٣٨، والأشباه والنظائر ٥/ ٢٥٥، الأشباه والنظائر ٢/ ١٠٥، والخصائص ٢/ ٤١٧، ومغني اللبيب ٢/ ٥١٣، والمقتضب ٤/ ١٩٧، ١٩٩، وهمع الهوامع ٢/ ٤٩. والدر ١/ ٢٥٧.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾: «من» للتبعيض[1] لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، أو على مَن الإنكار عليه عبث، كالإنكار على أصحاب المآصر[2] والجلادين وأضرابهم، وقيل «من» للتبيين، بمعنى: وكونوا أمّة تأمرون، كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم، وعن النبي ﷺ أنه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله وأوصلهم» (٢٧٣)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه» (٢٧٤) وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شنىء

---

٢٧٣ ـ أخرجه أحمد (٦/٤٣٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٢٠) رقم (٧٩٥٠) والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/٢٥٧ ـ ٢٥٨) رقم (٦٥٧) من طريق شريك القاضي عن سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن زوج درة بنت أبي لهب عن درة بنت أبي لهب مرفوعاً.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦١) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.
وذكره أيضاً الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٢١٢) وزاد نسبته إلى أبي يعلى الموصلي ولم أجده في المطبوع من مسند أبي يعلى فلعلّه في مسنده الكبير، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبري والبيهقي في الشعب من رواية شريك عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن زوج درة بنت أبي لهب قالت «كنت عند عائشة، فجيء برجل إلى النبي ـ ﷺ ـ كان ناداه وهو على المنبر فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ فذكره». انتهى.
٢٧٤ ـ أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٦/ ٢١٠٤) من طريق كادح بن رحمة القرني عن ابن لهيعة عن ابن أبي حبيب عن مسلم بن جابر الصدفي عن عبادة بن الصّامت مرفوعاً. =

---

(١) قال محمود «من للتبعيض. . .الخ» قال أحمد: وفي هذا التبعيض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص. ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيهاً على قلة الناظر في معاده، وكذلك قوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ حتى ورد في التفسير أن المراد أذن واحدة مخصوصة وهي أذن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) قوله: «المآصر» جمع مأصر، وهو المحبس أي السجن، أفاده الصحاح. (ع)

الفاسقين وغضب لله، غضب الله له» (٢٧٥)، وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن، والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجباً فواجب، وإن كان ندباً فندب، وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأنّ جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح. فإن قلت: ما طريق الوجوب؟ قلت: قد اختلف فيه الشيخان، فعند أبي علي: السمع والعقل، وعند أبي هاشم: السمع وحده. فإن قلت: ما شرائط النهي؟ قلت: أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن، وأن لا يكون ما ينهي عنه واقعاً، لأن الواقع لا يحسن النهي عنه، وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث. فإن قلت: فما شروط الوجوب؟ قلت: أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة. فإن قلت: كيف يباشر الإنكار؟ قلت يبتدىء بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى

= قال ابن حجر: وكادح ساقط.
قلت: وعبد الله بن لهيعة ضعيف.
قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٢١٣): وفيه حديث مرسل رواه علي بن معبد في كتاب «الطاعة والمعصية» ثنا بقية عن حسان بن سليمان عن أبي نضرة عن الحسن مرسلاً؛ وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه بن عديّ في الكامل في ترجمة كادح بن رحمة من روايته عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن مسلم بن جابر عن عبادة بن الصّامت. وكادح ساقط. وله شاهد مرسل أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة عن بقية عن حسان بن سليمان عن أبي نضرة عن الحسن البصري. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي. انتهى.

٢٧٥ ـ أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٤) في ترجمة عليّ بن أبي طالب من طريق خلاس بن عمرو عن علي مرفوعاً، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة علي مطوّلاً، من رواية خلاس بن عمرو قال: كنا جلوساً عند علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إذ أتاه رجل من خزاعة فقال: يا أمير المؤمنين هل سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ ينعت الإسلام؟ قال: سمعته يقول: بني الإسلام على أربعة أركان: الصّبر واليقين والجهاد والعدل ـ فذكره ـ إلى أن قال: والجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف. والنّهي عن المنكر. والصّدق في مواطن الصّبر. وشنآن الفاسقين. فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن. ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافر. ومن صدق في مواطن الصّبر أحرز دينه. وقضى ما عليه. ومن شنأ الفاسقين فقد غضب لله. ومن غضب لله غضب الله له» وهو من طريق إسحاق بن بشر عن مقاتل. وهما ساقطان. قال: ورواية العلاء بن عبد الرحمن عن قبيصة بن جابر عن علي ـ رضي الله عنه ـ ا.هـ.

الصعب، لأنّ الغرض كف المنكر. قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، ثم قال: (فقاتلوا) [الحجرات: ٩]، فإن قلت: فمن يباشره؟ قلت: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه، وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار، لأنه معلوم قبحه لكل أحد، وأما الإنكار الذي بالقتال، فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها. فإن قلت: فمن يُؤمر ويُنهى؟ قلت: كل مكلف، وغير المكلف إذا همَّ بضرر غيره مُنع، كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعوّدوها، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها. فإن قلت: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه قلت: نعم يجب عليه، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه، فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا، وعن الحسن أنه سمع مطرّف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال: وأيّنا يفعل ما يقول، ودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر. فإن قلت: كيف قيل: ، ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: ؟ قلت: الدعاء إلى الخير[1] عامّ في التكاليف من الأفعال والتروك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيذاناً بفضله، كقوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾: وهم اليهود والنصارى، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾: الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق، وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة

---

(١) (عاد كلامه) قال: «وقوله يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر صدر الكلام بالدعاء... الخ» قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وكقوله: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات. وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناوله، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهي، لا يعدو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً. وفي تنبيه أن الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية والله أعلم، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم.

والمجبرة والحشوية[1] وأشباههم، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾: نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار اذكر، وقرىء: «تبيض وتسود»، بكسر حرف المضارعة. «وتبياض وتسوادّ»، والبياض من النور، والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودَّتْ صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله، ﴿أَكَفَرْتُم﴾: فيقال لهم: أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والظاهر أنهم أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم رسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسودّ وجوه بني قريظة والنضير، وقيل: هم المرتدون، وقيل: أهل البدع والأهواء (٢٧٦)، وعن أبي أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال: كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء، فقال له أبو غالب: أشيء تقوله برأيك، أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ. قال: بل سمعته من رسول الله ﷺ غير مرة. قال: فما شأنك دمعت عيناك، قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده فقال: إن بأرضك منهم كثيراً. فأعاذك الله منهم (٢٧٧)، وقيل: هم جميع

---

٢٧٦ ـ أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/١٠٦)، رقم (١١٤٠)، عن ابن عباس بنحوه.

٢٧٧ ـ أخرجه الترمذي (٥/٢٢٦)، حديث (٣٠٠٠)، كتاب التفسير باب: ومن سورة آل عمران، وقال: حديث حسن. وقد رُوي هذا من غير هذا الوجه عن ابن عباس، وآدم بن سليمان هو والدُ يحيى بن آدم، وفي الباب عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.
ـ وابن ماجه (١/٦٢) حديث (١٧٦).
ـ وأحمد (٥/٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٩)، وزاد أحمد: ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآيتين.
ـ وعبد الرزاق في مصنفه في آخر كتاب القصاص (١٠/١٥٢) رقم (١٨٦٦٣) باب: ما جاء في الحرورية.
والحاكم (٢/١٤٩)، كتاب: قتل البغاة، من حديث عكرمة بن عمار عن شداد بن عمار قال: سمعت أبا أمامة... فذكره، وفيه فقال له رجل: أشيء تقوله برأيك... إلى آخره. ثم قرأ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ...﴾ الآية. انتهى، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، قال: والغالب على هذا المتن من حديث أبي غالب عن أبي أمامة.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/٣١٩ إلى ٣٢٧)، رقم (٨٠٣٣ ـ ٨٠٥١) من طرق عن أبي غالب عن ابن عباس.
=

---

(١) قوله: «وهم المشبهة والمجبرة والحشوية، إن أراد بهم أهل السنة ومن وافقهم كعادته، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة. (ع)

الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم (٢٧٨) قالوا بلى، ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: ففي نعمته وهي الثواب المخلد، فإن قلت: كيف موقع قوله: ، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: بعد قوله: ، ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾:؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون (٢٧٩).

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: الواردة في الوعد والوعيد، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾: ملتبسة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن، ونكر «ظلماً» وقال: ، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح[1] والرضا بها.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

«كان»: عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل

= ـ وذكره السيوطي في الدرّ المنثور (٢/ ١١١) وزاد لنسبته نسبته إلى ابن المنذر.
وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢١٤) وعزاه للثعلبي في تفسيره، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة بن عمار عن شداد عن أبي أمامة هكذا، ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم، وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه، وعبد الرزاق وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبراني كلّهم من طريق أبي غالب. بتمامه. وله إسناد آخر أخرجه الطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أبي أمامة. انتهى.

٢٧٨ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٩٥) من حديث أبي بن كعب أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأنّ الإيمان الذي يُوبّخون على ارتدادهم عنه، هو الإيمان الذي أقرّوا به يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

٢٧٩ ـ أخرجه ابن أبيّ حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٧)، رقم (١١٥١) من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني لا يموتون.

---

(١) قوله: فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح» يريد أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف. (ع)

على عدم سابق ولا على انقطاع طارىء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٦] ومنه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾: كأنه قيل: وجدتم خير أمّة، وقيل: كنتم في علم الله خير أمّة[1]، وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمّة، موصوفين به، ﴿أُخْرِجَتْ﴾: أظهرت، وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ﴾: كلام مستأنف بين به كونهم خير أمّة، كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأنّ من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بـــــالله ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠] والدليل عليه قوله تعالى: ، ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: مع إيمانهم بالله، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾: لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هوخير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين، ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾: المتمرّدون في الكفر، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾: إلا ضرراً مقتصراً على أذى بقول من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك، ﴿وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾: منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذنونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذل. فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: ، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؟[2] قلت: عدل به عن حكم

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: قوله: «لم تدل على عدم سابق» هذا إذا لم تكن بمعنى «صار» فإذا كانت بمعنى «صار» دلّت على عدم سابق، فإذا قلت: «كان زيد عالماً» بمعنى «صار زيد عالماً» دلّت على أنه انتقل من حالة الجهل إلى حالة العلم، وقوله: «ولا على انقطاع طارىء» قد ذكرنا قبل أن الصحيح أنها كسائر الأفعال يدلُّ لفظ المضي منها على الانقطاع، ثم قد تستعمل حيث لا انقطاع، وفرق بين الدلالة والاستعمال، ألا ترى أنك تقول: «هذا اللفظ يدل على العموم» ثم قد يستعمل حيث لا يراد العموم بل يراد الخصوص. وقوله: «كأنه قيل وجدتم خير أمة» هذا يعارض قوله: «إنها مثل قوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» لأن تقديره «وجدتم خير أمة» يدل على أنها التامة وأن «خير أمة» حالٌ. وقوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» لا شك أنها هنا الناقصة فتعارضا» قلت: لا تعارض لأن هذا تفسير معنى لا تفسير إعراب.

(٢) قال محمود: «إن قلت هلا جزم المعطوف في قوله ثم لا ينصرون. . .الخ»؟ قال أحمد: وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة، ثم ترقي الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً، ويزيد هذا الترقي بدخول =

الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوّة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثمّ؟ قلت: التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار. فإن قلت: ما موقع الجملتين أعني، ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾؟ قلت: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإنّ من شأنه كيت وكيت، ولذلك جاء من غير عاطف.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾

﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في محل النصب على الحال، بتقدير: إلا معتصمين أو متمسكين أو متلبسين بحبل من الله وهو استثناء من أعم عام الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامّة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعني ذمّة الله وذمّة المسلمين، أي: لاعز لهم قط إلا بهذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمّة لما قبلوه من الجزية، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استوجبوه، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾: كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾: أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده ليعلم أنّ الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله، وأنّ سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر، ونحوه ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ [نوح: ٢٥]، ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

= ثم دون الواو، فإنها تستعار ههنا للتراخي: الرتبة لا في الوجود، كأنه قال: ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان وأسمع في رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون ألبتة، والله أعلم.

﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

الضمير في، ﴿لَيْسُوا﴾: لأهل الكتاب، أي: ليس أهل الكتاب مستوين، وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾: كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾: كما وقع قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠] بياناً لقوله، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام، وهم الذين أسلموا منهم، وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنه أبين لما يفعلون؛ وأدل على حسن صورة أمرهم، وقيل: عنىٰ صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها (٢٨٠)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أخَّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم (٢٨١)، وقرأ هذه الآية،

---

٢٨٠ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٨٦)، رقم (١٢٢٥) من طريق أبي جعفر عن الربيع في قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ قال: قال بعضهم: صلاة العتمة تُصلّيها أمة محمد ـ ﷺ ـ ولا يُصلّيها غيرهم من أهل الكتاب.
وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٢٧) رقم (٧٦٦٠) من طريق الحسن بن يزيد العجلي عن عبد الله بن مسعود به.
وكذا ذكره البغوي في تفسيره (١/ ٣٤٣).

٢٨١ ـ أخرجه ابن حبّان في صحيحه (٤/ ٣٩٧) كتاب الصّلاة باب: مواقيت الصّلاة، حديث (١٥٣٠).
وأحمد (١/ ٣٩٩)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٢) حديث (١٠٢٠٩).
ـ والنّسائي في تفسيره (١/ ٣٢٠) حديث (٩٢).
ـ والطبري في تفسيره (٧/ ١٢٨)، حديث (٧٦٦٢).
ـ وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٨٦)، حديث (١٢٢٦)،
ـ وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨٧).
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣١٧) كتاب الصّلاة، باب: وقت العشاء الآخرة، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، والبزّار، والطبراني في الكبير، ورجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبي النجود وهو مختلف في الاحتجاج به، وفي إسناد الطبراني عبيد الله بن زحر وهو ضعيف.
ـ وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١١٦)، وعزاه لابن المنذر.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢١٦) للواحدي في أسباب النزول.
والحديث له شاهد من طريق أنس، أخرجه النّسائي (٨/ ١٧٤) حديث (٥٢٠٢) من طريق قتادة عن =

وقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾: و﴿يُؤْمِنُونَ﴾: في محل الرفع صفتان لأمّة، أي: أمّة قائمة تالون مؤمنون، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل. ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عُزيراً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض، ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم كانوا مداهنين، ومن المسارعة في الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها، والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الموصوفون بما وصفوا به، ﴿مِنَ﴾: جملة، ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين ﴿فلن تكفروه﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] في معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك. فإن قلت: لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان، فكأنه قيل: فلن تحرموه؛ بمعنى فلن تحرموا جزاءه، وقرىء «يفعلوا»، «ويكفروه» بالياء والتاء، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾: بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

الصرُّ: الريح الباردة[١] نحو: الصرصر. قال [من البسيط]:

لاَ تَعْدِلَنَّ أَتَاوِيِّينَ تَضْرِبُهُمْ ... نَكْبَاءَ صِرٍّ بِأَصْحَابِ الْمَحَلاَّتِ[٢]

= أنس بنحوه. وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه النّسائي وابن حبّان وأحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزّار كلّهم من رواية عاصم عن زرعة. انتهى.

---

(١) قال محمود: «الصر الريح الباردة. . .الخ» قال أحمد: كلها أوجه وجيهة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها فنقول: إذا قلت مثلاً: إن ضيعني زيد ففي عمرو بعد الله كاف، فقولك «كاف» أثبت به منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً له، فشخصت ذلك المطلق المجرد بهذا المعين، فهي ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه، إذ المطلق بعض المقيد، فتنبه لهذه النكتة فإنها لطيفة، والله الموفق.

(٢) الأتاوى: الغريب البعيد، كأنه منسوب إلى الأتاوة، وهي الرشوة والخفالة، لأنه قد يبذلها على إقامته في غير وطنه. والنكباء: الريح الشديدة. والصر الحارة، وقيل: الباردة. وقال الزجاج: =

كما قالت ليلى الأخيلية [من الطويل]:

وَلَمْ يَغْلِبِ الْخَصْمَ الألَدَّ وَيَمْلإِ الْـ ـجِفَانَ سَدِيفاً يَوْمَ نَكْبَاءَ صَرصَرِ[1]

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾؟ قلت: فيه أوجه: أحدهما: أنّ الصرّ في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرة صرّ، كما تقول: برد بارد على المبالغة، والثاني: أن يكون الصر مصدراً في الأصل بمعنى البرد فجيء به على أصله، والثالث: أن يكون من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ومن قولك: إن ضيعني فلان ففي الله كاف وكافل. قال [من الوافر]:

.... وَفِي الرَّحْمٰنِ لِلضُّعَفَاءِ كَافِي[2]

= صوت النار في الريح. وقيل: صوت الريح. والنكباء: الريح الشديدة. والصر الحارة، وقيل: الباردة. وقال الزجاج: صوت النار في الريح. وقيل: صوت الريح. وقيل: الجو. وقيل: البرد. وعلى هذا لو روى بالجر على الإضافة لكان وجيهاً. والمحلات قيل هي أدوات البيت كالفأس والقدر والغربال والدلو. ويجوز أنها البيوت وهو الظل من البيت. يقول: لا تسو بين الغرباء وبين أصحاب البيوت. وروى: لا يعدلن أتاويون، بالبناء للمجهول، وما بعده نائب فاعل. ورواه الجوهري بالبناء للفاعل، وقال: أي لا يعدلن أتاويون أحداً بأصحاب المحلات، فحذف المفعول وهو مدان، وفسر المحلات فحذف الموصول وهو مدان، وفسر المحلات فيه بالأدوات كافة، لأن الأتاوى يستعيرها من أصحابها. وعلى كل فالنون للتوكيد.

ينظر: المقاييس ١/ ٥٢ و٥/ ٤٧٤، والمعاني الكبير ١/ ٣٧٤، وأساس البلاغة ص ١٣٩، والبحر ٣/ ٣٥، واللسان (أتى)، والدر المصون ٢/ ١٩٢.

(١) كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ ... بنجد ولم يطلع من المتغور
ولم يغلب الخصم الألد ويملأ الـ ... ـجفان سديفاً يوم نكباء صرصر

لليلى الأخيلية ترثي صاحبها توبة بن الحمير وتتذكر أحواله وتعد مناقبه. وفتى الفتيان: أي هو الفتى من بينهم وليسوا فتياناً بالنسبة له وإن كانوا فتياناً في أنفسهم، وتوبة بدل. ولم ينخ من أناخ بعيره، خبر كأن، أي كأنه لم ينخ بعيره بمحل مرتفع. ويروى: لم يسر بنجد، ولم يطلع من أطلع بمعنى طلع، أو لم يطلع بعيره من المتغور على اسم المفعول، أي المكان المنخفض ما فيه، وكأنه لم يغلب الخصم الشديد الخصومة. ويروى الخصم الصحاح بفتح الصاد، بمعنى الصحيح، وكأنه لم يملأ الجفان سديفاً، أي قطعاً بيضا من السنام في زمن الريح الشديدة الباردة، أو كثيرة الصرير وهو التصويت تعني أنه كان يفعل ذلك كله، ثم كأنه اليوم لم يفعل لموته.

ينظر: البيت في ديوانها، ورغبة الآمل ٦/ ١٨٤ و٨/ ١٧٧، والبحر المحيط ٣/ ٣٥، والدر المصون ٢/ ١٩٢.

(٢) لقد زاد الحياة إلى حبًا ... بناتي إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين البؤس بعدي ... وأن يشربن رنقاً بعد صاف
وأن يعرين إن كسي الجواري ... فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولاهن قد سويت مهري ... وفي الرحمن للضعفاء كافي

لأبي خالد الخارجي. وقيل: لمحمد بن عبد الله الأزدي. وقيل: لعمران بن حطان. وقيل غير =

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله، بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً، وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم، وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم، لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، وشبه بحرث، ﴿قَوۡمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم، لأنّ الهلاك عن سخط أشدّ وأبلغ. فإن قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه[1] وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض

= ذلك، لامه قطري ابن الفجاءة عن التخلف عن الحرب فاعتذر بذلك. وبناتي فاعل زاد. وأحاذر أي أخاف أن يدركهن الفقر بعد موتي. وكنى عن ذلك برؤيتهن له مبالغة، لأنه إذا خاف الرؤية خاف اللحوق. ويروى مخافة أن يذقن البؤس، أي الشدة، فشبهه بمطعوم على سبيل المكنية والذوق تخييل. ورنق الماء كدر وترنق: تكدر، ورنقه وأرنقه كدره، والرنق بالتحريك مصدر كالكدر فسكن وأريد منه الماء الكدر. وروى «زيفا» أي مغشوشاً مكدراً، فالمراد واحد، فشبه العيش المبغض به، وشبه العيش الناعم بالماء الصافي على طريق التصريح والشرب ترشيح، وكسي بوزن فرح لازم ضد عرى. ويجوز هنا بناؤه للمجهول، من كسي المعتدي كدعا. وإن للشرط المجرد عن الشك أو بمعنى إذ. وتنبو ترتفع عنهن، كناية عن عدم التزوج بهن. والكرم بالسكون، وقيل ـ بالكسر ـ وصف من الكرم يقع على الواحد والمتعدد مذكراً ومؤنثاً. ويروى «عن رم» أي باليات، وهو أشبه بالسياق. والعجاف جمع عجفاء، أي مهزولة، أي لا يلتفت إليهن مع كونهن كريمات لهزالهن ورثاثة حالهن. وسويت مهري: وضعت عليه آلات الحرب ومهدته وهيأته لها. ويروى «قد سموت مهري» ولعله بتخفيف الميم بمعنى علوت عليه وركبته وقيل: بمعنى وضعت عليه سمات الحرب، فلعله مقلوب. و«سمت وروى سومت بالتشديد، وهو الذي يصلح أنه بمعنى جعلت عليه علامات الحرب لا ذاك، وجود من جانب الله عز وجل شخصاً كافياً، ولا حجر في المبالغة لا سيما على العرب. وفيه نوع استرجاع إلى الله وتفويض إليه وتوكل عليه، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين.

ينظر: الكامل ٨٩٥، واللسان (كرم)، والدرر المصون ٢/ ١٩٢.

(١) قال محمود «فإن قلت» الغرض تشبيه ما أنفقوا قلة جدواه. . .الخ» قال أحمد: أما إيراد السؤال فلا ترتضى صيغته لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل المقدر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى أن يذكر بصيغة الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض.، ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإن أحدنا لو أورد سؤالاً على كلام إمام معتبر بمرأى منه ومسمع، تحيل في أنواع التلطف في إيراده بعد عن أمثال هذه العبارة. ولعل الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارداً لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه ومسمع على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد وأن يتأدب في الإيراد، ثم نعود إلى جواب الزمخشري الثاني وهو قوله: «إن المراد مثل إهلاك ما ينفقون» فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب عن المطابقة المسئول عنها، والسؤال باق. وذلك أن الريح المشبه بها ليست الإهلاك وإنما هي المهلكة. ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذٍ يبعد هذا الوجه. وأقرب منه أن يقول: أصل الكلام والله أعلم: مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل =

حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح. قلت: هو من التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ويجوز أن يراد: مثل إهلاك ما ينفقون مثل إهلاك ريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرىء: «تنفقون، بالتاء»، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾: الضمير للمنفقين على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم، أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة، وقرىء: «ولكنّ» بالتشديد، بمعنى ولكنّ أنفسهم يظلمونها هم، ولا يجوز أن يراد: ولكنه أنفسهم يظلمون، على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز في الشعر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

بطانة الرجل وو ليجته: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بشقوره[(١)] ثقة به، شبه ببطانة الثوب كما يقال: فلان شعاري، وعن النبي ﷺ: «الأنصار شعار والناس دثار» (٢٨٢)، ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، ويجوز تعلقه بـ «لا

---

٢٨٢ ـ رواه البخاري مختصراً (٨/ ٣٦٩)، كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف، حديث (٤٣٣٠).
ـ ومسلم (٤/ ١٦٦)، كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، حديث (١٣٩) ـ (١٠٦١).
ـ كلاهما من طريق عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازني في أثناء حديث طويل، أوله «أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ لمّا فتح حُنيناً قسم المغانم». انتهى.

= حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته. ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة وهو تقديم ما هو أهم، لأن الريح التي هي مثل العذاب ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث، فقدمت عناية بذكرها واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه، ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا...﴾ الآية. ومثله أيضاً: أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه. والأصل: أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت. وأن أدعم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة. والله الموفق.

(١) قوله: «بشقوره» في الصحاح الشقور بالضم الأمور اللاصقة بالقلب المهمة له الواحد شقر. (ع)

تتخذوا»، وبـ «بطانة» على الوصف، أي: بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: يقال: ألا في الأمر يألو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدّى إلى مفعولين في قولهم: لا ألوك نصحاً، ولا ألوك جهداً، على التضمين، والمعنى: لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه، والخبال: الفساد، ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: ودّوا عنتكم، على أنّ «ما» مصدرية، والعنت: شدّة الضرر والمشقة، وأصله انهياض العظم بعد جبره، أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشدّ الضرر وأبلغه، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين، وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضاً على ذلك، وفي قراءة عبد الله «قد بدأ البغضاء»، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾: الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: ما بين لكم فعملتم به. فإن قلت: كيف موقع هذه الجمل؟ قلت: يجوز أن يكون، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾: صفة للبطانة وكذلك، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾: كأنه قيل: بطانة غير آليكم خبالاً بادية بغضاؤهم، وأما، ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾: فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة ﴿ها﴾ للتنبيه، و ﴿أنتم﴾ مبتدأ، و﴿أُولَاءِ﴾: خبره. أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب، وقوله: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾: بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء، وقيل: ﴿أُولَاءِ﴾: موصول، ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾: صلته، والواو في ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾: للحال، وانتصابها من لا يحبونكم أي: لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم. فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونحوه ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] ويوصف المغتاظ والنادم بعضّ الأنامل والبنان والإبهام قال الحرث بن ظالم المري [من الطويل]:

فَأَقْتُلُ أَقْوَاماً لِئَاماً أَذِلَّةً ... يَعَضُّونَ مِنْ غَيْظٍ رُؤوسَ الأَبَاهِمِ[1]

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ: زيادة ما يغيظهم من قوّة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزى والتبار، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلوّ بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج

---

(١) للحرث بن ظالم المري. وعض الأنامل من الغيظ: كناية عن شدته، وأطلق الأباهم وأراد مطلق الأصابع مجازاً مرسلاً، لأنه لا داعي للتخصيص المخالف للواقع عادة. ويحتمل أنها حقيقة.
ينظر: البيت في البحر المحيط ٢/ ٤٤، والدر المصون ٢/ ١٩٧.

منها. فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان داخلاً في جملة المقول فمعناه: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إنّ الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أنّ شيئاً من أسراركم يخفى عليه، وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرون فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم، ويجوز أن لا يكون ثمّ قول، وأن يكون قوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: أمراً لرسول الله ﷺ بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

الحسنة: الرخاء، والخصب، والنصرة، والغنيمة، ونحوها من المنافع، والسيئة ما كان ضدّ ذلك؛ وهذا بيان لفرط معاداتهم؛ حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدّة، فإن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟[1] قلت: المس مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠]، ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠ ـ ٢١]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾: على عداوتهم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: ما نهيتم عنه من موالاتهم، أو: وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه، وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه، كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم، وقرىء: «لا يضركم»: من ضاره يضيره، ويضركم على أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد، كقولك مدّ يا هذا، وروى المفضل عن عاصم «لا يضركم» بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقد قال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما، ﴿مُحِيطٌ﴾: ففاعل بكم ما أنتم أهله، وقرىء بالياء ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

---

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة. . .الخ» قال أحمد: يمكن أن يقال: المس أقل تمكناً من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام والله أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكن ولا ينفكون عن حسدهم ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿و﴾ اذكر، ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: بالمدينة، وهو غدوةُ إلى أحد من حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ روي: أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء، فاستشار النبي ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبيّ ابن سلول ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره. فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلا أصاب منا ولادخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وقال بعضهم: يا رسول الله، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم. فقال ﷺ: إني قد رأيت في منامي بقراً مذبحة حولي، فأوّلتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم. فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته. فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا: بئسما صنعنا، نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: لا ينبغي لنبيّ أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوّم بهم القدح[1]، إن رأى صدراً خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد؛ وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا» (٢٨٣)، ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تنزلهم، وقرأ عبد الله «للمؤمنين»، بمعنى

---

٢٨٣ ـ رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٢٤)، باب: كيف كان الخروج إلى أحد والقتال بين المسلمين والمشركين يومئذ، من طريق محمد بن إسحاق، قال: قال محمد بن شهاب الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبّان، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ... فذكره.
وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٦٣)، حديث (٩٧٣٥)، في المغازي في غزوة أحد: حدّثنا معمر عن الزهري، عن عروة... فذكره بتغير يسير.
وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٦٣)، حديث (٧٧١٨) من نفس الطريق السابق. وابن هشام في سيرته (٣/ ٦)، في غزوة أحد، من قول ابن إسحاق، حديث (١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤). =

---

(١) قوله: «كأنما يقوم بهم القدح، في الصحاح: القدح ـ بالكسر ـ السهم قبل أن يراش ويركب نصله. (ع)

تسوى لهم وتهيء، ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: مواطن ومواقف، وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار[1]، واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]، ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] من مجلسك وموضع حكمك، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم، ﴿إِذْ هَمَّت﴾: بدل من، ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾: أو عمل فيه معنى، ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، والطائفتان حيان من الأنصار: بنو سلمة

= بداية من قوله: «إني رأيت في منامي بقراً... حتى قوله: وتدعوهم».
والحديث له عدة شواهد منها.
ما أخرجه البخاري (٦/ ٧٢٥)، كتاب المناقب، حديث (٣٦٢٢).
ومسلم (٨/ ٣٦)، كتاب الرؤيا، باب: رؤيا النبي - ﷺ -.
- وابن حبّان في صحيحه (١٤/ ١٧٥)، كتاب التاريخ، فصل في هجرته - ﷺ - إلى المدينة... حديث (٦٢٧٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٩٢) كتاب تعبير الرؤيا، حديث (٣٩٢١) كلّهم من طريق أبي موسى.
- وأحمد (٣/ ٣٥١) عن جابر بن عبد الله، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازي، قال: حدّثني محمد بن شهاب وعاصم بن عمر ومحمد بن يحيى بن حبّان والحصين ابن عبد الرحمن وغيرهم من علمائنا، كلّهم قد حدّث عن غزوة أحد. وكان من حديثهم قالوا: قال رسول الله - ﷺ - للمسلمين يوم أحد «إني رأيت بقراً وأولتها خيراً. ورأيت في ذباب سيفي ثلماً - فذكر الحديث بطوله وفيه: ومات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو. وفيه: ذكر للأمة وغير ذلك. ومن طريق ابن إسحاق أخرجه البيهقي في الدلائل وأورد منه الطبري من طريقه قطعة. وساقه عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عروة مطوّلاً وأخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدّي بلفظ المصنّف، إلى قوله، وأصبح بالشعب، وبقية ذلك هو من كلام ابن إسحاق «قوله فيه حتى يقوم بها القداح» وقع في رواية الواقدي عن ابن أخي الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة. وقد ساقه الواقدي بهذا الإسناد مطولاً. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: أما إجراء «قَعَدَ» مجرى «صار» فقال بعض أصحابنا إنما جاء ذلك في لفظة واحدة شاذة في المثل في قولهم: «شَحَذَ شَفْرَته حتى قَعَدَتْ كأنها حَرْبَة»، وكذلك نَقَد على الزمخشري تخريجه قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ بمعنى: فتصير، لأنه لا يطرد إجراء قَعَد مجرى صار» قلت: وهذا الذي ذكره الزمخشري صحيح من كون «قعد» يكون بمعنى صار في غير ما أشار إليه هذا القائل، حكى أبو عمر الزاهد عن ابن الأعرابي أن العرب تقول: «قعد فلان أميراً بعد أن كان مأموراً» أي صار. ثم قال الشيخ: «وأما إجراء «قام» مجرى «صار» فلا أعلم أحداً عَدّها في أخوات «كان»، ولا جعلها بمعنى صار، إلا ابن هشام الخضراوي فإنه ذَكر في قول الشاعر:
عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُني لَئِيمٌ ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ
قلت: وغيره من النحويين يجعلها زائدة، وهو شاذ أيضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا غير محرر، لأن العامل لا يكون مركباً من وصفين، فتحريره أن يقال: عمل فيه معنى سميع أو عليم، وتكون المسألة من التنازع». قلت: لم يُرِدِ الزمخشري بذلك إلا ما ذكرته من إرادة التنازع، ويصْدُق أن يقول: عمل فيه هذا وهذا بالمعنى =

من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان. خرج رسول الله ﷺ في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين، والمشركون في ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: يا قوم، علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فهمّ الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ (٢٨٤)، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه، كما قال عمرو بن الأطنابة [من الوافر]:

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ: مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحي[1]

---

٢٨٤ ـ ذكره ابن هشام في سيرته (٣/٨)، حديث (١٠٨٥)، في غزوة أحد من قول ابن إسحاق في كلام طويل، وتقدم بعضه في الحديث السابق.
ـ وذكر البغوي في تفسيره (١/٣٤٧)، رقم (١٢٢) نحوه.
وكذا ذكره السيوطي في الدرّ المنثور (٢/١٢١)، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: هو الذي قبله، وذكره ابن هشام في تهذيب السيرة بتمامه عن ابن إسحاق. انتهى.

= المذكور لا أنهما عمِلا فيه معاً، على أنه لو قيل به لم يكن مبتدعاً قولاً، إذ الفراء يرى ذلك، ويقول في نحو: «ضربت وأكرمت زيداً» إنّ «زيداً» منصوبٌ بهما وإنهما تسلّطا عليه معاً، انتهى. الدر المصون.

(١) أبت لي عفتي وأبى تلادي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت: مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح

لعمرو بن الأطنابة وهي أمه، وأبوه يزيد بن مناة بن ثعلبة من باهلة. والتلاد: المال القديم الموروث. ويروي بلائي أي بأسي في الحروب. واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق التصريح. والربيح: الزائد. والإقحام: تكليف الدخول في المكروه. ويروى: وإقدامي. ويروى «وأضرب» بدل «ضربي» وفيه دلالة على تجدد الضرب وإبرازه في صورة إلى أمر المشاهد وهو من عطف المصدر المؤول على المصدر الصريح، ويحتمل أنها جملة حالية والتقدير: وأنا أضرب. والهامة أعلى الرأس. والمشيح: الجاد في القتال، من أشاح إذا جد واجتهد. وجشأت: تحركت واضطربت، وجاشت: غلت وارتفعت، وكل شيء يغلي فهو يجيش. ومكانك: اسم فعل. أي الزمي يا نفس مكانك، يحمدك الناس إن ظفرت، أو تستريحي إن مت. ولأدفع: متعلق بالقول أو باسم الفعل أو بأبت لي، أي منعتني عفتي وما عطف عليها من الفرار. وإسناد الفعل لذلك مجاز عقلي من الإسناد للسبب. وشبه سلامة العرض من الطعن بسلامة البيضة مثلاً من الكسر فاستعار لها =

حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر، فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين، فما ثبت مني إلا قول عمرو بن الأطنابة، ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية، والله تعالى يقول: ، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾: ويجوز أن يراد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما، فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله فإن قلت، فمامعنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يَسُرُّنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه ولينا؟. قلت: معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها - لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم - كانت سبباً لنزولهما، والفشل: الجبن والخور، وقرأ عبد الله: «والله وليهم» كقوله ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [الحجرات: ٩].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

أمرهم بألا يتوكلوا إلا عليه، ولا يفوّضوا أمورهم إلا إليه، ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حالة قلة وذلة، والأذلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد، وقلتهم أنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، وكان عدوّهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشِّكَّة والشَّوْكة[1]، وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً فسمي به، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: في الثبات مع رسوله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: بتقواكم ما أنعم به عليكم من

= الصحة على طريق التصريح.

ينظر: إنباه الرواة ٣/ ٢٨١، وحماسة البحتري ص ٩، والحيوان ٦/ ٤٢٥، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٥، وخزانة الأدب ٢/ ٤٢٨، والدرر ٤/ ٨٤، وديوان المعاني ١/ ١١٤، وسمط اللآلي ص ٥٧٤، وشرح التصريح ٢/ ٢٤٣، وشرح شواهد المغني ص ٥٤٦، ومجالس ثعلب ص ٨٣، والمقاصد النحوية ٤/ ٤١٥، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٤/ ١٨٩، والخصائص ٣/ ٣٥، وشرح الأشموني ٣/ ٥٦٩، وشرح شذور الذهب ص ٤٤٧، وشرح قطر الندى ص ١١٧، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/ ٧٤، ولسان العرب (جشأ)، ومغني اللبيب ١/ ٢٠٣، والمقرب ١/ ٢٧٣، وهمع الهوامع ٢/ ١٣.

(١) قوله: «والشكة والشوكة» في الصحاح: الشكة - بالكسر - السلاح. والشوكة: شدة البأس. (ع)

نصرته. أو لعلكم ينعم الله عليكم نعمة أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له، ﴿إِذْ تَقُولُ﴾: ظرف لنصركم، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أو بدل ثان من، ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾: على أن يقوله لهم يوم أحد. فإن قلت: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلت: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى [عليهم]، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا، حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة؛ ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله، ومعنى، ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾: إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وإنما جيء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوّهم وشوكته كالآيسين من النصر، و﴿بَلَىٰ﴾: إيجاب لما بعد «لن»، بمعنى: بل يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية ثم قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾: يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسوّمين للقتال، ﴿وَيَأْتُوكُم﴾: يعني المشركين، ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾: من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره، ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من: فارت القدر، إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ـ ولا تعريج على شيء من صاحبها؛ فقيل: خرج من فوره، كما تقول: خرج من ساعته، لم يلبث، والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه، ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾: بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد: أنّ الله يعجل نصرتكم وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم، وقرىء: «منزلين» بالتشديد. «ومنزلين» بكسر الزاي، بمعنى: منزلين النصر، و﴿مُسَوِّمِينَ﴾: بفتح الواو وكسرها. بمعنى: معلمين، ومعلمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها (٢٨٥)، وعن مجاهد: مجزوزة أذناب خيلهم (٢٨٦)، وعن قتادة: كانوا على خيل بلق (٢٨٧)، وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة

---

٢٨٥ ـ أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٣/١٠٨٩)، رقم (٥٢٤)، من طريق أبي معاوية عن جويبر عن الضحّاك.

٢٨٦ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/١٨٧) رقم (٧٧٧٩) من طريق محمد بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي بزة، عن مجاهد في قوله: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ قال: مجزوزة أذنابها، وأعراقها فيها الصّوف أو العهن، فذلك التسويم.
وأخرجه ابن أبي حاتم (٢/٥٢٧)، رقم (١٣٧٢)، من طريق شبل عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد به.
ـ وذكره السيوطي في الدرّ المنثور (٢/١٢٥) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

٢٨٧ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/١٨٧)، من طريق بشر قال: حدّثنا يزيد قال: حدّثنا سعيد، عن قتادة: فذكره، رقم (٧٧٨٠).

الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك (٢٨٨)، وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «تسوّموا فإنّ الملائكة قد تسوّمت» (٢٨٩)، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: الهاء لـ «أن يمدكم». أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾: لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا، ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن ذلك مما يقوي به الله رجاء النصرة والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين، ﴿الْعَزِيزِ﴾: الذي لا يغالب في حكمه، ﴿الْحَكِيمِ﴾: الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة، ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة، ﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾: غير ظافرين بمبتغاهم، ونحوه ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ [الأحزاب: ٢٥] ويقال: كبته، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة، وقيل في قول أبي الطيب [من الوافر]:

- لأَكْبِتَ حَاسِداً وَأرِي عَدُوًّا .... (١)

---

٢٨٨ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٣١) من طريق معمر عن قتادة قال: أخبرني عروة عن أبيه... فذكره.

٢٨٩ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٥٤)، في كتاب المغازي، باب: غزوة بدر، من طريق ابن عون عن عمير بن إسحاق. قال: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت» قال: فهو أول يوم وضع الصفوف. انتهى.

- وعزاه ابن أبي شيبة لإبراهيم الحربي، في كتابه غريب الحديث.

- وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٨٦)، حديث (٧٧٧٦) من نفس الطريق السابق قال: إن أول ما كان الصوف ليومئذ - يعني يوم بدر... فذكره.

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٢٠) للواقدي في كتاب المغازي من طريق عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة. حدّثنا أبو أمامة عن ابن عون. عن ابن عمير، وابن إسحاق بهذا. وهو مرسل وزاد: قال «فهو أول يوم وضع فيه الصّوف» ورواه الطبري من وجه آخر عن ابن عون به. وقال الواقدي: حدّثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر. عن محمود بن لبيد فذكره. قال: فأعلموا بالصوف في مغافرهم» ولم يذكر الزيادة. ورواه ابن سعد من طرق في قصة «وفيه: فقال لأصحابه يومئذ: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت». قال: «فأعلموا بالصّوف في مغافرهم وقلانسهم». انتهى.

---

(١)

رويدك أيها الملك الجليل	تأن وعده مما تنيل
وجودك بالمقام ولو قليلاً	فما فيما تجود به قليل
لأكبت حاسداً وأرى عدواً	كأنهما وداعك والرحيل

=

هومن الكبد والرئة، واللام متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أو بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾: عطف على ما قبله.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: اعتراض، والمعنى: أنّ الله مالك أمرهم، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم، وقيل: إنّ، ﴿يَتُوبَ﴾: منصوب بإضمار «أن» و «وأن يتوب» في حكم اسم معطوف بأو على الأمر أو على شيء، أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم. أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل «أو» بمعنى «إلا أن» كقولك: لألزمنك أو تعطيني حقي، على معنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم، وقيل: شجه عتبة بن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم، وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم، فنزلت (٢٩٠)، وقيل: أراد أن

---

٢٩٠ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٣١)، من طريق معمر عن قتادة به.
ومن طريق عبد الرزاق، رواه الطبري في تفسيره (٧/ ١٩٨) حديث (٧٨١٥).
ـ وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٥)، في غزوة أحد، أخبرنا محمد بن حميد العبدي، عن معمر، عن قتادة. . . فذكره.
ـ والحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما.
● منها ما رواه البخاري (٨/ ١٢٢)، حديث (٤٠٧٥) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد الساعديّ، والحديث ليس فيه ذكر عتبة بن أبي وقاص، ولا سالم مولى حذيفة.
● ومنها ما أخرجه مسلم (٦/ ٣٨٨)، حديث (١٠٤) من طريق ثابت عن أنس. وحديث أنس انفرد =

= لأبي الطيب. يقول: تمهل يا أيها الملك عن السفر، واجعل ذلك التأني مما تحسن به إلينا، وجودك علينا بالإقامة، ولو كانت قليلة عندك أو في ذاتها فهي كثيرة عندنا، فإنه ليس فيما تجود به قليل. وقوله: «لأكبت» متعلق بتأن. وأصله: لأكبد، قلبت الدال تاء لقرب مخرجيهما، أي لأصيب كبد الحاسد بالغيظ. وأرى: أي أصيب رئة العدو به أيضاً، كأنهما: أي الحاسد والعدو، شبه الأول بالوداع، والثاني بالرحيل، في أن كلا يحزنه. وخص الثاني بالثاني، لأنه أشد كراهة، وفيه لف ونشر مرتب، وهو حسن.
ينظر: ديوانه: ٣/ ١٣٦، وتاج العروس: (كبت).

يدعو الله عليهم فنهاه الله تعالى، لعلمه أن فيهم من يؤمن، وعن الحسن، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾: بالتوبة[1]، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين[2]، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب، وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً. وإتباعه قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: تفسير بين لمن يشاء، وأنهم المتوب عليهم، أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامُّون ويتعامون[3] عن آيات

= به مسلم، وقد علّقه البخاري.

- والنسائي في تفسيره (١/ ٣٢٧) حديث (٩٧) من طريق حميد عن أنس.
- والبيهقي في دلائل النبوة باب: غزوة أحد، من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال: رمى يومئذ رسول الله - ﷺ - رجلاً من بني الحارث بن عبد مناة يقال له: عبد الله بن قمئة، ويقال: بل رماه عتبة بن أبي وقاص، ثم أسند إلى مقسم.
قال: دعا النبي - ﷺ - فذكره.
- وابن هشام في سيرته (٣/ ٣١)، حديث (١١٢١)، من حديث أبي سعيد الخدري بنحو حديث البيهقي في الدلائل.
- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٢٣) للثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة وقتادة ومقسم، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق. ومن طريقه الطبري. أخبرنا معمر عن قتادة أنّ عتبة. فذكره من طريق معمر أخرجه ابن سعد سواء. والحديث في الصّحيحين من حديث سهل بن سعد «كسرت رباعية النبي - ﷺ - يوم أحد وشُجّ رأسه. فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيّهم. وهو يدعوهم إلى الله؟ فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ قال: وكانت فاطمة تغسل الدم عن وجهه - الحديث» وسيأتي قريباً أن الذي شجّه عبد الله بن قمئة. وقال الواقدي: المثبت عندنا أنّ الذي رمى وجه النبي - ﷺ - عبد الله بن قمئة: والذي رمى شفته وأصاب رباعيته. عتبة بن أبي وقاص. وفي السيرة لابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أنّ عتبة بن أبي وقّاص رمى رسول الله - ﷺ - يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى. وجرح شفته السفلى. وأن عبد الله بن شهاب شجّه في وجهه، وأنّ ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله - ﷺ - في حفرة من الحفر فأخذ عليٌّ بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائماً ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعد الدم عن وجه النبي - ﷺ - ثم ازدرده. فقال النبي - ﷺ -: من مسّ دمه دمي لم تصبه النار. انتهى.

---

(١) قال محمود: «معناه يغفر لمن يشاء بالتوبة... الخ» قال أحمد: هذه الآية واردة في الكفار. ومعتقد أهل السنة أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الإيمان، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين وعندهم أن المؤمن التائب من كفره هو المعني في قوله: (يغفر لمن يشاء) كما قاله الزمخشري. وأما تسلقه من ذلك على تعميم هذا الحكم وتعديته إلى الموحدين، فمن التعامي والتصام حقيقة، وإلا فهو أحذق من ذلك. وأما نسبته إلى أهل السنة التعامي والتصام والهوى والبدعة والافتراء، فالله حسيبه في ذلك والسلام.

(٢) قوله: «ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين» هذا عند المعتزلة. (ع)

(٣) قوله: «ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون» يريد أهل السنة وتحقيق المبحث في علم التوحيد. (ع)

الله فيخبطون خبط عشواء، ويطيبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم: يهب الذنب الكبير لمن يشاء، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾: نهي عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون[1]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾: كان أبو حنيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وقد أمدّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين برحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله، ومن تأمّل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى، وفي ذكره تعالى «لعلّ» و «عسى» في نحو هذه المواضع ـ وإن قال الناس ما قالوا ـ ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

في مصاحف أهل المدينة والشام «سارعوا» بغير واو، وقرأ الباقون بالواو، وتنصره قراءة أبيّ وعبد الله: وسابقوا ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يستحقان به، ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، أي: عرضها عرض السموات والأرض، كقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] والمراد: وصفها بالسعة والبسطة،

---

(١) قوله: «للمديون» لعله المدين، أو هو لغة شاذة. (ع)

فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه، وخص العرض، لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض، ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: في حال الرخاء واليسر وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكي عن بعض السلف: أنه ربما تصدّق ببصلة، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها تصدّقت بحبة عنب (٢٩١) أو في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرّة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنه لا يدع الإحسان، وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة: إذا ملأها وشد فاها، وكظم البعير: إذا لم يجتر، ومنه كظم الغيظ، وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً، وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيماناً» (٢٩٢)، وعن عائشة رضي الله عنها: أن خادماً لها غاظها فقالت: لله درّ التقوى، ما تركت لذي غيظ شفاء.، ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾: إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه، وروي: «ينادي مناد يوم القيامة: أين الذين

---

٢٩١ ـ أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٥٥) رقم (٤٦٩٧)، من طريق فضيل بن مرزوق عن ظبية بنت المعلل، قالت: دخلت على عائشة فجاء سائل فأعطته حبّة عنب، ثم نظرت إليّ وقالت: أتعجبين من هذا إنّ في هذا لمثاقيل كثيرة. انتهى.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف: (١/ ٢٢٤) لعبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب الآنية من طريق أبي الأحوص عن إبن إسحاق بنحوه.
وكذا لابن زنجويه في كتاب الأموال من طريق الوليد بن جميع عن مولاه.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن سعد أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا فضيل بن مرزوق عن ظبية بنت المعلل. قالت: «دخلت على عائشة فجاء سائل فأعطته حبة عنب، ثم نظرت إليّ، وقالت: أتعجبين من هذا؟ إن هذا لمثاقيل كثيرة». انتهى.

٢٩٢ ـ أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٢٤٨)، حديث (٤٧٧٨)، كتاب: الأدب، باب: من كظم غيظاً، من طريق سويد بن وهب عن رجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ عن أبيه.
ـ وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٣٢) من طريق داود بن قيس عن زيد بن أسلم.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود من رواية ابن عجلان عن سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ عن أبيه. قال ابن طاهر. هذا الصّحابي هو معاذ بن أنس وابنه سهل. ورواه عبد الرزاق وأحمد عنه، والعقيلي من طريقه. قال: أخبرنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عمر له عن أبي هريرة به. وعبد الجليل مجهول.

كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا» وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه (٢٩٣) وعن النبي ﷺ: «إن هؤلاء في أمّتي قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت» (٢٩٤)، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورين، وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: عطف على المتقين. أي: أعدت للمتقين وللتائبين، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى الفريقين، ويجوز أن يكون و«الذين» مبتدأ خبره «أولئك»، ﴿فَٰحِشَةً﴾: فعلة متزايدة القبح، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: أو أذنبوا أي ذنب كان مما يؤاخذون به، وقيل: الفاحشة: الزنا، وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما، وقيل: الفاحشة: الكبيرة، وظلم النفس: الصغيرة، ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه، أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾: فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين[1]، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأنّ عدله يوجب المغفرة للتائب، لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو[2] والتجاوز وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم، والمعنى: أنه وحده معه مصححات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾: ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين، وعن النبي ﷺ: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرّة» (٢٩٥) وروي: «لا كبيرة

---

٢٩٣ ـ ينظر البحر المحيط (٣/ ٦٣).

٢٩٤ ـ ذكره الديلمي في كتاب الفردوس (٥/ ٣٦٤)، حديث (٨١٧٠)، من طريق أنس بلفظ: «يبعث الله ـ عزّ وجلّ ـ منادياً ينادي: من كان له على الله أجر فليقم إلى أجره ذلك فليأخذه. فيقال: وما ذلك الأجر؟ قال: من ظلم في أوان الدنيا فعفا وأصلح فأجره على الله، فيقومون إلى أجرهم ذلك، وهم قليلون في أمتي كثير في الأمم».
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٢٦) للثعلبي من طريق مقاتل بن حيان، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ. . . فذكره. وإسناده إلى مقاتل من أول الكتاب، وفي الفردوس عن أنس نحوه في أوّل الذي قبله. انتهى.

٢٩٥ ـ الحديث رُوي من طريق أبي بكر ومن طريق ابن عباس. =

---

(١) قوله «عازمين» لعله عازمين على عدم العود. (ع)

(٢) قوله «بأقصى مما يقدر عليه وجب العفو» أما سمعاً فباتفاق، وأما عقلاً فعند المعتزلة فقط. (ع)

مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» (٢٩٦)، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: حال من فعل الإصرار وحرف النفي منصب عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها وبالوعيد عليها، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح، وفي

= فأما حديث أبي بكر:
رواه أبو داود (٢/ ٨٤) حديث (١٥١٤) كتاب الصّلاة، باب: في الاستغفار.
والترمذي (٥/٥٥٨) كتاب الدعوات، حديث (٣٥٥٩) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبي نُصَيرة وليس إسناده بالقوي.
وأبو يعلى في مسنده (١/ ١٢٤)، حديث (١٣٧، ١٣٨).
- وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٥٥)، حديث (١٤٥٩) وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٢٧) للبزار في مسنده، ولابن السنّي في كتابه «عمل اليوم والليلة».
وأما حديث ابن عباس:
فعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٢٧) للطبراني في كتاب الدّعاء من حديث ابن أبي مليكة عن ابن عباس مرفوعاً بلفظه سواء، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبزّار. من طريق عثمان بن واقد عن أبي نصيرة عن مولى لأبي بكر - رضي الله عنه -. قال الترمذي: غريب وليس إسناده بالقوي. وقال البزّار: لا نحفظه إلاّ من حديث أبي بكر بهذا الطريق. وأبو نصيرة وشيخه لا يُعرفان. قلت: له شاهد أخرجه الطبراني في الدّعاء من حديث ابن عباس. انتهى.
٢٩٦ - جاء هذا الحديث من طريق أبي هريرة، ومن طريق ابن عباس.
● أما حديث أبي هريرة:
فأخرجه أبو حفص عمر بن شاهين في كتاب الترغيب (١/ ٢٠٩) حديث (١٨٦) (١٢)، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ليست كبيرة بكبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة بصغيرة مع الإصرار».
- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٢٨) للطبراني في مسند الشاميين من رواية مكحول عن أبي سلمة.
أما حديث ابن عباس:
فأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٥٣).
فائدة:
قال الشوكاني في «إرشاد الفحول» (ص٤٧): وقد قيل إن الإصرار على الصغيرة حكمه حكم مرتكب الكبيرة وليس على هذا دليل يصلح التمسك به وإنما هي مقالة لبعض الصّوفية فإنه قال: لا صغيرة مع إصرار وقد روى بعض ما لا يعرف علم الرواية هذا اللفظ وجعله حديثاً ولا يصح ذلك بل الحق أنّ الإصرار حكمه حكم ما أصرّ عليه فالإصرار على الصّغيرة صغيرة والإصرار على الكبيرة كبيرة.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق بن بشر أبو حذيفة في المبتدأ عن الثوري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وإسحاق حديثه منكر. ورواه الطبراني في مسند الشاميين من رواية مكحول. عن أبي سلمة. عن أبي هريرة. وزاد في آخره «فطوبى لمن وجد في كتابه استغفاراً كثيراً» وفي إسناده بشر بن عبد الوارث. وهو متروك. ورواه الثمار وابن شاهين في الترغيب من رواية بشر بن إبراهيم عن خليفة بن سليمان عن أبي سلمة عن أبي هريرة به. انتهى.

هذه الآيات بيان قاطع أنّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرُّون، وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم، دون المصرّين[1]، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه. قال: ﴿أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾: بعد قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ [آل عمران: ٨٧] لأنهما في معنى واحد، وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أنّ ذلك جزاء واجب على عمل، وأجر مستحق عليه، لا كما يقول المبطلون[2]، وروي أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى: «ما أقلّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي»، وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: يقول الله تعالى يوم القيامة «جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم» وعن رابعة البصرية ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تنشد [من البسيط]:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إنّ السَّفِينَةَ لاَ تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ[3]

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك. يعني المغفرة والجنات، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائعه، كقوله: ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦١ ـ ٦٢] ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح: ٢٣].

---

(١) قوله: «والتائبين منهم دون المصرين» يعني أن الإصرار كبيرة وفاعل الكبيرة يخلد في النار لكن هذا عند المعتزلة، وخالف أهل السنة لأنه مؤمن عندهم والمؤمن لا يخلد فيها وتحقيقه في علم التوحيد. (ع)

(٢) قوله: «وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون» يريد بهم أهل السنة حيث قالوا: لا يجب على الله شيء. (ع)

(٣) ما بال نفسك ترضي أن تدنسها ... وثوب نفسك مغسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

للإمام على كرم الله وجهه وقيل: لأبي العتاهية، والبال الشأن والنفس. ويجوز أنها الذات والثوب على ظاهره. ويجوز أنها الروح والثوب مستعار للجسم، لأنه للروح كالثوب للبدن. أي لا ينبغي تدنيس المظروف مع تنظيف ظرفه، ويجوز أن الأولى الروح والثاني الذات، ويروى. ما بال دينك ترضي أن تدنسه. وثوب نفسك: جملة حالية، ويروى: «وثوبك الدهر مغسول». وترجو النجاة على حذف أداة الاستفهام التوبيخي، أبرزه في صورة الخبر ليصور قبحه، وشبه الأسباب الموصلة للنجاة بالطرق المسلوكة على سبيل التصريحية «ولم تسلك» ترشيح. وقوله: «إن السفينة» تمثيل لحال من يرجو أمراً ولم يأخذ في أسبابه بحال ملاح يريد تسيير السفينة على أرض صلبة لا ماء بها، وفيه تقرير التوبيخ الذي أفاده الاستفهام.
ينظر: ديوانه ص ٣٢٣، وأساس البلاغة (زرر).

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾: إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: يعني أنه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين ويجوز أن يكون قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين، ويكون قوله: ﴿هذا بيان﴾ إشارة إلى ما لخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصرّين، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني: ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي: لا يورثنكم ذلك وهنا وجبنا، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح، ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب، لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو وأنتم الأعلون شأناً، لأنّ قتالكم لله ولإعلاء كلمته، وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، ولأنّ قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي: وأنتم الأعلون في العاقبة ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: متعلق بالنهي بمعنى: ولا تهنوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه. أو بالأعلون، أي: إن كنتم مصدّقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

قرىء «قرح» بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف، وقيل: هو بالفتح الجراح، وبالضم ألمها، وقرأ أبو السمّال «قرح» بفتحتين، وقيل: القرح والقرح كالطرد والطرد، والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال. فأنتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه ﴿فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ [النساء: ١٠٤] وقيل: كان ذلك يوم أحد، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ. فإن قلت: كيف قيل، ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾: وماكان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل

يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾: تلك مبتدأ، والأيام صفته، و﴿نُدَاوِلُهَا﴾: خبره، ويجوز أن يكون ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة، «نداولها» نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كقوله وهو من أبيات الكتاب [من المتقارب]:

فَيَوْماً عَلَيْنَا وَيَوماً لَنَا وَيَوْماً نُسَاءُ وَيَوماً نُسَرّ(١)

ومن أمثال العرب: الحرب سجال، وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ثم قال: أين ابن أبي كبشة، أين ابن أبي قحافة، أين ابن الخطاب. فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر. فقال أبو سفيان يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار. فقال: إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا (٢٩٧)، والمداولة مثل المعاورة،

---

٢٩٧ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٢٩٦)، والطبراني (١٠/ ٣٦٥) رقم (١٠٧٣١).
ـ وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٠٢) حديث (١٦٤٤).
ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٧٠)، كلهم عن ابن عباس.
ـ وشاهد له، حديث عكرمة الذي أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٥٦٧) رقم (١٥٠٧).
وحديث ابن مسعود عند أحمد (١/ ٤٦٣)، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد والحاكم والطبراني والبيهقي في الدلائل. من رواية ابن أبي الزناد عن أبيه عن ابن عباس أن أبا سفيان قال يوم أحد فذكره. قلت: وأصله في الصّحيح من غير هذا الوجه بغير هذا السياق. انتهى.

---

(١) فلا وأبي الناس لا يعلمون فلا الخير خير ولا الشر شر
فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر
للنمر بن تولب، وهو من أبيات الكتاب. و«لا» زائدة قبل القسم، لأنه في الغالب لنفي شيء. وقيل: إشارة إلى اتضاح القضية المقسم عليها وعدم احتياجها إلى قسم، لكنه إنما يظهر في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ حيث أبرز في صورة النفي المعتادة. و«الناس» مبتدأ خبره «لا يعلمون» ثم بين ذلك بقوله: فليس الخير الذي زعموا أنه خير خيراً كما زعموا. وليس الشر الذي زعموه شراً كما زعموا. أو ليس الخير خيراً دائماً، وليس الشر شراً دائماً. فيوم علينا نخذل فيه. ويوم لنا ننصر فيه، ويوم نساء فيه، ويوم نسر فيه. وروى بنصب اليوم. والمعنى: فيوماً تدور الدائرة علينا، ويوماً تكون الدولة لنا. ونساء يوماً، ونسر يوماً. وكل جملتين من هذه الجمل واقعتان موقع البيان مما قبلهما. وفي البيت الثاني: لف ونشر مرتب، وذلك حسن.
ينظر: ديوانه ص ٣٤٧، تلخيص الشواهد ص ١٩٣، حماسة البحتري ١/ ٥٦٥، وأمالي ابن الحاجب ٢/ ٧٤٩، همع الهوامع ١/ ١٠١، ٢/ ١٨، والدرر ١/ ٧٦، والدر المصون ١/ ٣٨٥.

وقال [من الكامل]:

تَــرِدُ الــمِــيَــاهَ فَــلاَ تَــزَالُ تَــدَاوُلاً فِــي الــنَّــاسِ بَــيْــنَ تَــمَــثُّــلٍ وَسَــمَــاعِ[1]

يقال: داولت بينهم الشيء فتداولوه، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعلل محذوفاً معناه: وليتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف، فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها، وقيل: معناه وليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثبات، والثاني أن تكون العلة محذوفة، وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله[2]، وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة، ليسليهم عما جرى عليهم، وليبصرهم أن العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب، ولا يشعر أنّ لله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يبتلي به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اعتراض بين بعض التعليل وبعض، ومعناه: والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله،

---

(١) فــلأهــديــن مــع الــريــاح قــصــيــدة مــنــي مــحــبــرة إلــى الــقــعــقــاع
تــرد الــمــيــاه فــلا تــزال تــداولاً فــي الــنــاس بــيــن تــمــثــل وســمــاع
المحبرة: المحصنة. والقعقاع اسم الممدوح، وهو في الأصل الشيء اليابس الصلب. ترد تلك القصيدة المياه، خصها لكثرة الناس عليها وتغنيهم بالأشعار عندها، أي ترد مواضع المياه فلا تزال متداولة في الناس، أو فلا تزال ذات تداول، أو فلا تزال تتداول تداولاً بين الناس دائرة بين تمثل: أي إنشاد لها بأن يضربها الناس أمثالاً لأحوالهم، وبين استماع لها لحسنها. وروى يرد المياه فلا يزال مداولاً الخ. فذكر ضمير القصيدة لأنها بمعنى الشعر.
البيت لزهير بن علس - ينظر مجمع الأمثال ٢/ ١٤٣، والبحر ٣/ ٦١، والفضليات ص ٢ والدر المصون ٢/ ٢١٦.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولم يُعَيِّنْ فاعلَ العلة المحذوفة، إنما كنى عنه بكيت وكيت، ولا يكنى عن الشيء حتى يعرف، ففي هذا الوجه حذف العلة وحذف عاملها وإبهام فاعلها فالوجه الأول أظهره، إذ ليس في غير حذف العامل» يعني بالوجه الأول أنه قدره: «وليعلم الله فعلنا ذلك» وهو المداولة أو نيل الكفار منكم.
والعلم هنا يجوز أن يتعدى لواحدٍ قالوا: لأنه بمعنى عرف، وهو مشكل لأنه لا يجوز وصف الله تعالى بذلك لما تقدم من أن المعرفة تستدعي جهلاً بالشيء، أو أنها متعلقة بالذوات دون الأحوال، ويجوز أن يكون متعدياً لاثنين، فالثاني محذوف تقديره: وليعلم الذين آمنوا مميّزين بالإيمان من غيرهم. انتهى. الدر المصون

الممحصين من الذنوب، والتمحيص: التطهير والتصفية، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: ويهلكهم. يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص، وغير ذلك مما هو أصلح لهم، وإن كانت على الكافرين، فلمحقهم ومحو آثارهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿أَمْ﴾: منقطعة[1] ومعنى الهمزة فيها الإنكار، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾: بمعنى ولما تجاهدوا، لأنّ العلم متعلق بالمعلوم[2] فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه؛ لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد: ما فيه خير حتى يعلمه، و«لما» بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع فدلّ على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل، وتقول: وعدني أن يفعل كذا، ولما تريد، ولم يفعل، وأنا أتوقع فعله، وقرىء: «ولما يعلمَ اللّهُ» بفتح الميم، وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمَن[3] فحذفها، ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: نصب بإضمار أن والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشربَ اللبن، وقرأ الحسن بالجزم على العطف، وروى عبد الوارث عن أبي عمرو «ويعلم» بالرفع على أنّ الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

---

(١) قوله: «أم منقطعة» هي المفسرة ببل والهمزة. (ع)

(٢) قال محمود: «ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم. . .الخ» قال أحمد: للتعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم خاص بعلم الله تعالى، لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء ما، عدم ذلك الشيء، ضرورة أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه، فاستقام التعبير عن نفي الشيء بنفي تعلق العلم القديم بوجوده المصحح للملازمة، ولا كذلك علم آحاد المخلوقين، فإنه لا يعبر عن نفي شيء بنفي تعلق علم الخلق به، لجواز وجود ذلك الشيء غير معلوم للخلق. والزمخشري يظهر من كلامه صحة هذا التعبير مطلقاً ويعتقد الملازمة المذكورة عامة، فلذلك قال في قول فرعون: (ما علمت لكم من إله غيري) أنه عبر عن نفي المعلوم بنفي العلم، لأنه من لوازمه، وسيأتي بيان أن الزمخشري وهم في هذا الموضع، وإلا فهو يحاشي عن الوقوع في مثله اعتقاداً، والله أعلم. وإنما عبر فرعون بذلك تلبيساً على ملئه وتتميماً لدعوى ألوهيته الكاذبة بأنه لا يعزب عن علمه شيء، فلو كان إله سواه على دعواه لتعلق علمه به وهذا يعد من حماقات فرعون ودعاويه الفارغة، والله الموفق.

(٣) قوله: «ولما يعلمن» لعله أي ولما يعلمن. (ع)

قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا الذي قاله في «لمّا» أنها تدلُّ على توقُّع الفعل المنفيّ بها فيما يستقبل لا أعلم أحداً من النحويين ذكره، بل ذكروا أنك إذا قلت: «لما يخرج زيد» دَلّ ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى متصلاً نفيه إلى وقت الإخبار، أما أنها تدل على توقعه في المستقبل فلا، لكنني وجدت في كلام الفراء شيئاً يقارب ما قاله الزمخشري، قال: «لَمّا» لتعريض الوجود بخلاف «لم». قلت: «والنحويون إنما فرّقوا بينهما من جهة أن المنفيّ بـ«لَمْ» هو فعلٌ غيرُ مقرون بـ«قد» «ولَمّا» نفيٌ له مقروناً بها، وقد تَدُلُّ على التوقع، فيكون كلام الزمخشري صحيحاً من هذه الجهة ويَدُلُّ على ما قلته من كون «لم» لنَفْي فعل، و«لَمّا» لنفي قد فَعَل نصّ النحاة على ذلك: سيبويه فَمَنْ دونَه. انتهى. الدر المصون.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾: خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين[1]، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة، يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدّته وصعوبة مقاساته، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: أي: رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا، وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده. فإن قلت: كيف يجوز تمني الشهادة وفي تمنيها تمني غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء، ولا يخطر بباله أنّ فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقا لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ حين نهض إلى مؤتة وقيل له ردكم الله[2] [من البسيط]:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أو طَعْنَةً بِيَدَي حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تَنفُذُ الأَحْشَاءَ وَالكَبِدَا
حَتَّى يَقُولُوا إذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي: ... أرشَدَكَ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدا[3]

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله فذب عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى

---

(١) قوله: «في الخروج» لعله وكان رأيهم في الخروج. (ع)

(٢) قوله: «وقيل له: ردكم الله» لعله سالمين. (ع)

(٣) لعبد الله بن رواحة حين خرج إلى غزوة مؤتة فقيل له: ردك الله سالماً، وذات فرغ: أي ولسعة الثقب. والفرغ: مصب الماء من الدلو بين العرقي. أو طعنة ذات فرغ: أي ذات سعة. ويطلق الفرغ على الدلو أيضاً. وتقذف الزبد: تمج الدم الذي يعلوه الزبد ـ أي الرغوة ـ لكثرته. وحران: عطشان إلى قتلي. وهو مجاز عن تطلبه إياه. والمجهزة: المدفقة المسرعة التي لا تبقى رمقاً. وتنفذ الأحشاء: أي تنفذ فيها. وإن ضممت التاء وكسرت الفاء، فمعناه تثقبها، والكبد: عطف خاص على عام. والجدث: القبر. والتفت إلى الغسة في قوله: وقد رشد، علي أنه من كلامه، ويجوز أنه من قول الناس، ويحتمل الإخبار والدعاء، ومن غاز: تمييز.

قتله ابن قمئة وهو يرى أنه رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، وقيل: كان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله فانكفئوا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إليّ عباد الله» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله ـ فديناك بآبائنا وأمهاتنا ـ أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين[1] فنزلت، وروي: أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبيا لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر ـ عم أنس بن مالك ـ: يا قوم، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل، وعن بعض المهاجرين: أنه مرّ بأنصاري يتشحط في دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم، (٢٩٨) والمعنى، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

---

٢٩٨ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٥٤)، حديث (٧٩٤٣) من طريق محمد بن الحسين عن أحمد بن المفضل عن أسباط عن السدّي بنحوه.

ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٢) للواقدي، في كتاب المغازي من طريق خالد بن رباح عن الأعرج.

---

(١) قلت: هذا منتزع من عدة أخبار في وقعة أحد. قال موسى بن عقبة في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب. قال: «رمى يومئذٍ رسول الله ﷺ رجل من بني الحارث يقال له عبد الله بن قمئة، ويقال: بل رماه عتبة بن أبي وقاص، وفي الطبراني عن أبي أمامة «أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله بن قمئة بحجر يوم أحد فشجه في وجهه وكسر رباعيته، وقال: «خذها وأنا ابن قمئة، فقال له النبي ﷺ أقمأك الله فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة» وروى الطبري من طريق أسباط عن السدي فذكر قصة أحد. قال: «فأتى ابن قمئة الحارثي أحد بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة. فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في رأسه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل، وجعل يدعوهم إلى عباد الله. إلى عباد الله. وفشا في الناس أن محمداً قتل» الحديث، وفي المغازي لابن إسحاق ومن طريقه الطبري عن الزهري، ومحمد بن محمد بن حبان وعاصم بن عمر، وغيرهم فذكر قصة أحد. قال «ولم يزل مصعب بن عمير يقاتل دونه ومعه لواؤه حتى قتل»، وكان الذي أصابه ابن قمئة وهو يظن أنه النبي ﷺ. فرجع إلى قريش فقال: لقد قتلت محمداً. وعند الواقدي عن ابن أبي سبرة عن خالد بن رباح عن الأعرج قال: «لما صاح الشيطان يوم أحد إن محمداً قد قتل». قال أبو سفيان: أيكم قتل محمداً؟ قال ابن قمئة: أنا. وأما قوله: فلا مهم على هربهم إلى آخره فرواه..... قوله: أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، هو من رواية السدي المتقدمة ولفظه: فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي =

﴿خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾: فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل[1] تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾: الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أنّ خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ، لا للانقلاب عنه. فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوّزاً عند المخاطبين. فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]؟ قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوي البصيرة. ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم، والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره، وقيل: الارتداد، وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإسلامه[2]، ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾: فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضارّ والمنافع، ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: الذين لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه، وسماهم شاكرين، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا. والمعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين: أحدهما: تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خوّض المهالك واقتحم المعارك، والثاني: ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة االعدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له، نهزة للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل.

= فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان. قوله: «وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً ما قتل. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت. الحديث: هو في آخر رواية السدي المذكورة. قوله: وعن بعض المهاجرين أنه مر بأنصاري يتشحط في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل. فقال: «إن كان قد قتل فقد بلغ. فقاتلوا عن دينكم» رواه الطبري من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد «أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط» فذكره في كلام طويل.

(١) قوله: «من بعثة الرسل» لعله الرسول. (ع)

(٢) قوله: «وإسلامه» أي: تركه للعدو. (ع)

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿كِتَٰبًا﴾: مصدر مؤكد، لأن المعنى: كتب الموت كتاباً، ﴿مُّؤَجَّلًا﴾: موقتاً له أجل معلوم لا يتقدّم ولا يتأخر، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد، ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: أي: من ثوابها، ﴿وَسَنَجْزِى﴾: الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد، وقرىء: «يؤته»، و«سيجزي»، بالياء فيهما.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قرىء: «قاتل»، و«قتل» و«قتّل»، بالتشديد، والفاعل «ربيون»، أو ضمير النبي، و﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ حال عنه بمعنى: قتل كائناً معه ربيون، والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأوّل، وعن سعيد بن جبير رحمه الله: ما سمعنا بنبيّ قتل في القتال، والربيون الربانيون، وقرىء بالحركات الثلاث، فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب، وقرىء: «فما وهنوا» بكسر الهاء، والمعنى: فما وهنوا عند قتل النبي، ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾: عن الجهاد بعده، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾: للعدوّ، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم. حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبيّ في طلب الأمان من أبي سفيان، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ﴾: هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين، هضما لها واستقصاراً، والدعاء بالاستغفار منها مقدّما على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدوّ، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة، ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر، وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدّمه، وأنه هو المعتدّ به عنده ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ

﴿كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: إن تستنصحوا اليهود والنصارى وتقبلوا منهم، لأنهم كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه، وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم، ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: إلى دينهم، (٢٩٩) وقيل: هو عامّ في جميع الكفار، وإنّ على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجرّوهم إلى موافقتهم، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: أي: ناصركم، لا تحتاجون معه إلى نصرة أحد وولايته، وقرىء بالنصب على: بل أطيعوا الله مولاكم ﴿سنلقي﴾: قرىء بالنون والياء، والرعب ـ بسكون العين وضمها ـ قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة، وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً، قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن فاهرون[1] ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا. ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾: بسبب إشراكهم، أي: كان السبب في إلقاء الله الرّعب في قلوبهم إشراكهم به، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة. فإن قلت: كان هناك حجة[2] حتى ينزلها[3] الله فيصح لهم الإشراك؟ قلت: لم يعن

---

٢٩٩ ـ أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ٢٧٧) رقم (٨٠٠٠) من طريق أسباط عن السدّي وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٩٥)، رقم (١٦١١، ١٦١٣)، من نفس طريق ابن جرير.

---

(١) قوله: «فاهرون» لعله فارهون. والفاره: الحاذق بالشيء. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «فإن قلت كان هناك حجة» لعله: أكان. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت: كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الاشراك. . .الخ»؟ قال أحمد: إنما يرد هذا السؤال لو أفهم ظاهر اللفظ أن ثم حجة وليس في ظاهره ما يفهم ذلك، ولو كانت الآية كقول القائل: بما أشركوا بالله ما لم ينزل سلطانه، بإضافة السلطان إلى ما أشركوا به، لكان للسائل مقال، ولكان كقول القائل [من الطويل]:

علـى لاحـب لا يـهـتـدى بـمـنـاره ....

فإنه بإضافة المنار إليه يوهم أن فيه مناراً، فيحتاج الناظر إلى حمله على معنى لا منار فيه فيهتدي به، ولو أطلق الشاعر فقال: «على لا حب لا يهتدي فيه بمنار» مثلاً، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم، لأن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنما المراد نفي الحجة ونزولها جيمعاً، كقوله [من السريع]:

.... وَلاَ تَرَى الضَّبُّ بِهَا يَنْجَحِر[1]

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾: وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فلما فشلوا وتنازعوا لم يرعبهم، وقيل: لما رجعوا إلى المدينة قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزلت، وذلك أنّ رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره، واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا ـ كانت الدولة

---

(١) لا تفزع الأرنب أهوالها ... ولا ترى الضب بها ينجحر
لابن أحمر. يقول: لا تخيف الأرنب أهوال تلك الصحراء، أي لا هول فيها حتى يفزعه، فما في البيت كناية عن ذلك، كقوله: ولا ترى الضب فيها يدخل جحره، أي لا ضب فيها ينجحر. و«ينجحر» حال إن كانت ترى بصرية، ومفعول ثان إن كانت علمية. ويجوز أن المعنى: لا أرنب فيها تفزعه أهوالها، كما لا ضب فيها يدخل جحره، فهما منفيان. وهذا أوفق بالمقدم
ينظر: ديوانه ص ٦٧، وأمالي المرتضى: ١/ ٢٢٩، وخزانة الأدب: ١٠/ ١٩٢ والخصائص: ٣/ ١٦٥، ٣٢١.

للمسلمين أو عليهم ـ فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. يحسونهم أي: يقتلونهم قتلا ذريعاً. حتى إذا فشلوا، والفشل: الجبن وضعف الرأي، وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا، وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله ﷺ، فممن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله: ، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾: ونفر أعقابهم ينهبون، وهم الذين أرادوا الدنيا، فكرّ المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير ـ رضي الله عنه ـ، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبوراً وكانت صباً، حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾: لماعلم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يتفضل عليهم بالعفو، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم؛ لأنّ الابتلاء رحمة كما أنّ النصرة رحمة. فإن قلت: أين متعلق، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾: قلت: محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم منعكم نصره، ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: نصب بصرفكم، أو بقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أو بإضمار «اذكر» والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه. يقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض. يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة وقرأ الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «تصعدون»، يعني: في الجبل، وتعضد الأولى قراءة أبي: «إذ تصعدون في الوادي»، وقرأ أبو حيوة: «تصعدون»، بفتح التاء وتشديد العين، من تصعد في السلم، وقرأ الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «تلون»، بواو واحدة وقد ذكرنا وجهها، وقرىء: «يصعدون». «ويلوون» بالياء، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾: كان يقول: «إليّ عباد الله إليّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة»، (٣٠٠) ﴿فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾: في ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أوّلهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى، ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾: عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله، ﴿غَمَّۢا﴾: حين صرفكم عنهم وابتلاكم ﴿بِـ﴾ سبب ﴿غم﴾ أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له، أو غما مضاعفاً، غما بعد غم، وغما متصلاً بغم، من

---

٣٠٠ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٣٠١) حديث (٨٠٤٩) من طريق سعيد عن قتادة: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، ذاكم يوم أحد أصعدوا في الوادي فراراً، ونبيّ الله ـ ﷺ ـ يدعوهم إلى أخراهم «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله».

ـ وذكره السيوطي في الدرّ المنثور (٢/ ١٥٤) وعزاه لعبد بن حميد في تفسيره، ولابن المنذر عن قتادة.

الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾: لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز أن يكون الضمير في، ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾: للرسول، أي: فآساكم في الاغتمام[1]، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما غمه ما نزل بكم، فأثابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتوه لأجله، ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله، ولا على ما أصابكم من غلبة العدو، وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم، وعن أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ: غشينا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه، وما أحد إلا ويميل تحت حجفته، (٣٠١) وعن [الزبير] رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا

---

٣٠١ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٤٢٢) كتاب المغازي: باب ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ حديث (٤٠٦٨)، (٨/ ٧٦) كتاب التفسير: باب «أمنة نعاساً» حديث (٤٥٦٢) والترمذي (٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) كتاب التفسير: باب ومن سورة آل عمران حديث (٣٠٠٨) وأحمد (٤/ ٢٩) وابن حبّان (٧١٨٠) والطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٨٤) رقم (٨٠٧٥، ٨٠٧٦) والطبراني في «الكبير» (٥/ ٩٥ ـ ٩٦) رقم (٤٦٩٩، ٤٧٠٠) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) كلّهم من طريق قتادة عن أنس به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٩) كتاب التفسير: باب ومن سورة آل عمران حديث (٣٠٠٧) وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٥٠٥) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧) والطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤) رقم (٨٠٧٤) والحاكم (٢/ ٢٩٧) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٧٢) وأبو نعيم في «الدلائل» ص(٣٦٧) كلّهم من طريق حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن سعد (٣/ ٥٠٥) والطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٨٣) رقم (٨٠٧٣) من طريق حميد عن أنس والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٥٥) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث الزبير بن العوام.

أخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٩) كتاب التفسير: باب ومن سورة آل عمران حديث (٣٠٠٧) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير به بنحو حديث أنس.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري من رواية قتادة عن أنس به. لكن ليس في آخره «وما أحد إلاّ ويميل تحت جحفته». وهو بتمامه عند الحاكم. وكذا أخرجه الطبري من رواية ثابت عن أنس ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

---

(١) قوله: «فآساكم في الاغتمام» لعله: فأساكم، أي فصار أسوتكم أفاد الصحاح. (ع)

الخوف، فأرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول معتّب بن قشير والنعاس يغشاني: «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» (٣٠٢)، والأمنة: الأمن، وقرىء: «أمنة» بسكون الميم، كأنها المرة من الأمن، و، ﴿نُّعَاسًا﴾: بدل من «أمنة»، ويجوز أن يكون هو المفعول، وأمنة حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رأيت راكباً رجلاً، أو مفعولاً له بمعنى نعستم أمنة، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين، بمعنى ذوي أمنة، أو على أنه جمع آمن، كبار وبررة، ﴿يَغْشَىٰ﴾: قرىء بالياء والتاء ردا على النعاس، أو على الأمنة، ﴿طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾: هم أهل الصدق واليقين، ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾: هم المنافقون، ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم في الهموم والأشجان، فهم في التشاكي والتباث، ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: في حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به، و﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: بدل منه، ويجوز أن يكون المعنى: يظنون بالله ظن الجاهلية، وغير الحق: تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك وظن الجاهلية، كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق: يريد الظن المختص بالملة الجاهلية، ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله، ﴿يَقُولُونَ﴾: لرسول الله ﷺ يسألونه، ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾: معناه هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدو، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾: ولأوليائه المؤمنين وهو النصر والغلبة ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: معناه: يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من شيء سؤال المؤمنين المسترشدين وهم فيما يبطنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم إن الأمر كله لله، ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: أي: لو كان الأمر كما قال محمد: إن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون، لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في

---

٣٠٢ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٢٠)، رقم (١٦٩٧).
ـ والطبري في تفسيره (٧/ ٣٢٣)، رقم (٨٠٩٤).
ـ وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٦٨).
ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٧٣).
كلّهم من طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه بن إسحاق في المغازي حدّثني يحيى بن عبّاد بن عبيد الله بن الزّبير عن أبيه عن عبيد الله بن الزّبير عن أبيه به. أخرجه إسحاق والبزّار والطبري وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي. كلّهم من طريقه. انتهى.

هذه المعركة، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: يعني من علم الله منه أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم، ﴿لَبَرَزَ﴾: من بينكم، ﴿الَّذِينَ﴾: علم الله أنهم يقتلون، ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾: وهي مصارعهم ليكون ما علم الله أنه يكون، والمعنى أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون، لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة، وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة، وقيل: معناه هل لنا من التدبير من شيء، يعنون لم نملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأي عبد الله بن أبيّ وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة، قل: إن التدبير كله لله، يريد أن الله عز وجل قد دبر الأمر كما جرى، ولو أقمتم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم، وقرىء: «كتب عليهم القتال». «وكتب عليهم القتل»، على البناء للفاعل، ولبرّز، بالتشديد وضم الباء، ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾: وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان. فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمة وللابتلاء والتمحيص. فإن قلت: كيف مواقع الجمل التي بعد قوله وطائفة؟ قلت: ، ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾: صفة لطائفة و﴿يَظُنُّونَ﴾: صفة أخرى أو حال بمعنى: قد أهمتهم أنفسهم ظانين. أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها، و﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من يظنون. فإن قلت: كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلاً من الإخبار بالظن؟(1) قلت: كانت مسألتهم صادرة عن الظنّ، فلذلك جاز إبداله منه، ويخفون حال من يقولون، و﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] اعتراض بين الحال وذوي الحال، و﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من، ﴿يُخْفُونَ﴾: والأجود أن يكون استئنافاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر. . .الخ»؟ قال أحمد: ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ الآية فإن هذا السؤال استفهام، والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصدق ونقيضه، ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني في قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها. فأجرى استفهامهم مجرى الخبر لاستلزامه الإخبار بأن هذا النوع الإنساني ليس بمعصوم عن الفساد وسفك الدماء، إلا من عصمه الله تعالى منهم، والله أعلم.

﴿ٱسۡتَزَلَّهُمُ﴾: طلب منهم الزلل ودعاهم إليه، ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾: من ذنوبهم ومعناه: إنّ الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوباً، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا، وقيل: استزلال الشيطان إياهم هو التولي، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم، لأنّ الذنب يجرّ إلى الذنب، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها، وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة، وقيل: ، ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾: هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. فجرّهم ذلك إلى الهزيمة (٣٠٣) وقيل: ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية. فإن قلت: لم قيل: ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾: ؟ قلت: هو كقوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍۚ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۚ﴾: لتوبتهم واعتذارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب، ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجل بالعقوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ (١٥٨)﴾

﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾: أي: لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] ومعنى الأخوّة: اتفاق الجنس أو النسب، ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾: جمع غاز، كعاف وعفى، كقوله: عفى الحياض أجون[1]، وقرىء بتخفيف الزاي على حذف التاء من غزاة. فإن قلت: كيف قيل: ، ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾: مع، ﴿قَالُواْ﴾: ؟ قلت: هو على حكاية الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض فإن قلت: ما متعلق «ليجعل»؟ قلت: «قالوا»، أي: «قالوا» ذلك واعتقدوه ليكون، ﴿حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾: على أنّ اللام مثلها في

---

٣٠٣ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٢٤)، رقم (١٧١٢) من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قول الله ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ...﴾ يعني حين تركوا المركز وعصوا أمر رسول الله ـ ﷺ ـ حين قال للرماة يوم أحد: «لا تبرحوا مكانكم» فترك بعضهم المركز.

---

(١) قوله: «وعفى كقوله: عفى الحياض أجون» في الصحاح: العفي ـ جمع عاف ـ وهو الدارس. والآجن: الماء المتغير الطعم واللون. وأجن الماء يأجن ويأجن أجناً وأجوناً اهـ. وجمع الآجن على أجون، كالراكع على ركوع، والشاهد على شهود. (ع)

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] أو لا تكونوا، بمعنى: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده، ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلت: معناه أنّ الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم، ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عز وجل كقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دلّ عليه النهى، أي: لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، لأنّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادّتهم مما يغمهم ويغيظهم ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم. أي: الأمر بيده، قد يحيي المسافر والغازي، ويميت المقيم والقاعد كما يشاء، وعن خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ أنه قال عند موته: مافيّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أناذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء، (٣٠٤) ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فلا تكونوا مثلهم، وقرئ بالياء، يعني الذين كفروا، ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾: جواب القسم، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط، وكذلك، ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: كذب الكافرين أوّلاً في زعمهم أن من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان في المدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: ولئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله، فإنّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خير من طلاع الأرض ذهبة[1] حمراء، وقرىء بالياء، أي: يجمع الكفار، ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة، المثيب العظيم الثواب تحشرون ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي. قرىء: «متم» بضم الميم وكسرها، من مات يموت ومات يمات.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

---

٣٠٤ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٣) للواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، وقال: راجع البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٢٦).

---

(١) قوله: «خير من طلاع الأرض ذهبة» في الصحاح: طلاع الأرض: ملؤها. والذهبة. القطعة من الذهب. (ع)

«ما» مزيدة للتوكيد والدلالة على أنّ لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله ونحوه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم حتى أثابهم غما بغم وآساهم بالمباثة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾: جافياً، ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾: قاسيه، ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾: لتفرّقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾: فيما يختص بك، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: يعني في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطييب نفوسهم والرفع من أقدارهم، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده، (٣٠٥) وعن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم» (٣٠٦) وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول ﷺ، (٣٠٧) وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا

---

٣٠٥ ـ أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٢) رقم (١٧٤٥) من طريق ابن شبرمة عن الحسن به.

٣٠٦ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٤): غريب، ولم أجده إلاّ من قول الحسن، ولم يروه الطبري إلاّ من قول الحسن، وقد ذكره المصنّف في سورة الشورى، من قول الحسن.
قلت: وأما قول الحسن فقد أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٣٤٤) رقم (٨١٣٠) من طريق إياس بن دغفل عن الحسن به، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أعاده في تفسير سورة الشورى عن الحسن قوله وهو المحفوظ. ومن طريقه أخرجه الطبري. انتهى.

٣٠٧ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٤): هكذا وجدته في عدة نسخ وصوابه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ـ ﷺ ـ.
ـ أخرجه ابن حبّان في صحيحه (١١/ ٢١٦)، رقم (٤٨٧٢)، من طريق عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ولفظه «خرج رسول الله ـ ﷺ ـ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه. . . الحديث بطوله. وهو حديث الفتح.
وأخرجه عبد الرزاق في مصنّفه (٥/ ٣٣٠) رقم (٩٧٢٠).
ـ وأحمد (٤/ ٣٢٨).
وأشار إليه الترمذي (٤/ ٢١٣ ـ ٢١٤)، رقم (١٧١٤).
ـ والبيهقي في المعرفة (٧/ ٣٥٨) رقم (٥٨٦٢)، كتاب أدب القاضي، من طريق ابن عيينة عن الزهري.
وقد قال عنه الزيلعي: كأنّ فيه انقطاعاً بين الزهري وأبي هريرة.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: هذا فيه تحريف. والصّواب من رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه، كذلك أخرجه الشافعي عن ابن عيينة عن الزهري عنه وهو منقطع وهو مختصر من الحديث الطويل في قصة الحديبية وغزوة الفتح، أخرجه ابن حبّان من رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن المسور ومروان. وفيه قال الزهري: وكان أبو هريرة يقول. فذكره. وكذا أخرجه عبد الرزاق في مصنّفه وعند أحمد وإسحاق. وقد أشار إليه الترمذي في آخر الجهاد فقال: ويُروى عن أبي هريرة فذكره. انتهى.

في الأمر شق عليهم فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم، وقرىء: «وشاورهم في بعض الأمر»، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح، فإن ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله، لا أنت ولا من تشاور، وقرىء: «فإذا عزمت» بضم التاء، بمعنى فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل عليّ ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾: كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾: كما خذلكم يوم أحد، ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾: فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه، ونحوه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعد خذلانه. أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان؛ تريد إذا جاوزته، وقرأ عبيد بن عمير: «وإن يخذلكم»، من أخذله إذا جعله مخذولاً، وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه. يقال: غلّ شيئاً من المغنم غلولاً وأغلّ إغلالاً: إذا أخذه في خفية. يقال: أغلّ الجازر، إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد، والغل: الحقد الكامن في الصدر، ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه» (٣٠٨)

---

٣٠٨ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٥): غريب.
ـ قلت: أخرجه الطبري (٧/ ٣٥٩) رقم (٨١٥٩)، من طريق أبي حميد الساعديّ.
ـ وقد أخرج ابن ماجه هذا الحديث بمعناه (١/ ٥٧٩) حديث (١٨١٠) كتاب الزكاة، باب: ما جاء في عُمّال الصدقة، من طريق عبد الله بن أنيس.
أخرجه البخاري (١٣/ ٣٧٠)، حديث (٦٦٣٦).
كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ـ ﷺ ـ؟ من طريق عروة عن أبي حميد الساعديّ «أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ استعمل عاملاً فجاءه العامل حين فرغ من عمله. الحديث: وفيه، فوالذي نفس محمد بيده لا يعمل أحدكم شيئاً إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه» قلت: ولفظ ابن ماجه أقرب إلى حديث المصنّف.
ـ ومسلم (٦/ ٤٥٩) رقم (٢٦) ـ (١٨٣٢) من نفس طريق البخاري. =

وقوله ﷺ: «هدايا الولاة غلول» (٣٠٩) وعنه: «ليس على المستعير غير المغل ضمان»

= - والبيهقي (١٠/١٣٨)، كتاب آداب القاضي، باب: لا يقبل منه هدية.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن أنيس. أنّه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوماً الصّدقة فقال عمر «ألم تسمع رسول الله - ﷺ - حين ذكر غلول الصّدقة: أنه من غلّ بعيراً أو شاة أتى به يوم القيامة فقال له عبد الله بن أنيس: بلى» وفي الصّحيحين عن أبي حميد الساعديّ «أنّ رسول الله - ﷺ - استعمل عاملاً فجاءه العامل حين فرغ من عمله. الحديث: وفيه، فوالذي نفس محمد بيده لا يعمل أحدكم شيئاً إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه. انتهى.

٣٠٩ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٣٦): غريب بلفظ الولاة والحديث رُوي من حديث أبي حميد، وأبي هريرة، وجابر وابن عباس.

● أما حديث أبي حميد:

فرواه أحمد (٥/٤٢٤) بلفظ (هدايا العمّال غلول) والبزّار (٢/٢٣٦)، حديث (١٥٩٩)، كتاب الإمارة، باب: في هدايا الأمراء، وابن عديّ (١/١٧٣).

والبيهقي مرفوعاً (١٠/١٣٨)، كتاب آداب القاضي، باب: لا يقبل منه هدية.

وذكره الهيثمي في المجمع (٤/١٥٤)، باب: هدايا الأمراء.

وكذا ابن حجر في التلخيص (٤/٣٤٨)، حديث (٢٥٨٩)، وقال: إسناده ضعيف. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٣٦): إن ابن عديّ عدّه من منكرات إسماعيل بن عياش، وابن عياش ضعيف في روايته عن الحجازين.

● وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه الطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (٤/٩٤) رقم (٢١٥١).

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٣٦) لابن عديّ في الكامل.

● وأما حديث جابر:

فأخرجه البزّار (٢/٢٣٧)، حديث (١٦٠٠)، وقال: قال البزّار: لا نعلمه عن جابر إلاّ بهذا الإسناد.

- وابن عبد البر في التمهيد (٢/١٠).

- وأبو نعيم في الحلية (٧/١١٠).

- وعبد الرزاق في مصنّفه (٨/١٤٧) حديث (١٤٦٦٥)، باب: الهدية للأمراء والذي يشفع عنده.

وذكره الهيثمي في المجمع (٤/١٥٤)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٣٧) لإسحاق بن راهويه في مسنده، من طريق أبي نضرة عن جابر.

● وأما حديث ابن عباس:

فعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٣٧) لابن الجوزي في كتاب التحقيق، من طريق يحيى بن نعيم عن ابن عباس، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: رواه أحمد، والبزّار، والطبراني من حديث أبي حميد السّاعديّ بلفظ «هدايا العمّال» وهو من رواية إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن عروة عنه. قال البزّار: أخطأ فيه إسماعيل سنداً ومتناً. وإنما أراد حديث الزهري عن عروة، عن أبي حميد باللفظ الماضي. وكذا عدّه ابن عديّ في منكرات إسماعيل بن =

(٣١٠) وعنه: «لا إغلال ولا إسلال» (٣١١) ويقال: أغله إذا وجده غالا، كقولك: أبخلته وأفحمته[1] ومعنى، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾: وما صحّ له ذلك، يعني أن النبوة تنافي الغلول، وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأوّل، لأن معناه: وما صح له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالا إلا إذا كان غالاً، وفيه وجهان: أحدهما: أن يبرأ

= عياش. وقال عبد الرزاق: حدّثنا سفيان الثوري عن أبان عن أبي عياش عن أبي نصيرة عن جابر بلفظ: «الهدايا للأمراء غلول» رواه إسحاق أخبرنا وكيع حدّثنا سفيان عمّن حدّثه عن أبي نضرة به. قال البزّار: أبان متروك. ثم ساقه من رواية قيس بن الربيع عن ليث بن أبي سليم. عن عطاء عن جابر به. وأخرجه ابن عديّ في ترجمة أحمد بن معاوية الباهلي من روايته عن النضر بن شميل عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. وقال: هذا حديث باطل، وذكر الطبراني في الأوسط، أنّ أحمد بن معاوية تفرّد به. انتهى.

٣١٠ ـ أخرجه البيهقي (٦/ ٩١) كتاب: العارية، باب: من قال لا يغرم من حديث أيوب، وقتادة وحبيب ويونس عن ابن سيرين أنّ شريحاً قال: ليس على المستودع غير المغل ضمان ولا على المستعير غير المغل ضمان قال البيهقي: هذا هو المحفوظ عن شريح القاضي، ورواه عمرو بن عبد الجبار عن عبيدة بن حسان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبي ـ ﷺ ـ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه وزاد «وليس على المستودع غير المغل ضمان» قال البيهقي: هذا ضعيف والمحفوظ أنه قول شريح. انتهى.

٣١١ ـ رُوي من حديث المسور ومروان، ومن حديث عمرو بن عوف، ومن حديث سلمة بن الأكوع.
فأما حديث مسور ومروان.
فأخرجه أبو داود (٣/ ٨٦)، رقم (٢٧٦٦)، كتاب الجهاد، باب: في صلح العدو، بلفظ «أنهم اصطلحوا على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأحمد (٤/ ٣٢٣).
وأما حديث عمرو بن عوف: فرواه الدارمي في مسنده (٢/ ٢٣١) باب: في الغال إذا جاء بما غلّ به.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٨) لابن عديّ في كامله، وقال: إن ابن عديّ أغلظ القول في كثير بن عبد الله، نقلاً عن النّسائي وأحمد وابن معين.
وأما حديث سلمة، فقد عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٨) لإبراهيم الحربي في كتاب غريب الحديث، ولابن زنجويه في كتاب الأموال وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود وأحمد من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان في حديث. ورواه الدارمي والطبراني وابن عديّ من رواية كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه رفعه «لا نهب ولا إسلال ولا إغلال ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة» ورواه ابن زنجويه في الأموال، وإبراهيم الحربي في الغريب من رواية موسى بن عبيدة عن أبان بن سلمة عن أبيه. وموسى ضعيف. انتهى.

---

(١) قوله: «كقولك أبخلته وأفحمته» في الصحاح: أفحمته: أي وجدته مفحماً لا يقول الشعر. (ع)

رسول الله ﷺ[1] من ذلك وينزه وينبه على عصمته بأن النبوّة والغلول متنافيان؟ لئلا يظن به ظانّ شيئاً منه وألا يستريب به أحد، كما روى: أنّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر. فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها، (٣١٢) وروي: أنها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم ألاّ تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم» (٣١٣) والثاني أن يكون مبالغة في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي: أنه بعث طلائع فغنمت غنائم فقسمها ولم يقسم للطلائع، (٣١٤) فنزلت.

---

٣١٢ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٤٨)، رقم (٣٠٠٩)، كتاب التفسير، باب: ومن سورة آل عمران.
وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقد روى عبد السّلام بن حرب عن خصيف نحو هذا، وروى بعضهم هذا الحديث عن خصيف عن مقسم، ولم يذكر فيه عن ابن عباس.
ـ والطبراني في الكبير (١١/ ٣٦٤) رقم (١٢٠٢٨، ١٢٠٢٩) من طريق عكرمة عن ابن عباس موقوفاً.
ـ وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٦٠) رقم (٣٢٤) ـ (٢٦٥١) بنحوه.
ـ والطبري في تفسيره (٧/ ٣٤٨)، رقم (٨١٣٦، ٨١٣٨، ٨١٣٩، ٨١٤٠).
ـ وابن أبي حاتم (٢٠/ ٦٣٧)، رقم (١٧٦٠).
كلهم من طرقٍ مختلفة عن ابن عباس.
وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٩): إن ابن عديّ في الكامل أعلّ هذا الحديث بخصيف، وضعّفه ابن معين، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي من حديث خصيف عن مقسم عن ابن عباس بلفظ: فقال بعض الناس، وقال حسن. قال: ورُوي عن مقسم ولم يذكر ابن عباس ورواه الطبراني وأبو يعلى وابن عديّ والطبري والواحدي كلّهم من هذا الوجه. وأعلّه ابن عديّ بخصيف. انتهى.
٣١٣ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٣٩) للثعلبي، وللواحدي في أسباب النزول، من طريق الكلبي ومقاتل، قال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي والواحدي في أسبابه عن الكلبي ومقاتل قال «نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز» إلخ. انتهى.
٣١٤ ـ ذكره الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٤٠) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير الطبري =

---

(١) قال محمود: «فيه توجيهان: أحدهما: أن يكون ذلك تنزيهاً لرسول الله ﷺ. . .الخ» قال أحمد رحمه الله: حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي في أمثال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، إلى غير ذلك، على أن الزمخشري حاف في العبارة إذ يقول: عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً وتقبيحاً وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، فإن عادة لطف الله تعالى برسوله ﷺ في التأديب أن يكون ممزوجاً بغاية التخفيف والتعطف. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ قال بعض العلماء: بدأه بالعفو قبل العتب. ولو لم يبدأه بالعفو لا نفطر قلبه ﷺ.

يعني: وما كان لنبيّ أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية، وسمى حرمان بعض الغزاة «غلولا» تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر، ولو قرىء: «أن يغل» من أغل بمعنى غل، لجاز، ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: يأت بالشيء الذي غله بعينه يحمله كما جاء في الحديث: «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»[(١)] (٣١٥) وروي: «ألا لا أعرفنّ أحدكم يأتي[(٢)] ببعير له رغاء، وببقرة لها خوار، وبشاة لها ثغاء، فينادي يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك» (٣١٦) وعن بعض جفاة العرب أنه سرق نافجة مسك، فتليت عليه الآية فقال: إذاً أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل، ويجوز أن يراد يأتي بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه فإن قلت: هلا قيل: ثم يوفى ما كسب، ليتصل به؟ قلت: جيء بعامّ دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت، لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيراً أو شراً مجزي فموفى جزاءه،

= والواحدي في أسباب النزول. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة. حدّثنا وكيع حدّثنا سلمة بن نبيط. عن الضحّاك، فذكره به وأتمّ منه. وأخرجه الطبري والواحدي في أسبابه. انتهى.

٣١٥ ـ تقدم برقم (٣٠٨).

٣١٦ ـ أخرجه البزّار (١/ ٤٢٦ ـ كشف) رقم (٩٠٠) وأبو يعلى كما في تخريج الكشاف (١/ ٢٤١) كلاهما من طريق يعقوب بن عبد الله القمي ثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب به.

وقال البزّار: لا نعلمه عن عمر إلاّ بهذا الإسناد وحفص لا نعلم روى عنه إلاّ القمي.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٨٨).

وقال: رواه أبو يعلى في «الكبير» والبزّار ورجال الجميع ثقات. ا.هـ.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٢٤١): هذا حديث حسن الإسناد إلاّ أن حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي، قيل: قيل روى عنه أيضاً أشعث بن إسحاق.

وقال فيه ابن معين: صالح، ووثّقه النّسائي وابن حبّان.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: رواه علي بن المديني في العلل وأبو يعلى والطبري من رواية حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بهذا في حديث طويل، وأصله في الصّحيحين عن أبي زرعة بن عمر بن جرير عن أبي هريرة بلفظ «ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء... الحديث». انتهى.

---

(١) قوله: «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»: لعل صدره: من غل شيئاً. (ع)

(٢) قوله: «وروى: ألا لا أعرفن أحدكم يأتي، قوله: «لا أعرفن» بلفظ المنفي المؤكد بالنون، ومعناه النهي. أي لا يغل أحدكم فأعرفه. اهـ قسطلاني. (ع)

علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: أي: يعدل بينهم في الجزاء، كلٌ جزاؤه على قدر كسبه.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾: أي: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات كقوله [من الوافر]:

أَنَصْبٌ لِلْمَنِيَّةِ تَعْتَرِيهِمْ ... رِجَالِي أَمْ هُمُ دَرَجُ السُّيُولِ؟![1]

وقيل: ذوو درجات والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون بمبعثه، ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: من جنسهم عربياً مثلهم، وقيل: من ولد إسماعيل كما أنه من ولده، فإن قلت: مما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم؟ قلت: إذا كان منهم كان اللسان واحداً، فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وفي قراءة رسول الله ﷺ وقراءة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ: من «أَنْفَسِهم»، أي: من أشرفهم. لأن عدنان ذروة ولد إسماعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف ذروة مضر، ومدركة ذروة خندف، وقريش ذروة مدركة، وذروة قريش محمد ﷺ، وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر ـ: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضئضىء، معدّ وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به

---

(١) أنشده سيبويه عن ابن هدمة، والهمزة للاستفهام، وهو من تجاهل العارف للتعجب والتحزن. والنصب: الغرض المنصوب يرمي إليه بالسهام، وهو كفلس أوفق بالوزن ويجوز أن أصله كعنق فسكن للوزن، أو ككتب فسكن كذلك. وهذا أوفق بالمعنى. وقد قيل بكل منها. وشبه رجاله به تشبيهاً بليغاً من حيث تتابع إصابة كل بالمكروه. وتعتريهم: جملة حالية. ودرج السيول: محلات انحدارها، شبههم بها لانمحاق كل شيئاً فشيئاً.
ينظر: ديوانه ص ١٨١، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٣٠٧، وخزانة الأدب: ١/ ٤٢٤، وشرح أبيات سيبويه: ١/ ٢٨٤، والكتاب: ١/ ٤١٥، ٤١٦، ولسان العرب: (درج).

فتى من قريش إلا رجح به، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقرىء: «لمن منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم»، وفيه وجهان: أن يراد لمن منّ الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم، فحذف لقيام الدلالة، أو يكون «إذ» في محل الرفع كـ «إذا» في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى لمن منّ الله على المؤمنين وقت بعثه، ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِهِۦ﴾: بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويطهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملابسة المحرمات وسائر الخبائث، وقيل: ويأخذ منهم الزكاة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: القرآن والسنة بعدما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾: من قبل بعثة الرسول، ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾: إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإنّ الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال، ﴿مُّبِينٍ﴾: ظاهر لا شبهة فيه.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: يريد: ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم، ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾: يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين، و﴿لَمَّا﴾ نصب بقلتم، و ﴿أَصَٰبَتْكُم﴾: في محل الجرّ بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليه وتقديره: أقلتم حين أصابتكم، و﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾: نصب لأنه مقول، والهمزة للتقرير والتقريع. فإن قلت: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾: ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا، «أنى هذا»: من أين هذا. كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:٣٧] لقوله: ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾: وقوله: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1]: والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم؛ لاختياركم الخروج من المدينة، أو

---

(١) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ بأن الظرف إذا وقع خبراً ألا يقدّر داخلاً عليه حرف جر غير «في»، أما أن يقدّر داخلاً عليه «من» فلا، لإنه إنما انتصب على إسقاط «في» ولذلك إذا أضمر الظرف تعدّى إليه بـ«في» إلاّ أن يتّسع فيه. قال: فتقديره غير سائغٍ واستدلاله بقوله: «مِنْ عند =

لتخليتكم المركز، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيب بكم تارة ويصيب منكم أخرى، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾: يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين ﴿فَـ﴾ ـهو كائن، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي: بتخليته، استعار الإذن لتخليته الكفار، وأنه لم يمنعهم منهم ليبتليهم، لأنّ الآذن مخل بين المأذون له ومراده، ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾: وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾: من جملة الصلة عطف على نافقوا، وإنما لم يقل: فقالوا؛ لأنه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال، كأنه قيل: فماذا قالوا لهم. فقيل: قالوا: لو نعلم، ويجوز أن تقتصر الصلة على، ﴿نَافَقُوا۟﴾: ويكون، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾: كلاما مبتدأ قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون، وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الآخرة[1] دفعاً عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم[2] وذلك ما روى أن عبد الله بن أبيّ انخذل مع حلفائه، فقيل له، فقال ذلك، وقيل: ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾: العدوّ بتكثيركم سواد المجاهدين وإن لم تقاتلوا لأنّ كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه، وعن سهل بن سعد الساعدي ـ وقد كف بصره ـ: لو أمكنني لبعت داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم. قيل: وكيف وقد ذهب بصرك؟ قال لقوله: ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾: أراد: كثروا سوادهم، ووجه آخر وهو أن يكون معنى قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً، ﴿لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾: يعنون أن ما أنتم فيه لخطإ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال، إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأنّ رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج، ﴿هُمْ

= أنفسكم» «من عند الله» وقوفٌ مع مطابقة السؤال للجواب في اللفظ وذهول عن هذه القاعدة».
واختار الشيخ أنّ «أنّى» بمعنى «كيف» قال: «وأنّى سؤالٌ عن الحال هنا، ولا تناسب أن تكون بمعنى «أين» أو «متى»، لأن الاستفهام لم يقع عن مكان ولا زمان هنا، إنما وقع عن الحال التي اقتضت لهم ذلك، سألوا عنها على سبيل التعجب، وجاء الجواب من حيث المعنى لا من حيث اللفظ في قوله: «قل هو من عند أنفسكم». قال: والسؤال بـ«أنّى» سؤالٌ عن تعيين كيفية حصول هذا الأمر، والجواب بقوله: «من عند أنفسكم» يتضمن تعيين الكيفية، لأنه بتعيين السبب تتعيَّن الكيفية من حيث المعنى، لو قيل على سبيل التعجب: كيف لا يحج زيد الصالح!! فقيل في جوابه: «لعدم استطاعته» لحصل الجواب وانتظم من المعنى أنه لا يحجُّ وهو غير مستطيع انتهى.
أما قوله: «لا يقدّر الظرف بحرف جرٍّ غير «في» فالزمخشري لم يقدّر «في» مع «أنّى» حتى يلزمه ما قال، إنما جعل «أنّى» بمنزلة «من أين» في المعنى. وأمّا عدوله عن الجواب المطابق لفظاً فالعكس أولى. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «غم الآخرة» لعله هم الآخرة. (ع)
(٢) قوله: «ودغلهم» في الصحاح: الدغل ـ بالتحريك ـ الفساد، مثل الدخل. (ع)

﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: يعني أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر، وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأنّ تقليلهم سواد المسلمين بالانخذال تقوية للمشركين، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾: لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم، وأنّ إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم، خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: من النفاق، وبما يجري بعضهم مع بعض من ذمّ المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك، لأنكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملاً بأمارات، وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته، ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾: في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذمّ، أو على الردّ على الذين نافقوا، أو رفعاً على هم الذين قالوا، أو على الإبدال من واو يكتمون، ويجوز أن يكون مجروراً بدلاً من الضمير في «بأفواههم» أو «قلوبهم»، كقوله [من الطويل]:

.... عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالمَاءِ حَاتِمُ[1]

﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار، ﴿وَقَعَدُوا﴾: أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال: لو أطاعنا إخواننا

---

(١)
فلما تصافنا الإداوة أجهشت ... إلى غضون العنبري الجراضم
فجاء بجلمود له مثل رأسه ... ليشرب ماء القوم بين الصرائم
على حالة لو أن في القوم حاتماً ... على جوده لضن بالماء حاتم

للفرزدق، يعتذر عما وقع منه في السفر مع دليله عاصم العنبري حين ضل الطريق. والتصافن: اقتسام الماء القليل بالصفن، وهو وعاء صغير لنحو الوضوء. والإداوة: ظرف الماء، وجمعها أداوى. وإيقاع التصافن عليها مجاز عقلي لأنها محل الماء الذي اقتسموه. وأقرب منه أنها مجاز مرسل عما فيها والجهش والإجهاش: تضرع الإنسان إلى غيره وتهيئته للبكاء إليه كالصبي إلى أمه، وغضون الجلد: مكاسره ويروى: عيون. وإسناد الاجهاش إليها مجاز عقلي، لأنها محل ظهور أثره. والجراضم: واسع البطن كثير الأكل. والمراد بالجلمود: إناء صلب كبير مثل رأسه، أي العنبري. وفيه إشارة إلى حمقه، لأن إفراط الرأس في العظم أمارة البلادة. وفي الصلابة أيضاً إشارة إلى ذلك، ليشرب: أي ليأخذ ماء القوم بين الصرائم، جمع صريمة وهي منقطع الرمل، أو قطيع من الإبل إشارة إلى أنهم كانوا بمفازة لا ماء بها على حالة ضنكة، لو ثبت في تلك الحالة أن حاتماً في القوم مع جوده المشهور لبخل بالماء. «وعلى» بمعنى «في» ويؤيده رواية المبرد في كامله: «على ساعة» وحاتم ـ بالجر ـ بدل من ضمير جوده. وفيه تنويه بذكر الاسم وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج.
ينظر: ديوانه ٢/٢٩٧، ولسان العرب: (حتم) والمقاصد النحوية، ٤/١٨٦، وشرح شذور الذهب ص ٣١٧، وشرح المفصل: ٣/٦٩، واللمع ص ١٧٤، ٢٦٦.

فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾: معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني أن ذلك الدفع غير مغن عنكم، لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت، لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة، ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها، وروي: أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً. فإن قلت: فقد كانوا صادقين في أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم[1] بالقعود، فما معنى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:؟ قلت: معناه أن النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأن أسباب النجاة كثيرة، وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يدريكم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون في مقالتكم؟ وما أنكرتم أن يكون السبب غيره، ووجه آخر: إن كنتم صادقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا، يعني أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين، وقوله: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت، فادرءوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، وقرىء بالياء على: ولا يحسبنّ

---

(١) قال محمود: «إن قلت فقد كانوا صادقين في أنهم دفعوا. . .الخ» قال أحمد: السؤال المذكور إنما يرد على معتزلي من مثله، فإنهم يعتقدون أن الموت قد يكون بحلول الأجل، وقد يكون قبله، وأن المقتول لولا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك، فلا جرم أن الإنسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل بتوقي الأسباب الموجبة لذلك، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور. وأما أهل السنة فمعتقدهم أن كل ميت بأجله يموت، ويقولون: إن الخارجين إلى القتال في المعركة لم يكن بد من موتهم في ذلك الوقت، وأن ذلك الحين هو وقت حينهم في علم الله عز وجل، إيماناً بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وخلافاً للمنافقين وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم: لو أطاعونا ما ماتوا. ولعمري إنهم في هذا المعتقد مقلدون النمروذ في قوله: أنا أحيي وأميت، فإن الأحمق ظن أنه يقتل إن شاء فيكون ذلك إماتة، ويعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وغاب عنه أن الذي عفا عن قتله إنما حيي لاستيفاء الأجل الذي كتبه الله له، وأن الذي قتله إنما مات لأنه استوفى تلك الساعة أجله، والله الموفق.

رسول الله ﷺ، أو ولا يحسبنّ حاسب، ويجوز أن يكون، ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾: فاعلاً، ويكون التقدير: ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي: ولا يحسبنّ الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً. فإن قلت: كيف جاز حذف المفعول الأوّل؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ، فحذف كما حذف المبتدأ في قوله، ﴿أَحْيَآءٌ﴾: والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما، وقرىء: «ولا تحسبنّ» بفتح السين، «وقتّلوا» بالتشديد. «وأحياء» بالنصب على معنى: بل احسبهم أحياء، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: مقرّبون عنده ذوو زلفى، كقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِنـدَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿يُرْزَقُونَ﴾: مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله، ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم، من كونهم أحياء مقرّبين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها، وعن النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر تدور في أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش» ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِـ﴾ ـإخوانهم المجاهدين، ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾: أي: لم يقتلوا فيلحقوا (٣١٧) بهم، ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم، وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: بدل من «الذين»، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة. بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به، وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة، والجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم، وإحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله، وبشرى للمؤمنين بالفوز في

---

٣١٧ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ١٥) حديث (٢٥٢٠) كتاب الجهاد، باب: فضل الشهادة. . .
ـ والحاكم (٢/ ٨٨)، كتاب الجهاد، (٢/ ٢٩٧) كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
ـ وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٢١٩)، حديث (٢٣٣١).
ـ وأحمد (١/ ٢٦٥).
والبيهقي (٩/ ١٦٣)، كتاب السير، باب: فضل الشهادة في سبيل الله عزّ وجلّ والطبري في تفسيره (٧/ ٣٨٤)، حديث (٨٢٠٥).
كلّهم من طرق عن ابن عباس.
ـ ويشهد له حديث ابن مسعود عند مسلم (٧/ ٣٧) كتاب الإمارة باب: بيان أنّ أرواح الشهداء في الجنّة، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود وابن أبي شيبة والحاكم وأبو يعلى والبزّار كلّهم من حديث ابن عباس به وأتمّ منه. قال الدارقطني تفرّد به محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية، وأصله في مسلم من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، بلفظ: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش تمرح في الجنّة حيث شاءت ـ الحديث».

المآب، وكرّر ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: من ذكر النعمة والفضل، وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع وقرىء «وأن الله» بالفتح عطفاً على النعمة والفضل، وبالكسر على الابتداء وعلى أنّ الجملة اعتراض، وهي قراءة الكسائي، وتعضدها قراءة عبد الله. «والله لا يضيع».

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾: مبتدأ خبره، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح. روي: أنّ أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوّة، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال: لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا، فنزلت، (٣١٨) و «من» في، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾: للتبيين مثلها في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩] لأنّ الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم، وعن عروة بن الزبير: قالت لي عائشة ـ رضي الله عنها ـ «إن أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول» تعني أبا بكر والزبير، (٣١٩) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾: روي أنّ أبا

---

٣١٨ ـ أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١٤)، من حديث يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن شيوخه.
ـ وابن إسحاق (١١٨٨ ـ سيرة ابن هشام) في ذكر غزوة حمراء الأسد من طريق عبد الله بن أبي بكر عن معبد بن أبي معبد الخزاعي.
ـ والطبري في تفسيره (٧/ ٤٠٦) رقم (٨٢٤٣)، من نفس الطريق السابق، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن شيوخه ومن طريقه البيهقي في الدلائل فذكره مطوّلاً.

٣١٩ ـ أخرجه البخاري (٨/ ١٢٤) رقم (٤٠٧٧)، كتاب المغازي باب: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.
ـ ومسلم (٨/ ٢٠٣)، رقم ٥١ ـ (٢٤١٨)، كتاب فضائل الصّحابة باب: من فضائل طلحة والزبير.
الاثنان من طريق هشام بن عروة عن أبيه.

=

سفيان نادى عند انصرافه من أحد. يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال النبي ﷺ: إن شاء الله؛ فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل «مر الظهران». فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً فقال: يا نعيم، إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي. أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريداً، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، فوالله لا يفلت منكم أحد، (٣٢٠) وقيل: مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم، فكره المسلمون الخروج. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد»، فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» ـ وقيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين ألقي في النار ـ حتى وافوا بدراً وأقاموا بها ثماني ليال، وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق. قالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق. فالناس الأوّلون: المثبطون، والآخرون: أبو سفيان وأصحابه. (٣٢١) فإن قلت: كيف قيل: ﴿ٱلنَّاسِ﴾: إن

= ووهم الحاكم في مستدركه، فقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: متفق عليه ووهم الحاكم فاستدركه. انتهى.

٣٢٠ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٤٥) للثعلبي من قول مجاهد وعكرمة.
وهذا الحديث جزء من الحديث الذي أورده ابن سعد في الطبقات (٢/ ٤٥) في غزوة رسول الله ـ ﷺ ـ بدر الموعد، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي عن مجاهد وعكرمة وسنده إليهما في أوّل كتابه، وروى ابن سعد في الطبقات بعضه. انتهى.

٣٢١ ـ ذكره ابن سعد في الطبقات (٢/ ٤٥) في غزوة رسول الله ـ ﷺ ـ بدر الموعد، بنقص يسير.
ـ وأخرج البخاري (٩/ ٩٦) رقم (٤٥٦٣) كتاب التفسير، باب: الذين قال لهم الناس... من طريق أبي الضحى عن ابن عباس، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ـ ﷺ ـ حين ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ...﴾ الآية.
ووهم الحاكم فرواه (٢/ ٢٩٨)، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن سعد من طريق ابن إسحاق. وموسى بن عقبة وغيرهما. وأخرجه الواقدي في المغازي. قال حدّثني الضحّاك بن عثمان وعبد الله بن جعفر ومحمد بن عبد الله بن مسلم وابن أبي حبيب وغيرهم. قالوا «لما أراد أبو سفيان أن ينصرف من أحد» فذكره مطوّلاً. قوله: وقيل: هي الكلمة التي قال إبراهيم حين ألقي في النار. رواه البخاري من طريق أبي الضحى عن ابن عباس. انتهى.

كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلت: قيل ذلك لأنه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد. أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويثبطون مثل تثبيطه. فإن قلت: إلام يرجع المستكن في، ﴿فَزَادَهُمْ﴾:؟ قلت: إلى المقول الذي هو، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾: كأنه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً، أو إلى مصدر قالوا، كقولك: من صدق كان خيراً له. أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده. فإن قلت: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيماناً؟ قلت: لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الإسلام ـ كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج؛ ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان؛ لأنّ الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل، وعن ابن عمر: قلنا: يا رسول الله، إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (٣٢٢) وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزدد إيماناً، (٣٢٣) وعنه: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمّة لرجح به. (٣٢٤) ﴿حَسْبُنَا

---

٣٢٢ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٤٨) للثعلبي من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية علي بن عبد العزيز عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن مالك عن نافع عنه. انتهى.

٣٢٣ ـ أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٦٩ ـ ٧٠) رقم (٣٧) وابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٠٨) كلاهما من طريق محمد بن طلحة عن زبيد عن ذر عن عمر بن الخطاب به.

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٤٨) للثعلبي من طريق ابن أبي شيبة. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان من رواية رزين عن عبد الله عنه. ورجاله ثقات إلاّ أنه منقطع. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي والبيهقي في الشعب. انتهى.

٣٢٤ ـ أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٥/ ٢٦٠) والديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٥١٨٨) من طريق عيسى بن عبد الله بسنده إلى ابن عمر مرفوعاً.

وقال السّخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٣٤٩): وفي سنده عيسى بن عبد الله بن سليمان وهو ضعيف لكنه لم ينفرد به فقد أخرجه ابن عديّ أيضاً من طريق غيره بلفظ: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» ا. هـ.

والحديث الذي أشار إليه السّخاوي قد أخرجه ابن عديّ في «كامله» (٤/ ٢٠١).

وقد ورد هذا الحديث موقوفاً على عمر.

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٦٩) رقم (٣٦) من طريق ابن المبارك عن ابن شوذب عن محمد بن جحادة عن سلمة بن كهيل عن هذيل بن شرحبيل عن عمر موقوفاً.

وقال الدارقطني في «العلل» (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤) ـ هذا حديث يرويه عبد الله بن شوذب واختلف عنه فرواه ابن المبارك وأيوب بن سويد الرملي عن ابن شوذب عن محمد بن جحادة عن سلمة بن كهيل عن هذيل بن شرحبيل عن عمر وخالفهما رواد بن الجراح فرواه عن ابن شوذب عن محمد بن =

﴿ٱللَّهُ﴾: محسبنا، أي: كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛ لأنّ إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة، ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: ونعم الموكول إليه هو، ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾: فرجعوا من بدر، ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: وهي السلامة وحذر العدوّ منهم ﴿وفضل﴾ وهو الربح في التجارة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ [البقرة: ١٩٨].، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾: لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدوّ، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾: بجرأتهم وخروجهم، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾: قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء، وروي أنهم قالوا: هل يكون هذا غزوا، فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: خبر «ذلكم»، بمعنى: إنما ذلكم المثبط هو الشيطان، و«يخوّف أولياءه» جملة مستأنفة بيان لشيطنته. أو الشيطان صفة لاسم الإشارة، ويخوف الخبر، والمراد بالشيطان نعيم، أو أبو سفيان، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، بمعنى: إنما ذلكم قول الشيطان، أي: قول إبليس لعنه الله، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾: يخوّفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه، وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: «يخوفكم أولياءه»، وقوله: «فلا تخافوهم»، وقيل: يخوّف أولياءه القاعدين عن الخروج مع رسول الله ﷺ. فإن قلت: فإلام رجع الضمير في، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: على هذا التفسير؟ قلت: إلى الناس

= جحادة عن طلحة بن مصرف عن هذيل عن عمر، وخالفهم ضمرة بن ربيعة رواه عن ابن شوذب عن ابن جحادة عن سلمة عن عمرو بن شرحبيل ولم يقل عن هذيل ووهم وأصحها قول ابن المبارك ومن تابعه ا.هـ. والحديث موقوفاً ذكره السّخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٣٤٩) وعزاه لإسحاق بن راهويه والبيهقي في «الشعب» وابن المبارك في «الزهد» ومعاذ بن المثنّى في زيادات «مسند مسدد».

وصحّح السّخاوي سنده.

وذكره البدر الزركشي في «التذكرة» ص(١٧١) وقال: قيل إنّه من كلام عمر بن الخطاب.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده من رواية هذيل بن شرحبيل عن عمر وإسناده صحيح ورُوي مرفوعاً أخرجه ابن عديّ من رواية عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ رفعه «لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها» في إسناده عيسى بن عبد الله بن سليمان وهو ضعيف. قلت: لم ينفرد به بل تابعه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد بلفظ «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» أخرجه ابن عديّ أيضاً. وحديث عمر الموقوف أخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد. ومعاذ بن المثنّى في زيادات مسند مسدّد. انتهى.

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فتقعدوا عن القتال وتجبنوا، ﴿وَخَافُونِ﴾: فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: يعني أنّ الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾: يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشدّ رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين، وقيل: هم قوم ارتدّوا عن الإسلام. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾:؟ ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتدّ؟ قلت: معناه لا يحزنوك لخوف أن يضرّوك ويعينوا عليك. ألا ترى إلى قوله، ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: يعني أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: نصيباً من الثواب، ﴿وَلَهُمْ﴾: بدل الثواب، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: وذلك أبلغ ما ضرّ به الإنسان نفسه. فإن قلت: هلا قيل: لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة، وأيّ فائدة في ذكر الإرادة؟ قلت: فائدته الإشعار بأنّ الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر؛ تنبيهاً على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه، حتى إنّ أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: إمّا أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم، وإمّا أن يكون عاماً للكفار، والأوّل خاصاً فيمن نافق من المتخلفين. أو ارتدّ عن الإسلام أو على العكس، و﴿شَيْـًٔا﴾: نصب على المصدر؛ لأن المعنى: شيئاً من الضرر وبعض الضرر، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: فيمن قرأ بالتاء نصب و﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾: بدل منه: أي: ولا تحسبنّ أنّ ما نملي للكافرين خير لهم، و «أن» مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]، و«ما» مصدرية، بمعنى: ولا تحسبنّ أنّ إملاءنا خير، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف. فإن قلت: كيف صحّ مجيء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟

قلت: صحّ ذلك من حيث إنّ التعويل على البدل والمبدل منه في حكم المنحى، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض، مع امتناع سكوتك على متاعك، ويجوز أن يقدّر مضاف محذوف على: ولا تحسبنّ الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم. أو ولا تحسبنّ حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وهو فيمن قرأ بالياء رفع، والفعل متعلق بأن وما في حيزه، والإملاء لهم: تخليتهم وشأنهم، مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء، وقيل: هو إمهالهم وإطالة عمرهم، والمعنى: ولا تحسبنّ أن الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع آجالهم، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾: «ما» هذه حقها أن تكتب متصلة، لأنها كافة دون الأولى، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها، كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم، فقيل: «إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً». فإن قلت: كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملائه[1] لهم؟ قلت: هو علة للإملاء، وما كل علة بغرض. ألا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء منها بغرض لك، وإنما هي علل وأسباب، فكذلك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسبباً فيه. فإن قلت: كيف يكون ازدياد الإثم علة للإملاء كما كان العجز علة للقعود عن الحرب؟ قلت: لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنهم مزدادون إثماً، فكأن الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز، وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية، «ولا يحسبنّ» بالياء، على معنى: ولا يحسبنّ الذين كفروا أن إملاءنا لازدياد الإثم كما يفعلون، وإنما هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان، وقوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾: اعتراض بين الفعل ومعموله، ومعناه: أن إملاءنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم بتفسيح المدّة وترك المعاجلة بالعقوبة. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: على هذه القراءة؟ قلت: معناه: ولا تحسبوا أن إملاءنا لزيادة الإثم وللتعذيب، والواو للحال، كأنه قيل: ليزداودا إثماً معداً لهم عذاب مهين.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

---

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملائه لهم...الخ»؟ قال أحمد: بنى الزمخشري هذا الجواز على شفا جرف هار فانهار، لأن معتقده أن الاثم الواقع منهم ليس مراداً لله تعالى بل هو واقع على خلاف الإرادة الربانية، فلما وردت الآية مشعرة بأن ازدياد الإثم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل، أخذ يعمل الحيلة في وجه من التعطيل التزاماً لاتمام الفاسد وضرباً في حديد بارد، فجعل ازدياد الإثم سبباً وليس بغرض.

اللام لتأكيد النفي، ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾: من اختلاط المؤمنين الخلص والمنافقين، ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: حتى يعزل المنافق عن المخلص، وقرىء: «يميز». من ميز، وفي رواية عن ابن كثير: «يميز»، من أماز بمعنى ميز. فإن قلت: لمن الخطاب في، ﴿أَنتُمْ﴾؟ قلت: للمصدّقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها ـ من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً ـ حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾: يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأنّ في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة اطلاعه على المغيبات، ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب، بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخلص الذين امتحن الله قلوبهم. كبذل الأرواح في الجهاد، وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم، حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله به، وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: فيخبره ببعض المغيبات ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن تقدروه حق قدره، وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبين، لا يعلمون إلا ما علمهم الله، ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب، وليسوا من علم الغيب في شيء، وعن السدي: قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت. (٣٢٥)

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

---

٣٢٥ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦) رقم (٨٢٧٣) من طريق أسباط عن السدّي بلفظ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ قالوا: «إن كان محمد صادقاً، فليخبرنا بمن يؤمن بالله ومن يكفر»!! فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ . . .﴾ الآية، حتى يخرج المؤمن من الكافر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: من قرأ بالتاء قدّر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذلك من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد، ومن جعل فاعله «الذين يبخلون» كان المفعول الأوّل عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسبن «الذين يبخلون» بخلهم، ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: والذي سوغ حذفه دلالة، ﴿يَبْخَلُونَ﴾: عليه، وهو فصل، وقرأ الأعمش بغير «هو»، ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: تفسير لقوله: ﴿هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق، وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة، إذا جاء بهنة يسب به ويذم، وقيل: يجعل ما بخل من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة، تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك، وعن النبي ﷺ في مانع الزكاة: «يطوق بشجاع أقرع» (٣٢٦) وروي «بشجاع أسود» وعن النخعي: سيطوقون بطوق من نار، (٣٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: وله ما فيها مما يتوارثه أهلها من مال

---

٣٢٦ ـ أخرجه مالك (١/٢٥٦ ـ ٢٥٧)، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الكنز.
والبخاري (٤/١١) حديث (١٤٠٣)، كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة...
ـ والنّسائي (٥/٣٩) رقم (٢٤٨٢)، كتاب الزكاة، باب: مانع زكاة ماله.
ـ وأحمد (٢/٢٧٩، ٣١٦، ٣٥٥).
ـ وأبو يعلى في مسنده (١١/٢٠٦) رقم (٤٧٩) ـ (٦٣١٩).
وللحديث شواهد كثيرة، منها:
ما جاء من طريق جابر:
ـ أخرجه مسلم (٤/٧٤ ـ ٧٥) حديث (٢٧ ـ (٩٨٨) ـ ٢٨) كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة.
وما جاء من طريق ابن عمر.
ـ أخرجه النّسائي (٥/٣٨، ٣٩) كتاب الزكاة، باب: مانع زكاة ماله.
وما جاء من طريق ابن مسعود.
ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٢)، حديث (٣٠١٢)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران.
قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
ـ وابن ماجه (١/٥٦٨، ٥٦٩) حديث (١٧٨٤)، كتاب الزكاة، باب ما جاء في منع الزكاة.
ـ وأحمد (١/٣٧٧).
ـ وابن خزيمة (٤/١١، ١٢).
ـ والحاكم (٢/٢٩٨، ٢٩٩) كتاب التفسير، ورواية الحاكم صحّحها وأقرّها الذهبي.
ـ والطبراني في الكبير (٩/٢٦١، ٢٦٢)، رقم (٩١٢٢، ٩١٢٦).
ـ وعبد الرزاق في تفسيره (١/١٤١).
ـ وسعيد بن منصور في تفسيره (٣/١١٢٩، ١١٣٠)، رقم (٥٤٩).
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة رفعه «من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثّل ماله بشجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة». انتهى.
٣٢٧ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/٤٣٩) رقم (٨٢٩٦) وابن أبي شيبة (٣/٢١٢) وسعيد بن منصور (٥٥١) وسفيان الثوري في «تفسيره» (ص٨٢) رقم (١٧٠) وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ =

وغيره فمالهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله، ونحوه قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وقرىء «بما تعملون» بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد والياء على الظاهر.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فلا يخلو إمّا أن يقولوه عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن متمردين في كفرهم، ومعنى سماع الله له: أنه لم يخف عليه، وأنه أعدّله كفاءه من العقاب، ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾: في صحائف الحفظة. أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب. فإن قلت: كيف قال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾: ثم قال، ﴿سَنَكْتُبُ﴾: وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ قلت: ذكر وجود السماع أوّلاً مؤكداً بالقسم ثم قال: «سنكتب» على جهة الوعيد بمعنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيذاناً بأنهما في العظم أخوان، وبأن هذا ليس بأوّل ما ركبوه من العظائم، وأنهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول، وروي: أن رسول الله ﷺ كتب مع أبي بكر - رضي الله عنه - إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إنّ الله فقير حين سألنا القرض فلطمه أبو بكر في وجهه وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله، فنزلت، (٣٢٨) ونحوه قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: [المائدة: ٦٤]، ﴿وَنَقُولُ﴾: لهم ﴿ذُوقُواْ﴾ وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: ذوقوا، ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: كما أذقتم المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحس، وذق، وقال

= ١٤١(كلّهم من طريق منصور عن إبراهيم النّخعي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٩٥) وزاد نسبته لابن المنذر.

٣٢٨ ـ ذكره ابن هشام في سيرته (٢/ ٢٠١، ٢٠٢) رقم (٦٤١) من قول ابن إسحاق ولم يجاوزوه.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٥٠): لابن أبي حاتم في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق، وللثعلبي والواحدي في أسباب النزول من قول عكرمة والسدّي ومقاتل وابن إسحاق، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق، حدّثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس فذكره مطوّلاً. انتهى.

أبو سفيان لحمزة[1] ـ رضي الله عنه ـ: ذق عقق (٣٢٩) وقرأ حمزة: «سيكتب»، بالياء على البناء للمفعول، «ويقول» بالياء، وقرأ الحسن والأعرج: «سيكتب» بالياء وتسمية الفاعل، وقرأ ابن مسعود: «ويقال ذوقوا»، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدّم من عقابهم وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بهنّ، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب. فإن قلت: فلم عطف قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: على ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب؟ قلت: معنى كونه غير ظلام للعبيد أنه عادل عليهم ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾: أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قربانا تنزل نار من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آيتهم، كان يقرب بالقربان، فيقوم النبي فيدعو، فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله، لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات، وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤهم بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق، وجاءوهم ـ أيضاً ـ بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلوهم إن كانوا صادقين أن الإيمان يلزمهم بإتيانها. وقرىء «بقربان» بضمتين، ونظيره السلطان. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾: ؟ قلت: معناه، وبمعنى الذي قلتموه من قولكم: قربان تأكله النار، ومؤدّاه كقوله: ﴿ثُمَّ

---

٣٢٩ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٥١): للدارقطني في المؤتلف والمختلف في ترجمة الحليس، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ذكره ابن إسحاق في المغازي قال: وكان الجليس بن زياد الكناني سيد الأحابيش مرّ بأبي سفيان وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول «ذق عقق»، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الدارقطني في المؤتلف. انتهى.

---

(١) قوله: «لحمزة رضي الله عنه: ذق عقق» في الصحاح: عاق وعقق، مثل عامر وعمر. وذق عقق: أي ذق جزاء فعلك يا عاق. (ع)

يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣] أي: لمعنى ما قالوا. في مصاحف أهل الشام: وبالزبر، وهي الصحف، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: التوراة والإنجيل والزبور، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتكذيب اليهود.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

وقرأ اليزيدي «ذائقة الموت» على الأصل، وقرأ الأعمش «ذائقة الموتَ» بطرح التنوين مع النصب كقوله [من المتقارب]:

.... وَلاَ ذَاكِـرَ الـلَّـهَ إلاَّ قَـلِـيـلا[1]

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾؟ قلت: اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بدّ لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور. فإن قلت: فهذا يوهم نفي ما يروى أن «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» (٣٣٠). قلت: كلمة التوفية تزيل هذا

---

٣٣٠ ـ أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠) كتاب صفة القيامة حديث (٢٤٦٠).
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وهو ضعيف. ورواه الطبراني في الأوسط =

(١) فـذكـرتـه ثـم عـاتـبـتـه عـتـابـاً رقـيـقـاً وقـولاً جـمـيـلاَ
فـألـفـيـتـه غـيـر مـسـتـعـتـب ولا ذاكـر الله إلا قـلـيـلاَ
لأبي الأسود الدؤلي، كان يجلس إلى فناء امرأة جميلة بالبصرة فقالت له: هل لك أن أتزوج بك؟ فإني حميدة الخصال وكيت وكيت. فقال: نعم وتزوجها من أهلها، فوجدها بضد ما قالت، فعاتبها وخاطب أهلها بشعر منه ذلك، ثم طلقها أمامهم. وكنى بضمير المذكر عنها استحياء أي فذكرتها بما قالت وعاتبتها على ما فعلت عتاباً حسناً، فوجدتها غير قابلة مني عتاباً. ولفظ الجلالة نصب بـ «ذاكر»، وحذف تنوينه مع أنه غير مضاف تشبيهاً بحذف نون التوكيد الخفيفة لملاقاة الساكن. أو بتنوين العلم الموصوف بابن مضافاًإلى علم. وذاكر: عطف على مستعتب. و«لا» زائدة لتوكيد النفي، ولم يضف ذاكر إلى الله ليتمحض للتنكير كالذي قبله، وليكون أبلغ في النفي، لأن الإضافة قد تفيد أن شأنه الذكر، فيتوهم أن النفي هو الشأنية لا أصل الذكر.
ينظر: ديوانه (١٢٣)، الكتاب: ١/ ١٦٩، ابن يعيش: ٩/ ٣٤، الإنصاف: (٢/ ٦٥٩)، رصف المباني (٤٩)، ابن الشجري: ١/ ٣٨٣، مجالس ثعلب (١٢٣)، شواهد المغني (٩٣٣)، معاني الفراء (٢/ ٢٠٢)، المقتضب: ١/ ١٥٧، الخصائص: ١/ ٣١١، الخزانة: ١١/ ٣٧٤.

الوهم، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها[1] يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور. الزحزحة: التنحية والإبعاد تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة، ﴿فَقَدْ فَازَ﴾: فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب، وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» (٣٣١) وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغرّ حتى يشتريه ثم يتبين له فساده ورداءته، والشيطان هو المدلس الغرور، وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ، خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لايرهقهم ما يرهق من يصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف

= في ترجمة مسعود بن محمد الرملي بإسناده إلى أبي هريرة وقال: لم يروه عن الأوزاعي إلا أيوب بن سويد. تفرّد به ولده محمد عنه. قلت: وهو ضعيف. انتهى.

٣٣١ ـ أخرجه مسلم (٦/ ٤٧٣) رقم (٤٦ ـ (١٨٤٤))، كتاب الإمارة باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأوّل فالأوّل.
ـ وأحمد (٢/ ١٩٢).
ـ والبيهقي (٨/ ١٦٩) كتاب قتال أهل البغي، باب: ما جاء في قتال أهل البغي والخوارج.
كلّهم من طريق عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث طويل. انتهى.

---

(١) قال محمود: «لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون. . .الخ» قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم وعذاب. ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به، والله الموفق.

والمصائب، وفي الأموال: الإنفاق في سبل الخير وما يقع فيها من الآفات، وما يسمعون من أهل الكتاب[1] المطاعن في الدين الحنيف، وصدّ من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف من هجائه لرسول الله ﷺ وتحريض المشركين، ومن فنحاص، ومن بني قريظة والنضير، ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾: فإن الصبر والتقوى، ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون، يعني أنّ ذلك عزمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾: الضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه وقيل له: آلله لتفعلنّ، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: فنبذوا الميثاق وتأكيده عليهم، يعني لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه، والنبذ وراء الظهر مثل في الطرح وترك الاعتداد، ونقيضه جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه، وكفى به دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطييب لنفوسهم، واستجلاب لمسارّهم أو لجرّ منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة أو لبخل بالعلم، وغيرة أن ينسب إليه غيرهم، وعن النبي ﷺ: (٣٣٢) «من كتم

---

٣٣٢ ـ أخرجه أبو داود ٢/ ٣٤٥ في العلم، باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨)، والترمذي (٥/ ٢٩) في العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩)، وابن ماجه (١/ ٩٦) في المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦١)، وأحمد في المسند (١/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥) وابن أبي شيبة في المصنّف (٩/ ٥٥)، والطيالسي (٢٥٣٤)، وأبو يعلى (١١/ ٢٦٨) برقم (٦٣٨٣) وابن حبّان (٩٥ ـ موارد). والقضاعي في مسند الشهاب (٤٣٢) من طريقين ـ حمّاد بن سلمة، وعمارة بن راذان وعن عليّ بن الحكم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: حديث حسن. وقال العقيلي في الضعفاء (١/ ٧٤)، إسناده صالح.

وقال الذهبي في الكبائر (ص١٢٢): إسناده صحيح. رواه عطاء بن أبي هريرة.

وقال الحافظ في القول المسدد (ص٤٥) بعدما أورد الحديث من طريق أبي داود: والحديث وإن لم يكن في نهاية الصّحة لكنه صالح للحجّة.

وأخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦، ٤٩٩، ٥٠٨)، وابن أبي شيبة (١٩/ ٥٥)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٦٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٤، ١٣٥) من طريق الحجّاج بن أرطأة عن عطاء به. =

---

(١) قوله: «وما يسمعون من أهل الكتاب» بقي ما يسمعون من الذين أشركوا. (ع)

علماً عن أهله ألجم بلجام من نار» وعن طاوس أنه قال لوهب: إني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب، وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أنّ الله سيعذبك، وعن محمد بن كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه[1] ولا يحل لجاهل

= وأخرجه الحاكم (١٠١/١) من طريق القاسم بن محمد بن حماد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن ثور عن ابن جريج قال: جاء الأعمش إلى عطاء فسأله عن حديث فحدّثه. فقلنا له: تحدّث هذا وهو عراقي؟ قال: لأني سمعت أبا هريرة يحدّث عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من سئل. . .» فذكره.

وقال الحاكم: هذا حديث تداوله النّاس بأسانيد كثيرة تجمع ويذاكر بها. وهذا الإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي. وتعقّبه العراقي كما في شرح الإحياء رقم (٥٦) بقوله: لا يصح من هذا الطريق، لضعف القاسم بن محمد بن حمّاد الدلال الكوفي. قال الدارقطني حدّثنا عنه وهو ضعيف. فلهذا لم أخرجه من هذا الوجه. قال الدارقطني في الجزء السّابع من الأفراد: وإنما يعرف هذا من حديث علي بن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من رواية علي بن الحكم البناني عن عطاء عن أبي هريرة بلفظ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار» أخرجه أبو داود من رواية حمّاد بن سلمة. والآخران من رواية عمارة بن راذان كلاهما عن علي، ورجال أبي داود ثقات. لكن له علّة. رواه عبد الوارث عن عليّ بن الحكم عن رجل عن عطاء. ويقال: إنّ هذا المبهم حجّاج بن أرطأة. وفي رواية ابن ماجه التصريح بسماع علي بن عطاء. لكن عمارة ضعيف. ولحديث أبي هريرة طريق أخرى حسّنها ابن القطّان فذكره من رواية قاسم بن أصبغ عن أبي الأحوص وهو العكبري عن ابن السري عن معتمر عن أبيه عن عطاء به، وابن أبي السري له أوهام، وكأنّه دخل عليه حديث في حديث. ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن الشعبي عن عطاء به، وجابر ضعيف، وله طرق كثيرة عن أبي هريرة أوردها ابن الجوزي في العلل المتناهية. وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه ابن حبّان في صحيحه، والحاكم من طريق ابن وهب عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن أبي عبد الرحمن الحبلي عنه، وعن ابن عباس أخرجه الطبراني والعقيلي وفيه معمر بن زائدة قال العقيلي: لا يتابع عليه.

وله طريق أخرى قاله أبو يعلى: حدّثنا زهير حدّثنا يونس بن محمد حدّثنا أبو عوانة عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وأخرجه ابن الجوزي من طريقين آخرين وضعّفهما. وعن أنس، رواه ابن ماجه من طريق يوسف بن إبراهيم سمعت أنساً به وأخرجه ابن الجوزي من طريقين آخرين وضعّفهما أيضاً. وعن ابن مسعود وطلق بن علي كلاهما في الطبراني. وعن جابر وعائشة كلاهما عند العقيلي. وعن ابن عمر عند ابن عديّ. وعن أبي سعيد الخدري عن أبي يعلى أسانيدها كلّها ضعيفة. وعن عمرو بن عبسة أخرجه ابن الجوزي بلفظ «فقد بريء من الإسلام» وإسناده ضعيف أيضاً. قال الإمام أحمد: لا يصح في هذا الباب شيء. (تنبيه) ليس في شيء من طرقه «عن أهله». انتهى.

(١) قوله: «على علمه» لعل بعده سقطا تقديره «حتى يعلم».

أن يسكت على جهله حتى يسأل، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا، (٣٣٣) وقرىء: «ليبيننُه»، ولا «يكتمونه». بالياء لأنهم غيب، وبالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ [الإسراء: ٤].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: خطاب لرسول الله ﷺ، وأحد المفعولين، ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾: والثاني، ﴿بِمَفَازَةٍ﴾: وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾: تأكيد تقديره: لا تحسبنهم، فلا تحسبنهم فائزين، وقرىء: «لا تحسبنّ». «فلا تحسبنهم»، بضم الباء على خطاب المؤمنين «ولا يحسبن». فلا «يحسبنهم»، بالياء وفتح الباء فيهما، على أنّ الفعل للرسول، وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأوّل وضمها في الثاني، على أن الفعل للذين يفرحون، والمفعول الأوّل محذوف على: لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، وفلا يحسبنهم، تأكيد، ومعنى ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾: بما فعلوا، وأتى وجاء، يستعملان بمعنى فعل قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾: [مريم: ٦١]، ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، ويدل عليه قراءة أبيّ: «يفرحون بما فعلوا»، وقرىء: «آتوا»، بمعنى أعطوا، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: «بما أوتوا»، ومعنى، ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: بمنجاة منه. روي: أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا فأطلع الله رسوله على ذلك وسلّاه بما أنزل من وعيدهم: (٣٣٤) أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا ـ

---

٣٣٣ ـ ذكره الديلمي في الفردوس (٤/ ٣٧٥)، رقم (٦٦١٨)، عن علي مرفوعاً: «ما أخذ الله ميثاق الجاهل أن يتعلم، حتى أخذ ميثاق العالم أن يعلّمه».

ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٥٨/١) للثعلبي في تفسيره من طريق الحارث بن أبي أسامة، ولابن عبد البر في كتاب العلم من غير سند. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

رواه الحارث بن أبي أسامة أخبرنا عبد الوهاب الخفافي حدّثنا الحسن بن عمارة حدّثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الجزّار: سمعت عليّاً يقول فذكره والحسن متروك، ومن طريق الحارث رواه الثعلبي ورويناه في جزء الذراع قال: كتب الحارث بن أسامة فذكره، وذكره ابن عبد البر في العلم. قال: ويُروى عن عليّ. وذكره صاحب الفردوس عن علي. فكأنه وقف عليه مرفوعاً. انتهى.

٣٣٤ ـ أخرجه البخاري (١٠٢/٩) رقم (٤٥٦٨) كتاب التفسير، باب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾.

=

من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ـ ناجين من العذاب، ومعنى ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا﴾: بما أوتوه من علم التوراة، وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله ﷺ، ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا أن إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه، وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة في التخلف، واستحمدوا إليه بترك الخروج، وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر، ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب، ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فهو يملك أمرهم، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو يقدر على عقابهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته، ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، وفي النصائح الصغار: املأ عينيك من زينة هذه

= ـ ومسلم (٩/١٣٦)، رقم ٨ ـ (٢٧٧٨)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.
ـ والترمذي (٥/٢٣٣)، رقم (٣٠١٤)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران. وقال: «حديث حسن صحيح غريب».
ـ وأحمد (١/٢٩٨).
ـ والطبري في تفسيره (٧/ ٤٧٠)، رقم (٨٣٤٩).
ـ والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٦٤)، رقم (١٠٧٣٠).
ـ والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٩)، وصحّحه وأقرّه الذهبي.
ـ كلّهم من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن مروان بن الحكم قال الحافظ:
متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن أن مروان قال لبوابه: يا رافع اذهب إلى ابن عباس فقل له: لئن كان امرؤ منّا فرح بما أوتي وحمد بما لم يفعل عذب لنعذبنّ جميعاً. فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب: أتاه اليهود فسألهم النبي ـ ﷺ ـ عن شيء فكتموه. . . الحديث». انتهى.

الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدّرها، متدبراً حكمة مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: قلت لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال: يا عائشة، هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت: يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب هواك، قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت. فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً. ثم قال: وما لي لا أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» وروي: «ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمّلها» (٣٣٥) وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنّ النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يتسوّك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: (٣٣٦) وحكي: أنّ الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة، فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله، فقالت له أمّه: لعلّ فرطة فرطت منك في مدّتك؟ فقال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرّة إلى السماء ولم تعتبر؟ قال: لعلّ. قالت: فما أُتيت إلا من ذاك، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾: ذكراً دائباً على أي حال كانوا، من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون

---

٣٣٥ ـ أخرجه ابن حبّان في صحيحه (٢/٣٨٦)، حديث (٦٢٠)، كتاب الرقائق، باب: التوبة، من طريق عطاء وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير.

ـ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٤٩)، حديث (٢١٦٧).

ـ وعزاه الزيلعي لابن الجوزي في كتاب الوفاء، وللثعلبي، وعبد بن حميد وابن مردويه كلّهم من طريق أبي جناب الكلبي عن عطاء بن أبي رباح. وقال: ولم يذكروا كلّهم الرواية الثانية «ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّلها»؛ وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: رواه ابن مردويه في تفسيره سورة الروم من رواية أبي جناب. عن عطاء عن عائشة قالت: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ويح لمن دكها بين لحييه ثم لم يتفكر فيها» انتهى.

٣٣٦ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٦١) للثعلبي من طريق محمد بن عليّ بن أبي طالب عن عليّ.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: رواه الثعلبي من طريق حمّاد عن حجّاج عن حبيب بن أبي ثابت عن محمد بن عليّ بن أبي طالب عن عليّ وأصله في المتفق عليه من حديث ابن عباس. انتهى.

بالذكر في أغلب أحوالهم، وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة: أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾: فقاموا يذكرون الله على أقدامهم، وعن النبي ﷺ: «من أحبَّ أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله» (٣٣٧) وقيل: معناه يصلون في هذه الأحوال على حسب استطاعتهم. قال رسول الله ﷺ لعمران بن الحصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب، تومىء إيماء» (٣٣٨) وهذه حجة للشافعي ـ رحمه الله ـ في إضجاع المريض على جنبه كما في اللحد، وعند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه يستلقي حتى إذا وجد خفة قعد، ومحل ﴿عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾: نصب على الحال عطفاً على ما قبله، كأنه قيل قياماً وقعوداً ومضطجعين، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام وإبداع صنعتها وما دبر فيها مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم[1] شأن الصانع وكبرياء سلطانه، وعن سفيان الثوري أنه صلى خلف المقام

---

٣٣٧ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٨)، حديث (٢٩٤٥٧) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٧)، حديث (٣٢٦).
كلاهما من طريق معاذ بن جبل.
ـ وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٨)، وقال رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٦٢) للثعلبي في تفسيره في سورة العنكبوت، ولإسحاق بن راهويه في مسنده، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والطبراني من حديث معاذ وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف، وأخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت، وابن مردويه في تفسير الواقعة. انتهى.

٣٣٨ ـ أخرجه البخاري (٢/ ٦٨٠): كتاب تقصير الصلاة باب صلاة القاعد، حديث (١١١٥)، و(٢/ ٦٨٣) باب صلاة القاعد بالإيماء، حديث (١١١٦)، و(٢/ ٦٨٤): باب إذا لم يُطِقْ قاعداً صلّى على جنبٍ وأبو داود (١/ ٣١٤): كتاب الصلاة: باب في صلاة القاعد، حديث (٩٥١)، والنّسائي (٣/ ٣٢٣): كتاب قيام الليل وتطوّع النّهار: باب فضل صلاة القائم على صلاة القاعد، وابن ماجه (١/ ٣٨٨): كتاب إقامة الصّلاة والسّنّة فيها: باب صلاة القاعد على النّصف من صلاة القائم، حديث (١٢٣١)، وأحمد في «مسنده»: (٤/ ٤٣٣ ـ ٤٣٥ ـ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)، وابن خزيمة (٢/ ٢٣٥) حديث (١٢٣٦)، و(٢/ ٢٤١) حديث (١٢٤٩).
ـ والترمذي (٢/ ٢٠٧)، حديث (٣٧١)، كتاب أبواب الصّلاة باب: ما جاء في صلاة القاعد على النّصف من صلاة القائم.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري وأصحاب السنن، من حديث عمران بن حصين. قال «كانت في بواسير ـ فذكر الحديث» وليس في آخره يوميء إيماء. وأورده صاحب الهداية ـ كما أورده الزمخشري. انتهى.

---

(١) قوله: «على عظم» لعله من عظم... إلخ، فيكون بياناً لما يدل عليه. (ع)

ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشي عليه، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته، وعن النبيّ ﷺ: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أنّ لك رباً وخالقاً، اللهمّ اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له» (٣٣٩) وقال النبي ﷺ: «لا عبادة كالتفكر» (٣٤٠) وقيل: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة، وروي عن النبي ﷺ: «لا تفضلوني علىٰ يونس بن متى فإنه كان يرفع له في كل يوم مثل عمل أهل الأرض» (٣٤١) قالوا: وإنما كان ذلك التفكر في أمر الله الذي هو عمل القلب، لأن أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض، ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾: على إرادة القول. أي: يقولون ذلك وهو في محل الحال، بمعنى يتفكرون قائلين، والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً بغير حكمة، بل خلقته لداعي حكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك؛ ولذلك وصل به قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: لأنه جزاء من عصى ولم يطع. فإن قلت: هذا إشارة إلى ماذا؟ قلت: إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، كأنه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي: فيما خلق منها، ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً، وفي هذا ضرب من التعظيم كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ويجوز أن يكون «باطلاً» حالاً من هذا، وسبحانك:

---

٣٣٩ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٦٣) للثعلبي في تفسيره من طريق عطاء بن يسار عن أبي هريرة، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة وفي إسناده من لا يُعرف. انتهى.

٣٤٠ ـ أخرجه البيهقي في الشعب (٤/١٥٨)، حديث (٤٦٤٧) باب: في تعديد نعم الله عزّ وجلّ وشكرها/ فصل في فضل العقل، من طريق علي.
ـ وابن حبّان في الضعفاء (٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧)، وأعلّه بالحبطي، وقال: إنه يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات ـ انتهى، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن حبّان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من رواية أبي رجاء محمد بن عبد الله الخرطي من أهل شر عن شعبة عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لابنه الحسن «يا بني، سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: لا مال أعوز من العقل، ولا فقر أشد من الجهل، ولا عقل كالتدبير، ولا ورع كحسن الخلق، ولا عبادة كالتفكر... الحديث بطوله» وأبو رجاء. قال البيهقي: ليس بالقوي، وقال ابن حبّان يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات. انتهى.

٣٤١ ـ قال الزيلعي: غريب جداً.
ـ وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

اعتراض للتنزيه من العبث، وأن يخلق شيئاً بغير حكمة.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾: فقد أبلغت في إخزائه، وهو نظير قوله (فقد فاز)، ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الصمان[1] فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: اللام إشارة إلى من يدخل النار وإعلام بأنّ من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها[2]. تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، وسمعت زيداً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع، لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالاً عنه فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد، وأن يقال: سمعت كلام فلان أو قوله. فإن قلت: فأيّ فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلت: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيما لشأن المنادي؛ لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان، ونحوه قولك: مررت بهاد يهدي للإسلام، وذلك أنّ المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء النائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق ويهدي لسداد الرأي: وغير ذلك؛ فإذا قلت: ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته، ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، وندبه له وإليه، وناداه له وإليه، ونحوه: هداه للطريق وإليه، وذلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً، والمنادي هو الرسول ﴿ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [يوسف: ١٠٨]، و ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وعن محمد بن كعب: القرآن. ، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾: أي: آمنوا، أو بأن آمنوا، ﴿ذُنُوبَنَا﴾: كبائرنا، ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾: صغائرنا، ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: مخصوصين بصحبتهم، معدودين في جملتهم، والأبرار: جمع برّ أو بارّ، كـ رب وأرباب، وصاحب وأصحاب، ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: على هذه صلة للوعد، كما في قولك: وعد الله الجنة على الطاعة، والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك. ألا تراه كيف أتبع

---

(١) قوله: «من أدرك مرعي الصمان» في الصحاح: موضع إلى جنب رمل عالج. وعالج: موضع بالبادية به رمل. (ع)

(٢) قوله: «فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة، فمن يدخل النار من المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بالعفو، كما حقق في محله (ع)

ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول وقوله «آمنا» وهو التصديق ويجوزأن يكون متعلقاً بمحذوف، أي: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً على رسلك، لأن الرسل محملون ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ [النور: ٥٤] وقيل: على ألسنة رسلك، والموعود هو الثواب، وقيل: النصرة على الأعداء. فإن قلت: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد؟ قلت: معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد أو هو باب من اللجأ إلى الله والخضوع له، كما كان الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربهم والتضرع إليه، واللجأ الذي هو سيما العبودية.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

يقال: استجاب له واستجابه [من الطويل]:

.... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[1]

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾: قرىء بالفتح على حذف الياء، وبالكسر على إرادة القول، وقرىء: «لا أضيّع»، بالتشديد، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: بيان لعامل، ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: أي: يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله، أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم، وقيل: المراد وصلة الإسلام، وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين وروي: أنّ أمّ سلمة قالت: يا رسول الله، إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء. فنزلت، (٣٤٢)

---

٣٤٢ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٧)، حديث (٣٠٢٣) كتاب تفسير القرآن باب: ومن سورة النساء. =

---

(١) وداع دعا يا من يهيب إلى الندى   فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت: ادع أخرى وارفع الصوت جهرة   لعل أبي المغوار منك قريب
لكعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه هرم وكنيتة أبو المغوار. و«جهرة» مفعول مطلق مؤكد. و«أبي» مجرور بـ «لعل»، وهي لغة عقيل. واستعمال لعل في الأمر البعيد ـ مع أنها للرجاء والقرب ـ دليل على شدة ولهه وتنزيله البعيد منزلة القريب. وروى: «لعل أبا المغوار» على اللغة المشهورة. يقول: ورب داع إلى المكارم لم يهبه أحد فقلت له: ادع مرة أخرى برفع صوتك، لعل أخي يكون قريباً فيجيبك على عادته، فإنه كثيراً ما يطلب معالي الأمور، وهذا من باب التمثيل والتخييل، لأنه لا داعي في الواقع.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة، وهي المهاجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطرّوا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشئوا بما سامهم[1] المشركون من الخسف، ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾: من أجله وبسببه، يريد سبيل الدين، ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾: وغزوا المشركين واستشهدوا، وقرىء: «وقتلوا»، بالتشديد. «وقتلوا وقاتلوا» ـ على التقديم ـ بالتخفيف والتشديد «وقتلوا، وقتلوا»، على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول. «وقتلوا»، «وقاتلوا»، على بنائهما للفاعل ﴿ثوابًا﴾ في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو تثويباً، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: لأن قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ..... وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾: في معنى: لأثيبنهم. ﴿وعنده﴾ مثل: أن يختص به وبقدرته وفضله، لا يثيبه غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرته، وهذا تعليم من الله كيف يدعى وكيف يبتهل إليه ويتضرّع، وتكرير، ﴿رَبَّنَآ﴾: من باب الابتهال، وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة، من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب[2] موصولاً إليه، بالعمل بالجهل والغباوة، وروي عن جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ﴿رَبَّنَا﴾: أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية، وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ﴿رَبَّنَا﴾: ثم أخبر أنه استجاب لهم، إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به، فلا بد من تقديمه بين يدي الدعاء.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

= ـ والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٠)، كتاب التفسير، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

ـ وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٤٤).

كلّهم من طريق رجل من ولد أم سلمة عن أم سلمة.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي، من رواية عمرو بن دينار. أخبرني سلمة ـ رجل من ولد أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قال: قالت أم سلمة. انتهى.

---

(١) قوله «بما سامهم» في الصحاح: يقال: سامه الخسف، وسامه خسفا، وخسفا أيضاً بالضم: أي أولاه ذلا. (ع)

(٢) قوله: «وتسجيل على من لا يرى الثواب» يريد أهل السنة القائلين: يجوز على الله أن يتفضل على العبد بدون عمل ولا يجب عليه إثابة العامل، وقد حقق في محله. (ع)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، أي: لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب ودرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض، وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون[1]. وعن ابن عباس: هم أهل مكة، وقيل: هم اليهود، وروي أن أناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فإن قلت: كيف جاز أن يغتر رسول الله ﷺ بذلك حتى ينهىٰ عن الاغترار به؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن مدرة القوم ومتقدّمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: لا يغرنكم والثاني: أنّ رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ [القلم: ٨] وهذا في النهي نظير قوله في الأمر ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [النساء: ١٣٦] وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب، لأنّ التقلب لو غرّه لاغتر به، فمنع السبب ليمتنع المسبب، وقرىء: «لا يغرنك» بالنون الخفيفة، ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك متاع قليل وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع»، (٣٤٣) ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: وساء ما مهدوا لأنفسهم.

---

٣٤٣ ـ أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣): كتاب الجنّة والنّار وصفة نعيمها وأهلها: باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، حديث (٥٥/ ٢٨٥٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦): كتاب الزهد: باب مثل الدنيا، حديث (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠)، والحميدي (٢/ ٣٧٨)، حديث (٨٥٥).
من طريق قيس بن أبي حازم، فذكره.
- والترمذي (٤/ ٥٦١)، حديث (٢٣٢٣)، كتاب الزهد باب: (١٥) منه، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد به. انتهى.

---

(١) قوله: «ويتجرون ويتدهقنون» يتملئون ويتمتعون بلين الطعام وطيب الشراب. أفاده الصحاح، في مادة دهق، ومادة دهقن. والأوفق بما في الصحاح: يتدهمقون، حيث قال: قال الأصمعي: الدهمقة: لين الطعام وطيبة ورقته. وحديث عمر «لو شئت أن يدهمق لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال: أذهبتم طيباتكم... الآية» ولم يذكر الدهقنة بهذا المعنى تصريحاً. (ع)

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

النزل والنزل: ما يقام للنازل. قال أبو الشعراء الضبي[من الطويل]:

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ بِالجَيْشِ ضَافَنَا جَعَلْنَا القَنَا وَالمُرْهِفَاتِ لَهُ نُزْلا[1]

وانتصابه إمّا على الحال من «جنات» لتخصصها بالوصف والعامل اللام، ويجوز أن يكون بمعنى مصدر[2] مؤكد، كأنه قيل: رزقا أو عطاء، ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾: من الكثير الدائم، ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾: مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل، وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش، ﴿نُزْلًا﴾ بالسكون، وقرأ يزيد بن القعقاع: «لكنّ الذين اتقوا» بالتشديد.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وقيل في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى ـ عليه السلام ـ فأسلموا، وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة «عطية» بالعربية، وذلك أنه. لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»، فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط وليس على دينه، فنزلت، (٣٤٤) ودخلت لام الابتداء على اسم «إنّ» لفصل الظرف بينهما؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ

---

٣٤٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧)، حديث (٨٣٧٦) من طريق جابر.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف لابن عديّ في الكامل، وللثعلبي في تفسيره، =

---

(١) لأبي الشعراء الضبي. والجبار: الملك العاتي. وضافه يضيفه: نزل عنده ضيفاً، أي إذا نزل بنا الجبار مع جيشه نزول الضيف. وفيه تهكم به حيث جاء محارباً. فشبهه بمن جاء للمعروف طالباً، ورشح ذلك التشبيه بجعل الرماح والسيوف المرهفات المسنونات نزلاً له، وهو الطعام المعدّ للضيف.

(٢) قوله: «ويجوز أن يكون بمعنى مصدر» في قوة: وأما على المصدر، لأنه يجوز... الخ. (ع)
ينظر البيت في حاشية الشهاب ٣/ ٩٤، والبحر ٣/ ١٥٤، والدر المصون ٢/ ٢٩١.

مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: من القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: من الكتابين، ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾: حال من فاعل «يؤمن» لأن من يؤمن في معنى الجمع ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً: كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أي: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعدوه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]، ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: لنفوذ علمه في كل شيء، فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر، ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآت قريب بعد ذكر الموعد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

اصبروا على الدين وتكاليفه، ﴿وَصَابِرُواْ﴾: أعداء الله في الجهاد، أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة: باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصاً لشدته وصعوبته، ﴿وَرَابِطُواْ﴾: وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وعن النبي ﷺ: «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه، لا يفطر، ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة». (٣٤٥)

= وللواحدي في أسباب النزول؛ وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي من قول ابن عباس وقتادة. ولفظه «فخرج إلى البقيع. وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة. أبصر سرير النجاشي» والباقي نحوه، وقد ذكر إسناده إليهما آخر الكتاب. وذكره الواحدي بلا إسناد. ورواه الطبري وابن عديّ في ترجمة أبي بكر الهذلي، واسمه: سلمى، وهو ضعيف ـ عن قتادة عن سعيد بن المسيّب عن جابر دون قوله «ونظر إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، وزاد فيه: وكبّر أربعاً، والطبراني في الأوسط» من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال: «لما قدم على النبي ـ ﷺ ـ وفاة النجاشي قال: اخرجوا فصلّوا على أخ لكم لم نره قط؛ فخرج بنا، وتقدّم النبي ـ ﷺ ـ ووقفنا خلفه، فصلّى وصلّينا. فلما انصرفنا قال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلّي على علج نصراني لم يره قط فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾. انتهى.

٣٤٥ ـ أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٠).

ـ وابن حبّان في صحيحه (١٠/ ٤٨٣) رقم (٤٦٢٣)، كتاب السير باب: فضل الجهاد.

ـ ومعنى الحديث عند مسلم (٣/ ١٥٢٠) رقم (١٦٣ ـ (١٩١٣)).

كتاب الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عزّ وجلّ.

ـ والترمذي (٤/ ١٨٨، ١٨٩)، رقم (١٦٦٥)، كتاب: فضائل الجهاد باب: ما جاء في فضل المرابط.

ـ والنّسائي (٦/ ٣٩) رقم (٣١٦٧)، كتاب الجهاد، باب: فضل الرباط. =

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». (٣٤٦)

= ـ والحاكم (٢/ ٨٠) كتاب الجهاد، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
ـ والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٢)، رقم (٦١٣٤).
كلّهم من طريق سلمان الفارسي مرفوعاً.
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٢٦٧) للثعلبي في تفسيره من طريق أحمد بسنده ومتنه، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد وابن أبي شيبة من حديث سلمان أتمّ منه ولابن حبّان من حديث سلمان «رباط يوم وليلة في سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه جاع لا يفطر، وقام لا يفتر» وأصله في مسلم، ووهم الحاكم فاستدركه. انتهى.

٣٤٦ ـ أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) من طريق أبي بكر بن أبي داود السجستاني ثنا محمد بن عاصم ثنا شبابة بن سوار ثنا مخلد بن عبد الواحد عن علي بن زيد بن جدعان وعطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبيّ بن كعب مرفوعاً في فضائل القرآن سورة سورة.
قال ابن الجوزي: وقد فرق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره فذكر عند كل سورة منه ما يخصها وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داود كيف فرّقه في كتابه الذي صنّفه في فضائل القرآن وهو يعلم أنه حديث محال ولكن بعض المحدّثين يرى تنفيق حديثه ولو بالبواطيل وهذا قبيح منهم فإنّه قد صحّ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «من حدّث عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك. ا.هـ.
وقال أيضاً: مخلّد بن عبد الواحد، قال ابن حبّان منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقات وقد اتفق بزيع ومخلّد على رواية هذا الحديث عن عليّ بن زيد وقد قال أحمد ويحيى: علي بن زيد ليس بشيء وبعد هذا فنفس الحديث يدل على أنه مصنوع... وقد روى في فضائل السور أيضاً ميسرة بن عبد ربه.
قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لميسرة: من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا، قال: وضعته أرغّب الناس فيه. ا.هـ.
قال الذهبي في «الميزان» (٦/ ٣٨٩ ـ بتحقيقنا): مخلّد بن عبد الواحد روى عنه شبابة بن سوار عن ابن جدعان وعن عطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبيّ بن كعب عن النبي ـ ﷺ ـ بذاك الخبر الطويل الباطل في فضائل السور فما أدري من وضعه إن لم يكن مخلد افتراه... ا.هـ.
وقد توبع مخلّد بن عبد الواحد على هذا الحديث تابعه من هو مثله أو شرٌّ منه.
فأخرج العقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٥٦ ـ ١٥٧) من طريق محمد بن بكار ثنا بزيع بن حسان أبو الخليل البصري ثنا علي بن زيد بن جدعان وعطاء بن أبي ميمونة كلاهما عن زر بن حبيش عن أبيّ بن كعب مرفوعاً.
وأسند العقيلي عن ابن المبارك قال: أظن الزنادقة وضعته.
ومن طريق العقيلي أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٣٩).
وقال بزيع: قال الدارقطني: هو متروك.
قلت: وهو آفته. =

وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس». (٣٤٧)

= وللحديث طريق آخر.
أخرجه الواحدي في «الوسيط» (١/ ٤١١ ـ بتحقيقنا) من طريق سلام بن سليم الطويل عن هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبيّ بن كعب به مرفوعاً.
قلت: وسلام بن سليم الطويل، قال البخاري: تركوه، وقال ابن معين: لا يُكتب حديثه، وقال أحمد: منكر الحديث، وقال النّسائي: متروك. ينظر الميزان (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦).
وهارون بن كثير مجهول. ينظر الميزان (٤/ ٢٨٦).
قال السيوطي في «اللالىء» (١/ ٢٢٧): ومن طرقه الباطلة طريق هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي أمامة عن أبيّ بن كعب أخرجه ابن عديّ في «الكامل» وقال: رواه عن هارون القاسم بن الحكم العرفي، ويوسف بن عطية الكوفي لا البصري وهارون هذا غير معروف ولم يحدّث به عن زيد غيره وهو غير محفوظ عن زيد بن أسلم ا.هـ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبيّ بن كعب وسيأتي آخر الكتاب، ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن أبيّ بن كعب، والواحدي في التفسير الأوسط من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

٣٤٧ ـ أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٨) رقم (١١٠٠٢) عن ابن عباس.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٧١): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه طلحة بن زيد الرقي وهو ضعيف.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:
أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف. انتهى.